الأعمال الكاملة

خيرى شلبى

الجزء الثانى

□ الشطار

□ رحلات الطرشجي الحلوجي



الأعمال الكاملة

خيرى شلبى

الجزء الثانى

- الشطار
- رحلات الطرشجى الحلوجى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

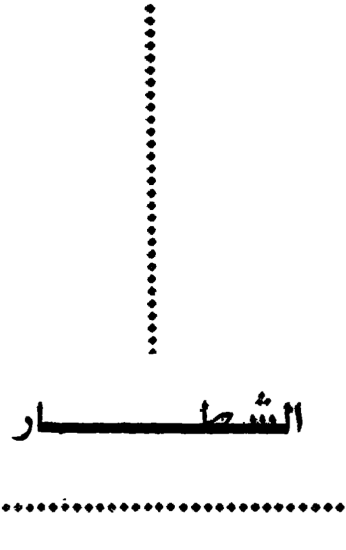
اهداء

الى خالى المرحوم عبد الجواد أبو سليمه .. الذى تنبأ لى ـ وأنا طفل ـ بأن أكون كاتبا ..

والى ابنه عبد الصمد أبو سليمه .. أنشط قرائى .

كلمة وفاء من

خيرى شلبى



الشطـــــــار

باب الشارع

● كيف انتميت الى بنى الأزرق :

ها أنذا قد عدت كما كنت كلبا شريدا بلا مأوى ، بعد أن كان قد صار لى اسم أنادى به وصاحب يسأل عنى وأنبح لحسابه ويطعمنى ويمرر كفه على جلدى ، وبعد أن كنت أطيح فى شارع بأكمله من كلاب العاصمة فلا يوقفنى أحد • حتى لقد أعجب بى كل من رآنى وعرفنى فصاروا يقدمون لى الطعام بأنفسهم اذا عجز صاحبى « كحكوح » عن اطعامى وما أكثر ما كان يعجز أو ينسى وما أكثر ما كنت أقوم بجولات استطلاعية فى الحارة والحوارى المتاخمة أتشمم رائحة من أعرفهم ويعرفوننى •

جبلت وأبناء جنسى على مطاردة الذئاب والثعالب وأشباهها ، لكننى تعلمت فى هذه المدينة وفى صحبة صاحبى أن أقوى الذئاب وأخطر الثعالب هم من بنى البشر • الا أننى لا أتنازل ولا أملك التنازل عن جبلتى ، فما أن يجلس صاحبى فى مكان حتى أتركه وأجلس بعيدا ثم أعود فأجرى نحو الجالسين معه فأتشمم رائحتهم واحدا وراء الآخر ، أنفر فى بعضهم وأنجذب الى البعض الآخر ، أجرى الى الخلاء المحيط فأحدده بقفزات فى كل اتجاه ، أبول هنا قطرات وهناك قطرات وأكمل البول فى المنافذ المفتوحة ، لأكون بذلك قد أعلنت عن وجودى فى المنطقة لأى حيوان تسول له نفسه اقتحامها ، فمن أى اتجاه يجىء سوف يشم رائحة بولى فيتردد كثيرا قبل اقتحام المكان •

في البداية كنت دائم النباح اذ أن النباح هو الصوت الوحيد الدال على الانتماء · لكنني بمضي الزمن وجدت ألا داعي للنباح باستمرار فليس من غريب ، فزبائن صاحبي معروفون ، هم ، هم يزيد عليهم أفراد في صحبة الزبائن الأصليين ، كنت أنبح في وجوههم أول الأمر ، ولكن سرعان ما تبينت ان هؤلاء مثل أولئك زبائن كرماء قصدوا الى محلة صاحبي كحكوح طلبا لمزاجهم ·

لله ما أغرب هذا المزاج · يجلسون جماعات أو فرادى ، أمام كل منهم « ورقته » · أعرف ان الورق هو ذلك الذى تكتبون عليه وتطبعون ما يسمى بالجرائد تغطون بها جثث القتلى في الطرقات · أعرف هذا فعشرات الصفحات قرئت على في تكعيبة صاحبي كحكوح على أنغام كركرة الجوزة · كانوا يغرقون في الضجيج وأنا وحدى الذى أتفرج وأتثاءب من فرط الملل والقرف ، حتى لقد صرت كلبا عبقريا وبعضهم يلقبني بالفيلسوف كلما رآني غير مندفع نحو المهاجمة أو غير مرحب بالدخول في حملة تمزيق لحم وهلهلة ثياب ، فان هم تطاولوا كشرت لهم عن أنيابي وزأرت زأرة واحدة أشم على أثرها رائحة الخوف تتصاعد من جوفهم · انهم عندى بكل ثرثرتهم وثقافاتهم وقلحسانهم كالورق الذى يتصفحونه أو يحبرونه أو يشربونه في غرزة صاحبي كحكوح ، اتصفحهم فأشعر بالملل والقرف ·· لهذا ولغيره فأنا مثلهم في النهاية كلب مثقف ولكن رغم ثقافتى لا أعرف ان كنت مثقفا لأنني كلب من بني الأزرق أم انني كلب لأنني مثقف من بني الأزرق ؟ ··

أما الورقة عند صاحبي كحكوح فهي قطعة من الخشب المستطيلة مدقوق فوقها عشر مسامير بارزة الرأس في صفين متقابلين في كل مسمار يلبس حجر · والحجر ـ وأنتم سيد العارفين ـ هو حجر الجوزة · فوق الحجر دخان معسل ، وفوقه ذلك الذى تشربونه ليل نهار وتخافون من ذكر اسمه ، مثل عشرات الآلاف من الأشياء التى تقومون بفعلها وتستنكرون اسمها وفعلها ··

ليس الميلاد ان يهبط الكائن من بطن أمه الى الأرض ، انما الميلاد الحق هو ابتداء لحظات الوعى بالمكان فى المكان · وهكذا فانني مولود فى غرزة صاحبى كحكوح ومنطقتها · وهكذا فانني أحببت هذه المنطقة برمتها فصرت أعظم مواطن على متنها ، وأظن أن الكلب هو أعظم مثل على المواطنة الحقة · أما طفولتى الحقيقية الأولى فلست أذكر منها سوى ذلك المشهد الكامن دوما فى ذاكرتى ، أتذكره الآن ربما لأنه حدث فى مكان كهذا ، وربما لأننى أشم الآن رائحته ، وربما لأننى عدت شريدا كما كنت من زمن طفولتى البائسة ، ان بؤس الطفولة لا يقاس بعدد سنوات الشقاء ، بل ان الطفولة كالثوب أبيض ربما أفسدته بقعة سوداء واحدة وان كانت صغيرة ·

فوق مرتفع جبلى كهذا كنت ، بكل السعادة ، أصارع أمى صراعا حارا ــ كده وكده ــ هى تفتعل انها عدو يهاجمنى ، أنا أرد الهجوم ، لا يعجبها ردى ، تفعل أمامى ما يجب أن أفعله ، وحدها ، ثم تعود فتنقض على حتى لأتصور انها ستفقأ عينى بأصبع قدمها أو تمزق أنفى بأنيابها ، وهى فى الواقع تقدم لى طريقة الهجوم والتصدى بالذروة التى أحس عندها بالوقوع فى الخطر الحقيقى فيصبح الفعل المضاد بعض سلوكى كنت فى لحظة نشاط وزأطله لم أعهدها فى طفولتى من قبل ، وكنت قد اكتشفت اننى أستطيع فعل أشياء كثيرة يهتز منها بدن العدو أيا كانت قوته ، كما اكتشفت اننى أستطيع ــ وهذه حكمة أمى بنوع خاص ــ أن أستخدم النباح والزمجرة بدقة محسوبة يضاعف من قوتى · يومها رحت أترك أمى متعبة من مزاحى الثقيل ، فأتبختر بعيدا عنها منتصب الذيل مرفوع الأذنين ، أتقافز فى الهواء ثم أهبط عليها من عل ، أو أصعد اليها من أسفل ، فاذا بى أسمع صراخا تمزقت منه أحشائى ، كانت أمى لحظتها مضروبة بنبوت فوق دماغها المحندق الجميل ، وشال من الدم يلفع رقبتها ودماغها · كانت هى قد اشتمت رائحة العدوان وكنت أنا أيضا قد شممتها · أجزم اننى رأيت فزعه أمى لبرهة وجيزة لكن الضربة فاجأتها قبل أن تتحرك ، فأخذت هى تجرى فوق المرتفع الموحش

صارخة عاوية وبسرعة جنونية ، تقع فتتدحرج قليلا ثم تتماسك فتنهض مستأنفة الجرى كالهواء • صرت أجرى خلفها فوق شريط من دمها ممتد كحبات عقد منثور ، لحظة أوشكت على اللحاق بها كانت هى قد صعدت فوق قمة عالية ثم اختفت فى الحال من فوق القمة تماما كأنهـا ذابت فيها • جذبنى شريط الدم المرتبط بأنفى حتى أوصلنى الى نفس القمة فاذا بى أرى فى القاع مستنقعا مترامى الأطراف يمتلىء بأعشاب وحلفاء ، وأمى تنحدر اليه متدحرجة ثم تغيب فى القاع •

ستر ربنا اننى أوقفت اندفاعى مرة واحدة ثم ارتددت الى الخلف بقفزة عالية • كان شريط الدم قمينا يجذبنى الى القاع لولا ان رائحة المستنقع كانت أقوى من كل رائحة ، فاستدرت عائدا أتابع شريط الدم حتى انقطع ، فأخذت أعوى وأصرخ وأنشال وأنحط فوق الأرض الى أن هدنى التعب وكرهت أولئك الذين يتميزون عن جنسنا بكونهم يمشون على قدمين اثنتين ، كرهت بياض بشرتهم وسمرتها على السواء بل كرهت رائحتهم ، وقررت من فرط الغضب والخوف ان أمزق لحم أول من أشم رائحته منهم • ثم اذا بى أشم الرائحة بالفعل فأتأهب للانقضاض وأكتشف أن بداخلى قـدرة كبيرة على الزمجرة • لكننى لأمر ما لست أدريه على التحديد لم أنقض بل لم أتحرك ، انما ركبنى الرعب فجأة ثم انكمشت على نفسى أواصل العواء الواهن من دماغ يكاد يختفى فى الجسد ••

خيرا ما فعلت • فذلك الذى يمشى على قدمين كان وياللعجب تفوح منه رائحة الود • نحيف القوام كالمسلة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، أستطيع الالمام بوجهه كله فيما أنا مقع فى مكانى لا أريم • وجهه ملىء بالأخاديد الباسمة يعانى من جفاف مزمن • أسمر البشرة أصفر الأسنان يرتدى سروالا فوقه جلباب بالطو كالح عرفت فيما بعد أنه كان يرتديه كولونيل المانى فى الحرب العالمية الثانية قبل أن ينتقل الى هذا الجسد عبر عدد من تجار الروبابيكيا • لم يكن يحمل نبوتا ولا شىء يضربنى به ، بل كان بيده أرغفة ساخنة تعطر الهواء برائحتها • كان يمشى فى حالة فلما حاذانى نظر فى مبتسما كأنه يحيينى ••

تسللت وراءه لأرد التحية بأحسن منها · أتراقص حواليه أتشمم ثيابه ولحمه ، يهوشنى تارة ويزجرنى · أخيرا امتدت يده فاقتطعت لقمة كبيرة من الرغيف الساخن ورمت بها تجاهى فسقطت اللقمة بين فكى مباشرة · من شدة فرحى بها لم أشأ زلطها فى الحال دفعة واحدة ، ظللت محتفظا بها بين فكى فيما أنا منساق وراء الرجل ، حتى دخل منطقة بها بيوت وناس كثار وضجيج وزلزلة · صرت أرسم الطريق فى عينى قطعة قطعة · دخل حارة ضيقة مليئة بالدكاكين والصناديق وأبناء جلدته ذوى القوام المسنون والوجه الأسمر الطحينى ·· دخل بابا خيل الى أنه باب بيته فتوقفت برهة كأنما أنتظر أن يأذن لى بالدخول ، فلما رأيته يواصل السير مضيت وراءه من جديد فاذا بنا فى حارة جديدة أضيق من السابقة وفيها هدوء ، وكنت أتراقص من البهجة وأطوح ذيلى ، فما أدرى الا وقطعة الخبز قد انسحبت من بين فكى بكل بساطة ، سحبها كلب عتل ·

سقط ذيلى فالتصق ببطنى وتسللت جريا وراء ذلك الرجل وخيبة الرجاء تذلنى حتى رأيته يصعد سلما ضيقا عجوزا مبنيا من الأسمنت لكنه متآكل الدرجات · صعدت وراءه مسرعا وأنا أظنه قد دخل داره ، لكننى عند الدرجة الأخيرة رأيت تلة منبسطة عليها عديد من البيوت والدكاكين والممرات القصيرة الضيقة · توقفت برهة والدموع تفح الصهد فى عينى فابتلعها · فى الباب المواجه دخل الرجل ثم اختفى · أخذت أتشمم الأرض ، لوقت طويل ثم اننى استرطبت بقعة هامة انطرحت فوقها ورحت أرقب الطريق مستعدا للهب والانقضاض · كان الملل والجوع يفقدانى كل حماس ويقعدان بى ، الا ان الحماس كان يدب فى كلما لمحت ظلا يخرج من أى باب ، الى أن فوجئت بذلك الرجل يخرج الى ثانية ويقبل نحوى فى ود حاملا وعاء به طعام أمامى ، فأخذت أرقص حوله مثيرا ضجيجا هائلا فضربنى الرجل ببوز حذائه فى فمى ضربة آلمتنى · لكن هذه البقعة — مع ذلك — أصبحت مرقدى ومربطى ·

وبذلك صرت واحدا من بني الأزرق بل صرت أزرقيا أكثر من بني الأزرق ، وقرأت كل تاريخهم واستمعت الى آدابهم وأساطيرهم ، حتى ذلك الكتاب الفخم المشهور بين المثقفين منهم ويتحدثون عنه دائما دون أن يقرأوه ، قدر لي أن أقرأه ، اسمه (الزرقانه) وهو عبارة عن سجل فني يحفل بكل صغيرة وكبيرة عن بني الأزرق وان كان على هيئة قصص وحكايات مؤلفة ، ان أردتم له شبيها في دول أخرى فيكون من اشباهه (ألف ليلة وليلة) في الديار المصرية المجاورة و (الشهنامة) في بلاد الفرس و (الالياذة) في بلاد اليونان حسبما أذكر . فان شئتم تعريفا جيدا جامعا شاملا لبني الأزرق فانني أحيلكم على مقدمة (الزرقانة) حيث يقول مؤلفها المجهول :

(بسم الله الرحمن الرحيم). أما بعد فيقول الراوى أنه لما كانت القصص والنوادر موضوعة لافادة الناس وتسلية الخواطر لا سيما قصة بني هلال وما جرى لهم في سالف الأجيال من الوقائع والأهوال التى يثيب لها الأطفال .. فقد رأينا أنه من الأوفق لنا ولبني جلدنا ان نتتبع أمر أولئك الأطفال الذى شيبتهم الأهوال من كثرة الترحال في الخيال .. فاذا بهم قد صار لهم شأن غريب في أحوالهم ، حيث تكونت عندهم حصانة ضد الأهوال امتدت الى ما لحقهم من أجيال فصار الشيب يولد مع الأطفال ، وصار الطفل يأتي ليكافح الأهوال فلا ينتصر عليها بحال ، ورغم ذلك لا ينشغل له بال ولا يصيبه بلبال ، ولربما أطال للأمور الحبال ، فقد علموه في النوادر والأمثال ان احتضان الأهوال من شيم الرجال ..

« ثم انه تكونت من هؤلاء الأطفال قرية كبيرة كبيرة ، لها في كل شيء تعويذة وشعيرة ، يقال لهم بنو الأزرق الملاعين . شعارهم : ولا الضالين أمين . يجرى بين ظهرانيهم نهر خصيب ، لكنه عجيب غريب ، حيث أصبح - وهو العملاق - رخوا في يد الحسيب والنسيب . ويقولون ان واحدا من قدامى الفراعين ، حلاله أن يفعل الأفاتيين ، حول ماءه الى موج سجين ، فصار النهر الى عنين ».

« ولما كان بنو الأزرق قد دربوا على الأهوال من قبل أن يولدوا . فانهم الى الأمان والهدوء أخلدوا • فجاءت سيرتهم سيرة ظريفة مشتملة على نوادر وأخبار ظريفة تتلذذ بسماعها النفوس والأذان والله المستعان •

« وهؤلاء القوم يعشقون النوم وتخلو حياتهم من اللوم • غير اننا نحب أن نوجه ملحوظة غير ملموزة • فبعد ان انتهينا من كتابة هـذه التغريبة الغريبـة ، فوجئنا بظاهرة عجيبة ، وهى ان بعض المدن فى المناطق والدول القريبة لها أسماء تتشابه مع أسماء مدن هذه التغريبة •• فقد سـمعنا ان الديار المصرية مثلا — وهى دولة على حـدودنا الأمامية والخلفية — فيها هى الأخرى مدينة تسمى القاهرة •• فنحن اذن غير مسئولين عن هذه الظاهرة ، فالله يخلق من الشبه أربعين ، وكل مدينة لها قرين •• والدليل على ذلك ان هناك مدنا كثيرة على خريطة العالم تسمى الاسكندرية ، ومع ذلك فلكل مدينة تاريخ وشخصية وهوية •

« فان اكتشف القارىء الجليل انه يعرف مدنا بنفس الاسم الذى يطلق على بعض مدن حكايانا ، أو ظروفا تتشابه مع نفس الظروف فليس ذلك ضمن نوايانا ، وليس هو هدفنا وليس مرمانا • فندعوا الله العلى العظيم أن يكون من الشر ومن خسيس النوايا — قد وقانا » •

ولست أحب الاسترسال فى قراءة (الزرقانة) فهى طويلة وليست فى ذاكرتى كلها • انما أحب القول بأننى أحببت بنى الأزرق منذ اتضح لى اننى فى الأصل منهم غير انى من فصيلة الكلاب ، أى أولئك الذين انحصرت مهمتهم فى الهوهوة على الآخرين بأمر الأسياد من شاكلة صاحبى •

الباب الكبير

● ما كان من أمر صاحبى كحكوح :

– ١ –

كنت أرافق صاحبى كحكوح ، حيث نغرق فى شوارع المدينة وحواريها الضيقة ، لنعود بعد وقت يقصر أو يطول ٠ الغريب أن صاحبى لم يكن يشعر بوجودى الا وهو عائد ، اذ أراه يتلفت حواليه وخلفه كثيرا فأعرف انه في قمة الخوف وعدم الاحساس بالأمان فأطلق هوهوة صغيرة أطمئن بها فؤاده ٠ وكان يبدو منبسط الأسارير ضاحك السن ، أفلم يأخذ هو الآخر مزاجه كما ينبغي ؟ لقد ظل طول النهار يبيع الحجارة للزبائن ويقبض منهم جنيهات ٠ وفى مقتبل الليل يدخل بيوتا غلبانه الغلب كله ٠٠

أدخل وراءه ، فنمر على أسر بكاملها تطل من غرف متجاورة ومتقابلة لنتوقف عند احدى الغرف وندخل دون استئذان أو نحنحه ٠ نرى سريرا ملفقا ، يجلس عليه رجل وحوله مجموعة من رجال محترمين جدا يلبسون

الجلابيب الصوف والبلاطى الجوخ رغم منهم يدفع عشر عشرات من جنيهات ويأخذ ثلاث برشامات صغيرات واحدة اسمها رتيالين واثنتان اسمهما ماكس فورت ، ولـوح زجاج وقطعة حـديد ، بهذه القطعة فوق اللوح يطحن البرشامات حتى تصير مسحوقا ناعما يملأ علبة كبريت ، يفرغ منها على اللوح الزجاجي ويبرم ورقة سميكة يجعلها اسطوانة ، يضع طرفها فى طاقة أنفه والطرف الآخر فوق البرشـام المطحون ، يشفط بأنفه جاعلا طرف الورقة الاسطوانة يزحف على الزجاج ليلتقط أى شعره سارحة . يحمر وجهه وينتفخ بالصحة والعافية وتجحظ العينان فى بهجة بلهاء .

- ٢ -

يفعل صاحبى هكذا مرة كل يوم ويدفع ثلاث ورقات بثلاثين جنيها آخذا معه تموين بقية الليل . واذ نعود الى محلنا آراه طول الطريق يبرطم بكلام أعرف منه ان فلانا وعلانا من بائعى البرشام كانوا صبيانا لديه يضربهم على أقفيتهم قبل ان يصبحوا مليونيرات تسكن فى كهوف ، ذلك ان قرص البرشام الذى يباع له ولغيره بعشرة جنيهات ثمنه فى الصيدلية داخل علبته قرش تعريفه أى خمس مليمات ولكن الصيدلية لا تبيعه أبدا بل ينظر لك الصيدلى فى استنكار اذا سألته عن هذا الدواء ببراءة ويقول من بين أسنانه : « حطوه فى جدول المخدرات » ، ومعنى هذه العبارة فى الواقع انهم وضعوا هذا الدواء فى جدول المخدرات التى لا يبيعها سوى التجار سرا فى الشوارع الخلفية وفى الحوارى . أما كيف يصل البرشام الى هذه الكهوف وأمثال هؤلاء الناس فذلك أمر – كما يقول صاحبى – شرحه يطول .

كل الأمور فى نظر صاحبى شرحها يطول . لذا فهو قد أخذ على عاتقه أن يظل العمر يشرح حتى دون أن يطلب منه ذلك ، يشرح أى شىء لأى ناس فى أى مكان فى أى لحظة . لكن لحظات الشرح تكون مجلوة ومبهجة فى مطرحه ، حيث يجىء له الولد بزجاجة البيرة ليكرعها فى

ثلاث جرعات فيما هو واقف على درجة عظيمة من التحفز والجدية ، بقامته القصيرة وعوده الرقيع وعمامته المصرية المملوكية الكبيرة والبالطو ٠

ينثال حديثه الخطابي مصحوبا بتعبيرات من وجهه ويديه فتحس كأنه متحف شخصيات في شخصية واحدة : على الكسار ٠٠ واعظ من قدامي وعاظ المساجد ٠٠ محام في الأرياف ٠٠ شيخ طريقه ٠٠ ابن بطوطة ٠٠ رمسيس يخطب في امبراطوريته ٠٠ دجال طلى الحديث يبيع شربة الدود أو تذكرة داوود ٠٠ هو كل ذلك حين ينخرط في الحديث أمام جمهوره الغفير ٠ جمهوره ليس سوى زبائنة من أهل المزاج الذين يتابعونه بجدية ودقة عجيبتين ، يرسلون الضحكات الصاعقة من منطقة المتداخل وعباراته الفصحى لابسه ثوب العامية أو التطجين العامى لابسه ثوب الفصحى ، حذلقة وضبط مخارج ألفاظ ليست تنطق هكذا ٠٠ وعلى كل حال فصاحبى قارىء نهم للصحف كأنها تصدر له وحده ٠

– ٣ –

أول شيء يفعله عند خروجه من البيت ظهرا شراء الصحف والمجلات كافة ، يصعد بها الى ربوته ، يفرش الجوال على الأرض الرطبة واضعا فوقه مخدة مصنوعة من القش ثم يضطجع ويفلى الجرائد والمجلات في صبر خرافي ٠ عند منتصف النهار يجيء الصنايعية واحدا وراء الآخر أو قد لا يجيء منهم أحد ٠ فان جاء رأيته دبلان الجسد والوجه يجر ساقية ضائقا بحمل رأسه ٠ يبدأ من فوره في تنظيف الحجارة وتحصيتها وتعسيلها ٠ وان لم يجيء فلابد انه تعب من الفرح الذى استأنفوا فيه سهرتهم بالأمس حتى الصباح ، أو لابد انه قد أمسكته الشرطة للتحرى ، أو لابد انه سلم نفسه للجيش هربا من جريمة ، أو لابد ضبطوه متلبسا فى قضية سرقة ٠٠ حتى الزبائن هم الآخرون لا يتخيرون عنهم ٠٠ من يجيء من الزبائن يجيء ومن لم يجيء « ٠٠٠ » انهم جميعا أحذية فى قدمى ألبسها وأخلعها وقتما أشاء ٠٠

يقول هذا ــ وفى ود عجيب ــ للزبائن أنفسهم الذين يجلسون بجواره على الكراسى القش .. فيهزون رؤوسهم بالموافقة والتأييد كأنه يعنى أناسا آخرين ! .. ثم انه يستأنف قراءة الصحيفة غير عابىء بوجودهم ثم ينفجر ضاحكا ضحكة سوقية حافلة بالغمز واللمز معلقا على خبر أو على شخصية . تدهش أن يستطيع رجل مثله أن يلتقط بمثل هذه الغمزة الزكية المثقفة التى تدل على انه يفهم ويتابع الوضع الانسانى فى أنحاء الكرة الأرضية أنت فى لحظة النفور منه تفجأك لمحة تذبيك فيه ــ يصيبك تعليق من تعليقاته فى الصميم يناصرك فى موقفك الذى لم تحكه له ولم تشركه فيه ولم تعرف كيف أستشف انك محير فى موقف : عراف قديم منحوت الملامح يسلط فيك عينين كخرزتين زرقاوتين كفصين من فيروز أغبر ، يلخص لك أنماط المشاغل والمشاكل والمقلقات الانسانية التى لابد تكون قد مررت بمثلها فى حياتك ، يعطيك بطاقات علاج ، عبارات بليغة مشبعة بالحكمة تتجسد فيها شخصيات عمر بن الخطاب مع عمر الشريف وعلى بن أبى طالب مع على أمين وأقوال الأئمة والسحرة وحكماء الطب القديم مدخولا عليها أسماء أدوية حديثة ، لا ينسى وسط ذلك أن يعزم عليك بتلقيمة من دخان المدغة حين يخرج العلبة ويأخذ منها وريقات مع قطعة من ملح العطرون يضعهما تحت لسانه ويظل يمضغ ويبصق لوقت طويل .. فلان أخذ وعلان جرب وترتان أدمن ، هكذا يقول لك عن أناس مشهورين جدا فى دوائر المجتمع ولهم أسماء كالطبل ، فلا يدهش المستمعون لأنهم كثيرا ما يفاجأون باحدى الشخصيات المشهورة داخلة محاطة بهالة ذاتية ، بل انهم هم أنفسهم من المشهورين وانصاف المشهورين والنكرات ، شلة فلان معظمها من الصحفيين والفنانين ، شلة علان من موظفى التأمينات ، شلة ترتان من المحاكم والمحامين ، من أصحاب البازرات ، من ومن ومن ، لكنهم جميعا قد رخصت شهرتهم وتضاءلت نجوميتهم فى غرزة صاحبى اذ استلبها منهم أعلام جدد لا يعرف أحد ما نوع عملهم بالضبط ولا حتى أسماءهم الحقيقية لكنهم يدفعون البقشيش خمس جنيهات للولد الذى يسقيهم ، بينما صاحب المطرح نفسه قد

لا يزيد حســـابه عن جنيهين وربما نصـف جنيه • الأولاد يعرفونهم ويتبارون في خدمتهم.وباقى الزبائن في انتظار دون ان يجرؤ أحدهم على الجأر بالشكوى ـ صاحبى تطلع زرابينه فيعلو صوته المشروخ على الدوام لاعنـا آباء الحوارى والسـنـجون التى قذفت بهم اليـه يأمرهم بالحد والمصـلحة ، ان يعاملوا الزبائن بذمة واحدة والا يكون البقشيش على حساب وقت الآخرين •• لكن دافع البقشيش سوف يتلقى ابتســامة عريضـــة واعتذارا عميق الأسف اذا ما ترك له مهمــة دفع البقشيش بمعرفته •

تاريخ صاحبى أو ماضية ليس هو فى حاجة لأن نسرده عليك • انه تاريخ ثابت وماض قائم لا يريم ـ كل ما فعله صاحبى فى أزمنه بعيدة لا يزال يفعله ، وكل ما ألم به مسبقا يلم بنا ونحن معه جلوس •

فى الأصل كان تاجر مخدرات ولا تعرف ان كان قد تاب حقا أم ان السوق هى التى لفظته لفظا • وكان صاحب مدرسة للنشل هو ناظرها ومدرسوها ومدربوها • نعم فهو ليس واحدا فى التدريس أو التدريب انما هو عشرات • يدربك على طريقة فلان وعلى طريقة علان من المشاهير فى دنيا النشل وممن قابلوه فى السجن • ويدرس لك أشهر « الضربات » وأقواها • كيف تمكن الولد فلان من نشل كذا فى الظروف الفلانية وفات بها من الفقر ولم يكتشفه أحد حتى الآن •

وصحيح ان صاحبى قد تاب وأغلق مدرســة النشــل ولكنه نقل نشاطه الى مرحلة متطورة • يقول بنفسه ـ لكى يقرب الصورة بعبارات تستخدمها الجرائد على الدوام :

لقد افتتحت مكتبا استشاريا • وأنت تراه جالسا فى ركن بعيد وبجواره لفيف من ذوى ، المعاطف والوجوه القانية والساعات الغـالية الثمن والخواتم الذهب يشربون بشراهة ويكرعون البيرة ويبعثرون على الأولاد بضع عشرات من الجنيهات ، فاذا ما انصرفوا عاد هو اليك ولسانه

يشيعهم بالتحيات ، فما تكاد رؤوسهم تختفي في المنحدر حتى تنقلب عبارات الترحيب الى سب فاحش وبرطمة غير مفهومة • يجلس بجوارك ، يعيد عليك « تلخيصا » للقصة ربما استغرق أضعاف أضعاف ما استغرقته القصة نفسها من زمن وجهد وانفعال • هكذا هو كأى فرد من بنى الأزرق ، يعيش القصة الواحدة أو الحدث الواحد مرتين وربما عشر مرات في اليوم ، المرة الأولى هي لحظة حدوث الفعل بالفعل ، الثانية حين يحكيه حتى لو لم يطلب منه أحد بل حتى ولو كان المستمعون قد شاهدوا ما حدث وشاركوا في حدوثه ، يعيد على الأسماع ما جدث : قلت كذا فقال كذا ففعلت كيت •• وبعد وقت يقصر أو يطول يخيل اليه انه لم يعش الموقف أو الحدث أو القصة كما ينبغي ، فيعيد حكايتها مرة ثالثة ورابعة وعاشرة •

- ٤ -

لصاحبي تاريخ ذو وجهين تستطيع أن تختار أيهما لتسبح فيه الى ما لا نهاية • ان اخترت وجه السوابق وجدت ألف سابقة وسابقة دونتها محاضر البوليس ووقف بشأنها أمام النيابات والمحاكم واستأنف فيها واستؤنفت فيه • أما ما لم تدونه المحاضر فحدث ولا حرج •• وان اخترت وجه العز وجدت ما لا يصدق • فقد جاء حين من الدهر كان صاحبي يمتلك هذا الشارع بأكمله وهو أهم شارع في المنطقة اذ تتمركز فيه تجارات لا حصر لها ، ويتدفق في هذا الشارع وحده من الأموال ورؤوس الأموال ما يصلح ان يقيم دولة عظيمة لكن الذين يملكونه أو يديرونه لا يهمهم سوى المكسب فحسب •

« اللى جه بلاش يروح بلاش » هكذا يقول المثل الشعبي على لسان صاحبي ، فمثلما جاءت هذه الممتلكات الى حوزة صاحبي انسحبت من بين يديه بنفس المنطق الذى أخذها به •

من بلدة أو نجع فى الصعيد الجوانى أقبل الى العاصمة • السبب هو فقيه كتاب النجع • ضربه علقة ساخنة فشاله وهبده فى الأرض ثم انطلق يجرى قاصدا العاصمة التى التجأ اليها عشرات الهاربين فاحتوتهم وقدمت لهم خبزا ومأوى • ظل يرتع فى شوارعها سنوات الصبا ، يفعل أى شىء مقابل الحصـول على القرش ، يمسح الأحذية ، يعمل شيالا ، خفيرا ، نفرا فى الفاعل ، يسرع بعربة بطاطا ، يجرى وراء السياح قائلا : « جبت بقشيش » كان متكلما لطيفا ، كأن مخلوقا أدميا صنعه ، يلفت الأنظار ، كان أيضا حكيما فى سلوكه أمينا ولكن كصفقة يستر بها عريه مؤقتا •

من كثرة التجوال فى شوارع المدينة استيقظت فى نفسه مشاعر جديدة مغامرة ، تيقن خلالها من أشياء وفقد الثقة فى أشياء • تذكر ان له عما مجاورا فى الجامع الأزرق • سأل حتى توصل اليه فى مسكنه ، كان العم ــ شأن كافة المجاورين المغتربين ــ قد منح غرفة ذات رقم فى ضيقة فوق ربوة عالية اسمها الزقاق تمييزا لها عن الشارع الأصلى الكبير الذى لا تتفرع منه أى أزقة أخرى •

دهش العم يومها من رؤية ولد أخيه الجرىء الشقى وتركه يعيش معه فى نفس الغرفة بين زملائه المجاورين فى الغرف المجاورة • فى نفس الليلة علم أن هذه الربوة كلها والزقاق كله تابع لشىء يسمونه وزارة الأوقاف ، وكان الزقاق كله مؤجرا غرفة غرفة للطلبة المجاورين بما فيه البيت الممتد فى الشارع الكبير مساحة كبيرة • فى الليلة التالية استكتب عمه ورقة موجهة الى المسئول تقول ان ابن أخيه كحكوح قد أصبح هو الآخر مجاورا فى « الأزرق » وينبغى أن تتكرموا عليه بغرفة يسكنها اسوة بزملائه المغتربين • ولما عجز عمه عن توقيع الورقة بخاتم الأزرق أخذها هو بعد ان قلوظ نفسه بعمامة ملفقة وجبه أصلها قفطان ، ثم دخل على

المسئول والقى عليه التحية كأنجب الطلاب وأكثرهم لباقة • أسمعه عبارات من التبجيل كبيرة لا يستخدمها سوى الوجهاء وعلية القوم ، فوقعها المسئول فى الحال وختمها ووثقها ورمى بها اليه فى عظمة تليق بعبارات التبجيل المرسلة اليه •

ـ ٧ ـ

منذ ذلك التاريخ وضع صاحبى كحكوح بذرته فى هذه المنطقة ليصبح مؤثرا فيها وفى تاريخها بشكل أو بآخر •• احتجز لنفسه غرفة • وان هى الا شهور قليلة حتى كان يملك فى يده مفاتيح كل الغرف • هو بطبيعته ثرثار وكان الصبية يلتفون من حوله طلاب حفظه تنثال الريالة على داقهم ليل نهار • خلافاتهم صغيرة لكن فضها يحتاج لعقل جبار • نقودهم قليلة بل معدومة وبطونهم تحتاج الى معين لا ينضب • غرباء مكبوتون وفى أعماقهم نفوس تهفو الى التحرر والانطلاق ، فمن يدبر لهم كل هذا سوى هذا الولد السفاة العجوز ؟ الطبخة يطبخها لعمه بملاليم ويوزع بقاياها على الآخرين بقروش ، من لا يملك قرشا يدفع جلبابا أو وسادة أو بطانية أو يدفع مفتاح غرفته عند الأجازة • ذلك ان القروش تكثر وتكثر فى ذممهم خاصة بعد أن صار يستقضى لهم دخانا يشربونه ، ونشوقا يستفيقون به وعجوزا تغسل لهم الثياب • طيبون هم وسيماهم على جوههم ، بضع صناديق خشبية مستطيلة كل صندوق مغلق بقفل مسوجر ومثقوب فوق سطحه ، يوزعها عليهم ثم يوزعهم على الأماكن والنواصى الاستراتيجية : « تبرع يا أخى لبناء بيت من بيوت الله بيت تقام فيه الصلاة » • وفى آخر المساء يتربع كحكوح ، وبلجنة فوق العادة مكونة منه وحده يفض شمع الصناديق ويفرغها فى جيبه ويكافىء كل واحد على قدر ما جمع ، موهما اياهم بأنه يفعل ذلك لحساب احدى الجمعيات الخيرية السرية ، وكل القادمين من القرى تسحرهم كلمة الجمعية السرية ويتطوعون للعمل بها حتى ولو كانت وهما لا يعرفون عنه أى شىء •

لا أحد يسأل كيف آلت كل هذه الغرف لصاحبى كحكوح ولكنه ورثها كلها • هو نفسه لا يعرف كيف تم هذا • لكن ساكنى هذه الغرف أنهوا حياتهم الازهرية وأنهوا علاقاتهم بالأزهر وتفرقت بهم السبل ، وكلما فرغت غرفة سارع هو بوضع يده عليها وشغلها بأسماء وهمية لا وجود لها بين المجاورين ، حتى لقد جاء بأمه وأبيه وأخوته وأسكنهم جميعا فى غرف مستقلة ذات مميزات ، ومنح نفسه حرية التعديل والتجديد كما يهوى ، فلغرفة تفتح على أخرى وسطح يزحف على الآخر ليجمع بينهما جدار ، وهكذا تكونت لصاحبى امبراطورية خاصة • أما كيف استمر هكذا يفعل ما يريد فى غير ملكه فان المسألة — يقول صاحبى — مسألة أوقاف ، أى أنها أملاك لا صاحب لها : ان كل هذه الأملاك فى حقيقة أمرها مجرد أوراق لا قيمة لها تدخل مكتبا لتخرج منه الى مكتب آخر وقد تدخل ولا تخرج وقد تخرج فلا تدخل ، ان القائمين على شئونها ليسوا وحوشا وليسوا يحملون المشانق ، ان هم الا بشر مثلنا يحتاجون الى المزيد والمزيد فوق رواتبهم الضئيلة •

— ٨ —

الحظ أيضا شىء يؤمن به صاحبى ايمانا مطلقا ، ويؤمن فوق ذلك انه حظ أعمى بالفعل يمكن للمفتح أن يقوده حيثما شاء • فلقد حدثت انقلابات متعددة فى تاريخ وقف هذه المبانى • تغير المسئولون وانتقلت مهمة الاشراف على المبانى من ادارة لأخرى ومن ناس الى آخرين وفى كل انتقاله يكتسب صاحبى تثبيتا جديدا بكونه الشاغل الأصلى للعقار • ايصالات النور والمياه والايجار الرمزى التافه لعبت دورا كبيرا فى خلق واقع قائم وراسخ منذ سنوات لصاحبى •

— ٩ —

بنقود الخلوات وايجار غرف الوقف اشترى صاحبى غرفة على الناصية الأخرى للزقاق تطل على نفس الشارع ، ثم افتتحها مقهى يخلب

الألباب ويلعلع فيه الراديو والجرامفون وشاعر الربابة ويؤمها التجار المفتربون ومشايخ العرب والدجالون والمهربون والنصابون · كائنا من تكون على درجة من التريث والكتمان لابد أن تتوسم فى صاحبى خدوما ينفعك في الزنقة · النصابون يميلون عليه فيقترضون منه مبلغا يجهزون به صفقة نصب فيها لقمة عيش · يعطيهم وعند الحساب يأكل هو لقمة العيش كلها ويعطيهم نصيبا ضئيلا · تاجر المخدرات مزنوق فى تكملة المبلغ ليتسلم البضاعة يعطيه ، ولكن تبقى البضاعة نفسها فى حوزته الى أن يدبر ليا سوقا يبيعها فيه بمعرفته ·

– ١٠ –

اصطفاه المهربون فاتخذوه حلقة وصل وفصل – كدبرياج السيارة – بينهم وبين التجار · يرى العينة فحسب ، يبيع منها من أقة الى ما تشاء من الأطنان · هات فلوسك أيهذا التاجر ·· خذ يا عم ·· هات بضاعتك أيهذا المهرب ·· البضاعة فى المكان الفلانى · لا التاجر يرى المهرب ولا المهرب يرى التاجر ، وما بينهما مساحة هائلة هى المساحة التى تحتلها شبكة صاحبى المطروحة لاصطياد فروق الأسعار وما أفدحها من فروق ·

– ١١ –

باب لصاحبى رجال وصبيان يعملون فى كل مكان لحسابه ، الشرطة ليست نائمة فى العسل · تعال يا عم ، ما هذا الذى تفعله ؟ هو أيضا حريص مثلهم على الأمن القومى وعلى أن تؤدى الشرطة واجبها ·· المهربون والتجار لا يستأهلون الشفقة ينشرون السموم وواجبه أن يسلمهم للشرطة وسوف يفعل دون أن يكلفوه ، هكذا يلتزم هو ولن يكذب ، بل سوف يقوم بنفسه بتسليمهم للشرطة يدا بيد · أى نعم ، فالأمر لا يخلو من مهرب سفاح يريد التخلص من صفقة مخدرات مضروبة أى مغشوشة · يعرفها صاحبى من منظرها قبل اختبارها بالتغميس

والشم والقضم وما الى ذلك من اختبارات لا يمارسها سوى الغشيم · كل شيء يبين بالنظر الا الحشيش يبين على الحجر ، مثل يؤمن به صاحبي أشد الايمان ويطبقه حين يشترى ويحرق له مائة حجر على ذمة العينة والاكتشاف ، لكنه عندما يبيع يسب هذا المثل ويعتبره مدخولا · كل بضاعة لها سعر حتى البضاعة التى ينوى صاحبى أن يسلمها للشرطة · الأمر لا يخلو كذلك من تاجر جشع متعب فى دفع الحقوق أو على درجة من التفتيح والوعى تهدد صاحبى ومركزه · يستدعيه صاحبى فيعرض عليه لقمة عيش طرية · يدفع التاجر ثمن الصفقة الا قليلا ، وحين يرسل صبيانه لاستلامها يكون صاحبى قد أبلغ الشرطة التى تذهب وتمسك بالمتلبسين · يزداد عدد القضايا المضبوطة بازدياد عدد المرشدين ، ويرتقى الضابط فيرتقى معه المرشد التاجز أو التاجر المرشد ·

– ١٢ –

هكذا تصبح أمجاد صـاحبى مرآة لنذالته · لكن « بيت النتاش ما بيعلاش » ، كما يقول صاحبى عن نفسه · فلقد انسحب عنه المهربون وأضمر له التجار العداوة والبغضاء « كله على الصرمة القديمة » يعلنها صاحبى صيحة مدوية فى وجه الجميع وهو يعنيها بالفعل · فطالما ان مبانى الوقف قائمة تحت سيطرته فلن يجعل خده مداسا لأحد ·

– ١٣ –

لطالما سألت أنا وطقست عن مبانى الوقف هذه ، من أوقفها ولماذا ؟ فما علمت سوى ان أصحابها الأصليين كانوا يخشون من أولادهم الأشقياء ان يضيعوا ما بناه الآباء بشق النفس فاوقفوهـــا ، أى تركوا لوزارة الأوقاف مهمة الاشراف عليها وحمايتها من أى بيع أو تبديد لتكون ذكرى للأولاد يستر عريهم ويؤمنهم من تشرد ، فاذا لم يعد لصاحبها الأصلى

وريث شرعى آلت ملكيتها الى وزارة الأوقاف تؤجرها وتستثمر ريعها أو تنفقه فى وجوه الخير المتعددة التى يأمر بها الشارع الدينى ٠

وهذه المبانى التى خصصتها وزارة الأوقاف قديما لسكنى المجاورين لا أحد من زبائن صاحبى ـ على وجاهة مراكزهم ـ يعرف ان كانت موروثة لها أو هى من منشأتها ، كما لا يعرفون جميعا أكثر من انها « تبع الوقف » ولكن ما أظن انها أوقفت لمثل صاحبى كحكوح ٠

ـ ١٤ ـ

كان يجلس على منصـــة الماركات يدخن النار جيلة ولا يتلقى من الماركات شـيئا يذكر ٠ أين ذهب طوفان الماركات المنهال على المنصـة حتى انه كان لا يجد وقتا لمراجعة الماركات على محتويات الصوانى فى يد الجرسون ٠ حتى الراديو لم يعد يشجيه صوته ٠ ليكن ٠ فبالأمس جاء له أحد تجار المنطقة الطالعين وساومه على تأجير واحدة من هذه القاعات المطلة على الشارع وبالفعل أجرها وغدا يساومه فى بيعها بخلو رجل كبير ٠

قاعة وراء قاعة امتلأت جيوبه بأوراق البنكنوت وصار من جديد ينفق عن سعة فلما لم يعد عنده غرف تطل على الشارع لم يعد فى جيوبه نقود تطل على المستقبل ٠ جبال الكحل تفنيها المراود ٠ آن الأوان ليستخرج « كيفه » من عمليات جانبية سريعة ٠ لا بأس من السماح لبعض التجار الكحيانين الصغار من الجلوس فى مقهاه للتشاور أو للمساومة أو المعاينة أو حتى التسليم ٠ يصبح فى جيبه تموين أيام وثمن حريقه ٠

بقدر اقبال الدنيا يكون ادبارها ٠ ما الدنيا سوى باب كأبواب جحا ان فتحت لا يأتى من ورائها فتح وان أغلقت لا تحقق أى احتجاب ، تفتح على الفراغ وتغلق على الفراغ ، لكن ظل الباب هو خير ما فى العملية كلها اذ فيه يستظل أقوام ٠

الدنيا أدبرت عن صاحبى كحوح لتقبل على أهل الشـــارع برمته لا أحد يدرى كيف . فجأة انفتحت أسواق التجارة وكثر عدد التجار وحتى الأولاد والصياع والمتشردين أصبحوا سماسرة يمسكون النقود الكبيرة ويركبون عربات تسـمى التماسيح والخنازير والخنافس ويبحثون عن دكاكين يشترونها ليته أبقى على الغرف المباعة اذن لقبض فيها أضعاف ما قد قبض . وهو يعرف ان الذين اشتروها تكفلوا بحل أى مشاكل يمكن أن تنشأ بينهم وبين الوقف ، وتمكنوا من تثبيت أنفسهم تماما ، وتكومت الأموال أمام محلاتهم زكائب وبالات وصناديق لا حصر لها ، وبين يوم وليلة أصبح أبناؤهم ضباط وأمناء شرطة ووكلاء نيابة ولم يعد من الممكن مهاجمتهم من قبل أى قوة . ليصرف النظر اذن عنهم فلن يستطيع استلاب شيء جديد منهم . ماذا يفعل اذن وهذا الولد الصايع يوسطه فى البحث عن مطرح ؟ لم يعد سوى المقهى . لو كانت فى حوزة أحد غيره فى موقعها هذا لصارت جنة تباع فيها الجلسة بأموال طائلة ، لكنها فى حوزته هو تكلفة مصاريف العمال ووجع الدماغ .

فى المساء كان دماغه قد صار بلقعا وشعر انه بحاجة الى الشم عشرات الأدوار ، حتى يعمر دماغه وترن فيه الأصوات والأفكار . لذا فقد فوجىء الولد الصايع الثرى بأن المقهى صـــارت ملكه فيما لا يزيد عن دقيقتين . كانت هذه ضربة معلم من صاحبى لأن ، الصايع الثرى أعمته المفاجأة فقام فى الحال وأحضر المبلغ المطلوب قبل أن يرجع صاحبى فى كلامه وكان مبلغا حسبه صاحبى فوجد انه يوازى ثمن منطقة المشهد الأزرقى كلها من جبل الحوارشى حتى ميدان العتبة الزرقاء فيما قبل عشر سنوات على الأكثر . وفى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى كان صاحبى عائدا من لدن الشمامين ملتهب العينين طائر الرأس فى الهواء ، فحود على المقهى كالعادة ليفتحها ولكنه تفطن فاعتدل مبتسما بمرارة واتجه الى الربوة فصعد اليها ، وجلس على دكة فى الممر وقد شعر انه سيمكث ها هنا وقتا طويلا جدا .

- ١٥ -

باع المقهى ولكن بعض الزبائن لا زالوا يبحثون عنه . انه لا يزال مفيدا . الممر موجود والعدة موجودة والقعدة جاهزة . واحد يجيء بواحد وهذا يجيء بشلة تتبعها شلة فى أثر شلة . صـــارت الجوزة عشرا والحجارة آلافا والفحم جوالات . جرت النقود من جديد فى يد صاحبى . صار يتباهى : لم يعد للنقود قيمة . ما نشتريه اليوم بواحد نشتريه فى اليوم التالى باثنين وربما بثلاث . « كانت أيام » ، كلمة صرنا نقولها كل يوم عن اليوم الفائت مباشرة . الباكوات والأرانب أرقام يتعامل بها الصياع فماذا جرى للدنيا ؟ يأنف المتعاملون من قولة الألف والمليون لأنهم من فرط ثرائهم لا يستخدمون الأعداد المفردة ومن فرط سخريتهم بالأرقام الكبيرة يطلقون على الألف باكو وعلى المليون أرنبا دلالة على انه سريع التوالد والتكاثر . اذا قلنـــا انهم ينهبون فان نهر النيل نفســه قمين بالنفاد . الشارع الخلفى وحده يحفل بآلاف الصياع الأثرياء ممن ليس لهم محلات ولا وظائف مفهومة ولا مسالك معلومة ولا شخصية محددة .. ففيم يتاجرون اذن ومما يكسبون لا أحد يدرى . هذا ولد يبلع فى اليوم الواحد بثلاث جنيهات برشاما مخدرا ، ويأكل بثلاث أو أربع ، ويحشش بخمس ، ويتنقل فى المواصلات باثنين على الأقل ، بله ان يسكن أو يلبس أو يعول أو يعالج فمن أين يأتى بهذا ؟ ها هو ذا أمامك فاسأله : ما هى مهنتك على التحديد يا أخ يسألك البيك ؟ لا شيء طبعا ، لن يقول لك لأنه ربما كان لا يعرف ما هى مهنته على وجه التحديد .

- ١٦ -

قامت الغرزة وصهللت . ولأنها فى موقع حساس وهام فقد صار يؤمها نماذج من الزبائن قلما توفرت فى غرزة أخرى . انها نماذج تتمثل فيها شخصية المكان ، فحيث يتواجد الخواجات السياح مع العربجية مع

التجار مع المثقفين مع السماسرة مع المتسللين مع اللصوص المقنعين والمجرمين والهاربين من طائلة العدالة التى لا تطول أحدا ، حيث يتواجد كل هذا الجمع فى مكان واحد وزمان واحد تنشأ غرزة صاحبى كحكوح .

كان قد قرر ان يتفرغ لأولئك الصياع المليونيرات ليصبح مثلهم ، هل هم أجدع منه كلهم نخالة سقطت من مناخله على مدى الأيام . يعرف أصلهم جميعا دون ان يكلفه ذلك جهازا يعمل أو رجالا تسهر فى الخفاء ، كل ما عليه فحسب أن يحسن الاصغاء لما يدور حوله . ان قصص الناس وهمومهم ـ يقول ـ تتدفق فى نهر الشارع كل لحظة وبلا كلال . يضحك حتى يشخلل طاقم الأسـنان فى حنكـه ، تتلوى ملامحـه وتكتسب مع الاستغراق فى الضحك لمعة جنونية مخيفة كحيوان شرس .

المدهش كيف ان صاحبى وهو يبذل كل هذه الجهود فى الكلام والانفعال والعراك يتابع مع ذلك أخبار الزبائن وهمومهم ودواخل حياتهم . أنا الوحيد الذى كنت أراقبهم جميعا فيما أنا منطرح على الأرض ممدود الأماميتين مسندا رأسى عليهما فى ارتياح بالغ أنقل البصر فيما بينهم حيث ينقسم جدار الظلام بضوء خارج من الباب الجانبى أرى على هديه المجاميع على الصفين وصاحبى يتنقل بينها ليعلق أو يستحث على الاسراع أو يتلقف حجرا من حشيش اشتم رائحته الجيدة . ثم انه يتوقف بجوار الحشيشة الجيدة ليلقى خطبة فى الأخلاق ، تتصور وهو يبدؤها شخصية الشاعر البحترى الموهوب يجوف سوق المدينة يمتدح الباعة بقصائد من در وياقوت فى مقابل أوطاية أو حزمة فجل ، لكنك سرعان ما تباريه فى ضـحكة الصاعق حين تكتشف بعد برهة انه قد شرع يهاجم الأخلاق السافلة التى بدأت تسرى فى المجتمع هذه الأيام والتى يبدو ان هؤلاء الذين يشرب حشيشهم الآن ، منهم ، نعم فلقد ضربوا المثل فى سوء الأخلاق وانحطاطها يا سيد . يثور أحدهم ثورة مسرحية بغية اشعاله أكثر . لكن يثور على من ؟ فمن ذا الذى سيعطيه الفرصة ليثور أو حتى يشرع فى التعبير عن ثورته حتى ولو كانت مسرحية .

صاحبى يرعد فيه رعدة واحدة : « اسـمع يا سيد ـ ويلوى شفتيه ويجعلهما كفتحة كيس نايلون مربوط بعقدة وشنيطه ـ اسمع يا هذا ..

كلنا أصبحنا بلا أخلاق . لا تعارض .. ولد الاسلام غريبا ويعود غريبا .. هكذا قال الرسول .. وها هو عاد غريبا .. فمن الذى جعله غريبـا يا سيد أنا ؟ أم أنت ؟ تكلم يا سيد .. لكن قبل ان تتكلم يا سيد دعنى أتكلم أنا .. انت يا سيد تجلسون الآن وتمتعون أدمغتكم الخربة بتدخين الحشيش الذى تشترونه وزن القرش تعريفه بأربع وعشرة يا سيد .. عشر جنيهات وفوقها أربع .. ثم أنت يا سيد تصرفون على حريقه الشىء الفلانى .. أليس هكذا يا سيد ؟ .. رد على .. رد .. ها أنت ذا لا تريد أن ترد .. نعم .. لأن الحقيقة أخجلتـك يا سـيد .. حقيقة ماذا يا سيد .. من أين لك هذا ؟ لو كنت رجلا قل .. الداهيه ان تقول انك ابن باشا سابق أو مليونير حالى .. غنى حرب حضرتك يا سيد ؟ .. طول عمرك مثلنا فقير حرب .. الا تعرف الحرب يا سيد ؟ .. حرب الحبش ها .. شف يا سيد .. حرب العالم ، حرب فلسطين ، حرب السويس ، حرب الغلاء ، حرب الحرب كلها حرب يا سيد .. انت يا سيد كنت تجلس عندى منذ نعومة أظفارك .. الداهيه أيضا ان تكون نسيت .. كنت تشرب الخمسة وتجرى .. الآن تدفع خمس جنيهات بقشيشا وهى كانت مرتبك فى الشهر منذ سنين قليلة .. لكن أنت تعرف اننى أحبك من زمان وأسعد بلقائك .. بالمناسبة أين فلان الفلانى ؟ ألم تعد تراه الآن ؟ » .

وهكذا كم انهارت فى أنظار الزبائن ـ لا فى نظرى ـ شخصيات منجعصة فى أبهة ، وكم تضاءلت شخصيات نظيفة كل ذنبها ان سقط منها سر فيما هى مندمجة فى الشرب ، لا تدرى ، وكم تصاغرت شخصيات تعرف عن نفسها ان فاخر الثياب وأثمنها لا يستر عريها ولا يستطيع .

- ١٧ -

أكاد أتكلم مثل صاحبي كنفس النمط . لكن عذري انني أصبحت أحمل ملامحه ، صرت أشبهه تماما في كل شيء . مثلما لا يقبل أن يسأله أحد عن شيء أو يستفسر منه أحد عن شيء هكذا أنا الآخر فيما يبدو . انما أنا من ذوقي أقول لكم دون ان تسألوا ان شيئا من كل ما يدور أمامي لا يدهشني ، لانهيار المنهار يدهشني ولا انكماش المذنب المجروح يمعضني ، ولا صفاقة المتعافقين تؤذي سمعي .. ذلك انني أري كل ذلك قبل لحظة صيرورته الى ذلك ، نعم أرى الانهيار والانكماش والصفاقة والمداهنة والممالاة وكل ذلك داخل الناس قبل ان ينزاح عنها بستار السلوك ، انني باختصار أشمها ، أكثر من ذلك أشم رائحة العدوان في الشخص تجاه الآخر بل وتجاهي أنا بنوع خاص في بعض الأحيان . لكنني لا أعمل عقلي بعقولهم ، ولأنني أعرف ما هم فيه من بؤس ودوافع فانني أتغاضى عن ضربة في جنبي موجعة أو في ظهري غادرة . ولقد حسبتها مبكرا ، منذ أن تعودت على أن أشم رائحة الخسة في صاحبي ، منذرا فقته في مشاوير ينثال منها الشر ليغرق أبرياء ويلسع أصفياء . وكنت ملزما بالنباح والزار وعمل اللازم على أكمل وجه كلما رأيته متكعبلا متعثرا في شر أعماله ، ولم يكن يكافئني بأكلة سمينة ولم يكن يحنو على سوى الزبائن بالفائض من طعام يشترونه وهم جلوس . فلما ان تغاضيت عن عدوان صاحبي وهو غريب تغاضيت عن كل عدوان .

- ١٨ -

الا ذلك العدوان الذي يكنه صاحبي لزوجته ، لا أغتفره له أبدا . وقد اكتشفته مبكرا جدا فحقدت على صاحبي قدر ما أحببت صاحبتي .

سمراء هيفاء حلوة التقاطيع تشبع العين لمن يفهمها ويقدرها · بقدر ما فيها من انوثة طاغية فيها من مقومات الرجولة ما يفتقر اليه صاحبي . بل أكاد أجزم أن شخصيتهـا كانت هي الرجل الحقيقي في شخص صاحبي ، فكل تصرف رجالي متزن وكبير أفلت من سلوك صاحبي أخصصت بشخصية صاحبتي فيه واضحة جليه ، هذه الكلمات الشهمة الأصيلة التي تنفلت على لسانه دون قصد منه تكون هي الشحنة الجميلة التي ظلت صاحبتي تعبأه بها طوال السهرة منذ ليالي مضت فيما هو يستمع اليها في امتثال طفولي وخجل غريب وفي عينيه ضراعة لو كان رجلا حقيقيا ما احتاج اليها ·

صاحبتي كانت ملكة غير متوجة وصـاحبي صعلوك ضئيل الجسم يصلح لأن يسرح بقرد في الحواري والقرى أو يكفيه شكله يستطيع أن يقف في أي باحه ليتفرج عليه الخلق ويدفعون نقودا وسوف يدفعونها عن طيب خاطر اذ هم سيضحكون حتى النخاع وبصفاقة ·

في أخلاق صاحبتي كما في جسدها نبالة لا يخطئها البصر كأنها أميرة أسوانية نوبية فرعونية ضلت طريقها فوقعت أسيرة في قبضـة هذا الشرس الشبيه برأس فجلة شائخة · لولاها لعاش صعلوكا حقيرا يبيع نفسه بمليم رغم كل مواهبه · ذلك انه اذ معدن رخيص · كانت هي تدخر له من مصروف البيت ما ستر كثيرا من فضائح جنونه المتواصل في الصرف والبيع والشراء والانفاق على دماغه بسفه خرافي · وكانت تتوسم فيه طيبة القلب والطواعية فلم تتمخض الأيام الا عن نذل جبان · جرذ حقير هكذا قالت له مرارا ·

ويومها كان نشوانا بفضـل الشم والاستحمام في النذالة فرفع حاجبيه قائلا لها : « انت حشرة دنيئة » ، وكانت تعرف انه قالها واقفا على الشعرة الفاصلة بين الشجاعة والجبن حتى لقد تكتك طاقم الأسنان في فمه ، فما كان منها الا أن بصقت في وجهه بصقة كالقذيفة ، بكل هدوء مزيف مسحهـا عن وجهه بمنديل أظنه بلاطة قديمة منزوعة من

أرض ، الشارع ، ثم قال برود : « برضه حشرة دنيئة » ، فشيعت الى وجهه بصقة أخرى أشد من السابقة ، وكانت شرسة كاحدى بنات جنسي الشريدات في الغابات والأحراش لا يعرفن عشيرة الانسان • هذه السيدة الوديعة الرقيقة السمراء الحمراء كطمى النيل وعينين كلون البحر الأزرق والحيتان شمندورتان • كيف انقلبت هكذا فجأة الى فهد يهم بالانقضاض •

الخوف يليق بصاحبى • لكنه البخت الاسود وزلاقة اللسان وانفلات العيار • انزلقت الكلمة عن لسانه كأن شخصا آخر نطقها : « فاجره ، عاهره » ، ربما كان يقلد بها يوسف وهبى ونجح فى التقليد ، فما يدرى الا وفردة الشبشب تصك أنفه وتكاد تفقا عينيه • أعمته المفاجأة وأفقدته الصواب فظل برهة طويلة تلفه الحيرة • حسمتها صاحبتى بأن أطبقت فى خناقه كالفتوة ثم رفعته عن الأرض كأنه السحلية تنتفض مخنوقة بين قبضتها ، الا أنه تمكن من ضفائرها فشدها بغيظ أغاظها وألهب عينيها فأمسكته من أحاليله وقرصت فضربها عدة بونيات فى وجهها فضربتـه بالرأس ضربة أسالت دمه وألقت به على الأرض فاقد الحيوية يعوى ••

وكنت أواصل النباح لا أدرى لصالح من ولكننى نجحت فى تجميع خلق كثيرين خبطوا على الباب وسألوا ما الحكاية • لحظتئذ كانت صاحبتى قد تمكنت من سحب صاحبى من يديه الصغيرتين وجرجرته على الأرض ثم فتحت الباب وألقت بجثته على بسطة السلم قائلة له على مرأى ومسمع من الجمع : « ما دمت أنا فاجرة عاهرة دعنى واذهب الى الاطهار ، عدم المؤخذة يا أسيادنا » ، ثم أغلقت الباب نصف اغـلاق مجاملة للواقفين فاندفعت أنبح فوق دماغ صاحبى المجندل نباحا عاليا شرسا أشهد أنه كان لصالح صاحبى هذه المرة لما وقع عليه من اعتداءات صارخة رغم يقينى أنه يستأهل الضرب بأحقر من هذا •

ما دريت الا بقبضة يده تدفعنى فى أسنانى وخاتم فى أصـبعه يكسر لى سنتى ، وكان أصبعه بين أسنانى ولم يطاوعنى قلبى فى حرمانه

منه ، فأخذت أعوى من ألم وهو لا ينى يناولنى بالقبضة فوق دماغى بغل شديد فيما أواصل الصراخ والفزع • لحظتها انفتح الباب ثانية وخرجت صاحبتى مندفعة نحوه صارخة : « ما تضربوش ٠٠ دا أنضف منك وأرجل منك » ، ثم احتضنتنى وسحبتنى الى الداخل لضاع كل ألم ، فلما أغلقت الباب أقعيت أمامه وجاءت صاحبتى تستحثنى على تناول الطعام •

- ١٩ -

استشعرت خطرا يحدق بسيدتى فصرت أنبح حتى ضاقت بى ففتحت الباب فاندفعت أجرى وهى تشنيعنى متحسرة : « تحن اليه يا كلب » فاستدرت عائدا اليها ورحت أتمسح فى أقدامها ثم اندفعت من جديد أجرى الى غرزة صاحبى •

- ٢٠ -

أخذت السلم الى الربوة فى قفزتين سريعتين وكانت المياه مرشوشة على الأرض تصنع زلقا حلوا ، وصفرة العصارى مرشوشة على الجدران والوجوه • ثمة ثلاث أو أربع مجموعات من الحشاشين يجلسون فى تقارب وصوت الراديو يلعلع بنبرات أم كلثوم فيطغى على كافة الأصوات ويضفى على المشهد سحرا • سحب الدخان الأزرق تسبح فى تهويمات كثيفة كأنها قدر مجهول يمضى الى مجهول • وكان صاحبى متربعا فى نهاية الممر شاحب الوجه ممصوص الدم • تبسم أول ما رآنى وسال على شدقيه تفاخرا جوف كأنه يقول : « كان لابد أن ترجع لى » •

ثمة رجل أعرفه كان يجلس على كرسى بجواره واضعا ساقا على ساق ويجرع البيرة من زجاجة يضعها تحت الكرسى وبجوار صاحبى مثلها • فعرفت أن فى الأمر صيدا ثمينا يستحق أن يطرح عليه صاحبى

هذه الشباك ، فان يأتى بزجاجة بيرة على حسابه لرجل ويجلسه بجواره هكذا أمر لا يفعله صاحبى الا اذا كان سيجنى من ورائه مكسبا كبيرا .

جاء الولد بالدخان فوضع الخشبة وانصرف . قال صاحبى : « رص يا أبو شافيه » . نزع الرجل من خاتمة قطعة حشيش تزن قرشا أو أكثر من النوع الفاخر الذى يسمونه « الهبو » تمييزا له عن نوع « الزيت » ونوع « البودرة » ، وصار يقتطع منها ويضع فوق الحجارة . الزيت فقطعة مبططة فى حجم زرار القميص لأنه أسرع فى الاحتراق ونفسه تصنع نفسا كثيفا جدا من الدخان الأبيض كالجير . أما تعميرة حجر رص الهبو يختلف عن رص الزيت يختلف عن رص البودرة . تعميره حجر الهبو تكونت صغيرة جدا كحبة السمسم لأنه بطىء الاحتراق والتعميرة يحتاج الى شد قوى ليتكثف . أما تعميرة حجر البودرة فقطعة فى حجم زرار البالطو لأنه أو لأنهـا ـ تحترق برائحة النـار مثل أقمشـة البتروكيماويات ونفسهـا فج مهلهل يتعثر فى الخروج من طاقتى الأنف ويثير الكحة ويدوش الدماغ بتهاويل كثيرة لا أساس لها من الصحة .. هكذا تعلمت من البيئة كلها ..

أبو شافيه يرص بسخاء وصـاحبى يسرب النظر الى كل تعميرة تستقر فوق الحجر مع ابتسامة صفراء يقول : « نمنم يا أبو شـافيه داهبو ميحبش الكترة » . فيهز أبو شافيه رأسه فى غير مبالاة . يبرطم صاحبى من بين أسنانه : الله يرحم أيام زمان كنت مش لاقى حجر كبس ودلوقت بتلعب بالهبو لعب » ، ثم يستدرك بلهجة أوضح : « يا أخى طب لما معاك حشيش كتير كده ما تجيب حته ناشفه » . فيشـوح له أبو شافيه فى استهجان . ثم انه أمسك بالبوصة وشفط نفسا كتمه فى أنفه وقال : « تريد أن أتدخل بينك وبين زوجتك .. ليست تنقصنى المشاكل يا كحكوح .. اخلعنى من هذه الوساطة .. أنت تعرف أنه كان بينى و .. عاجله صاحبى : « أعرف أنه كان بينكما استلطاف قديم ولهذا فقد اخترتك لتصلح فيما بيننا لقد تعبت من النوم هنا وأحس برغبة

شديدة فى الاستحمام » · رد أبو شافيه ضاحكا : « الخوف ان تستحم وتستريح قليلا ثم تفسد العلاقة من جديد ·· أعرف طبعك ·· تأخذ غايتك من الشيء ثم ترميه بخسه كأنك لم تعرفه من قبل ·· من لا يعرف خستك يسألني أنا » ·

صاحبى تلقحم حجرا · هو لا يستطيع الرد على أبى شافيه فى هذا الأمر · من هو الآن ليرد على أبى شافيه بندية ؟ هذا حال الدنيا · كان أبو شافيه شيئا وأصبح الآن شيئا آخر · هو الآن معلم كبير يملك محلا على ناصية الشارع فى أهم ميدان سياحى فى وسط المدينة ، ويملك عشرة مخازن على الأقل من بينها واحد فى قلب غرزة كحكوح من الداخل ورجالا يسرحون فى القرى والبلدان يجمعون لحسابه آنية نحاسية وفضية قديمة يبيعها المعوزون بتراب الفلوس ، فيقوم هو بتنظيفها وترميمها وتلميعها وعرضها فى المحل يشتريها السياح بأموال صعبة · يصرف على دماغه وحده مائة جنيه فى اليوم · علبة كبريت ملأنه لتمها ببودرة الشم ، وأخرى فضية ملأنة بالأفيون الخام لزوم شد الأعصاب ، وثالثة ملأنه بالحشيش الهبو لزوم النفسين · يدفع للصبى خمسة جنيهات بقشيشا ويستخدمه فى مشاوير لا يقل ثمنها عن ألف جنيه · يتصبر فى الظهيرة بكيلو كباب وأربع حمامات مشويات · كل مشاكله تنحصر فى ان باعة الحشيش والأفيون أصبحوا يغشون ضمائرهم !

ابتلع صاحبى كل مراراته ومال على أبى شافيه فى ود مسرحى متقن : « ليس أكثر من كلمتين اثنتين : العشرة والعيش والملح ما يجب ان يكون بيننا أنا وهى » · شوح أبو شافيه فى غضب مصطنع : « شف لك غيرى يصلح لهذه المهمة » · وانصرف الى توليع الحجر الذى هو فى نظره أنفع من وجود صاحبى برمته · لكنه كان فى أعماقه يتمنى أن يظل صاحبى متشبثا به فى هذا الموقف بالذات ·

باب السلاملك

● كيف قبل أبو شافية مهمة القيام بالوساطة :

ـ ١ ـ

« أبو شافية » محب قديم لصاحبتي فيما سمعت ، كان فتاها الأمثل يوم كان صبي غرزة وصبي كل شيء .

كان طفلا يوم نسيته أمه في هذا الشارع الحافل منذ أربعين عاما ، ولم يكن متأكدا مما اذا كان قد تاه منها بالفعل أم انها نسيته عامدة متعمدة أم انـه تركها تنساه ؟ كل ما يذكره انه كان يمشي وراءها في الشارع بعد أن ضربته ضربا مبرحا لأنه عجز عن فعل ما أمرته به : أن يكون مسكينا مؤدبا وهو يطلب قرشا لله . ولم يكن يعرف كيف يمكن للانسان أن يرسم نفسه مسكينا وقتما يشاء ، فكان يتصدى للرجل الماشي أو للسائح الجالس على المقهى أو للبائع في متجره قائلا بكل صراحة ووضوح : « هات قرش » فواحد يعجب بصراحته فيعطيه وعشرة ينظرون اليه في استغراب ، وأمه تنزوي به في ركن قصي لتنهال عليه ضربا ..

يومها خفق قلبه خفقة سريعة موجعة وهو يتركها تغيب عنه في الزحام كأنه يجرب الاختفاء ، لم يكن يدري أن التجربة سـوف تنجح فتختفي أمه الى الأبد من حياته مثلما اختفى أبوه ، الذي قيل أنه كان يشتغل في الفاعل فسقطت عليه السقالة ومات ..

- ٢ -

اختفت أمه فظل يبحث عنهـا سـنوات طويلة ، وظل يبحث عن الحجرة التي كانت تنام فيها أمه في حارة سد في حي يركبون له الترام ثم الأتوبيس ثم الترام ثم الأقدام · أبدا لم يعرف كيف يصل ، فظل يرتع في هذا الشارع ، يجمع في اليوم قروشا كثيرة يختزنها في جوفه أكلا وشربا · وكان قد سجل في دفتر السوابق ما دمغ ملفه في وزارة الداخلية بأنه « خطر على الأمن » ، وذلك من كثرة الامساك به والحكم عليه ثم الهرب ثم الايقاع به ثم الهرب · على كثرة ما لف ودار عاشر أقسام البوليس وجرب نوم الحمامات والخرابات وظل السيارات الراكنة والأرصفة لم يجد أحن من هذه الربوة العجيبة ربوة كحكوح العجيب أيحدثك عن جمال الممر وكيف انه شبكة للايقاع بالهواء المتجدد العليل على الدوام ؟ أم يحدثك عن أكبر مئذنتين في المدينة أقامهما اثنان من عتاة السلاطين المماليك في زمن مضى كورق النتيجة أو حركة الساعة ليس غير ؟ الممر كما رسمه أحد رواده برزخ ينحدر من أول دور في المئذنة هابطا الى الربوة في اتصال سلس ، من يجلس في هذا الممر ذات عصرية لابد وأن يعود للربوة مرة أخرى وثالثة ورابعة والى ما لا نهاية ·

- ٣ -

لم يكن مقدرا لأبي شافية – أو الشحات فيما سبق – أن يصعد الى ربوة كحكوح فليس يعرف طريقها الا من بيده الجنيهات الخضراء وهو لم يعرف بعد ملمسهـا · لم يكن يعرف الا ظل التخشيبة والتشرد · للتخشيبة فوائد جمة على أي حال ، أقربها انه تعرف فيها على بلديات صاحبي كحكوح ومعروف لديه أبا عن جد ، قاده الى الربوة ليعمل صبيا في الغرزة · كان ولدا حلو التقاطيع شحنته الليالي السود بأحلام ودودة دافئة ، وملاته الرياح الشريدة حبا في دفء الأوراق الخضراء · الدرس

الأعظم الذى تعلمه فى حياته ان القرش سيد الأخلاق حاكم بأمره وعلى الانسان أن يستحوذ عليه كيفما استطاع فالشطارة أن تكون معك النقود والخيبة أن تحرم منها • شىء من اثنين لا ثالث لهما فى هذه البلاد : القرش أو العدم ••

— ٤ —

كان الشحات ودودا ، يضحك فى وجوه الزبائن ولا يدخر وسعا فى خدمتهم على الوجه الأمثل • يعرف خلة « الكييف » ويعزف له عليها بمهارة : النار القليلة المتوهجة والحجر المضغوط فى مكانه بتخشينة ثابتة والماء فى الجوزة يضرب فى نغم محسوب • أبخل الناس أكثرهم كرما فى هذه اللحظة خاصة عند دفع البقشيش • كحكوح مبسوط منه ومما يثيره فى الغرزة من جو نشط • كالنحلة لا يهدأ : يمروح على النار ، يرش الأرض ، ينظف الجوز ، يسيخها ، يكرس الدخان فى الحجارة ، يخف لاستقبال كواكب الزبائن العتاة ، فليس غيره يصحو لهم ويملأ دمغاهم •

روح يا شحات تعال يا شحات هات يا شحات من فضلك يا شحات بات الشحات نجما لامعا فى ربوة كحكوح العجيبة • تكشف عنده قدرات هائلة ، خاصة قدرته على فض المنازعات بالحسنى مهما كبر حجم المشكلة أو كبر أصحابها ، هو أحسن من يصالح اثنين — موهبة تعلمها من التخشيبات والأرصفة ، حيث يتعين عليك أن تعيش فى غير أرضك وتعاشر غير أهلك وتنام فى حضن شر مجهول الهوية ••

— ٥ —

لا مشكلة أفظع من المشكلة القائمة دوما بين صاحبى كحكوح وزوجته السمراء • دائما أبدا فى مشاحنات وخصام مجهول السبب لهما

فى الظاهر على الأقل ٠ هى طبعــا مشكلة تقوم على عشرات الآلاف من الأسباب ٠ كل يوم والثانى يبقى الشحات حتى آخر الليل اذ هو معزوم على العشاء مع المعلم ، فى الحال يعرف الشحات ان المعلمة متوعكة المزاج وانها لهذا خاصمت المعلم ولوت بوزها شبران تقصد ان تذهب به الى السراية ٠ يبدأ الشحات فى الحال يدبر لدخلة مناسبة على المعلمة ٠ انه يعرف وساخة المعلم وما عليه هو الا أن يقوم بتغطية هذه الوساخة ببعض الزواق على حساب المعلم نفسه : يستدرج المعلم فى الطريق شيئا فشيئا ، فما يدرى المعلم الا وقد اشترى لحما وفاكهة وخبزا طريا ٠٠ دخلة تبش لها المعلمة لابد ، ومن ثم تنشط لها ٠ فهيا نريد أن نتعشى يا أم فلان من يدك الكريمة الطيبة ٠٠

تختلط رائحة المعلمة برائحة الطعام فتملأ البيت أنسا وبهجة ٠ لا بأس أن يتحرك الشحات الى المطبخ ليشعل الفحم ويعد الجوزة لجبسة المساء بعد العشاء ٠ لا بأس فالدار داره وهو صبى المعلم مهما كان ٠ حركة الشحات مثل صبــوته مسموعة فى هــذا الحيز الضيق ، يعرف الشحات هذا جيدا فيجعل لكل حركة صوتا يجسدها به ، حتى الغمزة بالعين يصوتها قائلا : هه باقول أيه ٠٠ أثناء تغيير الجوزة واعداد النار فى المطبخ يحكى لها قصصا وحكايات من تأليفه الفورى مؤداها كيف انشغل المعلم بأمرها طول النهار وكيف أنه يشقى ويجعل خده مداسا للذى يسوى والذى لا يسوى كل ذلك فى سبيلها وحق جلال الله ولو أنها تدرى مكانتها عنده لساقت الدلال أكثر وأكتر ٠٠

حينئذ تضحك المعلمة مجلجلة قائلة : « أما صحيح زى اللى بصحيح ميزة الواد الشحات انه بيقول بشكل يخلينى عايزه أصدقه » ٠ مهما يكن من أمر فان الشحات حين ينصرف يبقى المعلم والمعلمة فى لحظة صفو تطول أو تقصر لا حديث لهما الا عن الشحات ، المعلم يحاول اقناعها بصدق قول الشحات والمعلمة تحاول اقناعه بأنها موافقة على اللعبة ما دامت تنتهى هكذا ٠

- ٦ -

لكن الشحات اذا كان قد صار نجما فى الغرزة وفى الربوة بل وفى الشارع الحافل اذا مشى لا يكف عن القاء السلام ورد الفل والقشدة والتماسى على الوجوه المحيية .. فانه لا يصح أن يصير نجما فى بيت كحكوح أيضا . هذه كارثة . فلقد صاحبى ذات يوم فاكتشف ان الشحات ينام بينه وبين زوجته فى الفراش حتى وهو متمدد على الأريكة فى أى خرابة ..

الشحات الشحات الشحات ما الحكاية يا امرأة ؟ أتحبينــه على ما يبدو ؟ نعم أحبــه لا شك .. تحبينه يا امرأة ؟ .. وما العيب فى هذا ؟ .. أقصد هل تحبينه كما تحبينني ؟ .. نعم بل و .. قوليها بل وأكثر . حاولت المسكينة أن تشرح له أن حبها للشحات يخلو من الدنس العالق بدماغه لكنه لم يعطها الفرصة أبدا .

من صبيحتها خرج الشحات من الغرزة فلم يعــد اليها لسنوات طويلة . ولما جاء البوليس فى العصـــارى ليهاجم الغرزة ويقبض على الشحات الهارب من كذا وكيت لم يجده فضرب كحكوح علقة ساخنة وتركه ومضى . وحتى هذه اللحظة لم يعرف أن صاحبتى المعلمة أرسلت للشحات طفلة صغيرة نادت عليه خلسة فذهب الى المعلمة فأوصته بالفرار لأن زوجها جبلته الغدر ..

- ٧ -

لم يحزن الشحات فى حياته قدر حزنه على مغادرة المعشوقة السمراء . لم يحزن على فراق أمه رغم حبه لها قدر حزنه على فراق « وديعة » زوجة معلمه كحكوح . ظل وقتا طويلا لا يعرف سر هذا الحزن ، ومرت عليه خواطر كثيرة ظن مع كل خاطر منها انه سر حزنه على فراق « وديعة » . قال لنفسه انه لما هرب من أمه كان يهرب من الفقر والتشرد ومن ألم

القرص ووجع الكلام • أبدا لم يكن حزينا على أمه مثلما هو حزين على انه لن يرى وديعة بعد الآن الا صدفه وبين محاذير •• . . .

لم يكن قد عرف فى أمه مثل هذا النبع الفياض بالحنان • صحيح ان أمه مسكينة وكانت تنتقم فى شخصه الضعيف من نذالة الموت وخسة البشر فى المدينة • لكنه لم يعرف من قبل أبدا مثل هذه المشاعر الطازجة الحلوة التى شعر بها منذ أول يوم زار فيه بيت المعلم • أحس لأول وهلة أنه أدمى ، انه أمام أنثى بكل معنى الكلمة كل وظيفتها فى الحياة ان تريك ما لم تكن تراه فى نفسك من قبل ، أول شىء تريكه انك بالفعل رجل وأى رجل ، لا تسىء فهم كلامه من فضلك ، فليس يصور لك عاهرة داعرة تخون زوجها فى سياحة بين أحضان الرجال ، لا والله ، لا • ان وديعة سيدة لا يمكن وصفها بكلام ولا التعبير عن وقعها فى النفس ، فمجرد ظهورها أمامك للنظرة العابرة يوقظ فيك الأشياء الحلوة الطيبة ويشعرك فجأة انك قادر على مواجهة الدنيا كلها بمفردك طالما هى معك ، فما بالك لو نظرت اليك ، فكأن العينين الكحيلتين لم يسبق لهما النظر الى أحد سواك نظرة كأنها الدنيا قد جاءتك مثلما تحكى الحواديت ، أليسوا يصورون لنا الدنيا امرأة تقبل على الموعود لتسقيه النعيم بالهناء والشفاء ؟ فمن تكون امرأة الحواديت سوى هذه ؟ ولئن كانت الحواديت تعود فتصم هذه المرأة بالغدر وادارة الظهر للانسان بعد طول عز فما ذلك الا دليل مضحك على هيافة البشر اذ هم يتصورون ان الدنيا يمكن ان تظل تعطيهم وجهها الصبوح على الدوام حتى ولو كانوا هم ملوثين غارقين فى الوحل والنذالة والسفه ، الدنيا ــ هكذا تقول نظرة وديعة ان ظالتك ــ كالمرآة لابد ان تريك القبح الذى على وجهك

يقول الشحات لزملائه فى الغرزة حواديت يزعم ان أمه كانت تحكيها له فى المساء لا لشىء الا ليدلل على انه كانت أمه تحكى له الحواديت ، وكلها حواديت تدور حول أميرة سمراء وقعت فى قبضة صعلوك لا وزن له فانقلبت الآية وأصبح الخسيس يتحكم فى الأصيل ويحبس حريته ، ولربما تكون أمه قد حكت له اطار هذه الحواديت

فعلا ولكن كل أميرة فيها تمثلت مجسدة في زوجة معلمة وديعة ، وكل صعلوك شرير وكل سفاح وكل مسيطر متجبر تمثل مجسدا في معلمه كحكوح ٠

– ٨ –

أبدا لم يكن الشحات يعرف انه واقع لشوشته في حب وديعة وأن لوثة توشك أن تلطش دماغه ٠ كان يقضي الساعات الطويلة شاردا مع أغاني أم كلثوم ويذوب حرقة فيها ويضبط لها الراديو على الشعرة ٠ لاحظ عليه الولد صديقه قريب المعلم انه قد تخلص من الهزل ومن أشياء كثيرة كانت فيه ، لاحظ عليه أيضا انه استقام بدرجة لا يصدقها الدماغ ٠ ففجأة بعد ان كان الشحات ولدا مخربشا يزور تخشيبة القسم كل بضع ليال ويقف مكلبشا أمام النيابة كل بضعة أشهر ومخفورا بالقفص الحديدى أمام القضاء كل سنة أو أكثر ، صار رجلا بمعنى الكلمة ملء هدومه يعتمد عليه المعلم في أخطر المسائل بل ان زبائن الغرزة يحترمونه أكثر مما يحترمون المعلم ولا يصدقون الا كلمته ولا يأتمنون أحدا غيره على أسرارهم ، الا فظع من هذا ان بعضهم – وهم ذوى مراكز كبيرة وجاه أكبر – يشركونه في همومهم ويتحدثون اليه بها أثناء قيامه بسقياهم ، الأغرب من الأفظع أن الولد بالفعل ماء من تحت تبن كما يقولون في المثل ، لا يفشى سرا ولو قطعت رقبته فان سألته عما كان يدور بينه وبين الزبائن من حديث وحلفته بالأمانة أن يصدق لف ودار وحكى لك أشياء يحلف انها ما حدث ولكنها أبدا لا تكون ما حدث ، فكيف أوتى بكل هذه الكياسة والرجولة والحكمة وهما اخوة في التشرد من الطفولة ٠٠

كان صديقه لا ينى يردد هذه الملاحظات على مرأى ومسمع من الجميع وفي مشهد مسرحى ضاحك والشحات لا ينفعل ولا يزعل بل يكتفي بأن يحصى عليه أمورا تثبت هيافته ٠

- ٩ -

الواقع ان الشحات نفسه لم يكن يعرف سر هذه النقلة الخطيرة التى طرأت على شخصيته فكأنه ارتكز على الأرض حقا بعد طول سباحة فى الفراغ . يقول لصديقه وقد لعب الحشيش برأسه ان فى نفس كل واحد خرابة عبارة عن هديم متراكم ، منا من اذا فحت فى داخله وجدت قليلا من الطوب والتراب فوق حجرات كاملة ومفروشة بالتمام . ومن ذا فحت فيه وجدت ماء مالحا ، ومن اذا فحت فيه وجدت الهديم بلا نهاية ، ومن اذا فحت فيه وجدت بوادر كنز وحينئذ تصبر عليه حتى تصل الى الكنز ، والحريف من يفحت بعنـاية وفن . الشحات أيضـا يعرف « الفلسفة » التى يتشدق بها صاحبه مقلدا عواجيز السجن ولكنه لا يحب كثرة الكلام ووجع الدماغ ، ويعرف أيضا أن نفسه ان لم يكن تحت هديمها كنز فعلى الأقل لن يحوى الهديم ثعابين او عقارب أو صراصير أو عفن الرائحة ، فما الذى يريد أن يقوله صاحبه من وراء هذه التريقات المتواصلة عليه أمام الناس ؟ .

هناك صديقه المخربش رد السجون : « أنت تحبها ، وكل ما تغير فيك بسبب حبك لها .. أنت ولد نمس .. قررت بينك وبين نفسك أن تجعلها تحترمك وتثق فيك .. أتعرف ؟ هى الآن تضع ظفر قدمك فى كفة ورقبة المعلم فى كفة » .

الاشراقة التى سطعت بداخله لحظتذاك كانت سـاحرة ولم تفقد بريقها أبدا .

- ١٠ -

حين هرب الشحات من غدر صاحبى كان قد تعلم من غرزته درسا ما فتىء على مر الأيام يزداد غموضا كلما ازداد تواجدا فى دماغه ، فغرزة صاحبى كما تعلمون يؤمها تشكيلات عجيبة من مثقفين وسوقه وتجار وعلى

كل لون · وقد فتح مخه وأذنيه لكل ما يصدر فى الجلسة من أحاديث تتنوع من مجموعة لأخرى وهو صامت حتى ليكاد يبارينى فى الصمت المشغوف يختطف هنا ورقة وها هنا ورقة · من مجموعة تجار الشنطة يخرج محملا بكافة المشاكل التى يصادفونها ويعيشون نيرها فينسى النير ويتذكر ما فى أيديهم من أموال طائلة ·· الى مجموعة من المثقفين يحمل معهم همومهم وبالفهلوة مثلهم يفهم قضاياهم حق الفهم لولا انه لم يؤت قدرتهم على التعبير والكلام والمنطق ·· الى مجموعة من الصياع والمتشردين يقف معهم على آخر ما ابتكر فى أســاليب النشل والغش والنصب والاحتيال ·· الخ ·

علما انه كان يتلكأ عند كلام المثقفين فيتعلم منه الكثير ، وأبلغ درس تعلمه وصار يكتشف على مر الأيام جلاءه هو أن أربح تجارة فى البلاد هى المخدرات والسياسة ، فبعد ان كان فى البلاد عسكر وجند وخفراء صار فيها ما لا حصر له من أنواع العسكر والحكام ، أما السياسة فليس له فيها وأما تجار المخدرات فانهم يرتعون فى البلاد ويقيمون العمائر ويغنى النجوم فى أفراح أبنائهم ، انهم باشوات هذا العصر دون منازع ، يتمركزون فى حارات وأحيــاء مغلقة ويدخلون مع العســكر فى حروب ومناورات ومخططات ، يحاربهم العسكر لا باعتبارهم أفراد يسهل القبض عليهم بل باعتبارهم مؤسسات تقوم على عائلات متشابكة متعددة المصادر والمنابع والشخصيات ، لكل شخصية عدة أسماء يشتهر بها للتضليل على سجلات الحكومة ، مهاجمتهم أمر تهرع له الصحف بمصوريها حتى لتنشر الصحف ذات يوم ان الهجوم على احدى هذه الحارات كان عبورا ثانيا ·

ـ ١١ ـ

يوم الهرب قصــد الشحات من فوره الى مقهى مرخص فى الحى المتاخم · صاحب المقهى يتجاوز الحدود قليلا اذ ان ابن أخيه يعمل مخبرا

سريا ويبلغه أولا بأول مواعيد الحملات ، فيسمح لذلك بشرب الحشيش فى مقهاه ولكن على « البورى » هربا من مظهر الجوزة ، فالبورى ـ أو الشيشة فى الأصل ـ قد يوهم المشاهد أن الشرب دخان معسل فحسب .

جلس الشحات وطلب شـايا ثم انه قام وفعل عدة حركات على النصبة وحوض المياه أفهم بها المعلم انه صنايعى وابن كار ، وبهذا قدم نفسه لصاحب المقهى فتركه يتمادى فى خدمة الزبائن . وفيما هو يخدم زبونا همس فى أذنه سائلا عن أحد يبيع الحشيش فأومأ الشحات برأسه هامسا : « أنا أجيب لك عايز أيه ؟ » . منظر الولد يغرى بالثقة ، فشكله أقرب الى نظافة الزبون منه الى غبار الصنايعى . نفحه الزبون ثلاث جنيهات وطلب قطعة من الهيبو المعتبر ..

اختفى الشحات فى احدى الحارات . ولو تابعناه لوجدناه قد دخل آخر بيت فى الحارة وصعد سلم الدور الأرضى ثم طرق على باب الشقة الأولى على اليمين ثم تمر برهة تظلم خلالها العين السحرية فى الباب ثم ما يلبث الباب أن ينفتح .. فيسلم الشحات كأى ضيف ثم يدخل الى حجرة صالون مجاورة للباب مباشرة وقبل أن يدلف اليها تكون همستة قد دلفت هى الأخرى الى أذن من فتح الباب : « ربع » ، فبعد برهة طويلة جدا يدخل عليه الشخص بما طلب ، من حسن الحظ ـ كما تمنى ـ فتحت له « البَتعة » بنفسها .

جلست بجواره قائلة : « خير يا شحات ؟ » قال : « خير .. عايز ربع » قالت بابتسامتها العريضـة : « لك ولا حتشربه ؟ » قال باسما « لى » . قالت وقد ظهرت أسنانها اللولى : « يعنى حتاكل فيه عيش » . قال ببسمة مرتعشة : « عليكى نور » . برمت كفها حـول رأسها : « انت سبت كحكوح » . حكى لها الشحات ما حدث بالتفصيل ، حتى أسراره وحبه لوديعة كاد يندب ويحكيه أيا كجزء من المشكلة . هى الأخرى تابعته بكل انفعال وهدوء ، فلما انتهى من كلامه قامت وغابت فى الداخل برهة عادت على أثرها وغمزته فى كفه بقطعة حشيش كبيرة

طيبة الملمس ، حجمها لا يقل عن ربع أوقية ، أى ما يباع بأكثر من عشرين جنيه هذا الصنف بالذات .. فهل يمكن أن تكون الغازية أو الراقصة أو احدى عوالم الفرح رقيقة وانسانة بهذا الشكل ؟ الغريب انها ردت اليه الجنيهات الثلاث ، وقالت له : « ربما وجدت لك لقمة عيش بجوارى ».

- ١٢ -

موهبة من الله ان تكون قادرا على فض المنازعات بين البشر . بهذه الموهبة وحدها كبر الشحات فوق عمره الحقيقى أضعاف أضعاف ، وأصبح يمشى بين رجال من علية القوم كأنه مثلهم بل المفضل عليهم ، وقد تعود الناس فى الحى كله الا ينظروا الى ملبسه أبدا ، بل يتعلق بصرهم بوجوده لأن وجوده سوف يحل كثيرا جدا من المنازعات صحيح أنه يفضها بطريقة تبدو لك بعدها غاية فى البساطة ويستطيعها كل انسان ، لكنك لا تستطيع أن تقول هذا على سبيل الاستنكار لأنك لن تكون فى مثل شجاعته عند النطق بقول يحسم المسألة :

من ثم لم يعد بحاجة الى العمل كصبى فى مقهى ، لكنه بحاجة الى مقهى يجلس عليها وتكون مركز مملكته الخاصة . وقد وجدها ، ظلت ملكا لصاحبها لكنه قام بترميمها وتجديدها على حسابه وجلس يستقبل فيها عملاءه وزبائنه ، ومن وراء ظهره طائفة من صبيانه يبيعون بالقطاعى ، ولد يمسك شكارة يستقبل فيها النقود ، ولد آخر يمسك ميزانا صغيرا ، ولد ثالث بيده الحشيش يقضم ويزن ويقبض ليدفع الى الشكارة ، حتى اذا ما امتلأت الشكارة استدار الولد فى عتبة الدار التى يقفون أمامها ثم صعد الى حجرة قريبة حيث يفرغ الشكارة فى صندوق وينزل مسرعا . كوكبة الصبيان هذه تبيع فى اليوم الواحد بعشرة آلاف جنيه على الأقل .

- ١٣ -

فوجىء أهل الناحية كلهم ان « البتعة » لم تعد تستقبل أحدا من الزبائن أو الزوار في صالونها العتيق الأنيق الثمين · لم تكن تستقبل سوى الشحات · واذ بدأت الأفواه تلوك سيرتهما فوجىء الجميع بأنهما قد تزوجا · واذ بدأ الطامعون فيهما من قديم يرفعون رءوسهم كان الشحات قد أصبح قادراً على شراء الأمن بأغلى ثمن ، كما أصبح أحد كبار الاعلام فى المنطقة برمتها ·

- ١٤ -

الخنزيرة - أى العربة المرسيدس ٢٠٠ - تفاجئك وأنت تدخل الحارة ، واقفة فى رحبة على قدها كأنها فصلت لها ، صفراء فى لون الكناريا ، تدهش كيف لمثل هذه السيارة ان تتواجد فى مثل هذه الحارة السابحة فى الوسخ والقذارة · لو ان عرق السكان وحده يسيل بكثافة السكان لأغرقها الى شوشتها ، فما بالك بمياه الغسيل والاستحمام والمجارى ؟ كل ذلك متروك نشأته فى الحارة الطويلة المتعرجة ·

- ١٥ -

كنت أقول لنفسى كلما دلفت الى هذه الحارة : من ذا الذى يهتم بتنظيفها وكل من فيها من السكان لايشعر انها له · ساكنو البيوت من موظفى الدرجة الثامنة أو حتى الثالثة أو الأولى ، أولادهم يتقاسمون المرتب بالقسطاس ويذهبون الى المدارس والكليات شبه حفارة يسخر منهم بقية السكان من الحرفيين والصناع ·

يسيطر على الحارة عدد مهول من تجار المخدرات يملكون فى المنطقة دورا ودكاكين ومقاه وعائلات كالفل أفرادها • نصف الحرفيين تركوا حرفهم البطيئة الكسب وانضموا الى الصياع وأصبحوا ضبيانا وناضورجية لدى تجار المخدرات • من كان منهم قوى البنية ينتمى الى عائلة كبيرة من الناس أو عائلة كبيرة من السوابق افترش لنفسه بقعة واحتلها بكرسى وترابيزة ترتص فوقها أصناف الحشيش والأفيون وأكوام الفلوس الفكة • أما ان كنت من أهل البلاد فانك بقدر قادر تتحول فى هذه المنطقة الى شىء من اثنين : اما سائح وأما قطعة عاديات تمشى على قدمين يتفرج عليها السياح الأصليين وربما وساومهم على بيعها أحد كبار النصابين وما أكثرهم فى الحارة •

تستطيع أن تدلف من سوق الخيط الى سوق الخيم الى سوق النحاس الى سوق الخضار الى سوق الحشيش ، حيث تتراص الترابيزات فى الشارع وتلمع فى الجو أسلحة المطاوى الشهيرة • كل واحد من هؤلاء يقيم لنفسه أحتياطات أمن مشددة ، أليس يحمل أموالا ؟ كل من يسيرها هنا يحمل لفة أو حقيبة أو جوالا فهو على الارجع يحمل بداخلها نقودا أو مخدرات ، حتى هذا الرجل الغلبان صاحب الغرزة المتنقلة مشكوك فى أمره من قبل الرواد المشترين لمزاجهم • حرفوش هو يلبس الجلباب المشمر من فتحة جانبية ، فى يمينه صينية كبيرة ، وفى يسراه أخرى ، الأولى عليها الوابور مشتعلا وفوقه البراض بحامل يحميه وحوله عدد من الكنكات مختلفة الأحجام وعدد كبير من الأكواب النظيفة وأبريق كبير مملوء بالماء النظيف كل ذلك معد فى ربطة واحدة •• الصينية الثانية عليها جوزة وبرطمان وكومة حجارة ووجاف نار وطبق دخان معسل ، يمر فى الشارع دونما هدف بغيته ، يناديه صاحب دكان أو فاكهى أو خضرى سريح أو زبون حرمان اشترى الحشيش لتوه ، فيستوقفه كما تستوقف ماسح الأحذية ليمسح لك الحذاء واقفا فى الطريق العام ، فصاحبنا يضع على الفور عدته على الأرض ويفاجئك بأن معه حجارة مرصوصة أربعة وعشرين •

قيراط وما عليك الا أن توقع عليها بامضاء الحشيش من يدك الكريمة فيما يكون هو قد انتهى من صحن النار فى المصفاة واعداد الجوزة ثم ٠٠ قل بالصلاة على النبى ٠

تشرب لك العشرة أو العشرين فيما لا يزيد عن عشر دقائق ٠ فان داهمكم البوليس فان ألف ناضورجى يكونون قد أرسلوا الاشارات فحدثت موجة من الذعر تختلط فيها الأشياء ببعضها وتنقلب . يجرى ناس وتغلق أبواب ويزوغ المخربشون ويقع في القبضة الأبرياء والضعفاء وأبناء السبيل ٠ كم من أصحاب غرز متنقلة اتضح انهم من البوليس فماتوا من الضرب ولم يعد أهل الحارة يسمحون لاحد بممارسة أى عمل فى الحارة ما لم يكن معروفا لديهم أو من طرف أحد المعلمين الكبار ٠ أعرف صاحب غرزة متنقلة من هؤلاء تعب من الغرزة المتنقلة على كثرة ما اكتسبه ، فافتتح لنفسه بنكا فى الحالة أسماه بنك الفكة ، عبارة عن تصف دكان هو فى الأصل جزء من مدخل عطفة صغيرة حوطوا عليه بالبناء ثم ملأوه بثلاث بنوك صغيرة من الخشب الحبيبى المغلف بالفورمايكا الانيقة ، وليس هو جبة وقفطانا وجلس على كرسى خاص فى المدخل ، ولديه ستة من أولاده فى عين العدو أربع صبية وبنتين ، هما والوالد الصغير وراء البنوك الثلاث . والثلاث أولاد الكبار يتجولون بالدراجات فى أسواق البلد وحاراتها ليل نهار يبيعون الفكة لمن يحتاجها نظير عمولة صغيرة ، فى حين يجلس الأب طول النهار والليل يستقبل الفكة من تجار المخدرات ليجمدها لهم فى أوراق كبيرة نظير عمولة قدرها واحد فى المائة ، حيث يجيء صبى التاجر بالشكارة البلاستيك الكبيرة فيفرطها على البنك معلنا قدر ما فيها ، وتتوالى البنت بهدوئها العظيم تصنيفها ثلا عدها لتتولى البنت الأخرى صرف المتجمد ويتولى الولد توزيع الفكة وربطها وتغليفها في وخدات وتدوين الحسابات هنا وهنا وهنا ٠ هذا الرجل ــ على فكرة ــ أحد زملاء صاحبى في جلسات الشم رغم انه حج سبع مرات ويذبح فى مولد الحسين بن على وحدة ثلاث أو أربع عجول يوزعها على أهل الله ، وان أبديت عجبك من

تضيعه لخمسين أو ستين جنيها فى جلسة شم واحدة ، رد عليك أمثال صاحبي فى استنكار بأنه يملك نهرا من الفلوس فلينزه نفسه ، وربما أضاف بان الله يحب هذاويحض عليه : ان الله يحب عبده النزيه ، وويل للذين يكنزون الذهب والفضة ٠٠ الخ ٠

ـ ١٦ ـ

بقدر ما فى هذه الحارة من فقر مدقع وعوز يوجد فيها من الأموال ما يفوق الحصر لو انك عدت الى الجرائد التى قرئت على فى غرزة صاحبى كحكوح عن الايقاع بصفقات مخدرات وبكبار تجار ووجدت أن أخبار عالم المخدرات نشرة يومية حافلة فسوف تقول فى نفسك : أى خيال هذا ٠ فماذا أقول أنا الذى درجت فى الحارة متهدل الاذنين منكس الذيل من كثرة ما رأيت من ظلم وابهة ، أبهة عالية ، بقدر علوها تخفى فى أحشائها فاقة وكـدرا ٠

على ناصية الحارة دكان أنيق مصروف عليه ثقله ذهبا ، تحار فى ماهيته بالضبط ماذا يبيع أو ماذا يشترى أو ماذا يفعل لا أحد يدلك على الاطلاق ، لكن ألفا وألفان يتطوعون قائلين لك اذا ما سألت وفى استنكار : « انه محل الحاج عثمان كزبرة » ٠ فمن هو الحاج عثمان كزبرة ، هكذا تسأل انت فى سلامة نية ٠ حينئذ ربنا يستر ، قد تنال صفعتين على قفاك أو بوكسين فى بطنك أو زغدتين فى جنبك ٠٠ فمن انت حتى تسأل عن الحاج عثمان كزبره كأنك لا تعرفه ؟ لابد انك مرشد بوليس أو مباحث ، لابد انك مبعوث غشيم يستحق الأدب والدرس القاسى ، أو لابد انك غريب عن الحى لا تعرف لمن الخضوع والخشوع ها هنا ، فها الاجابة ٠٠

ان جذب شكلك احترامهم وهذا ما ندر عندهم عدم المؤاخذة ـ فسوف يصيح بك جالس على المقهى المواجه : « اتكل على الله ياستاذ ربنا يهدينا ويهديك » ٠ فان تنحت قليلا واردت الثأر لكرامتك عن هذه الاهانة صاح

بك آخر في هدوء ينذر بالعاصفة « نهارك أبيض يا أستاذ ٠٠ نهارك أبيض بالصلى على النبى » ٠ ستأخذك الدهشة البالغة لابد ، اذ لم تكن تتوقع ان هذه الثياب الفاخرة التى سبق ان لأيتها على أجساد نجوم السينما العالمية محشوة بهذه الاجساد الشرسة الممسكة بالمطاوى قرن الغزال ٠

غير أن الأرض لابد أن تنشق عن رجل طيب أو سيدة طيبة تغمرك فى جنبك وهى تمشى هامسة لك : « امشى يا ابنى ربنا يكفيك شرهم » ٠ ولابد ان تمشى فى النهاية وأنت صاغر ٠ سوف تعرف بعد طويل بحث وتردد على هذه الحارة ان الحاج عثمان كزبرة مهرب كبير وان دكانه فى الظاهر دكان مقاولات ٠ صحيح ان شكل الدكان لا ينبىء عن هوية معينة ولكن هكذا يقولون ، ثم هو يملك ثلاث عتبات فى غرب المدينة كل منها عمارة فارهة ولكل ولد من أولاده سيارة بيجو خاصة وعمارة خاصة ورصيد خاص ومشروع استثمارى خاص ٠

— ١٧ —

تحار فى هذه الحارة أيهم فيها هو الأكبر ٠ فكلهم كبار وكلهم فل - أقام أحدهم فرحا لابنته نظمه له الحاج « سالم زغاليل » وهو من زبائن صاحبى الاصلاء ٠ فى هذا الفرح رقصت وغنى كل نجوم التليفزيون والاذاعة والسينما ٠ حتى ليقول من شاهد الفرح أن صاحبه أكثر رأس فى البلاد ، حيث سد شارع الأزرق من العتبة الى القرافة ، وامتنع تدفق السيارات على الميدان الا سيارات المهنئين والمشاركين حيث تمرق مسرعة فى زوبعة من الصياح المرح وقد زينت السيارة بالورود ، وكانت أصوات الكلاكسات هى الايقاع الأعلى ، فلما أقبل موكب العروس يزحف على مهل تزفه أكبر راقصة فى البلاد وتتابعه كاميرات السينما والتليفزيون خيل لبعض المثقفين المشاهدين انهم يشهدون فرح قطر الندى على صورة عصرية ، وها هو ذا الموكب يسرى الى مستقر له ولكننا ننعطف يمينا على مدخل الحارة الملاصقة للأزرق الشريف حيث انتصب الفرح سرادقا يمتد على مساحة نصف فدان ،

على الجانبين مجموعات تبدأ بكبار تجار المخدرات فى المنطقة كل منهم يمتشق سلاحه الذى يبدأ بالمسدس وينتهى بالمدفع الرشاش ولكل منهم تابع يحمل الذخيرة ، ثم تمتد صفوف المجموعات على الجانبين فترى كافة نجوم السينما والتليفزيون منهمكين فى غوغاء المزاج يشربون ويكحون ويتمخطون ويدمعون ، فى الوسط بقية المدعوين وصاحب الفرح بجلبابه البلدى وطاقيته وبلغته البيضاء ممسك بالخيزرانة وينهال ضربا على المتطفلين لابعادهم وينحشر فى جولات رائحا جائيا يلقى على كل ترابيزة بقطعة حشيش كبيرة يحيى بها المدعوين ٠

الذى لا يعرف يقول عدسا ، والمشاهد الغشيم يقول لدى رؤية كل هذه الأبهة ان الحاج كزبرة هو أكبر شخص فى عالم المخدرات ٠ ولو تماشى مع الأيام لكشفت له أن هذا بكل ضخامته مجرد صبى يموله فلان ٠ أنت حشاش أليس كذلك ؟ اذن فأى تعميرة تدفع فيها دم قلبك مهما علت أنفاسها اذا قلت متفاخرا انها من فلان فلابد ان يفاجئك أحدهم بأن الأعلى عند فلان ٠ فمن هو فلان هذا الذى لم أسمع به من قبل رغم اننى لفاف وأعرف كل باعة المخدرات فى كل الأحياء ؟ ٠٠ هكذا تقول أنت لنفسك ، فاذا بفلان هذا أشهر من نار على علم واذا به اسطورة جديدة عليك قديمة على الأقدم منك ٠

شارب الحشيش يعرف كل يوم الجديد والجديد عن غفلته ٠ لكن آخر ما سيعلمه ـ رغم انه معلوم وبديهى من الأصل ـ انه مثلما لكل محافظة ولكل بلد حاكم ، فلكل جى في المدائن تاجرة الأسطورة أو تجارة الأساطير، الذين يتضح انهم بدورهم أكبر من ناس وأصغر من ناس آخرين ٠٠ ناهيك عن قرى بأكملها وعزب وكفور تعتبر مجرد مخازن لرءوس فى عالم المخدرات لا يفوقها حصر ولا تقاومها ابادة ٠

وربما لم يكن الشحات أكبر اسطورة فى الحارة لكنه بالتأكيد أشهرهم وأذكاهم • فلعله أول من أقام للبيع طابورا كطابور الجمعية الاستهلاكية أو أشد كثافة • يشجع أحد الناديين الكبرين ويرسل الهدايا للاعبين وينفق على شرفهم بشكل جنونى حتى لقد أصبحت شهرته توازى شهرة النادى نفسه وأصبح كبار المشجعين يتجاهلون مهنته اذا ما وردت فى الحديث قائلين مع هزة يدهم نحو رءوسهم : « معلهش مالناش دعوة » يصادق نجوم الفن ويجاملهم بالهبو الفاخر ليبيع لهم الجلة الناشفة بثمن فاخـر •

الشحات لا يقبل المنافسة ولا يقبل اللعب فى السهل الرخيص فأمسك عن البيع وأعلن توبته عن الاتجار فى الصنف نهائيا ، والدليل على ذلك هذا المحل الذى اشتراه فى أكبر ميدان فى وسط العاصمة الكبرى • لا لم يكن دكانا واحدا وانما هو براح بعرض ثلاث عمارات كبيرة ملتصقات لمالك واحد تطل على نواص أربع • كان صاحب العمارات الأصلى قد أعده فى الزمان الأول لمبيت سيارات السكان باعتبارهم جميعا من أصحاب السيارات أيام كان القرش غاليا تدفع فيه عرقك ومعاناتك ، لكن الزمن جار فجأة على السكان واعتبرهم ـ دون منطق مفهوم ـ من درجات دنيا من البشر لا يستحقون رأفة ولا شفقة ، فى حين رفع شأن الرعاع واللصوص وتجار المخدرات والسموم والآلام فأصيب علية القوم من السكان بأحقر الملاك ، ولما كان سكان هذه العمارات كلهم من ذوى الشأن فان مالكها توقف به قدرته على الانتقام عند حرمانهم من الاسانسيرات وامتناعه عن ترميم أى تلف وحرمانهم من أى امتياز ، ولهذا أيضا فان تاجر المخدرات حين وافق على شراء العمارات برمتها كان الثمن الذى طلب منه لا يوازى فى نظره ثمن الدور الأرضى وحده وهو ما يريده منها •

الناس فى الشارع تفتح أفواهها دهشة وذهولا عندما تسمع الرقم الموفوع فى حظيرة السيارات · ماذا بها لو سمعت الرقم الذى صرف على الحظيرة لتصبح هكذا مدينة تتلألأ بالأضواء والجدران الرخامية والاسقف والمرايا · المؤكد انهم يقعون من طولهم اذا تخيلوا الرقم الذى سيمتلىء به هذا المحل على هيئة بضائع ، هى على التحديد سيارات المرسيدس ، ذلك أن الشحات الشهير بأبى شافية استصدر لنفسه توكيلا من مصنع سيارات المرسيدس ليصبح ممثلا لها فى وسط المدينة ·

— ١٩ —

لأبى شافية ـ الشحات سابقا ـ دكان آخر بحذاء أشهر مسجد فى المدينة يبيع العاديات والآثار · رغم ما فى محل السيارات من أبهة وجلسة مخصوصة صممها لسيادته مهندس أجنبى ، ورغم ما فى محل العاديات من جلسة عتيقة فى الأبهة والزخرفة والراحة الا أنه لا يحب هذه ولا ينجذب الى تلك · انما ظلت جلسته المفضلة ذلك الكرسى القش يضعه على الرصيف وحوله طقطوقة عليها براد الشاى والأكواب وأمامه وبيده مبسم الشيشة · كل الصفقات وأخطر اللقاءات عقدها على الرصيف على الناصية يأمر وينهى وينادى ويبعث ويشخط وينطر ويكح ويبصق أطنانا من البلغم الأزرق المتكتـــل · لكنه · لكنه بعد أن كان صبيانه ورجاله فى معية المخدرات يلبسون الجلابيب البلدى ويربون شواربهم ولا يعرفون الرحمة أو الرقة فضلا عن استعدادهم المطلق لتلقى الشلاليت والزغد بسن المطواة والبصق فى الوجه ، أصبح صبيانه ورجاله فى معية السيارات والعاديات والآثار أفندية متعلمة يحملون البكالوريوسات والليسانسات والدكتوراه ، بل فيهم البكوات من ركاب ســـيارات أفخر مما يباع فى محله ، محاسبون ومهندسون واداريون وخبراء وخفراء وعمال نظافة وحراس لسيادته ·

لم يعد لديه ـ اذن ـ من يتلقى شتائمه وبصقاته وهو أمر جوهرى وضرورى لاستمرار المعلمة · كيف هذا ؟ لكن هكذا الدنيا تتغير ، فخير له

أن يعنرف وأن يتزن قليلا · « البتعة » قادرة على امتصاص غضبه وامتاعه رغم بلوغها الخمسين أو أكثر ورغم سياحته المتواصلة بين النساء اللاتى هن ــ كما يقول ــ أكثر من الهم على القلب أى انه مسكين يحمل قلبه هموم كثيرة لا يباريها فى كثرتها سوى كثرة النساء اللاتى يرتمين على قدميه كل لحظة ··

ربما كان أبا شافية صادقا فى المقطع الأخير من جملته ، فهو جدير حقا بأن ترتمى على أقدامه النساء · القوام الرجولى الفارع ، مع الاناقة والرشاقة ، الوجه المستدير كالقمر ، يبك الدم ، الشارب خنفسة جميلة كأنفاس بيضاء متجمعة تحت طاقتى أنه المستقيم الممتد الى حاجبين كثيفين يزخرفيما نفس البياض حتى ليزداد سواد عينيه الواسعتين الشهوائيتين ·

من حيث المظهر والمسلك يدين بأخلاق فرسان النساء كما يدونها قاموس العامة فى بلادنا ويستنكرها الخاصة وان دانوا بها فى الخفاء : شام حشاش أفيونجى مسنود بالغذاء الدسم والتمرينات الرياضية التى دأب على ممارستها حتى يحتمل جسده قدرة عن النفس فى كافة المعارك · مهما يكن من أمر فان سمعة أبى شافية فى هذه المسألة لا تحدها حدود · يقولون أنه رافق على أعلى مستوى · يقولون ان البتعة تعرف كل شىء وتتجاهل كل شىء طالما انه يأوى اليها فى نهاية المساء · يقولون ــ فى المقابل ــ ان نقطة الضعف فيها عدم أهليتها للانجاب ، كما قال أطباء العالم الذين عرضت عليهم ·

يحلو لأبى شافية دائما ان يحكى لجلاسه كيف عرضها على الأطباء الأجانب ومتى · الامارة عنده ان فنانا كبيرا أو لعله سياسى قديم فيما يذكر أو فيما لم يعد يذكر ظلت الجرائد تستنزل له الرحمات وتستنهض عواطف المسئولين كيما تتاح له فرصة العلاج فى الخارج ، وانه بجلالة قدره وصل الى نفس المستشفى التى نزلت فيها « البتعة » فخاف أن تنصرف جهود الأطباء الى هذه الشخصية الخطيرة القادمة من الدولة الازرقية تحفها زفة

قومية كبيرة ، ففوجىء بأن الأطباء لا يعرفون شيئا عن هذه الشخصية ولا يهتزون لاسمها ، بل لا يعرفون سوى « البتعة » التى تعيش المستشفى فى خيرها ٠

يقول وهو يضحك فى سخرية ممزوجة بالمرارة : « ما خلصنيش قلت لهم دا برضه راجل بلدياتى وكان فى يوم من الأيام له شنة ورنة ٠٠ شوفوا اللى هو عايزة وعلى حسابى أى وحق رسول الله » ٠ حتى هذه الأحاديث لم يعد يجد من يستمع اليها بشغف ٠ الواقع انه لم يعد يجد أحلى من القعدة على المقهى بحذاء المسجد الشهير وكل بضع ساعات يندلف الى حارة الشمامين فيتمون ، أو الى صاحبى كحكوح ليتزود بحجرين ٠

ـ ٢٠ ـ

تطول الجلسة فى غرزة صاحبى كحكوح وتتعدد وتتشابه حتى لاعجز عن التحديد فى أى جلسة حدث الشىء الفلانى أو قيل الكلام الفلانى ٠ هى على الأصح جلسة واحدة تتخللها فترات غياب منه أو منى ، لكننى كلما أضأت نور الذاكرة وجدته فى نفس هذه الجلسة ويدور بينه وبين صاحبى نفس الكم ٠ أما الكلام عن صاحبتى فقد كان لايزال حديثا ٠ ولقد انشغلت عنهما قليلا فلما اتنبهت وجدت صاحبى يقول لأبى شافية فى ضراعة : « شوف بقى مفيش حد غيرك حيحل المشكل ده ٠٠ أنا تعبت خليك ذوق بقى ٠ كفاية ٠٠ أنا لسة ممكن انفع برضة ٠٠ ولا الصبيان اما بيكبروا بينسوا ؟ » شوح أبو شافية : « يا عم سيبنا فى حالنا » ٠ ثم يبدو أنه أشفق عليه اذ انبسطت ملامحه فجأة وقال له كالمعتذر : « على العموم ربنا يسهل يا كحكوح » فصاح صاحبى : « امتى ؟ » قال ابو شافية : « فى أقرب فرصة ٠٠ سيبها بظروفها ٠٠ حامر عليها وأكملها وأصالحك عليها ٠٠ اطمئن وسيبنى بقى أشرب الحجرين فى أمان الله » ٠ فرد صاحبى من بين أسنانه : « أشرب شا الله تشرب آخر زادك » ٠ فزغده أبو شافية زغدة قوية عوى لها صاحبى ثم اتضح انه يمزح ٠

رغم أن الراحة هبطت على جسد صاحبى كحكوك وأحاطت بكل أطرافه الا أن بريقا مخيفا لمع فى عينيه الضيقتين ، قال : « تشكر يا عم كتر خيرك » • أنا وحدى الذى فهم سر هذه النظرة فى عينيه • نظرت فى عينى أبى شافية فوجدت ان النية عنده قد صدقت فى القيام بمهمة الصلح بين صاحبى وصاحبتى بل قرأت فى صفحتى عينيه ما سـوف يقوله يقوله لصاحبتى : كلمتين حلوتين عن الشرة والعيش والملح الذى لا ينبغى أن يهون الا على الاخساء •• فوجدتنى ازأر بشدة مركزا النظر فى عينى أبى شافية مكشرا عن انيابى كأننى انذره وأحذره من أشياء لا أعرف كنهها •

راح كلاهما يشخط في بعنف ويهوشني ويقذفنى بالطوب • رغم أن طوبة أبى شافية كانت أقوى وأصابت بالصدفة دماغى الا أن طوبة صاحبى على صغرها وخفة وقعها المتنى ، فانقضضت على صاحبى ـ ربما لأول مرة فى حياتنا ـ وهوشته حتى بال من الرعب على نفسه وكانت أسنانى على وشك أن تقبض على منطقة البول برمتها ، لكنه عاجلنى بضربة خوف حادة فى بطنى فابتعدت عنه وانطلقت أجرى بلا توقف حتى وجدتنى أمام بيت صاحبتى جالسا استكن من الألم •

باب الحرملك

● هل أتاك حديث البتعة ؟

ـ ١ ـ

قريتها البعيدة التى نسيت شكلها والطريق اليها ، صغيرة متاخمة لمدينة اقليمية كبيرة تقع على ضفاف النيل الأزرقى • مدينة يعرفها كحكوح وصـــاع فيها سنوات كما يقول دائما • أهلها ـ يقول ـ كلهم مراكبية وصيادين ومع ذلك ترى فيها شوارع للنحاسين والفرانين والقماشين ، ومع ذلك فهى مشهورة أيضا بأن كل نسائها يشتغلن فى نفش صوف الأغنام ولذا فطعامهن مشوب دائما بخيوط الصوف •

تضحك « البتعة هانم » من هذه المزحة الثقيلة وتهز كتفيها فى لامبالاة حيث تتذكر قريتها البعيدة • كانت أجمل بنت فى القرية لايعيبها سوى فقر والديها • الكل من كبير لصغير ومن محترم لهزأة كان ينحنى بل ينذهل لجمالها مسبحا بحمد الخالق العظيم ، مصليا على النبى بجميع الانغام والمشاعر ، لكنهم يا ألف حسرة لا يحترمون جمالها ، هم يعترفون به فحسب ولكن لا يحترمونه لانه غير محترم ، يلبس ثيابا لا تستر عريا ، يهان فى عمل وضيع • كانت ـ كما تحكى لمن لا يستحق أن يكون محل بث للشجون ـ تندهش وينعقد لسانها من الدهشة حين ترى النظرات الدنيئة الشرسة فى عيون العمد والمشايخ وتجار المواشى والفلاحين والبقالين

والطلبة بل وبالاخص الطلبة وكل من قابلتهم من الذكور منذ تكور التفاح على صدرها وأحمر على خدودها ـ بدأت تكتشف انها دون بنات القرية ونسائها مباحة لكافة النظرات · فى الخطوة الواحدة أو اللحظة الواحدة تتسلقها النظرات وتعريها وتنتهك كافة استارها · النظرات النهمة الشرسة القاسية تطاردها فى كل مكان · ليتها كانت نظرات أعجاب واشتهاء فحسب اذن لتاهت بها بين الأهل والخلان ، لكنها نظرات اتهام شديدة القسوة · كل عين تنفرد بها تثقب نفسها بسنان حداد ولا تريد أن تتنازل مطلقا عن يقينها واعتقادها بأنها عاهرة ·· مجرد عاهرة ··

حتى أمها ، هى الأخرى قذفتها بنفس الاتهام عشرات الآلاف من المرات بسبب وبلا سبب · كانت دائما تصرخ فيها : « انتى ايه اللى فيكى يا بت ·· انتى مش طبيعية أبدا يا بت ·· بتتقصعى كده ليه يا بت ·· بت ·· أنا حاقتلك وأشرب من دمك يا بت » هى نفسها لم تكن تعرف انها اكتسبت حركات جديدة لم تكن فيها وهى طفلة ، فمن كثرة ما صدت وزاغت من هجوم نذلى مفاجىء ومن فرط ما استرحمت للعفو عنها ومن طول ما راوغت وتهربت من حوارات لا ترغب فيها يجرها اليها ناس ممن تقابلهم أصبحت بالفعل « مش على بعضها » ، عصبية ومتوترة على الـدوام ·

ـ ٢ ـ

كان أبوها ـ كما تقول أمها وأهلها ـ قد مات فى حرب الحاج محمد هتلر الذى قيل انه أسلم ووجب على مسلمى مصر أن يحاربوا فى صفه · لا هى ولا أمها ولا أحد من أقاربها ولا حتى عمدة بلدها يعرف لماذا ولا كيف مات أبوها وهل لموته صلة بالحاج محمد بن عبد الله ، لكن أباها كان فى الجهادية مجندا أثناء ما كانت هى طفلة غريرة تصحو فى المساء من ليالى متباعدة شاحبة على صوت يقبلها وأذرع تحتضنها وتقول لها : « بوسة

لبابا قبل ما يسافر » • وكانت تسر غاية السرور من ذلك اللباس الأصفر الذى يرتديه وهو مسافر ـ آخر ما تذكره فى طفولتها عن أبيها أن أمها كانت تبكى بين جمع من أهل القرية وهم يقولون لها فى انشغال بال : « هتلر نفسه اختفى من على ظهر الأرض » ، وهكذا أعفت أمها نفسها من وقع الصدمة حين أدركت بينها وبين نفسها ان زوجها ليس أحسن من هتلر حتى تفجع لموته ••

ـ ٣ ـ

يموت أبيها عادت البضاعة ـ أمها ـ الى أهلها ، أى الى خالها المتيسر ، لتصير هى وأمها خادمتين لأهل الدار • يوكل اليهما تلصيق الجلة وحلب الماشية وغسل الثياب وغسل القمح فى الترعة وحمله الى ماكينة الطحين ، ناهيك عن الخبز والعليق وتوصيل الغداء للأنفار فى الحقل وملء المياه من الترعة بالبلاص كل يوم فى العصارى ••

على قدر ما أهينت فى كل هذه الأعمال والمشاغل التى وصلت الى حد السخرة تألقت وسطع جمالها وخلب الألباب • زهقت وزهق خالها وأمها من تجريب الثياب المحتشمة دون جدوى ، لم يستطع أى ثوب من الدنيا كما لم تستطع أى قوة منها أو من غيرها فى أن توقف صدرها عن الاهتزاز النافر المواج أو تخفى حركة عجيزتها التى تنحت لنفسها ظلا حاسما تحت أى ثياب • ولقد تركت وجهها بلا غسيل وأهملت شعرها وتركت القشف يتراكم على كعبيها ، ومن فرط الفجيعة المستقرة فى عيون أهلها تجاهها كرهت أى نظافة وأى ثياب وكرهت أن تكون جميلة فتركت نفسها جربوعة وقذرة ، لكنها لم تعد تعرف ان كان الخطر كامنا فى عينيها هى أم فى عيون الآخرين ؟ انه شىء نارى كالقذيفة كاندلاع الضوء كاندفاع السهم يدهمها بمجرد ما تقع عيناها على عين أى ذكر حتى لو كان طفلا • جربت أن تكسر

عينيها فلا تنظر الى أحد ، ولكن كل ذلك لم يعفها من حكم أصدرته ضدها محكمة مجهولة وأبلغت به جميع البشر يفيد بأن هذه البنت عاهرة ولا يمكن أن تكون الا عاهرة ·

ـ ٤ ـ

كانت أمها لاتزال فى عز شبابها وكانت تتعشم فى عريس يجىء به المستقبل ولكنها لم تكن تحسب أن أمامها آكبر وأقوى منافس فى الوجود ، وهكذا كرهتها أمها وكرهت هى أمها ومع ذلك لا جاءها العريس ولا جاء لأميا · ثم ان الجحيم بدأ يرتفع أواره فى الدار بسببهما معا كلبؤتين شرستين ، والخال قد أصبح من فرط ذلك فى عار مقيم ، وصار يتمنى زوالهما من الوجود بل صار يعمل على الأقل لزوالهما من وجهه هو ·

سعى لتزويج البنت بفارغ البنت وصياحها فى ساعات معينة من ليل أو نهار فلما يدركها أجدهم على مضض يكون واثقا انها ستتهم أحد أولاد خالها أو ضيوفهم بالتهجم عليها أو قرصها فى فخذها أو القبض على ثديها ، وكانت هى من كثرة ما صاحت وصرخت واتهمت قد أصبحت مهيأة لهجوم حقيقى غادر يجهز عليها اعتمادا على كثرة ادعاءاتها ، فكثرة الادعاء تورث البطلان التام كما قال فقيه الكتاب ذات مرة · أما هى فقد بذلت مجهودا عنيفا فى الدفاع عن نفسها ، عن ذلك الشىء الذى أن نجح أحدهم فى خرقه واسالة دمه فقدت هى شرفها ومستقبلها ·

مع ذلك ظلت تحس رغم حمايتها لذلك الغشاء الحقير الذى يغلف البكارة انها لم تستطيع أن تحمى شرفها من الانهيار اذ أن ثمة اعتقادا بين الجميع بما فيهم أمها بأنها غير شريفة ·

- ٥ -

حتى ذلك الذى تزوجها لم يستطع أن يخترق غشاء بكارتها لهزال أوصاله هى غير مسئولة عنه · للها كانت حملا ثقيلا جدا يثقل نفسه · لعله انهزم قبل أن يصبح قيد خطوة من التهامها وحده · لكنها ظلت شهورا لا تستطيع رفع عينها الى أحد من أهل الدار أو من الضيوف ··

هو كذلك - زوجها - لم يستطع · أهلها المجبلون فسروا انكسار عينيه بالحياء لا من العجز ، وفسرا انكسار عينيها من الشعور بالاثم · كان العريس ولدا وكان طيبا جدا وكانت تحبه كل الحب لولا ضعف شخصيته الى حد الانعدام · كان وحيدا لأبوين فقيرين ، أولاد سوق ، يبيعون الخضار أحيانا · لكن مهنتهم الأساسية هى لم البيض ، فكان عليها من الشهر التالى للزواج أن تحمل السلة فى ذراعها مثل أمه وأبيه ومثله تجوب حوارى البلدة صائحة : « ياللى حداها بيـ ·· ! · بيض » فتخرج اليها النساء بما حوشته من بيض دجاجهن لتشتريه منهن بالعد الخمس بيضات بتعريفة خمس مليمات تدفعها من صرة معقودة فى كفها ثم ترصه فى السلة ، حتى اذا ما تجمع منه الكثير عبأوه فى أقفاص كبيرة وسرحوا به فى الأسواق يوردونه لتاجر كبير ولمتعهدى مزارع الدواجن ··

مهنة لم تحبها أبدا اذ عرضتها للمضايقات وهزأت كرامتها على نواصى الطرقات والحوارى وأمام الدكاكين · اكتسبت خلالها لغات جديدة وقدرة على الشتم بقواميس البلطجية والسوق ، جرت على لسانها ألفاظ لا تعرف الحياء أو الأدب ، صـــارت تشخر وتفعل من بذىء الحركات ما لا يخطر على البال دفاعا عن نفسها ضد المضايقات التى باتت تتجسد لها فى كل شىء وفى كل خطوة ، وبجرأة منقطعة النظير كأنها صيد ثمين مستـــباح ··

شىء واحد أحبته فى هذه الحياة اذا كان قادرا على تسليتها وجذبها حيث لم يكن اختراع الراديو قد وصل بعد الى دار زوجها « هريدى » ذلك هو الرباب الذى وجدته ملفوفا فى ثوب قديم ومعلق على مسمار فى الحائط فى القاعة بجوار السرير الحديد ذى العمدان والعمدان والعساكر النحاسية ، تعرف ان السرير والدولاب اللذان تجهزت بهما سبق أن تجهزت بهما أمه وتنازلت عنهما له كما تنازلت عن الحلة النحاس والطشت الكبير وبقية الأوانى .. أما هذا الرباب فلا تعرف لمن هو فى الأصل ، ومن أوائل أيام الفرح لم يكن قد امتد بينهما حبل سوى حبل الحديث عن هذا الرباب ..

أبوه كان يسرح به فى شبابه بين القرى والعزب فيضرب عليه سيرة الهلالية وعنترة وحمزة البهلوان . فلما أصبح ذا تجارة تغنيه عن كثير من اللف احتفظ بالرباب لم يفرط فيه أبدا ، فكل شىء فى نظره قد يزول وينقرض الا نغم الرباب ، نعم هكذا يعتقد أبوه ويقول مرارا وتكرارا أن التجارة ورأسمالها قد يزول فجأة لسبب من الأسباب فلا ينقذه سوى الرباب ، يستأنف حمله ويتكل على الله ومطرح ما يضرب الوتر يجىء الرزق مدرارا بلا شك ، أنه – والقول لأبيه – لا يذكر أن انكسر خاطر النغم أبدا ، لم يحدث أن ارتد اليه النغم كسف البال دون مقابل .

لما كان الابن يرث فى العادة بعض مواهب أبيه فان « هريدى » لم يرث من أبيه ذكورة ولا فحونة ولا صلابة يكافح بها الزمن ، انما ورث عنه شيئا واحدا هو حبه للرباب وحب الضرب عليه فى الليالى المقمرة فى وسط الدار .

الشىء الجميل الوحيد فى حياتنا خلال زيجة الأشهر القليلة كان يتم لحظة أن ينغلق باب الدار بالسناطة وتجىء القمرة عبر السطح والسلم الطينى لتفترش وسط الدار والحصير والمساند الصلبة ، حيث يكون

أبوه وأمه قد أويا الى الفراش في الغرفة المطلة على الحارة ، ويبدأ « هريدى » فى الضرب على أوتار الرباب وأبوه يحيه من داخل القاعة صائحا : « يا حلاوة يا حلاوة ٠٠ بس آه لو تقوم تنام بقى » ٠ لكن « هريدى » أبدا لا يحب أن ينام ، ولا يحب أن يفعل شيئا سوى السير فى دروب أوتار الرباب التى توصله الى كل الغايات ٠

انها وقد حرمت من تمام الدفء فى حضنه تحس كأن الربـاب حضن آخر يحتويها ويبعث فيها كل دفء وكل راحة ٠ كان « هريدى » يحدثها عن حلم غريب يحبه ومع ذلك لا يجرؤ على تنفيذه : أن يكون له فرقة وبطانة تسنده وهو يغنى فى الموالد والأفراح والليالى الملاح ، أن يكون صييتا مثل أولئك الذين يستقدمونهم من بلاد أخرى يلبسون القفاطين الشاهى ويمدحون النبى بنغم وصوت أعذبين ، كى يحلم بذلك لولا أن أباه قد سعى بالفعل لدى بعض المسئولين لكى ينزله خفيرا نظاميا يقبض راتبا شهريا وقد لا تقبل الحكومة أن يشتغل خفيرها صيتيا وقد لا تقبله خفيرا أصلا ٠

فى المرات القليلة التى استمعت فيها الى صوته يؤذن أو يستغيث للفجر أو لصلاة الجمعة استطاعت ان تعطيه الحق فى هذا الحلم ٠

لكنها أبدا لم تكن تشاركه نفس الحلم ٠ لقد انسلخ كل منهما فى فلك وحده من أول لحظة ٠ لم تشعر انها تشاركه أى حلم ٠ هى صحيح تحبه ، أى لا تكرهه وانما تشعر تجاهه بحنق شديد يشعل الغضب نارا فى عروقها كلما تذكرته ، فبضعفه وفقدانه الرجولة حجب دم بكارتها عن الظهور فباتت فضيحتها مؤكدة وباتت الالسن تلوك سيرتها متسائلة كيف تأخر ظهور الدم البكر ، ثم تقادم الأمر فأيقن الكافة انه لم يكن فى الأمر بكارة أصلا ٠ منذ الشهر الأول وهى لم تستطع الانبهاج فى البيت ، لم تذب فى محتوياته ، لم تتوزع أشياؤها على دولاب وأدراج وأماكن فى الغرفة ٠ انما كان لها دائما صرتها الخاصة التى تحتوى على أشياء تخصها : خلخال فضى تمردت

قدماها عليه ، مكحلة ، زجاجة ريحة اهديت لها من ولد تلميذ ، قسيمة الزواج الذى لم تحبه ، فرع من الكهرمان الأصفر تنازلت عنه أمها لها ، خاتم فضى رخيص اشترته من المدينة المجاورة فى أحد موالدها ، قميص نوع شفتشى يكشف عن أسرار الجسد اشترته لها حماتهــا فلما لبسته ليلة الدخلة شعرت بالفضيحة الهائلة وتحملت الشعور بالعرى ومع ذلك لم يحدث شيء يستكن له البدن فنبذته ولكن لا تعــرف لماذا ادخـــرته بين أشيائها ..

هذه وأشــياء أخرى تافهة وغريبة هى كل متاعهـــا . أما الصرة فكانت فى الأصل نصف زنبيل يستخدمه حموها فى سرحاته بالرباب وكانت لا تزال نظيفة متينة فيهـــا خروم مبطنة المدن وحبال متينة . لقد وضعتها بكل هذه الأشياء فى قاع الدولاب .

— ٧ —

لم تكن تحس انها تنوى أمرا ، بل لم يكن يخطر على بالهـــا . لكنها كانت سباقة دائما الى مشاوير الأسواق . يوم السوق تصحوا له قبل الفجر ويدب فيها نشاط وتتفتح كل منافذ خيالها وتضحك فى تودد واضطراب ولهاث .

ينفتح السوق أمامها عالما واســـعا يؤكد لهـــا أن الدنيا واسعة والبشر أكثر بكثير مما تصورت . وكانت دائمـــا تكتشف أن صرتها القصوصية جاءت معها صدفة مخفاة فى الأقفاص ، وهى التى تخفيهـــا جيدا كأنما تخشى عليها من أهل الدار . أجمل سوق هو سوق المدينة المجاورة . وجوه لا تعرفها لا تعبأ بها لا تنظر اليها لا تعريهـــا لا تتهمها بالعهر ظلما وعدوانا ، كل فى حاله ان انتبه اليها أحدهم ونظر فى عينيها صدفة انبثق فى عينيه الشعور بالفرح والابتهاج ، وما أكثر ما شعرت فى النظرات من شبق ورغبة ، وما أكثر ما شعرت فيهـــا من حب ومن

اشفاق ومن حسد ومن براءة لكنها لا تحس فيها أبدا بالاتهام ، نادرة هى نظرات الاتهام التى صادفتها فى عيون المدينة وان حدثت فهى نظرة شك أو جرأة عابرة لاذعة لطيفة حلوة ٠

الى أن دهمتها نظرة الاتهام ذات يوم فى المدينة ، فلما اسـتبدت بها الدهشة والصدمة أفاقت على أن تلك النظرة لم تكن من المدينة بل من قريتها هى ٠ كان ولدا تلميذا يصرف عليه أهله فى مدارس المدينة ٠ تعرفه جيدا كما تعرف أباه ٠ هو ابن أحد الأعيان الموسرين وولد تملأه العجرفة والكبر بشكل فاق كل أفراد عائلته المشهورة بالكبر والعجرفة والقسوة ٠ تجار حبوب وماشية وبذور من سنوات بعيدة ٠ ابنهم هذا يقولون انه واصل الى التعليم العـالى وسيصبح لا تدرى ماذا ؟ وأهـل البلدة يتملقونه كلما رأوه يعطونه لقب البيك والأسـتاذ والباشمهندس ويدعون له بمزيد من النجاح وهو يتقمط بالبـذلة والطربوش ويـكاد ينفجر من النفخة والكبر ٠ هذا الولد بالذات كثيرا ما عاكسها وهى تملأ البلاص من الترعة أو تغسل القمح على الموردة ، بل كان يتعقبها ويتلفظ فى أعقابها بألفاظ جارحة سمجة ويعرض عليها الغـرام الفاسق مقابل فلوس وعطايا يعدها بها ، فكان يشعل النار فى جوفها ، ولولا خوفهـا من أهله ومن مركزه لضربته بالصرمة وبصقت فى وجهه ٠٠

زوجها الأهبل يوافق دائما على ارسالها الى دار هذا الولد لتعطيهم بيضا أو تشترى منهم حبوبا ٠ هى تخشى دائما أن تقول : لا : اذ هم سيقولون لهـا : لماذا ؟ فان قالت : لأن ابنهـم يعاكسنى ويضايقنى ، سيقولون لها : كذابة ٠ انه ولد مؤدب وعلى خلق ومصروف عليه فى المدارس فهل ينزل بمستواه اليك أنت ياجربوعة ؟ ابن المدارس يعاكسك انت أم يعاكس الهوانم من زميلاته ؟ انت أصبحت مريضة بالمعاكسة ٠٠ وهكذا تضطر الى الذهاب وأمرها الى الله ولكنها لن تتركه يتمادى فى غلة حياله ٠ هو فعلا والحق يقال طيب الأخلاق لايرفع وجهه فى السماء ولا يعلو صوته على من هو أكبر منه ، ويصلى الفرض بفرضه ، ودون أبناء

الأغنياء يمشي في اتزان واستقامة وأدب · وينجح على الدوام والجميع يحلفون بأدبه وأخلاقه · لكنه هكذا في الظاهر فحسب · أما في السر فهو ابليس ، مخيف ، لم تصادف جرأته في أحد ، يفعل أفعالا يخجل من فعلها أكبر قليل أدب في الدنيا ، مرة لم يكن في الدار سواه وقال انه سوف يكيل لها القمح أو الذرة التى تريد ، دخل بها المخزن يرفل في أدب جم ، فما أن انفرد بها في المخزن حتى شمر ثوبه وأمسك بيدها ووضعها فوق عضوه ، فشدت نفسها مذعورة وخرجت صائحة ، فلما خرجت أمه من داخل الدار وجدتها تنتفض أمام المخزن باكية في حين كان ابنها بكل أدب يكيل الذرة كأن شيئا لم يكن ، فسلقتها الأم بنظرة ونبهت عليها بعدم المجيء ثانية ·

غير أنها دائما كانت تضطر الى المجيء · فاذا كان المجيء يعرضها للفضيحة فعدم المجيء يعرضها للفضيحة أكثر · مرة ثانية مشيء وراءها ينظر حواليه كلص ، كانت سارحة بالغذاء للأنفار وظل يلاحقها حتى اذا ما وجد الفضاء خال من كل ظلال حاذاها وتحسس مؤخرتها ، فاهتز جسدها كله وكادت تقع بالغذاء فانبرى لسانها يشيع الشتائم الخائفة والبكاء الحارق المر ··

— ٨ —

هذا الولد المؤدب الأخلاق المعدوم الحياء في نفس الوقت ، يسكن في المدينة حيث يتعلم · يكترى له أبوه شقة في الدور الأرضى بشبابيك على الشارع ليتسنى له مراقبته من بعيد بمفاجأة · تقيم معه لتخدمه وترعاه أم أمه وهى عجوز مشدودة الحيل · كثيرون من أهل القرية يتفاخرون حين يتقابلون في سوق المدينة بأنهم يعرفون سكن الأستاذ مختاز أو مختار بيه · هل كان اسمه مختار حقا ؟ الواقع انها لا تذكر ، ولكن لماذا مختار بالذات هو الاسم الذى يقفز الى ذهنها كلما تذكرت هذا الولد ؟ حتى ملامحه لم تعد تذكرها بل انها لم تعد تتذكرها في يوم من

الأيام ربما لأنها كانت دائما تخشى النظر فيهـا ولا تحب رؤيتهـا . كل ما تذكره منها ومن شقصة أنف مسحوب وعينين فيهما نظـرة ميتة لا تعبر عن شيء . حتى أبوه عمرها ما عرفت اسمه الحقيقى على التحديد أكثر من أنه الحاج .

عائلته هى الأخرى كانت أعزب عائلة . لها أسماء عديدة . رجال كثيرون لهم دور وغيطان فى الباوة ومن حبهم فى « المهيصة » ينسبون أنفسهم الى كثير من العائلات .

ـ ٩ ـ

لا تدرى ان كان ذلك من تدبير أحد أم أنه قدرها الأسـود على الدوام . يقام فى المدينة واحد من أكبر الموالد فى البلاد . يؤمه أشكال وألوان من الناس والطرق الصوفية والملاهى . شهر بأكمله تقريبا تتحول المدينة فيه الى نهر يتدفق بالبشر والتجارة والملاهى ، يصل كل شيء الى ذروته فى أسبوع الليلة الكبيرة ..

حين أخبرها زوجهـا « هريدى » انهما سيذهبان هذا العـام الى مولد سيدى « اسماعيل البسيقى » كادت تطير من الفرح ، وكانت تعرف أنها لو لم تكن عروسا جديدة لما اصطحبها معه فى هذا المشوار ..

أعدت العدة من عيش وقرص وجبن قديم يكفيهما لبضعة أيام . فى قعر القفه وضعت ـ كالعـادة ـ صرتهـا التى تحوى أشـياءها الخصوصية . عند ركوبهما القطار وسط رهط كبير من أبنـاء بلدتهم تفاخر زوجها « هريدى » قائلا أن الباشمهندس قد نبه عليـه بضرورة أن يزوره اذا نزل المدينـة فى المولد لكى يبيت عنده بدلا من المبيت فى صحن الجامع . ارتجف صدرها وقالت لنفسها انها سوف لن تمكن هذا الولد الأفندى منها ، انها لاتزال بكرا . ومادام وزجها قد عاف بكارتها

فهى لا يصنح أن تقدمها لأحد لاتحبه ، نعـــم لن تسلمهـــا لمغتصب ، لا ولا لواحد ممن يتهمونها ويعتبرونها عاهرة ·· حتى لو أصبحت عاهرة فهى لا تطيق العهر مع واحد من هؤلاء ··

كيف لم تنتبه الى أن « هريدى » قد أحضر معه الرباب ؟ كيف غاب عن بالها ذلك رغمأنها كانت تحملهـــا معها فى القفة طوال الطريق ·· ما أن نزلا شقة الباشمهندس ـ الذى رحب بهما ترحيبا هائلا دهشت له جدته أيما دهشة ـ حتى فرطوا برام الأرز وتعشوا معـــا ثم نهض « هريدى » ساحبا الرباب وقفزت هى فى أثره لا تلوى على شىء ·

ابتلعهما الزحام الكثيف الدافىء الساذج الجميل · بعـد زنقات لا حصر لها وعشرات عرف جسدها خلالها عينـــات من الأحضان فيهـــا الحياة الحقة لمجرد اللمس فما بالها بالارتماء فيها ، ونادت عليه ونادى عليها عدة مرات · ثم أن حائطا من الكتل البشرية زحفت بينهما وظلت دوامات الحركة تطيح بكل منهما فى اتجـــاه حتى اختفى كل منهما عن الآخر تماما · غير أن نفس الدوامات عادت بعـد جهود مضنية فجمعت بينهما فى ميـدان الجامع حيث تصطف على جميع الجهـــات سرادقات مزخرفة بالأضواء الملونة على واجهاتها ميكروفونات ولوحات تحمل صورا لنساء جميلات بل حوريات يبنسمن فى سعادة نصف عاريات ، صنوف من صورهن ومثلها لرجـــال حليقى الذقون مصففى الشعور فى أناقة تطفح البراءة من وجوههم ، أسماؤهم ـ هذه الكتابة لا شك ـ تسطع حولها كوكبة من الأضواء ، الميكروفونات لاتنى تردد أســـماءهم وتعد المتفرجين بالخير والنعيم كله مع الراقصة اللولبية محاسن فؤاد ومطربة كل الأقطار سلمى البرانية والمونولوجست العالمية فسفوســـة ونجـم الحفلات شـــاكر الطنطاوى وابن النكتة خفيف الدم والروح عشماوى والثنائى الصعيدى صفوان وبخيتة وأشياء وأشياء ودنيا أخرى لم تكن تعرف انها موجودة فوق هذه الأرض من قبل ·

يزحف بهـــا صف الصـــور من سرادق الى سرادق وتستعيدها الميكرفونات الى حيث كانت ، ترى الناس من فرح ومن بهجة يقطعون تذاكر من شخص واقف بالباب ثم يدخلون الى حيث توجد صفوف من الدكك متجاورة ، وفى الصدارة مسرح خشبى كبير • أحست بأن أبوابا حديدية قد انفتحت أمامها على الدنيا • ظلت حائرة فى دوامة الأضـواء فى ميدان المسجد حتى رأت جمعا كبيرا يأخذ فى التزايد وتتصاعد منه صيحات الابتهاج زاعقة مدوية • زحفت نحوه مستثارة • دفنت نفسها بين الزحام ، وقبل أن تنجح فى اختراقه تناهى الى سمعها صوت الربابة ، حزينا ناطقا بأصوات يقشعر منها البدن ويقف شعر الرأس ، فى أعقابه صوت « هريدى » •• يقطعك يا هريدى هل أنت موهوب الى هذا الحد ؟ هل أنت فى صنعتك فاجر كل هذا الفجر ؟ ••

اخترقت بقية الزحـــام فى عنف شديد بعد أن اعتقلتها دوائـر كثيرة عامدة • كادت ترتمى عليه صائحة فى مرح : « يقطعك ياهريدى دانت بمب خالص ياوله » • لكن جسورا متطوعة من الزحـــام حالت بينها وبينه فى جد وصرامة حيث وسعت له دائرة صغيرة تألق هو فى وسطها فلم تجد مفرا من الوقوف والانصات مثلهم • حاولت ارســـال عينيها الى عينى هريدى ، وخبطت الأرض بقدميها صائحة كما يصيحون فى اعجاب وتأثر : « ياسلام •• ياسيدى ياسيدى كمان والنبى كمان » ، وهو ينبرى بصوت بربرى رائق شجى لاذع : الله الله يا بدوى • فيردون جميعا وفى نفس واحد ملتئم ساخن : « جاب اليسرا » • لحظتها لم تكن تعرف هل هى فى مولد البدوى أم الدســـوقى أم القناوى أم المرسى • انما هى تحاول رفع صوتها فوق صوت المجموع لكى يتميزه فيرفع عينيه الى عينيها • وهو منفصل عن الوجود كله ، مسبل العينين ذابت ملامحه فى صوته فى حركة ذراعيه فى يديه فى أصابعـــه فى صوت الرباب ، والقوس فرس يتقافز راقصا فوق الرباب ••

من أين جئت بكل هذه الموهبة بكل هذه الأدوار ياهريدى ؟ آه كم تحبك ياهريدى . هل كنت ياهريدى فاقد الرجولة أم أن رجولتك عافت جمالها المبتذل ؟ . كانت هذه هى الشوكة هى السكين المنغرسة فى قلبها لحظتذاك . فجأة توقف هريدى والعرق يتدفق منه فيما هو يبتسم في سعادة لا حد لها . ثم ان الدائرة تكسرت باقتراب ناس وجهاء يصيحون : « لابد له من الراحة .. ولابد من العشاء ليسند قلبه .. اننا بشر .. قم بنا ياشيخ العرب لتأكل لقمة وتستريح وتشبعنا قولا وإنشادا » ثم ارتفعت أصوات عالية : « عندى .. بل عندى أنا .. لا عندك ولا عنده .. عند فلان .. لا والله » . وهكذا تبارزت الأصوات والأيمان المغلظة حتى تقدم الأقوى فحوط كتف هريدى واختطفه اختطافا كريما مهذبا سلم به الجميع فى أريحية وتبعوه وهريدى يبتعد عن ناظريها فى تواضع وقد كبر حجمه كثيرا جدا . لم تفق الا وهى تصيح من فزع ومن لوعة : « استنى ياهريدى » ، ولكنها تعثرت فى أقدام وجموع غاشمة .

— ١١ —

هل سمعها هريدى وتجاهل صوتها ؟ هل كانت راغبة فى أن يتجاهل وجودها ؟ أن يلقى بها فى بئر العدم ؟ ما هى واثقة منه انها لم تفكر فى الهرب أبدا . انما ظلت تبكى لساعات طويلة فيما هى تذرع الشوارع والساحات والميادين باحثة بين كل مجموع عن هريدى ، فلم تسمع للرباب صوتا . قادتها قدماها الى السرادقات من جديد وراحت تعاود الفرجة عليها الى أن فوجئت بمفاجأة مذهلة ، حيث كانت واقفة أمام برواز بجوار باب السرادق تتأمل فى وجه شاب حلو التقاطيع غزير الشارب ملفوف الشعر من الجنب الأيمن أحمر الخدود كابن ناس أصيل ، يطل من عينيه ومن ملامحه ذكاء وخفة دم . وكانت قد أطالت التأمل فى صورة وما أن رفعت وجهها عنها واستأنفت السير حتى فوجئت

بنفس الصورة واقفة بجوارها بلحمها ودمها . فارتعدت وظلت تقارن بين الوجه والصورة لتتأكد فى كل لحظة أن الأصل أحلى من الصورة بكثير ..

سألته فى انبهار : « أنت .. أنت ؟ » . ضحك فى صفاء قائلا : « نعم . أنا وأشار الى البرواز - أنا - وأشار الى نفسه » . قالت « تغنى ؟ » . ولحظتها أيقنت أنه قد وقع غريقا فى عينيها الى الأبد . قال وهو يذوب رقة : باغنى حلو قوى .. غنا شعبى يعجبك » . وكان يرتعش كأنه يخاطب أحد الحكام . قال : « لازم تتفرجى على » قالت « ممعيش فلوس » أضاء وجهه وصاح : « على حسابى .. تعالى » وبرفق شديد سحبها من يدها بقبضة واهية مرتعشة . عند قاطع التذاكر وقف وقال له : « ادخل الآنسة على حسابى » . أعجبتها كلمة الآنسة ..

عالم جديد جميل ساحر . « النمر » تتوالى والبهجة تعم الجميع والاعجاب يستبد بهم فيصفقون ويصيحون صيحات فرح . كل من غنى أطربها ونبش بين مشاعرها بأعواد رقيقة لذيذة . الراقصات أخذن بلبها . طول عمرها لم تر راقصة . تذكر أنها رأت « الغازية » تجوب القرى فوق حمار هزيل وتحتها خرج ومعهما طبلجى وزمار وحارب رق ، فى العادة تكون عجوزا تلبس فستانا مهلهلا من جوانبه ، لتتمايل فى رقاعة تكشف عن سيقان خشبية تحتاج لسنفرة ، وبطن ضامرة ، وصدر أعجف ، ترتمى على أى رجال يجلسون ، ما أن ترى جمعا أمام دكان أو على مصطبة حتى توقف حمارها وتنزل وينبرى الزمار والطبال والرقاق عزفا ، فيفيق الجميع على نفسه وقد اندمج فجأة فى ايقاع راقص بهيج بصرف النظر عن الحرباء التى تتلوى وسطهم ، لديهم حاسة التقاط الرجل عامر الجيب بين الجالسين لتركز عليه وحده فى ضرب جسده بصدرها أو عجيزتها ، فينبعج هو ويلضق على جبهتها أو على بطنها ورقة مالية صغيرة. أما بقية الجالسين فمن مليم وطالع وقد تجمع بدل النقود كيزان الذرة ، حفنة القمح والأرز ، والبصل ، ثم تشرع

فى الانصراف مستحثة حمارها بخيرزانة صغيرة قائلة بعهر عجوز سمج : « حا » ولهذا يسخرون فى بلدتهـا من الرجـال الخرعين حين يضربون أبناءهم برقة فيقولون : « فلان هذا لا يربى ابنه جيدا .. بل يضربه ضرب الغازية لحمارها » الغازية أيضا كانت فى العادة بلا حياء لكنه عدم حياء يقبل عادة من العجائز المتبرجات ، تهتز وتتملق الجلوس مغنية بصوت أعجف قبيح : « ومحفظته قد كده » وتشير بيديها محددة حجم المحفظة ، أو : و « ... ـ وتذكر عضوا من أعضائه الواجب سترها ـ قد كده ـ وتشير بذراعها محددة حجم هذا العضـو المحترم . أما هذه التى تراها الآن تتشخلع على المنصة العالية فهى شىء جميل كل الجمال ، جسد حلو التقاطيع تنثال عليه صفوف الترتر اللامعة كأنهـا ترتدى جلد ثعبان بديع ، الرعشة والدفقة والحركة شىء يطير منه اللب ، أنهار من الفرح تتدفق فى صدرها وفى كل كيانها ، لكأنهـا هى التى تقوم بكل هذه الحركات البديعة وكل هذه الجماهير تتفرج عليها هى وتعجب كل هذا الاعجاب ، تلعب هكذا بالصاجات ، كأن كل هذه الأنغـام والايقـاعات تنبعث من حركات جسدها وحده . يالها وهى تنهال راقصة رقصة الختام اذ تصير كالبطة تنفض جناحيها بعد هبوط ذكر البط عنها ، ان لرقصتها هذه لرائحة تنعشها وتؤكد لها انها قبل هذه اللحظة لم تكن تحيا ولم تكن تعرف بشرا ولا ناسا ..

ثم ان الصدور هبطت باختفاء الراقصة وأعلن الميكرفون أن النمرة القادمة يؤديها مطرب الراديو والاسطوانات ونجـم الأفراح لدى الأسر الكريمة « عنتر كبايه » ضحكة مسرسـعة بسبب طرافة الاسـم ، حتى ضحك الجميع لضحكتها ، فأعجبهـا ذلك فاسـتطردت معلقة : « كباية ولا كوز » فانفجرت عواصف الضحك من صدور صافية وقلوب رائقة . أحست بنشوة خارقة كالنشوة التى أحست بها لحظة تصورت نفسها مكان الراقصة البديعة . انفرج الستار عن فرقة موسيقية أكثر اتزانا وبها عدد كبير من أفندية محترمين يمسكون آلات ذات شبه كبير

بالربابة . ثم ان الأنغام تناثرت شاردة ثم تجمعت والتأمت .ثم دخلت الطبلة ومن خلفها الرق فى ضرب ساحر خلفه أنغاما تستقيم وتتداخل وتصعد الى ذرى الانفعال وتهبط الى مهاد النشوة البالغة . ثم ان بصرها الملتاث توقف عند شاب يقف فى خجل جميل وأناقة فاذا به الشاب الذى عزمها على الفرجة وأحبته .

رأته عند الباب يبعث البصر فى كل اتجاه باحثا عنها ، لكنهـا أغرقت نفسها فى الزحام خوف الوقوع فى الفتنة . لكن الزحام نفسه كان الفتنة بعينها ومع ذلك تحبه ، لقد صارت تحب الغزل الجماعى بنوع خاص ، فهو عادة غزل مهذب يحتمع على كلمة ذات أوجه متعددة ، غزل الجماهير وسع من ادراكها لجمالهـا ، بفضل الغزل الجمـاعى عرفت عبقرية جمالها وعرفت فى المقابل أن الخشية كلها من الغزل الانفرادى اذ هو ينضح بوساخة النفس وسوء نيتها ..

غير انها فى نهاية المساء أو مع تباشـير الصباح واجهتها حيرة فادحة اذ أحست بضرورة أن تعود الى مكان تريح فيـه جسدها وتتأكد من جديد أن لها أهلا وناسا . وجدت نفسها سائرة الى شقة .. فليكن اسمه مختار بيك طالما أن هذا الاسم هو العالق بذهنها ..

ـ ١٢ ـ

كان واقفا فى الشباك يتلصص فعرفت انه فى نتظارها وأحست أن هريدى لم يعد . مع ذلك طرقت باب الشقة فانفتح فى الحـال قبـل انتهاء الطرقة . قالت : « تصبح بالخير .. هريدي وصل ؟ » . قال وعلى شفتيه ابتسامة لزجة : « وصل ـ اتفضلى » . دخلت فأغلق الباب فى هدوء .. تحركت فى الشقة وجلة حيرى . أشار لهـا الى الحجـرة الداخلية نحوها وهو خلفها . قال : « ادخلى » ، فدخلت فلم تجد سوى الفراغ فارتدت مستديرة فاذا به يسد الباب فى وجهها ويدفعهـا الى

الداخل ، ثم ارتمى على صدرها كالخرقة كممسحة البلاط تنشر ماءا قذرا : « عشان خاطرى أنا فى عرضك اعملى معروف أبوس رجلك » ولا فائدة . لهاثه يفيض بريالة وعرق ذى رائحة كريهة ، وهى بكل قوتها تدفعه كل دفعة ودفعة كأنها تقذف بكرة من المطاط ، يرتد عائدا اليهـــا مهيض الجناح بحركات أكثر جرأة ونذالة كأنه يرحب بالمهانة مقابل أن يمسك ثدييها بقبضة عنيفة لبرهة أو يتحسس مؤخرتها . شعرت بغاية القرف كأنه حشرة البق تصر على السرحـان داخـــل الجســـد . أصرت على ألا تستسلم له . ضربته بالكف على وجهه . هددته بالصراخ وطلب الحكومة . لشدة عجبها لم ينفعل بل نظر اليها قائلا فى قوة زائفــة : « طب امشى بره مع ألف داهيه » ، ثم أشار لها الى الباب فتقدمت تفتحه بحذر فاذا به يطوقهـا من الخلف بقوة شـــديدة كالجنازير الحديدية كالقبر ، وكان قد استقر تماما فى قناة ظهرها فصارت بكل تقزز تنتفض صائحة وهو يرتفع وينخفض معها كجرادة علقت بها لا تبغى انفصالا ، ثم اذا به يذوب ينثـال فوق الأرض تاركا فوقها لزوجتـــه القذرة .. فاستدارت اليه كلبؤة شرسة فصارت تبصق فى وجهه وتضربه بقدميها ويديها وهو يدافع عن نفسه كحيوان أليف . هبت الجدة مذعورة تجرى وأخذت تحاول ابعادها عنه بكل قوتها الواهنة ، فضربتها هى الأخرى ودفعتها بغيظ حاقد فوقعت فو: ابن بنتها . فما أن اعتدلت وتماسكت حتى بصقت فى وجهه ورفسته بقدمها فى اشمئزاز ، ثم دفعت بها الى الخلاء لاعنة أباها والذين خلفوها .

ـ ١٣ ـ

عادت من جديد الى ســـاحة السرادقات وموطن الاحتفـــال بالمولد فما وجدت سوى جموع الفلاحين تمشى كالبهائم مبهورة مذهولة تصيح فى لغو غير مفهوم ، يختلسون اليها نظرات فيها شتائم واتهامات وقلة حياء . وكانت تحس أنها تكرههم ولا تطيقهم . لكنها كانت تبحث بينهم

عن هريدى • سألت عنه فى مطرح الأمس : الجدع بتاع الربابة ده ـ اللى كان بيغنى هنا ليلة امبارح •• تعرفوش راح فين مع مين ؟ ••

على ان كل الذين سألتهم شيوخا كانوا أو شبانا تركوا مهمة الاجابة عن سؤالها وراحوا يتفرسون جمالها وينبهرون ويكشفون عن نواياهم السيئة • قابلها ناس من أهل قريتها تعرف بعضهم ويعرفونها وتعرف بعضهم ولا يعرفونها والجمع عاكسوها كأنها غريبة عنهم وتآمروا على اصطيادها كفريسة شاردة وحدها ••

تفتقت مشاعرها عن حيلة ذكية ماكرة نفذتها فى الحال ، دخلت الجامع واندست بين النساء العجائز واستغرقت فى نوم هنىء رغم الضجيج الهائل • فلما استيقظت التف حولها بعض العجائز الطيبات وسألنها عما بها فقالت لا شىء فقلن لا فقالت ماذا رأيتن ؟ فقلن فتاة مسكينة منطرحة تهذى طوال يومين بليلتين فهبت مذعورة فأمسكنها وقلن اسمعى تعقلى فأين تذهبين ؟ • قالت أنها تذهب لزوجها هريدى • قالوا هو زوجك اذن ؟ ولكن ماذا فعله بك ذلك المدعو بالباشمهندس وما دخل البوليس وحضرة الضابط عنتر كبايه ؟ ••

ضربت صدرها بكفها : « ياخرابى •• بوليس •• عنتر •• دى خطرفة جامدة قوى » • قلن نعم هى خطرفة لا شك ولكن فى الأمر ضابط اسمه عنتر كبايه تريدينه أن ينتشلك من قبضة نذل يدعى الباشمهندس البيك •• قالت فما كنت أقول عن هريدى ؟ قلن كنت تنادين عليه فحسب والظاهر انه لم يكن يسمع • لم تجد مفرا من أن تحكى لهن ما قد حدث على وجه الدقة والتفصيل ، فمصمصن شفاههن فى اشفاق شديد فيه الأمومة الحقة • الا أن ما هز قلبها بقرصة جادة هو أن بعض هذه العجائز كن رغم أمومتهن وحبهن الشديد لها يخفين خلف نظراتهن خبثا عميقا يتهمنها بأنها لابد هى السبب فيما حدث ولابد

انهـــا تمشى بالاغواء بين البشر ، فعادت وكرهتهن بعـــد أن كانت قد أحبتهن .

عندما نهضت واقفة لتسأل عن هريدى أوقفنها ثانيـــة وقلن لها اذا لم تجدينه فعودى الينـــا لتحرسك عناية الله وعنايتنا . فقالت لهن انها طبعا ســـــوف تجىء .. لكنها كانت قد قررت ألا تعود اليهن مهما كان الأمر .

– ١٤ –

عند خروجها من الجامع واشرافها على ساحة السرادقات خيل اليها انها تخرج من جب عميق وأنها كانت قد ماتت سنوات طويلة ، الصور تستيقظ فى دماغها شيئا فشيئا وببطء شديد . كل شىء تراه كأنهـــا تراه على حق هذه المرة اذ تراه فى صفاء .

كان الليل لا يزال وليدا فخطفت الطريق الى بيت الشؤم تســـأل عن هريدى هل جاء أم لم يجىء أصلا . كانت الشقة لا تزال مضاءة كلها والشبابيك مفتوحة وأصوات قريبتها كلها تخرج منها . بصوتها الناعم الذى يزجرونها بسببه دائما ويقولون انه عورة ، نادت : يا جمـــاعة يالى هنا . فأطل لها هذه المرة رأس غليظ تعرفه هو رأس الحاج والد الباشمهندس . ما ان وقع بصره على وجهها حتى اكفهر واربدت ملامحه وصاح فى قسوة مريرة : « هو انتى ؟ . عايزه ايه يابت .. جايه هنا ليه يابنت الفرطوس .. انتى حطيتى عينيك م الولد ولا أيه ؟ .. لا .. دانا أسجنك وأخلى سنة أبوكى سودة وزى القطران » .

بصوتها ذاك وقد بكت بحرقة خرجت الكلمات منـــه بصعوبة : أنا جايه أسأل على جوزى هريدى » . فرد بجعيره الذى تشتهر به أسرته : « جوزك حيجى هنا ليه يا صايعه يا بنت الكلب .. امشى انجرى ..

اياك أشوف وشك هنا تانى ·· وأنت يا ابن الكلب تعالى هنا ـ ثم جر ابنه ـ تعرف البنت الصايعه دى ؟ أيه اللى خلا جوزها بيجى هنـــا ، ثم انهال عليه ضربا بالأكف والشلاليت حتى أوشك أن يقتله · الطريف انها صوتت ونسيت ما لحقها ، فلما التم قالت باكية : « حوشوا الراجل حيقتل ابنه ـ المجنون » ··

فنظروا اليها ساخرين وأغلقوا الأبواب · وارتدت هى الى ساحة المولد تدفن فى زحامها دموعها وأحزانها التى بلا نهاية ·

ـ ١٥ ـ

ظلت تسير فى الساحة رائحة غادية ووجوه النـــاس والشوارع والليل كل ذلك يزداد شحوبا · أبدا لايريد هريدى ان يخرج من مآقيها فهو فى دماغها وقلبها وهو الضوء والظل وهو البـــاب والحائط ، لقد خلصها على الأقل من شراسة أعدى أعدائها ــ أمها ، كذلك خلصها من وجه خالها المكفهر على الدوام ، ومن صفاقة أبناء خالها صبيانا وبنات ·

فى السرادق سألت عن « عنتــر كبــاية » الذى هش لهـــا وفتح ذراعيه فى سعادة كبيرة حانيه · وكأن شـــيئا فى ذراعيه المفتوحتين أرغمها على الارتماء فى صـــدره فطوقها وربت على كتفها فكأنها تحس بدبيب الحياة فى أوصالها لأول مرة ، ووجدت نفسها تبكى ، ووجدت فى قربه راحة كبيرة · اذ وجدت فى نهاية الأمر من يقول لها بصدق : « مالك » · أخيرا وجدت من اذا نظرت فى عينيه لا تجد طمعا ، لا تجد تلك النظرة الحيوانية المتنكرة ، فلما شرعت تحكى قال لها : «مش وقته»، ثم أجلسها فى مكان جميل ·

تفرجت وابتهجت وفرحت كأنهـــا نسيت كل ما كان من أمرها ، أحست كأن ماضيها كله قد سقط فى بئر مظلم وكأنها بنت اللحظة أى رجولة تلك التى أظهرها عنتر كباية فى تلك الليلة ؟ لم يفعل شيئا

منا خطر على بالها ، كل ما لم تكن تتوقعه فعله ، فى جدية شديدة سلم على زملائه واصطحبها وانصرف خلسة • جرى بها الى محطة القطـــار وركب بها سيارة أجرة الى العاصمة فى الطريق حكت له كل شىء عن قصتها مع خالها وأهل قرينها ، لكنها ـ المكاره ـ لم تقـــل له انهـــا تزوجت ، بل لم تقل له اسمها الحقيقى ، أما عن الزواج فانها بالفعل لم تتزوج وان شئت فاكشف على وقد صدقت فى ذلك بشكل ما ، ولكن بأى جرأة قالت له ان اسمها : « البتعه •• البتعه محمود الخليلى » • تضحك فى شعور بالرهبة كلما تذكرت ذلك ، كلما تذكرت نفسها وهى تجاهد لتنسى اسمها الحقيقى ، لتنسى : « بسيمه أحمد ربيع » ، تشعر بالرهبة كلما تذكرت عنتر كباية وهو يجرى من مكتب الى مكتب ومن قسم الى قسم يقابل ويبرطل بسخاء من أجل تسنينها وعمـــل بطـاقة شخصية لها على أساس انهم ناس يقضون عمرهم فى سفر بعيد لاحياء الحفلات والأفراح وهم أحوج الناس الى البطاقة الشخصية • حتى الآن لا تدرى كيف تمكنت من نسيان اسمها الأصلى والتعلق باسمها الجديد كأنها ولدت به ، غير أنها لا تنسى مطلقا لحظة جلوســـها أمام المأذون للمرة الثانية حيث ناداها باسمها الجـــديد ودونه فى القسيمة ودون بجواره أنها قد وهبت نفسها لعنتر كباية على سنة الله ورسوله •

— ١٦ —

شقة جميلة واسعة يسكنها فوق جبـل الحواوشى وبحذاء مقابر كثيفة • كانت جثث الموتى تدفن فى البيوت المجاورة باعتبارها أحواش معدة للدفن • كان ذلك يصيبها بكثير من الانقباض فى أول الأمر ، لكنها بين جثث الموتى تعلمت كيف تدب الحياة فى جســـدها كأنشط وأنفى ما تكون ، كيف تتخاطب كل عضلة فى جسدها مع الرائى • أكثر من هذا تعرت على كبار المهربين والأشقياء والعظماء والوجهاء ••

كان عنتر كباية يعرض عليهــا جرائد ومجلات كثيرة كل يـوم ويقولها لها : « أترين هذا ؟ » ويشير الى صورة شـخص مهيب مغرود على الصفحة . تتأمله لبرهة صــائحة : « انه فلان .. يوه يقطعه .. الذى فعل كذا » ، وتحكى كيف كانت تقوم بالأعداد لسهرة مخـدرات كبيرة كان من بينها هذا الزبون وإنه تقيأ وخطرف وشخ على روحه .. الخ . فيذعر عنتر كيــابة ويصيح واضـــعا كفه على فمها : « ش ش ش .. يخرب بيتك .. انه كذا وكذا » . ويصدع رأســها بألقـاب وأشياء لم تسمع بها من قبل ولا تفهم لها معنى ولكنهـــا تلخصها فى ذهنها بأن تلك شخصية كبيرة فى البلاد ، وان هذه شخصية أكبر ، وأن شقتها فى الواقع ليست شقتها بل هى وكر لاجتماع هذه المجموعة الهائلة من شخصيات تراهم فى الصحف وتسمع أسماءهم فى الراديو

— ١٧ —

. حارث فى أمر « عنتر كباية » ولكنها كانت تحبه ولا تتوقع منه العيب أبدا . يوم دخلتها عليه اكتشفت لماذا هى جميلة ولماذا يحب الناس الجميلات ، كما اكتشفت أشياء كثيرة جميلة لم تكن تعرف عنها شيئا . فمنذ أن وقفت أمام مرآة التسريحة رأت أمامها سيدة أخرى لا صلة لها ببســـيمة بنت الحقول وتلصيق الجلة والتشرد بين دروب المهـــانة ليل نهـــار ..

رأت نفسها سيدة كالسنيورة التى تراها فى المجلات والتصاوير المعلقة ، أمام عينيها دفع « عنتر كباية » فى الفستان الواحـــد جنيهات تصلح مهرا لابنة العمدة ، وقال ضاحكا ان ثمن الفســـتان الواحـد يقبضه من صاحب السيرك طوال أسبوع المولد . فلما سألته من أين تجىء بالباقى يا عنتر يا حبى ؟ قال ان ربنا يرزق الدود فى بطن الحجر فقالت نعم ، ولم تعد تسأله بعد ذلك عن شىء من هذا أبدا ، لكنهـــا من فرط

الشعور نحوه بالشـــكر والحب وطنت النفس على الا ترفض طلبـا له مهما كان الأمر ٠٠

لكنها فوجئت ان الشقة ليست مجرد شقة بل مدينة ، ولم تكن لها وحدها بل لعشرات من الأفندية والبكوات والسيدات اللائى كن يغرن منها ويحببنها فى نفس الآن اذ يتطوعن بتعديل ثيابها وتلقينها أصول اللبس والا عيبه ومغزاه ٠ لم نقلق من هذا الزحام بل أنست اليـــه فأدخل على قلبها الونس ، ولم تشعر بثقله لأن عنتر كباية كان يملك الزمام ويستطيع اخلاء الشقة من كل زوارها فى لمح البصر وتهيأتهـا لزوار جدد أو لها هى وحدها لأيام طويلة ٠ فى الواقع لم تكن تفهم من ذلك شيئا ولم تكن فى الحق تريد أن تفهم طالما انها ترتع فى نعيم مقيم وتستحم بالكولونيـــا ٠

ـ ١٨ ـ

الانســان لا يستطيع ان يغلق عقله بارادته ، ولم يكن قد بقى فى ذهنها من ماضيها سوى كلمة قالتها حماتها السابقـة أم هريدى : بنت الأصول تعيش مستورة ولا ترى الفقر أبدا لأنها تستر على زوجهـــا وعيشها فلا تفتش وراء الرزق من أين جـــاء ولا كيف ٠٠ والبتعة ، أو الست بتعه هانم ترى وفودا تلعب القمار فى شـــقتها حتى مطلع الفجر ٠ رجال كبار ذوى مهابة ينحنى لهمحتى أولئك الذين يغلبونهم ويسحبون نقودهم ٠

المجنون أوراها صورا فى الجرائد لرجـــال يلبسون اللبـــاس العسكرى والجماهير تهتف لهم وتلتف حولهم ٠ أشار لها على صور أخرى تبدو فى منتهى الجدية والقوة مع انها تراهم فى الشقة بلا جدية وبلا أى قوة على الاطـلاق بل تراهم في ضعف شـديد يهزءون بعضهم بعضـا بشتائم قبيحة مخجلة ٠ قال عنتر كباية لقد أصـــبح هذا مديـرا لمكتب

هذا ، وأصبح ذاك مديرا للجهاز الفلاني وما أخطره من جهاز ، وأصبح ذاك مسئولا عن كذا فى البلاد ... الخ .

ثم قال أيضا انه يعرفهم منذ سنوات بعيدة حيث كان كل منهم زميلا له فى شىء ، فى الكتاب أو المدرسة أو الحارة أو النادى أو هواية الفن أو الصعلكة أو حب النساء أو المقامرة . قال لها كذلك انهم سوف ينسحبون عن عالمه شيئا فشيئا وسوف لن يرفعوه الى مصافهم أبدا ، انما سيظل فى نظرهم دائما « صبى العوالم » الفاسد الذى لا يحتاجونه الا فى مسائل لا يجيدون الاتصال بها ، فالواحد منهم مهما كبر أو عظم فان أشياء فيه تظل كما هى لا يمكن ان تتغير أبدا وان تغير شكلها فالمصاب بداء الحشيش كالمصاب بداء النساء كالمصاب بداء الأفيون كالمصاب بداء الرشوة كالمصاب بداء السرقة كالمصاب بداء الكذب كالمصاب بداء التملق .. محسوبك عنتر كباية تربية الدرب الأزرق وحارة الجوانيه وجبل الحواوش كنت أصادق وأزامل أولادا من كل مكان .. حكم البلاد يا بتعة لابد من ملك يرث العرش أبا عن جد . ولكن ما دام لم يعد هناك ملك يتسلم ارثه ، وما دام عرش الحكم فى البلاد قد أصبح مباحا لعامة الشعب فان الأمر يجب ان يتاح لمن كان أجدع وأعدل ، عنتر كباية مثلا ، خيره على الجميع وخدماته تغرق الجميع وشهامته مشهورة ولكن هل يجىء له عرش البلاد ؟ لا طبعا ، فللدنيا أحوال غريبة . تزحزح عرش البلاد جركة فيقع فى أيدى بعض من كانوا يشربون ويتصعلكون ويتصيدون النساء معه .

تضحك البتعة من كلامه وتنحاز الى صفه على اعتبار ان الأمر برمته من قبيل الأساطير ، فهى تصدق أن يجور الزمن على كل الناس الا على الملك ، وأن ينهزم كل الناس الا الملك ، وأن يتسامح كل الناس ويتنازلوا عن حقوقهم تجاه الآخرين الا الملك لا يتسامح فى ملكه أبدا ولا يتنازل عن عرشه الا اذا كان والعياذ بالله قد أصابته جنة . صحيح انها رأت صورا وكلاما منشورا في الصحف ولكن أليست هذه

الصحف يطبعها ناس ؟ ربما لم يعلم الملك بها أو بهم والا فانه لابد أن يعاقبهم على نشر هذه الأكاذيب عنه ..

لقد ظلت « البتعة » تنتظر زمنا طويلا ان يصل خبرهم الى جلالة الملك وتسمع ان العساكر الهجانة قد جمعتهم ـ كما يحدث فى قريتها ـ وضربتهم بالكرابيج على مؤخراتهم تأديبا لهم . لكنها فوجئت بأن الشعب كله يتحدث عنهم والراديو يذيع أصواتهم تتكلم فى حماس وانفعال غريبين لا تدرى ما المبرر لهما . والجميع يهتف .

ـ ١٩ ـ

ثم انها بدأت تلاحظ ان الشقة فرغت فجأة الا من ناس بلا شأن . كان عنتر كباية يجلس أمامهم متباكيا يذيع أخبارا غريبة يزعم انها حدثت على يديه فى هذه الشقه وبين هذه الجدران التى لو نطقت لأيدته بلا جدال ، من قبيل انهم ضحكوا عليه وأكلوا الكوسة فوق دماغه . ألم يحتفظ لهم فى هذه الشقة بأسلحة ومنشورات ؟ ألم يختبىء فيها ناس منهم أياما بلياليها . ولا يقولون له عن السبب ؟ ألم يستخدموه فى نقل رسائل شفهية وكتابية لناس غريبى الأطوار لا يعرف كيف كان من الممكن أن تنشأ بينهم وبينه صلات ؟ .. هو حمار وابن كلب من الأساس ، كان يجب أن يدس أنفه فى كل شىء ويعرف حقيقة هذا الذى يشارك فيه ، لكنهم طول عمرهم هكذا يعرفونه « ليستكردونه » وهو من طيبة قلبه يطاوعهم ويفعل ما يطلبون منه دون مناقشة حتى لا يبخلون عليه بصداقتهم ، كان يخشى ان يناقش أو يثير وجع الدماغ فينصرفوا عنه وهو فى الحق يتشرف بصداقتهم ويستفيد من وراء معرفتهم ..

مرة أخرى تضحك « البسة » من طيبة قلبه وتشفق عليه ، خاصة حين كان المستمعون اليه يفزعون من كلامه ويصيحون : « ما توديناش فى داهيه يا مجنون » . العجيب انهم جميعا راحوا فى داهيــة بعدها بأيام قليلة .

كانت أياما سوداء • جـاء رجـال عند مطلع الفجـر واقتادوا عنتر كباية بثياب نومه الى حيث لا تعرف • ظلت تتنظره أياما وأسابيع وتسأل عنه في الأقسام والمستشفيات دون جدوى • كل من قابلتهـم فى تلك الرحلة المضنية ظهروا كأنهم يعرفون حقيقة الأمر وكأن بامكانهم احضـر زوجها من تحت طقاطيق الأرض • تحصل على مواعيد بشـأنه لتجد نفسها محاصرة فى شقة أو فى كازينو أو فى أى ورطة سـوداء تنجأ فيهـا الى الصراخ والفضيحة فى طلب الخلاص • كان بعضـهم من معارف زوجها الذين انقطعوا عن زيارتها يلتقون بها صدفة فيهمسـون لها بوصايا غريبة : « أتعرفين فلان الفلانى الشهير بكذا : » فتقول نعم كثيرا ما ناولته الحذاء بيدى • فيقولون لها : فى يده الخلاص » • لكن آخرين همسوا لها محذرين : « بل فلان هو الأهم » ••

ولقد تذكـرت هذا الأهم ، كانت تظن انه ولد تلميذ يشبط فى ذيل أقاربه الكبار حين يذهبون الى مشوار ، كان بكل نشـاط وحيويه يتطوع عند احتدام السهرة بالقيام والذهاب الى المطبخ ومشاركتها فى شغله ، كما يقوم بتوضيب الجلسة ، ان كئوسا فينظفها ويهيىء الثلج فيها وان حجارة فينظفها ويكرسها ويرصها نارا •• أفيكون هذا الجدع قد أصبح فى هذه الأملة التى يحكون عنها ؟ • والله لتذهبن اليه وتضع عينيها فى عينيه » ان نسيها فما مداعبات المطبخ ببعيـدة ، وتحككه فيها وتماديه فى ذلك تشهد بهما صيحتهـا المدوية التلقائيـة التى أسكتته وأضحكت عليه من انتبهوا لنواياه الخبيثة وراء تطوعه بالخدمة ••

ومنذ تذكرته تذكرت ما كان يسطع فى عينيـه من نظرات حاقدة ضاغطة ، نظرات لم تكن تستريح لها مطلقا • لهذا ترددت فى الذهاب اليه • شجعها على مزيد من التردد همسات الشعب فى أذنيها واذن غيرها ممن فقدن أزواجهن بأن تريح نفسها بدلا من الجرى وراء السراب فقد

وقع زوجها فى قبضة الطاغوت والحلم بعودته سراب · لكن انذارا من صاحب البيت وصلها يأمرها بمغادرة الشقة فى أيام قليلة · وكانت قد أصبحت وحيدة تماما حتى جدران الشقة التى أيقنت من أن لها بالفعل آذانا أصبحت شاهدة على اغترابهـــا · لكن أين تذهب وهى على الأقل جدران تسترها ··

— ٢١ —

لبست هدومها الأنيقة الثمينه وأغلقت الشقة وركبت عربة أجرة وأعطت للســـائق ورقة فيهـــا العنوان · اضمحل الشبق فى عينى السائق وآب غزله البهيج الى شعور فادح بالخوف كأنمـــا انطفأ فيهـا البريق الحلو الى الأبد · ظل يمشى بها فى تؤده ، ولا يدير رأسه نحوها حتى وصل الى العنوان فنزل وفتح لها الباب قائلا : « اتفضلى يا أفندم » · فأعطتــه الحساب وهى تكتم ضحكة جـذلة من رفضه للحساب · ثم أنها كافأته بترك بقية الفكة ·

كأنما فى عينيها ووجهها وكيانهـــا سرا يقول للرجـــل : قف ، فيقف · ان تكن قد رأت بسبب تشردها كثيرا من الأنواع فانها قد رأت بسبب جمالها كثيرا من الأسرار والأخبار · طلبت من البوابة المحاطة بالعسكر والشارات الحمراء مقابلة الاسم المدون فى البطاقة ، فاقتيدت فى الحال اليه ، ولا بد ان هيبة جمالها قد صادرت فيهم كل الأسئلة · اذا به حقا كما يقولون مهم الى حد كبير جدا · العشرات يحرسونه والمئات يطلبون مقابلته ، وهو من فرط ذلك فى عز وبغددة كأنه ملك الملوك ·

كانت فى طريقها اليه قد عرفت ان كل ملك يظهر لهـــا يتضح أنه مجرد بواب لملك آخر ينضم هو أيضا الى جموع الواقعين فى عرضه ·

ما ان رآها حتى هب فى استقبالها . كأن الدنيا نفسها قد أقبلت عليـــه بالسعد وان ظهر خلف نظراته الولهى شعور غامض بالخوف والتوجس • أجلسها أمامه على كرسى وثير فى حجــرة وثيرة فشعرت بالأبهة وبدا فى نظريها رجلا سامقا من علية القوم ليس فوقه حاكم آخر • غير انه صغر فى ناظريها بعد برهة حين انتفض وقفا كأى خادم مذعور حين رن له جرس فوق دماغه مباشرة ، ثم اندفع يجرى تجاه باب خفى ودخل مهرولا ثم ما لبث ان خرج مهرولا يتعثر ، وصار يبحث عن أوراق يأخذها ملهوفا عاد بها الى الداخل فغاب قليلا ثم خرج يمســح عرقه . ثم تلعثم فى أذنيها والمهانة واضحة عليه محاولا افهامها بأنها ارتكبت خطأ لا يغتفر بحضورها اليه وأن عليها بالانصراف حالا ولسوف يلقاها فى الخلاء ويعرف ماذا تريد ، وعلى العموم فان كانت تريده فى أمر عاجل فانه سوف ينتظرها الليلة فى هذا العنوان ، وسحب بطاقة دسها فى يدها خلســــة •

لم يزعجها من ذلك شىء سوى ورود كلمة « الليلة » فى الحديث ، فلقد باتت تكره هذه الكلمة لأنها تكشف لها دائما عن نوايا سيئة •

— ٢٢ —

لكنها ذهبت اليه • فى المساء استقلت عــربة الى منطقة ســكنه وصعدت عمارة عالية وطرقت باب شقة انفتح لها عن أضـــواء كابية وأثاث عريق • كان فى استقبالها وحده وبثيابه المنزلية ولا أحد فى الشقة غيرهما والشيطان ثالثهما •

اقتادها مباشرة الى طرقة مستديرة تشرف على بــار أنيق • فاذا بالمأكولات مرصـــوصة جاهزة للأكل واذا الكئوس مهيأة للشراب • صعد الى كرسى وأشار لها على المواجه فصعدت هى الأخـــرى بقليل من

الارتجاف · تناولت كأسا وعلقه فى الهواء قبالتها صائحا : « كأسك » فتناولت هى الأخرى واحدا رفعته مثله فلطمت كأسه فأحست بسعادة فائقة رغم محنتها الفائقة ·

كان القلق واضحا فى محياها فقال لها : « اشربى » · فلما ترددت هبط عن كرسيه وجذب التليفون وأدار قرصه ثم صاح فى عشم قليل الأدب : « أيه ياد يا ·· انتوا دايرين تمسكوا الناس عاطل مع باطل ولا ايه · فيه أيه بالضبط ·· هيه ·· هيه ·· هيه ·· طب المسكين عنتر كباية ده ·· ماسكينه ليه ؟ بالزمه مش مكسوفين ؟ ·· يا راجل بلاش عبط امال ·· تقارير أيه وبتاع أيه ؟ تقارير خايبة زى اللى عاملينها واللى مصدقينها اسمع ·· الراجل ده أنا سـمعت انه على علاقة بفلان وفلان ·· يا ترى ده صحيح ؟ ·· مانا ما أعرفش بصراحه طب ما تقوللى يمكن أنا مغشوش ·· أيه علاقته بهم بالضبط ؟ ·· آه ·· آه ·· آه ·· آه ·· أنا معلوماتى انه واد ارتيست على باب الله · نمره فى شـارع الغرام فى مولد فى كازينو فى فرح ·· آه هو لسانه طويل شويه ·· طيب ·· أوكى ·· أوكى ·· سلام » ··

ثم وضع السماعة وصعد اليها وكانت تتابعه فى انبهار شديد ، فلما واجهها ركز فى عينيها نظرة تنم عن رجولة مبهرة ثم قال بثقة : « كان من المفروض ألا يخرج عنتر كبابه من المعتقل مدى الحياة ·· ولكن ·· اكراما لخاطر عينيك العظيمتين ·· فسوف أفرج لك عنه ·· ولكن ـ ما الأمر بالضبط ؟ ماذا كان بينه وبين فلان ؟ · اشربى من فضلك ·· هل فلان هو الذى عرفه بفلان ؟ ·· اشربى يابطـة ·· وهل لاحظت شيئا ؟ من الذى كان يخسر فى القمار لمن ؟ هل كان يخسر عن جدارة أم يخسر عن عمد ؟ ·· عنتر كباية منذ متى تعرفينه ؟ هل كان واسطة بين فلان وبين أقاربه فى الصعيد ؟ هل تكلموا أمامك عن أسـلحة ؟ هل جاء بسيرة فلان ؟ ـ ذعرت حين نطق فلان هذه المرة دون ألقـاب كأنهما صديقان ـ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ ·· » ··

وهكذا شعرت بالهلهلة ، ثم بالخناق يضيق حول رقبتها وبأنها يجب أن تنصرف فورا · فلما شرعت تهيء نفسها للانصراف جاءها احساس بأنها هي الأخرى قد دخلت السجن المؤبد · أرادت أن تجرب امكانية الخروج فنهضت واتجهت الى البــــاب مستأذنه لمشاغل وراءها كثيرة · لكنه ســـد الطريق بنظرة من عينيه أفهمتها ان ذلك مستحيل الا اذا أذن لها في لحظة صفر معينة ··

« لسه بدرى يا هانم ·· الحديث لسه ما انتهاش » ، ثم شرب جرعة أقشعر لها وجهه · رغم احساسها بالفجيعة جلست اجلالا لكلمة يا هانم وحدها · وضعت ساقا على ساق لتليق جلستها بهانم حقيقة · ضـــحك هو اذ اكتشف في جلستها هذه شخصيات كثيرات من هوانم السهرة في شقة عنتر كباية · أشار لها الى البار فاعتذرت بأن الخمر بجميع أنواعه يجلب لها المرض وانها جاملته بكأس دليل معزته عندها · وكان هو قد أتى على نصف الزجاجة فقام اليهـــا في الأنتريه وجلس بجوارها فنفذت الى خياشيمها رائحة الخســـة · بنظرات خوف تأملت وجهه ورقبته ، كل ملامحه ، فتأكد لها انه من أصل غير مموكى ؟ بل انه من غير أصل ، انه لا يختلف عن ذلك الذى رســـخ في ذهنها باسم « مختار بك » وهو ليس بمختار ، في عينيه نفس الضعف الذليل ونفس الخسة ونفس الرغبة في المساومة والتنـــازل الى أبعـد الحدود مع فارق بسيط هو أن هذا أكثر سيطرة على نفسه من ذلك المدعو مختبار ، صبى هو في ثيـــاب رجـــل ، خسيس في موقع كرم ، نذل في اهـــاب سلطان : الضعفاء والأخساء أعداء من يكتشف حقيقتهم ، وهكذا لانت ملامحها قليلا وأظهرت مدى سعاتها بمعرفة سيادته ··

راح يلقى على سمعها كلاما أغرب من الخيـــال ، منه أنهـــا هانم محترمة وابنة ناس كما يبدو فكيف قدر لهـــا أن تقع في قبضة متشرد مثل « عنتر كباية » ؟ ومنه ان « عنتر كباية » قواد تزوجها ليبيع جسدها بأغلى ثمن · ومنه ان « عنتر كباية » كما تقول التقارير الرسمية يعمل

جاسوسا لصالح العدو الاسرائيلى ؟ هبت واقفة من فرط الذعر وقالت له بكل انفعال ان عنتر كباية لم يمح جسدها لأى أحد • فقال لها انه يبيعه دون أن تدرى هى ، اذن أن عمل « القوادة » قد تقدم هو الآخــر وصار اللحم البشرى يباع بالجملة ، أى أن القواد نفسه قد يعمل قوادا دون أن يدرى لأن هناك قوادا أذكى منه وأوسع خبرة وحيلة واتصالات يسيطر عليه من خلال موضوع آخر • كذلك اللحم الذى يباع ، الأجسام الحلوة الطرية مثل جسم سعادتك تنطرح بكل براءة على أسرة الفسق موهومة بحب أو بمصلحة أو قضية ، وواقع الأمر أن هناك من قبض الثمن لتدور هذه الدائرة حول هذا المركز ••

لم يستطع عقلها الصغير أيامهــــا ان يستوعب معنى كلامه وان حفظته جيدا • خبطت الأرض بقدمها صائحة بأن عنتر كباية لا يمـكن أن يكون جاسوسا لأحد ، هى لا تعرف ما هو العــــدو الاسرائيلى ذاك ، ولا تعرف ما الذى بيننا وبينه أو بينه وبيننا ، وكذلك لا تعرف ان كانت محل اقامة العدو الاسرائيلى ذاك فى القــــاهرة أم الشام أم لبنــان أم فلسطين من هذه البلاد التى تسمع عنها كثيرا ، هى لا تعرف أى شىء عنه ولكنها تسمع الراديو وتــرى فى ذلك المسمى بالتليفزيون الموجود حديثا عند الجيران ، فلا تفهم من قول المذيعين شيئا ، لكنها قد لخصت لنفسها المسألة بدون وجع دماغ فى أن ثمة شخص اسمه العدو الاسرائيلى يناصبنا العداء لله فى لله ويتربص بأمة محمد ويلقى لها الرعب والفزع فى الشوارع والحارات وقد يجد الانسان قطعة ذهب أو جواهر ملقاة فى الأرض فلا يقربها خشية أن تفصح عن قنبلة تنفجر فى وجهه •• فان يتضح أخيرا أن عنتر كباية جاسوس لهذا العدو معناه انها كانت متزوجة من هرم الجيزة الأكبر ••

ضحك ذلك الذى أسمته بمختار الثــــانى وهو ليس بمختــــار ، ووقف متقدما نحوها فى مرح طفولى ووصفها بالطيبة الشديدة فيما يضع كفه على ظهرها فأحست بقشعريرة كأن لزوجـــة علقت بهـــا ، ثم عاد

فاستغرق فى ضحكة مفتعلة ثم تصنع انه داخ لكى يريح رأسه على كتفها . ظلت واقفة مسمرة فى مكانها لتكتشف نواياه الحقيقية . كانت أنفاسه الساخنة ذات الفحيح النتن تكاد تصنع قرحة فى رقبتها ، ثم اذا بقطعتين من النار تلسعانها فى رقبتها فتشد نفسها مذعورة وشفتاه كبوز خنزير يلاحق جيفه . أبدا لن نكون جيفة لتدع هذا الخنزير يلتهمها . هى واثقة من انه نصاب كبير . لقد حكى لها عن عالم القوادة المتقدم وكيف يكون . وهى مستعدة الآن لتحكى له عن عالم النصابين وكيف يكون ، لتبين له كيف انه نصاب ومنصوب عليه دون أن يدرى ..

دفعته برفق فتمايل مترنحا فأسندته فركبته عظمة مفاجئة ، حتى انها انفجرت رغما عنها ضاحكة من لغد العظمة الثابت تحت ذقنه أدوارا تخت بعضها ، ومن تكشيرة ملكية لا أساس لها من الصحة تعتلى حاجبيه ، ومن نظرات احتقار تحتقن منه الجفون تكاد تنفجر . ضاحكة أجلسته على الكنبة المريحة وفكت له زرار المنامة . ثم سحبت حقيبة يدها وتأبطتها كالهوانم ، ثم ربتت على ذقنه فى مداعبة مشفوعة بابتسامة تأمن بها شره ، ثم أنها مسته بالخير واتجهت الى الباب متلكأة غير واثقة من أحقيتها فى الخروج . فلما وصلت الى الباب ووضعت يدها على المقبض استدارت ناظرة اليه فوجدته مسمرا فى مكانه يشيعها بنظرة احتقار بالغة الحقد ، فألقت بالمداعبة الأخيرة : « العظمة لله وحده » ، فتحت الباب وأغلقته فى الحال وراءها . ثم وجدت نفسها فى الشارع منطلقة بكل حرية تتقافز كغزال يريد أن ينفض عن نفسه ثياب المدينة . وكانت قد قررت أن تختفى عن هذه الوجوه الى الأبد ، ليذهب الجميع الى الجحيم بما فيهم عنتر كباية ، ولو لم يكن يستحق الجحيم ما ذهب اليه بقدميه ، لكل انسان عمله ، ومعرفته بهؤلاء الناس الشياطين هى عمله غير الصالح .

جمعت عزالها سلمت مفتاح الشقة لصاحبها الجديد. الذى تكفل بدفع قيمة الايجار المتخلف ومبلغا كبيرا لها ومثله لمالكها الأصلى • كان واحدا من المترددين على الشقة فى حضور زوجها ، وأغلب الظن أنه واحد من المهمين أو خدمهم أو المنتمين اليهم بأى سبب • هى الأخرى لم تقل له أين ستذهب رغم الحاحه فى السؤال واصطناعه البراءة • الواقع انها لا تدرى ان كان امتناعها عن ذكر عنوانها الجديد له خشية منه لاتصاله بالناس اياهم أم لشعورها بالخجل من سوء المستوى الذى آل اليـــه حالهـــا ؟ » •

مهما يكن من أمر فقد خدمتها الظروف بولد حليوه فى عينيه غلب شديد وحب للحياة أشد • كانت تعرف أنه بعض نفاية ماضى عنتر كباية ، حيث كان يتردد عليه باعتباره نجما فى عالم الغناء وذا صلات واسعة يمكن أن يأخذ بيده ويعرفه بأحد المسئولين • وكانت تلاحظ ان « عنتر كباية » يعامله بقسوة ولا يطيق رؤيته الا لفترة محدودة • لم تكن توافق « عنتر كباية » على هذا بل على العكس ترى انه ولد منكسر يستحق الشفقة والاحسان ، ثم انه نظيف المظهـــر لا يجلب المعرة • الا أن عنتر كباية كان يغلق باب الحديث عنه دائما • ثم ظهر كأن قلبها قد صدق حين اختفى عنتر كباية وراء حجب الغيب فلم يسأل عنها أحد سوى هذا الولد الحليوة هاوى الغناء ، الذى هو من نفس حـــارة عنتر ويعرف أهله كلهم ويعرف الكثير عن ماضى عنتر كما يعرف كل الذين يعرفهم ويعرفونه •

انفض الكل عنها بالخوف أو بالنذالة لا تدرى ولكن الولد الحليوة « سعد القيم » هو الذى بادر بالاتصال بها • كان هو الوحيد الذى اعتمدت عليه فى أشياء كثيرة ومشاوير طويلة ومهام شاقة • كان يخدمها بكل تواضع وحب ولا ينصرف الا حين تأمره وتغلق خلفه الباب والنور لتنام •

فما ان علم بموضوع الشقة حتى انطلق يجرى وبعد أيـام قليلة جاءها بخبر العثور على حجرة بمنافعها فوق سطح عمارة كبيرة فى كفر العوالم بحى الحواوشى ٠

برغم اسـتقلال الحجرة وانعزال كل شـقة عن الأخرى فانهـا أحست بالعرى ٠٠ فحيث تصبح العمائر العجوزة والبيوت الكالحة مجرد جدران متهالكة تفصل بين كتل من اللحم البشرى يصبح لابد لكل امرأة مثلها من غطاء تستتر به جسـدها الفتى وترد به غائلة الفتنة والأعين المتلصصة والألسن المتبرأة من نفسها ٠ بحثت فى محيط حياتهـا وفيما حولها من شقاء ، فلم تجد أصلح من « سعد القيم » ، فما ان فاتحها فى الزواج على استحياء حتى وافقت ٠٠ ورزقه ورزقها على الله ٠

ـ ٢٤ ـ

لم يكن الا نصابا عريقا يختفى عمره الحقيقى خلف وجه لا ينبىء عن عمق زمنى ٠ اتضح لها انه متعهد حفلات على قد حـاله ٠ يقاولك على فرح لك فيجىء بفرقة قوامها ثلاث كمنجات وعود وناى ورق وطبلة وراقصة كل ذلك كوم وهو ، وحده كوم آخر ، انه مهرج الحفل الذى يتلقى «النقوط» ويردد أسماء أصحابها زاعقا بطلب السلام الى مالا نهاية ، أو زاعقا بموال أحمر ينساب منه الى أغنية يا حاسدين الناس ينساب منها الى أغنية يا امة القمر ع الباب ، كل أغنية قد تتعاشق فى الأخرى وتكملها كله ماشى طالما انه يثير ضجيجا ويصنع جـوا ويجيـد ترديد الأسماء فى الميكرفون بالطبل والبروزة ، دائرة معارف هو يعرف أسماء نجوم الأحياء ومعلميها الكبار ٠٠

- ٢٥ -

صبى العوالم العجوز ألبسها فاخر الثياب ليضمن ولاءها ، وعلمها الكفت . كانت راغبة فى أن تتعلم الرقص حتى النخاع ، كأن ثمة جبال من الآلام فوق صدرها لن يذيبها سوى أن تظل ترقص الى آخر لحظة فى عمرها .. ترقص للرقص وحده وليس لشىء آخر .

مع ذلك فقد كان صعبا أن تصبح راقصة لولبية ، وكان يائسا يقول لها انها لو نسيت حياء الفلاحة وكسوفها فسوف تكون أعظم راقصة . ثم انه اضطر الى الامساك بالكرباج واظهار العين الحمراء ، بهذا وحده أتقنت تحريك كل عضلة فى جسدها كما أتقنت توظيف كل حركة فى مدلول جنسى واضح يشيب له المحتفلون فيتصايحون ، يصعدون الى خشبة المسرح ليلصقوا ورق البنكنون الأحمر والأخضر على جبهتها وعلى بطنها .

- ٢٦ -

جمع صبى العوالم ثروة هائلة لكنه صرفها على زوجاته السابقات وعلى الشم والتحشيش واكتشاف الفتيات الضالات . كان يعرف « كحكوح » ويتردد عليه دائما اذ يستخدمه فى توصيل بعض الطلبيات فى القرى والمحافظات المجاورة . يضع البضاعة فى علبة الكمان أو علبة الأوكورديون أو فى أحشاء الطبلة . وفيما هو متوجه لاحياء الفرح بفرقته يكون التاجر قد حضر كمدعو فى الفرح ويصعد بنفسه لعمل الواجب بتقديم « النقوط » لأهل الفرح ثم ينزل وقد حشر البضاعة فى عبه وجيوبه أو رماها لأحد صبيانه قائلا : « سخنوا الطبلة دى على النار شوية » أو : « شوف نجار يفتح علبة الكرديون المزرجنة دى » .

بدورها قامت البتعة فى توصيل الطلبيات خير قيام • كانت هى التى تحتضن آلة البضاعة وتبقيها فى حوزتها طول الطريق بل وتقوم هى بتسليم الحمولة فى لمح البصر •• أما صبى العوالم فجبان خواف ما عليه الا أن يقبض من جميع الأطراف ويضع فى جيوبه وما عليها حين يداعب خيالها فستان جميل الا أن تنكد عليـــه عيشـتـه أياما طويلة وتصطحبه عنوة لشراء ما تهوى •

آخر ما زهقت منه عاكسته فعاكسها فتنكر لهـــا ظانا انه بذلك يكسر كيدها مؤقتا • لكنه من سوء حظه وقعت في يد كحكوح الذى دخل ليصلح بينهما من طرفه فأجاد كحكوح المهمة وقام باصلاح الوضع من أساسه اذ دبر لها شقة صغيرة فى منطقة أنظف قليلا • وكانت تجيد ملاعبته ، ترخى له حبل الأمر فيها ثم تشده وترخيه بدراية فائقة حتى استفادت منه قدر الامكان • قدمها لأحد كبار المهربين على مأدبة العشاء فى ليــــلة بارقة • كان المهرب شرقاويا قوى الشخصـــــية لديه رعب وحساسية من النساء خاصة الحلويات منهن ، وقد تعلم ان النساء فى جانب والشغل فى جانب آخـــــر ، وأى نساء فى حياته لابد أن يكن من خارج اطار العمل ، مهما كان جمالها عظيما ، اذ هو كما يقول دائما يلعب بالنار والنساء دائما هن مصدر الاشتعال •

ليلتها لم تفكر فى تسليم نفسها له ، ولكنه والليلة لما تكد تنتهى وثق من نقاء سريرتها ومن أنها ليس من طبعها الغدر • فى اليوم التالى بعث بها فى مهمة ادتها بنجاح • كان عليها أن تذهب فى عربة أجرة الى حى المعدية وتقابل رجلا فى العنوان الفلانى الذى سيعطيها ثلاث أطقم « بسنتم » ، قالت له ما هو البسنم ؟ قال لها أنه طاقم يركب فى موتور السيارة ، ثم أمرها أن تحضر بالأطقم الثلاث اليه فى موعد غايته منتصف الليلة التالية فى مقهى بميدان المشهد الأزرقى

ما أن إنفتح باب شقة المعدية أمامها حتى تسمرت فى مكانها ذاهلة ، فقد إمتلأ الباب بشخص تعرفه جيدا ، رأته فى شقة عنتر كبابيه أكثر من مرة • كان على ما يبدو شخصا غاية فى الأهمية ولذا فهو لا يعرفها اذ هو لم يجلس فى شقتها طويلا ومن ثم لم يرهـــا الا للحظات خاطفة عابرة • قال لها : « أهلا وسهلا •• تفضلى » ، ولم يبد عليه أنه عرفها • فدخلت تتعثر فى الخجل والاضطراب جلست حيث أشار لها قرب مدخل الباب ثم اختفى داخل الشقة ، وقالت هى لنفسها ان هذا الشخص – على ما تذكر – هو مدير مكتب أحد رجـــال الثورة الأزرقية وهو على الأرجح ذلك المسئول عن الجيش او المعسكر والله أعلم ، انها لا تحبهم ولا تحب اسماءهم ولا تحب تشغل نفسها بالتمييز بين هذا وذاك لأنهم جميعا صيغة واحدة : جوف صلب ووجه مشدود العضلات يهدد وينذر بالوعيد وسلام خشن وضحك أفضل منه البكاء ••

عاد من الداخل يبتسم وفى يده كوب شاى يرشف منه ، قال لها : « تفضلى هنا » ، فتبعته حتى الحجرة الداخلية فمرت على الحمام والمطبخ والانتريه وتأكد لها ان الشقة خالية تماما الا منهما وتأكدت كذلك ان الشقة لا تعيش فيها امرأة • الحجرة الداخلية عبارة عن قعدة شرقية ، الشلت والبفات واللوحات الزيتية على الحائط • جلس فوق حمـــار خشبى مسروج وجلست هى على آخر فى مواجهته فصـــار منظرهما صبيانيا مضحكا الى حد كبير • نهض ثانية وعاد اليهـــا بكوب شاى ثم جلس تأملته وتأملها ، تأكدت انه هو نفسه الشخص الذى سبق ان زارهما فى شقة عنتر كبابة وتاكد هو انها أبدا لا يمكن أن تكون صبية مهرب ، انها ليست أقل من سيدة مجتمعات محترمة جدا .تلبس فاخر الثياب وتترك شعرها العظيم كشلالات النهر ، ومع لهجتها الفلاحيـــة وما فيها من براءة يستطيع هو أن يعتبرها ابنة ناس طيبين ذوى أملاك فى القنـــرية ••

بعد آخر رشفة من الشاى قالت انها من طرف فلان الفلانى فقال انه يعرف وأن الأمانة هى هذه الصناديق الكرتونية الثلاث المتراصة بجوار الباب ؟ وهى مغلقة بشمع بلادها ، ثم انه قال لها فور ذلك : « ولكن ما هى مهنتك » • تلعثمت ، قال : « ليس معقولا أن تكونى من أتباع صاحبنا فحسب •• هل أنت متزوجة » • قالت بسرعة : « مطلقة » • قال : « أليست لك مهنة معينة ؟ •• ألا تحملين شهادة ؟ خجلت ان تقول انها راقصة ، فقالت : » أنا •• مغنية » صاح : « مطربة ؟ » • ردت فى خجل شديد : « نعم •• ولكن على قدى » قال : « هل تغنين فى الاذاعة ؟» • ابتسمت ، قالت : « أقول على قدى » • قال بكل بساطة : « ولماذا لا تغنين فى الاذاعة ؟ » قالت : « أهى سهلة هكذا ؟ » • قال بنفس البساطة « اذا كان صوتك جيدا •• يمكنك الغناء فى الاذاعة » • نكست رأسها لبرهة • قال لها : « تاهت ولقيناها •• وسمعينى صوتك •• ان أعجبنى •• سأجعلك مطربة فى الاذاعة » •

رفعت وجهها اليه وتأملته جيدا فلم تجد للهزل مكانا فى وجهه أو عينيه أو صوته • ارتعش بدنها • قال لها : غنى •• هل لك أغنيات خاصة ؟ قالت : « سأغنى أغنية لصباح •• زنوبة » • فتهلل وجهه بالبشر والفرح وصاح : « ما أجملها » ، فصارت تتمتم بشفتيها وتوقع بأصابعها وقدميها ، ثم انطلق صوتها فلاحيا رائقا واضحا كالشمس كجريان المياه فى القنوات ، وانطلق هو معها مرددا فى مرح : « زنوبة •• زنوبة •• حلوه وخفه وحبوبه •• شوبش يا حبايب زنوبة •• زنوبة » ، كان من الواضح ان صوتها قد أعجبه تماما ، ولا تدرى هل لحلاوتها تأثير أم لا ، لكنه ـ صاحبنا ـ هب واقفا واندفع نحوها فاردا ذراعيه وطوقها بسرعة وقبلها فانتفضت بين يديه وانزعجت واصفر لونها من الاضطراب • وركزت فى عينيه نظرة حادة فيهما شعور بالقرف والاحتقار ، اعتذر لها قائلا : « آسف •• انتى زعلتى ؟ •• أنا ما اقصدش » ، ثم أخرج حافظته وفتحها فرفعت يدها نحو حافظته فى شعور بالمهانة صائحة • « من فضلك •• أنا خدت حسابى خلاص

مفيش لزوم » • فنظر اليها فى امتنان وتقدير وحول أصابعه من فتحة النقود الى جيب صغير نزع منه بطاقة وقلما ذهبيا ، وكتب على البطاقه بضع كلمات ثم وضعها فى مظروف صغير بلله بلسانه ولصقه ثم كتب عليه اسما ، ثم قدمه لها قائلا : « من غد تذهبين الى مبنى الاذاعة فى شارع الخسيسين •• تسألين عن هذا الاسم •• تقدمين له البطاقة •• ينتهى كل شىء •• تصبحين بعدها مطربة فى الاذاعة « أشياؤنا تحمل دائما اشعاعنا وبصماتنا ورائحتنا • فى الخطاب كما فى لمس هذا الرجل رائحة طيبة ودودة وغير ثعبانية • مع ذلك لم تثق فى لعبة البطاقة واعتبرتها مجرد شرك ينصب لها ، لكنها ـ احتراما للرجل فقط ـ وضعت البطاقة فى حقيبة يدها ثم نهضت وسلمت عليه فتقدمها نحو الباب ثم فتحه وصاح مناديا : « عبد الودود » • فجاء البواب يجرى فقال له : « وصل الهانم بالصناديق لحد ما تركب تاكس » • فشعرت نحوه بتقدير كبير ، وحمل البواب الصاديق الثلاث فاذا بها ثقيلة حقا ، ونزل أمامها • وفى الشارع أوقف لها تاكسيا ووضع لها الصناديق بجوارها واوصى السائق ان يساعدها فى انزالها عند آخر المشوار • فوعده السائق بذلك وانطلق الى ميدان المشهد الأزرقى •

ـ ٢٨ ـ

مهمة فى أثر مهمة ، استأجرت شقة خطيرة فى رحاب مولاها الأزرقى شخصيا وتجمع فى كيسها ثمن الشقة فى خلال شهور قليلة وفاض ، افتتح لها حسابا فى البنك وكانت قد اعتزلت مهنة الأفراح تماما بل وتنكرت لها • وكانت ذكية الى حد كبير جدا ، اصطفت سيدة عجوزا اسمها « أم جابر » كانت رغم كبر سنها فتية قوية جادة مخلصة ككلب أمين مثلنا ، اختارتها رفيقة لها فى الحياة لا تفارقها ليل نهار • أغدقت عليها من الخير والنعيم ما لم تكن تتوقعه فى حياتها ، فبالمقابل

أصبحت « أم جابر » هى وبناتها وأزواج بناتها وأولادهم خدما مخلصين غاية الاخلاص فى معية « البتعة » ، كانوا جمعيا يتطوعون بحراستها وحمايتها من أى طفيلى وكانت تغرقهم بالهدايا النافعة مثـــل القمصان والبنطلونات الفاخرة والأحذية فضلا عن الانفاق الدائم · ولو أن عائلة البتعة التى هى من صلبها كانت نعيش معها لما أعطتها الشعور بالأسرية مثلما أعطتها أسرة « أم جابر » العزاء ·

— ٢٩ —

كانت تنقل أشياءها الصغيرة من حقيبة يدها القديمة الى حقيبة جديدة غالية الثمن ، ففتشت كل الجيوب بحثا عن شىء فوقع المظروف فى يدها · فخفق قلبها لبرهة وجيزة وبرق فى عينيها ضوء ساطع · هزت المظروف فى يدها باستطانة وقال صوت فى نفسها : « ما أنتى مبسوطة كده وآخر فل ·· بس ربنا يديمها نعمه ·· سيبك من الناس دول ·· لا بيرحموا ولا يخلوا رحمة ربنا تنزل ·

لكنها مع ذلك وضعت المظروف فى حقيبة يدها الجديدة بعناية ، ثم أصاخت السمع الى صوت آخـر فى نفسها : « ولكن ·· مطربة فى الاذاعة · ذلك شىء عظيم ·· يغنيك عن هذه البهدلة واللعب بالنار ·· ما كل مرة تسلم الجره ·· تقولين — مثلهـــم جميعا — هى ضربة كبرى أو ضربتان كبيرتان أتوب بعدهما عن الكار وأستقر فى عمل مشروع ، ولكن العادة ان من يذوق حلاوة المكسب السهل السريع لا ينساها مطلقا الا اذا كان معتوها أو نبيا ·· جربى يا بتعه فلن تخسرى شيئا ·· خذيها حلوانه فى سلوانه ·· مم تخافين ؟ ·

وهكذا أوجدت نفسها بكامل فاخر ثيابها وأعلى أنواع عطورها ركبت عربة من عربات الأجرة التى تمتلكها ويقودها زوج ابنة أمخالد ، وذهبت الى مبنى الاذاعة فى شارع الخمسين حيث سألت عن الاسم المدون على المظروف ، فلدهشتها اقتادها أفندى محترم الى مكتبه الكبير جدا

هب ذلك المسئول الكبير واقفا وخرج من مكتبه ليلتقى بهـــا فى منتصف الطريق والخطاب فى يده · سلم عليها بحرارة ونصف انحناء قائلا : « أهلا يا أفندم ·· أهلا اتفضلى » فجلست على الكرسى الجلدى فجلس أمامها قائلا : « احنا فى الواقع زادنا شرف ·· هو كان المفروض ان تسمعك لجنة معينة لكن ما دام الرضا موجود يبقى احنا تحت الأمر »· كادت تنسحب من لسانها وتسأله عن طبيعة هذه الشخصية التى تحمل البطاقة اسمها ، هل هو حقا من رجال الثورة أم من أتباعهم أم من خدمهم أم من المنتمين اليهم بأى سبب ؟ فالحق انهم ازدادوا كثرة بل يتضاعف عددهم كل يوم فى كل مكان ، فمن شركة الى حى الى بيت الى شـــارع تجد من يريد ارهابك بأنه سيادة الرئيس شخصيا ولكن على صـــورة أخرى · لكنها بدلا من ان تقول هذا قالت : « تحب تسمع صوتى ! » · قال الرجل : « هه ؟ » ثم خلع منظاره السميك ودعك فى عينيه وبدأ عليه كأن الاقتراح أعجبه بل أراحه ، قالت « يمكن ما يعجبكش صوتى »، ثم أضافت بسرعة : « الأحسن أسمعك صوتى » ، اعتدل قائلا : «يا ريت»، فانطلقت فى الحال مرددة فى صوت مفتوح كأنما تهيأ ليطلع الجبـــال ويتسلق أعالى النخيل ، لولا بحد قابضة على صفائه وخنقه مصدرهـــا الكسوف الفلاحى المتوارث لكان صوتها من الدرجة الأولى ، كانت تغنى : « والنبى يا جمل ودينى ·· على منى وجبل عرفات » · فتح الرجل فمه فلى بلاهه وصاح : « ما شاء الله ما شاء الله ·· لا تمام تمام ·· داحنا سعداء خالص بصوتك » ·

هنا انفتح الباب ودخل أفندى وجيه فى الخمسين من عمره طويل السوالف أصلع كأنما اختط فى رأسه طريق طولى لولبى تمتد على جانبيه غابات شعر تتكور فى حلقات بيضاء سمراء متداخلة ، وعلى أنفه الطويل منظار سميك · هب المسئول الكبير واقفا يصيح : « أهلا عبد القوى بك ·· جيت فى وقتك » · قامت هى الأخـــرى وسلمت عليه بالتبعية ثم جلست وهو يعريها بنظراته الذئبية خفيفة الدم ، من كل ثيابها ·· قال لها المسئول الكبير فى هتاف : (هذا هو عبد القوى بك السعداوى

الكاتب والأديب والصحفى والممثل والمخرج والموسيقى .. هو مجموعة مواهب كما لعلك تسمعين به » . هزت رأسها موافقة ، تذكر أنها سمعت أسمه ولكن لا تدرى أين ولا بأى مناسبة . قال المسئول الكبير لعبد القوى بك : « هذه هى .. هى .. مطربتنا الجديدة .. ان شاء الله سوف نقدمها فى حفلاتنا وفى برامجنا .. ليتك تكتب لها أغنية » . وكان عبد القوى بك قد جلس فى رأسى المثلث وتحولت جبهته الى كتلة من التجاعيد تصعد وتهبط فى حركة شهوانية ناعمة . رد بصوت غليظ رصين : « طبعا .. طبعا .. احنا تحت الأمر والاذن .. بس هى تأمر » . ابتسمت فى حياء ودارت وجهها بكفها : « متشكرة .. احنا مش قد المقام » . قال عبد القوى بك : « بالمناسبة اسم حضرتك أيه ؟ » . أسقط فى يدها واضطربت ، اذ بدا لها اسم البتعة بلديا سخيفا وغير مناسب . قال عبد القوى بك مسرعا : « مش مشكلة على أى حال .. اسمك مش مهم .. اذا كان ما هوش فنى .. مافيهوش رنين قابل للشهرة .. نختار لك اسما جديدا » . نظر لها المسئول الكبير منتظرا رأيها بشغف صاحت هى من الفرح : « يا ريت .. أنا اسمى ـ وضحكت فى خجل عذب البتعة .. لكن لو غيرناه يكون أحسن » . قال عبد القوى بك : « اسم جميل ومثير ولكن نغيره رغم ذلك .. ما رأيك فى اسم .. بسيمة .. بسيمة الخضرى ؟ » ..

شهقت من الفرحة ، ثم عادت فشهقت مرة أخرى من الشعور بالصدمة ، شهقتان فى شهقة واحدة كادت تتصدع لهما رأسها ، لكنها تماسكت قائلة : « بسيمة » ، ثم تأملت بكل دقة وتركيز فى عينى عبد القوى بك فلم تجد فيها أى خلفيات عكرة أو خبيثة فقالت : « بسيمة .. اسم جميل .. ولكن .. اشمعنى الاسم ده .. بسيمة ؟ » قال عبد القوى بك : « لأنه يعبر عن وجهك خير تعبير ، فهو بسيم ، أى فى بسمة دائمة .. والخضرى ، لما فى عينيك من خضرة ساطعة » . ابتهجت وارتعش صوتها : « لكن .. بسيمة .. اسم فلاحى .. أليس هناك اسم جديد ؟ » . قال المسئول الكبير : « ما رأيكم فى اسم زشا ؟ ..

ان رشا معناها انثى الغزال • وأظن طبعا ـ وأشار نحوها بكفه فى غزل واضح ـ هنا صاح عبد القوى بك : « ليكن •• رشا الخضرى •• اسم جميل •• وفريد » قال المسئول الكبير : « أول أغنية لرشا الخضرى ستكون من وضـــعك •• فمتى يتم ذلك ؟ » • قال عبد القوى بك : « أنا جاهز •• لقد تشكلت الأغنية بالفعل فى خاطرى •• وهى من وحى الآنسة رشا •• وأستطيع فى المساء تقديمها » ثم انه نهض واقفا واتجه الى مجموعة التليفونات الموضوعة على ترابيزة ملحقة بالمكتب فأمسك احدها وأدار القرص ثم صاح : « هاللو منزل الموسيقار سامى النهرى ؟ • أنا عبد القوى السعداوى •• معاكى •• مساء الخير يا سمى •• أنت أيه ظروفك اليومين دول ؟ •• عندنا صوت جديد حتقدمه الاذاعة فى حفلتها الجاية دى على طول •• واخترناك تعمـــل لها أول لحن •• الكلمات حاكتبها أنا •• طيب حافوت عليك بالليل أنا وهى •• شكرا » ، ثم وضع السماعة واستدار نحوهما ، فحياه المسئول الكبير بابتســـامة وقال : « خير ما عملت •• وفرت علينا جهود •• ودولوقت بقى •• حضرتك يا آنسة رشا •• فى عهدة عبد القوى بك لحد ما تخلصوا اللحن قبل الحفلة كده بيومين تلاته تكونى جاهزة •• ومكتبى مفتوح لك فى أى وقت » • ثــم أحست أنــه يـريد أن ينهى المقـــابلة فنهضـت ونهض عبد القوى بك معها • قالت : « أنا متشكرة •• أشوف حضرتك بخير » • سلم عليها هازا رأسه : « مع السلامة » • ومضت • صاح عبد القوى بك : « من فضلك يا آنسة رشا •• جاى معاكى » ثم سلم على المسئول الكبير وتبعها خارجا •

ـ ٣٠ ـ

أثناء خروجهما من مكتب المسئول الكبير أشار لها خلسة على بعض السيدات المحترمات والسادة المحترمين وهم جلوس يشع منهم السأم ، وقال لها ان هذا الرجل هو المطرب المشهور فلان وهذا هو الملحن الكبير جدا فلان وهذه اللابسة الفـرو تعتبر من كبـــار المطربات فى البلد •

قالت له فى اشفاق : « لماذا يجلسون هكذا كالغلابة المساكين ٠٠ هل هم فى انتظار القطار ؟ » ٠ ضحك عبد القوى فبرطع صوته العريض فى المبنى ، وقال انهم بالفعل ينتظرون القطار الذى يوصلهم الى مقابلة هذا المسئول الكبير ، وهذا القطـــار هو مزاج المسئول الكبير ٠ قالت له : « ولماذا لا يقابلهـــم ؟ » قال عبد القوى بك : « انه مسكين يكاد عقله يختل ، فكل يوم يجد نفسه مطالبا بايقاف التعامل مع فلان والتقليل من حجم العمل لفلانه وهكذا ٠ قالت : « مطالبا من من ؟ » قال ضاحكا : « من أسياده الحكام الذين تعرفينهم لا شك ــ أو لعله مطالب من نفسه فهو أيضا مثل كافة الموظفين المتسلقين الجبناء يدخل رغباته الشخصية فى رغبات أسياده وهكذا » ٠

أحست بالدوار اذ هى لم تفهم شيئا مما قال ، وخفق قلبها من جديد تلك الخفقة المذعورة ، لكنها هذه المرة كانت خفقة ذات صـــوت عال قال لها : « دبور زن على خراب عشه ٠٠ كنت مستريحة فى البعد عن الحكام والأسياد فما الذى دفعك الى أحضانهم مرة أخرى ؟ » ٠ لكنها وهى تمشى بجوار عبد القوى بك مثل الملكة غير المتوجه عادت فأحست بالابتهاج العظيم ٠

ـ ٣١ ـ

باصرار لم تملك له دفعا عزمها على الغذاء فى فندق سميراميس ٠ كان السائق فى انتظارها أمام المبنى ، فما ان ركبت بجواره حتى ركب عبد القوى بك فى الكرسى الخلفى صائحا فى غطرسة : « سميراميس يا أسطى » ، فنظر اليه السائق مندهشا ٠ فعاجلته قائلة : « حضرته عبد القوى بك السعداوى ٠٠ الصحفى الكاتب الممثل المخرج الموسيقى » ٠ قال السائق تحية للبتعة فحسب : « أهلا وسهلا سعادة البيه احنا زادنا شرف » ٠ قال عبد القوى بك متوددا : « أهلا يا باشـــا » ٠ وقالت

البتعة : « وده بقى السواق بتاع العربية دى وقريبى ابن خالتى » ٠ حياه عبد القوى بك بسيجارة ، وبأخرى وهو يهبط عند باب سميراميس قائلا : « تعال اتغذى معانا ٠٠ ولا اسمع ٠٠ أقعد فى الاستراحة وأنا حابعت لك سندويتشات » ثم تركه ومضى مقدما البتعة عليه ٠

حفلت القاعة بهوانم كثيرات وبكوات كبار ، وسفرجية بطرابيش وطراطير ومهرجان جميل ٠ كذلك حفلت المائدة بعشرات الأطباق والأكواب والأطعمة ٠ جىء بزجاجة الكونياك ثم جىء بعدها بالبيرة زجاجات ترتمى بجوار بعضها عند فراغها ثم جىء بعدها بكئوس من الويسكى كل ذلك انصب فى جوف عبد القوى بك وحده أما هى فلم يسقط فى جوفها سوى لقيمات معدودة لأنها كانت فى الواقع تتفرج على منظر عبد القوى بك الآكل والكاتب والمفكر معا فى لحظة واحدة ، فالأفكار تبرق خلف نظارته وفى تجاعيد جبهته فيما هو منتفخ الشدقين يتلمظ أو يكرع أو يتجشأ، ثم انه خلال ذلك يكتب ، يطوح فردة الحمام فى فمه ليتفرغ لكتابة سطرين أو ثلاث بقلم الفحم على منديل ورقى أو ظهر علبة السجائر ، ثم انه غادر المائدة وعاد عدة مرات وفى كل مرة تراه متهللا فيجلس ويستأنف من جديد ٠

ثم أزيل كل ذلك عن المائدة ونظفت واعتلاها المفرش الأنيق وجىء بالقهوة ٠ وكان الملل قد راح يزحف نحو صدرها حين أقبل شخص طويل القوام رشيقا أسمر الوجه عرفته فى الحال من صوره فى المجلات٠ انه الموسيقار « سامى النهرى » مقبلا نحوهما من عجب ٠ نهضت لاستقباله وقد زايلها السأم وتجددت عواطفها ، ومشاعرها فانتعشت ـ سلمت عليه بحرارة ـ أما عبد القوى بك فلم يسلم عليه بل لم يهتم به حيث كان منهمكا فى شطب وتعديل وشرود ٠ فلما جلس الموسيقار قال له : « أظنك عرفت ان دى هى الآنسة رشا الخضرى » ٠ قال الموسيقار : « زادنا شرف » قالت هى : « متشكرة » ٠ قال عبد القوى بك: « على فكرة سامى بيه معجب بكلمات الأغنية حيطير من الفرح ٠٠ وزمانه

عمل الكروكى بتاع اللحن وهو جاى فى السكة قالت وهى : « وعرفها منين ؟ » . قال : « بالتليفون .. كل كوبليه كنت باروح أقرأه له فى التليفون » . من فرط الدهشة والعجب لم تنطق البتعة . جاء الجوسون وقال لسامى بك مبتسما أن الزجاجة الخاصة به قاربت على الانتهاء ، فأعطاه سامى بك عشر جنيهات وطلب منه شراء زجاجة جديدة ، ثم انه طلب عشاءا . فقامت المائدة من جديد ، وانبرى عبد القوى بك يقرأ وسامى بك يأكل ويترنم ويتمايل ويكف عن كل ذلك لبرهة وجيزة يشرد خلالها موقعا فى الهواء نغما صامتا بيديه ورأسه .

لم تشعر بمرور الزمن حقا ، حتى السائق أمضه القلق فأوراها لفسه عدة مرات رائحا غاديا فى قلق ، فكادت تنبه عليه أن ينصرف هو ، غير انها استدركت وطلبت منه باسمة أن ينتظر قليلا . هنا لاحظ « سامى النهرى » وتذكر « عبد القوى بك » . فصاح : « ما تسيبه يروح واحنا نوصلك بعربية سامى بك » ، ورد سامى فى ترحيب : « طبعا طبعا ياريت .. سيبه يروح ان ما كانش ده يدايقك أو يدايقه » . قالت البتعة : « لا ده ابن خالتى والعربية بتاعتنا وهو معايا ونس » . ثم تساءلت : هو .. ياترى .. حتعوزوا منى حاجة دلوقتى ؟ . قال عبد القوى بك : « تسمعى كروكى اللحن على الأقل » . فقال سامى النهرى : لا ما أظنش يا عبد القوى بك .. قدامى شوية شغل .. يوم ولا يومين وأشوف الآنسة رشا .. ياريت بعد بكره نتغدى سوا عندى . صاح عبد القوى : « فى البيت ولا فى المدرسة ؟ » . ابتسم سامى وردد مع دخان السيجارة : « اذا فى المدرسة حنشترى أكل من السوق » . صاح عبد القوى : لا ياعم .. خلينا فى البيت وبعد الغدا ننقل على المدرسة نكمل » . قال سامى : « لا بأس » ثم نظر الى البتعة : « والآنسة رشا ايه رأيها ؟ » . قالت : (لا بأس) ثم كتمت الضحك فى نفسها بشدة حيث انها نطقت الكلمة مثله تماما كأنها مثله فنانة كبيرة وبنت ناس طيبين كبار .

ـ ٣٢ ـ

قبل قيام الحفل بأيام قليلة جدا كانت « رشـــا الخضرى » • بفضل عبد القوى بك ـ قد أصبحت وجها مألوفا جدا فى أبواب الأخبار الفنية فى كل الصحف والمجلات المصرية والعربية •

بدأ عبد القوى بك بمقال نارى فى يوميـــاته بجريدة (الحرية ، زينه بصورة كبيرة للآنسة « رشا الخضرى » ، وحين قرىء المقال عليها ظنت ان كاتبه يتحدث عن شخصية أخرى غيرها ســـوف تكون خليفة لأم كلثوم تتربع على عرش الغناء فى السنوات القليلة المقبلة • ورغم صورتها وصورة سامى النهرى واسمها وكلمات الأغنية الموضوعة لها فانها ظلت الى آخر لحظة لا تعرف هل تشكر عبد القوى بك أم لا وان شكرته فماذا تقول • ما أدهشـــها أكثر وأكثر هو ان كافة الأخبـــار والتعليقات التى قرئت عليها بعد مقال عبد القوى بك كانت حافلة بنفس العبارات والأوصاف وتتوقع لها نفس ما توقعه عبد القوى بك رغم انهم لم يروها ولم ترهم على الاطلاق ••

ـ ٣٣ ـ

ما أعظمها من ليلة وما أعظمه من لحن • أما الكلام فلم يكن له أى معنى ولم تفهم منه شيئا ، انما اللحن كان حصانا جميلا ركبه صوتها وانطلق بدون فروسية سابقة يتراقص ويملأ الحضور بهجة وهياجا ، وكان مقدرا له ربع ساعة فغنته فى ثلاثين دقيقة • شـــيعها جمهـور العاصمة العظيم بعواصف من التصفيق سجلتها على شريط الأذنين •

حتى اذا ما ودعت خشبة المسرح والموسيقيون خلفها مهنئين مادحين رأت سائق التاكسى ـ زوج ابنة أم جابر ـ يشير لها على صفوف من الورود وسط دوائر من أقواس النصر ، ومن معها يقرأ لها أسماء مرسليها

على بطاقات صغيرة تتوسط دوائر الورود ، عرفت فيها أسماء المسئول الاذاعي الكبير وعبد القوى بك وسامي النهري وأسماء بعض المطربين والمطربات والموسيقيين اللامعين على الرغم من انها لا تعرفهم ولم تتشرف من قبل برؤيتهم أو التحدث اليهم • ثم ان السائق نقل لها بكل انبهار ما وصفها به مذيع الحفل من أوصاف يقشعر لها البدن ، وكيف انه بعد ان انتهى من وصف حتى فستانها وحركاتها استدعى الملحن والموسيقيين وأجرى معهم حوارا عن المطربة الصاعدة رشا الخضرى وعن خامة صوتها ، وكلهم تغزلوا فى صوتها وتوقعوا لها مستقبلا باهرا فى عالم الغناء •

ـ ٣٤ ـ

ليلتها تلقت أكثر من طلب فى المقابلة على انفراد وكلها من ناس كبار محترمين مثل المسئول الاذاعي الكبير وعبد القوى بك وأحد الملحنين الكبار جدا جدا • فلما انفردت بكل منهم فى غرفتها فى كواليس المسرح وساءلته عما يطلب صاح مستنكرا : « لا ليس الآن •• اننى أريد أن أتكلم معك على راحتى •• أطمع فى موعد فى أى وقت تحددين •• المسألة هامة جدا وتتعلق بمستقبل البلاد » • نشفت من فرط المفاجآت ، وكل الانتعاش الذى امتلأت به فى الحفل الناجح تبخر تماما أمام ناس يصدعون رأسها بكلام غامض لا تفهمه وكلهم يتحدثون فى عصبية وانفعال وبألفاظ قاسية وأحيانا نابية ولولا انها واثقة من انهم موظفى حكومة كبار لظنت انهم يطمعون فى حسنة أو مساعدة مالية ، نعم فقد كانت تحس من لهجتهم فى الحديث ورجائهم فى طلب المقابلة كأنها شرطى أو صاحب فضل يخطبون وده ••

بقدر حيرتها كانت ذكية ، لم تطلب من أحدهم ـ على كبر مراكزهم ـ أن يزوروها فى منزلها ، بل لقد تحاشت أن تعطى عنوانها لأى منهم ، حتى سامي النهري نفسه زغم ما أحاطها به من اهتمام صادق وما بثه

فيها من يقين فى مستقبل جديد هو الآخر لم تشأ أن تعطيه عنوانه :
لقد ورثت عن آبائها فى القرية اظهار الولاء للحكومة وأهلها دون اظهار الجفاء ، فهم دائما فى جانب ورجل الشعب فى جانب ، هم دائمـــا خصوم ، لا يعرفون آباها أو خالها أو جدها الا للأخذ منه أو تسخيره أو تجنيده أو نفيه أو ضربه أو سجنه · هؤلاء مثل أولئك القدامى هم الكفرة الفجرة الذين يقصدهم سبحانه فى قرآنه الكريم ··

لكنها فى نفس الوقت كانت لا بد أن تستجيب لطلباتهم ، ليس لأنهم سوف يتحكمون فى مستقبلها الغنائى بل لضعفهم واشـــفاقا على منظرهم وانتظارا لما سوف يقولونه أو يفعلونه اذا هم انفردوا بها كما طلبوا · أعطت لكل منهم ميعادا فى استراحة الفندق الذى اصطحبها اليه عبد القوى بك · فاذا بهم جميعا يستنكرون المكان وينفـرون منه حتى عبد القوى بك نفسه نفر منه بشدة وقال انه ملىء بالواغش ، فلما سألته عما يقصده بالواغش قال انهم الصعاليك الحقراء والمخبرون والجواسيس والمومسات والنصابون وتجار الآثار والعاديات · فتركت لكل منهم أن يختار المكان الذى يراه آمنا وصالحا لمهمة اللقاء · فاختار عبد القوى بك صحارى سيتى فى منتصف ليلة الأحـد ، واختـــار المسئول الكبير أن تتناول العشاء معه فى منزله يوم الجمعة القادمة لكى تراهـــا زوجته وأولاده وهم بها معجبون ، أما الملحن الكبير جدا جدا فقد اختار مقهى الأنفوشى فى ميـــدان المشهد الأزرقى فصرخت فيـــه مستنكرة فتعجب وأفهمها ان مقهى الأنفوشى مكان سياحى جميل وفى رحاب مولانا ·· فقاطعته موضحة ان أقاربها كلهم يقيمون فى مولانا وســوف يفسدون عليهما صفو اللقــاء ، فاختار أن يعزمهـــا على الغـــداء فى عزبة أحد أصدقائه ·

كان هو الوحيد من بينهم جميعا الذى رحبت باقتراحـــه دون مناقشة وفى حب لما شعرت به نحو الملحن الكبير من عاطفة جياشــــة لا تدرى مصـــدرها على التحقيق ، ان شكله الطبيب المحمـــل بالمعاناة

وشحوب الآلات المزمنـة ؟ أمن صـــوته الأجش الناقل رغـم ذلك كل الأحاسيس بصدق وحساسية كبيرة ؟ أمن شخصيته الغنيه الهادئة التى تحجم عن البدء بالشكوى وان صرخت بهـــا مداعبـاته ونكاته العميقة الضاحكة المبكية ؟ ٠

ـ ٣٥ ـ

ما قاله عبد القوى بك :

اسمحى لى يا آنسة رشا ٠٠ ان حال الصحافة فى البلاد لم يعد يسر عدوا أو حبيبا ، أنا مع سيادة الرئيس والمسئولين ان أهل الثقة يجب أن يسيطروا على كل شيء ، هذا مبدأ أقرهم عليه تماما ٠ ولكن ٠٠ قد اختلف معهم حول أهل التقة أنفسهم ، وأسألهم : من هم أهل الثقة ؟ هل هم الذين كانوا من قبل الثورة يعرفون رجال الثورة معرفة شخصية مثلا ؟ هل هم من أقاربهم ومعارفهم ؟ هل هم أولئك الذين يقدرون على ركوب الموجة والهتاف وطلاء الوجوه ؟ فى رأيى ان أهل الثقة الحقيقيين هم أولئك الذين فهموا رسالة الثورة على حقيقتها ، هم الذين أيدوهـا بالفعل والقول والتضحية ، هم الذين يحرصـــون على بقـاء الثـورة وإستمرارها ثائرة عملاقة لا لمصلحة شخصية عابرة بل لمصلحة البـلاد والأجيال المقبلة ٠ هناك من كان يخرف قائلا أن رجال الثورة يجب أن يعودوا الى ثكناتهم وترك الحكم للمدنيين ويكفيهم فخرا انهـــم خلصوا البلاد من الطاغوت المستعمر وأذنابه المحليين ٠ أما أنا فلم يكن هذا رأيى أبدا ولن يكون يا آنسة رشا ٠ صدقينى ٠ فاننى من أشد المؤمنين بأن هذه البلاد يجب أن يحكمها مستبد عادل يقهر الدهماء على احتـــرام القانون والنظام ، ان البلاد مستقبلها مرهون باسـتتباب النظـــام ، واستتباب النظام مرهون بقوة النظـام ، وقــوة النظـام مرهونة بتأييد الجماهير له ، وتأييد الجمـاهير مرهون بأقلام شريفـــة لم تتملق الملك

أو الاستعمار ولم يعرف عنها سوى الثورة الدائمة .. لست أطلب مغنما شخصيا وحق الله يا آنسة . بل على العكس أنا أؤمن ان المسئولية غنم لا غـــرم وتكليف لا تشريف ، ولكن ما يشغلنى هو أمن البـلاد ومستقبل الرأى وحرية الصـــحافة وأمن الجميع .. لنأخذ جـــريدة (الحرية) مثلا ، لا يحبون الثـورة ، بل ان معظمهم واحد من اثنين ، أما ابن أسرة كبيرة معروفة بأن وجودها ضد مبادىء الثـــورة ولكنهـم يظهرون التعاون مع الثورة للحفاظ على مصالحهم وأمنهم ، وأما ابن ناس فقراء ما صدق أن صعد الى طبقة جديدة فلم يعد مستعدا للنزول عنها درجة ولذا فهو يظهر التعاون مع الثورة حرصا على وظيفته وما هو فيه من أملة ، وكلاهما لا أمان له على الثورة يا آنسة .. صدقينى . انهم فى أعماقهم يتمنون سقوط الثورة وعودة الملكية ونظام الأسر الكبيرة لعلهم يشكلون لأنفسهم أسرا كبيرة ، ان الثورة معناها ضبط المجتمع واخضاعه لنظم محددة فى الكسب والعمل المشروع ، وغدا أبشرك أن من تملكوا هذه المؤسسات سوف تتسرب اليهم عدوى الشعور بأنهم يمتلكوا البلاد وسوف تكون هذه المؤسسات نفسها هى مصدرهم الوحيد للثراء ، سوف ينهبونها كل على طريقته ولن يجدوا فى النهاية المسئول من غير المسئول من فرط التسيب والضـــياع . ذلك لأن أهل الثقة الحقيقيين أصـــبحوا كالعملة الجيدة التى تمكنت العملة الرديئة من طردها من جنات النعيم . ان الأمر لابد له من تنظيم يا آنسة . لابد معه من غربلة دقيقة . ان الصحافة غدت غابة تتناطح فيها الوحوش والغربان بضراوة .

– ٣٦ –

ما قاله المسئول الاذاعى الكبير شداد النشرتاوى :

بصراحة يا آنســـة ؟ لقد أكلت الحفل كله لحســـابك . هكذا أم لا يا أولاد ؟ .. الواقع يا آنسة اننى أجعل من أولادى هؤلاء مقياسا للحكم بنجاح البرامج والأغانى ولألوان التمثيلية . ربما كان فهمى فى

الفنون قليل باعتباري أحد رجال القـانون ، ولكنني أعتمد على ذوقي وذوق أولادي وذوق الجيران لأنهم يمثلون الجمهور العادي الذي نبث له في نهاية الأمر · لا تتصورين مدى سعادة الأولاد بك يوم الحفل ومدى سعادة الجيران من أصدقائهم · هذه زوجتي كبيرة وصغيرة كما ترين في آن واحد ، كبيرة بحكم سنها ووضعها ومركزها في البيت ، وصغيرة بحكم مشاركتها للشباب في أذواقهم التي تبدو أحيانا متطرفه · وهذه ابنتي طالبة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ولكنها قاموس في الأغاني والألحان وأسماء الفنانين وأخبارهم · وهذا ابني الأوسط وهو طالب في كلية الطب لكنه من هواة العزف على الجيتار وله ذوق شعبي أصيل · وهذا ابني الصغير ، طالب في الثانوية العامة ، يفهم في الفن أيضا ولكن لا أحد منهم ينوي الاشتغال بالفن ، هكذا يقولون لي الآن ويعلم الله ماذا سوف يقولونه غدا حين تنمو جرثومة الفن في نفوسهم ··

يسمع الانسان في هذه الأيام ما يشبه العجب · تصوري يا آنسة ان هذا الرجل الحشاش الذي يصرف جل وقته وأمواله في قعدات الحشيش واللهو والمجون يشيع عن نفسه أنه سوف يكون مسئولا عن التليفزيون ؟ · نعم نعم يا آنسة هو حشاش لا أكثر · هو صحيح كان يعمل في الاذاعة من قبل لسنوات طويلة ولكنه لم يبرز في عمل فني أو حتى اداري ، لكن يبدو أنه على علاقة طيبة ببعضهم لدرجة أنه في الأيام الأخيرة بدأ يتردد اسمه ، وبدأ هو يظهر كثيرا ويتقابل مع العاملين في الجهازين ويقوم بعمليات مريبة كأنه قد صار مسئولا بالفعل · كم أنا حزين والله يا آنسة واخشى ما اخشاه ان يتسرب الى صفوف الحقل الاعلامي ناس لا أمان لهم على الثورة ، انهم ـ أولئك المشكوك في أمرهم يرهبوننا بقولهم انهم أهل الخبرة وأهل الشأن في الأمر ، وواقع الأمر أنهم يريدون تحويل العمل في كهنوت ··

يقولون عني انني وافقت على منع الملحن فلان أو المطربة فلانة ، وسمحت بمروز الممثل فلان والتقليل من عمل الممثلة فلانة ، ورفعت أجر فلان ووضعت فلانة في مرتبة النجوم ، وانني فعلت كل ذلك بدوافع ذاتية

أو لمصلحة شخصية · ولكن تعالوا نسأل : من الذى أثار مثل هذه الأقاويل وهي تبلغنى أولا بأول ؟ أليســـوا هم الممثلون والمطربون والملحنـــون والموسيقيون ؟ · انهم جيعا عوالم فرح والتعامل معهم يقتضى حنكه ، صحيح ان بعضهم لم يجىء من شارع محمد على مباشرة ، وبعضهم ابن ناس حقيقى ، ولكن أخلاق العوالم تسيطر عليهم جميعا وتدمغهم بطابع واحد · عشت مسئولا قدر ما عشت لم تخب نظرتى فيهم أبدا · ويقولون اننى أغلق باب الفرص على بعضهم واحجب الآخرين عن جمهورهم وما الى ذلك من هذه الترهات ، وواقع الأمر اننى لا أتخذ قرارا الا بعد دراسة دقيقة له ولآثاره من جميع الوجوه · اشربى التمر هندى قبل ان يبرد ، أقصد قبل ان يسخن ، سوف يعجبك · هنيئا وشفاء ···

كنت أقول ان الجهاز الذى أعمل على رأسه يحوى الكثير من الجيوب والمخابىء والدمامل ، لكننى متيقظ له غاية اليقظة · ان الجهاز لابد ان يتم تطهيره من المنحرفين والمنحلين وأعداء الثورة · تعال يا مبروكة ، على مهلك ، هات فنجانى هنا وضعى فنجان الهانم أمامها ولا داعى للصينية ، اكملى التمر هندى يا آنسة رشـــا لكى تشربى القهوة ، على فكرة ، « مبروكة » هذه من أشد المعجبين بك ، ليلة الحفل كادت تطير من الفرح والانبساط ، لا تتأملى فيها هكذا يا بنت ، انها مخلوقة مثلنا ، مع السلامة أنت ، هى سوف تجىء كثيرا وسوف ترينها بعد ذلك كثيرا ، فى الحفلات طبعا ، وهنا كما تفضلت الآنسة وأعلنت ··

طبعا انت لست فى حاجة الى تنبيه ولكننى فقط ألفت نظرك الى الحذر من بعض المؤلفين الطالعين هذه الأيام · فأنا أخشى ان أرفض لك طلبا ، ولهذا عليك أن تكونى حريصة فى اختيار الكلمات المناســبة والملحن المناسب ، أفضل استشارتى قبل الاقدام على أى خطوة ، فأنت قد التحقت بوسط يشبه الغابة المتوحشة ان لم يكن أكثر توحشا ، ولكننى بكل سرور أضع نفسى مستشارا فنيا لك

ما قاله الملحن الكبير جدا جدا الشيخ يحيى كامل :

هكذا أنا وهذه حياتى كما ترين يا آنستى : سهر فى الليل حتى مطلع الفجر بين هؤلاء الاصدقاء الابرياء ، هنا فى هذه العزبة أو فى منزلى بالعاصمة ، فى هذه العزبة يسكن أحد أقاربى الحاج « محمود صفوان » كان زميلى مجاورا فى الأزرق وكان أحد أفراد بطانة الشيخ « شبكشى أمين » المشهور جدا ، الواقع كنت أنا وهو ضمن البطانة ، سلكت أنا سبيل التلحين ، وسلك هو سبيل الزراعة ولكن صداقتنا بقيت كما هى تنمو ينمو عمرنا المديد .

أحب الليل يا آنسة وأعشقه عشقى لعودى وأنغامى وألحانى عشقى لتلاوة القرآن واستجلاء معانيه العظيمة ، ولولاهما معا - القرآن والليل - لما قدر لى ان أكون ملحنا أو موسيقيا أو أى شىء ، فما أعظم تلاوة القرآن فى الليل حيث تتجاوب مع النفس أصوات الطبيعة ليركب الحوار بينها فى تناسق وتناغم ، ان أصوات الطبيعة نفسها هى التناغم ، هى سيمفونية الأصوات ومعزوفة الخلود المتجدد ، لا يطغى صوت على صوت وليس بينها صوت رئس وآخر مرءوس وان كان هناك أصوات تمجد فى صوت ولكن تمجد نفسها كذلك ، فدورها فى التمجيد هو معزوفتها هو مقولتها فى حركة الوجود المتناغمة ، ليس فى الأرض ما نسميه بالديموقراطية مثل ديموقراطية الأصوات فى مجتمع الأصوات الطبيعية ..

ليس فى المدينة ليل ، انه ليل صناعى كالمسلى الصناعى كالورد الصناعى ككل صناعى لا أصالة فيه ، ربما خيل اليك حسبما تقرأين فى الصحف اننى ضد المجتمعات الصناعية أو اننى عقلية زراعية مضادة للعقلية الصناعية وما الى ذلك من هذا الخرف الذى تمتلىء به صحافتنا ، بل اننى لا أومن بأننا مجتمع زراعى لا يصلح للعصر الصناعى ، فالصناعة تطور يسرى من تلقاء لاات الانسان فى أحشاء كل الناس بصرف النظر عن

طبيعة البيئة ، غير اننى لا أومن باصطناع الأشياء الطبيعية ، انه منتهى السخف والضحك على الذقون وخداع النفس ، ان نصطنع وردا جافا لا رائحة فيه ولا حياة • نفس الشيء ينطبق فى نظرى على الألحان والموسيقى وكافة الفنون القولية والأدائية ، اننا حين نختلق ألحانا وأنغاما نقلد بها الغرب الوافد علينا نصبح كمن ترك ماء نهره العذب ليشرب من ماء الطلمبات لمجرد ان فى الأمر فكرة الطلمبة ، ان الانغام التى تسرى فى احشاء أى عمل فنى لابد ان تكون ترجمانا للاحساس الذى تكون فى بيئة معينة وسط ظروف اجتماعية وكونية معينة •

أراك تستنكرين رؤيتنا الآن على هذا المنظر ، لكأنه شيء شاق بالنسبة لرجال مشهورين مثلنا ، ولكن ماذا فى الأمر من غرابة ؟ ألم ترى قبلنا ناسا يحششون ؟ •• نعم هذا هو الحشيش •• أره لها يا حاج صفوان فهى بالقطع لم تره فى حياتها ـ خفق قلبها بشدة ـ •• ها هو ذا يا آنسة رشا •• اسمه الحشيش مجرد نبات ربما كان للوهم دخل كبير فى عروقه ، لا أعرف كيف أعبر لك بالضبط ولكن ربما كنت أريد أن أقول ان الطبيعة نفسها زرعت الوهم فى أرضها فاكتشفه الانسان واكتشف انه اذ يحرق هذا النبات ويتشرب أنفاسه يصير فى حالة توافق تام مع النفس والمجتمع وهى كما تعلمين لحظة ندر ان تحدث للانسان فى حالة طبيعية خاصة اذا كان هذا الانسان فنانا ، الفنان لايمكن ان يتوافق مع نفسه ولا مع المجتمع والا فان توافق مع أيهما أصبح شخصا عاديا لا يرى ما يراه الفنان ولا يحس بما يحسه الفنان ومن ثم لا ينتج فنا •• هذا النبات الغريب يهيء لنا هذه اللحظة الكاذبة وهى ضرورية جدا لأن الفنان لابد أن يعيش ولو للحظات بنفس الانسان العادى المتوافق مع نفسه ومع مجتمعه ، فهو فى مثل هذه اللحظات يلتقط بهدوء الخيوط التى توصله فى النهاية لبناء عمل فنى ••

هم يقولون اننا منحرفون ، والذين يقولون هذا يقولونه فيما هم جلوس يحششون مثلنا أو يسكرون • وهذا أمر لا يستأهل مشقة الرد

عليه • لكن ثمة أشياء أحب أن أقولها لمن يهمه الأمر ، اذا كانت الخشيشة هي كل خطيئتنا فما أهونها من خطيئة ، اننا نستعين بها على العناء وننسى خلالها مرارة العصور وأمسياتها الكئيبات ، وليس ذلك هو الهدف والا فما كان أهونه ، انما الهدف ان نتمكن من فعل شيء طيب يبقى لنا وللبشرية من بعدنا ، ان نترك فنا جادا تستفيد به الأجيال وتلجأ اليه عند القنوط ليملأها بهجة من جديد واصرارا على الحياة • غيرنا يا آنسة — ولا داعى لذكر الأسماء أو التفصيل أو التفسير — يستهدف السهر للسهر وللسمر ، وفى سبيل ذلك ينفق الآلاف على موائد القمار فى الفنادق وعلى بطون الراقصات فى شارع الهرم وصحارى سيتى ، آخرون ينفقون كل ذلك فى صفقات بعلم الله من الخاسر يعلم الله من المباع ومن البائع ليلومن كل واحد نفسه أولا ••

نعم لقد لمت نفسى وأشبعتها لوما على غير تهمة حقيقية واضحة ، فلما شبعت من اللوم وتعبت نبت السؤال فى داخلى : ما هى تهمتى بالضبط ؟ فما وجدت تهمة • مع ذلك لا أزال أتهم نفسى بالغباء والتخلف اذ هى عاجزة عن استكشاف تهمتها الحقيقية • كيف لا أكون متهما بشىء وأنا قد عوقبت بمحو اسمى تماما من سجلات الاذاعة ؟ لا أحد يكلفنى بتلحين ؟ وكل ملحن حتى أولاد أولادى من الضعفاء والعجزة والمساكين فى عالم الغناء لهم أركان ثابتة على الخريطة يملأونها بأى غثاء فمستبعد من القائمة ، حتى ألحانى الكبيرة التى سجلتها أكبر مطربة فى البلاد ، حين لم يجدوا مفرا من اذاعتها ترين المذيع لا يذكر انها من تلحينى ، هذا بالطبع لا يهمنى لأن الاذان العربية كلها تعرف بصمتى وتقرأ اسمى فى كل نغم ولكن لماذا قلة الذوق والجليطة ، لماذا انكار أبسط حقوقى هكذا بكل صفاقة وفتونة كأننى أعطيت ألحانا لقيطة لا أب لها ؟ أليس يكفيهم انهم ضيقوا على الخناق ومنعوا عنى باب رزق فتحوه لكل من هب ودب ؟ أليس يكفينى اننى مستعد لقبول التلحين لأى حمار نكير الصوت يفرضونه على ؟ ••

هم يزعمون ان التوصية بقطع الطريق على نزلت عليهم « من فوق » ، وقد حزت في معرفة من المقصود بفوق ولماذا هو حاقد على وحدى ؛ أم تراه يكون على وجه الدقة واليقين ؟ · الواقع لقد عجزت ، وعادت كل وساطاتى الى كاسفة البال تقول وجوههم لأولادى ان ميدان الفن والشهرة والفلوس بالنسبة لكم ولأبيكم كان مجرد أضغاث أحلام ، وان الأعمال التى تعب أبوكم في بنائها وتبليغها للناس دون مقابل مادى يذكر قد انسيت تماما وكأنها لم تكن · وأن الانسان ـ وليس أباكم وحده ـ يمكن ان يجتث من جذوره ومن ماضية ليصبح مجرد فرع لا قيمة له تذروه الرياح · مع العلم بأن هذا الانسان لم يخطىء فى حياته ولم يرتكب اثما · لا يملك العقاب سوف الله عز وجل · ان ولد لبعض البشر ان يملكوا القدرة على العقاب فبأى ذنب يعاقب انسان مثلى ؟ لست سياسيا ولسنت أنتمى لأى حزب بل اننى كنت ولا أزال من أشد المؤمنين بالثورة المؤيدين لها ، وان كانت مخابرات الثورة قد أبلغت عنى شيئا غير الوطنية الصادقة والحب الكبير للشعب وللثورة وللمستقبل فانها تكون مخابرات مهيأة للنجاح فى مسابقات التأليف القصصى والروائى ، واذا رجع المسئولون الى تقارير المخابرات التى وضعته عن المخابرات لوجدت ان المخابرات الفرعية ركزت خيالها على ناس يحشيشون ويتفننون فى تحريك اعطاف الناس ، ونسيت ناسا يسكرون ويتاجرون فى مصائر البشر ، انما تعالوا ، الأمر ليس هكذا أبدا ، ان الرياح لا تأتى من هذه النافذة فيما أعتقد ··

الرياح تأتى من فوق الجبل الأعظم من « قمر » ، أعنى أكبر مطربة فى البلاد · سبحان من له القوة والسلطان والدوام · قامت على أساس متين من صنعنا · كل هذا المجد الشامخ صنعته ليالى أنا وزملائى وأصدقائى فى جلسات ضائعة كهذه التى تشرفيننا فيها الآن ، لحظات ضاعت على أولادنا واقتطعت من مستقبلهم ، فلو قضيناها فى جوارهم أو فى عمل يدر لهم دخلا ماديا لكان أفضل بكثير بالنسبة لهم ، لكننا وهم قد رضينا واستعذبنا هذه اللحظات التى نعانى منها نحن وهم ، أجل يا آنسة ،

فاولادنا من قبلنا يستعذبون لحظاتنا المشحونة بالعذاب والتوتر والفاقة لانها لحظات تعمل فيها من أجل الجميع لا من أجلنا فحسب ، بل نعمل شيئا للآخرين ولا نعمل لأنفسنا أى شىء سوى النسب الشريف لهذه الأعمال . أكبر مطربة فى البلاد يا آنسة ، أضع النقط فوق الحروف ، هل أخاف ؟ ولماذا أخاف وحتى متى أظل أخاف ؟ .. بينى وبينها قضايا فى المحاكم والكل يعرف .

نعم أستطيع أن أقول لك الأسباب ، لقد لحنت لها كل هذه الألحان على مدى سنوات عشر هى أنضج سنوات عمرى وأحلى ما أنتجته من فن ، كل لحن يناطح أخاه وينافسه فى حب الجماهير الكبيرة ، كل لحن أقام حفلا من وراء حفل من وراءه حفل حتى امتلأت خزائن القابضة وفاضت ، لكل لحن من تلك الألحان جذور ممتدة درج حساب يصب فى رصيدها بلا نهاية فكم أخذت أنا من كل ذلك سوى بضع جنيهات قليلة الشأن لا تذكر لدى كل لحن ، يكفى أن أجر اللحن لم يكن يكفى لكساء الأولاد فى صيف أو شتاء ، ثمن اللحن بكامله يكفى بالكاد لعشوتين وغدوتين وسهرتين نعانى القحط بعدها ، فى حين ان اللحن لكى يصير لحنا ويستقيم على صوتها وعلى الأوتار حدث ولا حرج عن معاناتى ، ربما أنفقت ثلاث شهور أو ربما عاما كاملا ، ليالى متواصلة لا أكف خلالها عن مداعبة الأوتار ونكش مدخراتى من الأحاسيس والمشاعر الصاحبة الساخنة ، وأنفق على اعتدال المزاج والانتقالات الموسيقية ما اقتطعه من قوت أولادى ..

صاحبة الصوت الأعظم كبرياؤها أشد عظمة لله وحده ـ كيف أتجرأ وأطالبها باعادة التفاهم حول مسألة الأجر ؟ أراجعها فيما قدرت وتصرفت ؟ كيف ؟ . كان المفروض ان أظل أعمل بنفسية الأقنان والعبيد ، الانضواء فى ترس العمل حتى فقدان الارادة ، ان أظل ألبى الطلبات لمزيد من الأفلام الجديدة والحفلات الجديدة تاركا مسألة الأجر تحددها كيفما تشاء وقتما تحب ، ان أفاجأ بلقمة زائدة فوق احدى الموائد فانتفض شاكرا كبرت أو

صغرت ، أن أظل مجرد صفر مجرد ظل ، مجرد ماعود يندق فى الأرض خلفها ليعلقوا عليه مشعلا يلقى الضوء عليها ، هى ، وهى فحسب ٠٠ اننى يا آنسة رشا ــ لا أقبل التعامل بسياسة : جوع كلبك يتبعك ٠

كنت أظننى يا آنسة رشا حين اتخذت قرارى بالمواجهة قادرا على ذلك ، وأنا قادر بالفعل وهى لم تضع فى حسابها اننى صخر لم تضع فى حسابها أننى جئت من القرية مجاورا فى الأزرق وعشت قدر ما عشت بين رحاب الشهرة والمجد فلم أغير طبعى أو حياتى ولم تقبل الدنيا على بمادة يستتبعها تغيير فى مستوى حياتنا الاجتماعى ونحن لسعداء بذلك اذ لن نخسر شيئا عند احتدام الصراع ، نسيت هى اننى سأصمد أمام انقطاع الأجور والمقاطعة ٠ وأما أنا فلم أكن بأقل غفلة منها ، اذ لم أضع فى حسابى ان خصمى وهو فرد يمكن ان يصبح دولة كاملة ، ان أخاصم شخصا فاذا بى مستهدف للخصام والمقاطعة من كافة الأجهزة ٠ هل زالت دولتى كما يقـــول بعض الصحفيين المأجورين الذين امتلأت بهم صحافتنا الفنية والسياسية ؟ ٠ لولا ان هؤلاء الذين تجلسين الآن بينهم من أصدقائى الخلص لقاطعونى هم الآخرين خوفا مما قد تجره عليهم معرفتى من مصائب والعياذ بالله ٠ فانظرى يا آنستى كيف يتحول فنان مثلى الى منبوذ يمارس أحاسيس المجرمين المطاردين ؟ ٠ آه ٠٠ أى امتهان هذا بحق الله ؟ ٠٠

●●●

لم تشعر الآنسة رشا ــ أو البتعة سابقا ــ بمثل ما شعرت به تجاه الملحن الشيخ « يحيى كامل » ٠ طول عمرها تسمع اسمه ، لكن اسمه كان يتميز عن كل الأسماء التى تسمعها فى قريتها وفى المدينة بكونه ذى عمل واضح محدد ، كانت خزانة عقلها تحتفظ بعديد من الأسماء تسمعها ليل نهار وتسمع عنها دون أن تعرف ماذا هى بالضبط وما عمل أصحابها ، أسماء غريبة تطفو على سطح دماغها كيفما اتفق وفى لحظات كثيرة ٠ طالما سمعتها وتسمع عنها ولكنها لم تتوقف لتعرف ماذا هم بالضبط وماذا

يعملون ولماذا هم دون غيرهم من الناس • أما الشيخ « يحيى كامل » فهو الاسم الوحيد الذى ان سمعته عرفت فى الحال انه الموسيقار الكبير الذى يلحن الأغانى للمطربة الكبيرة « قمر » وغيرها من المطربات والمطربين ، تعرف ذلك كما تعرف ان « أم كلثوم » مغنية ومحمد عبد الوهاب مطرب وموسيقار مثل الشيخ زكريا أحمد •

وساءلت نفسها : كيف يمكن ان يقع الظلم كله هكذا على رجل كهذا ؟ • ركبها هم وغم شديد واقشعر بدنها وأحست أنها موشكة على الوقوع فى حفرة عميقة مظلمة وان ضلوعها سوف تتهشم لا محالة • ارتفع صوت فى داخلها يسائل : أيكون الشيخ « يحيى كامل » مذنبا فى حق الشعب مثل الملك السابق الذى طردوه أحد أن الملك مجرم كبير يخطىء فى حق الشعب وهو ملك ابن ملك ؟ هل هو الزمن الذى يجور على ناس وينحاز الى ناس ؟ أليس الزمن يسيره الله ؟ اذن فالملك يستأهل ما جرى له ؟ ولكن ياربى هى لا تصدق ان الملحن الشيخ « يحيى كامل » يمكن ان يكون مجرما فى حق الشعب حتى يستأهل كل هذا الظلم • ربما أحست بشىء من عدم الاهتمام تجاه « عبد القوى بك » والمسئول الاذاعى الكبير « شداد النشرتاوى » ، كلاهما لم تفهم من كلامه شيئا وكانت كل مهمتها فى اللقاء ان تصبر نفسها على احتمال الجلسة ، أما الملحن الشيخ « يحيى كامل » فقد فهمت كلامه فهما جيدا كما أحست بأنها لا تريد مغادرة جلسته ••

ثم ان السؤال الأكبر قام فى داخلها فجأة فانهارت له كل قواها : لماذا يقولون لها هذا الكلام ؟ أترونهم يتصورونها رئيسة الجمهورية ؟ هى ليست ذكية حتى تعرف مقاصدهم على التحديد وان حفظت كلامهم عن ظهر قلب وسجلته فى ذاكرتها كلمة كلمة ، هى كذلك ليست غبية ، فقد أحست كما لو أنهم يحثونها على تبليغ هذا الحديث لأكبر مسئول فى البلاد • ثم انزلقت منها ضحكة مرة : انها لا تعرف حتى أصغر مسئول فى البلاد • كل ما نجحت فى الكشف عنه طوال الأسابيع الماضية هو معرفة شىء واحد فقط عن الشخص الذى كافأها ببقشيش عظيم حين أعطاها

بطاقته ، ذلك انه شخص مهم جدا جدا ، فما هو اسمه على وجه التحديد ؟ هكذا سألت المهرب الذى أرسلها اليه ذات يوم لاستلام ثلاث صناديق فيها بساتم سيارات ، فمكر بها المهرب غاية المكر وظل برهة طويلة جدا يتصنع التذكر لكنه فى النهاية نصحها بعدم الاقدام على هذه المحاولة مرة أخرى والا تكون قد رمت بنفسها بين فكى المصيدة التى لا عودة منها مطلقا ، ثم أضاف بحنان حقيقى انه يقول لها هذه النصيحة حرصا منه عليها وحبا لها خاصة بعد ان فتح الله عليها باب العز والمجد والشهرة ، وكانت قد أطلقت بعض أتباعها فكلفوا بدورهم بعض معارفهم ليعرفوا اسم الرجل الذى يستأجر الشقة الفلانية فى البيت الفلانى فى الحى الفلانى ، فصرفت على ذلك مبلغا موجعا ولكنها لم تتوقف عن محاولة جمع المعلومات عنه الا يوم جاءها السائق زوج ابنة أم جابر ليهمس فى أذنها ملتاعا بأن المباحث قبضت على صديقه الذى ذهب يستعلم عن اسم ساكن الشقة اياها ، سألته مذعورة واجفة القلب : كيف حدث ؟ ، فقال ان صديقه كان غبيا ومندفعا اذ تعرف على ابن البواب وسأله بشكل مباشر فاتضح ان ابن البواب أحد ضباط المباحث الذى اقتاده الى حيث لا يعرف أحد •

من يومها ظلت تتوقع الخطر بين لحظة وأخرى ، وكان القلق يفرى قلبها حتى كان يوم الحفل اذ فوجئت بالمسئول الاذاعى الكبير « شداد النشرتاوى » يطرق عليها باب الكالوس ثم يدخل منحنيا ببطاقة ورد وخلفه شاب أنيق فيه وداعة الكلب البوليسى ونعومة ملمسة لكنك تحس الخطر كامنا فى جوفه الضرير • سلمت عليهما معا وأذنت لهما بالجلوس على الدكة الخشبية فجلسا ، وابتسم « شداد النشرتاوى » متمنيا حظا سعيدا ، ثم ابتسم مرة أخرى وقدم لها الشاب قائلا : « سيادة العميد شوكت الجزار » ، فبدا كل منهما فى عينها اثنين وكل شىء فى الغرفة ظهر له قرين حى ، وكادت المرآة الكبيرة التى تقف أمامها تميل عليها فصارت تعدلها وهى فى الواقع تحتاج لعدل نفسها ، وكانت من الذكاء بحيث دارت هذه الرجفة فى بحث مصطنع فى حقيبة يدها فيما هى تقول : « أهلا أهلا

·· تشرفنا ·· ان شاء الله يكون لنا شرف حضورك الحفل » · قال الشاب :
« طبعا طبعا ·· أمال أنا جاى ليه ؟ » · قال « شداد النشرتاوى » ان سيادة
العميد جاء يستفهم منها عن بعض الأشياء · قالت « خيرا » · قال الشاب :
العميد : « هل تعرفين سائق لورى اسمه عثمان المخصى ؟ » قالت :
« أبدا ·· عمرى ما سمعت بهذا الاسم ·· ولست أعرف من السائق سوى
زوج ابنة أم جابر التى تخدمنى » · هز الشاب رأسه فى تأييد : « ولكن ··
أليس من المحتمل أن يكون زوج ابنة أم جابر هذا قد كلفه بالبحث عن
شيء ؟ » · قالت بثقة : « لا يمكن ·· انه مستقيم ولا يفارقنى وأعرف كل
شيء عنه ·· ما الأمر بالضبط من فضلك ؟ » · قال العميد : « لقد أمسكنا
بولد مجنون يتجسس على عنوان أحد الملوك العرب اللاجئين فى القاهرة » ·
صاحت هى من الرعدة وشهقت : « أحد الملوك ·· اذن فلا تتركوه ··
أدبوه فهو يستأهل » · شوح العميد فى لا مبالاة : « لقد هشمنا عظامه وفى
النهاية اكتشفنا انه قليل العقل ، ولم نقم وزنا لأى كلمة من كلامه سوى
قوله ان حضرتك طلبت منه ذلك » · من فرط الرعب أطلقت ضحكة عالية
هادرة كانت السبب فى ان يخبط العميد بيديه على ركبته ثم يقف مبتسما :
« ها هى ذى الشهرة تجيء وراءك بأضرارها من أول خطوة ·· تمنياتنا لك
بالنجاح » · ثم وقف « شداد النشرتاوى » وسلم عليها قائلا : « اطمئنى
·· كان سيادة العميد يريد أن يتعرف عليك بشكل طبيعى وبكل وضوح
·· لأننى شرحت له وعرفته من أنت وبأوراق رسمية دامغة ·· فهنيئا لك » ·
ثم خرجا معا وتركاها فى بلبلة نسيتها فى تصفيق الجماهير وحرارة اللقاء
بهم فى ذلك اللحن الجميل الخفيف المبهج ·

حارت ماذا تفعل فى هذا البحر الهائج الذى القى بها فيه ، لكنها فى
النهاية قررت ان تترك نفسها للتيار يلعب بها كيفما شاء ولكن عليها ان
تظل قريبة من الشطآن ، متيقظة للأمواج العالية ·

- ٣٨ -

أبدا لم يكن البحر هائجا كما تصورت ، ولم يكن ثمة أمواج عالية • ربما لأنها تعلمت السباحة جيدا وصارت فى هذا البحر بلطية كبيرة ليس من السهل أبدا صيدها ، عقدة ذنب صغيرة كانت تؤرقها فصممت على محو أسبابها • تلك هى البطاقة التى تسلمتها مظروفا مغلقا وسلمتها مظروفا دون ان تكلف نفسها معرفة اسم صاحب البطاقة واسم المرسلة اليه البطاقة ، أما اسم المرسلة اليه البطاقة عرفته فى أول خطوة وأما اسم صاحب البطاقة فقد ظل حتى الآن سرا مغلقا كلما تذكرته شبت النار فى كيانها لبرهة ، حتى المهرب الشرقاوى لم يرسلها اليه ثانية ولم يرد له ذكر فى حياتها بتاتا ، أما كانت تستطيع ، على الأقل ، فض المظروف وعرضه على من يقرأه عليها ؟ أم انها بمكر ريفى تكتمت الأمر وخشيت من فضحة خاصة انها لم تكن قد اقتنعت بطرق ذلك الباب ؟ ربما كان هذا هو السبب ولكنها صممت على معرفة القراءة والكتابة مهما كلفها الأمر ، انها على الأقل يجب أن تعرف كيف تقرأ رصيدها فى البنك وكيف توقع على الشيكات وكيف تقرأ بنود العقود التى بدأت تنهال عليها من السينما والحفلات والمحلات الكبيرة ، يجب أن تقرأ ما تنتشره الصحف عنها من أخبـــار متواصلة • وهكذا جىء لها بمدرس فقيه كادت من فرط حبها له أن تمنحه جسدها لأكثر من مرة لولا تماسكها وتعففه • علمها القراءة والكتابة فى خلال شهور قليلة فانفتحت أمامها الدنيا على الحقيقة ، واتسعت أمامها الأبواب والنوافذ وانفكت عشرات الرموز الغامضة •

- ٣٩ -

فيلا « رشا الخضرى » فوق جبل الحواوشى أصبحت أتوبيس يصيح عندها المحصل قائلا : « محطة رشا » • فى حديقتها المزهرة تقف السيارة « الفولكيس واجن » ذات اللون الزهرى مستعدة للذهاب الى المشاوير

القريبة غير الهامة . وفى حظيرة ملحقة بها تقف كالروسة سيارة « بويك » مستعدة لمشاوير الاسكندرية والحفلات والأفراح واللقاءات المثمرة .

علاقتها بالمهرب الشرقاوى لم تنقطع طوال ذلك ، بل تعمقت بقدر ما اتسعت وتنوعت . هذا الرجل لابس الجلباب الصوف صيف شتاء ، واللاسة البيضاء ، النظيفة دوما ، والحذاء اللامع والصديرى الشاهى والخواتم الذهبية ، والهدوء والرزانة والعقل الواسع ، أبدا لا يجب ان تخدعك هذه الجلباب فتتصور انك جالس مع فلاح أو بالكثير عمدة ، انما أنت جالس مع ملك أو قائد كبير أو حاكم عظيم لا يرد له كلام ، مع انه بسيط وليس فى مظهره أمر ولا نهى ولا صلف ولا غطرسة . فوجئت انه يرطن بعدة لغات وان خياله أوسع وأخصب مما تصورت . هو الذي فاجأها ذات يوم بأنه سيقيم لها حفلا فى بيروت . انتفضت من الفرح وعدم التصديق ، وظلت وقتا طويلا تردد : حفل فى بيروت ؟ الى أن فوجئت به بعد أيام يقول لها ان تذاكر الحفل قد نفدت عن آخرها لأن الاعلانات كانت على ما يرام . كيف اذن تملكت هذا الجبروت يا حاج « عطاطس » ؟ قال انه لم يفعل شيئا سوى الاتفاق مع شركة اعلانات ومكتب حفلات ، وليس مطلوبا منها سوى ان تكون جاهزة للسفر بعد شهر بأغنية أو اثنتين جديدتين . قالت ان التأليف والتلحين يتكلفان ، وسفر فرقة بحالها أكثر تكلفة . دفع لها برزمتين من الأوراق ، النقدية قائلا ان هذا من خيرها ، تنفقه على التأليف والتلحين والعازفين وبعد الحفل يكون له معها حساب ..

« سامى النهرى » منتصب القامة الفنية على الدوام . الفنان الذى فيه ينتصب واقفا بمجرد لمس النقود . فتح درج مكتبه فأخرج ملفا به قصاصات ورق كثيرة انتقى منها واحدة ثم واحدة قرأهما عليها فأعجبت بهما فقال انه اختارهما لأن لهما نبشا فى أعماقه من سنوات .

التصفيق موج في أثر موج عال يرفعها على أجنحة سحرية ويطير بها بين جبال لبنان العظيمة ، لا يريد تصفيق الجمهور في الحفل ان يتراجع أو يتباعد بل يرافقها في كل خطوة ، تنداح موجة التصفيق بعيدا فترفع بصرها خافقة القلب متهيأة لاستئناف الغناء فلا تجد للجمهور أثرا ، لا تجد غير جمهور الكازينو المنحوت فوق سطح الجبل والسيارات تسبح حواليه من كل ناحية كانها قوافل تتخبط في متاهة دائرية لا تنتهي • الاستاذ « سامي النهري » وقد أصر على مرافقتها في الحفل يجلس في جوارها ممسكا بعوده يدندن أنغاما وافدة لا كلام لها • لقد اتفق على مجموعة ألحان لاذاعة بيروت واتفقت هي على أكثر من حفل جديد يلزمها أغان جديدة • « سامي النهري » ليس يغلب طالما ان عوده معه ، أما الكلام فانه دائما يصطحب معه « سمير بقلاوه » ، وهو شاب في الخمسين كان موهوبا في التأليف ذات يوم لكنه لدناءة في نفسه ابتذلت موهبته وأصبح يعمل في مرتبة صبي أو مرمطون للملحن « سامي النهري » يشـــتري له الحشيش ويقوم بتوضيب السهرات ولف السجائر وشد الأعواد ونقل الرسائل الشفهية بين سامي النهري والمطربات الهاويات اللآتي ينتمين الى مدرسته ، عند الزنقة يكتب « سمير بقلاوه » أي كلام وبالقطع سيكون موزونا ومستساغا وان فرغ تماما من المعنى •

الحاج « عطاطس » هو الآخر لم يضيع من الوقت ثانية ، كان دائم الظهور في محيطها والجميع يعرفه باعتباره سمسار حفلات ناجح ويتملقونه سعيا وراء رزق يأتي من ورائه • وبالفعل — وبفضله — تمكنت الفرقة من احياء سبع حفلات في عشرة أيام عادت بعدها « رشا » الى القاهرة بسيارة مرسيدس معبأة بالحشيش والأفيون في كل أحشائها ابتداء من اطاراتها حتى كراسيها وفراغات الرفاف خلف الفوانيس • لم تكتشفها الجمارك بالطبع انما اكتشفت ان الراكبة هي المطربة الصاعدة « رشا الخضري » ،

وتكلفت عينها بتحذير الجميع حتى قبلوا هداياها المتواضعة وتركوها تمر مشيعة بالتحية والاكبار ، وكانت قد أعدت حجة النجاة بأن السيارة لم تصبح بعد ملكا تاما لها وأنها تسلمتها هكذا دون فرصة لمراجعتها • ورغم أن هذه الحجة لم تكن صالحة للنجاة حقا الا انها كررتها وكررت معها عشرات المئات من الرحلات المشابهة في مشارق العرب ومغاربها ، وتنوعت المهربات والمحلوبات ولم يكتشف أمرها •• أبدا •

— ٤١ —

« رشا الخضرى » نمرة ثابتة فى الاذاعة والتليفزيون وأخبار الصحف ، وفى ليالى الأعياد يكافئون الجمهور باظهارها تتكلم وتقول له كل سنة وأنت طيب يا جمهورى العزيز •

— ٤٢ —

من كان يظن أنها وقد استمدت قوتها وسلطانها من شخصية شبه مجهولة تصبح هى نفسها ذات هيبة وسلطان ؟ • أما عن نفسها فشخصيا لم تكن تتوقع أى شىء مما حدث طول حياتها ولا تتوقع ماذا سيحدث لها فى قابل الأيام • انما هى كانت تخشى ان تجىء اللحظة الموعودة ، ان يكتشف الذين بثوها شكواهم انها ليست أهلا لذلك وانها لا تعرف كيف تخدم صرصارا • غير ان هذه اللحظة لم تجىء أبدا ، بل جاءت لحظات أحلى وأروع ، لحظات أصبحت هى فيها قادرة على أن ترتفع سماعة التليفون وتطلب أى شخصية تشاء : أنا « رشا الخضرى » •• فلا تواجه أى حواجز صناعية • وهكذا تقابلت مع شخصيات كبيرة ذات سلطات كبير وجاملتهم فى أفراحهم بالمجان ، وتقربت الى شخصيات أكبر وحاملتهم بالهدايا وبذلك خدمت ناسا كثيرين وتوسطت لفض مشاكل كثيرة عويصة بين زملاء كثيرين

من أهل الفن حتى مشكلة الشيخ « يحيى كامل » مع المطربة الكبيرة « قمر » استطاعت ان تساهم فى حلها وديا وان يتنازل الشيخ يحيى عن قضاياه فى المحاكم وان تتنازل « قمر » عن بعض كبريائها فى سبيل أن تعود المياه الى مجاريها وقد عادت ولكن بشكل محدود ..

— ٤٣ —

فالدنيا مقلوبة هكذا والجو مقبض وينذر برياح عاصفة . الصحف تجهمت فجأة ووجوه المذيعين والممثلين ووجوه البرامج كلها مرئية ومسموعة هى الأخرى تجهمت وتنكرت للهزل مرة واحدة . مقالات حماسية ورسائل موجهة من كبار الأدباء الى الرئيس الأمريكى ، وثمة من يطلب منها أغنية وطنية . دهشت وقالت ما معنى وطنية ؟ قال لها مقدم برامج باذاعة صوت الأزارقة كلفه المسئولون بانتاج هذه الأغانى : « أغنية وطنية يعنى فيها غزل من أجل الوطن » ، فشردت لحظتها وقالت لنفسها ان الاستاذ سامى النهرى يستطيع فعل كل شىء ، يستطيع الاتيان لها بشاعر يتغزل فى حب الوطن أو يتغزل فى حب الجبل ، فهكذا تريد الاذاعة وما عليها هى سوى الامتثال غير ان مقدم البرامج الذى هو فى نفس الوقت له شركة انتاج سرية تنتج برامج منوعات هى خلطات متقنة من مختارات مما سجل على شرائط الاذاعة حيث يطلبها معمله فى الاذاعة ثم يسربها الى الخارج لينتقى منها ما يريد ثم يردها ، أولا يردها والذى هو فى نفس الوقت أيضا مشرف على جانب كبير من الحفلات التى تقيمها الاذاعة حيث يتولى الاتفاق مع الفنانين ومساومتهم وملاعبتهم الخ — قال لها انه سيعفيها من مهمة الاختيار وسيختار لها ، ثم قدم لها أغنية سقيمة سخيفة عالية الصوت صاخبة ، من قبيل : « بلدنا مقبرة الغزاة .. واللى يدخله يلاقى الموت حداه » . فغنتها ، ورغم ذلك لا تعرف ما الأمر على وجه التحقيق ؟ .

مثلما تعودت ـ رمت وراء ظهرها بكل المقلقات ، اذ ما الذى يقلقها ولماذا تقلق ؟ ان الله الذى أوصلها الى ما هى فيه الآن من نعيم لن يقصد بها شرا أبدا ، على العكس لقد حماها من أبناء آدم الذين قصدوا بها الشرور ، ها هى ذى ملكة غير متوجة لا زوج ولا ابن ولا أحد يستأهل ان تقلق عليه ، انها لم تتعود ان تقلق على أحد منذ ان سلختها أمها من جلدها وباعها خالها بأرخص الأثمان وهرب من وجودها كله زوجها هريدى ٠

لقد باتت اليوم تعرف من هو العدو الغاشم ، تعرف أنه ليس رجلا واحدا بل هو دولة يقولون انها صغيرة ولكن رشا اكتشفت ان رمانة القبانى صغيرة كالكرة الشراب لكنها تزن القنطار والقناطير ، وهى ـ رشا ـ تفتح أذنيها جيدا فى سهراتها التى لم تخل أبدا من « عبد القوى بك » ، ومنه تعلمت الكثير والكثير والكثير ، انها ان كانت تعلمت من الحياة كلها شيئا طول عمرها فان ما تعلمته من « عبد القوى بك » وحده يفوق كل ما تعلمته ٠ كان اذ يجلس فى غرفة صالونها المطلة على حديقة الفيلا فوق الحواوشى العظيم يحس كأنه أخيرا قد وجد بيته وملاذه ٠٠ « أم جابر » وبعض أفراد عائلتها يظهرون فى الصالة ويبرزون أصواتهم من حين الى حين ويقدمون لعبد القوى بك ما يحتاجه من شراب أو مأكل أو سجائر ٠ أول من يجىء وآخر من ينصرف ؛ تضم السهرة فى العادة باقة ولكن غير متناسقة من الزوار : سامى النهرى ، توتو الأبيض أشهر مقدم برامج فى التليفزيون ، علياء المشهدى مقدمة البرامج الطرية العود والصوت ، حامد البحر المحرر الفنى بمجلة النجوم ؛ سالم عقله مؤلف الأغانى المشهور الذى كان فى الأصل حلاقا وتبنته رشا ، غير أن هؤلاء كانوا ينصرفون قبل ابتداء السهرة الحقيقية التى تضم فى العادة أيضا عبد القوى بك وسامى بك ومقدم البرامج بصوت الأزارقة وممثل مسرحى واذاعى كبير يمتلك هو الآخر شركة انتاج اذاعى خاص يبيعه لاذاعات الدول المجاورة من بطون بنى الأزرق ، حيث تمتد مائدة القمار تضيع فوقها الأموال والأهداف والنوايا الحسنة ويحس الجميع كأنما تجمعوا لتعرية بعضهم البعض والسخرية من بعضهم

البعض بعمق وحتى النخاع ، أحلى ما فيها خطب « عبد القوى بك » التى لايزال يرددها بمناسبة وبلا مناسبة . واذا كان الجميع يضيقون بهذه الخطب أحيانا ويسمعونها على مضض كانت هى فى أعماقها ترحب بها كل الترحيب لأن « عبد القوى بك » موهوب بالفعل يتحدث كأنه السحر المتدفق بلغة فصيحة كأنها لغة القرآن الكريم يتحدث عن العدو وخطره العالمى وما يسمى بالامبريالية ويتحدث عن الحكومة والشعب الذين هما معا نفس الطينة من نفس العجينة وكيف اننا جميعا نعطى مؤخرتنا للعدو ونتغاضى عنها فيما نحن منشغلون فى تحية المواكب والطواويس ، ثم ينهى حديثه باسما حيث يشاركه الجميع فى نطق العبارة التى يحفظونها جيدا : « سوف تأكل الطواويس الطوايس » .

فى احدى الليالى ـ ولأول مرة ـ تخلف مقدم البرامج باذاعة صوت الأزارقة وطلب رأيها فى أمر هام . خيرا . قال لها انها حفل شـــديد الخصوصية أقرب الى حفل سمر على مستوى كبير بعض الشىء . قالت انها تحب مثل هذا النوع من الحفلات لأن جمهورها يكون خاصا ومؤدبا فى التعبير عن اعجابه . قال لها أما من حيث الجمهور فهو أكثر من خاص ، ولهذا فانها ستتسلطن على سنجة عشرة ، وان مناسبة الحفل وهدفها أكثر من خاص ولذا فهى لن تتقاضى عن الغناء أجرا ، بل ستكون متبرعة مثل رهط الفنانين الذين سيتشرفون باحياء الحفل . انتفضت كل عروقها واقفة كشعر القطة المتحفزة ، قالت أين الحفل ومن أصحابه ؟ قال انه سيقام فى مدينة الخنافس على الحدود ، وفكرته اقترحتها صحفية ناشئة نيابة عن أحد المراكز الثقافية الفنية المنتشرة فى الشرق الأزرق ، على ان يقوم هو بتمويلها ـ ثم استدرك منتبها ـ أقصد يصرف على نفقات الحفل النثرية من طعام وشراب وكراسى وتنقلات وما الى ذلك ، والهدف من الحفل سهام ونبيل : الترفيه عن رجال الجيش من حرس الحدود الذين كتب عليهم واجبهم الوطنى ان يعيشوا حياة جافة خالية من كل الرفاهية وبما انهم مقبلون على معركة حاميــة الوطيس فالواجب الوطنى والانسانى والقومى يحتم علينا ان نشارك فى هذه المعركة حتى ولو بمهمة الترفيه عن الجند ..

في الحال قالت رشا انها موافقة وبكل سرور مادام الأمر كذلك ٠ حينئذ اتسعت الابتسامة الشاحبة على شفتى مقدم برامج صوت الأزارقة وارتعش شاربه الجميل فى بشر ٠ ثم نهض واقفا وقال انه سوف يتصل بها خلال أيام قليلة ليبلغها عن موعد الحفل ، ويوم الحفل سيتكفل ناس بأمر انتقالها تحت الحراسة ، وردها الى البيت تحت الحراسة أيضا ٠

– ٤٤ –

كانت تستعد للحفل المنتظر باغنيتين قديمتين ، وكان صاحبنا قد تكفل باقناع الفرقة الموسيقية الكبيرة التى سوف تصاحبها وتصاحب غيرها طوال الحفل ، لا تدرى كيف اقنعهم بالتبرع وهى تثق ان مسألة التبرع أمر غير وارد فى قاموس حياتهم على الاطلاق . لكنها لاحظت أن الفرقة تستجيب لطلباتها دون تذمر وتوافق على اجراء البروفة حسب مزاجها هى فى أى وقت تشاء ٠٠

ولم يكن قد بقى على حفل الخنافس الا أيام قليلة حين طرق باب الفيلا من الخارج ونبحت الكلاب بشراســة . ولم يفلح خفير الفيلا فى اسكاتها ، وكانت هى جالسة على مائدة القمار تطلق قهقهات عالية بلا معنى حين اقتحمتها أصوات الكلاب فأحست بانقباض فى صدرها وتسللت خارجة فأطفأت أنوارا كثيرة فى الصالون وأغلقت باب الصالون بالمفتاح وانطلقت فى الصالة ومنها الى الشرفة المطلة على باب الفيلا مباشرة فأضاءتها وصاحت بخوف : « فيه ايه يا عليوه » ، فصاح عليوه من بعيد مغطيا على أصوات الكلاب قائلا ان سعادة البيك يريد مقابلتها لأمر مهم كما يقول ٠٠٠٠٠٠ فجاءها صوت مصقول مؤدب يصيح : « مساء الخير يا هانم ٠٠ أنا الرائد مجدى الصوفانى ٠٠ ممكن نقعد مع سعادتك خمس دقايق بالعدد ؟ » ٠ قالت وقد أعجبها ان مثل هذا الرائد يستأذنها بأدب هكذا قائلا يا هانم : « بكل سرور ٠ تفضل » ٠ ثم دخلت ، مرت على الصالون

ففتحته وأوصت بخفض الصوت تماما لأن ضيوفا أغرابا سيدخلون البيت » ·
ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأضاءت نور الانتريه واختفت بالداخل قليلا
حتى تكفل الخفير بادخال الرائد مجدى وأجلاسه فى الانتريه ثم انصرف ·
بعد برهة طويلة دخلت اليه رشا تخطر كالبطلة كأنها قائمة لتوها من
حجرة النوم · وبعد برهة أطول دخلت أم جابر تحمل الصينية الفضية
عليها زجاجة الكوكاكولا المثلجة والكوب الكريستال وضعتها أمام الرائد
مجدى وانصرفت فقالت له رشا : تفضل ، وصبت له المشروب فى الكوب
فصنع مظاهرة لطيفة من الوشيش والطرطشة · شفط رشفة مديدة ووضع
الكوب فتلقفت رشا عينيه قائلة كأنما من تحت اللحاف : « أهلا » · قال :
« تشرفنا » · قالت « خير » · قال : « الأمر بسيط ·· سعادة مصطفى بيك
يرجوك مقابلته لأمر هام وعاجل · شردت ثم : « مصطفى بيك ·· من هو
عدم المؤاخذة ؟ » ·

« مصطفى بك عصمت يا هانم ألا تعرفينه ؟ » ·· هكذا صاح فيها
الرائد بهدوء كأنه لا يصدق انها لا تعرفه · غير انها كانت بالحق لا تعرفه
أبدا ، بل ربما كانت هذه أول مرة تسمع فيها اسمه · وقد راحت تنظر
الى الرائد فى استفهام منتظرة ان يشفق عليها ويشرح لها من هو مصطفى
بك عصمت ولماذا يطلبها على وجه الدقة ، لكنه لم يقتنع أبدا انها لا تعرفه ،
ولهذا فقد أنهى كوب المشروب ونهض واقفا وراح يكتب ورقة صغيرة قدمها
اليها قائلا : « الموعد غدا ·· فى الحادية عشرة صباحا بمكتبه ·· نرجو
عدم التأخير » · ثم سلم عليها بشدة وانصرف · وحين انصفق الباب منغلقا
انكسرت فى دماغها جدران زجاجية كثيرة واختلطت عشرات الصور ببعضها
من كافة الأيام والسنين الفائتة كحلم ساحر ومخيف ·

تهاوت جالسة على الكرسى وأمسكت برأسها ونظرت فى الورقة
للمرة المائة محاولة استشفاف ما وراءها دون جدوى ، حيث لم يكتب فيها
سوى : « مصطفى بك عصمت · ٤٠ حدائق اللبوءة » · حتى الحى فكرت

فيه وفيمن يسكنونه : حدائق اللبوءة .. كان فى الماضى – كما تسمع اليوم – يسكنه الكبراء من الأسود فى عالم المال والاقطاع ، وكان أول من اتبنى فيه رجل يهوى تربية الأسود واطلاقها فى حديقته المهولة ، ومن بين أسوده كانت لديه لبؤة تفعل الأعاجيب فى الحديقة ويتفرج عليها الناس بل يحجون اليها ، وقد جاورها عشرات الآثرياء بحدائق مثلها وأصبحت حيا كبير ينطق ساكنوه اسمه بكل تفخيم وتعظيم : حدائق اللبوءة . كل ما تعرفه « رشا » عن الحى غير هذا انه حى قد أحيط مؤخرا بالأسوار والحراس . كان بامكان « رشا » ان تدلف الى غرفة الصالون وتستفهم عن حقيقة الأمر لينبرى عبد القوى بك شارحا لها كل شىء باسهاب . لكنها أحبت أن تظل فلاحة ماكرة ، فلا داعى لاطلاعهم على هذا السر الذى يعد من أسرارها الخاصة .

– ٤٥ –

فوجئت بأنها فى نفس المنطقة التى سبق ان جاءتها ذات يوم من أجل الاستفهام عن مصير عنتر كباية . أهذه اذن هى الحدائق .

وهكذا زحفت سيارتها المرسيدس الفاخرة بكل ثقة ، وكلما تمهل فى طريقها خارس نظرت اليه نظرة تصرعه فى الحال قتيلا ، فيزيح من أمامها المتاريس حتى وجدت ثمة سيارات راكنة فركنت بجوارها ثم نزلت وصفقت الباب خلفها ثم شرعت تخطر كطائر النورس فوق صفحة البحر . كان فى استقبالها أكثر من واحد يلبس الزى الرسمى ويعلق على وجهة نظره استنكار صارمة ولكن مستعدة للمرونة . زحفت قصاصة الورق بأصابعها تجاههم فتلقفها من يبدو انه كبيرهم ونظر فيها ثم انحنى لها باسما وأشار لها أن تتبعه . مضت خلفه . كان يبدو من ملبسه ومن خطورته أنه صاحب رتبة كبيرة ، يؤكدها ان عشرات من الضباط كانوا يعظمونه طوال الطريق ..

خرجت من ممر طويل الى آخر أطول ثم الى ثالث أقل طولا ، ثم حودت فاذا بها أمام باب لم يكن يبدو انه باب الا حين فتحه من يتقدمها • دخلت وراءه ، فوجدت أمامها جدرانا منكسرة من القطيفة الخضراء حودت من خللها فاذا بها أمام حجرة مستطيلة مليئة بالأثاث الفاخر وفى نهايتها مكتب يجلس اليه عملاق كبير يرتدى اللباس العسكرى وعلى كتفيه نجوم وضبابير تفوق ما فى سماء قريتها ، وعلى ثدييه شارات حمراء وزرقاء وخضراء ولا حصر لها ، وفوق الرأس ذلك الكاب المخيف سقط قلبها فى قدميها لبرهة كما تعودت ، فطول عمرها لا يهزها فى الدنيا شىء من الأعماق كما يهزها اللباس العسكرى ويلقى الرعب فى قعر بطنها ، شعور توارثته ولا تدرى له تفسيرا •

على انها حين تقدمت بضع خطوات منه كادت تتناثر الى فتات تتطاير فى الهواء ورغم أن أجهزة التكييف كانت توحى اليها بوجود رياح عاصفة فى الخلاء فان جسدها كان مبتلا بالعرق الساخن كالبخار • نظرة واحدة نظرتها فى عينيه تأكدت بعدها انه هو •• نعم هو بعينه ذلك الرجل الذى أعطاها البطاقة ذات يوم لتكون السبب فى شهرتها الفائقة والسبب فى العز كله والهناء كله ، ها هو ذا ــ أخيرا ــ صاحب البطاقة يظهر فى حياتها من جديد وتراه وجها لوجه مرة ثانية • بكل ما تبقى فيها من قوة وقدرة على التماسك سلمت عليه ومنحته الكثير والكثير من الحنان والشعور بالامتنان فى ضغطة يد ، قال لها فى شعور حقيقى بالرضا : « تفضلى » • الآن تأكدت بما لا يدع مجالا للشك انه هو ، نفس العينين نفس الأنف المستطيل المتأفف نفس الشفتين المطبقتين على شعور عميق بالخطر نفس اليد بملمسها نفس الصوت برنته وايقاعه ، هى ليست تتخيل أو تتوقع • لكن •• لم يتغير فيه سوى اللباس ، فحين رأته فى المرة الأولى كان باللباس الملكى أفنديا عاديا • لم تسأل نفسها ما علاقته بالحاج عطاطس هل هى قرابة رحم أم قرابة دم أم قرابة طبع أم قرابة مصلحة ، كل ما يشغلها الآن شىء واحد راح دماغها يحدثها به فيما ينشغل عصمت بك فى توقيع بعض الأوراق : ها هو ذا الرجل الذى قدم اليك الجميل شرع يطلب أجره ،

حقه ، كان من الواجب أن تسارع هي برد الجميل ولكنها سارعت ولم تفلح وهذه هي عصمتها عند اللوم ، ها قد آن الأوان لأن يأخذ حقه منها ، ترى أى ثمن سيطلب هذا العملاق ؟ هل تراه سيطلب صراحة أم سيسكت ويتركها تفهم من تلقاء نفسها ؟ أليس من المحتمل أن يكون انشغاله عنها هذه اللحظات مقصودا به اعطاءها مهلة للتفكير فى الأمر والتصرف بلباقة ؟ ولكن لا ٠٠ عصمت بك ليس هكذا أبدا ، لقد كان كريما معها فى أول لقاء ولا تظن أن الكرم صفة يصطنعها الانسان وقتما يريد ٠

أخيرا أغلق أوراقه وأشار لمن كان حوله أن ينصرف ويغلق الباب تماما ٠ فخفق قلبها بشدة ٠ ثم ان عصمت بك أشعل غليونه فى حماس مكشرا بين حاجبيه يشد النفس فى انفعال ، ثم مال نحوها قائلا : « رشا هانم ٠٠ احنا لنا عندك خدمة بسيطة » ٠ خفق قلبها مرة ثانية واعتدلت فى جلستها وهزت رأسها موافقة : « وماله يا فندم ٠٠ احنا تحت الأمر والأذن ٠٠ ولو انى ما عدتش باسافر اليومين دول كتير ٠٠ تقريبا ما عدتش باسافر خالص ٠٠ لكن مادام حضرتكم تقصدونى فى خدمة أهلا وسهلا » ٠

ثم ارتعدت وصارت كالسمكة تنتفض فى زيت مغلى ، أدركت انها أخطأت بجهالة وغباء ٠ ذلك أن عصمت بك نظر فيها نظرة جاحظة ذاهلة متشككة ، ثم أشعل غليونه مرة أخرى وشد الانفاس المتلاحقة وقال : « مش فاهم ٠٠ ايه دخل السفر هنا ٠٠ سفر ايه وبتاع ايه ؟ » ٠ كانت ترتجف ، قالت وقد استردت ذكاءها ومكرها الريفى : « متأسفة ٠٠ افتكرتها خدمة يعنى حفلة » ، ثم أحست ان اعتذارها غير مقنع على الاطلاق فابتسمت فى ارتباك وقالت : « على كل حال ٠٠ اللى تؤمر بيه يمشى » ٠ قال عصمت بك فى جد كأنه قرر تأجيل الشــــك فى ارتباكها هكذا : « الاستاذ عبد القوى بيسهر عندك ٠٠ طبعا » ٠ قالت بسرعة : « طبعا ٠٠ مش هو لوحده ٠٠ دى مجموعة أصدقاء ٠٠ الاستاذ عبد القوى والاستاذ سامى وفلان وعلان » ٠ قاطعها بكفه قائلا : « مضبوط ٠٠ عايزين نعرف أيه اللى بيقولوه ٠٠ اللى بيعملوه احنا طبعا عارفينه ٠ مش مشكلة ٠٠

بس أيه اللى بيقولوه عن مشكلة الشرق الأزرق والسيد الرئيس والنظام وأوضاع المجتمع ، دى بصراحة معلومات تهمنا وعايزين نعرفها » •

اعتدلت رشا وتمطت بعض الشيء كأنها استراحت ، قالت : « هى دى المهمة اللى سعادتك عايزنى عشانها ؟ » • نقر بأصبعه سطح المكتب : « عليكى نور » قالت في براءة : « بس أنا مش ممكن أقدر أفتكر أى كلمة •• من حيث الكلام أهم بيتكلموا •• زى كل الناس ما بتتكلم •• بس كلامهم بيبقى أعمق شوية •• زى ما تقول أنهم عارفين حاجات كتير الناس ما تعرفهاش » • صاح عصمت بك وكاد يقف : « زى أيه •• أهو ده اللى أحنا عايزين نعرفه •• أيه بالضبط الحاجات اللى بيعرفوها ؟ •• قولى يا رشا ماتخافيش » • قالت رشا فى براءة : « لا مش قصدى • قصدى انهم •• اسمها أيه الكلمة اللى بتقولوها على الناس اللى عارفين ومتعلمين •• منقفين •• أيوه •• مثقفين » • ضحك عصمت بك حتى دمعت عيناه • قال « على كل حال •• الخدمة اللى تقدميها لنا بسيطة •• الرجالة بتوعنا حيزوروا الفيلا بتاعتك لمدة نص ساعة بس •• مش حيفتشوا على أى حاجة •• بس حيركبوا حاجة بسيطة كده فى الصالون • وبعد كام يوم حيروحوا يفكوها ويجيبوها لى هنا •• موافقة ؟ قالت وقد غرقت فى حيرة عميقة : « موافقة » •

ثم امتد بينهما الصمت لبرهة طويلة رد خلالها على التليفون مرة أو مرتين بسرعة • فلم تجد مفرا من الوقوف • واذ وقف هو الآخر ليسلم عليها ركزت فيه عينيها فلم يبد عليه مطلقا انه يعرفها من قبل أو رآها فى حياته • قالت له فى صوت مرتعش : « أظن سعادتك ماشفتنيش قبل كده ؟ » • قال بوجه مشدود وصوت حاد : « الحقيقة ماتشرفتش » قالت له : « من كام سنة كدة •• مدة كبيرة الحقيقة •• كان •• كانت •• كنت » •• « أيه مالك •• مانمتيش امبارح كويس ؟ •• ما أعرفتش ليه الناس بتخاف وترتبك أول ما تيجى عندنا •• يفقدوا القدرة على التركيز •• احنا بنخوف الناس ولا يه ؟ » • أطلقت لضحكتها العنان بعض الشيء

وقالت : « ما هي بصراحة حاجة تلخبط ٠٠ أصل سعادتك ٠٠ في يوم من الأيام » ٠ أرسل اليها نظرة شبك قاتلة هذه المرة ، شفعها بقوله : « تاني ٠٠ على كل حال أنا واثق اني ماتشرفتش برؤية سعادتك قبل كدة » ٠ فسلمت عليه بحرارة قائلة : « على العموم فيه واحد يشبه سعادتك قدم لي خدمة كبيرة قوي قوي قوي ٠٠ فحتي لو ماكنتش هو ٠ قصدي لو ماكانش هو حضرتك ٠٠ برضه حاشكرك لانك شبهه » ٠ فضحك عصمت بك عاليا وهز يدها كأنه يدفعها الى الخارج ٠ فاستدارت ضاحكة وحيته بانحناءة قصيرة ثم انصرفت قائلة في نفسها : « وحق جلال الله هو بعينه مهما ينكر » ٠

— ٤٦ —

حفلة مشئومة ٠ باتت تكرهها كره العمى وترتعد كلما تذكرتها ٠ كانت أول مرة ترى فيها مدينة الخنافس وهي مدينة على الحدود الشرقية لوادى بني الأزرق ٠ ليتها ما رأتها ولا غنت فيها ٠ كان الحفل حافلا ، لكنه أبدا لم يكن لائقا ، ليلتها أسكروها رغما عنها فخرجت عن حدود اللياقة لتصير مثلهم جميعا ، وغنت حوالى ثلاثة أرباع الساعة وهي تتقصع وتتلوى وتتوجع والجميع يتوجع معها ، كلهم رجال خشنون وغليظوا الطبع ويفترضون ان كل من عداهم هو العدو اللدود ٠ دامت الحفل ليلتها حتى الصباح وبعدها بساعات قليلة اعترفوا جميعا في الصحف والراديو والتليفزيون ان العدو قد دمر طائراتنا ودمر قدرتنا على التحليق والطيران ٠

كان عبد القوى بك يقول في مرارة باكية : « الوطن ٠٠ الوطن ٠٠ فرطنا فيه » وكانت ترد قائلة في نفسها : « ما الوطن ٠٠ ها هي الناس تعيش كما هو ولم يأخذ أحد بيوتهم ولا أملاكهم ولا تعرض لهم في أرزاقهم » ، وكان يقول : « الاستعمار ٠٠ الاحتلال » ، وكانت ترد قائلة

في نفسها : « طول عمرها وهي تسمع ان البلاد يحكمها الاستعمار الأجنبي ·· وفي منتصف حياتها قامت ثورة ، ومنذ قامت وحتى الآن وهي لم تعرف على وجه التحديد ما هو الفرق بين حكومة الاحتلال الأجنبي وبين حكومة الثورة ؟ ·· ان الجرائد والراديو يقولون أن الثورة خلصت البلاد من الاحتلال الأجنبي ·· ومعنى ذلك انها لم تخلصها بعد من الاحتلال المحلي » · ثم شوحت بيدها في فروغ بال نحو عبد القوى بك فانزعج عبد القوى بك ورمى ورق اللعب من يديه وأشعل سيجارة نفث دخانها في شعور بالهم ، ووجه حديثه للجالسين قائلا : « الآن الآن فقط ، اقتنعت ان الوطن الحقيقي ليس هو الأرض أو العرض أو المكان أو ما الى ذلك ·· الوطن الحقيقي هو الثقافة في الوطن ، هو معنى يتعلمه الانسان ويتثقف به ، فبدون الاحساس بهذا المعنى يصبح الوطن مجرد أرض ينتزعها الأقوى فلا بأس وعرضها ينتهكه المتسلط فلا حول ·· نعم يا أخوتي ·· ما أضيع الوطن بين يدى الدهماء ، وما أشقى أهله الواعين تحت أقدام المتسلطين – ثم وجه الحديث نحوها – الويل لكم يا أبناء بنى الأزرق الملاعين مادام الوطن فكرة غائمة لا معنى لها في أذهانكم ·· الذنب ليس ذنبكم على أى حال بل ذنب آخرين لعلهم المثقفون لعلهم القادة لعله الاستعمار لعله الزمن لعله كل ذلك مجتمعا ·· المهم انه شيء ليس يدعو للأسف فحسب بل يدعو – والمؤاخذة يا ست رشا – الى الارتخاء » · ثم انه بصق في الهواء بقرف ونهض واقفا يلم سترته المترهلة ويعدل رباط عنقه الأنيق ، ثم انصرف صائحا كعادته في مرح الصبيان وخفة المهرجين : « الى اللقاء غدا » · لكنه لم يطأ عتبة رشا الخضرى من ليلتها ، بسبب بسيط وهو انه لم يعد يظهر على وجه الأرض بعدها ·

– ٤٧ –

ركبها الهم والغم شهورا طويلة كانت فيها كالغريقة لا شطآن ولا برور · لايمر يوم دون استدعائها الى مكان ما في حدائق اللبوءة ، ويوم لايستدعيها

أحد يزورها آحاد بحجج مختلفة · وكانت الحفلات قد توقفت تماما وعم البلدة كرب عظيم ، حتى الأفراح التى دعيت لاحيائها من بعض علية القوم كانوا يقيمونها فى مسارح مغلقة ويقتصرون فى البهرجة مراعاة لخاطر الموتى فيما أسموه بالنكسة وما أكثرهم ، نعم كانوا من الكثرة بحيث انها دهشت لأن يموت أو يتوه أو يتشرد كل هذا القدر من شباب بنى الأزرق فى ساعات قليلة من عمر الزمان · شغل التهريب أيضا أصبح محاطا بالكدر مع أن أحجامه تزايدت وفرصه اتسعت اتساعا مذهلا · سفرة فى السر أو سفرتين الى أوروبا فى حفلات وهمية لمدة اسبوع على الأكثر تعود منها محملة بالحقائب الحافلة بالثياب أو ألماظ أو الدولارات أو علبا وصناديق مبهمة تتصاعد منها عطور فاخرة ويتسلمها فى المطار ناس معينون ·

الكدر لايزال يغلف البلاد والجو لاينبىء عن استقرار · حتى لقد ضاقت بالحصار وفقدت أعصابها فباتت لاتهيأ بالنوم أو الهدوء ، تبكى لاتفه الأسباب وتتنهد مصعدة عينيها الى السماء فى ضراعة · أسود يوم جاءها آنذاك يوم استدعاء زوج ابنة أم جابر الى الاحتياط ، وهو وعشرات الآلاف من الشبان الذين كانوا قد أنهوا مدة خدمتهم فى الجيش وخرجوا لتوهم ، وظلت أم جابر تملأ يومها وليلها بالعديد والبكاء الحارق ، وكان الليل على جبل الحواوشى يريها مدينة العاصمة راكعة على قدميها كالبهيمة الغطسى ، ورغم كل هذه المحنة التى أحست بنفسها فيها لم يعاودها اللوم على نفسها بسبب عدم ارتباطها بزوج يؤنس وحشة حياتها بولد أو اثنين ، بل ـ رغم شعورها الفائق بالوحدة والخوف والضياع ـ أيقنت من أنها كانت فيهم من يستطيع الحصول على ثقتها ، ليس فيهم من تستأمنه على ظهرها محقة حين لم ترتبط بأى رجل فى هذه المدينة المنكفأة على وجهها ، فليس لحظة قصيرة ولو فى الفراش ··

رن جرس الباب بعد شهور طويلة من الصدأ ، واذا بالقادم رجل عملاق يلبس الحلة العسكرية ذات النياشين والضبابير والنجوم الصفراء اللامعة ، والكاب الأحمر · اعتقلت صرختها ونظرت فى الخلاء فلم تجد أحدا

سوى سيارة تعرفت عليها بسرعة ، ثم أغلقت الباب وهى تقول لنفسها : « خير يارب » • وكان الرجل العسكرى قد جلس فى الانتريه وخلع الكاب وما ان رأها مقبلة حتى زأر فيها : « مساء الخير يا هانم » • فتسمرت فى وقفتها ترتعش : « مين ؟ » • قال : « اقعدى أحسن معنديش وقت » • صاحت وهى تجلس مرتعدة : « معقول ؟ المعلم عطاطس ؟ » • ابتسم : « براوه عليكى » • نظرت فى لباسه بكل ذهول ودهشة • شوح بيده فى وجهها : « ماتاخديش فى بالك ثم مال عليها وهمس فى أذنها ان لديها غدا حفل فى صعيد الوادى فى مدينة الأزرق سيشرفها بالحضور سيادة المحافظ ومدير الأمن ورؤساء المدن والقرى والهيئات الكبيرة ، والحفل سيكون كبيرا جدا وسوف لن تحصلى على أجر لأنه لصالح المجهود الحربى • قالت له : هل لك صلة بالجيش ؟ قال : لا • قالت : فلماذا ترتدى هذه البذلة اذن ؟ • قال ضاحكا انها ليست بذلة جيش انما هى بذلة بوليس • قالت : فما لك وللبوليس ؟ • قال ضاحكا انه كان رتبة كبيرة فى الداخلية قبل ان يسوى معاشه ويستريح ويستقل وانه كثيرا ما يحن الى هذه البذلة التى ظل يحتفظ بها فيرتديها كل حين لدقائق معدودة يستعيد بها ماضيه المجيـــد ••

رشا لم تعد تهتز من هذه المفاجآت المذهلة ، فهى تعرف مقدما أنها تعيش فى مدينة يسمونها أم العجب نسبة الى ما فيها من أعاجيب لاتنتهى • لهذا فقد انتقلت الى الحديث عن الحفل مباشرة كأن مفاجأة كهذه لم تحدث • أعطاها مزيدا من التفاصيل عن الحفل • ثم أضاف باسما كعادته انه نظرا لكونها ستغنى فى الحفل مجانا فقد رأى أن يعوضها من ناحية مقابلة • قالت : كيف ؟ • قال أنها عند انتهاء وصلتها تقابل جماعة من العرب بعضهم غزاوى وآخر بيروتى وثالث عمانى ورابع ألمانى ، سيصعدون اليها فى كواليس المسرح ويوقعون معها عقودا وهمية على حفلات تقيمها فى عدد من البلدان ثم تقبض منهم المبالغ المتفق عليها معهم ، وعليها ان تورد هذه المبالغ اليه بعد عودتها من الحفل ليعطيها نصيبها من العمولة ، قالت :

ألست سأغنى ؟ قال : « لا ٠٠ هى ثمن أشياء بعتها لهم » ٠ ثم أضاف : « ومن يدرى ؟ ربما أقاموا لك حفلات تغنين فيها بالفعل وحينئذ تحصلين على أجرك ٠٠ والآن ــ ثم نهض واقفا ــ استأذنك فى أن أترك عندك أمانة لمدة يوم واحد حيث يمر أحد رجالى لاستلامها ٠٠ لا شأن لك بها ٠٠ سنضعها فى حجرة عليوه » ٠

خفق قلبها ٠ سألت متوجسة : « أمانة ؟ » ٠ صاح : « لا تخافى ٠٠ هى ليست مخدرات ٠٠ انها ٠٠ انها بضائع ٠٠ سلع ٠٠ تعالى وأمرى عليوه بفتح حجرته » ٠ ثم جذبها من يدها الى الخلاء فى الحديقة فصاحت : عليوه ٠ فجاء عليوه يجرى فقالت له : افتح الحجرة التى نخزن فيهـــا الكراكيب القديمة ٠ فأنطلق يجرى خلف الفيلا حيث فتح الحجرة فى البدروم أضاءها فظهرت الكراكيب والكراسى القديمة وظهر الغبار وظهرت الرطوبة ٠ ودخل « عطاطس » وخلفه رجل يحمل على ظهره صندوقا من الخشب الابلكاش الكبير مبرشم من جميع النواحى ٠ ساعده عليوه فى وضعه وراح يعوله فى ركنة مناسبة فما أن فرغ حتى دخل الشيال بصندوق ثان ، ثم ثالث ثم رابع ، وكانت « رشا » تتابع ذلك فى ذهول ، فما ان شرعت تسأل كيف تم نقل هذه الصناديق سمعت مارش سيارة نصف نقل ثم رأت ظلالها تمرق الى بعيد ٠ حينئذ جاورت عطاطس وهمست فى اذنه متوجســة : « ايه البضائع دى بالضبط ؟ » ٠ قال المعلم عطاطس بكل بساطة انها مجموعة من الأسلحة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة آلاف قطعة ما بين مسدس وبندقية ورشاش تسوقها سيادته من صعيد الوادى بشق النفس وغالى الاثمان ٠ قالت له : أهذه هى الصفقة التى سأقبض ثمنها فى الحفل أذن ؟ ٠ قال نعم ٠ ثم سلم عليها وانصرف مسرعا ٠

تركها واقفة على سلم الشرفة شاردة خائفة خوفا يشوبه بعض لذة ٠ وكانت ناقمة فى سرها على ناس مجهولين لا تعرف من هم بالضبط ٠ وكان عليوه قد عاد ودخل حجرته المواجهة للشرفة تماما وأضاءها ففوجئت «رشا» انها أمام متحف شعبى طريف جدا وبهيج ، صور لزميلاتها وزملائها من

الفنانين منزوعة من المجلات الملونة وملتصقة بالحوائط كلها فى تنسيق بديع ، ورف للراديو وآخر لأدوات الحلاقة وبعض البراويز المذهبة لصور أفراد أسرته .

- ٤٨ -

وكانت ساعة الحائط الذهبية تعزف لعقاربها التى راحت ببطء وصعوبة تتسلق جدران الليل الموحش الكئيب ، وفرقة ثلاثى أضواء المسرح تتراقص على دق الطبل قائلة : « دكتور الحقنى المغص جوه فى بطنى .. أغلقت التليفزيون فى عصبية وتمددت ، فرن جرس التليفون فرفعت السماعة فى سأم : آلو . فجاءها صوت رقيق مؤدب » هاللو رشا هانم .. تسمحى لى بزيارة حضرتك خمس دقايق ؟ .. أنا « أحمد سليم » مدير مكتب مصطفى بك عصمت .. أحنا لاتنين رتبة واحدة بس هو صاحب المكتب وأنا مديره هاها ها .. حاكون شاكر قوى لو حضرتك سمحتى بالمقابلة .. الليلـــة ضرورى » . وافقت على الزيارة وانتظرته بقلق شديد ..

نفس الطابع كأنهم جميعا يصبون فى قالب واحد ، كل ما هنالك من اختلاف بينه وبين الآخرين ان اسمه « أحمد سليم » أهلا وسهلا . شرب الكوكاكولا ثم تلكأ حتى شرب قهوة ثم تلكأ حتى شرب كأسا من الويسكى ، والكأس يجر أخيه ، وأخوه يجلب المزة ، والمزة تستدر العشاء . وهكذا سهر « أحمد سليم » سهرة خاطفة انتعش فيها وتعرف على نوع الويسكى وكم ثمنه فى داخل المطار وخارجه وكيف يغشونه وكيف وكيف وكيف . كل ذلك ولم يعترف بهدفه من الزيارة المفاجئة ، فلما استحثته على ذلك أخبرها بشىء كثير وغريب من التشفى ان أمورا خطيرة قد وقعت فى الساعات القليلة الماضية . ثم رفع بصره واستقر به على صورة عبد الناصر داخل البرواز الذهبى الأنيق فارتسم على وجهه شعور كبير بالتقدير يشوبه

شعور كبير بالخوف الغامض · أحست رشا بذلك فابتسمت قائلة : « ما الأمر بالضبط ؟ » · قال لها ان مصطفى بك عصمت وقع فى الرئاسة واختلت الموازين فجأة بين كافة الأصدقاء والأولياء فتفرقت السبل وحدث ما لم يكن يتوقعه أحد ، اذ يجلس مصطفى بك عصمت الآن فى منزله لا حول ولا طول بعد أن نزعت منه المسئولية · تنهدت رشا واستعاذت بالله من شر النفوس، وسألت أحمد سليم لماذا يقول لها هذا ؟ · قال : « ظننت انك تمتين اليه بصلة قربى فأردت أن أنبهك لتخذى جانب الحيطة والحذر ، فانهم لا يعرفون الله فى هذه المسألة · قالت له انها لم تكن تمت اليه بصلة · قال بخبث : ولا تورطت معه فى شيء ؟ ·

وجدت نفسها مضطرة الى أن تحكى له كل شيء عن المهمة التى ساعدت بها مصطفى عصمت · حيئذ هز رأسه فى أسف مصطنع قال انه من طينة مختلفة عن طينة هؤلاء الذين سيطروا على كل شيء بدون وجه حق ، وانه لهذا ــ جار عليه الزمن فمصيره مدير مكتب لأحد زملائه السابقين الذين كانوا فى الواقع أقل منه نبوغا ، وانه ــ لهذا أيضا ــ يشفق على الناس من ظلمهم البين الصارخ ، ولولا وجود أمثاله فى مركز كمركزه لما نجا أحد على الاطلاق من الأبرياء وأنه ــ لهذا كذلك ــ أشفق عليها وعلى سمعتها وعلى مستقبلها مما يخبىء لها المستقبل ، ولما كان من المعجبين بصوتها فقد جاء يعرض خدماته ، ثم اختتم حديثه النشوان المتناثر مؤكدا لها انها لا يجب أن تخشى شيئا أو تقلق من شيء طالما هو يعيش على ظهر الأرض · ثم سألها : : ألم يحدث لك استدعاءات كذا وكذا ؟ قالت نعم ، قال سوف لن تتكرر أبدا ، ولك مطلق الحرية فى أن تعيشين حياتك طولا وعرضـــا ·

كانت تظن انها طرطشة النشوة بفعل الويســكى الجيد ، فاذا به يصدق فى وعوده ، واذا بها تعيش أسابيع فى راحة بال تخلو تماما من القلق · لهذا ألقت اليه بحبل الود متصلا ، فكان يزورها بين ليلة وأخرى

ويقدم لها الخدمات والتسهيلات فى كل مكان ، وكان مجرد ظهوره معها فى بعض الأماكن يفتح أمامها أبواب الرزق بلا حساب ٠

وجدت نفسها تعيش معه أطول فترة ممكنة ، ووجدت انه وقد عرف الكثير من دخائلها وأسرارها ٠ وشبت العواطف بينهما شيئا فشيئا حتى اذا ما اشتعلت تماما قرر الاثنان استدعاء المأذون بدون وعى ٠ ولم تكن رشا لتدرى انها قد وقعت ابتعادها عن ساحة الفن تماما والى الأبد ٠

ـ ٤٩ ـ

لا تدرى ان كانت الزوابع تقتحمها لتريها كيف تعصف بالآخرين أم ان زوجها اللواء « أحمد سليم » هو الذى دأب على نقل ما يحدث اليها أولا بأول ، فعلنا كذا ، فرضنا الحراسة على فلان وذهبنا ووضعنا يدنا بالفعل على أمواله وثروته ، قبضنا على فلانة ورحلنا فلانة الى دولتها الشقيقة ، التحقيق يدور مع الكاتب فلان والممثل فلان المومس فلانة لأنهم كشفوا عن تنظيم سرى يمثلونه ٠ كل ما تدريه رشا أن الواقع كان قد اختلط بالأساطير، هى لم تكن تعرف هذه الكلمة لكنها كانت تعرف ان الحواديث التى استمعت اليها كلها لم تكن تخريفا من خلق خيال البشر ولم تكن خيالا أبدا ، فها هى ذى نفسها قد طوردت من قريتها بلا ذنب وألقى بها فى قلب المولد فاذا بها تصبح من أثرياء البلاد المعدودين ومع ألمع نجومها المعدودين وتجالس وتؤاخى وتتزوج حكامها وثوارها الأشاوس ، هى ليست بدعا فى ذلك ، هى ليست البطلة الوحيدة فى حواديث هذا الواقع ، فثمة ممثلة سينمائية صاعدة تزوجها أحد كبار قادة الثورة ، وثمة مطربة كبيرة لها علاقات بغيره يعرفها الناس من أقصى البلاد الى أقصاها وثمة ممثلة مسرحية ضربت الرقم القياسى فى الصعود الى القمة ، هذا ما يردده الناس فى الشوارع ولابد ان ما خفى يكون أعظم بكل تأكيد ٠

فرغ سوق المطربين والمغنيين تماما وخلا للمهرجين والمتزحلقين على الجليد في سخف · مطربة شامية رحلت وبيعت شقتها ، مطرب شامى يهرب المخدرات ويتمكن من الهرب · رشا اكتفت بثروتها وحمدت الله على ما زرق ، والغناء ·· على خفيف كما طلب زوجها « أحمد سليم » قالت : « يعنى حفلة ولا حفلتين في الشهر » · قال : ؟ نعم لا بأس » · فلما جاءت الحفلات السرية كانت رشا تقتاد الى الحفل مخفورة بالحرس وتعود منه مخفورة بالحرس ، أحبت هذه المسألة في بادى الأمر ولكنها سرعان ما تأففت وتململت وأعلنت ضجرها ، خاصة ان الجمهور ـ كما بدا لها في ذلك الوقت ـ كان قد مل هذا النوع من الغناء وباتت هى فى حاجة الى مسايرة ذوقه بأغان جديدة وألحان جديدة كما يفعل البعض من المتربعين · ولكن زوجها · أحمد سليم كان يريدها كما هى امرأة فحسب امرأة سرير على وجه التحديد لا أزيد ولا أقل ، ان هاتين العينين السميرتين ـ فيما شرع يقول لها ـ لا يجب أن يكون لهما مسامرا آخر سواه ، وهذا الجسد حرام أن تتطاول عليه النظرات · وكان مصليا محترفا تقريبا ، كأن حرفته الأصلية هى الصلاة والعمل شىء ثانوى ، وفى البداية كانت تحب فيه ذلك وتقدره حق قدره لكنها فوجئت بأنها كلما تعمقت المناقشة بينهما حول أمر من الأمور الجوهرية أو حول أزمة من الأزمات أجهز هو على كل شىء وشرع يقيم الصلاة ، وهكذا كم ضاعت أمور وحقائق ومصارحات وأشياء لاتجيد التعبير عنها ··

مع ذلك كان حيوانا جنسيا لا يشق له غبار · كان شيئا مروعا لم تسمع بمثله من قبل أبدا ، كانما دوره الوحيد فى الوجود هو المضاجعة ليل نهار دون توقف الا للحظات ضرورية ، حتى أجهدها تماما فى أشهر قليلة فأصابها أعياء وصداع متواصلين ذهبت بسببهما الى أكثر من طبيب مشهور أجمعوا على ان الاجهاد ليس من هذه الناحية بل من ضغوط نفسية قوية ، عرفتها هى فيما بعد ، حين كان يظل طول الليل يكشف لها عن أسرار يقشعر منها البدن ، ليس فى الدنيا شىء لا علم له به والعياذ

بالله ، وكان جسمها يغوص في نفسه وتفيض الدماء في وجهها كلما أمعن في الحكي عن أسرار البلاد والناس وما يفعلونه في الخفاء حيث كانت قد باتت تتوقع أن يخوض في ماضيها هي الذي من المؤكد انه يعرفه ٠

كان بالغ القسوة ، يقطف الوردة وقبل أن يعلقها في عروته يفعصها بكفه فيحولها الى هشيم ، ذابل ٠ هكذا كانت تتصور نفسها في أعماق الليالي ، حيث تكون قد فقدت كل رغبة في الجنس بل وكرهت وجودها وصارت مجرد خرقة كالشاة لا يفيد سلخها بعد ذبحها ، حتى الآن لم تجد تفسيرا لهذه العادة الحيوانية ، أن يقبل عليها ليتناولها بعد أن تكون قد أضبحت جثة هامدة ، كيف كان يجد شيئا من المتعة ؟ ٠٠

لاتنسى ليلة القميص الأسود ، ذلك الذى غواه فاشتراه لها من حر ماله وألبسها اياه ، ولما نظرت نفسها في المرآة وجدت نفسها غزالا أسود البطن والكتفين أما الوجه والذراعين فعاج مبهر ٠ وكانت قد أرغمته ـ لكى تلبسه بنفس ـ على الموافقة بأن تشرب كأسا من الويسكى ٠ وكانت واضعة ساقا على ساق أمام مرآة التسريحة في يدها الكأس الخامس عشر وعلى السرير يتمدد زوجها بساقيه الرفيعتين كأرجل الماعز وكرشه وثدييه البارزين ، وكان يضغط ساقيه في بعضها بعصبية في انتظار أن تفرغ هي من شرودها أما هي فكانت في دوامة شديدة العنف صنعتها كلمة قالها عفوا : « رأيت اليوم اسمك في كشوف الحراسات ٠٠ وبحثت فوجدت عشرات من التقارير في غير صالحك » ٠ ظننته يمزح فضحكت ، لكنه بكل وجه جاد وصارم كرر الخبر ، فبرقت في خيالها فكرة شريرة توعز اليها بأنه يسعى لغرض ، لكنه انفرط نائما فوق السرير كالواقع في خطر حقيقى ٠ سألته بجد وخوف : « وما العمل ؟ » ٠ فسألها بجد وخوف هو الآخر : « ما العمل بالنسبة لى أنا ٠٠ كل خوفى الآن اننى قد صرت في مواجهة الريح ٠٠ يبدو ان الأمر ليس حراسة فقط بل يبدو أن ثمة تحقيقات واتهامات و ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وربما اعتقالات » ٠ ثم انه ـ وبكل بساطة ـ جلس

فأكل كالعادة حتى تكورت بطنه وتجشأ كطائرة نفاثة · الأدهى من كل ذلك انه ينتظر أن تقوم اليه وتواقعه ·

بعدها لم يهدأ خاطرها ولا استقر · لقد فوجئت به في خوف حقيقي حتى لقد هزل جسمه وبرزت عضلات وجهه واختفى كرشه وانصدت نفسه عن كل شيء فجأة · أشفقت عليه وأحست انها تتحمل مسئوليته حيث انه كان دائم الترديد عفوا : « لست أعرف ما الذى أخذوه عليك في تقاريرهم ·· انهم جميعا وهم زملاء يرفضون اطلاعي على أي شيء ·· الغدر في عيونهم ومن الواضح أن وراءك قصصا وقصصا » فكانت تعجز عن الرد ، فيستدرك قائلا : « هناك من يهمس في أذني بأنك كنت على صلات واسعة جدا وعلاقات عميقة ، وان اشارة منك توظف شخصا أو تفصله وانك كنت تقومين بتعيين هذه السلطات وتقبضين أجرها غاليا والا ما تكونت هذه الثروة من الغناء وحده ، وانك متهمة باساءة استخدام العلاقات والمتاجرة بأسماء مسئولين كبار ·· الخ » · يقول ذلك وهو يكاد يبكي والدموع في عينيه · من فرط الشعور بالاشفاق والمأساة قالت له : « اسمع يا أحمد ·· اذا كنت خايف من ارتباطي بيك طلقني ·· ولى رب اسمه الكريم ·· الحمد لله اننا لا عيل ولا تيل ·· من حسن حظك ما باخلفش » · عند ذلك انتفض واقفا كأنها قد طعنته في شرفه ، صاح بكل شهامة : « أطلقك ؟ ·· ازاى ·· والله لو حطولى الدنيا في كفة وانتى في كفة ، ما أطلقك أبدا ·· ده حب مش لعب عيال ·· وأنا مستعد لأى تضحية في سبيلك ·· انتى فاكرانى من اياهم ولا ايه ·· لا يا هانم دانا راجل قوى··دانا فلاح صعيدى أفدى صديقى بروحى ·· فما بالك بالحبيب ؟ » فوقعت في متاهة · وسألت وما العمل ؟ · قال ان قرار الحراسة قد صدر بالفعل وانه بحكم مركزه بين زملائه استطاع ــ فقط ــ أن يحملهم على تأجيل التنفيذ لساعات قليلة لعل وعسى ·

سقطت مغشيا عليها · انقطعت الصلة بينها وبين الحياة لمدة توشك أن تكون دهرا ، لكنها حين أفاقت من تلك الغيبوبة وجدت نفسها ممددة

فوق السرير ووجدت فوق بلاطها أثار لهاث جنس حقير فاشمأزت ولكن الكارثة عادت فدهمتها من جديد · فتأوهت بحرارة ، فزحف هو من المطبخ قادما يحمل كوبا من الشاى الأسود يغب منه بشراهة ، وضعه على الكوميدينو وانحط جالسا يقول : « سلامتك يا حبيبتى » · نظرت له مهمومة تردد : « وبعدين يا أحمد ؟ » · قال بعد تفكير قليل : « ماالكيش قرايب يعزو عليكى ؟ » · قالت : (لم ؟) · قال « الحل الوحيد اللى حاقدر أقدمه انك تكتبى كل ممتلكاتك باسم واحد قريبك ، بتاريخ قديم ، تيجى الحراسة تحرس ماتلاقيش » · تنهدت قائلة : « ماليش حد فى الدنيا غير ربنا وانت » · قال : « ونعم بالله » ·· تكتبى باسمى ؟ « أنا موافق » · نظرت فيه قائلة : « تفتكر ؟ » · قال : « اذا كنتى بتثقى فى » · قالت : « ربنا يعلم » · قال : « اسألينى أنا عن الحراسة وشئون الحراسة واللى بيحصل من تحت رأس الحراسة ·· مافيش حاجة تتحط تحت الحراسة وتنفع بعد كده ، لازم يخيب أملها ·· و ·· » · فقاطعته قائلة بكل صدق وبراءة « على كل حال اللى عندك أحسن من اللى عندهم ·· أنا حاكتب لك كل شىء عندى وحاعتبر انى عينتك حارس عليها ·· عزنها حراسة عائلية مننا فينا ·· زيتنا فى دقيقنا » · تجاهل معنى هذه السخرية العميقة وقال : « خلاص ·· مفيش وقت ·· اكتبى لى عقد بيع وشراء بتاريخ قديم ·· أهو مجرد ورقة تبقى فى أيدينا يمكن نقدر ننفذ بيها الثروة ·· وخلى بالك ان الحراسة مادام اتوضعت يبقى الأمل فى رفع الحراسة ضعيف ·· مش جايز تتأمم ؟ ·· يلا يلا نروح للمحامى يكتب لنا العقد » ·

وكانت لاتزال تتلكأ فى النزول معه الى المحامى ، حتى اضطر الى فقد أعصابه فأخرج لها القرار من جيبه ودفع به فى وجهها قائلا : « جايز تكونى مش مصدقة ·· أدى صورة القرار » · فقرأتها بلهفة وكادت تقع مغشيا عليها للمرة الثانية ولكنه أسندها وراح يقرأ القرآن فى سرعة ولهوجة ·

مر بها على ادارة الحراسات وطلب مقابلة ناس فلما قابلوه راحو يبدون أسفهم على صدور القرار ويوصون الهانم بالصبر · فقال لهم فى

نبرة انتصار عالية ان الهانم اتضح انها لاتملك شيئا اذ كانت قد باعت ما تملك منذ وقت طويل • ثم انه أخذها وانطلق الى المحامي ، الذى أعد لهما عقدا محكما لا يخر الماء من بين بنوده • فلما وقعت على العقد وانتهى كل شيء استدرك المحامى فتقدم لهما بنصيحة ضرورية حتى تنجو هذه الثروة حقا من براثن الحراسة ، قالا معا : « ما هى ؟ » • قال المحامى : « الطلاق » • صرخ كلاهما : « الطلاق ؟ » • رد المحامى في هدوء فولاذى : « وما المزعج فى هذا ؟ •• انه طلاق صورى •• فسخ أوراق لا أزيد ولا أقل •• وبما ان أحمد بك رجل مؤمن يخاف على سمعته عند الله فليصبر على الطلاق الجنسى بعض الوقت • أى انه طلاق مؤقت حتى تنجلى الأمور فتعود المياه الى مجاريها » • غرقت هى في ذهولها أما هو فصار يقف ويقعد ويصيح : « كيف •• لا •• لا أطيق البعد عن رشا ولو لساعة واحدة •• طلاق ؟ •• لا ياعم •• هات عقد البيع • فلتأخذ الحراسة كل شيء وتبقى زوجتى أرى حضنها كل ليلة •• لا لا أنا لا أوافق على هذا المقترح القاسى » • وهكذا راح المحامى يتحايل عليه ويرجوه أن يتعقل وأن يضحى وأن يتحمل فى سبيل نجاح المشروع فانهم ليسوا يلعبون انما هم يقومون بتهريب ثروة لبعض الوقت من وراء ظهر الحكومة • وأخذ المحامى يستميل رشا فى صفه ويقنعها ويحسدها على حب زوجها لها الى أن انضمت اليه فأخذت ترجو زوجها أن يوافق على فكرة الطلاق وهو مؤقت • فى النهاية وافق على مضض • وجىء بالمأذون فطلقها طلقة بائنة وخرج محمـــلا بالنقـــود والهـــدايا ••

ليلتها عادت الى البيت فوجدت نفسها ــ برغمها ــ ترتدى القميص الأسود ثم فوجئت بطرق على الأبواب ، فنهض زوجها أحمد سليم وخرج الى الشرفة فتسللت خلفه من وراء ستار فرأت مجموعة من الضـــباط والعساكر يقفون الى بعيد وأحدهم يقف فى مواجهة زوجها الذى راح يقول فى لهجة رسمية حاسمة : « يا حضرة الضابط أنا قلت لسعادتك رشا الخضرى مش هنا •• طلقتها •• وأدى وثيقة الطلاق » • ثم اختفى قليلا

وعاد حاملا وثيقة الطلاق فقرأها الضابط ثم قال : « بس الفيلا دى أصلا بتاعتها ·· ملكها » · فصاح زوجها باسما فى سخرية : « لا ده كان زمان ·· الفيلا دلوقت ملكى أنا ·· تحب سيادتك تشوف وثيقة البيع مفيش مانع بس يعنى حضرتك لازم تقدر الظروف عشان ما ندخلش بيوت ناس ونقعد نفتش ونبهدل فى أهلها بذنب ناس تانيين ·· رشا الخضرى مطلقا ·· واذا كنتوا عايزينها فى حاجة أنا أجيبها لكم ·· حاتصل بيها وأخليها تيجى تقابلكم ·· فى حدود يوم ولا يومين بالكثير » · فرضى الضابط بهذا الكلام وحياه شاكرا ثم انصرف ·

فلما انفردت بزوجها قال لها ان هؤلاء ليسوا تبع الحراسة انما هم زوار الليل ومعنى قدومهم للسؤال عنها مطلوبة للتحقيق فى أمور جد خطيرة قد تستغرق أياما · ثم أضاف بأنه أنكر وجودها الآن لكى تذهب هى اليهم معززة مكرمة بدلا من ذهابها فى عربتهم كالمتهمة العادية ، ثم ليعطى نفسه فرصة التوصية عليها بين المحققين حتى لا يرهقونها بالأسئلة ·

السيارة المرسيدس هى الأخرى لم تعد ملكا لها ، فلقد وقعت على عشرات الأوراق ولا تعرف هذه الورقة من تلك · وفى الصباح كان عليوه - الذى أصبح يتلقى أوامره من سيده الجديد - قد فتح غرفة المرسيدس ونظفها ولمعها · وهبطت رشا مرتدية البالطو والفراء وغطاء للرأس من القطيفة الثمينة وترتدى كذلك معظم حليها ، وفوق عينيها نظارة سوداء · حودت الى الغرفة كالعادة ودلفت الى المرسيدس فأدارتها وأشعلت سيجارة أمريكانية وراحت تنفث الدخان فى سأم وقد امتلأ الفراغ أمامها بضباب كثير غامض وامتلأت نفسها بهموم ثقيلة غامضة ، وسخنت السيارة بما فيه الكفاية ، ولكنها كانت تحس برعشة فى ساقيها وتتمهل فى الطلوع بالسيارة كأنها ستنفذ من جاذبية الأرض الى الخلاء المجهول الشرس ·

زحفت السيارة خارجة من غرفتها ثم حودت فوق الزلط الى الباب المواجه · لكن السيارة أوقفت زحفها فجأة اذ انشقت الأرض عن أفندى

متين البنيان نصف أنيق ونصف مهذب يشير بأصبعه آمرا السـيارة بالتوقف • ثم مال نحو الشباك : « رشا هانم •• ضيوف بره منتظرين سعادتك » • نظرت فيه بأنفه واشمئناط : « مين سيادتك ؟ » • تجاهل ذلك ببرود : « أنا •• أنا الخدام بتاعهم •• قالو لى انده لسعادتك » • أدركت على الفور ، ثم فكرت نفخت من الغيظ ، ثم نزلت وهبدته الباب وراءها ، ثم تقدمته خارجة فرأت سيارة كبيرة تقف الى بعيد وبداخلها رجال • ونزل أحدهم واستقبلها باسما : « أهلا رشا هانم •• اتفضلى » • ثم فتح باب السيارة المجاور له • قالت : « الى أين ؟ » • قال باسما : « كلمتين صغيرتين وترجعى » • دارت بها الأرض ، تذكرت عنتر كبابه وعبد القوى بك وغيرهما ، تذكرت المعلم عطاطس ذا الوجهين ، تذكرت مدراء مكاتب كبار القادة والمسئولين تذكرت عصمت بك وأحمد سليم وتذكرت طفولتها البعيدة وحين صفقت الباب بعد ركوبها سيارة الشرطة أيقنت انها هى الأخرى •• لن تعود ••

— ٥٠ —

أشهورا كانت أم دهورا ؟ والله انها لا تدرى ، غير أنها لن تنساها مطلقا • منذ دخلت بها سيارة الشرطة ذلك المكان البعيد جدا فى حدائق اللبؤة ثم عادت بها فى المساء وسط كتل الظلام فى سيارة مغلقة الى مكان ما عالى النوافذ . مجرد حجرة بها سرير رخيص • فوق هذا السرير وفى هذه الحجرة عاشت أسود أيام حياتها على الاطلاق ، تظل طول الليل تبكى وتصرخ وتدق الباب والجدران والأرض بقدميها وتمزق فى نفسها بأظافرها ، ولما انفتح الباب قليلا اندفعت الى الخارج صارخة صـائحة مطالبة بمعرفة تهمتها على وجه التحديد ولماذا هى هنا • كل بضعة أيام يحضر لها أحدهم ويلقى عليها بسخفة فى هيئة أسئلة لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها لا تعرف عنها أى شىء ، عن أناس تسمع أسماءهم لأول

مرة ، عن أماكن لم تسمع بها طول حياتها ، عن وقائع وأشياء لم ترد فى كتاب حياتها ، العجيب انهم لم يسألوها مطلقا عن مسائل تخص التهريب أو الاتجار فى المخدرات وكانت تظن ان هذه هى التهم الرئيسية ولكنها اكتشفت ان التهم أشكال وأنواع منها ما يمكن ان يكون كلاما غير مفهوم ولا معقول بالمرة ٠

فى سبيل ان يعرفوا منها أشياء لاتعرف ما هى أوصلوها الى حافة الجنون خدشوا مكنون سرها فاندفعت تنتقم بشراسة ووحشية تضرب أى أحد فى مواجهتها بأى شىء تطاله يدها ، حتى عرضتهم لفضائح واسعة ، فنقلوها الى المستشفى ٠ وحين هدأت أعصابها قليلا طلبت ان تكلم أحد أفراد أسرتها ٠ جاءوها بالتليفون سرا فطلبت نمرة بيتها فى الحواوشى فظلت السماعة ترن فى دوى متصل ، حتى يئست فتنازلت عن هذا الطلب مرة أخرى ٠ ثم بعثت فى طلب زوجها ـ تقصد طليقها أحمد سليم فجاءتها من مكان عمله ـ ومع مخصوص على حسابها ـ أغرب مفاجأة يمكن ان تتوقعها ، حيث اتضح لها ان زوجها المحترم كان قد سرح من عمله قبل ان يتزوجها بشهور طويلة !!

لم يعد لها ملاذ سوى البكاء الغزير الساخن ٠ فلما ذبلت العينين وانطفأ الجمال فيهما اكتشفت ملاذا أعظم هو الصلاة ٠٠ فظلت تشغل وقتها ليل نهار مصلية متهجدة رافعة كفيها الى السماء ضارعة ٠

فاجأها الراديو ذات مغربية مشئومة بخبر موت الزعيم وبعدها انشرح الجو وانشقت الأرض وتزلزلت الجدران ٠ وبكى وادى الأزرق بكاء لا يذرفه الا نهر كنهر النيل على زعيم كعبد الناصر أو سعد زغلول ٠ وادى الأزرق مثل وادى النيل مثل وادى حلفا مثل وادى الأردن ولذلك بكى بنو الأزرق كأنهم كل هؤلاء ٠ وظل البكاء والعويل يملأ سماء المنطقة أياما وينقله الراديو مشبعا بالكآبة والمأساة السوداء ٠ الى أن جاء يوم استلانت فيه الجدران كوجوه السجانين ٠

شكرت الله ان سائق الأجرة لم يتعرف عليها ، ثم استرقت نظرة الى مرآة السيارة فوجدت أمامها وجها لا تكاد تعرفه ولا يمت لها بأى سبب ٠ ولم يكن قد بقى فى حقيبتها حلى أو نقود بل لم يكن قد بقى لها حقيبة من الأصل ، وهى فى الواقع ليست متأكدة مما اذا كانت قد تركت حقيبتها فى السيارة المرسيدس ساعة نزلت لتقابل أولئك الذين أسروها أم انها سلمتها فى الأمانات وادعوا انهم لم يتسلموا شيئا ؟ ٠ الظلم حرام وهى ليست متأكدة ٠

عند فيلا رشا بالحواوشى توقفت السيارة الأجرة ونزلت رشا قائلة للسائق : « لحظة واحدة » ٠ فقال السائق : « عايزة رشا الخضرى ؟ ٠٠ أظنها باعت الفيلا من زمان » ٠ فاستدارت اليه كانها لا تعرف ، وبقلب مشقوق من الألم صاحت : « صحيح ٠ وهى فين عنوانها ما تعرفش ؟ » ٠ قال السائق : « الحقيقة ما أعرفش ٠٠ انتى قلتى لى فيلا رشا ٠٠ لو قلتى انك عايزة رشا نفسها كنت قلت لك ٠٠ لكن والله ما أعرف عنها أى حاجة ٠٠ ربنا يعلم » ٠ كادت تبتسم وتكشف عن هذه اللعبة السخيفة ، لكنها قالت : « طب خمسة بس وحارجع تانى يمكن تودينى مشوار » ٠ وسربت يدها من خصاص باب الفيلا ففتحته وصارت الكلاب تنبح فى استقبالها بسرور حقيقى ٠ ما كادت تصعد سلم الشرفة حتى انفتح الباب وخرج لها شاب رفيع وظهر خلفه فى الصالة أم متهتكة وثلاث بنات عرائس وطفلين وخادمة ٠ شعرت بتقرز ٠ قال الشاب : عايزه مين حضرتك ؟ ٠ قالت : مش ده ٠٠ منزل ٠٠ مدام رشا ٠٠ قصدى الأستاذ أحمد سليم ؟ ٠ قال الشاب : لا يا أفندم ٠٠ لا ده ولا ده ٠٠ أى خدمة ثانية ؟ ٠ أحست ان شررا يتطاير من عينها ٠ قالت : غريبة ٠ زحفت نحوها الأم كأنها تريد معالجة الموقف بشكل أحسن قائلة : حضرتك مين ياست هانم ؟ ٠ قالت : أنا مدام رشا الخضرى ٠ قالت السيدة كأنها لا تعرفها على الإطلاق : أهلا

وسهلا بيكى ياختى عايزه مين حضرتك ؟ » . قالت رشا وهى تسند قلبها وتبحث عن ريقها : « امال فين الأستاذ أحمد سليم .. ده بيتى .. وهو ز .. » . قاطعتها السيدة : « انتى بقى صاحبة البيت اللى اشتراه منك ؟ .. على العموم أنا الست بتاعته أم الأولاد » ـ وأشارت الى الأولاد حولها ، ثم أضافت هامسة فى اذنها : « هو بصراحة ماهش هنا .. مسافر بلاد برة بقى له كام شهر » . قالت رشا محاولة ايقاف دموعها : « بيعمل أيه فى بلاد بره ؟ » . قالت السيدة : « الله أعلم يا اختى .. يوم ما سافر قال لنامشوار صغير وراجع بعد اسبوع .. فات ييجى عشر ميت اسبوع وماجاش .. والآخر سمعنا انه مش ناوى يرجع خالص .. أصله يا أختى زى ما تقولى واقع مع النظـــام والرياســـة » . قالت رشـــا باكية : « وما بيتصلش بيكم » . قالت السيدة : « أبدا .. احنا كمان سبناه على راحته .. الحمد لله ربنا غانينا عنه .. ماتتفضلى ياختى نعمل لك فنجان قهوة ؟» . قالت رشا من خلال عضه : متشكرة خالص . ثم نزلت تجر ساقيها ..

رجت السائق أن يوصلها الى ميدان الجامع الأزرقى حيث توجد شقتها القديمة فى رعاية أم جابر ، الشىء الوحيد الذى أخفته عن زوجها هو هذه الشقة ولم تكن تفتحها الا لتخزين شىء هام أو للافراج عن شىء هام ، خيرا فعلت حين استجابت لنصيحة المعلم عطاطس وأم جابر وغيرهما بعدم تفكيرها فى بيع الشقة فالأيام غير مضمونة ، هاهى الحكمة تتحقق بالفعل ، وها هى ذى تطرق باب نافذة غرفة أم جابر المطلة على الحارة وكانت تظن انهالن تجدها وأنها لابد ان تكون قد فنيت فى الطوفان أو جرفتها رياح التغيير التى هبت على كل شىء فغيرت حتى معالم النفوس وجعلت الناس تفقد حياءها تتأجج وتتصافق وتستعد للخناق دونما سبب معلوم .. ولكن ، وكالعادة جاءها صوت أم جابر متحشرجا منسلتا من فوق الحصير عبر عشرات الكراكيب : « مين » . قالت رشا « أنا رشا » صاحت أم جابر : « رشا ؟ » . قالت رشا : « ايوه ـ البتعه » . قالت

أم جابر من قلب كليم : « قلب أمك ٠٠ جيتى يا اختى ؟ » ثم فتحت النافذة وتطلعت فى وجهها ، ثم اختفت وفتحت الباب وخرجت تحتضنها وتبكى ٠ قالت رشا وهى تربت عليها فى حنان كبير : « هاتى مفتاح الشقة » ــ دخلت أم جابر وعادت فأغلقت باب غرفتها وتقدمتها صائحة : « تعالى يا اختى » ثم وصلت الى الشقة ففتحتها وصارت تنظفها ٠ لكن رشا ما ان دخلت ووجدت كل شىء على ما هو عليه دون خدش دفعت بنفسها الى غرفة النوم وارتمت على سريرها القديم وشرعت تبكى بحرقة لكنها كانت تحس براحة عظيمة تتمشى فى أوصالها ، فها هى ذى فى النهاية تجد لنفسها ملاذا يثبت ان الله لايزال معها ٠

ــ ٥٢ ــ

شىء عجيب ٠ كأنما عادت الى قوقعتها الأصيلة ، كأنها كانت شريدة طوال السنوات الماضية وعادت أخيرا الى شاطىء الأمان ٠ هذا السرير الذى لايصح أن يقارن بسرير فيلا الحواوشى ، وهذه السجاجيد دبرت ثمنها بشق النفس وحتى هذه الجدران نفسها كل ذلك بدا لها رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضلعى لنفسها : « شكرا لك يارب ٠٠ لقد أعطيتنى الدرس وقد وعيته ٠٠ أنا فى هذه اللحظة يارب قد فهمت لماذا فعلت بى هكذا فى هذه المحنة الثقيلة ٠٠ نعم عرفت السبب وأنت محق تماما فيما فعلت بى ٠٠ فهذا طريق ما كان يجب ان أدخله من الأساس ٠٠ لكنه الشيطان ٠٠ زين لها كل شىء وقادها مخمورة فى طريق خلاب أفاقت منه وقد خسرت كل شىء ٠٠ هذه البنت التعيسة يارب هى أنا ٠٠ وانت يارب قد أكرمتها وحفظت لها ملاذا تبيت فيه يستر عرضها من الوحوش السامة ٠٠ رشا الخضرى ٠٠ هم ٠٠ نجمة صاعدة ٠٠ متألقة ٠٠ صور ٠٠ حفلات ٠٠ رقص ٠٠ حكمتك يارب ان رشا الخضرى لم يعد منها الآن أى شىء ، كل صورها فى الجرائد والمجلات استهلكتها

جبال الفول والطعمية والترمس التى لاتنفد وأكلتها المعيز فى خرائب العاصمة ومزابلها التى لاتحصى ، وكل أغنياتها بضع شرائط فى مكتبة الاذاعة سقطت فى حفائر النسيان منذ أفل نجمها ·· حتى باروكات الشعر والفساتين والأحذية ضاعت وانتفع بها غيرها ·· هذا الاسم يا رشا — أقصد يابتعه — يجب ان يسقط هو الآخر والى الأبد ، هى واثقة ان أحدا فى اذاعة بنى الأزرق لن يذيع اسمها أو صوتها أبدا طالما هى لم تتقابل ولم تلح ولم ترسل الهدايا والمجاملات ·· رشا الخضرى اسم لمع وانطفأ وسوف تخمد ذبالته ، وشخصية التبستها لسنوات وقد خلعتها ·· من فات قديمه تاه ·· الآن هى البتعة ·· من فضلك وحياة النبى عندك يا أم جابر ساعدينى على نسيان هذه الانسانة ·· هى لم تكن أنا ·· أنا الآن لست هى ·· هل أنا الآن أشبها ؟ انظرى هاك وجهى هل هذا الوجه الطبيعى البائس الهادىء هو وجهها الذى كان مجرد لوحة تلعب فوقها الفرش والألوان والمساحيق ليل نهار ؟ ·· لا أظن يا أم جابر ان شبها بيننا سوى العينين ، ولكن عينى سوف تعودان شيئا فشيئا الى صفائهما القديم ·· فى عرضك ·· اذا سألك أحد عن رشا الخضرى التى كنت تخدمينها من قبل فقولى لهم اننى احدى قريباتها من بعيد وقد ورثت هذه الشقة أما هى فمنذ اختفت يعلم الله وحده أين مكانها » ·

وكانت كلما جرت الدماء فى وجهها واستعادت ملامحها ذلك الهدوء القديم نظرت فى وجه أم جابر باسمة وتساءلت كيف استطاعت ان تقنع الناس ان البتعة ليست هى رشا الخضرى · لكن أم جابر ابتسمت عن فم خرب لطيف وقالت فيما يشبه الفحيح انها لم تقنع أحدا ولم تتكلم مع أحد فى هذا الشأن أبدا لأن أحدا لم يسألها ولم يبد على أحد انه يعرف شيئا عن أى شىء !!

بل ان البتعة دهشت غاية الدهشة من ان أحدا فى الحارة أو الحى أو فى المنطقة لم يلاحظ الشبه بينها وبين رشا الخضرى المطربة المشهورة التى كانت نجمة قبل شهور ، الكل قد عاد من جديد ينظر فى عينيها

ولا يشغلهم سوى شخصية عينيها · كثيرا ما تمشت فى سوق الخضار لابسة فستان المنزل ممسكة حقيبة الخضار بيمناها ، غلبانة تعيسة منكسرة الى ان ترتفع عينيها فكأنما رفعت خنجرين ماضيين · الوحيد الذى لحظ الشبه بينها وبين المطربة رشا الخضرى هو صاحبى الملعون كحكوح ولم يكن يعرف من قبل ان « رشا الخضرى » هى « البتعة » حبيبته القديمة ، فهو لم يلتق بالمعلم عطاطس من يومها الا لماما ذلك ان رشا قد أغنته عن الاحتياج لمثل مستوى كحكوح · وكان صاحبى كحكوح — ويا للعجب — من أشد المعجبين بصوت « رشا الخضرى » وكان يروج له فى غرزته ويقرأ أخبارها وصورها ، ويقول معلقا كلما تمعن فى احدى صورها المنشورة بالألوان على نتيجة حائط أو هدية مجلة : « باقولكو بنت بلد مصفية ·· وحياة النبى جمالها ده ما تلاقيه الا فى البيوت الأصيلة ·· ثم يواصل بصوت أخنف كأنه يوحى اليك بالخنف انه يقول أشياء لا يصح التصريح بها — آ ·· يوه ·· دى مطربة مسنودة يا آبا ·· بيقولوا خالها فلان الفلانى عضو مجلس قيادة الثورة كان رئيس وزرا وكان وكان ·· أمال ·· بس بينى وبينك صوتها مش بطال ·· هو مش حلو قوى يعنى بس مش وحش ·· نص بلدى نص أفرنجى » · وهكذا لم يكن ليخطر على بال صاحبى كحكوح أبدا ان تكون « رشا الخضرى » هى نفسها بلحمها ودمها « البتعة » فلدا رأها ذات يوم تسير فى حى « القليليه » وقف مسمرا فى مكانه جاحظ العينين لاتكاد ترى له فما أو شفتين أو خدين ، مجرد عينين صغيرتين تحت عمامة مملوكية كبيرة يشع منهما ضوء أزرق ساخر ذاهل معا · كانت فى الواقع تريد ان تتجاهله ولكن طلقة ضوء من عينيه العجيبتين فى عينها أجبرتها على الابتسام فى قليل من الحياء ، فتجرأ فى الحال واقتحمها هامسا من بين نواجذه : « ايه الصدف السعيدة دى يامره ·· كنتى فين من زمان يابت ؟ » · احمر وجهها وجاهدت طويلا لكى تتخلص من رقة النجمة اللامعة ، وكان عليها أن تعقل ذلك بسرعة ، فزغدته تحت ثديه بقوة حنونة وقالت : « اتاخر بس كده » ، ودفعته الى جوار الحائط بعيدا عن الجمهرة ثم قالت : « ازيك ياكحكوح ·· ايه أخبارك واحشنى » · قال

بغبطه « انتى اللى فين ؟ » قالت متجوزه ·· ومحصلش نصيب كل واحد راح لحاله « ثم ابتسمت حين رأت معالم التصديق على وجه كحكوح · ثم انه قال : « ولسه فى الكار ولا ·· ثم بلهجة ذات معنى ـ هبرتى لك قرشين منه واتكلتى على الله ·· ياترى كان سعودى ولا كويتى ولا بحرينى ·· أنا شامم ريحة البترول يامره ·· هو مش باين عليكى صحيح لكن ريحته باينة » · قالت متجاهلة كل ذلك «انهو كار تقصد ؟» · قال كحكوح: « العشرة البلدى على واحدة ونص » · قالت : « لا ·· أنا نسيت الشغلة دى خالص ·· ولسة على باب الله » · قال كحكوح بجرأة من يخاطب البتعة : « ماتعمليلك دولاب كدة على الضيق زباين نضاف ·· تقطعى لك فى اليوم عشر أوقيات يكرمك الله من وراثها بمائة جنيه على الأقل » ·

رغم ان الفكرة ضربت فى رأسها كالفانوس المشتعل الا انها ابتسمت فى استنكار قائلة : « هه ·· ع العموم ربنا يسهل ·· عن اذنك » · ثم سلمت فى سرعة ومضت ·

اختلت بنفسها وقلبت الفكرة فى رأسها ، هى تريد نقودا على وجه السرعة لتعيش منها هى وأم جابر · حاولت الاتصال بالمعلم عطاطس فى بعض النمر السرية التى كانت تكلمه فيها ، فرد عليها أحدهم فى احدى النمر وطلب منها المجىء لمقابلته ، فذهبت اليه فاذا بها فى شقة محترمة فى ضاحية عريقة وأمام شاب ظل يتفرس فيها طويلا وأخيرا قال لها : « فيه ناس كتير بتسأل عن المعلم ده فى التليفون ده مع انه مش معروف لنا خالص ·· ايه الحكاية مين هوه الاسم ده ؟ انتى أول واحد يقبل ويتفضل بالمجىء ، فارجوكى ان كنتى تعرفى حاجة عنه قوليها » ·

وكانت نظرات البتعة قد تجولت فى أنحاء الشقة فرأت صورة بالحجم الكبير فى برواز للمعلم عطاطس بذات نفسه ولكن فى لباس أنيق ، البذلة ورباط العنق على سنجة عشرة · فقالت للشاب : « تقول انك تريد ان تعرف شيئا عن المعلم عطاطس ·· واسمح لى اسألك لكى أجيبك فيما بعد

.. هل تعيش في هذه الشقة منذ مدة طويلة ؟ » . قال : « لا .. منذ ان جئت لالتحق بالجامعة .. ومن قبل كانت بمثابة استراحة لخالي .. سالم بك الكردي » . أشارت الى الصورة الكبيرة « اهو ذلك الذي في هذه الصورة ؟ » . قال : « نعم .. هو بعينه » . تأملته طويلا ثم قالت بسخرية عميقة : « يا جماله .. ايه الابهه دي كلها » . قال الشاب : « هو الآن يقيم في باريس بصفة نهائية وان كانت هذه الشقة وغيرها لا تزال باسمه » . قالت « ماذا يفعل في باريس .. يتاجر في الأسلحة ؟ » . ضحك الشاب فضحكت هي الأخرى ، اذ ان الجرائد كانت لاتزال تنقل أخبار أحد قادة الجيش الذي هرب الى باريس من عشرات التهم وأقام هناك يتاجر في الأسلحة . قال الشاب مستدركا : « لا .. خالي صاحب شركة ملاحة بحرية .. عنده أسطول كبير فيه حوالي خمسين ستين سفينة كبيرة شغالين في أعالي البحار .. وكان عايز السفن بتاعته تحت العلم الأزرقي وتكون عاصمتها مقره الرئيسي ، لكن الذين بيدهم الأمر وضعوا أمامه عشرات العراقيل حتى يبز بأكبر قدر ممكن من العمولات .. على انهم لا يعرفون خالي .. عمولات من خالي ؟ .. ان حياته كلها قامت على العمولات وتكونت ثرواته من العمولات فكيف به هو نفسه يدفع عمولات ؟ هو الآخر كان ابن هرمة ، بدا هو الاتفاق بأن طلب العمولات لنفسه من دولة الأزرق مقابل وضعه للعلم على سفنه » .

رغم المأساة وتمزق نياط القلب ضحكت البتعة مع الشاب حتى قالا معا : اللهم أجعله خيرا .. واستطرد الشاب : « فما كان من خالي الا ان وضع سفنه تحت العلم اللبناني وجعل باريس مقره الرئيسي ، وله مكاتب في أثينا وألمانيا وجميع أنحاء العالم من أقصاه الى أقصاه » . دموع الضحك استدرت دموع البكاء فصارت تبكي بعنف وتنتفض وتوشك أن تقع فريسة اغماء لا نهائي . قال الشاب في ذكاء بريء : « لقد فهمت .. لابد انك كنت على علاقة به ذات يوم ؟ » . قالت وهي تنهض مستعدة للانصراف : « لا .. لا أظن انني رأيته من قبل ابداء » . نهض الشاب هو الآخر منزعجا :

« ولكنك لم تخبريني عن حقيقة المعلم عطاطس » قالت بصعوبة من بين دموعها : « انه رجل لاتعرفه ٠٠ يبدو انه كان ضيفا على هذه الشقة ذات يوم فأساء استغلالها ٠٠ أرجوك لاتسألني عن شيء أكثر من هذا » ثم تقدمت نحو الباب ففتحته وألقت بنفسها في الشارع ثم في عربة أجرة وكان رأسها يدور بعنف ٠

نزلت في ميدان المشهد الأزرقي واخترقته فالتقت بصاحبي كحكوح ذاهبا يشم ٠ ازيك وأهلا ورايح فين تعالى بس ٠ مشت بجواره دون حرج فاذا به يرتد بها قائلا : « بنت حلال ٠٠ فيه واحد صاحبي عايز مخزن ٠٠ ايه رأيك ٠٠ أهو قاعد عندي فوق ٠٠ الليلة بخمسة جنيه للاقة ، حيخزن قولي عشرين أقة يعني بميت جنيه في الليلة وعداد بيعد ٠٠ الكمية اللي يأخذها تنخصم ويجي غيرها وغيرها وطول ما ربنا ساترها اهي فل » ٠ زاقت لها الفكرة ٠ غمزته قائلة : « طب أنا مروحة ٠٠ هاته وتعالى ورايا » ٠

بعد ساعة جاءها كحكوح ومعه رجل رفيع كالسفاية ممصوص الدم رغم احمرار وجهه ٠ من أول نظرة قدم لها عقدا شفويا غير منطوق مفاده انه رجل لا باع له في أمور النساء وانه دينه وديدنه العمل والأمانة وانه ملك لمن يصون الأمانة ناسف لمن يخونها فزغده كحكوح بعشم وقال له : « افق يا هذا : ان من يعاشر البتعة لا يسلوها أبدا ٠٠ اسألني عنها هي تربية ايدي » ، ثم أضاف وهو يشعل سيجارة : « أصل دي كما ماهش شغلتها دي هواية عندها ٠٠ شغلتها الأصلية مغنية أفراح ٠٠ بزمتي ودينى شبه رشا الخضري وتضربها بالصرمة صوتا وشكلا ٠٠ غير شيء الدنيا هي اللي جظوظ ٠٠ لكن معلهش ٠٠ المهم الأصل والأمانة ٠٠ ست بتعة الحقيقة ما تتكلمش انت بخصوصها ٠٠ أنا المسئول » ٠ فضحك الرجل السفاية ناظرا الى كحكوح نظرة ذات معنى كأنه يقول : « وانت من يضمنك ياجربوع ؟ لكنه ادار وجهه ناحية البتعة مشوحا بذراعه قائلا : « على بركة الله ٠٠ البضاعة حتوصلك ٠٠ » ، ثم نهض وهمس في أذنها مكملا ان

البضاعة ستكون عندها غدا في الثانية عشرة. ظهرا مع امرأة عجوز تحمل سلة على رأسها وتمشي تبيع الفجل منادية : « فين أكالك يا ورور » وعلى البتعة حين تسمعها ان تفتح باب البلكونة وتناديها قائلة : « ورينا كده اللي معاكي ياحاجة » فتصعد الى الشقة وتدخلها لتترك البضاعة وتخرج في دقائق معدودة ثم ان الرجل السفاية قال لها : « عايزة فلوس ياست بتعة ؟ » ثم أخرج رزمة كبيرة من عشرات الجنيهات وعد لها عشرا سلمها لها مطبقة قائلا : « ليلتك فل » ، فأخذتها ووضعتها بجوارها في اهمال قائلة : « طب المخزن وخلصنا منه ٠٠ افرض اني عايزه اشتغل قطاعي » ٠ توقف ممتعضا : « لابقى ٠٠ يادى ٠٠ يادى ٠٠ انصحك مادام حتشتغلي مخزن بلاش تقطعي » ٠ هزت كتفيها قائلة في ثقة وقد برقت الفكرة في رأسهما : « اللي بيشيل قربة مخروقة بتخر على دماغه ٠٠ وأنا حاشيل القربة ٠٠ أنا حره ٠٠ يمكن عندي اللي حيخزن واللي حيبيع ٠٠ مالكش دعوه انت » ٠ توقف الرجل السفاية حائرا لبرهة كأنه تورط ٠ مرة أخرى زغده كحكوح في جنبه : « اتكل على الله واسمع كلامها ميهمكش ٠٠ دى ست انما دماغها كبير قوى قد مليون راجل ٠٠ صدقني » ٠ هز الرجل السفاية رأسه موافقا : « خلاص قطعي ٠٠ قطعيلك وقه ٠٠ وسعرها حسب السوق وأقل شوية عشان خاطر عيونك ٠٠ بس انتي تخلي بالك من نفسك » ٠ قالت : « اطمئن » ٠ فسلم عليها وانصرف ٠

— ٥٣ —

٠٠ يوم اقتحمها الشحات لشراء ربع القرش لأحد الزبائن كانت قد مضت عليها مدة من الاستقلال تبيع لحسابها الخاص ويمولها مهرب كبير ٠ ولانها سيدة وجميلة وناعمة فزبائنها من الصفوة ولذا اختصها بأجود أنواع الهبو الذي لايفهم قيمته الا كل حشاش صاحب مزاج ، يدفع في زنة قرش تعريفة مخروم أربعين جنيها أو أكثر مع انه قد يحصل على نفس الكمية بجنيهين وربما بجنيه ونصف ٠

يومها دهشت حين رأت الشحات وابتسم وجهها . على غير العادة دخلت وراءه مباشرة وجلست بجواره قائلة : « خير ياشحات » . قال لها : « عايز ربع قرش » . وشرع الثلاث جنيهات في مواجهتها . قالت بابتسامتها العريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » . قال باسما : « لى » . قالت : « يعنى حتاكل فيه عيش » قال ببسمة مرتعشة « تقريبا » . قالت : « انت سبت كحكوح ؟ » فحكى لها الشحات ما حدث بكل دقة وصدق . نهضت وغابت داخل الشقة ثم عادت وأعطته قطعة سائبة - أى غير ملفوفة فى ورق سلوفان - تزن أكثر من نصف قرش بالراحة ، وقالت فى حنان عظيم : « خذ ياشحات » . فانبسطت ملامحه من الفرح وناولها الجنيهات الثلاثة مبرومة ففردتها وانتزعت منها جنيها أعطته له قائلة : « ده عشانك .. وكل ما تعوز حاجة تعال » . فشكرها ببسمة حنينة وطلب ورقة سلوفان فلم يجد فنزع من علبة سجائره ورقتها واقتسم القطعة ولف أحد القسمين لفة جيدة واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه ، وعندما صار فى بئر السلم لف القطعة الأخرى وقرر ان يبيعها أيضا بثلاث جنيهات لزبون آخر .

منذ ذلك التاريخ صار الزبائن يعفون أنفسهم من مهمة المغامرة بمقابلة تاجر المخدرات وجها لوجه اذ يتكفل الشحات بتسليم الصنف لهم فيما هم جلوس على المقهى . جرى القرش فى يده وكان وفيا للبتعة لا يعتمد على أحد غيرها كمصدر ، وكانت هى تسر غاية السرور وهى ترى الطابور يمتد حتى قرب شقتها ، فلما صار الشحات هو كل شىء فى حياتها اراحت نفسها وانتهزت الفرصة وتزوجته على سنة الله ورسوله واتسع البيع وعظم التوريد وقامت لهما فى الحارة مملكة أى مملكة .

الباب العتيق

● عندما خطر لأبى شافية أن يستر الوديعة

. .

يرجع مرجوعنا لأبى شافية ـ الشحات سابقا ـ وكيف قبل مهمة القيام بالوساطة بين صاحبى كحكوح وزوجته • وكان أبو شافية قد أنبأ صاحبى كحكوح أن لديه مشوارا ناحية بيتهم وسوف ينتهز الفرصة ويمر على الست ليعالج الأمر • فانطلقت أنا أجرى بلا توقف حتى وصلت الى صاحبتى •

لم أجدها بالمنزل • فنزلت أشم أثر خطواتها على الطريق فكلما امتلأت خياشيمي برائحتها أمعن فى المسير حتى وجدتها بلحمها سائرة فى شارع الصاغة مرتدية الملسى والحبرة والحذاء ولا يظهر من وجهها سوى عينين متلصصتين • قفزت أمامها وصرت أشب وأحمحم وأطوح ذيلى وهى تكاد من فرحها تحتضننى على البعد وتصيح قائلة : « طب تعال ورايا •• تعال » •

تبعتها كظلها حتى فوجئت بها تحود على دكان « شفيق » الصائغ خلعت من يدها خاتم يبدو أنه ضاق على أصبعها وانها ـ لهذا فقط ـ تريد بيعه • وزنه « شفيق » الصائغ وخصم من ثمنه ما خصم على ذمة ما يسمونه بالتمغات حتى يئست صاحبتى .فأخذت منه ما تبقى وانصرفت •• فعرفت أنها بتبيع ما يصلح للبيع لتحمى بثمنه ما لا يجوز بيعه ، فاغتظت وحنقت من كثرة الاشفاق على صاحبتى • غير

ان التوتر العصبي ركبني فجأة فوقفت جحافل الشعر على جلدى كالأسلاك المدببة وصرت أنبح في عصبية نباحا متواصلا وصاحبتي تقول : « مالك ٠٠ يا ترى فيه أيه » ٠ وحقيقة الأمر انني كنت أشم رائحة كل من أبي شافية وصاحبي في نفس المكان ٠

حين تأكدت ان صاحبتي دخلت البيت بالفعل اندفعت أجرى بأقصى سرعة حتى وصلت البيت منساقا وراء الرائحة وقد صدق أنفي ، اذ لمحت صاحبي كحكوح يحوم حول البيت ويحاول الاختباء مني ٠ فرابطت أمام الدار واقفا على مؤخرتي منتصب الأذنين متحفزا ٠ ان هي الا برهة وجيزة حتى أقبلت صاحبتي تحمل بيدها بعض اللفائف ٠ فقمت بمناورة درت فيها حول صاحبتي دورتين وحول منطقة البيت ثلاث مرات وحول المنطقة كلها أربع مرات ثم استدرت عائدا فلحقت بصاحبتي على السلم ٠ فتحت الباب بمفتاح مربوط في ضفيرة شعرها ثم أشارت لى فدخلت فلحقت هي بي وأغلقت الباب ٠ ما كادت تتخفف من أحمالها حتى طرق الباب فاندفعت أنا أجرى تجاهه وهي في أثرى قائلة : « مين ؟ » ، ثم لم تنتظر ردا ففتحت الباب فاذا بأبي شافية نفسه يكاد يسد فراغ الباب قائلا : « مسا الخير عليهم » ٠

شهقت صاحبتي وضربت صدرها بيدها صائحة : « الحاج ؟ » ، ثم ارتبكت قليلا ثم قالت : « اتفضل يا حاج » ، ووسعت له ، فتقدم داخلا على استحياء وهو يقول : « أيوه الله حق الله » ثم تنحنح شأن الرجال المحترمين يحذرون النساء من ظهور صوت رجل غريب فيحتشمن ، أما هي فكأنها الرجل الذي خف لاستقباله ٠

— ١ —

لحقت به ففتحت باب غرفة الجلوس حيث الكنبتان البلدى بفرشهما النظيف المغطى بكسوة الكريتون المزهزهة الألوان : « خطوة عزيزة يا حاج شحات ٠٠ والله زمان ٠٠ أيه الحكاية يا ترى » ٠ وكانت الفرحة تطل

من عيونها وأعطافها وأردافها ، ليقينها أن الشحات لم يأت الا لمصلحة هامة وانه غير طامع فيها اذ ما الذى يصيب رجلا ثريا كهذا بالخبل فيجعله وهو يقتنى أجمل زوجة فى المنطقة يفكر فى مطاردة واحدة مثلها لا هى هنا ولا هناك ٠٠ حينئذ فقط أدركت ان الزمام قد أفلت وانتهى الأمر ٠٠ فأقعيت أمام أبى شافية مهدل الأذنين ضائق النفس فيما اختفت صاحبتى داخل المطبخ ٠

صاح أبو شافية : « ما تعمليش حاجة ٠٠ أنا والله شارب كل حاجة تتصوريها ٠٠ فضى نفسك وتعالى بس دول كلمتين صغيرتين أحسن ما ورايبش وقت » ٠ فصاحت بدورها من داخل المطبخ : « جرى أيه يا حاج و ده يليق برضه ٠٠ دانت بقى لك سنين ما دخلتش بيتنا » ٠٠

تقلصت ملامح أبى شافية فجأة وراح ينظر حواليه متلصصا كأنه ينوى القيام بسرقة ، بل انه مط رقبته كثيرا لينظر فى الصالة ٠ فلما اطمأن أخرج علبة النشوق الفضية خلسة وفتحها وسكب منها مسحوقا أبيض فى راحة يده ثم شدها بطاقة أنفه ، ثم كرر ذلك فى الطاقة الثانية ، ثم أعاد الكرة مرة ثانية ثم دس العلبة فى جيب الصديرى وراح يدعك فى أنفه بلذة لا مثيل لها ٠

دخلت صاحبتى حاملة صينية ذات أبهة عليها كوب ذو أبهة عرف أبو شافية منهما ومن الصينية ان صاحبتى سافرت الى بورسعيد أكثر من مرة ، فابتسم حين تذكر ان مثيلات هذه الأوانى فى منزله ترد من لندن وباريس على متون الطائرات محشوة بالحشيش الخام ٠ جلست صاحبتى فى مواجهته على الكنبة الأخرى قائلة : « والله سلامات يا حاج ٠٠ عاش من شافك » ٠ اعتدل أبو شافية فى جلسته وتأهب للحديث فأخذت أنا أنبح بشدة ، فنظر الى فى قرف فظللت أواصل النباح فقامت صاحبتى لتهشنى ، ورأيت عيون أبى شافية وهى تتصعلك فى نهم مروع على عجيزة صاحبتى التى لم تكن بالكبيرة ولا بالصغيرة بل كانت كخيط وهمى

يحدد بروزا رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى تشق الظهر فاصلة بين ضلعى الفستان المحتشم ·

مالت صاحبتى لتحتضننى كى أكف عن المهاترة ، فاندلقت نظرة أبى شافية الى مقطع الفخذين بالساقين بسمانتى القدمين ، الكعبان ريالات من الفضة · احمر وجه أبى شافية وبدا انه قد وقع من طوله ولا يستطيع ضبط أعصابه · كانت رائحة الصابون الطيب تنبعث من صاحبتى · وفيما أنا أحاول الزوغان منها داخلا الى القاعة استدارت هى بميلها متشبثة بى فاندلق صدرها فوق دماغى واذا بيدين تندبان فى صدر صاحبتى مباشرة ولكن بحجة انه يخلصنى منها لنتفاهم معا باعتبارنا ذكورا نفهم بعضنا · نهشت يده بأظافرى وتركته يتأفف وجلست فى ركن وصاحبتى تؤنب فى وهو يتوعدنى ضاحكا ·

ثم انه تخلص من الحذاء فى الأرض وربع ساقيه كفقيه سيقرأ ربع قرآن ، لكنه بكل بساطة أخرج ربع الحشيش من جيبه وفركه فى كفه ثم أخرج سيجارة من العلبة فارتبكت يده فسقطت العلبة فقامت صاحبتى وتناولتها وأخرجت السيجارة وتولت بنفسها فركها بين راحتيها حتى تساقط نصف ما فيها من دخان ثم قدمتها الى أبى شافية · ملأ فراغ السيجارة بالحشيش مع قليل من حبات الدخان كالقليل من الصودا على كأس الويسكى ·· ثم أشعل السيجارة فتسلقت رائحة الحشيش كافة النوافذ صارخة صادحة بما فى هذه التعميرة من بهجة وأنس نادرين ·

رشقته صاحبتى بنظرة من عينين كأنهما فجوتين ينحتون الكحل منهما فلا تنفد قالت : « أظن وجبت القهوة السادة » · فعوج رأسه فى انتباط طفولى وقال : « يا عينى » · فهمت واقفة كالفدهو ومضت تتبختر كأنها ليست مجرد جسد كأجسادنا ملفوف فى ثياب أنيقة ، انما كل شىء فى جسدها له شخصيته البارزة القوية ، فكأن جسدها مجموعة شخصيات جمالية تحرك بعضها فى اتساق كأن الطبيعة تتدلل وتتفنن فى برجلة عقول الرجال · اختفاؤها فى المطبخ لم يقطع نظرة أبى شافية

التى كانت قد دقت بمسامير فى نفس الاتجاه • أخرج من جيب الصديرى ورقة سلوفان فتحها وقضم منها سنة أفيون كبيرة وصار يتلمظ • وكانت عينه تقول بكل وضــــوح ان قوة فى الأرض لا ينبغى أن تحـرمه من « وديعة » ، نعم انها وديعة فى هذا المكان وتحت سيطرة هذا الجبان حتى يجىء هو ويستردها ، ولسوف يسترها ، فليس أحق بها سواه ، سواه هو وحده ، هى تحبه من قديم ، ما أحلى تلك الذكرى ، ما أحلى القديم اذ يضىء لنا مسلكا جديدا ، هى له وليذهب كل شىء الى الجحيم ، اذا كان الله وهبه النعيم على يدى « البتعة » فانه سيهبه الجنة على يدى « وديعة » •• البتعة •• انسانة طيبة أى نعم وأرجل من الرجال هذا صحيح وجميلة بلا شك ، لكنها ــ عدم المواخذة ــ كانت مجرد وسيط هيأه الله له لكي يصبح فى هذه الأملة ويجىء فى النهاية لينقذ « وديعة » من وساخة كحكوح ، وله الحق كل الحق فى هذا فهو يفهم الاثنين ويشهد أمام الله ورسوله ويقلب المصحف على عينيه انها ملاك يعاشر حيوانا زنديقا سافلا ، يكسب ثوابا لا شك من يتيح لهذه الحورية فرصة الخلاص من هذا القحف فهذا الجمالَ لا ينبغى ان يهان أبدا ، ان الحكومة كما قرءوا عليه فى الصحف قد جندت البوليس الدولى كله ليساعدها فى البحث عن لوحة مسروقة من قصر لا يدرى من ، وهى لوحة غالية الثمن فيما يقولون لأنها بريشة لا يعرف من ، فاذا كان هناك من يدفع مثل هذه الآلاف المؤلفة فى لوحة رسمتها يد بشر مثلنا ، واذا كانت كل هذه الدول تهرع للمشاركة في البحث وضبط اللص ، فما بالك بهذه التحفة الرائعة التى رسمتها ريشة الله سبحانه وتعالى ؟ المؤكد انها آية من آيات الله فى الخلق مجسدة فكيف يجوز امتهانها ؟ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وهذا منكر ولسوفَ يقوم بتغييره بيديه ، سوف ينفق عن سعة الى آخر قرش يملكه حتى يخلص وديعة من كحكوح الى الأبد •

حين دخلت صاحبتى بالقهوة فوق الصينية ومالت لتضعها أمامه كانت ابتسامة عريضة بلهاءَ قد حلت بشفتيه • تساءلت صاحبتى عما يضحكه فقال انه تذكر حدوته الشاطر حسن وست الحسن والجمال ،

ثم ضحك بصوت عال فشاركته في جذل وصوت ضحكها كرنين المعادن والأواني الأصيلة فى بيوت السلاطين ، يطير منها لب أبى شافية ، تؤكد له دقات قلبه انها هى الأميرة وهى القصر وهى المملكة بكامل هيأتها ٠

جلست صاحبتى على الكنبة المواجهة من جديد ورفعت ساقا لتضعها على الأخرى فتحركت معهـا كل الأشياء فى عينى أبى شـافية ٠ قالت صاحبتى : « لعله خير يا حاج » ٠ قال أبو شافية وهو يلوك الأفيونة ويرشف القهوة ويتردد : « الحقيقة كنت عايز أقول ٠٠ كحكوح ٠٠ » ٠ ردت صاحبتى مشوحة : « قطع و لاكان » ٠ وقرأت فى عينيها ان هذه العبارة مجرد عبارة تعبر بها – كذبا – عن صمودها وعدم رغبتها فى الاستماع الى سيرة الأبعد ٠ وقرأت فى عينى أبى شافية انه قرر فجأة أن يغير من دوره وينفى الغرض الأصلى من الزيارة ، قرر أن يصدق عبارة « قطع ولا كان » ٠

لكنها عادت فسألت : « هو قالك حاجة ؟ » ٠ ضحك أبو شافية وهو يتذكر دوره القديم أيام كان صبيا فى الغرزة ٠ نضحت عينه بما يعتمل في نفسه من ان كل هذه السنين لم تغير شيئا من وديعة ولم تضف الى صفحة وجهها أى ظلال ولم تصب جسدها بأى ترهل ، وانفتحت البلاد وسقطت الجسور بينها وبين رأس المال الأجنبى ، واصطلح بنو الأزرق مع أعدى أعدائهم وكل هذه الأحداث بكل هذه السنين لم تغير من وجه وديعة أو من طبع زوجها كحكوح ، كل ما فى الأمر ان كحكوح تقلبت به الأوضاع وانحدرت من سىء الى أسوأ بسبب طقفان مخه ٠

فتح أبو شافية فمه ليتكلم ولكنه أبقاه مفتوحا فى ذهول ٠

نكس أبو شافية رأسه فى الأرض وراح يرشف بقية القهوة ويلوك الأفيون ثم قال فجأة « تصورى انك ما اتغيرش فيكى أى حاجة ؟ » ٠ قالت وهى لا تخفى سرورها بهذه الملاحظة : « ما خلاص ٠٠ راحت علينا يا حاج » ٠ قال أبو شـافية بصدق : « لسـه بدرى قوى » ٠ قالت صاحبتى : « بدرى من عمرك ٠٠ ادينى قاعدة أهه مفيش أتعس منى » ٠

وكانت هذه الجملة الأخيرة قد حملت شحنة من الحزن لا قبل لبشر باحتمالها ، حتى ان دموعا ساخنة فرت من عينى صاحبتى وتناثر رذاذها كليمونة تنعصر بقوة . ثم حاولت ان تغطى ضعفها فمسحت عينيها بمنديل صغير ثم فردت على وجهها ابتسامة عريضة ساحرة وقالت : « ما قلتليش .. كحكوح قال لك ايه ؟ » .

— « سيبك منه بلا كحكوح بلا بتاع » ..

— « يعنى انت مش جاى من طرفه ؟ » ..

— « لا .. أنا بصراحة جاى أعرض عليكى عرض ياريت تقبليه » .

— « خير يا حاج » ..

— « تعال نتزوج » ..

— « ايه ؟ » ..

— « نتزوج » ..

— « ولكننى متزوجة كما تعلم » ..

— « نطلقك منه » ..

— « كيف ؟ » ..

— « بأى شكل .. بكل وسـيلة .. أنا أعرف ازاى أرغمه على الطلاق » ..

— « مفيش داعى يا حاج .. بلاش » ..

— « كحكوح أنا عارف داؤه .. الفلوس .. الفلوس داؤه ودواه » ..

راقبت صاحبتى جيدا فى هذه اللحظة . رأيت الشمس تطلع فى عينيها لبرهة وجيزة ثم يسدل عليها ستار الجفون . ثم كان الصقيع

قد حل فجأة باختفاء الشمس ، اذ أسندت صــاحبتي رأسها على كفها وغابت في شرود طويل • لم أكن في حاجة لأن أقرأ على صفحة وجهها ما يدور في خاطرها ، انما أستطيع السباحة في خواطرها •• أراهــا تسرح الآن بخيالها الشفيف ، السفينة التي تركبها ترسو بها أخيرا الى شاطىء النعيم والأمان ، الفراغ اللانهائي انفسح في دماغها فجأة ، تتسع مساحاته كمحيطات كانت متراكمــة داخل نفسهــا من سنوات الفراغ والجدب والجفاف ، الفراغ بحر لجي هائل ، على البعد أمواج تتلاطم في عنف وتنذر بالخطر ، لكن واديا من الأشجار الخضراء المحملة بالزهور والثمار والعطر يقبل نحو السفينة ، زهور أخرى من الأضواء تكشف عن قصر زاخر وحدائق تحفل بالأبقار والجواميس والماعز والأغنام ، رجــال ومحاريث ، وعربة من معرض قصر النيل تقف في الانتظار •• الشحات لا يزال رغم ما يلقيه في جسده من سموم يتمتع بكامل الشباب والقوة . يأكل في الطقة الواحدة ديكا روميا وبجواره طبق بيض وكبد وفواتح للشهية ، يحلي بصينية بسبوسة ينهض بها وحده •• تسأل نفسها خوف توقع السراب : أمعقول أن يكون قد أحبها مثلما أحبته ؟ أمعقول أن يكون قد ظل طوال هذه السنين يفكر فيها حتى لم يعد قادرا على الانتظار فجاء يطلب يدها من يدها وهو يعلم ان رقبتها في يد شخص موتور لا يرجى من ورائه أي خير •

زحت ازار بعنف هادىء أو بهــدوء عنيف لأوقف أبا شافية عند حده ، اذ رأيته يتحفز للتقدم نحو صــاحبتي التي بدا أنها غابت عن الوعي تماما • الملعون نهض بالفعل غير عابىء بزئيري وتقدم عن ثبات فجلس على الكنبة بجوارها ووضع يده على ظهرها في رفق قائلا وقد ارتعش صوته : « وحدي الله •• مالك » • لم تتحرك صاحبتي من مكانها • هو أيضا كان يريد ان يربت على كتفها عدة مرات لكن يده توقفت ثم استرخت بجواره ثم انه غرق في صمت عميق تهدلت له ملامحه ، واعتلاها شعور بالخجل والخيبة شديدين • بعد برهة رفع وجهه تجاه صاحبتي

وقال بلهجة فيها التقديس كله كأنما يخاطب آلهة الأحـــلام : « ست وديعة ‥ ست وديعة » ٠

لو كان جبلا لاهتز من هــذه النبرة وهــذه الضراعة ٠ فما بالكم بصـــاحبتى وهى أرق من الرقة ٠ قالت له من خلال شرود وتهدج : « نعمين يا حاج ؟ » ٠ أخرج طرف لسانه ومرره على شفتيه الجافتين ثم حاول ابتلاع ريقه فلم يجد سوى عصـــا صـــلبة تقف فى حلقه : « أنا طلبت منك طلب محدد ‥ أرجوكى يا ست وديعة ‥ ردى عليه بجواب محدد » ٠ تنهدت صاحبتى فارتفعت أنا معها عن الأرض وهبطت ثانية على أحر من الجمر ٠ صار أبو شافية ينقر بفص الخاتم الزواج ‥ موافقة ولا مش موافقة ؟ » ، ثم تعلقت عيناه بشفتيها وهو يلهث ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم نيابة عنها ٠ كنت أعرف بسيدتى منها ومنه ٠ سيدتى ليست تصدق مطلقا ان طاقة القدر يمكن أن تنفتح بهذه السهولة الخارقة اليست تصدق انها فى اليوم الذى لجأت الى الجواهرجى لتبيع خاتمها العزيز لتأكل منه جاءها البشير بأنها تنتقل من وجع الدماغ الأزلى والضنك المستحكم والعذاب والشجار الذى لا ينتهى الى زوجة للشحات تصبح ملكة متوجة على عرش هذه الأموال كلها ؟ ‥

قالت أخيرا : « موافقة طبعا بس » هكذا أطلقتها ٠ من لى بكلمات تصور الهدوء العظيم الذى أغرق أبا شافية وذلك الشرود المنذهل الذى حط على صاحبتى ؟ لكن صفحة الهدوء تشابهت مع صفة الذهول فى ان ثمة شموس أضاءت خلفهما فكان كلاهما يرى نفس الحلم المتلألىء بالبكارة يتحقق فى لمحة ٠

فى هذه اللحظة ارتعدت فرائصى وانتفضت ، اذ رأيت وجه صاحبى كحكوح يطل من شباك فى الحجرة مطل بدوره على المنور ٠ أجزم أنها لم تكن أول طلة ، اذ ان بدنى قد اقشعر عــدة مرات لبرهة سريعة ٠ لكنه ما ان رآنى فى مواجهته حتى اختفى وجهه فى الحال قبل ان أنبه الى وجوده ٠ أعرف كيف صعد من المنور الى شباك الشقة فى الدور

الثانى فهو لص قديم محترف • لكننى أعرف أيضا ان رؤيته لكل شىء لا يختلف عن عدم رؤيته لأى شىء فكل شىء فى نظره سواء ، ما ليس سواء حقا هو ما لا يتفق ورغبته الشخصية وما لا يكسب من ورائه لقمة العشاء الهنى •

هكذا صاحبى وأنا أعرفه ، أكبر جبان • ان كنت مثلى قد أعجبتك كلمة رعديد رغم عدم تبين معناها على الوجه الدقيق فان صاحبى يمثل لك معناهــا على الوجه الأدق ، والا فمن غيرى يستطيع الفهم فى هذه المســألة ؟ أليست الرعددة هى الشىء الذى تتعامل به نحن بنو الكلاب الأصلاء مع بنى البشر وبنى الخليقة كلها ؟ ان أول شىء نشمه فى المخلوق هو رائحة الرعددة حتى ولو كانت خلف مظهر جليدى أو برونزى أو نحاسى أو ذهبى أو حجرى كله يستوى عندنا فنحن فى الواقع قد لا نرى من الأصل هذا الهيكل •

رائحته الكريهة لا تزال تنطبع فى أنفى • أفقت على مشهد مروع • لا أدرى ، كيف حدث هذا فى لمح البصر ، ولا كيف انتقل أبو شافية من مكانه أو انتقلت هى من مكانها ، ولا كيف زحف بهما الوجد والاشتياق المعتق فتلاقيا عند الباب على هذا النحو ، حيث التحم الجسدان وصارا جسدا واحدا يلف فى دوامة كما فى الأفلام تمــاما ، كطفلين غريرين كريشة فى مهب ريح كطائرة من ورق احتفت بها الريح المواتية فى قمة سامقة وصار خيطها بلا زمام • أخذتنى الدوامة بدورى فرحت ألف معها أحاول التمييز بين الجسدين وقد تعطر أنفى برائحة هى مزيج من الأنوثة والذكورة فيالها من نشوة يهتز منها الحجر فكيف لا أهتز ؟ •

أخذت أعوى وأحمحم تمجيدا لهذه اللحظة العبقرية ودعوة لاستمرار هذا السموق الى ما لا نهاية • لكن آه من رائحة القلق ، كل الروائح محتملة الا هى تسم البدن والعياذ بالله • عينى على مصدرها بين درفتى الشباك المطل على المنور • وجه صاحبى يهوى فى الفراغ كاختفاء وجه الأراجوز • ثم هوت الطائرة الورقية فى لمح البصر لا أدرى كيف •

ما ان ودع طرفي وجه الأراجوز وارتد متحفزا حتى رأيت الجسدان قد صارا حطاما على الأرض واختلطت الأشلاء ببعضها . قالت صاحبتى كأنها تدرأ خطرا داهما خوف الوقوع فيه وهى الراغبة : « لا زلت فى عصمة زوج وشرفه أمانة .. هو صحيح انسان بلا شرف ولا يؤتمن .. ولكن شرفي أنا يوجعنى ان فرطت فى أمانة استود عينها ذات يوم » . وقال أبو شافية انه لهذا الأمر وحده سوف يخترق اليها كافة الحواجز والحجب مهما كانت صلابتها . ثم جمع نفسه وبقاياه وتهيأ للانصراف والعرق الساخن ينثال فى أنحاء جسده . رمقته هى بنظرة يا الهى خفف على البشر وقع سحرها ، تودعه وتستبقيه فى نفس الوقت ، حزينة حتى النخاع فرحة حتى النخاع . قال انه عائد اليها لا محالة عن قريب ، لكنه لن يعود الا وقد هيأ لها خلاصا تاما من براثن كحكوح .

فى تلك اللحظة كنت أعوى ذلك العواء الحزين الزاعق الذى ان سمعتموه قلتم اننى شاهدت عزرائيل وتشاءمتم بكل ما فى أعماقكم من فزع . ازداد هياجى وغيظى من الجميع . حينئذ طرق الباب عدة طرقات متوالية فانزوى أبو شافية وردت صاحبتى : من ؟ فجاءها صوت آبر خشن : « افتحى يا امرأة » . رايت الدماء تتساقط من صفحة وجهها ككرات حمراء مضيئة انطفأت كنجوم تتهاوى فى الأفق ذابلات . لم تملك صاحبتى الا أن تفتح الباب . فاذا بالحكومة تسد فراغ الباب وتنحدر على السلم . خبطت على صدرها وطار فى الهواء وجهها كزنبقة صفراء ذابلة ، ثم انها شهقت . لكن الضابط ببذلته السوداء وأزرارها اللامعة اندفع داخلا وبصحبته اثنان من أمثاله وخلفهم رهط من المخبرين . قال الضابط : « أين وديعة البصال ؟ » . قالت صاحبتى مثيرة الى نفسها فى حياء : « أنا » . قال الضابط : « أين الشحات خميس الشهير بأبى شافية ؟ » . جاء من ركن قصى صوت عجوز واهن تبينوا فيه كلمة : « أنا يا أفندم » . قال الضابط للمخبرين : « امسكوهما » . وكان الباب قد أغلق وقال الضابط : « أين الصفقة ؟ » . قالت صاحبتى وأبو شافية فى نفس واحد : صفقة ماذا ؟ . قال الضابط وفى عينيه

نظرة خبث ماكرة لن تقبل النزول عن مكرها الحشيش. يا هانم · انتى وأبو شافية مهربين صفقة حشيش فين هى ؟ » صاح كل منهما وهو ينظر فى عين الآخر بتشكك وحيرة : « صفقة ؟ حشيش ؟ » · فأمر الضابط بالتفتيش وتقدم نحو حجرة النوم فدخلها · رفع دائر السرير الحريرى ونظر تحت السرير منحنيا الى أقصى درجة ثم رفع رأسه وصاح : « تعال يأبو شافية طلع الشنطة دى » · فانحنى أبو شافية وسحب من تحت السرير حقيبة كبيرة ثقيلة أشبه بصندوق مستطيل · وهنا انبسطت أسارير صاحبتى وقالت ساخرة : « هىء ·· انها حقيبة الخردة نضع فيها أشياء لا نحتاجها ·· حتى افتحوها ·· لن تجدوا سوى كراكيب وأحذية قديمة وخلافه ·· أنا واثقة ·· ها هى » · ثم تقدمت بكل ثقة وفتحتها ثم شهقت ، فقد كان فى الحقيبة جوال من البلاستيك السميك المغطى بجلباب قديم أمسكت به صائحة : « الفستان الذى اتهمنا بنت الجيران بسرقته » ، ثم فتحت الجوال فوجدت اسطوانات الحشيش ، صاح الضابط : « مبروك » ·· حينئذ اندفع أبو شافية يصرخ من أعماقه مؤكدا انه « مالوش دعوه » وانه تاب من سنوات طويلة فى حين تبكى صـــاحبتى منهارة مولولة مؤكدة ان الكلب زوجها هو الذى دبر هذه الوكسة لكنهما حين امتثلا لوضع اليد فى الكلبشات لم يكن قد بقى فى جسديهما أى روح ·

— ٢ —

أما روح أبى شافية فانهـــا لازمته ثلاث سنين فى الزنازين قبل ان ترحمه من العذاب وتغادره الى غير رجعة · واما روح صاحبتى فانها لا تزال ترافقها فى سجنها وتسقيها مر العذاب · هل يتصور أحد ان أبا شافية كان من الممكن أن يدفن فى مدافن الصــدقة لولا صـــاحبى كحكوح ؟ ·· نعم لقد بدا يومها رجلا غاية فى الشهامة حين استقبل جثمان أبى شافية وزفه الى مثواه الأخير زفة لائقة بعد أن جهز قبرا بجوار

قبور الوجهاء شهد الجميع بفخامته كما شهدوا بهول الجناز ، وتوجه له بعضهم بالدعاء • ذلك ان صاحبى كحكوح كان ـ بسبب ما قد حدث ـ قد استرد سطوته وسلطانه وأصبح أغنى من ملك وأقوى من ذى جاه وأشطر من ذى مركز وأحقر من جرذ وأوسخ من حشرة •

ـ ٣ ـ

السذج وحدهم هم الذين يندهشون من هذا • وأكثرهم سذاجة من يتشدقون بكيف ويطالبون بمعرفة الحقيقة دون ان يخوضوا بأنفسهم غمار البحث عنها فى واقعهم ، وكأنما الحقيقة مجرد سلعة غير متوفرة فى الدكاكين • الحقيقة ان عالم المخدرات لا يعرف المنطق والانسانية ولا أى قانون متعارف عليه • ومهما استغرب المستغربون وتشدق المتشدقون فان ما حدث يحدث كل لحظة ويستوعبه الواقع دون ان تهتز فيه شعرة واحدة •

ـ ٤ ـ

ما ان زج بصاحبتى وأبى شافية فى السجن حتى كان هو القائم بأمره فى مملكة « البتعة » يستلب منها الأموال على ذمة المحامين والقضاة والضباط والكتبة ، وهى من فرط عجزها عن الرفض تعطى بوهم الأمل فى نجاة أبو شافية وان كانت واثقة من غدر كحكوح ووساخته رغم انه أوهمها بما يقرب من الاقناع انه هو شخصيا برىء من تهمة تدبير الواقعة وان أبا شافية كان بالفعل يقوم بالتهريب لحسابه الخاص من وراء ظهرها مستغلا طيبة زوجته وديعة • صاحبى كحكوح كالسوس ينخر فى عظام النفس مهما كانت صلبة فيخترقها ويتلفها ـ ولو ان أحدا مازح البتعة مجرد مزاح مذكر آياها بأنها ذات يوم ستكون تحت سيطرة كحكوح

فانها على الأقل ستقطع علاقتها بهذا الأحـد . كحكوح ؟ .. لم يبق الا كحكوح .. سلامات يا كحكوح .. فما بالها الآن وقد أصبحت تحت سيطرته بالفعل خاصة بعد موت زوجها فى السجن ولم يعد لها أحد يعاونها فى حماية هذه الثروة الهائلة وانقاذها من التبعثر ، حتى أمام جابر مالت ، كذلك مات زوج ابنتها وزملاؤه فى حرب الانتصار المجيد ..

ـ ٥ ـ

ولكن أى ثروة ؟ . لقد صـودر معظمها ولم يبق منها سـوى ما تمكنت ـ بفضل كحكوح والحق يقال ـ من تهريبه ومنازعة الحكومة على بعضه . يكفى معرض السيارات ومعرض العاديات .

ضربت المسكينة أخماسا فى أسداس وجمعت فى دماغها ناسا على ناس وطرحت ناسا من ناس ، وضربت ظروفا فى ظروف فكانت النتيجة النهائية ان لا مفر من قبول الزواج ـ مرغمة وأنفها فى الرغام ـ من كحكوح .

كان يبالغ فى تدليلها والتقرب اليها ولثم قدميها بشكل أذهلها . وكان جنونه الجنسى الأخرق يذكرها بأيام الصبا اللذيذة التى ـ رغم جمالها الفتان ـ لم تتمتع بها كما ينبغى . كان اهتمامه بها وانصرافه التام الى مزاجه واليها قد عوضها عن اهمال أبو شافية لها فى سنوات العز الأخيرة ـ لكنها مع ذلك لم تكن تحتمل مرارته ، ولم تكن تستطيع نسيان دوزه القذر فى كل ما حدث ، لكن ما جعلها تحتمله انه كشف لها عن ممتلكات لا حصر لها كان يمتلكها زوجها دون أن تعرف عنها أى شىء مخازن فى حوارى بعيدة وبضائع كبيرة لدى ناس فى الأقاليم وقروض وسلفيات لدى فلان وعلان كان المرحوم يحدثه عنها كثيرا لحظة قيامهما بالشم معا .

باب الفتوح

● حضرة صاحب السيادة : الكلب الأجنبي

— ١ —

آه من ذلتي يوم اختفاء صاحبتي • لقد تشردت وراءها اسابيع طويلة حتى اختفت رائحتها تماما • ثم انني تسكعت في الشوارع بحثا عمن يلمني فلم أجد أحدا • بل انني أفقت على حقيقة غريبة شرسة لم أكن متنبها اليها من قبل أبدا ، تلك هي انتشار أنواع وفصائل أخرى من الكلاب النظيفة المهيبة ذات الأسماء الرنانة ، تمشي خلف أصحابها في تعاظم كأنها ملوك هذه الأرض ، تتبختر في السلاسل المعدنية الثمينة يجرها أشكال وألوان من بني البشر والكلاب تبدو أكثر نظافة وأكثر جمالا بل وأكثر تحضرا منهم ، لست متعصبا لبني جنسي ، أبدا وحق الله ولكن هذه الفصائل من بني جنسي ، تحكمها على الأقل قيم سلوكية عظيمة ندر ان تجدها بين البشر •• أهناك دليل على هذا أكثر من ان هؤلاء الذين أراهم قد طلعوا في اقتناء الكلاب الأجنبية أصبحوا يعملون خدما لدى هذه الكلاب ؟ أجزم ان الواحد منهم أحوج الى قطعة لحم يتبلغ بها أولاده بينما هو يتفاخر عند الجزار بشراء هذا اللحم للكلب ، والواحد منهم يستخسر الجنيه في نفسه وأولاده ومع ذلك يدفع عشر أمثاله لمن يسمونه بالمدرب ومثلها لمن ينظفه ومثلها لمن يطببه في حين انه ربما تكاسل عن الذهاب الى الطبيب ليعالج نفسه أو أسرته

حضرة صاحب السيادة الكلب الأجنبى قد صار يتربع الآن فى عظمة على كافة العروش ، وتلمح تأففه وتقززه من وساخة المكان الذى كتب عليه ان يعيش فيه بعد ردهات القصور والحدائق الغناء .

لكنه الجبن الأصيل . لا يقتنى شرس الكلاب سوى أضائل الجبناء . أجزم ان بني جنسى من الوولف والسلوق وغيره يحسون بمدى الانحدار الذى وصلت اليه مراكزهم فهم مثل بنى البشر يتحدد سعرهم وأقدارهم في الحياة بقدر ادراكهم لحقيقة أنفسهم ، وأول ما يدركونه عن حقيقتهم انهم خلقوا للقيام بأدوار هائلة لا لمجرد الزينة واكمال مظهر الأبهة ، خلقوا لاصطياد الوحوش والفرائس الضالة واقتفاء أثر المجرمين والقبض عليهم ، لحراسة القصور من أمثال هؤلاء الأسياد الجدد يجلس على عرشها قيصر هو الآخر وملك فوق الملك ، أرقى اللحوم وأرقى المياه وأرقى شفاء ، وفوق ذلك لغة يتعاملون بها ، انهم - ولا أقول انها - لا يضيعون وقتهم فى حشو اللغات ورطانة اللهجات وجليطة العجماوات بل انهم لا يتعاملون الا بالشفرة ، ربما كانوا هم أساتذة الشفرة نقلها عنهم بنو البشر ، من ليس فى مستوى ذكائهم يفرضون عليه - فهم الأقوى - لغتهم فيتعلمونها ويستأجرون من يعلمهم اياها وهم ليسوا فقط صاغرين بل ومتفاخرين بأنهم أجادوا التحدث معنا والتفاهم معنا بلغتنا الخاصة ، أبدا لم يخلق هذا الصنف الراقى من بنى جنسى لكى يتشرد هكذا فى الشوارع ، دعك من نزول مستوى الحياة ، دعك من شقاء الكلاب طول النهار وما يبذلونه من جهود ومناورات وتكتيكات كلما انتقل بهم أصحابهم الى مكان جديد أو بقعة جديدة وما أكثر ما يتنقلون بداع وبدون داع ، بل ربما أمضى الكلب منهم يومه كله فى هزار سمج سخيف مع أولاد خشنين وجيران وأقارب يجأرون بالضحك فى بلاهة يشمئز منها ابن جنسى .

دعك من كل هذا وانظر الى حسرة الكلب وهو يرى قيمته وقد أهدرت وكفاءاته وقدراته العليا عطلت وأعضاءه من سوء التغذية والجو والبيئة قد هزلت وتضعضعت ونفسيته الصافية من طول الكدر والسأم

قد دمرت وجنسيته من فرط الهزء والاختلاط بالأوباش قد انحطت ٠٠ فكلب عظيم النسل مهيب يضاجع كلبة جرباء سنكوحة وأخرى ثمينة تضاجع عجوزا مريضا ٠٠ انهم على وشك ان يصيروا مثلنا جيفا تحرس جيفا ٠

ـ ٢ ـ

العشرة بالنسبة لنا خيوط غير مرئية ، حتى نحن لا نراها رغم أننا تفردنا فى نظركم دون كافة المخلوقات برؤية عزرائيل ٠ يقسو علينا الصحاب مر القسوة لكننا سرعان ما ننسى ونهب لدى أى مكروه يصيبهم ٠ أبدا ما كان لمسألة الأكل والشرب والايواء دخلا فى حفظنا للعشرة أو فى طلبنا لها ، فقطعة عظم ترضينا وقد نكون حراسا على أطنان لحم ولعق زلطة يبل ريقنا ، وكافة الأرض مباحة لايوائنا ٠ وربما لهذه الأخيرة فقد نضرب المثل بأنفسنا فى المواطنة ، اذ ليس فى الدنيا مواطن فى عمق مواطنة الكلب ، ذلك أن غزو مربطه أمر دونه ــ كما تقولون فى أشعاركم القديمة ــ خرط القتاد ٠

عفوا ، أسمعكم تستخدمون جنسنا عند الشتم وتصفون بنا حقراءكم ٠٠ كذبتم والله ، وما يشهد بكذبكم سواكم ، وان شئتم دليلا على ذلك فهاكم بقية حكايتى ٠٠

ـ ٣ ـ

فيما كنت أتسكع ضائعا فى حوارى المنطقة التى استوطنتها فوجئت بأحد البكوات يمشى منفوخ الصدر وان كان بلا صدر ، مرتفع الهامة وان كان بلا هامة رشيق القوام وان كان بلا قوام ــ أقصد أن سعادة البيك الذى رأيته يسير هكذا يحاول اظهار نفسه على هذه الصورة

وليس فيه سوى ثياب فاخرة : جلباب من الصوف المفتخر وعباءة من الجوخ وحذاء مستورد وعمامة بشال من الحرير الخالص وعطر ونفاذ ٠ لكن كل ذلك لم يخفي رائحته الحقيقية ، فعرفت دون حاجة الى اثباتات أخرى أنه صاحبي (كحكوح) وقد لبس بعد الضنى حريرا في حرير ٠

لم أندهش مطلقا ، فصاحبي يستطيع أن يفعل ما يشاء في هذه البلاد دون أن يكون لديه من مقومات الفعل سوى ثمن المسئولية ، فبالنقود يجد دائما من يدافع أو من ينافق أو من يتغافل أو من ليس موهوبا سوى في القبض ٠ ظللت ألهث وراءه حتى حاذيته ونظرت في وجهه ورحت أطوح ذيلي بنشوة وأتراقص ، وهو ينظر لي باسما في تشف أو حقد لست أدري ، لكنه تركني أسير ، حتى رأيته يدخل شقة « البتعة » ، فتجرأت ودخلت وراءه فاذا بحضرة صاحب السعادة الكلب الأجنبي يفزع نابحا في وجهي حتى ضعفت قواي وتلاشت من الرعب مع أنه كان مربوطا في جنزير من الفضة ٠٠

أخذ صاحبي و « البتعة » يضحكان من رعبي ويشجعانه على فينهشني ويمزق أنفي ووجهي بأظافره ، وكنت أكتفي بالعواء الواهن والصوات المتوجع ٠ اننا معشر الكلاب مثلكم لا نخاف من شيء في الدنيا قدر خوفنا من بني جنسنا الأقوى منا جسدا أو شكلا أو استنارة ٠ وهكذا لم ينقذني من خوفي سوى « البتعة » حيث أوصته بي خيرا وراحت تقذف له بالشيكولاته في فمه ٠ مع ذلك ظللت أرتعش وأنا أتابعه يرتع في فراغ الشقة رائحا غاديا في هرولة متبخترة واثقة متعالية ، كذلك أتابع (كحكوح) والبتعة وهما يتابعانه في بلاهة منبهرة ٠

كنت قد أحسست براحة عظيمة اذ توصلت أخيرا الى صاحبي (كحكوح) ، فالواحد منا لا يحس بوجوده الحقيقي الا في الزمن الذى يكون فيه مسئولا عن شيء ، نعم لابد أن يكون هناك ما أحرسه أو أدافع عنه أو أهوهو لحسابه أو أعطيه الونس ٠٠

على أن صاحبى كحكوح وهو نذل كما تعلمون وزوجته البتعة وهى رقيقة كما تعلمون أيضا ، لم يسمحا لى بالانتظار · صاحت البتعة فى أن أنصرف ، فسقت اللكاعة طويلا ، فصرخ كحكوح فيما يفتح لى الباب : « بره » ، فانكمشت على نفسى وتمسحت فى قدميه لكنه صاح مناديا حضرة صاحب السيادة فجاء يجرى كالفهد ، وكنت أظنه مثلنا يقوم بالتهويش حيث لن يهون عليه لحمى يمزقه ، فاذا بظنى هذا وهم واذا بابن جنسى ينزع من عنقى هبرة كبيرة خلفت فى عاهة مستديمة ·

نزلت أعوى ولم يعطنى الألم فرصة للعدو فمكثت تحت المسلم طويلا لا نصير لى ولا عائل · فلما التأم جرحى تبينت أن ألفة قامت بينى وبين المكان فظظلت لا أبرحه · وكنت قد تأكدت من أننى لكى يسمح لى باللجوء الى هذا المكان فان على أن أصير بدورى حارسا وخادما لصاحب السيادة الكلب الأجنبى · فمع أن سيادته لم يكن محتاجا لأى حراسة بل انه كان أفخم بكثير من حراسه وأوقع للرعب فى القلوب منهم ، الا أن وفدا من الخدم كان يصر دائما على مرافقته ولو بحجة الفرجة · ولأنهم ورثوا مشاعر الخدم وسلوكهم فان وجهاءهم كانوا أسرع من فقرائهم فى اظهار التملق للكلب وابداء الرغبة فى الخدمة ·· حتى أنا كنت أهرول خلفه وأتقافز متحمسا بالغ الحماس كأننى أشارك فى زفة عريس أو فى بيع تحفة نادرة ·

– ٤ –

يعود كحكوح فى كل ليلة يتطوح ، حتى أن فوانيس السيارة المرسيدس التمساحة تصنع مقشة من الضوء فى يد طفل لا تكاد ترميها يمينا حتى تردها يسارا ··

اذ يطفىء الأنوار ويوقف المحرك ويهبط ضاربا الباب خلف ظهره فى عنف لا مبال يقف ملقيا نظرة لا مبالية أيضا على السيارة فيجد أنها

غير منضبطة فى ركنتها ، ويرى أن مؤخرتها لو حاذت الحائط قليلا لأصبح الشارع سالكا يسمح بمرور عربة مثلها ، لكن ذلك يقتضيه مجهودا ٠ انه بالكاد يستطيع أن يقود السيارة فى شوارع العاصمة ، وبهلوانية عظيمة منه أن يدخل بها مجرد الدخول الى هذه الحارة فكيف يركن على الشعرة وما الى ذلك ٠

يعرف أن عشرات من السائقين والراجلين والمحملين سوف يتوقفون عند سيارته حائرين لا يعرفون كيف يمرون ٠ ويعرف كذلك أن شيئا لن يحدث على الاطلاق حتى لو انسد الشارع تماما ، حتى مجرد اللعنات ، حتى البرطمة ، حتى مجرد الشعور بالاشمئزاز ، حتى مجرد الاحساس بأن هذا خطأ ، أى شىء من ذلك لن يحدث مطلقا بل على العكس ربما تطوع واحد أو اثنين أو ثلاثة فعدلوا سيارته فى وقفتها كيفما اتفق ، وان عجزوا عن معالجتها فسوف يعالجون وضعهم هم ٠ يعرف كذلك أن كل التناقضات تتدفق فى شوارع هذه البلاد فى نفس اللحظة وتتعايش وتتكيف بل وتتآلف بشكل مذهل حتى لتصير عائلة متماسكة بمونة من أسمنت عجيب هو مزيج أعجب من الأخلاقيات واللاأخلاقيات ، من الكرم والخسة ، من البشاعة والسلاسة من الدمامة والجمال من المرارة والعذوبة من الصبر وعدم الاحتمال ٠٠ يعرف هذا الفيلسوف أن الجاهل الفيلسوف ان الشعب الأزرقى قد أصبح هكذا لأنه فاق الحد فى قدرته على تجاوز المشكلة وليس على حلها ٠٠

فى الظهيرة وهو قائم يحشش فى بلكون الحجرة المطلة على الشارع يسمع ويرى من خصائص الشرفة كيف يختنق الشارع كله والمنطقة كلها بسبب الحارة التى تصب فى الشارع ويصب فيها والتى اختنقت بالسيارة التمساحة ، ومع ذلك يقول للولد الذى يسقيه : « أسرع بعشر حجارة أخرى حتى أنزل وأفتح لهم الشارع » ٠ ومهما أسرع الولد فان اصطباحة المعلم كحكوح لن تنتهى قبل الثالثة ظهرا ٠ ينزل بعدها لعمل مشوار أو مشوارين لدى أحد المهربين أو التجار أو أحد أقسام البوليس ، ثم

يعود ليطبق في صدر الديك الرومى أو ذكر البط و الجدى الصغيرى المشبوى ٠

في الجيران رءوس كبيرة وعالية المقـــام لو سلمنا بالمنطق المفهوم للعقلاء ، وكلاء وزارات ، صحفيون ، مهندسون ، أطباء ، مشخصـون وكتاب ، رجال من ذوى الرسمال المعتق فى الكتمان ، تجار فول وطعمية وأعلاف يملكون العمارات فى ضـــواح بعيدة ، سماسرة وعربجية ٠ تشكيلة عجيبة من السكان تحفل بها الحارة ولكن رأس كحكوح هى الأعلى وكلمته هي الأنفذ ورغبته هي القائمة ٠ فالأمر فى هذه البلاد ليس لمن في يده الأمر ، انما الأمر لمن في يده النقود الكبيرة ، خذها حقيقة مسلما بها من كلب حكيم مثلى ٠

لا تنزعجوا يا أهل الدراما فلست براو للأحداث فحسب ، ورويدكم يا نقاد فانما أنا معنى بالحديث عن بنى الأزرق قدر ما أنا معنى بعرض سيرتهم ٠ ولذا أقول بأن تأريخهم عهود وفترات وحقب منفصلة لا يربطها سوى الشقاء ، ومصدر البلاء كله ما استقر فى أرض الوجدان من بذور البذل والبر ، الأمر دائما معسكران حكام ومحكومون ، ولأن المعسكر الأول يعيش دوره حتى النخاع فان المعسكر الثانى هو الآخر يعيش دوره حتى النخاع ، ولا معابر بين الاثنين سوى ما يلخصه المثل العتيق الشائع الدائم دوام الأبد فى هذه الربوع : « اللى تعرف ديته اقتله » ، وحكمة المثل أن لا شيء فى الدنيا بلا ثمن وما دمت تملك ثمن الشيء فادفعه دون تسويف تنج بنفسك وحياتك : ولهذا فبنو الأزرق يمجدون الرسمال بصرف النظر عن مصدره ويرفعون قدر أهله بصرف النظر عن أصولهم وجوهرهم ٠ في مجتمع كهذا يصبح كحكوح حاكما بأمره ٠ جميعهم يرى كل شيء لكنه يلغى من ذهنه كيفية استجلاب المال ولا يتذكر الا صيرورة حال ذوى الأموال ٠

آه لو ترون كيف تسير « البتعة » بضع خطوات فى الحارة لتصل الى باب السيارة أو باب البيت ٠ تنفتح كل الشبابيك وتبصبص العيون

للفرو المنطرح على كتفيهـا ووهج الذهب المنتشر على صدرهـا وأذنيهـا وذراعيها ورائحة العطور النفاذة التى يقولون أن الزجاجة منهـا بألف دولار ، وتتناقل الشفاه من نافذة لبلونة ومن بلكونة لمنور ومن منـور لسطوح هامسة بأن « البتعة » ـ المضروبة ـ لا تزال صبية وصاحبة أرفع خصر ، وانها رغم ثرائها تجيئها كل هذه الملبوسات الفاخرة ذات الأذواق الملوكية هدايا من الأمراء والشيوخ ورجال المال الذين تعرفهم وتورد لهم الحب والليل الساهر البهيج • قد يظهر بعض الحقد على بعض الوجوه المتعالية أو بعض الاشمئناط في الشفاه الممرورة ، ولكن الحظ منهم من اذا توقفت عنده الحاجة « بتعة » فهزت له رأسها بعواف أو تمسى بالخير ، يا لها من فرحة تلك التى يرد بها ، مهما كان أفنديا محترما أو مثقفا فانه قد يعقب على رد التحية بمزيد من المجاملات والدعوات •

عجبت لهـا هى الأخرى تقترف الاثم وتفعل الثواب معـا وبنفس القوة • تتاجر فى الحرام وتنشر الممنوع ، وتحج كل عام ، وتنفق عن سعة فى سبيل الله ، صدقات ومرتبات سرية لرجال محترمين ، حفلات قرآن وزار ومداحين وموالدية ، هذه ليلة لأهل الله ، وتلك فى رحاب السيدة وثالثة تقربا للحسين ورابعة على شرف لا أدرى وخامسة تأييدا لمرشح المنطقة . ومهما تنفق فى هذه الحفلات من أموال باهظة فان ما يدخل اليها يصل الى عشرات الأمثال اذ أن رجالها يقومون بمزاولة نشاطهم الحقيقى وراء هذه المظاهر البريئة ، وأخطر الصفقات وأحلاها ما جاء فى حفل تحرسه عشرات المظاهر والنفوس الفرحة •• ويد البتعة التى شبعت من تقبيل الشفاه اللاهثة المحمومة شبعت كذلك من تقبيل الشفاة الممتنة الشاكرة •

ـ ٥ ـ

لم يكن أحد ليتصور أن البتعة يمكن أن يصيبها العجز أو الشيخوخة أبدا ، فعشرات الأطباء تحت أمرها فى كل لحظة مع خبيرات التجميل •

لكن العيون لاحظت أن صحة البتعة فى النازل . الا أن موظفا فى هيئة التأمينات يسكن فى الحارة ويدمن قراءة الجرائد عرف أن أموال الحاجة بتعة قد وضعت تحت الحراسة ، بأمر من المدعى العام الاشتراكى .. فكانت فرصة لأن يعرف الجميع مقدار ثروتها ، وكانوا رغم فداحة المبلغ يفتحون أفواههم صائحين فى بلاهة : « بس ؟ » ، ثم يتبعونها منبهرين : « يا ٥٠٠٠ دا مبلغ كبير قوى » . فلما تابعت الجرائد أخبار الموضوعين تحت الحراسة من تجار المخدرات تيقن الجميع أن البتعة لن تقوم لها قائمة .

ما أذهل الجميع أن قاضى تيابة الاشتباه ، أو محكمة القيم لا أذكر ، قد أفرج عن أموال البتعة . هكذا نشرت الجرائد والناس عادة يحتفظون بالجرائد ليس لحدث تاريخى هام بل لمناسبة كهذه . وهكذا قرأ أهل الحارة الخبر ودققوا فى الحروف عدة مرات واقتنعوا أن حيثيات القاضى قانونية تماما لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ! وعلى الرغم من ذلك ظهرت البتعة فى نظرى مهمومة وليست على ما يرام !!

— ٦ —

سعيت أتمسح بين قدميها كأننى أقــول لهــا : « مالك فيه ايه مزعلك ؟ » . لكنها لم تكن تحس بوجودى ، انما كانت تربت على ظهر الكلب الأجنبى قائلة : « لم يعد سواك مخلصا أمينا لى » . وكان الكلب الملعون بقوامه الأهيف يشب واضعا ذراعيه على كتفيها كأنه يهم بتقبيلها فاذا هى تحوط عنقه بذراعيها ماسحة رأسها ورقبتها فى عنقه ورأسه وبنشوة بالغة تزحف كفاها على جذعه الناعم القطيفى . وكانت تبكى ملء المآقى ، وصاحب السعادة الكلب « ميشو » يشعر بالسأم والملل من البكاء ويتركها ويذهب الى بعيد ثم يجلس مريحا خده على أماميتيه .

قامت هى الى المطبخ وقمت أأنا الى ميشو · تمسحت به ثم داعبته بيوزى فى كتفيه على استحياء وحذر · فنظر الى فصحت به فى غبطة : « هنيا لك يا عم » ، فأزاحنى ببوزه المستطيل بدفعة رمت بى الى بعيد ، فاعتبرتها مداعبة ودية وعدت اليه هامسا فى مسكنة : « ما الذى حل بسيدتى ؟ » · هو مثل كل من يوضع فى صف المستنيرين من الجنس الأرقى لا يحب كثرة الكلام ، فزومة واحدة أو زومتين ، وبنظرة ذكية ، غمزة لبقة أفهمنى أن النذل كحكوح قد خانها فى طفلة صغيرة على سريرها هى وأنها من طيبة قلبها سامحته فاذا به أول أمس يعزم أحد كبار رجال الأعمال على الغداء تتقدمه من رجال الأعمال هدية بسيطة تساوى مئات الآلاف من الدلارات ، فأقامت المعلمة عزومة هائلة لكنها فى النهاية فوجئت بأن الترى الكبير ينتظرها على سرير نومها · فكيف أيها الكحكوح الحقير ؟ أتشتغل قوادا على زوجتك صاحبة الفضـــل العظيم ؟ ·· هكذا راحت المعلمة تنشال وتنحط وتدمر كل ما تطوله يدها · وكانت تقصد تدمير رأس كحكوح لكنه زاغ منها بمهارة ··

هذه هى الحكاية اذن ؟ أى نعم ولها الحق فى ثورتها كما تعلم · هكذا رد صاحب السعادة الكلب ميشو بهزة من رأسه ، وكشأن الكلاب المستنيرة من الجنس الأرقى همس فى أذنى معلقا بقوله : « صحيح ان سيدتك لا مانع لديها من النوم تحت هــذا الثرى الكبير ولكن ما أثار جنونها هو أن يكون ذلك عن طريق كحكوح بنفسه » · قلت له : « هكذا طرد كحكوح من الجنة » · قال : « وطرد معه الثرى الكبير شر طردة » ·

ثم استأنف صـــاحب السعادة وقد أنس الى فقال انها فى اليوم التالى ثابت الى رشدها وأدركت مدى فداحة غلطتها ، وظلت تسأل نفسها فى ضيق واشمئزاز : كيف عاملت هذا الثرى الكبير بهذه المعاملة القاسية رغم أنه جاملها بهدية تساوى عمر مدينة بكاملها من مدن بنى الأزرق ؟ ان هديته لجديرة بالاحترام حتى ولو كان وراءها غرض ! ما الغرض يعنى ؟ مضاجعة ليلة أو بضع ليال ؟ لقد سبق لها أن ضاجعت أصيع مخلوقات الله بلا ثمن بل كانت تدفع الثمن ·· رجل كهذا لم يكن ينبغى

أن تخسره بهذا الحمق ، وقد كان هناك حلولا كثيرة للانفلات من مأزق المضاجعة غير الذى فعلت خاصة وأنها خير من يخلص من مأزق كهذا دون أن تترك أثرا من الغضب على الطرف الآخر ..

ثم ان قلب سيدتك ـ يقول صاحب السعادة ـ خفق بشدة وكاد يسقط فى ساقيها وهى تستعيد صورة الثرى الكبير لحظة دخولها عليه . دهشت لحظتها حين دخلت حجرة النوم لتحضر أشياء من درج التسريحة ففوجئت به فى مرآة التسريحة يجلس على كرسى بجوار السرير متخففا من بعض ثيابه ، فتجاهلته وصارت تعبث فى درج التسريحة ولكن عيناها عليه من طرف خفى فاذا به يفتح فمه من فرط الدهشة والذهول والشبق بل والتحفز ، حتى خيل اليها أنه سيندفع نحوها وينقض عليها لتما وتقبيلا بل وتمزيقا ، ولولا رعشة واضحة تملكته لخافت منه وفرت هاربة . على أن ذلك نفسه كان مثيرا للدهشة على أى حال ، فأطالت من البحث فى الأدراج عامدة الى التمعن فى عينيه فوجدت أن شررا أحمرا كان يتطاير منهما وآب الى سحابة من الدموع جافة وقاسية قسوة تمتد صلابتها فى وجنتين بارزتين وفك مستطيل مطبق على أسرار كثيفة غامضة ، وما بين الفك والوجنتين ظلال لا تدرى ان كانت لشـــعور بالقهر أم بالفروسية أم بالصبر الحكيم .. وجه من عشرات الوجوه المألوفة لديها من مئات الآلاف الذين قابلتهم فى مشوار حياتها ، يلبس فاخر الثياب وأغلاها تقول من بعيد انها من أكبر محلات لندن وباريس ، أكبر دليل على عراقته فى الثراء تهدل مظهره وخشونة الجسد المستور بالثياب ، نفس مظهر الباشوات القدامى حيث كانت مثل هذه الملاحظات لا تلغى أنه باشا ابن باشا ليكن فى الأصل من بيئة ضالة شقية ولكن أصلك وقتك كما يقول المثل الحكيم الشائع ..

واذ هى تستدير لحظتها لتخرج من حجرة النوم يائسة من العثور على ما كانت تبحث عنه ناداها برجفة نابعـة من فؤاد مكلوم : « بتعة هانم .. من فضلك يا بتعة هانم » . استشعرت فى صوته نبرة كريهة

تشعر بها البغي العريقة اذ ينثال في هذه اللهجة رجاء رخيص . فصاحت مشمأنطة متعالية : (لحظة واحدة من فضلك) ، ثم خطت ، فلاحقها صوته في شبق متعجل : « بس ماتغيبيش على والنبى » ، فاستدارت اليه عاقدة ما بين حاجبيها في قرف لا يتناسب مطلقا مع حجم العزومة أو حجم الهدية صرخت فيه كأنها تلعن أباه : « ايه ده .. فيه ايه » . قال الثرى الكبير بجرأة وصفاقة : « ده كلام برضه مش عارفه فيه ايه » . بنظرة احتقار شديدة راحت تشيله وتحطه في الأرض عدة مرات . نهض اليها واقترب منها وكان قوى البدن كثور راسخ الخطو كجمل . أراد أن يسترضيها بطريقته فوضع يده على خصرها قائلا : أنا مش قصدى أزعلك » ، فدفعته بعنف وبصقت في وجهه ، ثم اندفعت خارجة في هياج الثيران الاسبانية تنطح وتدمر وتزمجر ، حتى ان المسكين كحكوح لم يؤت الفرصة لفتح فمه وكان من الذعر والغباء قد تلاشى تماما . فلما خرج كلاهما مطرودا ظلت سيدتك تنتفض وتضع نفسها تحت الدش ساعات طويلة وتفتح التليفزيون الملون ثم تغلقه وتدير الفيديو كاسيت بعشرات من الأفلام العالمية الشهيرة وبغيرها ..

فلما تنفس الصبح زفرت عن صدرها كل المشاعر السالفة وهيأت صدرها لقليل من التروى ، وفكرت بهدوء : هذا الكلب كحكوح كان من الممكن أن تقوى على تحجيمه بفضل رجفة كهذا .. لقد كان راغبا فيها الى حد الجنون .. انه صيد ثمن واعد بخير وفير والغبية لم تحتفظ به على الأقل لاستخدامه كسند يعاونها على الخلاص من كحكوح . ولكن - وبرقت في عينيها نظرة استبشار عريضة - انه رغم سوء ما فعلت قائلا : « اتمسى بالخير يا بتعة هانم » ، أى أنه يحتفظ لها بخط الرجعة ، كان عند خروجه مطرودا لا يزال يحتفظ بابتسامته اللبقة بل انه حياها فرجل كهذا يضحى بهدية كهذه لا يقطع حبل الود بسهولة وهى على أى حال موقنة أن لقاء الأمس لن يكون آخر لقاء . ثم قررت أن تنزل الشارع لترفه عن نفسها قليلا ، وأن تستدعى الكلب كحكوح وتطيب خاطره وتدحلبه حتى تعرف منه الكثير من المعلومات عن هذا الثرى الكبير

الذى فاجأها به وكيف تأتى له أن يتسلل داخلا الى حجرة النوم ؛ هل دخلها بناء على اتفاق تم بينه وبين الكلب كحكوح ؟ أم أن الرجل دائخ من الافراط فى الشراب فأذن له بالدخول ليستريح بصفاء نية ؟ ..

ثم انها شرعت تسوى الفراش وتغير طاقمه كعادتها كل يوم ورفعت الوسادة فتطايرت بطاقة صغيرة سرعان ما انقضت عليها وقد انبثق بداخلها فرح عظيم مصحوب دائما فى خيالهـا بصـورة ذلك الرجل الذى علمها القراءة والكتابة .. وكانت نظرتها قد استقرت منذ برهة على البطاقة « عبد الجبار » . شعرت بسخونة الغيظ من نفسها تسرى من أسفل قدميها الى رأسها . لن تسمى البتعة بعد ذلك ان لم تعده اليها راكعا على قدميه . ثم ان سيدتك قلبت البطاقة وجهها الآخر فوجدت كلمة موجهة اليها ترجوهـا الاتصـال به فى عنوان كذا . ثم سـيدتك من فرط البهجة صارت تداعبنى كما رأيت وأنا لم أكن أهتم بمداعبتها ليقينى أنها تداعب فى شخصى شخصا آخر أو أملا آخر .

ثم رمقنى صاحب السعادة بنظرة ذات معنى وكأنه يكيد لى بما سوف يراه فى صحبة سيدتى بعد قليل . لكن هذه النظرة هدمت الحواجز الطبقية بينى وبينه فمنحت نفس حرية التعامل معه كأصدقاء ، فاندفعت أتشقلب أمامه بحركات هوجاء لطيفة تثير رغبته فى الضحك والشعور بالتفوق على ، وانتهز فرصة انبساطه فأنطحه برأسى فى عنقه أو أصعد فوق مؤخرته أهارشه وأتمسح فيه.فلما استكن وأحسست انه قد تلقف حبل الود منى ، رجوته ــ كأخ أكبر ــ أن يصطحبنى معه فى هذا المشوار فهو الوحيد الذى ان سكت عنى أعطانى شرعية المشـوار . الحق لم يسكفنى الأخ ميشو بل رسم لى كيف أذهب ، سوف ينفتح باب السيارة ليدخل سعادته فأتسلل أنا دون شوشرة وأدفن نفسى فى الفراغ بين الكراسى الخلفية والأمامية وحين تكتشف سيدتى وجودى عند الوصول سوف تسلم به وأمرها الى الله .

باب الريح

● عبد الجبار يأخذ غرضه من البتعة :

– ١ –

ظللت منطرحا على فرش السيارة لا أنبس ببنت شفه ، انما أبصبص بعينى ، فلما وجدت أن البصبصة بالعينين يستتبعها تطويح ذيل قد يفضحنى أغمضت العينين تماما وكان صاحب السعادة الكلب « ميشو » منجعصا على الكرسى الخلفى وحده كنجم عالمى مهيب لا يأبه بانبهار الأقوام ولا بتحاياهم • يتحرك من أول الكرسى الى آخره ليسجل فى كل اتجاه جلسة • وعندما نزلت سيدتى صاحب فى كثير من الابتهاج : « ينيلك •• انت جيت •• والنبى أصيل » فقدمت لها ما يليق بها من قواعد البروتوكول الكلابى وجعلت أمسح المكان فى رحابها ••

اذا بنا فى ضاحية جديدة نوعا • « فيلا » من خمس طوابق غاية فى المهابة والأناقة ، تحوطها حديقة مزهرة وتقع فى نهاية شارع متاخم للخلاء تحفة أشجار شابة صبية ، على باب الفيلا لافتة نحاسية لامعة مكتوب عليها « فيلا عبد الجبار » ضغطت سيدتى فوق ذر على باب « الفيلا » فأضيىء النور فى عديد من الشرفات وارتفعت أصوات قبيلة كاملة من الكلاب اهتز منها صاحب السعادة قليلا لكنه استوعب اللحظة ثم صار يطلق زئيرا يفح بانذارات حاسمة ، واذا بصوت ينبثق من ضلع

باب الفيلا تبينا فيه صوت الثرى الكبير قائلا : « مين هناك » فقلنا جميعا في نفس واحد : « احنا الحاجة بتعة » ، ثم بحثنا عن مصدر الصوت فوجدنا جهازا لاسلكيا يشبه جهاز الراديو الترانزستور مثبتا في صدغ الباب الخارجي ، هكذا عرفني به صاحب السعادة ميشو وأضاف قائلا بابتسامة من يعرف أنني سأنبهر لابد : « أن الثرى الكبير يكلمنا الآن من فوق سريره عبر جهاز كهذا ..

ان هي الا دقائق حتى انفتح باب الفيلا واقتادنا أفندى أنيق جدا ولكن العين لا تخطىء انه بواب حقير . صعدنا بضع درجات ودخلنا الى اليمين الى صالون يمتد كملعب ويحتشد بالأرائك والكراسى المطعمة بالأصداف ، ترابيزات وطقاطيق عليها غير ما على الحوائط تماثيل وأواز وقطع فنية نادرة لكنها رغم فخامة البيئة تبدو كأنها قطع من الحديد الخردة في مخزن تاجر غشيم .

بعد أن قامت سيدتي بجولة بل كل هذه الأشياء وتفحصها بعين واعية ، اختارت ركنا في الصالون قريبا من الداخل ويتميز بأن محتوياته وكراسيه تأخذ الطابع الفارسي بألوان زاهية . ثم جلست . انبعثت رائحة العطور في أنحاء المكان ولكنها عطور كما لو كان يشوبها شيء من العفن . فمال صاحب السعادة ميشو وهمس في أذني قائلا : « الرائحة الطيبة هي رائحة الأشياء المجلوبة الى هنا وأما العفن فرائحة السكان » . هززت رأسي قائلا في اعجاب : « يا لك من حكيم » .

دخل سفرجي يلبس لباسا أفخر من لباس الفنادق . وضع أمام سيدتي صينية فضية عليها زجاج وكوب ودلو صغير من الفضة يمتلىء بمكعبات الثلج . همس صاحب السعادة في أذني بأن هذه الزجاجة اسمها شمبانيا وأنها من أغلى الأصناف وأجودها لكنها أبدا ليست مشروب أهل هذه الدار . قلت كيف يا صاحب السعادة ؟ . قال : « أصالة الشيء وأصالة استخدامه شيء آخر .. والشيء الثمين يفضح الدخلاء من سوء استخدامهم له » . قلت : « ما الذى تريد قوله بالضبط يا صاحب

السعادة ؟ قال ضائقا من غبائي : « نحن باختصار أمام جسد من أصل دونى يتلفف بثياب وأدوات عالية المقام » . قلت وأنا أهز رأسى فى تشويحة تعلمها الأزارقة « وايه يعنى .. المهم انه راجل جدع .. لو ما كانش جدع ويستاهل النعمة دى ما كانتش جاءت له » . ثم استدركت قائلا : « احذر أن تكون من اياهم » . قال : « من هم ؟ » . قلت : احذر أن تكون شيوعيا فكلامك والحق يقال كلام الشيوعيين » . سلقتنى منه نظرة احتقار شديد ، ثم برطم : « متخلف أنت كأهلك وأصحابك .. ان الجسد الدونى اذا ما أدخل نفسه فى ثياب عالية المقام تتحول الثياب الى كفن .. أن الأبهة شىء لا يشترى أيها الغبى وان كان لديكم من يشترى أدواتها ومظاهرها جاهزة فانه يشتريها بثمن خرافى يفقد فيه شرفه وانسانيته مقابل استمرار تدفق المال بين يديه لينفقه على استمرار هذه الأبهة الكاذبة .. والدليل على ذلك .. الدليل على أن هذه الأبهة ان هى الا كفن فخيم يلف جسدا متعفنا ، هذه الرائحة الكريهة التى تطغى على روائح الأشياء الثمينة والعطور الراقية .. انه جسد مات من زمن طويل وتعفن ولكن ماكينة الكسب التى أنشأها ابان حياته لا تزال دائرة كما هى لا تكف عن صب النقود فى الخزائن » . قلت : « ما الأبهة الحقيقية اذن يا صاحب السعادة » . قال انها تلك التى تنشأ مع الانسان ، فلكل مخلوق فى هذه الدنيا مهمة غريزية لو أنه انتبه لها وفهمها لأصبح له فى الأبهة أسلوبا فريدا يحتذى ، لكنكم — يقول سعادته — فى بلادكم تستوردون كل شىء حتى مظاهر الأبهة وفى ظنكم انها تعطيكم الأبهة بالفعل فى حين انها تحيلكم الى مسخ واذا لم يكن فيكم من يعرف انكم الآن فرجة العالم المتقدم وغير المتقدم تكونون اذن مسخا على الحقيقة والخلقة الالهية ..

ثم أضاف قائلا بالحرف : « العالم المتقدم — يابنى الأزرق — قد أقام لكم حفلا تنكريا ، ربما أنه يعرف شخصياتكم الحقيقية واحدا واحدا فانه يلذ له بالغ اللذة تجاهل شخصياتكم الحقيقية ومعاملتكم بشخصياتكم التنكرية ، بل انهم يمعنون فى انكار شخصياتكم الأصلية والاعتراف

بشخصيات الثياب التى ألبسوكم ، لأن الثياب التى ساعدوكم على التنكر فيها هى التى تحقق لهم مصالحهم الجوهرية بين ظهيرانيكم » قلت له : « ولكن أصحاب الدار يبدو من العز أنهم ناس طيبين » فشخ صاحب السعادة حنكه عن آخره وأطلق ضحكا كالعواء أو عواء كالضحك ، ودفعنى بذيله علامة على الاستهانة بى والاستهجان لأفكارى ، ثم قال : « اسمع يا هذا .. انت وقومك ها هنا تؤمنون بخرافات لا يصدقها عقل .. فكل من يلبس لباسا فاخرا بعض الشىء أو يصرف عن سعة أو يستخدم أشياء ثمينة تصفونه على الفور بأنه ابن ناس طيبين ، كيف بحق الله تقترن طيبة القلب والنبالة والطهارة بمثل هذا المظهر ؟ ألم يدر فى خلدكم وأنتم تحكمون هذا الحكم أن اللصوص والمجرمين والقتلة . والسفاحين كلهم يلبسون فاخر الثياب وغالى الرياش وثمين الأشياء ؟ » قلت له مدليا أذنى من الكسوف : « مضيفنا كبير المقام لابد » عوج شفتيه فى اشمئناط : « لص ابن لص .. غير أنه لص عصرى ، آخر طبعة من طبعات اللصوص التى تتدفق عنها عبقرية المكان من ناحية وعبقرية الشركات الرأسمالية الكبيرة من ناحية أخرى ... انها شركات لا تعمل لحساب نفسها فحسب بل لحساب دولها بالدرجة فرعا فى كل مدينة من مدائنكم ، فلابد لها من وسيط حريف صايع » ، ثم تثاءب وأضاف : « لعن الله بلدا تنتشر فيها التوكيلات ..

زحفت ظلال شممنا فى أثرها رائحة الثرى الكبير ، الذى دخل يرتدى الروب دى شامبر الأنيـق فوق المنامة وخف من الجلد الطبيعى الثمين . عملاق ، وجهه المستطيل المسحوب فى صرامة ينتفض بالحيوية والدماء ، وبالنشوة العظيمة ، كفارس اجتاز كل المتاريس وعبر الأنهار والبحار وها هو ذا أخيرا يشرف على شاطىء الفوز العظيم . انتفضت سيدتى قائمة وقد تحول وجهها الى بسمة عريضة نابضة ممتنة خجلة . لم يكن فى عينيه شبقا هذه المرة ، ولا تعجلا ، ولا أى أثر لشىء حدث من قبل . برصانة كبيرة مد لها يده الكبيرة ذات الأصابع المستطيلة ،

فأطبقت بيديها عليها فى حنان ، فهز رأسه بابتسامة غفران ، فاهتز جسدها من الإنفعال وارتمت على صدره باكية ..

كانت يده الكبيرة لا تزال مستسلمة ليديها اذ راحت ترفعها وتقبلها عدة مرات والثرى الكبير يستغفر ولكن فى استمتاع دونى . توقفت نظرتها لبرهة سريعة خاطفة على خاتم فى اصبعه استغربت جدا لوجوده بين هذه الأصابع التى تفر ملايين الجنيهات كل يوم ، هو خاتم رخيص مما يباع فى أسواق القرى والموالد .. ثم انها انفجرت ضاحكة كطفلة غريرة ، فارتعش وغاضت الدماء من وجهه قليلا وقال : « علام تضحكين ؟ » قالت سيدتى انها تضحك اذ اكتشفت دليلا على طيبة قلبه لأنه وهو القادر على لبس الألماظ واللؤلؤ يتواضع فيلبس خاتما كهذا يجدر أن يلبسه واحد قرداتى . زام الثرى الكبير ثم عقب قائلا ان الخاتم دليل فعلى على طيبة قلبه اذ هو يمثل بالنسبة له ذكرى طيبة لا يجب أن ينساها ، ثم قال : « المهم لعلك بخير » قالت سيدتى انها آسفة لما حدث . قال الثرى الكبير : « بنت حلال وحق الله » . أحست فى نبرته غمزة مخيفة ، قالت : « لعله خيرا » . قال : « كلبك غير الأمين كان هنا بالأمس » . انتفض صاحب السعادة فغمزته قائلا ان الرجل تحفظ بقوله غير الأمين أى أنه يقصد كلبا بشريا . وقالت سيدتى للثرى : « أى كلب تقصد ؟ » . قال الثرى : « كحكوح » شهقت ، ثم اعتدلت جالسة تنتفض فى تحفز كبير ثم رددت : « الكلب كان عندك » ثم صاحت : « أحب أن أعرف علاقتك بكحكوح .. أو علاقة كحكوح بك » ..

- ٢ -

لم تعد محتاجة لاقتناع بأن الثرى الكبير غير طامع فيها ، بل لقد كشف لها عن رقة ودماثة لم تعهدها من قبل فيمن عرفتهم . كان يكاد يرفع ذيلها عن الأرض ، ويقدمها على نفسه فى كل شىء ويفرغ لها

الشراب فى الكأس ، وبنفسه يهيىء لها الطعام ، وينتظرها في الموعد على أحر من الجمر كمراهق كبير ، ومع ذلك لم يقل لها ما علاقته بكحكوح بل لم يقل لها لماذا كان يزوره يوم قال انه زاره ٠ كيف نسيت هى أن تسأله ؟ كيف اندمجت مع الثرى فى حديث عن الفن وأمريكا ولعبة النساء والمخابرات الأمريكية ونظام البنوك ونظم القبض والصرف والبيع والشراء والتقدم ؟ عديد من المواعيد واللقاءات فى كل منها قررت أن تتفرغ لمعرفة علاقته بكحكوح ولكنها لا تتذكر شيئا من ذلك الا قرب قدوم موعدها معه ٠٠

أبدا لم تكن تعيش قبل أن تلتقى بالثرى الكبير ، كل ماضيها كان مجرد « بروفة » أو تدريب على حياة هى النعيم كما وصفه الله فى قرآنه العظيم ، الولدان المخلدون ، والأرائك والزرابى المبثوثة والقطوف الدانية وأنهار العسل والخمر كل ذلك رأته البتعة فى قصور الثرى واستراحاته المتعددة التى تجىء دائما وبشكل أو بآخر على ضفة النهر فاذا كان نهر بنى الأزرق يمتد فى أحشاء أراضيهم فانما لكى تقام على ضفافه مثل هذه القصور والاستراحات المبنية بالرخام والمعدن الثمين ٠ كل ما يمكن أن يحلم به الانسان من جنان باسقة رأته فى صحبته الا شيئا واحدا لدهشتها العظيمة لم يحدث ولم يهم كلاهما بالآخر فى أى لحظة ، اذا كانت هى قد شغلتها الجنة وأضواءها عن نداء الجسد فما الذى شغله هو ؟ هل ليثبت لها أنه ليس يسعى لغرض رخيص ؟ هى لن تصدقه مطلقا اذ هى كأنثى تدرك من أعماقها رغبته الدفينة فيها ، تضبط نظراته المختلسة وتتجاهلها لعدم احراجه ولكن ياله من قوى ، أكان يريد أن يوصلها الى هذه الدرجة من الاشتياق حتى تقوم هى بالطلب والمحايلة ؟ لا تنكر أنها توشك أن تفعله بين لحظة وأخرى ولا يمنعها سوى اطمئنان كمن فى أعماقها بأن اللقاء الجسدى سوف يحدث ٠٠ سوف يحدث ٠ وكانت هذه الموجات من اللغط تضرب جدار ذهنها مبارية أمواج رأس البر حيث تقف الاستراحة مطلة على ذلك البرزخ الذى هو بينهما : ماء البحر

وماء النهر ٠٠ فلا يبغيان ، بل يحترم كل منهما الآخر ويمضى فى حدود نفسه كأنهما متوحدان منفصلان فى آن معا ٠٠

وكان الثرى الكبير مشغولا عنها لحظتئذ بشاب دميم الوجه متماسك الهندام مرن الهامة ، معه جهاز تسجيل وأوراق وأقلام ، يقضيان ساعات طويلة فى الغرفة المطلة على الماء وهى مجاورة للشرفة التى تجلس فيها الآن ، مستجيبة لتنبيهاته بعدم اظهار نفسها للشاب أو لأى أحد من زوار مصيفه ، سألت نفسها كثيرا عما يشغلهما هذه الساعات ، ولما خرج الشاب وعاد هو اليها سألته نفس السؤال فقال الثرى الكبير انه يكتب مذكراته لينشرها فى الصحف وفى كتاب ٠٠ أسوة بزعماء البلاد الذين دأبوا على كتابة مذكراتهم هذه الأيام ؟ ٠٠ هكذا سألته البتعة مبتسمة فى براءة ، فصحح لها قائلا فى جدية وبساطة انه أكبر من كل هؤلاء ٠٠ هتفت واقفة وقد شعرت أنها فى مهب ريح قوية عاتية ، صاحت فى فرحة ساذجة : « أنت اذن عبد الجبار ؟ » ٠ قال بغضب حقيقى دفين : « أى نعم أنا هو ٠٠ ألا تقرأين الصحف أو تشاهدين التليفزيون ؟ » قالت انها تشاهد وتقرأ ولكنها دخلت اليه ـ على ما يبدو ـ من الباب الأقل ، فهى لم تكن تتوقع أن يتنازل عبد الجبار ويزورها فى منزلها المتواضع ، ذلك أبعد عن ذهنها صورة عبد الجبار وان كان الشبه واضحا بشكل حاسم ٠٠

ثم انها استرخت فى كرسيها مستسلمة لخدر لذيذ سرى فى أعصابها كالنشوة البالغة ، هى لم تعد تستبعد أى شىء يحدث فى حياتها ، كل ما حدث فى حياتها كان من قبيل الأساطير ٠

مددت ساقيها المرمريين وتركت الريح تنصب فوقهما خيمة صغيرة من ذيل فستانها الأنيق الرقيق ، وقالت : « هل كنت تعرف أحدا من رجال الثورة الأزرقية من قبل الثورة ؟ » ٠ شوح قائلا : « لا والله ٠٠ لكنهم فى النهاية بشر مثلنا ، كلهم أبناء يحلمون بالمستقبل وبالبيت الملك والرصيد الذى يبيض كل يوم ، ان الثورة لابد أن يتلم سلاحها

اذا ما مر على هذه العضلة بالذات من عضلات الضمير ، فلا يحز فيهـا خاصة اذا كان الثوار أبناء ناس على قد حالهم ، هم صحيح عظماء وقاموا بثورتهم على الأرجح ، هذه مسائل قد لا تفهمين فيها ولكننى سوف أدونها فى مذكراتى ، انها شهادتى للتاريخ ، ومع كل ، فأنا من ذوقى لن اقول هذا هكذا بل ربما أشفق على بعض الأحياء فيهم كما أتعفف عن تجريح الأموات ، المهم ٠٠ » ٠ ثم تعلقت نظرته فى شرود داخل الخيمة الصغيرة التى كانت الريح تزغرد داخلها وتصنع صوتا موسيقيا جميلا ، ضاع منه خيط الحديث داخل الخيمة ، بل ضاع هو نفسه ، فهبطت هى بالكرسى فانفرشت الخيمة على صدرها وظهر وجهه مبهورا مذهولا كطفل يرى العرى لأول مرة فى حياته ، ثم انها قربت وجهها منه فى نداء لاهب ، فانقض على شفتيها وصار يأكل فيهما وقد احتواها بين ذراعيه فى قوة حيوانية كادت تحطم عظامها الرقيقة ، حتى اذا ما وصل اشتعالهما أواره نزع نفسه باسما فى لذة ، تاركا اياها كالسمكة تنتفض على صفيحة ساخنة ، قامت اليه فى ضراعة ، تجاهلها بنشوة ، وذهب يفرغ لنفسـه كأسـا ويشعل سيجارة ، فلاحقته ولثمته فى كل مكان فألهاها عنه بكأس قدمه لها ثم قطعة لحم مشوية ، ثم تركهـا وذهب الى الشرفة وجلس يشرب ويتابعها فى لذة فيما هى تحاول تبريد نفسها وكتمان غضبها بنكات قديمة غير مضحكة ٠

ـ ٣ ـ

أخيرا جاءتها الفرصة دون أن تسعى اليها ، اذ قال لها وهما يجلسان فى استراحة قصر التيـه : « ما أخبار كحكوح ؟ ٠٠ أخشى عليك من جنونه ٠٠ آفة الشم أتت على مخه تماما وهو يستطيع أن يفعل أى شىء فى لحظة جنونية ٠٠ أنت طبعا تعرفينه أكثر ولكننى أعرفه أعمق ٠٠ زوجك أبو شافية رحمه الله كان مظلوما » ٠٠

صرخت سيدتى : « حتى هذا الأمر تعرفه » . قال : « طبعـا . ولو قدر لى رؤيتك أيامها لقلت لك الحقيقة بكل حذافيرها ولأمكن مراجعة القضاء فى الحكم عليه » هبت سيدتى واقفة تصيح فى ألم : ولماذا لم تتصل بى .. تقول انك تعرفنى من زمن طويل .. ولديك معلومات عنى وعن زوجى .. فلماذا لم تبحث عنى ؟ » . قال عبد الجبار : « مع الأسف الشديد لم آكن فى البلاد أيامها .. كنت مسافرا سفرة طويلة وكانت الأنباء تتأخر فى الوصول الى ، فلما عدت الى أرض الوطن عرفت كل شىء » قالت سيدتى : « وما الذى عرفته عن أبى شافية .. قل أرجوك » . قال عبد الجبار باسما : « عرفنى كحكوح بأبى شافية .. فتحملت سخف كحكوح وجنونه من أجل خاطر أبى شافية .. كان فى الواقع يعاوننى فى شهامة ورجولة .. وقف معى فى معركة مع أصحاب الحوش الأطرش حين أردت شراءه منهم كحظيرة أخزن فيهـا سيارات النقل الخاصـة بشركاتى ، نعم ذلك الحوش الذى أقمنا عليه فيما بعد احدى شركات المياه الغازية ، كانوا طامعين فى وكدت أستخدم العنف معهم لولا تدخل أبى شافية فى الأمر لقد أثر عليهم وأثر فى فاصطفيته ونفعته من ورائى كثيرا والحمد لله ، وكنت أتابع أخباره أما كحكوح فأنا أعرف كيف أسوسه وأنتفع منه دون أن يدرى وبرخص التراب » ..

ثم قدم لهـا قطعة حلوى وطوح بأخرى فى فمه واستأنف يلوك الكلام : « زوجك يرحمه الله .. كان كحكوح قد رجاه أن يصالح عليه زوجته وكان فى الأصل يريد التخلص منهما معا ليتفرغ لك ويرث أموالك وأموال الموحوم .. وكان قد أعد عدته .. وهذا الحشيش المضبوط تحت سرير زوجته صفقة سرقها من ولد غلبان وادعى له أن الشرطة هاجمته فتركهـا ونفد بجلده .. فلما استجاب زوجك للمشوار حدثت الطامة الكبرى » .

توقفت أسنان سيدتى عن المضغ وبلعت اللقمة بدلا من بصقها . وأخذت تمسح دموعها المنهمرة مرددة : « الكلب .. الكلب » وصاحب السعادة الكلب ميشو يهدد بأزمة دبلوماسية كبيرة وأنا فى السر أرجوه

ضبط النفس وفى العلن أتضـــامن معه فى نباح رقيق نوعا • قال عبد الجبار : « بتعة هانم •• أنت الآن فى الأمان ولن تتوصل يد كحكوح اليك بعـد الآن » • صاحت واقفة تدمدم من الغضب : « الطـلاق •• الطلاق » • « قال عبد الجبار : « أنا كفيل بذلك » • قالت : « أينوى بى شرا ؟ » قال : « نعم •• مؤكدا » قالت : « هل كانت لهديتك وزيارتك لى صلة بهذا الأمر » قال : « ربما » قالت : « كيف طلبت منه أن يوصلك الى ؟ » • قال : « لم أطلب منه ذلك » • شربت سيدتى جرعة ماء • قال عبد الجبار باسما : « كحكوح يعزمنى على الغداء منذ عشر سنوات على الأقل •• فلما وجدت الفرصة مناسبة لبيت له طلبه •• هذا كل ما فى الأمر •• وأما الهدية فأنا شخصيا حين أدخل بيت أحد للغداء فلابد من هدية لائقة » •

رددت من جديد : « الطلاق •• الطلاق » • ابتسم عبد الجبار وضغط على ذر ، فدخل أفندى يرتدى أفخر الأزياء ولكن العين لا تخطىء انه باطجى كبير • شده عبد الجبـار من أذنه وهمس طويلا ، فاختفى الأفندى • ودعيت سيدتى للانتقـال الى حجرة الصالون • حيث جىء بالفاكهة المثلجة والشمبانيا وأديرت الموسيقى الخفيفة • ودخل عبد الجبار قائلا : « ولكننا نسينا شيئا هاما يا بتعة هانم •• هذا الكلب كحكوح سوف يلاحقك بالشكاوى وسوف يزور امضاءك ويوقعك فى مشـاكل لا حصر لها مع الضرائب والحراسة ، على الأقل سيخلق لك جيشا من الموظفين الحكوميين يعيشون على حسابك ظلما وعدوانا » • هى قد جربت ذلك ، ولا تزال تصرف على بيوت بأكملها من رجال كانت وظيفتهم فى الأصل مراقبتها وتدبير الهجوم عليها ، قالت : « وما العمل ؟ •• لو كان لى ولد أو ذرية لكتبت لهم كل شىء باسمهم •• لكن •• » ، ثم اندفعت دموعها كشلال ساخن ودافق ، حتى ان عبد الجبار أخرج منديله من كم الجاكت ومسح به رذاذ دموعها المتناثر على وجهه هو ، وهم بأن يمسح لها دموعها ولكنه تردد وأعاد المنديل الى كمه صائحا : « فيه حل واحد » • نظرت اليه بلهفة • أجاب : « تبيعى كل أملاكك •• وتشترى بالفلوس

كلها شهادات استثمار لا ضرائب ولا حجوزات مهما كانت ألوفات ٠٠ وعلى فكرة ٠٠ أقدر أخدمك فى البيع ٠٠ أجيب لك أعلى سعر ٠٠ انتى محتاجة لوجع الدماغ ؟ محل وشركة وجرايم ودوشة ٠٠ أى واحد تحطيه مشرف على محلاتك حياكلك ألف فى الميــه ٠٠ ثم انك مش محتاجـة للتوسع ٠٠ مكسب الشهادات وفوائدها لوحدها حتعيشك حياة الملوك مدى الحياة ورأس مالك زى ما هو بل يمكن يزيد ٠٠ وبعد الحـكاية ما تقدم شوية وتتنسى ، أقدر أدخلك شريكة بالأسهم فى أى شركة من شركاتى » ٠

أشرق وجهها بالبشر ٠ صاحت : « والله فكرة ٠٠ طب ياريت ٠٠ عندك مشترى ؟ » ٠ ابتسم : « نخلق المشترى ٠٠ بشرط أن يكون على هوانا ٠٠ على كل حال ٠٠ سوف أكون أنا هذا المشترى ٠٠ ولكن لابنة شقيقتى وهى طالبة فى كلية الآداب ٠٠ وأنا سعيد بابنة شقيقتى ولهذا فأرجوك أن تكونى قاسية على فى طلب المبلغ الذى تشائين » ٠ أشعلت سيدتى سيجارة وضعتها فى المبسم الذهبى ثم ذكرت له آخر رقم مالى صعد اليه ثمن كل محل من محلاتها ٠ فرفع الثرى الكبير كل رقم ثلاثين فى المائة من سعره المقترح ٠ ثم انه ضغط على ذر فدخل اليه خادم فأمره باستدعاء محاميه ومحاسـبه ٠ وقامت هى وطلبت بالتليفون محاميهـا ومحاسبها ٠

ثم ســاد هدوء شــامل لبرهة كأنما لتفصــل بين زمنين ، قطعها عبد الجبار قائلا : « والله سلامات » ٠ قالت باسمه : « الله يسلمك » ٠ فقال ان جيش الموظفين الحكوميين ينتظر ان تهديه الظروف بواحد مدان للحكومة حتى ولو على باطل ، لتدخل عليه جحافل فى منتهى الطيبة والمسالمة غير أنها تريد أن تعيش بقية عمرها على حسابه ، بل ربمــا اعتمدت عليه فى تحقيق طموحاتها المادية وأحلامها القديمة ، ثم أضاف : « لقد عانيت منهم كثيرا ولكننى عرفت منذ البداية كيف أتصرف معهم وعلى أى نحو أعاملهم ، انهم بحكم البؤس الذى يعيشونه والراحة التى يعيشها غيرهم يتصورون ـ دون استعداد للتنازل عن تصورهم ـ ان

الآخرين ينهبون بل يغرفون من آبار الحرام ‥ ثم انهم يوازنون الأمر بينهم وبين أنفسهم ‥ هم طول عمرهم لا يحبون الحكومة ، لا يحبونها اذ هى فى نظرهم مصدر سخرة لا تعمل أبدا لصالحهم ‥ لطالما نهبت الحكومة من الخراج والضرائب لأفندينا ولمحمد على وللعائلة المالكة ولكل الحكومات التى كانت تعتبر نفسها طبقة أعلى من الشعب والباقى مجرد خدم لهم ‥ الحكومة كانت دائما هى قبضة الملك المالك تنهب لحسابه وتفتك باسمه بكل الناس ‥ فى القديم كانت الحكومات تتكون من أهل الملك أنفسهم : أبناؤهم أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم ، فلا يملك جهاز الموظفين الا أن يكون ترسا فى أيديهم ‥ أما الآن فان الحكومة فى وادى الأزرق تتكون من أعوان الحاكم والهبيشة وخدمه الخصوصيين ، فحاكم وادى الأزرق ورث الحكم ولم يرث عراقة التقاليد ولا الثقافة ، ولذا فان أعوانه يديرون الجهاز لحسابهم الخاص فى مقابل تأمينه من أى طامع فى السلطة أو من أية ريح تهب ، ووأد كل طفل تتنبأ العرافة بأنه يهدد عرش الفرعون ‥ الحكومات فى وادى الأزرق ، يا بتعة هانم انما جاءت لتخدم مصالح السادة ورفاهيتهم ‥ وقد ورث الموظف الأزرقى حقيقة غبرت عنها حكمته الشهيرة : أخرة خدمة الغز علقه ، الغز يعنى الأتراك ‥ يعنى السادة أصحاب الشغل والوظائف التى تسمى بالحكومية ‥ ورث حقيقة أنه مجرد خادم ، وأنه من ثم لن يكون محل ثقة من رؤسائه أبدا ، لتأكده من أن رؤساءه أصلا ليسوا أهل ثقة أو ضمير ‥ لعل المثير للسخرية يا بنعة هانم ان أبناء الشعب الذين ورثوا الحكومة بعد ثورتهم ورثوها كما هى بنفس المنطق ونفس المفهوم ونفس السلوك ‥ فتحولوا الى جهاز من الموظفين الغلابة يقف على أكتافهم هرم من الغيلان والانتهازيين !! » .

ثم فشخ حنكه عن أسنان سوقية الشكل والتكوين كأنها أسنان حيوان ، وكان صنبور الكلام الفارغ قد توقف فى فمه . فابتسم من جديد قائلا : « سوف أكتب هذا أيضا فى مذكراتى » .

\- ٤ -

انعقدت الجلسة فى الصالون الكبير بالدور الأرضى بقصر التيه وتمت كتابة العقود وحصل كل من المحاسبين والمحامين على عمولته نقودا حية وانصرفوا جميعا وهم فى غاية النشوة . وتسلمت سيدتى شيكا بمبلغ امتدت أصفاره وأرقامه حوالى بوصة كاملة ، ثم قررت وهى تضعه فى حقيبة يدها انها من غد ستحوله الى شهادات استثمار تضعها فى خزينتها الخاصة بالبنك الأزرقى . أما عبد الجبار فقد أصدر أوامره بتشكيل وفد خاص لاستلام الممتلكات . ثم انه - اكراما لخاطرها - قرر أن ينهى علاقتها بكحكوح فى أقرب فرصة .

\- ٥ -

كانت الساعة قد لحقت بمنتصف الليل فى استراحة القناطر الأزرقية حين يجىء بكحكوح فى عربة جيب سريعة مصحوبا - أى مخفورا - بثلاث من سائقى اللورى ومقاولى الفواعلية العاملين باحدى شركات عبد الجبار . وكانوا قد تلقوا معلومات من قصر التيه أن « الرجل » على سهر فى انتظارهم بالاستراحة . فما أن وصلوا حتى اقتادوا كحكوح الى حجرة الصالون ، حيث جلس وشرب الشاى ثم القهوة ثم التمر هندى ثم بدأ يرفع صوته بالاحتجاج فى زئير مكتوم يردد ألفاظا غامضة . فلما فوجىء بعبد الجبار يدخل عليه ابتسم وحول ضجره الى حركات فكاهية ضاحكة ، صار كالقرد تماما يتمسح فى عبد الجبار ويتراقص ويسلم ويسأل عن الصحة والأحوال كأنما عبد الجبار ابنه التلميذ العائد من المدينة . أجلسه عبد الجبار بضغطة رقيقة ضاحكة قائلا : « بطل غلبة ياد » ، ثم جلس قبالته ومال نجوه فى ود كبير ، وبصوت يحمل شحنات دافئة جدا من الحب والأخوية والتواضع قال له : « قلبى معاك يا منيل

على عينك ٠٠ ناوى تعمل ايه فى المصيبة اللى حلت عليك دى ؟ » ٠ انتفض كحكوح وقد اصفر وجهه كورقة شجر ذابلة ، ردد فى لعثمة : « خير يا سعادة البيه ٠٠ اللهم اجعله خير » ٠ قال عبد الجبار كابن بلد مصفى ينشر ظله على أخيه فى شجاعة وايثار : « أنا فى الحقيقة خفت عليك ٠٠ انت مهمـا كان بتنفع ٠ وأنا زى ما انت عارف أخاف على رجالتى ٠٠ حتى اللى بطلوا يتعاونوا معايه بيفضلوا فى نظرى رجالتى برضه لأنى يمكن فى يوم من الأيام أحتاج لهم ٠٠ وباحتاج لهم ٠٠٠ وعشان كده حبيت أجيبك من تحت الأرض عشان أنبهك قبل ما تقع الفأس فى الرأس » ٠

استوعب كحكوح هذه العبارات جيدا وبرقت عينه من خلال السحب عدة مرات كالشرر المتطاير ، وشد نفسا عميقا من السيجارة ابتلعه قائلا : « فيه ايه يا سعادة البيه » قال عبد الجبار : « البتعة مقبوض عليها من امبارح » ٠ صاح كحكوح واقفا كأنه يبحث عن نفسه : « ايه » ٠ واصل عبد الجبار : « مباحث أمن الدولة قبضت عليها ٠٠ أصلها كانت متزوجة واحد من الضباط الكبار من حاشية رجال الثورة ٠٠ وكانت مشتركة معاه فى تهريب أسلحة وتجسس وتآمر على الحكم وبلاوى زرقه » ، انحط كحكوح جالسا وقد انهارت كل قواه ، انطفأ البريق فى عينيه تماما ، وبكى ، وصارت قدمه الصغيرة تهتز بعنف وجسده كله كلعبة خشبية بزنبلك ، حتى دموعه كانت تبدو متدفقة من خزان فى دماغه ٠ قال عبد الجبار فى حنان : ماتخافش يا كحكوح ٠ أنا برضـه حانقذك من الورطة ٠٠ أنا عمرى ما أفرط فيك حتى لو أنت ندل زى عوايدك ٠٠ امبارح كانوا بيدوروا عليك » ٠ صاح كحكوح : « فعلا ٠٠ فيه جماعة زى المخبرين كـده سـألوا على فى الحته » ٠ برق الذكاء فى عينى عبد الجبار ، قال : « طبعا ٠٠ أنا عارف ٠٠ لو مسكوك اللهم انهم مش حيسيبوك مدى الحياة ٠٠ دا اذا ما كانش فيها اعـدام ٠٠ أصـلهم بيعتبروك شريك البتعة وانك واضع يدك على كل الأموال اللى هربتها ٠٠ وبيتهموك بما هو أبشـع ٠٠ بانك بتمول حركة متطرفة من الجماعات

الاسلامية اللى طلعت لنا اليومين دول » . انفجر كحكوح ضاحكا خلال الدموع المنهمرة ، ثم صاح باكيا : « أموال .. حركة اسلامية ؟ » . قال عبد الجبار : « أنا متأكد انك مش ممكن تمول نملة .. الكلب بتاعك اهه يشهد عليك طول النهار صايع وما صدق شافنا ماسبناش .. ثم انك لا تفهم لا فى الاسـلام ولا فى دين .. انت تفهم فى تطليع الدين معلهش .. لكن هما معتقدين كده وادى الله وآدى حكمته .. شوف مين حيسمع كلامك أو يصدقك قال كحكوح فى مراوغة مفضـوحة : « مسكينة والله .. دانا من يوم مازعلت منها بطلت أوريهـا وشى بس كنت مطمئن ان العمل بتاعها ماشى .. هى ما شاء الله كانت كل ساعة فى محل بتفتش وبتجرد وتراجع وتمسى على الرجالة .. دلوقت مين حيعمل لها ده ؟ » . انفجر عبد الجبار ضاحكا فى مرح وتشف خبيثين ، قال : « أموالها ايه وأملاكها ايه‌يا عم كحكوح كل سنة وانت طيب » . هب كحكوح واقفا مرة أخرى : « ايه ؟ » . واصل عبد الجبار : « النهاردة استلمتها الحراسة خلاص .. ما عادش حد يقدر يتصرف فى أى مليم ولا هى نفسها » . من بين سحب كثيفة جدا برقت عين كحكوح برقة سريعة خاطفة ، ثم ردد كالغريق : « بلغنى .. تصدق انى بلغتنى حاجة زى كده ؟ » . قال عبد الجبار : « بلغك ايه ؟ » قال كحكوح : « ناس جم قالوا لى فيه لجنة راحت دكان الآثار وطلبت الدفاتر ومفاتيح الخزنة والدواليب ودنيا مقلوبة .. رحت معرض السيارات وبصيت من بعيد لقيت برضه حاجة مش طبيعية .. دا حتى الرجالة بتوعك جابونى من هناك وأنا عمال ألف حوالين المعرضين » . قال عبد الجبار وهو يكتم ضحكة : « لم يعد لدينا الآن سـوى ان نفكر فى إنقاذك .. انت لن تستطيع الهرب مدى الحياة .. خصوصا فى قضايا أمن الدولة .. كله الا هذه » . صاح كحكوح وهو يهم بشق الهدوم : « طب وأعمل ايه .. دبرنى » . قال عبد الجبار : « بسيطة يا حمار .. تطلق بتعة .. بس تطلقهـا بتاريخ قديم .. قديم شويتين » . قال كحكوح : « أطلقهـا غيـابى ؟ .. طب ومين اللى حيطاوعنى على التاريـخ القديم ؟ » قال

عبد الجبار : « مالكش دعوة ‥ ممكن أخدمك الخدمة دى على شرط تطلع راجل معاية مرة واحدة ٠ مظبوط ؟ قال كحكوح : « أنا خدامك يا سعادة البيه » ٠ قال عبد الجبار : « لن أطلب منك شيئا الآن ‥ فلست نذلا مثلك أبيع خدماتى وأقبض فى الحال ‥ لا ‥٠ ولكن ‥ سأدخر عندك جميلا يحق لى أن أطلبه فى أى وقت أشاء » ٠ قال كحكوح فى صدق حقيقى : « رقبتى لك يا سعادة البيه » ٠ صاح عبد الجبار : « اطلبوا المأذون الخصوصى بتاعى » ٠ علق كحكوح فى سعادة : « يا سيدى ‥ هو كده » واستأذن عبد الجبار فى خمس دقائق ٠ وجلس كحكوح يفرك يديه ليهدىء من الفوران الذى بداخله ، ثم أفرغ مسحوق البرشام وشم دورين بسرعة مذهلة ، ثم حشر فى فمه تلقيمة مدغة وصار يبصق فى منديله الجربان ‥

ثم انه طلب قهوة فجىء بها ، وطلب سجائر فانفتحت له العلبة الصدفية على الترابيزة ، ثم فوجىء بشاشات متعددة فى كافة أركان الغرفة وزواياها البارزة لتليفزيونات ملونة تعرض ألوانا شتى من المناظر ، فصار ينحاز الى هنا تارة وها هنا تارة أخرى حتى نسى نفسه تماما فى تيار من الصور العارية يمضى فى سياق وحوار حتى طار لبه من الفوران ووقف على حيله عدة مرات بدأ خلالها كحيوان شرس محبوس فى قفص ، ثم ان الشاشة انطفأت فجأة وتركته محيرا لبرهة ، فلما عاد بصره يألف المكان حوله وجد المأذون يجلس بجواره قائلا : « أهلا بك وسهلا » ٠ انتفض كحكوح مذعورا : « أهلا » وسلم عليه بيده فى تملق يخفى عدوانا غريبا ٠ عزم عليه بسيجارة من العلبة الصدفية وأشعلها له وبدا ان المأذون غير مدخن ، فصاح فيه كحكوح بغيظ مكتوم : « لما مابتشربش بتاخدها ليه ؟ » ثم زام ، وضحك المأذون وقال انه لا يرفض الخير والا كان جاحدا ، فزام كحكوح مرة أخرى وقال بصوت ممرور محزون : « تبقى حتوافق ! تبقى عمرك ما ترفض أى حاجة ! بشرة خير يا مولانا ! يازيت لنا عندك حاجة أكبر » ٠ ودخل عبد الجبار على عجل ، وقال كحكوح

لنفسه ان الدقائق التى غاب فيها عبد الجبار كسب خلالها عشرات الآلاف من الجنيهات لمجرد حضوره فى بيع صفقة أو كتابة عقد ..

قال عبد الجبار لمولانا ان كحكوح - وهو أحد كبار رجاله - يريد أن يتخلص من زوجته اللعينة التى كانت شورتها هبابا فى هباب . صاح مولانا قائلا خذوهن بالمعروف وطلقوهن بالمعروف . قال عبد الجبار : « اعمل انت المعروف وطلع ورقك » . فأخرج المأذون أوراقه وصار يكتب الصيغة المعلومة ، وعند التوقيع مال عليه عبد الجبار وهمس بالتاريخ المطلوب ، فتردد المأذون قليلا ثم مد ذقنه وسحبها عدة مرات فى همسات طريفة مفضوحة الحوار ، أخيرا هز يده مع رأسه محددا بأصابعه الخمس أقصى مدى من الشهور يستطيع اللعب فيه ومعالجة وضـعه ، فوافق عبد الجبار بهزة من رأسه فكتب المأذون ووقع كحكوح وجيء بسائق اللورى ومقاولى الفواعلية فوقعوا شهودا على الطلاق . ثم أشير للمأذون على مظروف أصفر منتفخ قليلا على الترابيزة بين الأشياء فأخذه المأذون ودسه فى حقيبته بارتعاشة نشـوانة ، ثم هب واقفا وألقى السلام ثم انصرف .

وحين هم سـائق اللورى بالانصراف استبقاه عبد الجبار ، ثم وجه الحديث الى كحكوح قائلا . « انت بقى .. يلزمك راحة شهرين تلاتة كده تقضيهم بعيد قوى .. عايزك تختفى اليومين دول عن البلد .. حط القسيمة فى جيبك واتكل على الله .. اسمع .. الأسطى حسنين يقدر يسفرك بلدهم فى الفيوم ويستضيفك فى بيته شهر شـهرين تلاتة زى ما أنه عايز .. وخد المبلغ ده معاك أصرف منه لحد ما ترجع لمطرحـك .. أى مزاج أى شيء الأسطى حسنين يبقى ياخدهولك معاه فى أى وقت » . ثم ربت على كتفه فى حنان كبير واستأذنه فى الانصراف . ونظر كحكوح الى الأسطى حسنين وقال له : « بينا يا أسطى ناخد التموين ونتكل على الله .. أنا فعلا عايز أستريح لى يومين .. أنا أعصـابى تعبانة قوى يا أسطى وخايف أموت عندك » . قال الأسـطى حسنين : « فى بيتك ياكحكوح .. يلا بينا » . وسحبه من ذراعه فى رفق ومضى .

.. ذهلت البتعة وهى تسمع نص ما حـــدث ، أى حواديت وأى أساطير يحدث فيها مثل ما يحدث الآن . وقال عبد الجبار وهو يخلع سترته ويعلقها على حامل معدنى انه لم يعمل حساب الخطوة القادمة وهى ان كحكوح قد يكتشف وجودها عنده فيما بعد فماذا يكون موقفه هو ؟ ثم قال وهو يتخلص من البنطلون ان هذه مشكلة سوف يجد لها مخرجا لابد . ودس ساقه فى البيجامة ثم عاد فخلعها ورماها وارتدى الجلباب الحريرى الأبيض .

ثم أمرها عبد الجبار أن تقوم وتعد الطعام فنهضت كالغزال متجهة نحو المطبخ . مضى وراءها فى طفيلية تكشف عن صايع قديم . أحست خلفها بنظرات تطلق اشعاعا كريها . فلقد أصبحت من طول المراس والتجربة ترى بظهرها ، فاذا كان المعجبون بجسمها يعتبرون ان ظهرها وجها آخر لها أكثر ابهارا وجنونا من وجهها الأول ، فانها توقن من أن لوجهها الآخر عيون تبصر بها كل شىء ، وتـرى النظـرة الشرهة وهى تتسلق قناة ظهرها البارزة صاعدة من مؤخرتها بعد طول تلكؤ ثم هابطة من جديد الى الساقين . ذلك الاشعاع الكريه الذى أحســـته فيما هى متجهة الى المطبخ ذكرها بصور قديمة كريهة بل ذكرها بصور مطموسة من قريتها يفح منها الخوف والعفن والغموض ..

انحرفت الى المطبخ فانحـرف وراءها . قالت لنفســـها : ليس بمعقول ان يطاردها هكذا كالطلبة الغرباء يلاحقون المرأة الغسالة فى المطبخ ، فى حين انها كانت شبه عارية أمامه منذ برهة . لكنها تجاهلته ، وصارت ترفع ذراعها لتحضر حلة أو لتفتح بابا فيمتطى جسدها ، ثم انه دخل دورة المياه وسمعت هى بعد قليل نثيت مياه الدش فوق جســـده وسمعت وحوحته الطفلية السمجة ، وأحست لأول مرة ان هذه النبرة الصوتية المعبرة عن النشوة الخائفة أو الخوف النشوان تعرفهـــا جيدا

استمعت اليها من قبل ولم تحبها · ثم انها شرعت تعد الصحون وتسخن أطعمة كانت فى الثلاجة جاهزة ، فاذا بها تحس بصهد خلف ظهـــرها مصحوب بظل كثيف ثم اذا بجسم صلب يخترق عجيزتها فى ســـوقية ذعرت لها من أعمق أعماقها ، وكان رد الفعل المباشر أن تستدير اليـــه فتصفعه بالكف على وجهه أو تبصق عليه ، لكنها تذرعت بالهدوء وحاولت الابتعاد معبرة عن ضيقها ببسمة معووجة ممرورة ، وكانت تنوى التغاضى عن مثل هذه الحركات البذيئة مثلما تغاضت من قبل ، حيث تبين لها على طول التنقل بين المجتمعات ان البذاءة والسوقية بين كبـــار القوم لا مثيل لهما فى الدنيا ، لكن صفحة من الماضى البعيد دفعت بها الريح أمام عينيها فكأنها جدار ثقيل نزل بينها وبين عبد الجبار ، جدار ثقيل أسود فصل فى الحال بين عهدين حاسمين ، فقبل هذه اللحظة كانت قد اشتهته أما الآن فهى واثقة تمام الثقة انها لن تشتهيه بأى درجة ، لقد أحست بصوت القرار فى أعماقها داويا لا رجعة فيه ، لهذا أمعنت فى

تجاهل عبد الجبار ، وبكل رزانة وثبات كأنها امرأة غريبة عن الدار أخذت تعيد ترتيب الأطباق والشوك وعلى وجهها كثير من الحـــرج والصلابة ، ما ان استقرت فى وقفتها حتى شـــعرت بصهد الظـــل الكثيف يزحف نحوها ، فبعثت اليه من فوق كتفها نظـــرة اســـتنكار تحمل كثيرا من التقزز ، فكأن وجهه الغليظ المكلبظ جلد طبلة مرتخية متكسرة يرتسم عليها ما يشبه الابتسام الأبله ، ثم انها تذكرت هذه البسمة البلهـــاء الكريهة لكنها لم تتذكر بالضبط أين وممن ، لكنها تدرك انها تكرهها كره العمى · بثبات راحت تخرط الأوطة فى دوائر رقيقة ، فاذا به يلتصق بها دفعة واحدة ويطوقها بذراعيه لاهث الأنفاس يطلق فحيحا عميقا أجوف متدنيا · صارت تحرك نفسها بين ذراعيه بعنف وهو كالطود الراسخ حتى أنهكت وتركت نفسها بين ذراعيه كخرقة بالية ، فلما انتفض على ظهرها كالذبيح وتخلخلت قيوده حولهـــا ردت اليها الروح ، غير ان لزوجة قبيحة بللت عجيزتها فشعرت بقرف حاد ، وكانت أنفاسه الكريهة لا تزال فى أنفها فتيقنت فى الحال انها تعرف هذه الأنفاس جيدا ولكنها

لا تعرف أنفاس من على وجه التحديد انما تعرف انها تكرهها وتتمنى الموت لو قدر لها النوم لصاحب هذه الأنفاس ٠

استدارت اليه وقد تجمعت البصقة فى فمها ، لكنها تذكرت انها فى بيته وانه عبد الجبار صاحب وادى الأزرق وزعيم المنشئين ، فابتلعت بصقتها كارهة ، فانتابها غثيان ودوار ، سيطرت على نفسها حيث قررت فى نفسها أن تقاوم الغيبوبة أو الانهيار بأقصى ما تستطيع ، لكنها لم تستطع السيطرة على الغثيان ، فاتجهت الى حوض المياه وأمالت رأسها عليه وتهيأت لافراغ ما فى جوفها كله ، لم تكن تقصد أن ترسل عجيزتها الى بعيد وقد صارت شيئا منفصلا عنها متصلا بها عبر جسر من غدير ، ما لم تتصوره مطلقا حدث ، فوجئت بالجسم الصلب يخترق عجيزتها من جديد كعود من الحديد وفوجئت بحيوان ذى مخالب يتسلق ظهرها ليقبض على ثدييها ويفعصهما فى عنف شرس ، فانتفضت واقفة فى غضب شرس كفرسة جامحة ألقت به الى الوراء يضحك فى صبيانية بلهاء ثم نظرت فيه غاضبة حاقدة ، ثم أنبته بنظرة أخرى ، ثم استدارت من جديد الى الحوض ومالت نصف ميل وقلصت معدتها و ٠٠ تقيأت ثم أفاقت لكنها تصنعت التعب وتركت المطبخ متجهة الى حجرة النوم وارتدت فوق كتفيها سترة روب ، ثم جلست على كرسى مريح ، فجاء خلفها كطفل مذنب وضيع ، وجلس قبالتها ، قال بصوته المتحشرج : « مالك ٠٠ ما كنتى كويسة من دقايق ٠٠ حصل ايه ؟ » سلقته بنظرة ، لكنه فلفص منها وقال : « أجيب لك دكتور ؟ » ٠ قالت بسرعة وحسم : « لا ٠٠ مفيش داعى ٠٠ أنا كويسة مفيش أى حاجة بس أعصابى مش مظبوطة » ٠ قام اليها فاستقبلته بنظرة اشمئناط ورفض واستياء ٠ جلس بجوارها فوق حافة الكرسى حاشرا الحافة بين ضلعى مؤخرته ، وطرح ذراعه حول رقبتها فنظرت اليه فى رجاء كأنها تقول : « اعمل معروف سيبنى دلوقتى » ٠ فوضع رأسه على عنقها كطفل مدلل وقال : « عايزانى أسيبك اقلعى الروب » ٠ فنهضت وخلعت سترة الروب ورمتها بعيدا ثم جلست على كرسى آخر فى ركن بعيد ٠٠

اعتدل فى الكرسى واستدار به فواجهها قائلا فى شىء يشبه التهديد انها اليوم غير طبيعية ، ثم أضاف بأنه الليلة على ما يرام ولم يشهد لمزاجه انتعاشا طول حياته مثلما يشعر الليلة ، نعم فلقد عاش السنين الفائتة كلها يعمل ليل نهار كالماكينة الالكترونية التى ضبطوها على حركة معينة فهى لاتنى تدور فيها بدقة محسوبة حتى الجنس لم يشعر له بلذة أبدا لأنه لم يكن ملتفتا اليه فى شبابه وحين تزوج اختاروا له ابنة ثرى لم يشعر نحوها بالحب أبدا وان كان يشهد بطيبة قلبها وحسن أخلاقها وتربيتها ، وجودها فى حياته كأى شىء يقتنيه ، حتى وهى تسهر معه فى بعض السهرات أو ترافقه فى بعض المناسبات ، تسير تحت أبطه كشىء معلق فى ذراعه لا تغار ولا تسأله عن خصوصياته ولا تفعل أى شىء من هذا القبيل ، بل هى فى الفراش على جمالها الخارق ترتمى اليه كشىء يمتلكه ويمارسه وقتما شاء ·· وقد أتيح له أن يرتاد مجتمعات الجنس وأندية العراة فى شتى أنحاء العالم ، وانفتحت أمامه شقق وبيوت لا حصر لها تحوى نساء كالفاكهة الناضجة ، لكنها فى النهاية لا تثيره ولا تمتعه لاحساسه القوى بأنها لم تنفتح له بل انفتحت لأمواله ، ان أمواله تسبب له عقدة جنسية عويصة ، فكل النساء اللاتى أقبلن عن فراشه طائعات كن بدافع من اثنين : أما ردا على هدية قيمة واما انتظارا لهدية قيمة ·· وكان يمارس معهن الجنس أى نعم ولكن كنوع من الألعاب الرياضية المجنونة لا يحس بعدها انه قد استراح أو هدأت دأعماق صدره الجمرات المتقده ، بدليل انه لم يكن يحس بالهياج الحقيقى الا حين يرى امرأة أخرى بعد انتهائه من المضاجعة مباشرة ، فما أن يقترب الى المرأة الأخرى موضع الاشتهاء حتى تنكشف له أعماقها عن تاجرة جشعة ··

ثم ضحك عبد الجبار بصوته الأجش ضحكة لا معنى لها · طردتها البتعة من أذنيها ونهضت قائلة انها تشعر بالرغبة فى العودة الى البيت لتنام شهرا بأكمله حيث كانت قد دهمتها جحافل من الصور القديمة

الجديدة كلها ذات طابع مخيف حتى وان كان بعضها يأخذ سمة الضحك والمرح ، أشياء تكرهها وأشياء لا تعرف ان كانت تحبها حقا أم لا ، أمها وهل لا تزال على قيد الحياة ؟ خالها وأبناء خالها ومن غاش منهم ومن مات وماذا يا ترى حالهم ؟ عنتر كباية وهريدى وذلك الذى كانت تدعوه بمختار ، ورجال الثورة وحدائق اللبؤة وجبل المقطم كل ذلك تداخل فى بعضه وتناحر وتعارك وهد قواها فبدت مهزولة على غير ما يرام · اكتأب عبد الجبار فجأة وتحول وجهه المكلبظ الى عجينة مفعوصة بقبضة يد ، وحين تأملت هى فى ثقبى عينيه أحست بحقد دفين يخرج منهما وان اتخذت نظرته شكل العتاب · بلع ريقه وزام وأشعل سيجارة ، وقال لها انه لا داعى لأى قلق ، وانها تستطيع النوم فى هذا القصر كيفما شاءت لأى وقت تشاء ، ثم ذكرها بأنها من المفروض ان نيابة أمن الدولة قبضت عليها فكيف يكون موقفه لو ركب كحكوح جنونه وذهب يبحث عنها فى بيتها ليتأكد ··

انهارت جالسة فى اعياء وقهر شديدين · نهض عبد الجبار واتجه اليها فى جدية شديدة وفى شهامة ابن بلد ، ربت على ظهرها فيما قصد أن يكون حنانا ، واعتذر عما يكون قد بدر منه وأساء اليها ، ثم قبل رأسها ورجاها النهوض معه الى الشرفة فنهضت مستسلمة ليديه · الشرفة تطل على حديقة بعبدة الغور حافلة بأشجار الموز الخضراء بأوراقها العريضة الجميلة المنسابة من أسفل الى أعلى مثل أكف ضارعة ، تذوب فى الساق وتستقل عنه فى نفس الآن · أشجار الورود منتشرة والزهر يتسلق افريز الشرفة وعناقيد العنب تتدلى بداخل الشرفة فوق كرسى من خشب المامبو · فوق هذا الكرسى المستطيل العريض الجميل جلست البتعة ممددة ساقيها طلبا للاسترخاء والهدوء · وعند نهاية قدميها جلس عبد الجبار مكررا أسفه على ما حدث لها · ثم ضغط على ذر بجواره فجىء بغذاء جديد جاهز شهى ، أجبرت البتعة على أكله مع أقداح البيرة المنعشة وظلت أقداح البيرة تزحف اليها فى صحتها حتى انتعشت واستعادت حيويتها وصارت مستعدة لتقبل عبد الجبار

على علاته ، بل ان نظرتها تغيرت فجأة من الحقد الى الاشفاق ورغبت فى أن تعرف الكثير عنه منه هو نفسه ، فاعتدلت فى جلستها وجرته من جديد الى حديث الجنس فاذا به يفاجئها قائلا :

ـ « سوف أعترف لك بسر » .

أعطته كل انتباهها :

ـ « قل .. » .

فاندفع قائلا : « هل تتصورين اننى لم أشعر بالجنس الحقيقى الا وصورتك فى دماغى ؟ » . قالت باسمة : « كيف ؟ » . قال : « لا أدرى .. ولكننى طول عمرى ما حلمت بذروة الجنس الا معك » . قالت فى دهشة : « تقول طول عمرك .. أنت تعرفنى اذن طول عمرك ؟ » . ثم ضحكت فضحك هو الآخر قائلا : « أقصد من يوم ما عرفتك » . قالت منساقة وراء المتتاليات الحوارية التى حفظتها من أفلام التليفزيون : « ومتى عرفتنى ؟ » . قال ملوحا بكفه : « منذ .. منذ .. ثم ابتسم فى حيرة ـ منذ رأيتك تغنين فى فرح أحد أقاربى » . شحب وجهها : « أنت اذن تقصد رشا الخضرى ؟ » . قال ملوحا بكفه : « يو .. و .. ه .. ومن لايقصد رشا الخضرى ؟ » ـ ثم بلهجة ذات معنى : « على فكرة كانت تشبهك » . حمدت الله وان كانت لم تصدق انه يجهل كونهما ـ رشا وهى ـ شخصية واحدة .

على أن عبد الجبار فى ذكاء شديد حاول أن يعطى لهذه اللعثمة معنى فقال بلا معنى انه حين يرى رشا الخضرى فى التليفزيون كان يهتاج ، فقط لانها كانت تذكره بجسد معين لفتاة معينة كامنة فى أعماقه ، وهو لا يعرف بالضبط ان كانت هذه الفتاة المعينة سبق ان رآها فى مراهقته أو طفولته أم انها من خلق خياله ، ولكن هل ينجح الخيال فى أن يخلق صورة حية مجسدة الى هذا الحد ؟ ولماذا تكون على هذا النسق ـ

أقصد نسق رشا الخضرى فلما رأيتك أول مرة ـ هكذا أضاف باسما ـ أحببتك لأنك انقح « من رشا الخضرى جسدا وشكلا وروحا • تأملته بعينين فاحصتين باحثتين عن شيء يسمونه الحقيقة ، فلم تجد له عينين حيث أن عجينة وجهه كانت في حالة انفعال تقلصت معها وزحفت الأذنين فوق الخدين والتصق الخدان بالجبهة •• فضحكت بمرح رغما عنها ضحكا رنانا صافيا ، ثم ركنت رأسها ونظرت فى حوائط الشرفة وكانت نفس العجينة المفعصة تطل له من فوق حلل فاخرة وكانت هى تعجب كيف استطاع كل من عاملوه أن يتعاملوا مع هذه العجينة الخمرانة على الدوام •• لكنها انفجرت تضحك وتضحك وهو يتابعها مفصحا عن عينيه شيئا فشيئا وكلما ظهرت عيناه اكتست عجينة وجهه بتعبير ما ، ثم قال لها فى تفاخر خجول بعض الشيء فيما يشير بأصبعه الى الصور : « فعلت كل هذا لأتحدى أبى •• وأسعد لحظاتى هى التى أراقب فيها أبى حين يتفرج على مثل هذه الصور ، أحيانا كان من الفرجة يصيح ورائى كالطفل مطالبا بأن آخذه معى الى حفل افتتاح كوبرى أو مصنع أو مخبز أو فندق أو ماتش كورة •• وكنت أربت على ذقنه فى حنان وأتركه وأنصرف •• كان أبى تاجر حبوب ، وكان غنيا وكان بخيلا الى حد لا يطاق ، يكفى اننا تعلمنا أنا واخوتى دون أن نتكلف من ثروته مليما واحدا ، كلنا ذهبنا للشغل فى الوسايا وفى البلاد واقترضنا من جدتى لأمى ومن أخوالى •• وكان يتلذذ كلما رآنا فى عوز ، ويتشفى قائلا : سوف تعودون لى •• وان عدنا اليه سمم أجسامنا بقارص الكلام •• انت يا ولد مكنة أكل ؟ يكفيك رغيف واحد••وانت يابنت مالك كالبقرة •• وأنت يا امرأة ـ يقصد أمى ـ خففى عن العيال بدلا من الحشر حتى لا يمرضون ويكلفوننا أموالا ليست معنا •• لسنا نحب يا ولية ان نصرف من بتاع الناس •• وهكذا ظللنا أنا واخوتى نرتعب من بتاع الناس فتركناه للناس وبحثنا لأنفسنا عن بتاع نفقات منه وكله من رضا الوالدين. أقصد رضا الوالدة فقد ماتت رحمها الله وهى تدعو لى ولاخوتى •• أبى الآن بكل هيله وهيلمانه وأمواله ينام فى البلدة على شاطىء الرياح

الزرقاني مجرد واحد من الأعيان لا نحتاج اليه ولا يحتاج الينا .. بعض المتحفظين من قول كهذا يقوله انسان عن أبيه ، لكنني سأكتبه سأكتبه في مذكراتي وسوف أخلق منه درسا لشباب البلاد حيث يتعين على كل منهم أن يتحدى والده ويخلق من نفسه شيئا كبيرا عالي المقام .. انها الأموال .. النجاح .. كم حققت في حياتك من أملاك يافتى ؟ أكثر مما حقق أبوك ؟ اذن فأنت قد نجحت بعون الله وحسن اجتهادك . هل حققت أقل مما حققه أبوك ؟ اذن فأنت قد فشلت وضاعت حياتك هدرا ولا بد انك لست بسخط الوالدين أو بالضلال عن الهدى والحق . أما ان حققت أقل من ذلك فأنت غير جدير بالحياة .. هكذا الدنيا .. لسنا لا سمح الله نقول انها غابة مليئة بالذئاب كما يقول الشيوعيون ، ولن نقول لك تذئب حتى لا تأكلك الذئاب .. حاشا لله .. انما نقول ان الحياة شطارة .. وهناك ناس تتبعثر الأموال حولها منادية عمن يستفيد بها وهم مع ذلك لا يرونها .. انهم اذن مغفلون .. وهناك شبان طلعوا علينا هذه الأيام بتهمة التكفير يبعثرونها في كل اتجاه ويعتبروننا نحن الأثرياء في ضلال عظيم ..

ثم اغتاظ فجأة وصاح بغضب : « ليتني أدرت جهاز التسجيل لأستطيع أن أقول هذا مرة أخرى .. هكذا يجب أن أدون في مذكراتي ولكنني دائما أنسى اصطحاب جهاز تسجيل في مثل هذه اللحظات النادرة التي أراني فيها محبا للحديث عن نفسي وعن حياتي .. لقد داخ الولد المحرر معي في الحقيقة .. طلبته في أوقات متعددة وحالات نفسية مختلفة ولكنني عندما يحين الحديث ونفتح ـ الجهاز وهو يسدد لي نظراته البلهاء من خلف المنظار تجف ينابيع الحديث في نفسي ، وأراني أقول كلاما فارغا ، أسرح في أشياء فرعية ويبدو على انني لست أعرف بالضبط ماذا أريد قوله . فحيث أريد أن أسجل قصة حياتي وكفاحي أراني قد انحرفت فجأة الى الحديث عن مواقف مثيرة حدثت بيني وبين بعض الزعماء أو الملوك أو المسئولين الكبار الذين لم يعد لهم وجود في

الدائرة الضوئية » فاذا بذكرهم يغريني بالاسترسال في الحديث عنهم وكيف ساوموني على كذا وكيف وكيف عرضوا على الرشاوى وكيف وقفت وكيف دافعت وكيف تخلصت • ألانني في أعماقي مولع بأن يقترن اسمي بأسماء زعماء وملوك وأباطرة ؟ أم لأنني أزيد بالفعل أن أفضي بأسرار يستفيد بها التاريخ وتنتفع بها الأجيال ؟ •• ولكن لا •• تعالوا هنا •• ألسنا الآن نريد أن نخدم التاريخ والأجيال ؟ حسن ، فلننسى قصة حياتنا الشخصية وتكتب فصولا من مذكراتنا عن مواقف هامة عشتها مع رجال لهم أهميتهم في تاريخ البلاد ؟ •• ولسوف أسجل تاريخي من بينهم ، نعم فأنا الذي استطاع أن يتجاوز معهم جميعا ويتجاوز كل قواهم الغاشمة وأحقادهم ويحتفظ الى ذلك بصداقتهم • سيقولون انني أجرح الموتى وأفضح رائحتهم العفنة مع اننا كنا أصدقاء صداقة يضرب بها المثل •• وأقول لهم ان الحي أبقى من الميت ، وانني رجل أحترم حق الأحياء وأحترم حق التاريخ في أن يعرف ، أنا هنا مجرد من الأهواء الشخصية » •

ثم صب لنفسه كأسا من الويسكي ولها قدحا من البيرة المعلبة ، وقدم لها أصبع بطارخ التهمته كله وراء جرعة بيرة ، فانتقى واحدا آخر مثل خيارة لطيفة الحجم وقام بنفسه وهم بادخاله في فمها لكنها أشاحت بكفها وهزت رأسها رافضة فتوقف ناظرا اليها كأنه يقول : عشـــان خاطري •• فلم تعره التفاتا • فهم بادخاله ثانية في فمهـــا ، فمدت أصابعها السرحة الطويلة الأظافر وأمسكت أصبع البطارخ وجاملته بأن قضمت منه قضمة صغيرة أخذت تلوكها في ملل • فجلس وقد أحس بقليل من الصدمة ، ودفع الى جوفه بكأس الويسكي دفعة واحدة ، ثم قال وقد بدا أنه يتذرع بالصبر : (أقسى شيء يمكن أن يقع في حياتي هو أن يحبط مزاجي هذه الليلة •• هذا شيء لا أستطيع احتماله أو معاناة آلامه •• لربمـا انفجرت الى شظايا ان حدث لا قدر الله ما يعكنن على ويخمد جذوة اشتعال مزاجي ! •• أنا الآن لست عبد الجبار •• أنا ذلك الرجل الذي وجد أخيرا جزيرة وارفة الظلال فآب اليها بعد طول تشرد

بين الأمواج والرياح ! .. لقد عشت كل هذه السنين الفائتة أنتظر هذه اللحظة ، نعم هذه اللحظة ، حيث يتم اللقاء بيني وبين من ظلت مدى الحياة مصدر أحلامي الجنسية !! أنت هي !! أقصد انك أنت هي التي عاشت في مخيلتي وأفسدت على كل العلاقات مع الجنس الآخر !! لقد فشلت كل علاقاتي معهن شرعية كانت أو غير شرعية وكان فشلها لحسابك أنت ! لقد كنت أطالبهن جميعا بأن يكن أنت وهذا مستحيل !

وقد غاب المستحيل عن دائرة حياتي فترة من الزمن غرقت فيها في تجميع كل هذه الأموال وتحقيق كل هذا الوجود العريض !! لكنه سرعان ما هب على أفق حياتي من جديد ، فحيث كنت أظنه مستحيلا اذا بي أجده يتحقق في صورة رشا الخضري ، فلما ضاعت رشا الخضري تحت سنابك المرتزقة من أعوان الثورة الازرقية واندفنت تحت ركام الأحداث في كهف مجهول رأيتك فاذا المستحيل يتكرر ، ولكن كأنما ليقول لي ان هذه هي آخر فرصة لي معه ، ان المستحيل ان حدث فهو لا يمكن أن يتكرر ، هذه من مسلمات الدهر ، أما ان تكرر فلكي يبلغ هدفا أعظم أو رسالة عظمى ، وأنا قد تلقيت هذه الرسالة التي قالت لي : أغتنم هذه الفرصة لأنها لو ضاعت منك تظل بقية العمر تعاني حرارة الندم وحسرته ، هذا ان بقي لك عمر بعدها) .

ثم صب لنفسه كأسا ، وأكمل لها كوب البيرة ، فهزت رأسها شاكرة في رصانة وقد أحست انها أكبر مما كانت تتصور وأفخم ، ثم شعرت ان هذا الاحساس لن يقودها الى شيء ذي بال فنبذته . ابتلعت نصف كوب البيرة ، وأشعلت سيجارة واعتدلت جالسة كأنها تعطيه الاشارة باستئناف الحديث ، ففي الواقع كانت قد بدأت ـ منبهرة ـ تستلطف حديثه وحركاته وتلتقي معه عبر حديثه على عقد مشتركة وأشياء كثيرة مسموعة في حياتها الخاصة ، نعم فهو يشبهها في كثير من الأشياء وهي تشبهه في كثير من الأشياء . شدت النفس واستحثته قائلة : « هيه »

وضع ساقا على ساق وجرع الكأس وصب غـيره وألقم نفسه أصبع بطارخ ، وكانت الحيوية تتدفق من عينيه على وجهه ، ويتحرك بنشاط ، ثم قال كأنه يبدأ حديثا جديدا : « لست أعرف ما سر هذه النشوة التى هبطت على الليلة ·· أشعر الآن اننى شاب فى العشرين ·· بل دون العشرين ·· أنا الآن ·· بالضبط بالضبط ·· طالب فى « الثانوية التوجيهية » وفى حديقة منزلنا فى البـلد أو فى حجـرة الخزين ، تنتابنى الآن نفس مشاعر تلك الفترة ، أشم رائحة بيتنا القديم فى البلد ، أشم رائحة الحبوب المخزونة ، أشم رائحة محل الأدب ، رائحة السمن المقدوح ، أحس بخفقان قلبى على حق ولأول مرة منذ ذلك الزمان البعيد ، خفقان نشوان اذ أن فى انتظاره الأنثى ، الأنثى التى هى · أسراب النمل الآن تتمشى فى عروقى ، حتى انظـرى ، ها هو الكأس يرتعش فى يدى ، لا أدرى ان كنت غاضبا الآن أم نشوانا ·· أما كونى نشوان فهذا مالا جدال فيه ، وأما كونى غاضب فهذا وارد ، لأننى أحس بالانفعال كالنواة داخل تمرة النشـوة ·· ولكن لماذا أرانى أنفعل ؟ ما السبب ؟ هل لأننى فى أعماقى كما لو كنت أريد الانتقام من شىء ؟ ربما كان فى أعماقى ثارات كثيرة مبيتة ولكننى لم أجرب لحظة الانتقام أبدا ، ولكن مم أنتقم ؟ لقد أساء الى زعماء كثيرون وأضربى قواد كثيرون ومع ذلك لم أفكر فى الانتقام منهم بل اننى حين جاءت سيرتهم فى مذكراتى تحدثت عنهم بكل حب ولطف وأمانة ·· وجدتهـا ·· وجدتهـا ·· سر الانفعال الكامن فى شرنقة النشوة هو خوفى من فشل هذه اللحظة التى أعيشها الآن ·· انه وحده عذاب أليم ولولا هذا الويسكى الأمريكى العظيم ليدنى ثقله ·· ان كان فى الأمر ثمة انتقام فيكون فى شهوتى الجامحة ورغبتها فى الانتقام من الحرمان الكبير !! » ··

ثم انه انتقل اليها بكأسه وجلس فوق حجرها واضعا رأسه فوق صدرها والكأس فى حضن الثديين ، وكان ينتفض وتنبعث منه حرارة كثيفة مخيفة ، لكنها أحست بضعفه الشديد فى هذه اللحظة ، دفعهـا

الاشفاق الى ابداء الرقة فهو مهما كان رجل كبير الحجم قدم لها خدمة ويكفى انه نجاها من حقارة كحكوح وما كان ينتظر لها بجواره من مصير ، ثم تذكرت فجأة بخفقان قلب انها بدون رجل كهذا فى الحياة ســـوف تأكلها الذئاب ، وحسمت الأمر فى نفسها بأن رضيت ان يلعقها كلب من ان يأكلهـــا ذئب ، ولكن ايهما الذئب وايهما الكلب : عبد الجبـــار أم كحكوح ؟ ٠٠ هنا لم تستطع الحسم برأى لكنها قالت ان تجربتها مع كحكوح تثبت انه اخس من رأت على ظهر الأرض ٠

وانتبهت فاذا بعبد الجبار قد أباح لنفسه أشياء كثيرة وأفعالا كثيرة دون ان تدرى ٠ اذا بها مضطجعة فى مخرجها وعبد الجبار كله داخلا فى جوفها واذا بالكأس يندلق بين ثدييها فيفيقها قليلا ببرودته واذا بعبد الجبار يلاحق الشراب المنسرب بين الثديين فيشربه ويمتصه بنشوة بالغة ٠ ولم تكن قد خلعت قميصها ولا هو ، ولكنهـــا فوجئت بنفسها بين يديه كريشة فى مهب الريح يطوح بها فى كل اتجاه ويضربها فى سقف النشوة ضربات موجعة ، ثور هائج يفح الشرر من عينيه ومن الجنون والعبث مقاومته لكن جنونه كان أخرقا ، كان يلعب بها كالبهلوان وكانت ترى نفسها معلقة فى الهواء أو منكفأة على وجهها وكانت توشك ان تلفظ أنفاسها عدة مرات ، وكانت تبعث الشـــحير واللهاث والاهات العميقة المسترحمة دون جدوى ، ثم اذا بها تصرخ من أعماق جوفهـــا المعبأ بالنار ٠

لمح الذعر فى عينيه ٠ انحنى فوقها وصار يقلبها فاذا بها كالخرقة بين يديه لكنها جاحظة العينين تنثال فقاقيع الريالة على شدقيها ويخلو وجهها من كل حياة ٠ أمسك رسغها وجس نبضها فلم يجد سوى خشبة أنيقة الصنع تركها فانهارت على الأرض ٠ وضع يده على قلبها ، لا نبض ، لا حركة ، لا حياة ٠ مصيبة ٠ وضغط على شفتيه السفلى فى غيظ ٠ عاد يقلبها ، لا جدوى ، مددها وعدلها وأسبل عينيها وغطاها ثم اندفع يهرول الى الداخل ٠ دخل تحت الدش مباشرة وظل يسلم رأســـه لخيوط الماء

ويفح ويفتح عينيه ويهز رأســـه ثم يتفكر ثم يعود للدش من جديد .
دعك نفسه بالماء البارد والساخن حتى يفيق • أخيرا خرج عن الماء وجفف
نفسه وخرج بالبشكير ملفوفا حول جسده وهو يتوقع أن يراها جالسة
معتدلة في رقدتها ، لكنه رآها من بعيد وقد تخشبت تماما ، ومع ذلك
اقترب منها وصار يهز رأسها ويدغدغ جسدها ولكن لا حياة لمن ينادى
.. وأدرك أنها ماتت ، فانهار جالسا بجوارها خابطا رأسه بقبضته ثم
خابطا الأرض بقدمه فى حقد جنونى ، ثم اسند رأسه بين يدية لبرهة
طويلة أفلتت خلالها من عينة بعض دموع ميتة باردة • ثم انه نهض فى
حيوية مفاجئة ودخل حجرة النوم وأخذ يرتدى ثيابه • واذ هو يفك ربطة
« الكرافت » ويعيد ربطها بشكل أنسب لمع الخاتم الرخيص فى أصبعه
لمعة خادعة جعلته يوقف يده ويعيد النظر فى الخاتم ويتعجب فى نفسه
من أن يـكون للمعدن الرخيص لمعتـه البراقة حتى وان كانت خادعة ،
ثم ان عجينة وجهه تقلصت ، فترك رباط العنق وهرول الى الشرفة من
جديد ، وخلع الخاتم من أصبعه وألبسه أصبع البتعة ثم نظر فيه فوجده
غير ملائم على الاطلاق ، لكنه تركه فى يدها وعاد الى حجرة النوم ووقف
أمام المرآة يكمل رباط العنق •

باب الخرق

★ كيف عاد الجسد الغريب الى أصل غربته :

- ١ -

في تلك الليلة المشئومة كان صاحب السعادة الكلب ميشو لا يزال ينتظر صاحبته فى عربتها الخاصة ـ أقصد فوق العربة ، فمنذ أن جاء أحد الخدم وفتح له الباب ليتهوى ظننت انه سيندفع الى الخلاء كما نفعل نحن ، اذ ما يصدق الواحد منا أن ينفتح أمامه باب حتى يندفع بأقصى سرعته ربما الى غير رجعة ، ربما لشعورنا المتوارث بالخوف من السجن ، ربما لأن كلاب بنى الأزرق يولدون وفى أعماقهم باب السجن الموصد على الحياة ولهذا فنحن مدربون على التسلق ونط الحواجز وقفز الترع والمصارف كما نحن متعودون على تلقى الضرب باستمرار ودونما سبب .. أما صاحب السعادة ميشو فانه حين انفتح له باب السيارة دلف خارجا فى رصانة وهدوء كقيصر الروم ، ثم أخذ يحوم حول العربة ناصبا أذنيه شاهرا كل حواسه ، وكان عكر المزاج لحظتها حقا ، يتحرك فى عصبية وينبح بصوت مهذب ثم آبت ثورته الى صمت دبلوماسى مريب ، وكان قد صعد الى مقدمة العربة واستراح فوقها كأنه يفكر بعمق شديد فى أمور خطيرة . أما أنا فان خصلة الصياغة والشمشمة بحثا عن الرزق وقتلا للفراغ قد دفعتنى الى اقتفاء أثر سيدتى وقد نجحت فى التوصل

اليها بحيل يعجز عنها صاحب السعادة ، حيث شممت رائحتها فى الشرفة المطلة على الحديقة فتسلقت جدرانا وأشجارا ثم أقعيت على حافة الشرفة مباشرة فرأيت كل ما حدث وبشكل تفصيلى وقد اقشعر بدنى وأماتنى الذعر فى جلدى ، ولم يكن قد بقى فى من علامات الحياة سوى الشعور بالحزن العميق الممض ، وتأكد لى أننا معشر الكلاب الضالة من بنى الأزرق نرى كل هذا الخرق لأننا كلاب ضالة لا قيمة لها ولا سعر حتى وان كنا مثقفين موهوبين ، الضلال فى الحوارى كالضلال فى القصـــور يفقـد الانسان فيه كيانه ويتبدد من كثرة ما يرى ـ أقصـــد الانسان الكلب أو الكلب الانسان • ليست هذه تسمية من اختراعى ، ولكن الواحد منا يكون انسانا حين يعلن احتجاجه وبكل قواه على كل ما يمكن أن يهدر انسانيته ، ويكون كلبا حين يصبح جزءا من الخرق لا يتجزأ ولكم سالت نفسى هل انسلخ الانسان فى عن الكلب أم ضاع ولم يبق سوى الكلب ؟ لكننى لم أصل الى جواب حاسم ، ولولا وقوعى بين شقى هذا الصراع لما رويت لكم هذه القصة من الأساس • ومنشأ الصراع اننى دون معظم كلاب بنى الأزرق لازلت أشعر بالقدرة على عدم الاعجاب ، وعلى التصريح به فى أى وقت فى أى ظرف أمام أى أحد ، وذلك يسبب لى ضربات ببوز الحذاء وأحيانا فى بطنى وفى كل موضع مؤلم فى ولكننى منذ أن رأيت أمى تهبط الى المستنقع النتن مشجوجة الرأس دون ذنب جنته وأنا أدخر فى أعماقى رفضا غامضا لكنه قوى مرذول ، وكلما تذكرت ذلك المشهد البعيد تتيقظ فى نفسى عيـــون تريد أن ترى الكثير وآذان تريد أن تسمع المزيد ••

كانت هذه الخواطر تأكل فى رأسى كألسنة اللهب فيما أنا مقع على حافة الشرفة ، حين تناهى الى سمعى صـوت صاحب السعادة ينبح بقوة وانفعال مخيفين فنزلت أجرى نحوه لأحكى له ما حدث ، ولكننى فى منتصف الطريق بين الأشجار الكثيفة وأحواض الزهـــور فوجئت برصاصة تنطلق من مكان مجهول وتصيب صاحب السعادة فى رأسه مباشرة ، فعوى مرتفعا فى الهواء علو شجرة ثم هوى فوق الأرض ينتفض•

فتسمرت فى مكانى أرتعد حتى رأيت ولدا خشننا أغلب الظن انه بستانى يتقدم ويجر صاحب السعادة من سلسلته المثبتة ، فأخذت أرقبه من بعيد فرأيته يغيب صاحب السعادة فى حفرة عميقة ويهيل عليه التراب .. فعرفت ان نفس المصير ينتظرنى وأخذت أبحث عن وسيلة للخلاص دون أن يدرى بى أحد . لكننى ما كدت أندفع بحثا عن منفذ حتى تعثرت فوقعت فانطلقت منى صيحة شدت انتباه البستانى اللحاد فنظـــر الى باستهانة وصاح : « امشى » ، فتسمرت ثانية من الدهشة وقد أحسست بأننى لا قيمة لى حتى يصبح لقتلى قيمة ، ولعل البستانى لم يتلق أمرا باغتيال أمثالى من الكلاب المنسحقة حتى ولو كانت تعرف زبدة الأسرار ، ذلك ان السر ان لفظه شخص مهم صار شيئا هاما وخطيرا أما ان لفظة ضال منسحق مثلى فهو تخريف عامة وهو أنيميا وضيق أفق . لحظتئذ دهمنى شعور قوى بأننى يجب أن ألحق بصاحب السعادة فأشاركه نفس المصير ، وبأننى يجب أن أعرض نفسى للقتل عامدا ، يجب أن أنبح وأثير فى الكون ضجيجا يفضح هذا الخرق العظيم ويشهد العالم عليه . وقلت لنفسى : اننى اذن سأفضح المجتمع الأزرقى وأكشف عن نقاط ضعفه للعدو الذى يتربص به ليدوس كل صغيرة وكبيرة فيه ، وشعرت بكثير من العار يشتد أواره فى صدرى ، ثم قلت اننى حين أصرخ لن يكون هدفى هو الفضح بقدر ما هو طلب للنجاة من كائن أقوى ، فحيث كان المفروض أن نقوم نحن بصنع النجاة بأنفسنا أصبحنا لفرط كلبيتنا نطلبها . فلما شرعت أنبح لم أجد صوتى ، لم أجد الا صوصوة عاوية من الجوع والألم تطلب الطعام قبل أن تتمكن من طلب النجاة . ظللت مسمرا فى موضع عثرتى حتى رأيت البستانى اللحاد مقبلا نحوى فأخذت أرتعش وأغوص فى الأرض دون حاجة الى حفرة ، فاذا بالبستانى اللحاد يمر بجوارى غير عابىء بى فيدوس عفوا فى بطنى فأصرخ مدافعا بأنيابى فيركلنى فى بوزى ركلة سريعة ثم يواصل السير بعيدا عنى .. فعرفت ان من حقى التجوال كيف أشاء . قطعت الحديقة جريا وهرولة واكتشفت ان لها عديدا من الأبواب السرية والسحرية واننا دخلنا من غير الذى دخل منه كحكوح ولهذا فان

كحكوح حين كان هنا منذ ساعات قليلة لم ير سيارة البتعة ولا كلبهـا لأنهما كانا فى الجانب الخلفى ، واستنتجت ان هذه الأبواب وهذه الزوايا أعدت لتسريب وفود من وراء ظهور وفود ، فقد يفضى بك هذا الباب الى طريق بينه وبين الطريق الذى يفضى اليه الباب الآخر عشرات الأميال ٠

وكنت قد وجدت نفسى خارج باب يفضى الى طريق لم أتبينه جيدا ، فأخذت أحاول التعرف عليه فاذا بى أرى سيارة البتعة تخرج من أحد أضلاع الحديقة لتنطلق فى طريق عمودى يفصله عن الطريق الذى أشرقت عليه حقول عريضة ، كانت رائحة سيدتى تنبعث من العربة رغم سرعتها الشديدة ، فاندفعت أجرى خلفها مخترقا الحقول ٠ أدركت اسـتحالة اللحاق بها فاستدرت عائدا الى حيث يوجد جثمان سيدتى ٠ ورأيت سيارة قادمة على الطريق الثالث المواجه للضلع الثالث أغلب الظن انها سيارة اسعاف كان الباب مغلقا لكننى تسللت من تحت الأسلاك الشائكة ودخلت فما ان وصلت الى الساحة الخضراء حتى رأيت سيارة الاسـعاف تزحف داخلة ساحة الفيلا ، عرفتها طبعا من شـكلها ومن شـاراتها الحمراء والكتابة التى عليها ، يقودها سائق عجوز ممرور مكدود يرتدى كاب الاسعاف الأحمر وحلتها الصفراء ، وبجواره الأسطى حسنين ٠

. نزل الأسطى حسنين وراح السائق العجوز يعدل وضع العـربة لتكون مؤخرتها فى مواجهة باب البهو ٠ واندفعت أجرى الى أن وصلت حافة الشرفة ونظرت فيها فوجدت أن جثمان سيدتى قد ارتدى ثوبا شديد التواضع تفوح منه رائحة غريبة نفاذة لا أعرف ان كانت رائحـة القدم أم رائحة العثة أم رائحة الخزين ، على طراز نصفه فلاحى ونصفه بندرى ، فيه صدر مشغول بالترتر ، أما رأسها فقد التفت بطرحة قديمة من الحبر الأسود ، فتغيرت معالم سيدتى تماما وخيل الى انها الآن تستعد لتصوير لقطة جديدة فى فيلم نهايته الموت لحياة حافلة بالغرائب والمدهشات ٠ ثم اننى تأملت منظرها محاولا تحديد شخصيتها فى هذا الفيلم فوجدتها شخصية « غازية » من غوازى الموالد والأفراح تخشنمت على سفر فأدركتها

الميتة • انفتح الباب ودخل الأسطى حسنين • وكان ضوء اللمبة الصغيرة المنبعث من ركن مجهول يصنع أشباحا ترسم أسرابا من النساء المتشحات بالسواد يلطمن الخدود ويصوتن فى حرقة • اخترق الأسـطى حسنين ظلالها وتقدم نحو سيدتى فطرح عليها ملاءة بيضاء لفقتها ثم حمل جثمانها على ساعديه واستدار خارجا ••

بقفزة واحدة صرت فى أرض الحديقة بين أشجار الموز الملساء هرولت نحو العربة فرأيت الهدوء الشديد يعم كل شيء وليس من أحد فى هذا السكون حتى السائق القابع خلف عجلة القيادة ينتظر فى الظلام لم يكن موجودا • كان باب العربة الخلفى مفتوحا • قفزت الى داخل العربة لأرى دكتين من الخشب المنجد متقابلتين ارتكنت تحت أحداهما ودفنت نفسى فى الصمت والظلام وبعد برهة زحف جثمان سيدتى يرتطم بأشياء فى العربة حتى تمكن الأسطى حسنين من راحتـه على احـدى الدكتين ، ثم هبط الى الأرض وصعد مرة أخرى بحقيبة كبيرة لكنها قديمة وبالية ، حقيبة من الجلد الطبيعى ذى الرائحة لكن جوانب الغطاء منفرجة والأقفال خربة ولذا فهى محزمة بدوبار غليظ محـكم ، أما اليد فقطعة من الجلد ملفوف عليها عشرات الخرق المربوطة فى الحقيبة باحكام • وضع الحقيبة على الدكة الأخرى ثم هبط الى الأرض وأغلق باب العربة وذهب الى كابينة القيادة فجلس بجوار السائق ، وسمعت خرخشة ورق رصين وصـوت السائق يقول : « ما هذا ؟ » ، وصوت الأسطى حسنين يردد فى عطف أخوى : « هدية من البك •• جزاء ما تحملت المشـقة معنـا فى هذا المشوار » • قال السائق فى غبطة : « أهذه التخانة كلها جنيهات ؟ » ، قال الأسطى حسنين : « انها عشرات يا بقف •• سوف تعيش أياما طويلة فى بحبوبة » • قال السائق : « الله يكرمه •• ولكن لماذا كل هذا التعب ؟» • قال الأسطى حسنين : « يا رجل يا طيب •• سـعادة البيك حين يعطى لا يقل عن هذا ولا يصغر قال السائق فى امتنان : « ابن عز •• ابن أصول •• يشعر بحال الفقير •• اللهم أكرمه وزده من فضلك » ••

ثم ان السائق أدار « مارش » العربة وعدلها ثم أضاء النور واندفع خارجا . وحين اعتدلت السيارة على الطريق الطوالى وأخذت سرعتهـا الرابعة أشعل السائق سيجارة روثمان وقال : « لكن ايه الحكاية بالصبط يا أسطى حسنين .. مالها الست .. حنوديها مستشفى ايه ؟ .. عشان لابد أفوت أخذ زميلى من حتة قريبة » . قال الأسطى حسنين وهو يشعل لنفسه سيجارة هو الآخر : « شوف بقى .. لا مستشفى ولا يحزنون .. الحكاية باين عليها مش مستهلة .. حاكم الست دى والعياذ بالله عندها المرض اللى اسمه : الصرع ، زى اللى كان فى تمثيلية القرين.فاكره ؟ .. بعيد عنك تجيلها الحالة تفقد الوعى قول ساعة قول ساعتين (ثم هامسا فى لهجـة ودودة) بينى بينك أصلهـا من قرايب البيك بس من بعيد قوى قوى .. تقريبا أهلها كانوا بيعرفوه وهو لسه فقير .. فلما ربنا كرمه فضل يعطف عليهم .. الناس لمؤاخذة معندهاش مخ .. ان كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله .. ده راجل ماهش فاضى لوجع الدماغ كل ساعة والتانية .. هو قادر يطلب لها أجدع دكتور فى البلد ، ولا يوديها أحسنها مستشفى..لكن هو بينى وبينك عمل بالعند المرة دى حالف ما هو عامل لها حاجة .. أصلها بقى محترفة الحكاية دى .. بتستغل ضعفه وكرمه .. كل يوم والتانى تيجى تعمل التمثيلية دى قدامه عشـان يديها ثمن الدوا والعلاج الذى منه .. دا غير اللى هى بتأخذه كل شهر .. هه .. وربنا يستر على عبيده » . وقال السائق العجوز : « بنى آدم عينه فارغة ما يملاهاش الا التراب .. أنا كنت ناوى أقوم أسعفها بأى حاجة لكن مادام هى غاوية تمتيل سيبها بقى .. داهية تاخدها » . ثم اندفعت السيارة تنهب الطريق نهبا .

– ٢ –

توقفت العربة بعد وقت طويل من السير . ونزل الأسطى حسنين واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وفتح باب العربة فازددت انكماشا

في ظلمتي • فانحنى هو ودخل فأخذ الحقيبة ومضى فتسللت وراءه وهبطت في أثره دون وعى منى • لم يرني • لأنني تسحبت الى بعيد كأنني من أبناء هذه المنطقة • رأيت الأسطى حسنين يختـــار للحقيبة وضعا مناسبا في حوض مستطيل تبينت فيه حوض ساقية قابعة تحت شـجرة توت عجوز كبيرة ، ثم انه عاد الى السيارة فغاب فيها قليلا ثم خرج حاملا على ساعديه جثمان سيدتى ، ثم نادى بصوت ودود مرتعش صائحا : « يا جماعة يالى هنا •• يا أم الخير » ، فزحفت الى حيث كان يقف مناديا فتبينت في الظلام بنـاء من أربع جـــدران بالطوب النيء مسقوفة بجذوع الأشجار • دخلتها فلم أجد بها أحدا على الاطلاق عرفت ان هذا البناء هو ما يقيمه الفلاحون في الحقول ويطلقون عليــه اسم (الطيارة) لكى تستريح فيها مواشيهم ودوابهم الشغالة ، وعرفت أيضا ان الأسطى حسنين يعرف انها خالية من السكان فى هذه اللحظة وانه يموه على سائق العربة التي وقفت الى بعيد جدا بحيث حين ينحرف الأسطى حسنين الى الساقية لا يراه من يكون فى العربة • ثم ان الأسطى حسنين بعد أن نادى مرتين نراجع خطوة ووضع الجثمان فى حوض بئر الساقية مسندا رأسه على الحقيبة ثم وقف صائحا : « اتمسوا بالخير بقى •• لا والله ما أقدر أستنى ولا دقيقة •• تصبحوا على خير » ، ثم اندفع مهرولا حتى وصل الى العربة فركبها بجوار السائق • واندفعت العربة تغوص في الظلام وعجلاتها تطلق صريخا ملتاعا ••

اندفعت الى جثمان سـيدتى • صرت أنبح بكل قوتى • فلمـــا لم يجاوبنى أحد رابطت فوق عدار الساقية بجوار رأس سيدتى مباشرة وأخذت انتظر الصباح •

ـ ٣ ـ

يبدو انني غفوت قليلا أو كثيرا لا أدرى ، لكنني حين فتحت عينى كانت الشمس تتوسط عين السماء وتصب قيظها فوق جثمان سيدتى

الذي غطى بأشياء جديدة وبعثرات البشر رجالا ونساء وأطفالا وخفراء وشرطة . وكانت الحقيبة قد نزعت من تحت رأسي سيدتي وانفتحت وراح رجال الشرطة يفرزون ما فيها فلم يجدوا سوى أشياء غريبة : خلخال فضي قديم ، مكحلة ، زجاجة عطر رخيص من نوع قديم جدا ، عقد من الكهرمان الأصفر ، قميص نوم مشغول بالترتر ، قسيمة زواج . تناولها رجل الشرطة بلهفة وانتصار كبيرين ووقف يقرأها ثم صـــاح معلنا ان صاحبة الجثمان هي : « بسيمة أحمد ربيع » ــ زوجة « هريدى خليل هريدى » .

ــ ٤ ــ

هنـــا فقط اهتزت الأرض وارتفع أوارهـــا بالصراخ والنحيب . الجميع تقريبا فيما عدا الشرطة يبكي بحرقة . نظرت فرأيت ثلاثة أجيال تبكي . صيحات تتعالى حول الجثمان : « أخيرا رجعت لبلدها .. شوف الدنيا .. بعد هذا العمر الطويل تعودين يا حبيبتى .. قلنا أصابك الغز وابتسمت لك الدنيا .. فين هريدى زوجك وفين أيامه .. فين أمك يا حبيبتى » . هكذا كانت النساء تقلن . لكن أصواتهن سرعان ما انداحت فى الأفق البعيد أمام أصـــوات رجال صـــاروا يصيحون فى غضب : « ملعونة .. فاجرة .. زانية .. هاربة .. وهذه هى النهاية المحتومة » . ثم صاح أحدهم فى غضب : « صاحب اللحم يلمه » . فصـــــاح رجـــل الشرطة فيه : « صاحب اللحم يتقدم ليأخذه منا » . وكان من الواضح ان النيابة هى الأخرى موجودة ، اذ تلقت عربة الاسعاف أمرا بحمل الجثمان الى الطبيب الشرعى فى المستشفى ..

وحين حملتها عـــربة الاسعاف بدونى صرت أعـــوى مـــن كبد مسحوقة والناس ينظرون نحوى مشفقين قائلين : « دا باين عليه كلبها .. يا حرام » . وهنا ، أحسست برجل الشرطـــة ينظر لى فى تمعن ثـــم

ينسانى ثم يعود فينظر الى مدققا ثم يمضى الى العربة ، لكنه قبل ان يركب استدار من بعيد وأرسل الى نظرة كأنه يوشك بعدها أن يطلب بطاقتى الشخصية ٠

— ٥ —

أهل البلدان الأزرقية لا ينجون على أبناء بلدانهم المجاورة حيث هم أخوة فى النهر ، لا ينبح ولا يثير الضجيج والفزع سوى الكلاب الصائعة التى تتوهم انها قد وجدت لنفسها مستقرا هنا أو هناك ، فلا تجد لديها وثيقة واحدة تحميه بها سوى النباح القوى الأجش الأجوف لدى رؤيتهم لأى ظل وافد ، حينئذ تلتم كل الكلاب الصائعة دفعة واحدة لا بمشاعر الكتلة بل بمشاعر الجبن الفردى يندفع مدافعا عن شىء استلبه ٠ قصر الكلام اننى وقعت فى قبضة الكلاب الصائعة ، فلم ترحمنى وشرحت جلدى ونهشت أنفى وشفتى ٠ لم ينقذنى من براثنهم سوى « مأمون » وكان يمشى ورائى منذ شرعت أمشى فى أرض لا أعرفها ولا يحمل أنفى أى ذكريات فيهما ولولاه ما دخلت البلدة ، اذ أنه — وكان يسير بين كوكبة من صحابه عائدين من الفرجة على جثة الفقيدة — رأيته دونهم جميعا يبادلنى النظرات المتأملة الرصينة المستثارة ،فلما تسللت شخصيته الحبيبة الى أنفى انتميت اليه فى الحال وأديت رقصة الولاء حوله وحده فأرسل ابتساماته المشبعة بالامتنان والحب ثم أشار لى ان أتبعه فتبعته ومضيت أستمع الى حديثه مع الصحاب الى أن فوجئت بنفسى بين دائرة الفزع التى خرجت منها متحنا بالجراح ، أكاد التصق بذيل جلباب « مأمون » كلما لمحت كلبا صائعا شرسا ٠٠ فما ان آب المسير الى بيت صغير متواضع حتى راح مأمون يطيب جراحى بمادة حمراء ، وقدم لى الطعام من طبق كان يأكل منه معى لقمته بلقمتى ٠

شاب في العشرين من عمره لا يزيد • فقد ولد كما سمعته يقول لصحابه فى العام الواحد والستين بعد التسعمائة بعد الألف ، وكانت سنه حوالى ست سنوات حين كان دوى القنابل اليهودية تشرخ سماء قريتهم وتشرد عصافيرهم ومواشيهم ومشاعرهم • أيامها — يقول — مات أخوه الطفل فى مدرسة القرية المجاورة بحر البقر وكانت الطائرات اليهودية الصهيونية قد تبولت على المدرسة قنابلها • يذكر انه ظل سنوات طويلة يرتعب كلما أقبل الليل حيث كانت جثة أخيه الممزقة تطلع له فى كل ركن من دماغه حتى لقد كانت أمه تولول قائلة : « واحد مات من القنبلة والثانى حيموت من الخرعة » ، « وقد عالجونى قدر ما استطاعوا حتى كففت عن الصراخ بلا سبب وكففت عن الرعشة ولكن هل تراهم عالجونى من التذكار ؟ ان صورة أخى سوف تظل تطلع لى فى الليل ولسوف أستطيع التحاور معها بكل اللغات والمشاعر » ••

وكنت ليلتذاك أقعد أمامه على مصطبة الدار الخارجيــة والقمر يواجهنا فوق شواشى النخيل البعيد القريب ، حين قطعت عليه الحديث عجوز حيزبون يرتعد الانسان من منظرها لمجرد شعوره بأن هذا الجسد الموغل فى القدم لا يزال يحيا بكل حيوية ويعيش وجوده كاملا ، امرأة لا يقل سنها عن الستين ان لم يكن أكثر دخلت — أقصد خرجت علينا من الدار الى المصطبة — حاملة صينية الشاى عليها براد وكوب نظيفين جدا ، ثم تمهلت ناظرة الى بود عظيم ، استدارت برهة حيث وضعت الصينية أمام « مأمون » على المصطبة ثم عادت ناظرة الى من جديد تتخايل على ملامحها العجوزة المتكرمشة أعمق أخاديد المودة ، فأحسست كأنها تريد ان تنفرد بى الى ما لا نهاية ، فانتشيت وشرعت أؤدى رقصة الولاء لها ولكننى تذكرت اننى يجب ان أحترم جلسة مأمون ومالها من جلال فى نظرى فكففت واكتفيت بالتثاؤب الملول من فرط اشتياقى للمعرفة ، فما ان أعطتنا العجوز ظهرها ومضت تركض فى الداخل حتى أشــار اليها مأمون قائلا : « انها أم بسيمة » • هززت رأسى فى ملل ثم رنت الكلمة فى أعماقى فدت ، فانتفضت واقفا منتصب الأذنين مرفوع الذيل

كأنني أقول له : « ماذا قلت » ، فاذا بابتسامة من الثقة تتسع على وجهه ويكرر : « أم بسيمة أحمد ربيع .. صاحبة الجثة التي آبت اليوم الى مسقط رأسها » .. لم أتمالك نفسي فاندفعت مهرولا داخل الدار أنبح بصوت عال يقودني أنفي الى مطرح العجوز ، وكانت قد تكورت جالسة في قاعة جوانية تحتلها مصطبة هائلة بحجم القاعة كلها فيها فرن خبيز وحمام غسيل ، قفزت فوق المصطبة أهوهو نحوها أكاد أرتمي في صدرها ، الحق انها رغم قدم جسدها تفوح منه رائحة جذابة للغاية ، رائحة تبقيك بجوارها وقتا طويلا تتغذى خلاله أعصابك بالهدوء العظيم . ولما تحاشت ان ألمسها وصارت تهشني بعيدا بغلظة مكشوفة أيقنت انها تريد الابقاء على وضوئها لتصلي به فروض العشاء من ديون سابقة ، فارتددت عائدا الى مأمون وقد أحسست ان الدار أصبحت داري ، انني انتقلت فقط من دارنا التي في القاهرة الى دارنا التي في هذه القرية البعيدة ..

استقبلني « مأمون » في مرح ثم أشار الى بالجلوس فجلست بجواره هذه المرة وقد انتابني - لأول مرة أيضا - احساس الكلب الأجنبي الذي لا يطالب بالاحتفاظ بمسافة بين سيده وبينه ، الكلب الأجنبي يعامل كسيد هو الآخر وربما أفخم وأفخر ، وها انذا أحس ان مأمون قد منحني هذا الحق ببساطة . مددت بوزي نحوه فيما هو يداعبني وفي عيني نظرة متلهفة تقول له : «ولكن ما علاقتك يا مأمون بأم بسيمة؟». وكان على وشك ان يجيبني لولا ان ظهر الاهتمام في عينيه فجأة ، فنظرت في مسيرة عينيه فرأيت كهلا مقبلا نحونا محني الظهر تحت جوال منتفخ ، يمشي في تؤده ولقدميه وقع صلب يهز الأرض . اقترب منا فاذا بوجهه رغم عينيه الصقرتين يقول انه قد تجاوز السبعين من العمر ، وتقول أطرافه وصلابة ملامحه انه يدخر في نفسه عمرا جديدا يعيشه من أول وجديد . ألقى السلام علينا ثم دخل وتباعدت هزة الأرض تحت خطوه الثقيل ، وحينئذ قال « مأمون » مشيرا الى الداخل « انه جدي .. ووالد هريدي » ، ارتعدت فرائصي وانتفضت واقفا منتصب الأذنين كأنني

أقول : « ماذا قلت ؟ » ، فاستطرد قائلا وفى عينيه نظرات جنونيـــة جيبة : « نعم هذا هو والد عريدى زوج بسيمة ‥ وهو نفسه حموها وزوج أمها وهو أيضا جدى أو والد والدتى ‥ ذلك ان بسيمة هى خالتى شقيقة أمى التى أنجبتها أمها من والد هريدى زوج ابنتها بسيمة !! » .

فشخت حنكى عن أخره وصرت ألعق شـــفتى دهشة أو ابتهاجا لا أدرى ، ومأمون يضحك ويقول : « هو الآن يشتغل أشغالا كثيرة ‥ كان فى الأصل صيادا ‥ وحين أقول الأصل فانما أقصد حدود عمرى فقط أما ما قبله فستضح ان لجدى أصولا أخرى أبعد من ذلك بكثير ‥ فكلما كبرت ظهر لى أن هذه المهنة العريقـــة ليست مهنته انمـــا مهنته الأصلية هى كذا ‥ ولو عددت له كلمة الأصلية فى مهنة لفاقت كل تصور ‥ هو الآن شغلته الصيد ‥ فى الظاهر صيد السمك بأحـــد القوارب التى يؤجرها ليوم أو يومين أو ثلاثة ، ليرسو بها على شـــاطىء « بور سعيد » ويفرش بأسماك طازجة ويعود بالقارب محملا بالبضائع التى يبيعهـــا فى العزب والقرى لناس يعطونه فيهـــا عرقه ويأكلون من ورائها عيشا ‥ هو أيضا يبيت كل يـوم وقد تعشى أربعـــة وعشرين قيراطا ‥ ومع ذلك ‥ لا يرضى ولا تعجبه الأوضاع ‥ تنهال الفلوس بين يديه ويشترى مروحة بالكهرباء وثلاجة وغسالة وجهـــاز تسجيل ويلبس من شغل المكن الأجنبى ومع ذلك يشتم ويسب ويتهم زماننا بأنه خسيس قليل الخير بياع لكل القيم ‥ تسليتى الوحيدة هو فى هذه البلدة الهامدة الآمنة أمن الكلاب » . قاطعته قائلا : « لا تعب يا مأمون » ، لكنه تجاهل هوهوتى قائلا انه يتسلى بجده اذ يشاغبه بالحديث فى الليل حتى يثير ثائرته ، لكنه ـ مأمون ـ يتجنب اثارته أكثر من اللازم اذا كان فى حالة سكر ، اذ هو يستحضر من « بورسعيد » أنواعا لا حصر لها من الويسكى والكونياك يبيع بعضها ويجرع الآخر وحده ، فلما يسكر وحده يظل يبكى بكاء حادا صامتا لساعات طويلة كأنه يؤدى صـــلاة عجيبة ، وربما لهذا يتجنب السكر وحده ولكنه دبور كبير اذا انســـاق وراء نفسه أوقع بعشرات النساء من أى مكان يخطر على البال وهو مستعد

لمضاجعتهن جميعا فى ليلة واحدة فى خيط واحد كأنه يريد انجاب بلد بأكملها من رجال غيرنا وغير كل هؤلاء ، رجال كما يقول تجرى فى دمائهم أنهار الغيظ لا تقف أمامها سدود الا فى حدود ، الطريف أن جده الذى يقول هذا القول يعرف ان دماءه التى يدلقها فى النساء تضيع هدرا ، فالنساء الضائعات الضالات لا يلدن ٠

ثم ان مأمون جرع كوبة الشـــاى على رشـــفات مسموعة الصوت فى لذة ، ونظر فى وجهى فأحس بأننى مشتاق لمعرفة الكثير عنه هو نفسه أولا ٠٠ فابتسم فى خجل كمن يقدم نفسه لأحد النجوم اللوامع ، وقال انه تخرج فى معهد الخدمة الاجتماعية ، ولكنه عين فى مدرسة فى المدينة مشرفا اجتماعيا وأمينا لمكتبتهـــا ٠ ذلك أن مأمون يحب الكتب ويعشق الكلمة لكنه ضاق بالحياة فى قريته مع حبـــه الشديد لأهل قريته ، لقد اكتشف البراءة فى قصص الكابتين وفى حياة كل من جدته وجده ، اذ هما يتحدثان عن كل شيء أعدى الأعداء ببراءة تامة ، ولكن كيف اكتشف براءتهما ؟ لقد اكتشفها ـ ويسدد أصبعه نحـــو فمه ـ بالقراءة ، فحين قرأ عرف ان جدته وجده وكل هؤلاء الناس لايعـرفون شيئا بل انهم يسلمون رقابهم للجزار دون أدنى خوف ، ان هناك ناس لا تعرف الخوف ليس لأنهم شجعان بل لأنهم من فرط جهلهم لا يعرفون ٠

ثم اعتدل فى جلسته قائلا كأنه يحدث صديقا أثيرا :

ـ « للعلم فان جدتى هذه لا تعـــرف الآن ان جثة ابنتها بسيمة قد عادت الى بلدتها بعد غيبة ما يزيد عن ثلاثين عاما ٠ لن يقول لهـــا أحد ممن رأوها انهم رأوها ، لسبب بسيط هو انها قد أصبحت طرشاء لا تسمع شيئا على الاطلاق ولا تتذكر شيئا على الاطلاق ، ولست أعرف كيف نسيت كل شيء الا آيـــات القرآن الكريم ٠ يحلو لى ان أجلس لأراقبها حين يرتفع صوتها عفوا بالقراءة عند الصلاة ، فأجدها لا تخطيء فى حرف واحد وتنطق الألفاظ سلسة ٠٠ أما جدى فعلى شطارته فى أعمال الكسب والتهريب يحلو له ان ينسى كثيرا من الأشـــياء خاصـــة

ما يتصل منها بالغائبين ، ان مسألة الغائبين فى نظره كلمة واحدة : مقدر ومكتوب ، كل من احتجزه ستار الغيب ، وكل غائب له الله ٠ هكذا يقول لك فان لم تفهم أشاح عنك الى حديث آخر أكثر وضوحا ٠ دع الغائبين وشأنهم وأبدا معه أى حديث تشاء تجد سميرا لا نظير له ينضح حكمه وفلسفة ، أحيانا يخيل الى انه هو الذى ألف سيرة عنترة والزير سالم وذات الهمة وألف ليلة وليلة ٠٠ ولقد فهمت جدى فهما عظيما فعرفت انه يسمع ما يحبه ويغلق أذنيه تماما عما دون ذلك ، لكنه يفعل ذلك بشكل عجيب وبهلوانى ٠٠ منذ بضع ليال كنا نجلس أمام التليفزيون صدفه ، مجاملة لضيوف شرفونا بالزيارة من بلدة أخرى يدمنون مشاهدة تمثيلية الثامنة والربع ٠٠ فلما جاء موعدها خيل لهم اننا لا نملك جهازا ، فأشرنا اليه قالوا لابد انه مجرد تحفه ، أوريناهم الفاتورة فقالوا لا بد انه خرب ، قلنا لا ، فقالوا كيف يكون لديكم جهاز ولا تفتحونه على التمثيلية ؟ قلت لهم اننى أكون أحمقا لو كان عندى رجل كجدى ثم أتركه وأتفرج على التليفزيون ٠٠ فلووا بوزهم عجبا وولوا وجوههم شطر الشاشة الصغيرة منجذبين الى هدير الاعلانات التى لا شك انهم سمعوها عشرات الآلاف من المرات فى نطاق زمنى قليل ، الأرجح عندى انهم لا يستمعون ، فهم كجدى تقريبا لايستمعون الى ما لا يريدون حتى وان كان جذابا ، تراهم زاد الشيء عن حده انقلب الى ضده وأغلقوا عنه الأذن ، فطالما انهم لا يمكلون ايقاف الاعلان فانهم يوقفونه من عندهم ٠٠ لله ما أفكه جدى لحظتذاك : طلع علينا المشهد مثيرا مخيفا ، وجوه حمراء فى لون العدو ترتدى الكاب العسكرى ، ووجوه أخرى بيضاء فى لون الحملة الصليبية تضربها ، وصخرة تهبط فوق رءوس فتدمرها ليظهر وجه خواجه طرى الملامح والعود قائلا بلهجة أطرى مثيرة للشبق : « شوية شوية ٠٠ شويبس أهى جايه » ٠٠ حينئذ صاح جدى وقد وقف فى ابتهاج منبسط الملامح كأنه صغر خمسين عاما ، وارتفع صوته الشارخ : « مدد ٠٠ مدد يأكل من غابوا

الكيلا يغيب القمر » • فضحكنا جميعا وقد ارتجفنا من المفاجأة :
« ماذا يا جدى •• هل جاءتك الحالة ؟ » •

« هذا هو صوت المدد •• هذا هو صوت الأمل أخيرا نطق » •
تبادلنا النظر في توجس من ان يكون قد خرف بمعنى الكلمة •

« لحظتذاك أدركنا ان جدى فقد البقية الباقية من عقله ، لولا
اننا كنا ننظر فى وجهه فنجد علامات الجد الشديد طافحة عليه •
فيما يقول : شوية شوية القدس أهى جايه ! ثم اذا بالتمثيلية تنتهى
وتجىء الاعلان وراءها مباشرة ليضمن انه حاصر المشاهدين دلالة على
جلل الحدث الذى يعلن عنه • فرفعنا صوت التليفزيون عن أخره
ليسمعه جدى ، لكنه أبدا لم يستمع الى كلمة شوييس هذه واصر على
تعديلها بكلمة القدس فياللعجب العجاب منك يا جدى » •

ثم ان مأمون صب لنفسه كوب شاى جديدة بعد أن دلق بقايا
الأولى فى ركية النار ، وواصل الحديث لنفسه قائلا :

ـ « فهل ترانى بعد ذلك أقول لجدى ان بسيمة زوجة ابنه هريدى
وابنة زوجته هو قد عادت اليوم جثة متهتكة لا تحمل من متاع الدنيا
سوى محتويات صرتها القديمة التى ذهبت بها ؟ هل أقول له ان خالتى
المسكينة قد عادت كما ذهبت مع تبديل واحد فقط هو ان نصف الخرج
التى كانت تصر فيها أشياءها قد صارت الى حقيبة جلدية قديمة ؟
لكم أنا الآن مشوق لمعرفة ماذا سيطرأ على جدى حين يعرف ان نصف
الخرج لم يعد معها • لقد ظل جدى الى زمن قريب يتحدث عن حسرته
بضياع الخرج الذى أخذته هى معها لأنه كما يقول قد رافقه فى رحلات
طويلة عاشره خلالها بالمعروف الجميل فلم يذب أبدا ، يحشر فيه الرباب
والعيش والحبوب والفرش والغطاء ويركب فوقه ، حتى الآن لم يفرط
فى الرباب ولو كان الود وده لاحتفظ ببقايا الخرج الأصيل الى جواره •
جدى لم يكف عن الحديث عن نصف الخرج الضائع الا بعد أن طرأ علينا
شغل البحر والبضائع المهربة •

رفعت رأسي وأطلقت ثلاث هوهوات رقيقـة خشنة معـا كأنني أقول له : « بالراحة شـوية ٠٠ صبرك بالله قبل أن أمـوت فى يديك مـن فرط الألم والدهشـــة أو أتحول الى أبله من فرط الذهول » ، فاحتوى فكي بيده وصـــار يربت بالأخرى على رأسي ويقول ضاحكا : « حلمك انت على ٠٠ مانا لازم أتكلم ٠٠ حاموت لو ما اتكلمتش ٠٠ مش لاقى حد أكلمه ٠٠ واحده طرشه والتانى حاطط مخه فى مخزن والقفل مصـــدى ٠٠ ان شاء الله سنة ولا اتنين واخلص من مشكلة الجامعة اللى أنا منتسب اليهـــا وأتفرغ لكتابة القصص والروايات ٠٠ بعد ما أتخرج من كلية الآداب حاقعد أكتب روايات للصبح ٠٠ وساعتها أبقى لقيت اللى أتكلم معاه » • مددت رقبتي وفتحت فكي عن آخرهما كأنني أعلن يأسي من فكرة الكتابة هذه ومن جدواها • فأطلق سراح رقبتي من تحت أبطه وشرع يواصل الحديث كأنه يتمرن على كتابة رواية سوف يكتبها فى القريب العاجل •

باب القنطرة

★ الشعب الأزرقى وكيف يخرج من جذوره :

– ١ –

قال مأمون :

ـ « العجيب ان غياب بسيمة لم يشغل البلدة يوم تخلفت عن المجيء من المولد فى ذلك الزمن البعيد • وهكذا يقولون لى ولما رأيت ان البلدة كلها تحمل فى ضميرها حكاية بسيمة وهريدى لعدة أجيال وجدت من العار الا أنشغل بها أنا الآخر ، فما ان شرع الوعى يطاوعنى فى فهم الأسرار وجئت أسأل كلا من جدى وجدتى فوجئت بانهما يتعمدان أخفاء كل شيء عنى ، حتى لقد كدت أصاب بالجنون ، كان ضميرى يحمل عدة حكايات مختلفة التفاصيل بطلاها هما خالتى بسيمة وزوجها هريدى واختفائهما فى ظروف غامضة • وكنت كلما سألت أحدهما عن تفصيلة غامضة تثير دهشتى وعدم تصديقى أجاب اجابة أكثر غموضا لا أفهم فيها ان كان ذلك قد حدث حقا أم هو من نسج خيال العامة ••

« غير اننى صممت على معرفة حقيقة التفاصيل أو يذهب عقلهم من جنونى وان شاءوا فليقتلونى • العجيب يا جدع انهم •• قتلونى ، تركونى أهذى بلا مجيب حتى فقدت السيطرة على عقلى بالفعل ، وابتعدت

عنهم جميعا وعشت فى مدينة المركز وحدى أتنسم الهدوء بين كتب مكتبة البلدية التى استحضرها معى على عهدتى وواقع الأمر اننى كنت قد بدأت أعانى الوحدة والفراغ والشعور بالعار والجرح العميق ، حيث ملت أمى من انتظار أبى فدب فيها الجفاف وظلت تكتم الحسرة فى قعر بطنها حتى توكلت على الله وأسلمت روحها فى بداية النصف الثانى من يناير فى العام السابع والسبعين ، كان معها الحق كل الحق فى أن تموت ليلتها ، ذلك ان أبى الذى لبس فى الجهادية بعد زواجه من أمى بشهور قليلة مكث فى الجيش حتى العام السابع والستين ، ولما عاد الينا كان يحمل فى جوفه نصيبا عظيما من الانكسار والذلة ، لكن من حسن حظنا وحظه ان عودته كانت مؤقتة فلم يقدر له أو لنا رؤية كلا منا الآخر وهو على هذه الحالة من الشعور بالذنب والعار كأن حبيبته قد خانته مع عدوه ٠ واذا به يواصل الخدمة فى الجيش ، واذا بنا نقيم الأفراح فى ليـــلة رمضانية مفترجة والبلدة تتحزم وترقص على دوى القنابل والغازات ، نعم ترقص طربا كأنها أخيرا قد زفت الى حلمهـــا القديم ليس بتحقيق النصر وحده بل بخوص المعركة ذاتها ٠٠

« الا أن الطبول آبت الى أصداء تتردد فى الأفق البعيد بايقـــاع رتيب لايتوقف برهة واحدة ، والرقص آب الى لعب على الحبال بدربة ومهارة أو الى ركض متوجع ، واصداء الطبول الجوفاء تحجب صـوت الأنين ، وكثرة اللاعبين فوق الحبال على الهواء تحجب جحافل المدهوسين٠ ثم ان سماء البلاد امتلأت بموجات صوتية تنبعث من أجهزة بعدد الحصى فى الصحراء ، ولم يعد ثمة صوت منفرد على الاطلاق ٠ ثم ان صوت الانين انهزم شر هزيمة فارتد الى الداخل ، كل واحد يئن على كيفه ولكن فى داخله ٠٠

« كنت صبيا صغيرا وكانت وجيعتى كبيرة ٠ فلما رأيت أمى فى ذبول مستمر بسبب انقطاع الأخبار عن أبى قررت أن أستجيب لرأى أهل البلدة وأكون رجلا أى ـ أذهب للسؤال عنه فى ما يسمونه بادارة

السنجلات وبالفعل ركبت البيجو من أمام منزلنا هذا ـ شوف التقدم ـ الى العاصمة الكبرى • وفي هذه الادارة استصغروا شأني رغم انى أخبرتهم من أول البوابة انني ابن العريف محمد عكاشة النجار ، فلم يقل لى البواب الجندى حتى كلمة أهلا وسهلا ، بل هشني بيده الى الداخل ، وفي حجرة أخرى طرقت بابها فهب رجل يرتدى الفانلة الكاكى والبنطلون يسرح شعره القصير قلت له : أنا مأمون محمد عكاشة النجار • فقال هازءا بهزة من رأسه : أهلا ياخوية قلت له : ابن العريف محمد عكاشة النجار • فقال بغلظة وهو يوزعنى بيده هناك هناك أجرى على الأوضة التانية •• يلا يـلا يا ولد • فانهمرت الدمـوع من عيني بغزارة وأحسست انني لن أصير رجلا بعدها • قلت له : طب هدى أعصابك يا سعادة الكابتن • فنظر فى كأنه يردينى قتيلا برصاص عينيه • فغاب جسـدى كله عن الأرض وسمعت حشرجة تتعثر على لسانى وشفتى قائلة : متأسف • ثم استدرت والدموع تقسم صور الأشياء كلهـا الى قسمين • اخترت حجرة دخلتها ، فاذا بها عشرات الجالسين على المكاتب باللباس المدنى يكتبون ويثرثرون ويتكلمون فى التليفونات ••

« وقفت بجوار أول مكتب على اليمين لأنه كبير نوعا ، وشرعت أستدر صوتى لأتكلم • فنظـر فى الرجل الجالس قائـلا : « مالك يا شـاطر ؟ » فقلت له : « بادور على أبويا « ومسحت دموعى فتزايد هطولها فصرت أمسـح منطقة فمى على الدوام والرجل يغمد عينيه عن وجهى ، فاذا برجـل آخـر على مبعدة منه يصيح فى قائلا برفق : « فيه ايه يا شاطر ؟ » • فدنوت منه أكاد أتعثر قائلا : « أبويا لسـه ماجاش من الحرب والناس كلها رجعت » • فكسر عينه هو الآخر ناظرا فى دفتر أمامه راح يقلبه قائلا من وراء عينيه : « شوف ياسـيادة الرائد » • فصاح رجـل يجلس فى ركـن بعيد دون أن ينظر الى : « اسمك ايه يا شـاطر ؟ » • فدنوت منه أقاوم انهمـار الدمـوع حتى أستطيع الكلام ، ثم قلت : « اسمى مأمون •• وأبويا العريف محمـد عكاشة النجار كل الناس اللى كانوا معاه جم واللى ماجاش اتعرف خبره

الا هو دون عن أهل البلد بحالها » ، فصاح فى بخشونة كأنه يحتج على البكاء : « فى انهو وحده • فين البيانات بتاعتـــه ؟ » • فأخرجت ورقه دائبة جئت بها معى كنا ننقل نصها على ظهر خطابات نرسلهـا لأبى . أخذها ونظر فيها ثم ردها الى مشيرا الى شخص آخر يجلس فى نهـــاية الحجرة فدنوت منه وقد جفت الدموع على خدى فأحسست بجلدى يكاد يتشقق من فرط الألم ، ولكن عينى كان قد عاد اليهما الصفاء • فلما وقفت أمامه أعطيته القصاصة فنظر فيها نظرة عابرة ثم سحب دفترا فتحه على صفحة معينة ثم أرسل أصبعه زاحفا عليها ثم توقف فجأة ونظر فى وجهى قائلا كأنه يوجه الى اتهاما خطيرا جدا : « كيف تقول ياولد ان خبـــرا لم يصل اليكم هه » • فارتعدت الأرض تحت قدمى وقلت وأنا على وشك البكاء ثانية : « وكتاب الله ما نعرف عنه أيها حاجة » •

فسلط عينيه فى عينى بقوة وقسوة كأنهـــا الطعنات • فعاودنى البـــكاء من جديد ولكن بصـــــوت عال فيمـــا أقول بعبارات متقطعة : « •• كتاب الله ما نعرف •• وأمى كمان عيانه عيا الموت عشان كده واذا ماكنتوش مصدقين تعالوا شوفوها « • فانتفض الرجل واقفا ضاربا المكتب بقبضته فى قوة رهيبة صائحا : « كداب •• امشى انجر من هنا يانصاب » • فلم أصدق ان عفوا صدر عنى ، فما كدت أستدير نحو الباب فى ذلة حتى أرعدنى صوته : استنى هنا •• تعال • فدنوت منه أحاول الضغط على شفتى السفلى والأرض تحت قدمى متضارسة • تساندت على المكتب ووجهى يرتد مرتعدا عن اليمين مرة وعن اليســـــار أخرى توقعا لصفعة مفاجئة تنالنى لكن الرجل بلطف مفتعل قال : تعـــرف تقرأ ؟ قلت : •• نعم • فلوى الدفتر العريض المستطيل نحو وجهى وجذبنى من كتفى بأصبعين من كماشة حادة ، وصار يخبط بأصبعه فوق ســـطر معين ويقول : ايه ده ؟ اقرأ •• فيه خبر وصل لكم ولا لأ ؟ ما تنطق . غير اننى لم أنطق ، حيث كنت بالكاد قد بدأت أعرف قراءة الكلام المدون أمام اسم أبى • ولقـــــد قرأته ، لكننى نظرت فى عينى الرجل ، وعدت

ونظرت فى المكتوب ، وعدت من جديد أمسح الحجرة بنظرة غائمة لا أدرى ماذا أقول · وكان الرجل يصيح بلا توقف :

تانى مرة ماتبقاش تدعى ·· مش أى واحد تطلع فى دماغه كلمتين ولا دمعتين ييجى يعملهم قدامنا هنا ؟ احنا جسمنا طاب خلاص ·· داحنا جبال ·· لو بنشيل فى نفسنا كنا موتنا من زمان ·· كل واحد ييجى يسأل عن قريبه ولا نسيبه ولا أبوه عايز يحملنـــا مسئولية موته ·· دا قدر ·· استشهاد واحنا بنأدى عملنا على خير وجه ·· وكفايانا حزن بقى من كتر الكتابة فى الدفاتر دى لوحدها ·· على كل حال ·· اتكل على الله روح انت وحتلاقى الجوابات مركونة فى البوستة أو فى أى حته ·· املا الاستمارات اللى فيها وابعتها لنا واحنـــا حنعمل اللازم ·· مع السلامة ··

« اندفعت الى الطرقة العريضة فقفزتها ومنها الى السلالم قفزا حتى ارتاب بعضهم فى أمرى · ما صدقت أن صافحنى هواء الشارع · وكنت لا أزال أجرى حين همت سيارة بضربى لولا ان فرملت بقوة أسقطت قلبى من جديد فى ركبتى · تركت السائق يلعن أبى الشهيد بأقذر اللعنــات ويصف أمى المسكينة بأشنع الأوصاف ، وأخذت أواصل الجرى أريد أن أضمحل تماما من هذه المدينة لا أعرف ان كنت نشوانا أو تعيســـا ، فها أنذا أجرب لأول مرة معنى أن يكون أبوك أنت بالذات شهيدا ، أن يموت فى معركة حربية دفاعا عن الوطن · لم يكن ذلك شيئا جديدا علينا · والحق لقد كان لذيذا أن يقول المرء بثقة : لقد حارب أبى فى النكسة ومات فى حرب رمضان وصوت النصر المدوى يقول الله أكبر · لكن ليس لذيذا بالمرة أن يصير حالى الى ما قد صار عليه ·

« المثير للدهشة اننى لم أجدنى محتاجا لابلاغ أمى نبأ استشهاد أبى · لقد عرفت الخبر بمجرد النظر فى وجهى ، فانفجرت باكية وهى تقول لى : خلف لك طولة العمـر ، ولم أكن أبكى على اســتشهاد أبى بقدر ما كنت أبكى على ما لحقنى فى المدينة من اهانات · وقالت أمى انها

كانت واثقة من موته منذ أن رأته ذات حلم فيما هى تركب بجواره على الدبابة التى يقودها حيث تمرق الدبابة عبر المياه من شاطىء القناة الى شاطئها الآخر كأنها تقطع أرضا صلبة ، ولكنه على الشاطىء الآخـــر حفر لها خندقا جميلا معرشا بالنباتات وأوصاها بانتظاره ريثما يطمئن على أصدقائه ويعود ، وكانت الدبابات تبدو كأنهـــا عربة ملاكى بدون فوهات مدافع وكان يبدو ان الأرض الواقعة على الشاطىء الآخر جزءا من حديقة غناء تحضنا فلهذا تركنه يذهب لرؤية أصدقائه ، وكان ثمـــة احساس فى داخلها يقول لها انه سوف يعود لها ومعه أكلة سمك طازجة وبضعة أصدقاء يعزمهم عليها . وقالت أمى كذلك انها الآن تأكدت انه لن يعود ولكنها لا تملك سوى الانتظار . وكانت قمينة بأن تظل الدهر تنتظر أكلة السمك الطازجة تنبىء رائحتها عن مقدم العزيز الغـــالى ، لولا ان المجنون ، أعنى المرحوم الولد حسان أخى الأصغر طالب الاعدادية ورفيقى الوحيد فى الحياة .. آه ماذا أقول .. لا أعرف من ذا الذى دفعه الى موطن الخطر وهو الذى يمشى بجـوار الحائط كما علمنـــاه وأوصيناه ، الولد المسكين ليس من أهل الهتافات والمظاهرات ولا شأن له بشىء ، وكان يمشى فى حاله قادما من المدرسة فى مدينة المركز ، وكان يعرف ان ثمة هتافات وهياج كبير يجوب شوارع المدينـة يجأر بكلام منمق خطير ، لكنه لم يكن يعرف ان ثمة جنودا قد نزلت الى الشوارع فى المدينة وضواحيها وقسمتها الى معسكرات شـديدة الاستحكامات ، ولم يكن من ثم يدرى ان أى خطوة يخطوها عفوا فى طريقـــه الصحيح تعد انتهاكا لمعسكر الجند ، فمشى المسكين بكل راحته كما يمشى كل يوم فاذا بقنبلة مثيلة للدموع تعمى عينيه وثمة رشاشا فى أثرها يصوب نحو أذنه ففقد التوازن والاتجاه وأخذ من حلاوة الروح يجرى خبط عشـــواء فاذا به يقع من آخر ضلع فى الكوبرى فيسقط فى قاع النهر ..

« لا تســـل عن يوم مجىء جثتـــه . بالله من ذا الذى يستطيع احتمال هذا ؟ ان أمه كالجبل قد تصـــدع من عنف الزلازع الموجعـــه .

لقد نزعوه من حضنها في عنف وقسوة وحملوها الى سرير الدار ، وانها الرقدة التي لم تقم بعدها • ماتت في عز شبابها النضر •

« أما أنا فقد ترسمت في مواجهة المأساة خطى جدى • لقد أعجبني حكمته وقدرته على النسيان • عرفت ان سر تماسكه واحتماله للخوارق هو انه قرر ان يتحدى الحياة ويخرج لها لسانه قائلا : افعلى ما تريدين فأنا واثق من دنائتك وخستك ولن يزعجني أى مسلك تسلكين تجاهي مهما عظم • وهكذا قابلت الحياة وجها لوجه معلنا لها انني غير طموح في مصاحبتها أو كسب ودها ، أن هي الا بغى تعطى نفسها بسهولة لكل لص ونشال وقاطع طريق وليس شرفا بالمرة ان يكون موسرا • ليس من قبيل الغرور قولى بأني قد نجحت في هذا ، ولكن يكفي انني قد صرت أعيش في هذه الحياة وحدى وأصبح مسئولا عن جدى هذا وجدتي تلك • ولقد تسلحت جدتي ضد طوفان الأخبار المزعجة ناقلة العار فأصابت نفسها بالطرش ، وتسلح جدى في مواجهة الحياة بأزميل حده السخرية وحده الآخر النسيان • أما أنا فقد تسلحت باحتقارى لكل هذه المنتجات والأجهزة والملبوسات التي يشتريها أهلنا بفادح الأثمان ، وقديما قال أجدادى البلغاء : استغن عن الشيء تكن نده ، واطلب الشيء تكن عبده •• ولسوف أكون ندا لأى شيء •

« ولئن كنت هكذا حقا فانني لابد أن أظهر ذلك في قصصي سوف أكتبها وروايات سوف أؤلفها ، انني أسافر كل يوم الى عاصمة المحافظة حيث أحضر محاضرات الجامعة وأشترى بنصف مرتبي كتبا • تسحرني قصص يوسف ادريس وتسكرني روايات عبد الرحمن الشرقاوى وأحب السعلكة في حوارى القاهرة القديمة مع نجيب محفوظ أتأمل فتواته وحرافيشه فتذهب نفسي حسرات على قوم يتجسد فيهم كل هذا الواقع المرير ويظل باقيا كل هذه الدهور • أما احسان عبد القدوس فانني أشكر له صنيعا جميلا قدمه لى اذ كشف لى منذ وقت عن طبقة كاملة لم أكن أعلم شيئا عنها فضلا عن ان تكون قائمة بين ظهرانينا • وأما فتحي غانم فانني

صديق لبطله السرمدى يوسف منصور .. اننا دائما نتأثر بما يحدث فى الديار المصرية ، باعتبارها من أشد الدول المجاورة تقدما وديموقراطية وحضارة ، ومثلما نتأثر بثوراتهم نتأثر بكتابهم وفنانيهم وكل تراثهم قديمة وحديثة ، لكننا نظل محتفظين بشخصيتنا الأزرقية وان كان بعض مؤرخينا يزعمون ان معظم سكان الديار الأزرقية وافد من الديار المصرية أثناء سنوات القحط التى مرت بها على امتداد تاريخها الطويل . ويبالغ بعض المتيمين بالثقافة المصرية فيقولون ان الثقافة الأزرقية أصلها مصرى ، لكن ثمة أصوات أخرى أكثر ارتفاعا وثقة تذهب الى ان العكس هو الصحيح وان الثقافة الأزرقية هى الأصل فى كل حضارات المنطقة . وان سألتنى عن رأيى الشخصى فاننى أقول ما أقوله دائما : ان ثقافات المنطقة كلها متأثرة ببعضها البعض ومن الصعوبة ان تفصل بين الأصل وبين الفرع وبناء عليه فيكون أهل المنطقة كلهم كذلك سواء بمعنى انهم يمكن ان يكونوا شخصية واحدة .

« ورغم اننى لست عضوا بأية جماعة أو تنظيم الا اننى تلاقيت مع الجميع على شىء واحد هو الوطن ، لكننا اختلفنا كالعادة فى معناه ، ليكن مفهومه غائما فى أذهانهم لسبب أو لآخر لكنه فى وجدانى هو أبى الذى لم يعد من الحرب ، هو زوج جدتى الأول ، بل هو أيضا خالتى بسيمة وأخى من أبى - هريدى ، الوطن هو دم كل هؤلاء وذكرياتهم وبناياتهم واشعاعهم ونمائهم فكيف يتسنى لى بيع كل ذلك بمغنم شخصى مهما كان ثمينا ؟ » ..

- ٢ -

قال مامون :

- « هذا ما كان من أمرى . أما ما كان من أمر خالتى بسيمة فان اختفاءها كما قلت لم يكن له صدى يذكر فى البلدة . انما انشغل

الجميع بهريدى . فما ان انتهت أيام المولد وعاد كل الذين ذهبوا ما عدا هريدي وزوجته نشطت الألسن وقيل ان عصابة من قطاع الطرق اغتالوه ليحصلوا على بسيمة . ولم يحن لسان واحد عن هذه القـــرية أبدا ، بل تطوع بعضهم فأنشأ قصصا وحكايات تزعم انه قابل بسيمة فى البلدة الفلانية تمشى مع أحد البكوات ، ومرة مع أحد الفتوات ، وثالثـــة مع ولد تلميذ ابن ذوات ، ورابعة مع ولد صايع خريج سجون ..

« لكن هريدى ما لبث ان عاد بعد ســـنين طويلة . وكان متخفيا يسأل بلهفة غريبة عن زوجته بسيمة . فقالوا له : أتسألنا ؟ نحن من يومها فى انتظاركما معا . فصفق كفا على كف وقال فى حزن شـــديد بالك انه كان يتعشم ان يأخذها لترافقه فى رحلة حياة معذبة قدر له ان يعيشها ، وكان حريا بألا يعيشها لولا انه دخل فى طريق لم يعد يملك الرجوع عنها ربما لأنه يجد لذة ومتعة كبيرة فى ذلك ، وربما لأنه لم يعد قادرا على جمع بصماته عن الطريق . وهذا الطريق يكلفه ما لا يطيق ، لكنه فى نفس الوقت يعطيه فيغدق حين يعطى ، فهو فى معظم الأحيـان تطارده مباحث أمن الدولة فيختفى بعيدا عن الأنظار ، فيجد دائما أبدا من يأوى غربته ويسترها بفيض من عطاء .. قالوا له : كيف يا هريدى ؟ وما الطريق وما أمره ؟

فقال هريدى :

ـ « الحكاية يا أســـيادى بدأت من لحظة ما اختطفنى جمع من الرجال وأحاطونى برعايتهم وحبهم وتشجيعهم . أنا الذى لم يكن يدور بخلدى أن اعجاب الجمهور سهل الى هذا الحد ، فوجئت بطوفان من الحب يحتوينى ، حتى اننى فى نهاية الليلة بدأت أتذكر بسيمة ولكننى لم أنزعج ، قدرت انها على أسوأ الأحوال سترتد عائدة الى البلدة حين تيأس من ملاقاتى . أقول الحق يا رجـــال ، لم أكن فى أعماقى أحس برباط قوى بيني وبين بسيمة ، بدليل اننى لم أرها جيدا أبدا ولم يضم بينى وبينها لقاء أتذكره ، ولهذا استنام قلبى فى لذة التوهج . فجاة

صرت صبيتا محترما كأولئك الذين جاءوا بلدتنا ذات يوم وسهرت بهم حتى الصباح وأغدقت عليهم ٠٠ هكذا صرت يا رجال بدون أى مجهود ، والنقود تنهال على من كل اتجـاه ٠ ثم اننى سئلت عن بلدتى فأجبت ، وعن مدى ارتباطى بها فنفيت أى ارتباط ــ عامدا أو غير عامد لا أدرى ــ لكننى انسقت وراء التجربة وهى ساحرة ٠٠

« استوطنت شقة فى العاصمة الكبرى اهدانيها واحد من عشاقى الأغنياء من علية القوم السابقين وتجارهم الحاليين ، وتركها لى ، فصرت ملكا غير متوج ، الشقة لا تخلو أبدا من زوار عشاق على جميع المستويات، منهم من يعنى بتنظيف ثيابى ومفروشاتى ، ومن يعنى باحضار مكيفاتى من دخان وخلافه ، كل ذلك دون ان أدفع شيئا ، كل مهمتى أن أغنى لهم فحسب ، فكنت كل يوم ألبى دعوة جديدة فى شقة جديدة من جماعة جديدة سمعت عنى ومنى فعشقتنى وتقيم سهرة على شرفى أغنى وألعلع وتنهال على البقشيشات من كل ناحية ، فى السر وفى العلن على السواء ٠ الانسان ضعيف يا رجـــال خصوصا فى شـــيئين : المرأة والنعيم ٠ وبعون الله تجوت من أسر المرأة لكننى لم أنج من اغراء النعيم ، فنسيت كل ما كان من أمرى فى سنى العمر الفائتة دون ذرة حزن واحـــدة ٠ أعذرونى يا رجال ، قدروا موقفى ولا تحتقرونى ، فلو كنتم مكانى ورأيتم حلاوة كيف يتحقق الحلم هكذا فى لمح البصر لعذرتمونى ٠

« غير اننى وقد هدأت كان لابد وان أعرف لماذا يحبنى كل هؤلاء المعجبين فوجدت ان الحماس يزداد بهم نحوى كلما تصادف ان غنيت موالا فيه معنى تحكم الخسيس فى الأصيل ، ففهمت ان الثورة الأزرقية تضاءل معناها فى نفوس الشعب الأزرقى الى مجرد احســاس بأن الجاه والسلطان تم استلابهما من أولاد الأصول الباشوات والبكوات وانهـــا قد أعطت السلطان لمن لا يتحملون مسئوليته من الدهماء ٠٠ فصرت فى كل حفل أضيف من عندى كلمات على الموال أو المديح أعرف انها ستعجب الناس ٠٠ وفهمت ان أشد ما يستولى على اعجابهـــم هو اننى أقول غناء

يتكلم عن أشياء وبأشياء يحسونها ويريدون الكشف عن سرها • وبين يوم وليلة يا رجال وجدت بجواري من يؤلف كلاما على أن أقوم بتلحينه وأدائه • وجدتها كلمات جميلة ورائعة ، فيه الدفء الذى نحسه نحن أبناء البلاد ، فيه المرارة والخبث والتحريض على الانتقام • لو لم تكن هذه الكلمات قد وفدت على فربما كنت فكرت فى الانسحاب من هذا الطريق • لكن هذه الكلمات ظلت تنهال على فلا أملك الخلاص منها وأجدنى ساهرا على تلحينها أنا الذى لم يكن يفكر فى ان يصبح ملحنا ، وتستبد بى النشوة من كونى استطعت تلحين كل هذه الأغنيات بهذه الحلاوة التى تغرى الجميع بترديدها ورائى وتسجيلها وترويجها فى كل مكان ••

« القصد لقد أصبحت اسما ثابتا فى كشوف من يسمونهم باليساريين ، يقبض على من حين الى حين لأى سبب وبأى تهمة ، لا وضع فى الزنازين عاريا • لكن الدفء يجيء دائما من خارج الأسوار ، فثمة دائما من يجمع لى النقود والدخان واللحوم ويوصلها الى خلف الأسوار بشكل أو بآخر • حتى الأغانى كانت تبلغنى كلماتها من الزنزانة المجاورة ، فتصل الى أبعد ما يتصور الخيال • لا تدهشوا يا رجال فان أغنياتى التى هى من تلحينى وأدائى ومن تأليف صعلوك مثلى ، تطبعها شركات باريس على اسطوانات مغلفة بصورتى كأكبر نجوم السينما فى العالم • أما أنا فقد حققت دخلا معقولا وفكرت فى بسيمة وأشفقت عليها ولحنت من أجلها بعض الأغنيات ولكن ضميرى ظل ينقح على فجئت أطلبها صاغرا لأعتذر لها طول حياتى عما بدر منى تجاهلها ، وأقول لها ان هريدى القديم لم يعد منه شيء حتى اسمه لم يعد هريدى بل اشتهرت بسيف الموالدى ، ولكن صحابى وعشاقى تعمدوا الخطأ وأشاعوه فأصبح اسمه « سيف الماوردى » ••

واستطرد مأمون قائلا :

ــ « ثمة شيء أحببته فى أهل بلدتنا هذه ولذا فاننى أحب المكوث فيها مهما كرهتها عند الغضب • ذلك انهم كانوا يستمعون الى حديث

هريدى الذى كان يعتبر لحظتها تصريحا بتقديمه الى المشنقة ، ولو تسرب خبر وجوده فى البلدة لنشط العسكر واقتادوه فى الحال مكبلا بالحديد ٠ كان لحظتها كما صرح لهم هاربا من أمر بالقبض عليــه فى تهمة قلب نظام الحكم وتهييج الجماهير ٠ وكان أى صعلوك من الجالسين يستطيع الاسراع بابلاغ الأمر الى الجهات المعنية ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ٠ بل انهم كما كانوا يقولون كانوا يرفعون رءوسهم وينظرون اليه باعجاب وتقدير اذ هو يتجرأ على الحكومة الكبرى ويصارحها بأخطائها ويدعو الى اصلاح حال الرعية ودفع ظلم الأقلية عن الأغلبية ٠ بل ان ضابط نقطة الشرطة نفسه تنكر فى زى مدنى وشخصية أخرى لا ليقبض عليه بل ليمتع نفسه بالاستماع اليه فى حفل من الحفلات السرية العديدة التى دعى اليها ٠ ولقد ترك هريدى بذرته فى أطفال قريتنا فصاروا من يومها يؤلفون أغنيات على نسق أغنياته التى خرجت من السر الى العلن يسخرون فيها وبها من أشياء مثيرة فى بلدتنا ٠

« أمضى هريدى فى داير الناحية ثلاث أسابيع تنقل خلالهــا بين عشرات الطوائف والجماعات والأسر والبلاد والقرى والعزب ، ثم لم يعد بعد ذلك ، وصرنا نقرأ أخبار القبض عليه فى الصحف ، ونتناقل أخباره من المسافرين والعائدين ٠ ويبدو أن أيام سجنه كانت وستظل دائما أكثر من أيام حريته حتى انه لم يعد يملك المجىء الينا ثانية ٠ ولم نكن نعرف هل التقى ببسيمة أم لا ٠ لكننا اليوم علمنا ان أحدهما لم ير الآخر مرة ثانية ٠

ـ ٣ ـ

نهض مأمون فى نصف جلسة ٠ فلما انتبهت اليه سمعت صوتا عاليا يهدر فى داخل الدار تبينت انه صوت صادر من جهاز تسجيل ، وكان الصوت مجرد خرخشة عالية ٠ اكتأب مأمون : « الراجل المجنون

حيمارس هوايته .. حيسمع أغاني .. الهم ان صوت التسجيل حيطفشنا من هنا » ثم قفز المصطبة مندفعا نحو الداخل فاندفعت وراءه . دخلنا قاعة فيها سرير بعمدان نحاسية وناموسية حريرية مشغولة برسوم ، ودائر عليه أطفال بأجنحة محلقة في الهواء ، وفيها دولاب كبير بأربع درف ذى طراز قديم ومتين وترابيزة مستديرة ، وبضعة كراسي خيزران ..

قال مأمون :

كلما دخلت هذه الحجرة خيل الى ان أمي لا تزال راقدة على هذا السرير تنتظر عودة أبي ومن سخرية الدهر ان يرحل كلاهما ولا يبقى على السرير سوى جدى يستبيح لنفسه كل شيء في هذه الحجرة دون احترام لقداسة ذكرياتها ، أتراه فقد الاحســـاس بالذكريات فينتهك قداستها باستخدام أشياء أصحابها أم تراه غارقا في الذكريات حتى أذنيه لا يريد الخروج منها ؟ يعلم الله ..

وكان صوت التسجيل أعلى من ان يسمح لمأمون أو غيره باستمرار الحديث . أزاح مأمون طرف الناموسية فاذا بجده قد تمدد على السرير واضعا مسندين خلف ظهره مستغرق في النشوة وقد تمكنت يده من ضبط الصوت تماما . وكان الجهاز موضوعا بجواره على المخدة ، جهاز كبير فخم مما يسمونه ستريو ، وكومة من الشرائط حوله . أزاح مأمون طرفى الملاءة الى بعيد وجلس على حافة السرير فقفزت الى جواره . ثم مد أصابعه فخفض الصوت جدا حتى صار بالكاد يبلغ الآذن . فانتبه الجد وفزع فاتحا عينيه ، ثم هشنى ، فنبحت فيه بغلظة فأشاح عنى . ونظر فيه مأمون قائلا مع ابتسامة حنون : « بالزمه أيه اللى بتسمعه ده ؟ » ثم تجرأ وأخرج الشريط من الجهاز ناظرا فيه ضاحكا بقهقهة عالية : (ظننتك تستمع الى الشيخ عبد الباسط أو أم كلثوم أو عبد الوهــاب وغيرهما من مطربى الدولة المصرية الشقيقة .. كنت أظنك على الأقــل ستستمع الى شرائط ابنتك هريدى » ..

ثم حـول وجهه عن جده ناظرا الى ناس تخيل وجودهم ويقول : « تصوروا ان هـذا الرجل العجوز يدير شريطا لمطربة اسمها رشـا الخضرى ٠٠ رشا الخضرى ؟ أى ابتذال هذا بحق الله ٠٠ رشا الخضرى هذه كانت ذات يوم مطربة درجة ثالثة وصعدت بها الكوسة الى الدرجات العليا وكل الناس يعرفون ، لكن من يصعد بالكوسة يهبط بالكوسة كأن شيئا لم يكن ، أين هى الآن رشا الخضرى ؟ ٠٠ ثم انها مطربة شبابية فى صوتها غنج أرادت أن تدارى به بحة فلاحية فاذا بها تجسد شيئا يدير رأس المراهقين ٠٠ فهل أنت مراهق يا جدى ؟ ٠٠ من أين جئت بهذا الشريط ؟ » ٠٠

قال جده بعد برهة كأنه يحدث نفسه انه اشترى مجموعة شرائط من ولد متشرد يبدو انه سرقهم ، ودفع له فى هذه المجموعة كلها ثلاث جنيهات وهى تساوى خمسين أو ستين ٠ وقال أيضا انه سيجربها كلها فما يعجبه منها يحتفظ به لنفسه وما لا يعجبه سيبيعه بمكسب ٠ وقال كذلك ان هذه المدعوة برشا الخضرى ليست رديئة فهو شخصيا يحس أن صوتها أحد أقاربه ، وهذه ميزة يحسها مع كثير من المطربين والمقرئين ٠٠

رد مأمون :

« عمرى ما رأيتك تستمع الى شرائط ابنك هريدى ٠٠ أليس صوته أحد أقاربك ؟ » فلم يرد الجد كأنه لم يسمع ، وصار يعبث بالشرائط فى ابتهاج كما يفحص صفقة رابحة ، كل شريط عليه صورة مطرب أو مطربة أو مقرىء من المشهورين ، وقائمة بالأغانى التى يضمها الشريط ٠ تناول مأمون أحد الشرائط عفوا وكان على علبته صورة المطرب محمد فوزى ٠ فتح علبة الشريط وأخرج الشريط قائلا : « حلو ٠٠ أنا شخصيا من عشاق محمد فوزى وأرى أن الأغنية العربية كلها لم تتجاوزه » ، ثم ثبت الشريط فى الجهاز وأداره فاذا بصوت رصين ينطلق قائلا : « الله الله ٠٠ الله يفتح عليك يا سيف يا مواردى » ٠٠

سيف الماوردى ؟ هكذا صاح مأمون ثم هلل كالأطفال : « الحق يا جدى . ابنك هريدى له شريط أهه » ، واستخسر أن يتكلم مضيعا فرصة الاستماع لأن أغنية لسيف الماوردى انبعثت بايقاع مبتهج رصين راقص الاعطاف ، كلام حلو ونغم أحلى ، نفس كاريكاتير سيد درويش ، تريقة على ناس حكام ، وناس دلاديل للحكام ، تذكير بالوعود المكذوبة ، تجرىء للمستمع على قذف النخيل العالى بالحصى ، أغنية تؤدى الى أغنية ، الكلام مألوف ، تقريبا هى نفس الأغانى التى كنا نرددها فى بلدتنا من سنين ، مع اختلاف كبير هو ان محتواهـا القديم التحم بمحتوى جديد يشبهه تماما ويستفيد منه ويعكس عليه وهجا جديدا ، هكذا يجب أن تتطور أغنيات الشعب ، هكذا يجب أن يغنى الأولاد فى الشوارع . كنا فى طفولتنا نغنى : يا قمرنا يا هادى .. ويا طالع الشجرة ، وأغنيـات سيف الماوردى تكاد تكون هى نفس هذه الأغانى ولكنها تحتوى على أشياء تشـغل بالنا جميعا ، وتذكرنا بأشياء نسيناها ، وتبث فينا الحماس للمطالبة بكذا وكيت وكيت .. عجيب أمرك يا سيف يا ماوردى وانت يا من تكتب له هذه الكلمات النارية يا من تسمى مراد الحلو وانت حلو بالفعل ، أقسمت انك تستطيع وحدك ان تكون جهة حساب عليا .. يه .. يه .. يه .. ما هذا .. تغنى عن طغيان عبد الجبار ؟ تسلقه بكلمات كالخناجر ؟ ، ورشا الخضرى أيضا تسلقها وتتساءل من هى وكيف كانت وأين اختفت من عالم الغنـاء والتهريب ؟ مجلس الشعب وأهل منزله ؟ كل شىء لم يسلم من لسانك يا مراد يا حلو ، والأحلى منك ومن كل شىء ان يكون هذا اللسان السليط الحارق لسان مغن يسلق بالغناء ويجعل من هو موضع السخرية يغنى هو الآخر على خيبته وخيبة الجميع ..

نفد الشريط . نزعه مأمون واختار غيره فاذا به لفريد الأطرش ، لولا ان أغنية الربيع كانت مكتوبة على الغلاف لما أدار الشريط . لكن الشريط ما ان دار حتى اتضح انه أيضا لسيف الماوردى .ما هذا ؟ استفز

مأمون فجرب كل الشرائط فوجد ان معظمها لسيف الماوردى ولكنهـــا متنكرة فى صور مطربين آخرين مشهورين ..

اعتدل مأمون وأمسك برأســه ثم نظر لجده قائلا : « قلت انك اشتريت هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ؟ » . فلم يرد الجد وان بدا على وجهــه تعبير الموافقــة على ما قال . فقال مأمون : « اذن فان الولد يكون قد سرق هذه الشرائط من مكتبة واحد يسارى كبير ممن يحتفظون بشرائط سيف الماوردى ويروجونها بينهم » . ثم هز يده بجوار رأسه فى دهشــة قائلا : « ولكن يا له من حب ، ان مؤسسات بكاملها قد لا تستطيع تنظيم هذا التهريب الثقافى الفنى بهذه الطريقة الجهنمية ، ان الحب وحده هو القـــادر على هذا ، حب هذه الأغنيات ، فان كانت الدنيا قد أصبح فيها من يحارب حتى الأغنيـات وشقشقة العصافير فليعلم ان قوة فى الأرض لن تستطيع اسكات صوت العصافير ، ان الفنون تنمو جيدا فى درجات الحرارة العالية ، ولسوف تعبر العصافير عن مأساة حرمانها من الشقشقة بالشقشقة ، شقشقة كل العصافير أصبحت تعكس وأوأة طفل وليد وصوصوة طائر حبيس وصهيل فرس مكبل » ..

ثم صار ينقل البصر بين جده وبينى قائلا : « العجيب انه لا يحب الاستماع الى صوت ابنه .. هذا الصوت الجميل المؤثر .. يا أخى ان لم يكن يعجبك كصوت مطرب فلتحبه كصوت كلمة كنت ولا تزال تحب ان تقولها .. ألست تحب ان تعود الى طفولتك لتغنى هكذا ؟ .. الغناء ليس رشا الخضرى وأمثالها يا جدى العزيز ، الغناء ليس هذرا نتسلى به فى أوقات الفراغ ، الغناء طقس تتحقق به أشياء وتتطهر به نفوس ومجتمعات » ..

وصمت مأمون وبدا على وجهه احساس بأنه لم يكن ثمة داع لهذه المحاضرة الغنائية . ثم أدار وجهه نحوى كالمعتذر عن جده قائلا : .

ـ « انه خبيث ، ليئم ، يوهمنا انه لا يستمع درءا لأى مهاجم بسبب التحريم ·· ها هو ذا كأنه لا يعرف ذلك المدعو هريدى أو سيف الماوردى ، كأن صلة لم ولن تقوم بينهما ، ها هو ذا يفترض ان كل كائن غريب عن عالمه ربما كان دسيسه أو مخبرا أو قادما بنبأ عظيم الخطر ، هو من ثم فى حالة تحصين دائمة ضد كل ذلك ·· لكن لو دققت فى الأمر ، لوجدت ان جدى الجالس أمامى هذا يحفظ كل أغانى سيف الماوردى عن ظهر قلب ، يحفظها بنغمها ولحنها ،أما متى استمع وكيف فهذا ما لا يستطيع أحد اثباته حتى نحن ·· أحيانا أدير شريطا لسيف مما يصل الينا خلسة مع طلبة الجامعة القادمين من العاصمة الكبرى ، وأسرح أنا مع النغم وأنتبه اليه فجأة فأجده يردد نفس النغم بنفس الكلمات لا بشفتيه فحسب بل بكل جسده وكامل نفسه ·· يكاد هذا الجد العجيب يكون هو مشكلتى الرئيسية واسطورة حياتى ·· يقول لك انه اشترى هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ! ·· ولست أذهب بعيدا ولا أكون مخرفا اذا قلت لك ان جدى هذا ربما كان هو الذى قام بتعبأة هذه الشرائط فى مكان ما من مصدر ما جاء بها متنكرة على هذه الصورة ! ·· لم لا ؟! ·· ان الشىء البعيد حين يصبح قريبا بنفس درجة ابتعاده يكون ذلك من علامات الساعة لست أقصد القيامة ، انما أقصد الساعة المعنية التى ظلت البشرية تنتظرها طوال القرون ·· فلقد تداخل كل شىء فى كل شىء وأصبح الانسان محتاجا لاسلوب جديد فى المقاومة ، لم يعد الانسان مضطرا الى الاستعداد لمواجهة المسئولين أو الحكومات الظالمة أو الدول العظمى أو حتى مجلس الأمن على ضياع فى حقوق أو فى أعمار أو فى محاولات بتر من الوجود ·· انما أصبح الانسان مضطرا الى الاستعداد القوى للتفريق بين الأشياء الصحيحة وبين الأشياء الكاذبة ·· لم تعد الأصوات وحدها تكفى للتعبير عن نفسها · عليك ان أردت أن تفهم شيئا أو شخصا أو وضعا أن تدرس خريطة هائلة شديدة التعقيد فى علاقاتها المركبة المتناقضة فى تآلف !! » ··

تململت فى جلستى ، أطلقت هوهوة أنبأت بها مأمون ان جده قد أخلد للنوم الهانىء اللذيذ ٠ فابتسم مأمون فى سخرية أسيفه ثم جمع شرائط سيف الماوردى على بعضها وحملها تاركا بقية الشرائط قائلا : « لك ان تبيع هذه يا جدى ان أردت ٠٠ نشكرك على كل حال ٠٠ لقد أديت واجبك الذى لم يكلفك به أحد ، وبفضلك صرت أمتلك ثروة هائلة من الأغنيات المحاربة المعارضة المناضلة أستطيع أن أعيش على حسابها حفلات لا تنتهى بين طلبة الجامعة والمثقفين والتجار المرورين والسياسيين المتقاعدين برغم أنوفهم والثوريين المحبطين والأدباء المكبوتين ، هى الأخرى قوى متناقضة لكنها — على هذه الأغنيات — يمكن ان تتآلف ويصبح شكلها جميلا خلابا » ٠ ثم أرخى طرفى الناموسية وأسدلها على جده ومضى ، فمضيت على أثره لا أحيد ٠

— ٤ —

دخل مأمون فى سرداب يلتصق بظهر منزلهم ، فاذا بنا بعد مسيرة طويلة بين بيوت من اللبن واطئة وبعضها جميل ، قد أشرفنا على ترعة هائلة ذات جسر وقنطرة من الأسمنت والحديد ، على ضفتها المقابلة مجموعة متناثرة من « الفيلات الأنيقة والبيوت المتميزة كأن ثمة مباراة فى التشكيل والتجميل خامت بين أصحابها ٠ ولاحظت فى ضوء القمر ان هذه الترعة الكبيرة التى كان من المقدر لها أن تقوم بارواء عشرات الملايين من الأفدنة التابعة لدائر الناحية ، قد زحفت عليها الطريق من الناحيتين وسقطت بها عشرات الأطنان من بقايا تراب البناء وطوبه المتفتت ٠ وأما الجسر فقد تآكل من كل ناحية وتهدمت أفاريزه ولم يعد يسمح بمرور الأبقار والجمال المحملة ، مع ذلك أدهشنى مأمون بقوله لما رآنى أتأمل وضعه فى حسرة ان السيارات رغم وضعه هذا تمر فوقه بواسطة قضيبين من الحديد المبطط باقيين من أساس الجسر القديم ، ينجح سائقوا عربات الأجرة المنتشرة فى القرية فى ان تستقر كل عجلة على قضيب وبدقة

اذ أن عجلة لو انحرفت قليلا تهبط في الفراغ • أما القنطرة فبعد ان كانت بناء أنيقا متينا ذى باب حديدى بقفل ومفتاح وخفير يفتحه ويغلقه كلما احتاجت القنوات الفرعية للماء ، أصبحت مجرد باب غائص في الأرض . ويبدو ان الحاجة اليها لم تعد ماسة بعد ان انتهى عصر الفيضان وأقبلت عصور التحاريق ، وبعد ان تغير لون وجه النهر فصارت مياهه بيضاء في لون السمك الميت ••

هرولت قليلا نحو جدار القنطرة الصغير المتآكل ، ورفعت اليتى اليمنى وتبولت على الجدار ، وعدت الى مأمون الذى جلس ضاحكا فوق حديد القنطرة • أحس بمدى الحزن في عينى ، فرفع كتفيه ومد بوزه في أسف كأنه يقول : « آدى •• الله وآدى حكمته » •• ثم قال :

ــ « لم يعد هناك من يشعر بمثل هذه الأشياء •• الكل ها هنا يريد أن يأخذ من الملكية العامة قدر ما يستطيع •• لا أحد يريد أن يعطى شيئا لأى شيء • الكل ينشغل بالبناء لنفسه فحسب ، وكل من ينسلخ من هذا السرداب الطينى ويبتنى لنفسه بيتا ها هنا يغلق عليه أبوابه فلا يزور ولا يزار ، لأنه قد صار يخشى حسد الفقراء والنم والقر خاصة من أهله المعدمين •• في هذه البيوت الأسمنتية الجديدة يسكن مجموعة من نماذج خارقة تنهزم أمامها قدرة أكبر روائى في العالم •• بعضهم مدرسون سافروا بطريق الاعارة وآخرون أثروا من الدروس الخصوصية •• بعضهم من معاونى الجمعية الزراعية الذين اختلسوا عرق الفلاحين في الستينيات •• بعضهم من تجار الشنطة والبنائين •• وكل من يسكن في هذه القرية الأسمنتية الجديدة يتنافر مع الآخر ويتعالى عليه ويتباهى بما عنده من أجهزة وأشياء •• آخر مباراة للتباهى الحاق الأولاد بالمدارس الأجنبية الخالصة رغم ما تكلفهم من مصاريف باهظة وشحططة لا مبرر لها ، أى ان المدارس الأجنبية التى تتسلم الطفل الأخضر فتدرب لسانه على أن تكون لغته الأصلية هى الفرنسية أو الانجليزية حسب جنسية المدرسة ، أصبح بين طلابها من يدعى معاطى وأبو سريع

وببطويسى ·· أحلى مشهد نراه لو قدر لك حضـور مناسـبة عائلية اضطرت فيها الأسر الى التلاقى فى مكان ·· ترى عجبا · تراهم يجلسون مسمرين لأنه فى الواقع لم يعد بينهم وبين بعضهم أى شىء مشترك أو أى موضوع يتحدثون فيه معا ، ولذا تراهم قد نسوا المناسبة التى جاءوا من أجلها ، ونسوا حتى شخصياتهم وأنفسهم وذابوا فى لحظة انتظار لشىء واحد ، أى ابن من أبنائهم سيكون الأنجح فى الرطانة بطلاقة ، والأم تقول بكل استمتاع خفى : لم أعد أقدر على التفاهم مع الواد ، يكلمنى بالفرنسية على طول الخط ، ولم يعد يتذكر أى لفظ عربى فهل يا ربى أتفرغ لتعليمه العربية من جديد ؟ اف · لو كان ذلك ينفع معه لفعلت · اف ·· واف هذه هى نفخة المتعة التى تتمنى كل أم أن تقولهـا عن ابنها ·· لقد حضرت بعض هذه المناسبات فكان النكد يحط على كالجبل ، وكنت أبكى من الاحساس بالاغتراب ، ويعلق البعض على بكائى بأنى أستطيع السفر عاما أو عامين أغير جوا ، ويعلق آخر بأننى يجب أن أتزوج لأنجب لى طفلا ·· وتنساب بكرة التعليقات : العيال اليوم تكلف ، دفعت للولد مائة جنيه ثمن توصيل بالعربة فقط ، ابن أخى قدمنا له فى الليسية فامتحنوا أباه وأمه امتحانا عسيرا واضطررنا الى دفع رشوة لينجح الأبوان فى الامتحان !! ·· وهكذا ترانى أعيش فى مجتمع من القردة يربى جيلا أجنبيا لينفصل عنه بعد ذلك تماما » ··

ثم عجز مأمون عن ايقاف دموعه التى أخذت تنهمر بشدة ـ وشرعت أنطق قائلا له فى أسى : ما لدموعك قريبة هكذا يا مأمون ؟ لكنه قال دون أن يجفف دمعه ·

ـ « لم أعد قادرا على دفع البكاء باستمرار ·· أحس اننى لم يعد لى صديق فى هذه الديار ·· الذين لازمتهم ولازمونى طوال سنين الطفولة الصـبا قاطعونى رغما عنهم ·· بعضـهم سـافر واستوطن بجنسية مستعارة ·· بعضهم اشتغل سمسار عقارات وتأجير وبيع شقق وأراض ··

بعضهم ميكانيكى أو سمكرى سيارات ·· بعضهم سائق عربة أجرة من المحطة الى القرية تجمع فى اليوم الواحد مائة جنيه على الأقل ·· بعضهم اشتغل مهربا للبضائع من بورسعيد ··

أطلقت بضع هوهوات رقيقة ترسم على وجهى تقاسيم الاحتجاج اللطيف كأننى أقول له : أخرج بنا من هذا الجو الكئيب · فاحتوى فكى بيده الحنونة قائلا : هيا بنا ·

ـ ٥ ـ

فمضينا نحو الجسر فعبرناه فى بهلوانية فصرنا فى القرية الأسمنتيه الجديدة التى ابتناها أبناؤها · انعطف بنا مأمون فاذا بنا أمام محل بقالة ذى رصيف عال بسلم أسمنتى صغير ، صعدناه فى قفزتين ثم دخلنا الدكان : مروحة كبيرة فى السقف ثلاجة كبيرة جدا وأخرى صغيرة ، رفوف تزدان بمئات الأنواع والألوان من المعلبات الأجنبية والصابون والحلويات وأشياء للأطفال لم يسمع بها أطفالهم بعد ، والتى وقفت بتبييع كل هذه الأشياء عجوز عجفاء لا تعرف أى حرف من أى لغة · طويلة كعمود النور صلبة ، بحنيه كحنية عامود النور أيضا لسبب عملى وليس بدافع الشيخوخة · ما أن رأتنا حتى افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة هتماء لطيفة ، ثم رفعت جزءا من البنك الخشبى وفتحت من تحته بابا صغيرا ، دخلنا منه الى جوف الدكان نفسه حيث جلسنا على دكة خشبية مستطيلة عليها بعض البضائع · ثم ان العجوز بنصف خطوة فتحت الثلاجة وأتت منها بزجاجة شويبس ـ باعتبارها آخر ما أعلن عنه حسب رغبة السكان هنا ـ فتحتها وقدمتها الى مأمون ، أخذها قائلا : « شكرا يا مرات خال » · ولما لم يكن ثمة من زبائن فى هذه اللحظة فانها وسعت لنفسها مكانا بجوارى على الدكة ثم جلست وصرت فاصلا بينها وبين مأمون ·

نظر لى مأمون قائلا فى مداعبة : « هذه عجوز أخرى كالتى تركناها فى الدار لكن هذه أقوى وأعتى ، هي الجذع العتيق الحى وباقى الأفرع لم يعد ينفع فى اروائها ماء » • داعبتها ببوزى فى صدرها وكتفها فدفعتنى عنها بخجل أنثوى أصيل ثم عادت فربتت على • وقال مأمون : « انها زوجة أخ جدتى ، يعنى هى زوجة خال خالتى بسيمة » • انتفض حتى الشعر فوق جلدى من الغضب والتحفز ، حيث تذكرت ما كنت سمعته عن هذه السيدة وكيف لعبت دورا فى تشريد طفولة بسيمة فقد سمعت انها لم تكتف بالاساءة اليها لتطفيشها هى وأمها من مملكتها بل عمدت الى تسفية جمالها وتلطيخه فى أنظار أهل القرية حتى تبتعد أنظار العرسان عنها وتتجه الى بناتها هى ، ومن يدرى فلعل مسيرة بسيمة فى الحياة كانت تغيرت لو لم يكن فى حياتها سيدة كهذه ، ثم عدت فقلت فى نفسى ، هل يمكن ان يحاكم الانسان على ذنوب اقترفها من أربعين عاما أو أكثر مثلا ؟ وقلت على الفور ان هذا لا يجوز ، لكننى أحس أنى سأظل غاضبا منها الى الأبد ..

ودخلت امرأة ريفية تحمل على صدرها طفلا نظيفا جدا أغلب اليقين انها خادمته • قالت : « مسا الخير يا خاله جل الخالق • مسا الخير ياس مأمون » فردا معا قائلين : « أهلا يا ست الحسن » • أخذت أهوهو فى اتجاهها مرة وفى اتجاههما مرات وهما ينبهان على قائلين : « انها ليست غريبة .. انها حماة توفيق أفندى البحراوى المدرس الاعدادى » • وقالت العجوز دون مناسبة : « لولاها عليــه .. يتركانها مسكينة كالخادمة ولا يعودان الا فى الليل من الدروس الخصوصية • ويتأمران عليها رغم ذلك » • وست الحسن تقول : « كله عند الله يا خاله جا الخالق وأنا أعاود النباح أكثر احتجاجا كأننى أقول : لا شأن لى بهذا ، المشكلة عندى ان ست الحسن اسم مفهوم لدى ، ولكن ما معنى اسم جا الخالق ؟ مأمون بذكائه قرأ أفكارى • فمال على هامسا : أتدرى ما معنى هذا الاسم ؟ انه اسم جميل جدا وصحة نطقه : جل الخالق • فدار رأسى من العبث وقلت لنفسى ان أولاد النفط يحملون الآن أسماء أجنبية لا يعرفون معناها

وها هى ست الحسن وجل الخالق امرأتان من عصور مضت لا تعرفان معنى أسميهما فالأمر اذن لقديم ٠٠

خرجت « ست الحسن » حاملة الصـــابون والزهرة ، وعادت جل الخالق الى الجلوس بجوارى قائلة لمأمون فى ود عميق : « مارحتش الفرح على طول ليه ؟ » أطرق مأمون ثم شرب جرعة شوبيس ثم قال : « ما أنا جيت أهه كفايه » ٠ ضربت العجوز صدرها متنكرة : « يا عيب الشوم ٠٠ لا ٠٠ لازم تروح الفرح » ٠ ابتسم مأمون : « يمكن يطردونى » ٠ شهقت : « معقول ؟ » ٠ هز كتفيه : « العريس نفسه لم يدعنى وهو قطعة منى » ٠ ملست العجوز على كتفيه : « لهذا انت فى غير حاجة الى دعوة ٠٠ انت الذى يدعو الآخرين بدلا منه » ٠ قال مأمون : « لا يا زوجة خال ٠٠ انت لا تفهمين جميل ٠٠ هو صحيح ابن ابنك ولكنك لا تفهمينه »٠ قالت العجوز جل الخالق فى صدق : « جميل طيب وأبيض القلب كما عهدته ٠٠ لكنهم الملاعين الذين سيطروا عليه فقبلوا مخه ٠٠ لا تغرنك شدته فهو يتظاهر بها لكى يرضى أصحابه أولئك » ٠ قال مأمون بأسف : « الأمر ليس هكذا يا زوجة خال ٠٠ الأمر ان جميل جاد فيما يفعل ويقول ٠٠ انه يعتبرنى أفنديا كافرا ٠٠ وكل شىء أستخدمه وأفعله يراه هو كفرا وزندقة ٠٠ وهو يحرم على كل شىء ابتداء من البذلة حتى الراديو والأقلام والكتب والمدنية كلها » ٠٠

زحف الهم الشديد على وجه الجدة جل الخالق وصارت تبلع ريقها الجاف ثم تنهدت قائلة :

ــ « معك حق يا ولدى ٠٠ لقد سمم عيشتنا وأصبح مصدر نكد لا ينتهى ٠٠ أبوه أصبح مهددا بالموت من جرائه ٠٠ انه يقاطعنا ٠٠ لا يأكل الذبيحة الا اذا كان هو نفسه أو أحد صـحابه قد ذبحها ٠٠ أما غيرهم فغير مسلم فى نظرهم ٠٠ لحم الجزار يابنى لا يطيق وجوده فى الدار ٠٠ أبوه طول الليل يخرف فى حجرته ويقول ليتنى أنجبت فتاة بدلا منه ٠٠ أبوه الذى حج بيت الله أكثر من مرة ، وفعل كثيرا من

الخير لوجه الله ، يطلع الولد المفعوص عليه فيقاطع حياته ولا يأكل معه في طبق واحد ·· لقد علمناه يابني وكنا نريد الصرف عليه في المدارس العليا ولكنه تخرج في دبلوم الصنايع قسم الكهربا ·· يقولون ان الكهربا تضيء ، فلما علمناه اياها أراد أن يضعنا في الظلام ·· أول شيء فعله يا ولدى ان قسم البيت الى قسمين بضلع وباب ، هذا للحريم وهذا للرجال ، ولا أحد من أهل هذا الباب يرى أهل هذا الباب الا من كان صاحب حق شرعي ·· سمم عيشتنا يا ولدى وتسلط علينا وكلنا ضعاف أمامه فهو الكبير والوحيد ·· لكنه طيب يا ولدى ·· جميل ابن ابنى طيب القلب فلا تضمر له في نفسك شيئا ·· أنتم أهل ودمكم واحد ·· وغدا تحتاجه أو يحتاجك فيكون جسر الود قائما بينكما » ··

استوقفها مأمون باشارة من أصبعه ، قال مع ابتسامة :

ـ « والله وحق كتاب الله يا زوجة خال ما اضمر لجميل شيئا في صدرى غير الحب والمعزة ·· انني منذ شهور قليلة مضت كنت لا أزال أتصور انها أزمة طارئة وانه سيفيق منها ويثوب الى رشده ·· ورغم انك ، عدم المؤاخذة ، قد لا تفهمين ما أقول لكنني سأعيد عليك ما قلت له بالضبط ·· لقد قلت له : اننا جميعا مؤمنون بالله والرسول عليه الصلاة والسلام ونؤدى كافة الفروض ـ والمسلم منا أثناء أوقات التعبد كلما كان شفافا كانت عبادته أعمق اذ هي توصله الى حالة من الوجد يقربه أكثر وأكثر من الله سبحانه ·· ولذا فان الانسان الكامل ، المسلم الكامل ، هو الذى يؤدى عمله الحياتي بنجاح ، ويؤدى واجبه نحو الله بنجاح ، فتعال نتفق على ان جهود الشباب المثقف والمؤسسات الدينية تنصرف الى تثقيف المسلم الأمي ثقافة إسلامية تهدف الى تهذيبه وتمكين الصدق من نفسه حتى يصير بعد ذلك على قدر من الشفافية يفهم معها معني فعل الخير فيكون نجاحه في عمله رد فعل لنجاحه في أداء الفروض تجاه الله سبحانه ·· هذا ما يمكن ان اتفق عليه معك يا جميل ·· أما ان يتحول كل واحد منا الى مجاهد مستقل عنيف فمعنى ذلك ان كل

واحد منا يريد ان يكون نبيا وحده ٠٠ وهل الجهاد ان نصادر الحياة والمخترعات والتقدم العلمى والتقنى ؟ ٠٠ هذا عمل يؤدى لو فعلناه الى تخريب الحياة والعيش من جديد فى الصحراء القاحلة ٠٠ فهل هـذا يرضى الله سبحانه وتعالى ؟ أبدا أبدا يا جميل ان الله خلقنا لنعمر الكون ، وهو سبحانه يريدنا أن نسعى فى مناكبها ونأكل من رزقها أى نحصل على رصيد من الخبرة والمعرفة وانكشاف الأسرار ٠٠ وكلما اكتشفنا سرا جديدا عن الكون والحياة والانسان اقتربنا من الله أكثر يا جميل ، أى اننا سنفهمه أكثر ، ستتجلى لنا قدراته الفائقـة فى كل نجاح تحققه سواء كان ذلك النجاح وصولا الى القمر أو الى طفل الأنابيب ٠٠ ان الله سبحانه يا جميل لن يتأثر من أفعالنـا هذه لأنه سبحانه ٠ فوق ان يتأثر ، فكيف ينزعج شيوخ المساجد ويخطبون الناس بأن هذا كفر والحاد ؟ ٠٠ اننا يا جميل طول عمرنا مصابين بمن يحرم علينا شيئا من أدوات الحضارة ووسائلها ، وكان التاريخ بحركته الدافقة يهزمهم ويقوم الواقع بفرض الأداة أو تمكين الوسـيلة ٠٠ اليوم خرجنا نحن يا أبناء البارحة يا من مات أباؤنا وأخوتنـــا الكبار فى أربع حروب متواصلة ، فاذا بنا قد أصابتنا قوة سحرية تفرض علينا ان نقاطع أباءنا وأخوتنا ومعلمينا وتراثنا وفوق ذلك كله ما اكتشفه الانسان على مدى التاريخ ٠٠ كان الواجب علينا يا جميل ان نفكر فى مستقبل بلادنا والى أين هى ذاهبة ، فى أمر مستقبلنا وعند من سنكون خدما ٠٠ كان الواجب ان نصحو لنعرف من نحن من العصر الحاضر ومن الأمم التى تسـعى للسيطرة علينـا وابادة جنسنا المتخلف ، فمن بالله تراه المسئول عن بعثرتنا هكذا ؟ ٠٠ اننا يا جميل لم نعد مرتبطين ببعضنا أو ببلدنا ، كل واحد الآن يرتبط بداره فحسب ويقول : يلا نفسى ، وهو لا يعلم ان الريح اذا اشتدت فلن تبقى ولن تذر ٠٠ فلمصلحة من يا جميل نرفع سلاح التكفير والتحريم ؟ ثم من أدراك أنت بالذات أو غيرك بالذات ان رأيك هو الصحيح الصائب ؟ هل معك توكيل رسمى من الله سبحانه ؟ من أنت حتى تحكم بتكفير هذا أو تحريم ذاك وانت غير ملم بالسرائر

ولا بما يدور خلف الجدران وتحت الصـــدور ؟ •• هناك ظواهر يتفق الجميع على سوئها وخروجها عن الحدود فلتعمل على محاربتها ، أما القطيعة فهي غاية العجب ، هل تقاطع مجتمعا برمته ؟ تقاطع الكون كله مثلا وانت جزىء منه لن يتحرك الا بحركته هذه فى نفس هذا الاطار الذى ترفضه جملة وتفصيلا ؟ اننا لو سلمنا بقولكم هذا يا جميل لكان الخلاص من الحياة أكثر اسلاما وأطهر ايمانا ، فهو الحل الوحيد الذى يبقى روحك وجسدك طاهرين » ••

وجرع مأمون آخر رشفة ثم نحى الزجاجة بعيدا فى مأمن ، وعلق فيما تتابعه العجوز جل الخالق بابتسامة بلهاء هتماء لطيفة مبهورة :

ـ « هذه الزجاجة صنعها كافر •• ولكن الله سبحانه ليس يكره هذه الزجاجة وليس يكره صنعتها ولا انتشارها بين عبـاده المسلمين ، لأنها اختراع انسانى والاختراع الهام •• والالهام من الله » ••

قالت العجوز جل الخالق :

ـ « كلامك حلو يا مأمون •• آه لو كان جميل مثلك » ••

ابتسم مأمون كأنه يتوقع منها هذا التعليق ، ثم تهيأ لقول شىء عظيم الخطر ويدرك فى نفس الوقت مدى ما سيكون عليه من سخف • فبدأ وهو ابن العشرينات عجوزا فى الستينات ، جاف الوجه ضـــامر الخدين مجعد الشدقين • لففت أنا حوله ثم تسلقت ظهره ومددت بوزى بجوار رقبته كأننى أقول له : مالك يا مأمون ؟ • فضغط على شفتيه فى تفكير عميق أسيف ممض ، وسمعت رنين الخواطر فى رأسه يقول : لقد كنت أبيت النية على حضور فرح جميل ولهذا أطلت أجازتى حتى اليوم ، فاذا بى أرانى مضطرا للمجىء لا لكى أثبت له اننى علوت على الخلافات الشخصية فحسب ، بل وبالأحرى لكى أبلغه نبأ قدوم جثمان عمة أبيه ، جثة من صلبه ولحمه ، لقد صاح واحد من التنابلة عند رؤية الجثة قائلا : صاحب اللحم يلمه •• كيف الى احسـاس جميل كيف

مزقتنى هذه الكلمة فى كبدى ؟ ‧‧ ان الخبر لابد أن يكون قد وصله بشكل أو بآخر فجميع أطفال العب كله كانوا يتفرجون ، والواضح حتى الآن ان جميل مشغول بفرحه ، فكيف أقنعه اننا مبدئيا علينا أن نبادر بلم لحمنا ، ثم ان الأمر يقتضينا ـ انسانيا ـ ان ندعو الى التحقيق فى مقتلها وفيما وراء عودتها هكذا ؛ وان نتابع القضية فى جهاتها المختصة حتى نصل الى الحقيقة ، انه على جميع المستويات يكون أمرا مفيدا وشريفا معا ، أليس من المحتمل ـ وهو وارد ـ أن يكون وراءها ما نستفيد بها كلنا ؟ أو سرا ما ينفعنا فى حياتنا ؟ أيا كان الأمر فاننى واثق من أن التحقيق فى مقتل بسيمة سوف يكشف عن أسرار هائلة ربما غيرت مجرى حياتنا ‧ وواثق أيضا من أن سعينا وراء هذه القضية يكون عملا شريفا جدا ومشرفا جدا ‧‧ بالله كيف أقنعه أن الانشغال بالبحث فى قضية بسيمة والتحقيق وراء مقتلها وعودتها هكذا لهو أجدى بكثير جدا مما يفعلون أو يدعوننا الى فعله والا فلا نحن من صـلبكم ولا أنتم من عصبنا ؟ هم يجعلون العمل استثناء والتعبد قاعدة ، هم يدعون الى تفريغ الذهن على الدوام من كل مشغلة دنيوية والتفرغ لتصور الذات الالهية وعذاب يوم القيامة ‧‧ أريد أن أقول له يا جميل ان آيات الله سبحانه مجسدة فى الواقع الذى تحياه معنا ونحياه معك وما عليك الا أن تستوعب كلام الله سبحانه ثم تلقى نظرة على الواقع لتستوعبه هو الآخر على مهل وبنفس هادئة ، لنكتشف كيف ان الآية القرآنية الفلانية قد تجسدت ها هنا حقيقة ، ان كتاب الله العظيم أنزله سبحانه علينا لا ليكون مجرد تميمة نعلقها فى رقابنا وتحت رؤسنا انما أراده سبحانه أن يصبح لوحا محفوظا فى سريرة كل آدمى منذ البداية حتى اذا ما شرع يمارس الحياة ويتصادم بنقائضها ومفاجآتها ينطق لسانه بالآية فيفهم مغزاها الالهى ومغزاها ان نتعظ أى نغير من سلوكنا الى السلوك الأقوم ‧‧ من شريعة الله أن نبحث فى قضية كقضية بسيمة على الأقل لنستوعب الآية الكبيرة التى ينطق بها لسان الحق فى أفئدتنا يوم نعثر على الحقيقة فيها ‧‧ قضية بسيمة قد تكون معقدة والبحث فيها شاق وعسير ومحفوف بشتى أنواع المخاطر ، وقد تضيع أعمارنا دون أن نصـل الى جوهر الحقيقة

كاملة ، لكن يبقى لنا شرف البحث فيها واعطائهـا حقهـا الشرعى من الاهتمام ، فمن المؤكد أننا بمجرد اهتمامنا بالقضية واتخاذ موقف ايجابى منها سوف نجد متعة فى البحث ، ان البحث فى قضية بسيمة هو فى حد ذاته عمل ثقافي كبير فضلا عن كونه شرف وحمية وصـــون للحم الانسانى ، هو طريق من مضى فيه لا يكون خاسرا أبدا ، ان انشغالنا بقضية مقتل بسيمة وتاريخ حياتهـا ليس ترفا ثقافيـا بل هى مسألة تخصنا ، ولكن بالله كيف أنقل لجميل كل هذه الخواطر والأحاسيس وهو رافض للحوار معى أصلا ما لم ألتزم بتشريعهم فى سلوكاتى جميعا .

ثم تنهد مأمون من كبد مسحوقة بالألم والعجز والأسف . وقالت العجوز جل الخالق وهى تنهى آخر طلب لزبون : « رحت فين يا ولدى ؟ » فلم يرد مأمون فجلست بجواره وربتت على ظهـره : « طب قوم روح الفرح .. روح كده اسند قلبه قدام نسايبه .. دانتوا لحم والضفر ما يطلعش من اللحم أبدا مهما كان » . قال مأمون بأسى واضح : « صح .. القضية فى أساسها هى قضية اللحم ، لحمنا نحن ، اننا نتألم حين نخلع ضرسا لنا مضطرين ، أو حين نخلع ظفرا ، فما بالك ونحن نخلع جسدا بحاله من جسدنا ، نخلعه تماما ونتركه للكلاب تنهش فيه أمامنا دون أن تصيبنا وخزة ألم .. نعم هى قضية اللحم يا زوجة خال » .

قالت العجوز جل الخالق تخفى سخرية قديمة بينهما : « شاعر ربابة زى جدك .. صحيح العرق يمد لسابع جد .. جدك ماجاش الفرح ليه يا واد وجاب الربابة معاه وغمل الشـوية بتوعه ؟ .. مكسـوف ولا مستعر ؟ ولا مستكبر ؟ . ده أول فرح يتقام فى دارنا بعد سنين طويلة » ..

قال مأمون بصدق : « معك حق يا زوجة خال .. ما يحدث اليوم يحتاج شاعر ربابة حريف يحكى عما حدث وحدث .. يعزف على أوتار الألم كيفما شاء حتى يتمزق الناس من فرط الألم .. لابد من شاعر ربابة يعزف بالقوس على الرقاب » ..

وضحكت العجوز جل الخالق حتى صار فمها كفتحة الطلمبة مفتوحا على الفراغ يصدر خشرجة متواصلة ، ثم قالت : « كلكم متعبون ان انت أو هو ٠٠ لسنا نفهم شيئا مما تقولون جميعكم يا أبناء هذه الأيام ويبدوا اننا خلفنا أعداء لنا » ٠ وهنا نهض مأمون واقفا ، فهبطت وراءه ٠ قالت العجوز : « أذاهب الى الفرح » قال مأمون : « لا ٠٠ ذاهب الى الجناز » ٠ ضربت صدرها بيدها فى خوف وذهول « جناز ٠٠ تف من بقك ٠٠ يا ســاتر يارب » ٠ قال مأمون وقــد غاضت الدماء فى وجهه تماما : « يا زوجة خال ٠٠ أتذكرين ٠٠ بسيمة ؟ ٠٠ خالتى بسيمة ؟ بنت أخت زوجك » ٠ صــاحت كالمأخوذة : « يوه ٠٠ قطعت ولا كانت ٠٠ مالها ؟ » ٠ قال مأمون : « اليوم عادت ٠٠ ولكن جثة مقتولة ومعها ٠٠ » ٠ صاحت بلهفة : « معها ماذا ٠ ثروة ؟ » قال ببسمة أسفة : « وجدوا معها محتوياتهــا القديمة أتذكرين يا زوجة خال ؟ تلك الأشــياء التى كنتم تتحدثون عنها ونحن صغار وتقولون كان معها خرج به كذا وكذا وكذا ٠٠ العجيب يا زوجة خال انها بعد الغياب هذه السنوات كلها عادت لبلدتها بهذه الأشياء فقط ، كأنها كانت ثروتها الوحيدة التى احتفظت بها فى بنك أمين » ٠٠

شردت العجوز جل الخالق شرودا عظيما ، وصارت تبسمل وتحوقل وتردد ، أورادا وتعاويذا غامضة ، ثم قالت : « أين هى اذن ؟ » ٠ قال مأمون : « حملوا جثتها الى المشرحة ثم الثلاجة » ٠ قالت العجوز بخجل سطحى : « كيف هذا ؟ » قال مأمون بخجل عميق : « تصورى يا زوجة خال ٠٠ لم يتقدم أحد من المتفرجين وكانوا أمما ليقول انه صاحب اللحم ٠٠ حتى أنا يا زوجة خال ٠٠ حين أوشكت الفرصة ان تواتينى فى الاقتراب من الشرطة للتحدث باسم الفقيدة مندوبا عن أهلها كنت قد صغرت فى نظر نفسى فجأة ووهنت قواى المعنوية تماما ٠٠ حيث كانت نظرات الواقفين جميعا تسلقنى بلمعان السخرية والاشفاق والاستهزاء وما الى ذلك ٠٠ وكنت أدرك ان بين هذه الأمم المتفرجة على الجثة لابد واحد من أهلنا له صلة قربى بخالتى بسيمة ٠٠ وحط على شعور بازدراء كان دفاعى

الوحيد أمامه أن أتنكر لصاحبة الجثة وأدعى بأنني لا أعرفها ‥ فانسحبت ـ تصوري ـ وعدت مع العائدين » ‥

وكانت العجوز جل الخالق تهم بمقاطعته من حين لآخر تود أن تقول شيئا هاما ٠ فلما سكت هجمت عليه وأسرت فى أذنه بفجيج رهيب : « أوعى تجيب السيرة دى قدام جميل ولا حد من زملائه ‥ اعمل معروف يا ابنى ‥ خالتك الله يرحمها بقى ‥ مفيش داعى نصحى الجروح القديمة يا ابنى ‥ اعمل معروف ‥ احنا ماصدقنا الناس بطلت تجيب السيرة دى وطلعت أجيال جديدة زيكم معندهاش فكرة عن الحواديت القديمة دى عشان ‥ خاطرى يا ابنى سيب الطابق مستور ‥ اعمل كأنك ما شوفتش وما تعرفش ‥ كأن بسيمة دى لا هى خالتك ولا تعرفها ‥ انت كنت شفتها ولا عرفت شكلها ولا هى كانت تعرفك ؟ ‥ اسمع كلام جدتك العجوزة ‥ سيب اللى يعرف وانت مالكش دعوة ‥ ناس قليلين اللى عرفوا ‥ شوية عجايز ما يحبوش كتر الكلام حيسكتوا وتعدى الحكاية ‥ انما أنت لو فتحت السيرة قدام حد حتفضحوا نفسكم من أول وجديد ‥ الناس حترجع تجيب سيرتكم تانى وتحط راسكم فى الوحل وتعيشوا طول عمركم مذلولين ومناخيركم فى الأرض ‥ عشان خاطرى يا ابنى فضك من السيرة دى واطلع جرى على الفرح » ٠ ثم قرصته قرصة صاح متوجعا من ألمها ‥

ثم انه تأملها لبرهة غير وجيزة لكنه قال بعينيه أشياء كثيرة ثم اعتقل ما فى صدره وقال : « طيب ‥ اتمسى بالخير يا مرات خال » ٠ فردت صائحة : « على الفرح على طول يا ولد » ٠ فهز رأسه موافقا : « ماشى يا مرات خال » ٠ ثم رفع البنك وخرج ، وخرجت فى أثره متجهين نحو الفرح ٠

باب الخـدم

★ العطب لا يصيب البذور الفاسدة

– ١ –

قال « مامون » :

ـ « كان الحاج محمد عوضين النشرتاوى خال بسيمة يحمل هم أبنائه البنات فى ظل وجود بسيمة ، وهم كرامته ، كشخص تخين فقط وذى شارب ، فى ظل وجود أم بسيمة • ففى ظل وجود بسيمة لن يتزوج من أبنائه أحد ، اذ أن سمعة بسيمة تشـوش عليهم • وفى ظل وجود أم بسيمة وهى امرأة شرقانة سوف تظل الألسن تلوك سيرته فى الفاضية والمليانة ••

« كان ذلك قبل الأربعينات بوقت قليل • والحاج محمد عوضين فى الأصل برادعى • شغلته صنع البرادع للحمير ، هى صنعة ورثهـا عن أجداده فعائلته كلها تحمل لقب البرداعى وان لم تمارس المهنة ، ولذا فهو أيضا صنايعى نظيف • يزور داره عليـة القوم ممن لديهم الحمير الركـوبة ، القـــادرين على تكليف بردعة منجدة بالقطيفة مثل كرسى الصالون تماما • وهو خبير بأنواع الأقمشة والأحشية وأسعارها ولذا فيزور داره كذلك ناس من غير الموسرين ليصنع لهم برادع متوسـطة

القيمة لكنها جميلة رغم ذلك • وكان صاحب مزاج ، يهوى صحن حبات جوزة الطيب فى الهاون مخلوطة بالسكر ، ليسفهـا متلمظا قبل شاى العصارى حيث يفرش الحصير أمام الدار ويكمل تنجيد بردعة ، مرتديا ـ امعانا في المعلمة ـ كامل ثياب الخروج ، يبك الدم من وجهه المربع المكتنز المبتهج دوما ..

« الرجال الذين يزورونه من أجـل برادعهم يأخـذون معهم بعض أمزجتهم الخاصة لتحيته كى يجود عملهم ، فقطعة أفيون تخرج من جيب واحد يتم امتصاصها بالشاى فى القعدة ، وقطعة حشيش من جيب آخر يتم تدخينها على الجوزة • وبنات الرجل الثلاث يدخلن ويخرجن بالشاى ، ذلك أن الصبيان يساعدون أباهم فى نفس الجلسـة • وكل الرجال شيوخا وشبانا كانوا ما أن يرون احدى بناته حتى يخرجون عن وقارهم مهما كان اتزان شخصياتهم ، فكلهم بنات ملونات مائسات القد كأنهن القشدة أو كوز العسل • وكان الحاج محمد عوضين النشرتاوى يجد لذة كبرى ومتعة فائقة حين يرى أن بنتا من بناته قد أوقعت هيبة رجل كبير أو أدارت رأس شاب • لكن الرجـال جميعهم شيوخا وشـبانا كانوا لا يتمالكون أنفسهم لدى رؤيتهم لخالتى بسيمة وهى تمرق داخلة أو خارجة ، مما يقبض قلب الحاج عوضين • وقد ظل شهورا طويلة ينتظر أن يطرق بابه خاطب لواحـدة من بناته أو حتى لبسـيمة ولكن دون جدوى ..

« فاصطاد جدى خليل ، وكان فى ذلك الوقت البعيد قد ترك شغلة الربابة بعد انتشار ما يسمى بماكينة الغناء ذات الاسطوانة والنفير عند العمد والأعيان ، واشتغل غرابليا أى صانعا للغرابيل • وواقع الأمر أنه كان يحمل اسم الصنعة فقط أما هو فقد كان منتميا اليها بسبب واحد هو تسقط أخبـار الحمير الميتة فى كل مكان حتى يذهب اليها بسرعة ويسلخها ويدبغها ويوردها لأهل المهنة الذين يقصبونها فى خيوط رفيعة يصنعون منها الغرابيل الكبيرة ..

كلاهما ــ جدى خليل وجدى عوضين ــ يعيش على شرف الحمير ــ أى أن القرابة بينهما أصيلة وواضحة ، فماذا لو دعمنا هذه القرابة بعمل كبير يحفظها على الدوام ؟ .. هكذا قال جدى عوضين لجدى خليل قبل ما يزيد عن أربعين عاما وكانا لحظتها يشربان معا سيجارة من البانجو فى مدخل دار جدى عوضين القديمة والقمر طالع . فرد جــدى خليل قائلا : « كيف ؟ » . قال جدى عوضين : لديك عريس ولدى عروسة .. انت رجل غلبان وليس معك مهر تدفعه لأى عائلة .. ولأننا أصحاب فقد رأيت أن أهديك عروسا لابنك لا يحلم بمثلها .. انها بسيمة ابنة أختى .. ونكون أنا وأنت قد عملنا خيرا فى بنت يتيمة .. ما معك ادفعه واتكل على الله » وكان جدى خليل يعرف أن دواعى النسب بينهما ليست مجرد قرابتهما فى الحمير وانما هى سبب آخر تماما ، فالفلاحون فى القرية لا يتزوجون من أبناء الغرباء وان استوطنوا القرية لأجيال ، اذ مهما كان الواحد من الغرباء موسرا بصنعته فهو ليس من البلدة وليس معروف العائلة ثم هو معرض لمغادرة القرية ذات يوم ، فطالما أنه ليس فلاحا يملك أرضا فى القرية فانه لا يبقيه فيها صنعة ولا زوجة ، لا يبقى الانسان مرتبطا بالأرض سوى الأرض نفسها التى يرتبط بها ويملكها وتتملكه كذلك لا يزوجون بنــاتهم لأجرى مثل جــدى خليل يعتبرونه ــ حتى ولو امتلك قصورا ــ شحاذا بربابة . لكن جدى خليل لم يناقش هذا مع جدى عوضين ، بل لم يضيع وقتا ؛ بالفعل اتكل على الله وبعد أيام قليلة جاء المأذون وعقد جلسة ، ثم انتقلت خالتى بسيمة الى دار جدى خليل زوجة لهريدى الذى لم يكن راغبا فى البلدة كلها . اختفى الاثنان فى مولد ، حيث انفصل كل منهما عن الآخر فى الزحام ، فذهب كل فى طريق ..

« لم يحزن أحد فى الواقع لاختفاء بسيمة ، انما الحزن كله كان على هريدى . وقد ظل جــدى خليل يقاطع جدى عوضــين ويعتبر أن الزيجة كانت نذير شــؤم عليه أفقدته ولده الوحيد . ولم يكن مقدرا للعلاقة بينهما أن تعود ثانية لولا أن المصــائب تجمع دائما بين أبنــاء

وبنى الأزرق ، ذلك أن زوجـة جـدى أم هريدى قد كتمت الحزن على هريدى فى قلبها فلم يمضى عام حتى ماتت ، فجاء جدى عوضين يعزيه ويحنو عليه شهورا طويلة حتى أحس جدى خليل أنه لم يعد يستغنى عن جـدى عوضين • وفى ليلة كانا يدخنان حجرين من الحشيش فى دار جـدى خليل ، فاذا بجـدى عوضين يقول لجدى خليل : « تزوج يا خليل •• الزواج دواؤك •• أنت رجل مطرف وصحتك كالفرس » •
جدى خليل لا يضيع كثير من وقت فى مثل هذه الأمور • ضربها حسبة فى دماغه فتيقن من وجاهة الاقتراح • فلما ألح جدى عوضين الى نوع العروسة اللائقة صار الاقتراح أكثر وجاهة بل صار مطلبا عاجلا •• وهكذا تزوج جدى خليل من جدتى معزوزة والدة خالتى بسيمة وحماة ابنه هريدى فى مطلع العام الواحد والأربعين بعد التسعمائة والألف • وكان جدى خليل قـويا كالفرس ، فأنجب منهـا ابنته التى أسماهـا « وطنية » ويفسر ذلك قائلا ان البلاد يوم ولادتها كانت على مشـارف الانفجار من الغليان وكانت الأحزاب والفرق قد انتشرت فى كل مكان ومن لم يتحزب يضيع دمه بين الأحزاب ، وبين قمصان زرق وخضر وحمر وما الى ذلك من لعب العيال الذى تشكل فى ذلك الزمن فى فرق ضاعت البلاد بين نوازعها الشخصية الخاصة • وكان الكل يمضى الى عصبيات عمياء تأكل فى بعضها البعض والعدو المحتل يأكل فيهم جميعا بعد أن يكونوا قد طابوا وأصبح لحمهم مستساغا •

« ويقول جدى خليل انه يوم ميلاد ابنته « وطنية » كان لحظتها لبعض المتحزبين الذين يدعون الى التخريب والتحريق : « يا عالم خلو عندكم رحمـة بالبلد شوية » • فقال أحدهم فى غلظة : « يعنى عندك وطنية قوى ياخى ؟ » • لحظتذاك طب عليه خبر ولادة الطفلة فصاح قائلا كأن حبل الحديث لا يزال متصلا بينه وبين الآخر : « نعم عندى وطنية •• خلاص يا ولاد •• سموها وطنية •• أهى كلمة حلوه برضه •• الناس يقولولى روح يا أبو وطنية تعالى يا أبو وطنية » ••

« وطنية » هذه هي أمي ، التي خرطها خراط البنات في سنوات قليلة ليجعل منها ـ كما يقول الجميع ـ صورة طبق الأصل من أختها بسيمة ، حتى ان جدتي معزَوزة كانت تنظر اليها طوال الليل وتبكي بلا سبب ، وفي النهاية قالت أن ربنا أعاد اليها بسيمة في وطنية ، فكفت عن التفكير فيها ، وكفت كذلك عن الانجاب فلم تنفع معها بعد ذلك أي وصفة من الوصفات ٠

ـ ٢ ـ

وقال « مأمون » :

ـ « يرجع مرجوعنا الى جدى عوضين ، حيث أوشكت بنـاته على البوار وهو مع ذلك لا يكف عن الانجـاب والمقبرة لا تكف عن ابتلاع رؤوس متوالية ٠ كان قد بقي لديه ولدان وثلاث بنات أكبر من عرايس ٠ وكان أكثر أولاده معزة هو طاهر ـ والد صديقي جميل الذي نذهب الآن الى فرحه دون دعوة وربما كنا غير مرغوب فينا ـ ومعزته كانت بسبب انه آخر العنقود حيث ولد في العام الثامن والثلاثين ، وكانت بقايا قنابل الحرب العالمية الأولى قد استنفرت قنابل الحرب العالمية الثانية والجو ملئ برائحة البارود ودخان الرعب والذعر ونكهة اللحم البشرى المحترق وقلة الخير ٠٠

« العادة في قرانا أن أعز الأولاد هو الذي يحظى بقسط من العلم ، يصرفون عليه في المدارس ، وهكذا تشجع جدى عوضين وألحق ابنه طاهر بالمدارس الأولية ثم الابتدائيـــة ، ثم فاجأهم طه حسين بمجانية التعليم فانتشر اسمه في شـهادات الميلاد في قرى بني الأزرق وامتلأت المدارس الابتدائية بالحفاة وأنصاف العراة والقملين والمبرغتين ليحرزوا تفوقا غريبا في الدراسة يتقدم بهم الى الثانوية ثم الجامعات ٠ لكن عمي طاهر والد صديقي جميل كان تخين المخ الى حد كبير فلم يفلح في الحصول

على الابتدائية الا بشق الأنفس ، فألحقه أبوه بمعهد المعلمين العام فى احدى عواصم الديار المصرية المجاورة لنا تدعى « دحدور » ، فمكث به عامين اثنين حصل فيهما على شرف كبير جدا هو عضويته فى أول بعثة تعليمية تخرج من القرية لتتعلم خارج البلاد ، الى جانب شرف الحصول على معلومات أكثر ومعاشرته لكثير من الأساتذة والمتعلمين ورؤيته للحياة والمدنية • كف أباه باهظ النفقات وعاد الى القرية طافشا من المدينة التى اتضح له أنها يلزمها دماغ غير دماغه هو ••

« لحظتذاك لم يستطع جدى عوضين كتمان الشعور بالحسرة • وكان لأول مرة فى حياته قد بدأ يتيه على أهل القرية زهوا وتفاخرا • ثم ان القرية كانت لأول مرة أيضا قد تنازلت عن معتقداتها القديمة تجاه الغرباء والحرفيين بل وتجاه كل شيء ، وبات أهلها ينظرون الى المتعلمين نظرة خاصة والى أهلهم نظرة احترام وتقدير ، وكان يسعده كما يسعد أهله منظر طاهر وهو يمشي بين صحابه المتعلمين مرتديا جلبابه الزفير المقلم ذى الياقة والأساور ويتناقش بعربية فصحى اذ أن المدارس تعلمهم اللغات الأجنبية وعلى رأسها العربية الفصحى ، بفضلها يصير الأولاد فصحاء وأذكياء واسعى الحيلة فى التفاهم والتخاطب ، ولكن يبدو أن اللغة العربية الفصحى تصيب من يتعلمها بداء الخطابة واستبدالها بأى فعل • لكن بفضل تلمذة طاهر اتسعت دائرة علاقات الأسرة اتساعا جميلا حتى خيل لجدى عوضين أن الدنيا أوسع صدرا وأحلى مما كان يتصور ، وبدأ شبان كثيرون يحرمون حول دارهم ويتقربون اليهم و « يتكلمون » على البنات ويقرأون الفواتح • وهكذا أصبحت أسرتهم من علية القوم ، وكف أبوه عن شغل البرداع وافتتح دكان بقالة نظيف الى حد يمتلىء بعشرات المئات من الأصناف ••

« ما يحدث فى الدولة المصرية يتكرر عندنا فى الحال ، اذ قامت عندنا الثورة الأزرقية التى تمثلت فى أن يحكم الناس أنفسهم دون ملك ، وبعد دوامة طويلة فى القرى من الترشيح والانتخابات ظهر أن الولد فلان بن فلان قد أصبح يجلس فى مكتب يسمونه الاتحاد الاشتراكى

ويساق اليه ـ حين يشاء ـ كبار القوم مخفورين بالعسكر وتهتز لخطوة الأبدان والأبواب ، وأثر ذلك قد يأمر من معه باقتحام الدكان وتوزيع ما فيه من بضائع بمعرفته ٠٠ وقس على هذا كثيرا مما حدث كتعبير عن الثورة الأزرقية الغراء المباركة ، ولكن يبقى لها الفضل فى أنها غيرت الكثير جدا من مفاهيم بنى الأزرق وعدلت الكثير من علاقاتهم ومعتقداتهم ٠٠

« ذلك الزمان كان البداية الحقيقية الذهبية « لطاهر » والد صديقى « جميل » ٠

« وكانت المقلقات قد تزايدت فى نفس جدى عوضين لأن ابنه وكان اتصال طاهر بالمدينة قد أدخل فى حياة الأسرة اختراعا جديدا من اختراعات الغرب اسمه جهاز الراديو ، يبث فيهم ـ من تلقائه ـ الأغنيات والاحتفالات بالثورة الأزرقية ، والتمثيليات والخطب والنشرات وأم كلثوم ٠٠ هذا الجهاز الساحر كان بدوره مقلقا لجدى عوضين اذ هو لا يكف عن دلق الأخبار المتوعدة المهددة المنددة المتجددة باستمرار ، حتى خيل لجدى عوضين ان قد وقعنا فى حرب مع الدنيا كلها حتى مع العرب ، حيث لا يكف الراديو عن شتمهم وتهزىء ملوكهم ، وانه قد يدفع ابنه ثمنا لهذه المهاترات الثورية ٠ ولو حدث ذلك فان الدكان يغلق أبوابه لأن طاهر لا يصلح للوقوف فيه بائعا ٠

« وهكذا كان جدى عوضين قد صلى الفجر فى احدى الليالى متخلصا من هذه الأفكار بصعوبة ، وذهب كالعادة ليفتح الدكان ويبخره ، ولأن الدكان لصق البيت والباب مجاور للباب فانه فى العادة يدخل البيت ليحضر المفاتيح ، فاذا به يدخل ويتمدد على السرير موصيا بألا يصحيه أحد ، وحين طالت نومته اضطروا الى ايقاظه لتناول الغداء فوجدوه ميتا ٠ آه من تلك الأيام ٠ كانت جثة جدى عوضين وهى راقدة فى النعش ـ كما يقولون ـ تدفع النعش بحامليه نحو قرية « الحصة » المجاورة ليزور عمه فى العهد الشيخ رفعت الفرغانى صاحب الطريقة الفرغانية ٠ عبثا حاولوا عدل الجثة نحو مقابر البلدة ٠ فذهبوا بها راغمين الى مقر الشيخ

الفرغانى ، الذى قرأ الفاتحة على رأسها وتمتم ببعض التعاويذ ، ثم قال لهم احملوها ، فحملوها فامتثلت لأيديهم ولكنها توقفت عند مقابر الفرغانية وصارت تترجرج وتهدد بالوقوع حتى جاءهم أمر من الشيخ الفرغانى بدفنها فى مقابرهم ، فدفنوها فى مقابر الفرغانية وعادوا يلهجون بذكر الحادث سنين طويلة بغية اثبات طيبة جدى عوضين وكراماته · لكنهم وهم يقولون ذلك كانوا هم أنفسهم فى بعض الأحيان يسخرون قائلين ان الجثة كانت ذكية اذ نجت بنفسها من مقابر الصدقة ـ حيث ان الأسرة لم يكن لها مقابر وهذا دليل عدم أصالتها ـ الى مقابر الأولياء الصالحين ، أى أنها جثة قد اغتربت هى الأخرى مثلما اغترب صاحبها ذات يوم ··

« ·· ما أرجلها جدتى « معزوزة » هى أيضا مدربة على الاغتراب مستعدة لمواجهة الحياة وحدها فى أية لحظة · قامت بالدكان وحدها بتبيع وتشترى وتذهب الى مدينة المركز لاستلام التموين وتبصم ، وتجيئها عربات الجاز والدخان والكازوزة ، ولم تكن تجد غضاضة فى أن تقف احدى بناتها لتبيع فى الدكان وفى نفس الوقت تعرض نفسها لمن يريد تأمل جمالها على مهل لعله يتزوجها · الا أن « طاهر » الذى كان مفقودا منه الأمل نشط وصارت له كلمة فى البلد · كانوا فى البداية يراقبونه فى سخرية وهو يتزعم ما أسموه بمنظمات الشباب ، ويمشى فى البلد بجدية يتكلم بطلاقة ويردد الشعارات التى يسمعها فى الاتحاد الاشتراكى من المتكلمين باسم الثورة · فلما فوجئوا بأن طاهر وزملاءه قابلوا الزعيم الخالد ورأوا بأعينهم صورة طاهر يسلم عليه وضعوه فى مصاف علية القوم ، حتى ان أولاد الأعيان السابقين ومشايخ البلد والأغنياء الذين كانوا منذ زمن قليل يتأففون من طاهر وأمثاله من أبناء الأجرية أصبحوا يسلمون عليه فى احترام مشوب بالخوف ، بل انهم تلقوا توصيات من آبائهم وهم سياسيون قدامى وفديين وسعديين ودستوريين وما الى ذلك ـ بأن يتجنبوا طاهر ورفاقه الا بالحسنى والامتثال التام خوفا من أن يكتب فى أحدهم تقريرا يذهب به الى ما وراء الأفق غير المرئى ··

« طاهر » الذى كان ولدا لا تأخذ منه سوى الكلام الفارغ المنمق والقنزحة ، أصبح نجما لامعا فى المنطقة المجاورة كلها · وقد استخدم قدرته على الكلام الفارغ ومحفوظاته من أشعار مجنون ليلى والمتنبى ونثريات المنفلوطى فصار خطيبا مفوها ، وأصبح « طاهر » بذلك اذا انفرد بجماعة من الشبان خلب ألبابهم وانتزع الهتاف من حناجرهم ، حتى الكهول من أهل القرى الذين عاشـوا أجيالا طويلة لا يربطهم بالحـكام والنـواب والسياسيين سوى خطب فى اثر خطب من وراء خطب ، تكونت لديهم عادة التصفيق حتى وان لم يفهموا من الخطبة شيئا أى شىء ··

من خطبة هنا الى خطبة هناك أصـبح مشيعا بالتصفيق والهتاف أينما ذهب بأعوامه الثمانى عشر أو أزيد وقتذاك كان يبدو مبشرا بمستقبل باهر فى الأنظمة السياسية بل كان مؤهلا لأن يصبح رئيسا لأى شىء بدون انتخابات لولا أنه كان بلا محتوى سياسى وبلا مضمون وبلا تجربة انسانية وبلا رصيد ثقافى أصيل أو حتى مستعار ، كان فقط مليئا بالعقد والأحقاد تجاه كل الموسرين والناجحين والأذكياء ، ثم انه كان هجاصا لا يتورع عن وضع رقبته فى حبل المشنقة فى سبيل تعبير أحمق يصفق له المتفرجون فى حمق أيضا ··

« فى كل يوم يسافر الى المحافظة ليعقد اجتماعات ويحضر محاضرات ويلتقى بمسئولين فى الحزب واللجنة المركزية · الشعب الأزرقى شعب غريب ، انك مع ذلك ربما كنت معذورا أيها الشعب الأزرقى ، اذ أنت تعلم أن السلطة هى كل شىء فى تاريخ هذه البلاد وان من حصل عليها حصل على كل شىء ، وقديما كان ملوك أرضك لا يتركونها الا مقتولين ، من يريد أن يصبح ملكا عليه أن يصحو مبكرا قبل الملك الأصلى حتى ولو كان أحد خدمه الموكلين بخدمته ، هكذا دون محاكمة أو وجع دماغ ، وأنت تبارك كل ذلك ليس لأنك بطبعك شرس مغرم بالظلم وحب الظالمين بل لاعتقادك الراسخ أن من حصل على السلطة حصل على كل شىء وصار هو الأقوى بكل المقاييس وانك صرت بالمقابل أعزل من كافة الأسلحة ، لأنه لا سلاح يجدى مع التسلط القوى ألا تسلط أقوى وأعتى ··

« المعروف أن خير سلاح فى مثل هذه الحالة المستعصية هو سلاح المعرفة ، سلاح البحث والكشف عن اليقين فى الواقع اليومى ، أن تبحث فى خطف طفل كل يوم ، أن تبحث فى تكاتف الثروات لدى البعض دون مبرر منطقى معروف ، أن تبحث فى أخبار المختلسين ، أن تبحث فى مظاهر الأبهة الزاحفة دوما على تجار المخدرات · على أن الشعب الأزرقى لم يقدر لهم سلوك طرق مثل هذه الأبحاث منذ قيام الثورة الأزرقية ، فدائما أبدا هناك قضية أساسية مطروحة على موائد البحث السريع الحاسم من أجلها ننسى الغداء والعشاء والفطور واللباس والايواء · ولهذا فان المناخ صالح دائما لأن يصبح أمثال عمى طاهر ذاك من الزعماء والحكام ··

« لازلت أذكر حكاياهم عنه فى طفولتى · كيف كان يصحومن النوم متأخرا والجماهير فى انتظاره فى المندرة ·· وكيف تقرب اليه الأعيان فتزوجوا من اخوته البنات فى خلال عام واحد ، حيث شهدت القرية ثلاث أفراح على مستوى العاصمة وليس المركز فحسب ، اذ شرف بالحضور رجال من نواب اللجان المركزية والتنفيذية وأمناء المراكز ورؤساء مجالس المدن والقرى ·

« فى غمضة عين أصبح عمى « طاهر » ذاك أمينا للاتحاد الاشتراكى عن البلدة · وكان بين أعيان البلدة كثيرا من المستنيرين وأبنائهم المتعلمين فى رصانة وحسن ذوق ، يعملون فى تجارة المحاصيل أو الأخشاب أو الأقمشة أو الأقطان أو يقرضون بالربا أو يشاركون فى اقتناء الأبقار والماشية مع الفلاحين يستفيدون من لبنها ونسلها على الدوام ، وكانوا جميعا فى أعماقهم يحتقرون عمى طاهر ذاك · لكنهم مع ذلك ـ وياللعجب ـ ساعدوه مساعدة جبارة فى تصعيده من أمانة الشباب الى أمانة الاتحاد على مستوى القرية ثم على مستوى المركز · الأمر كما عرفت أنا باجتهادى الخاص لم يكن فى حاجة الى العجب ، اذ أن هؤلاء الأعيان الأثرياء الذين ساعدوه بكل هذه الأموال والهتاف والمعاضدة ، لم يكونوا يفعلون ذلك

عبثا ، بل هم فى الواقع كانوا يصنعون لأنفسهم مطية يركبونها داخل عقر دار الحكومة الثورية الجديدة فها هو ذا أمين المركز من صنعهم ، بأموالهم وأصواتهم ووجودهم جلس على هذا المكتب ، لا لكى يمارس وضعه كأمين ينوب عن أهل الدائرة فى مراقبة وصنع قرارات لصالحهم بل ليكون مجرد خادم لمصالح هؤلاء الذين صنعوه ٠ وبالفعل حين اهتمت بالبحث فى تاريخ عم طاهر السياسى وجدته مجرد خدمات استفاد بها الأعيان وحدهم ، اذ بفضله رفعوا أسعارا وأخفوا سلعا ووضعوا أيديهم على قطع أرض وأمكنة وبضائع وتموين وامتيازات ما كانوا يحلمون بها ٠٠ حتى أنهم فكروا جديا فى ترشيحه لمجلس الأمة وإمامه ليصرف من جنيه الى آلاف ، لكن ، تأتى الرياح دائما ٠٠ بما لا يشتهى السفن ٠٠

« فحيث كان قد أعد نفسه للترشيح بالفعل تصادف أن كان عبد الجبار فى زيارة للبلدة ٠ عبد الجبار هذا هو أحد أبناء بلدتنا هذه وأحد أساطيرها فى نفس الوقت ٠ أبوه وأعمامه لا زالوا يعيشون فى مساكن ملاصقة لبلدتنا أشبه بالمستعمرة يقيمون حول أنفسهم حالة من التقديس الكاذب ٠٠

« لا أحد من جيلنا أو الأجيال السابقة علينا يذكر شيئا عنه ٠ لكن أجيالا كبيرة تحكى عن ذكرياتها معه فى المدرسة ٠ هو الآن شيخ المهندسين وشيخ المقاولين وذو مناصب لا حصر لها ٠ وكان قد جاء الى البلدة فى مناسبة كبيرة ليضع حجر الأساس فى مبنى مركز ثقافى تبرع هو بانشائه فى البلدة على نفقته الخاصة ٠ قبلها بيومين جاء الى عم طاهر واحد من الأعيان بالليل وأسر فى أذنه أن عبد الجبار قد أرسل رجاله فوضعوا أيديهم على قطعة أرض تصل الى عشرة أفدنة من أرض الحكومة فى زمام البلدة وأنهم قد شرعوا فى البناء عليها ، فهل يا ترى كل هذه الأرض للمركز الثقافى ؟ ٠٠

« لو ترك الأمر لعم طاهر لما توصل بذكائه الى أى شىء ٠ لكن الواحد العين سرعان ما صار اثنين ثم ثلاثة ثم عشرا يجلسون مع عم طاهر

تحت جنح المساء يتكلمون فى حرقة وغيظ منبهين الى أن ابن شقيقة عبد الجبار قد تخرج فى كلية الزراعة وأن خاله عبد الجبار قرر أن يقدم له هدية النجاح مزرعة كبيرة حافلة ، وأن عبد الجبار قد وضع يده على قطعة الأرض بالمجان بحجة اقامة مركز ثقافى لا يحتاج لأكثر من فدان مثلا • ولم يكن عم طاهر قد تعود أن يراجع أحدا من الذين يرسلون له الهدايا سر في لفائف مربوطة ومظاريف مغلقة • فلما أصبح الصباح ذهب ليتحري فعرف أن الأمر صحيح مائة فى المائة ، وفى اللحظة التى هم فيها بأن يأمر شباب المنظمة بالتوجه الى قطعة الأرض المذكورة وايقاف البنائين فوجىء بأن الشباب يمتدحون له الفكرة بحماس كبير قائلين أن هذه المزرعة تعد مشروعا آخر فوق مشروع المركز الثقافى وأنها ستصبح مصدر اشعاع فى المنطقة تورد الطيور والدواجن والزهور والعسل وكل شىء ، انها ستصنع رواجا فى الناحية وتقوم بتشغيل الموظفين والعمال • كاد يجاريهم ويقتنع هو الآخر لولا أنه تذكر أولياء نعمته هو وكيف يكون موقفه أمامهم •• انه يعرف أن فريق الحكومة لابد أن يغلب ، لكنه يعرف أيضا أن فريق الأغنياء فى بلادنا يكون الأغلب ولو على المدى الطويل ، انهم يستطيعون تغذية أى قوة ضد من لا يعجبهم ، ثم وطن النفس على فعل ما يستطيع فعله حماية لعلاقته بالأغنياء ••

« كان يوما مشهودا • جاء عبد الجبار تحفه مواكب الحراس والمرافقين والمسئولين على مستوى المحافظة • وأجريت مراسيم الاستقبال في أمانة الاتحاد بالبلدة وسط جمع غفير • وأوشك عبد الجبار أن يتقدم ليقص الشريط ويضع الحجر الذى نقشوا عليه اسمه وتاريخه وأفضاله ، لولا أن تمكن عم طاهر من هزيمة تردده وطلب الكلمة للاستفسار عن شىء فلما أعطيت له اذا به يحولها الى خطبة عصماء حافلة بالعبارات الرنانة الكبيرة ضد الظلم والتسلط والاستيلاء على أراضي الحكومة ، ثم ختمها بأن المركز الثقافي لا يتطلب أكثر من فدان أو فدانين على الأكثر فهل يا ترى تدفع الحكومة ثمن مقر لمزرعة أحد المواطنين ؟ ان أرض

الحكومة هى فى الواقع ملك للاتحاد الاشتراكى وهو لا يفرط فيهـا الا لأغراض قومية وطنية ·· الخ الخ ··

« وارتفع دوى التصفيق بشكل أرضاه وأثلج صدره تماما . لكنه لمح فى عين عبد الجبار نظرة حقد مسموم لبرهة عابرة فلم يعبأ بها · وتقدم عبد الجبار فشرح للجماهير كيف أنه أسف لاضـطراره سحب فعل خير آراد أن يفعله · فقد كان ينوي اقامة مزرعة على نفقته الخاصة تكون مصدر رواج للمنطقة وخير لأهل البلدة ·· وقال ان سيادة الأمين ما دام قد اعترض فانه سينزل عند رغبته ويسحب المشروع · وهنا ارتفع نفس التصفيق ونفس الهياج مطالبا ببقاء المشروع هاتفا له ·· فحينئذ تقدم عبد الجبار وخطب فيهم من جديد قائلا انه نزولا على رغبتهم وهم أهله الأعزاء قرر الاستمرار فى دعم المشروع · ثم انهم وسعوا له فتقدم وقص الشريط ووضع الحجر فيما أخذ عم طاهر يفتعل خطبة أخرى يعلن فيها سـعادته بالامتثال لرأى الجماعة تمشيا مع الروح الاشـتراكية الديمقراطية !! ··

« الطريف أن المزرعة أقيمت أما المركز الثقافى فلم يرد له ذكر بعد ذلك · لكن الأولاد كانوا يتندرون كلما مروا بمزرعة عبد الجبار فيشيرون اليها قائلين : المركز الثقافى · وواقع الأمر أن المركز الثقافى لفرط حب البلدة له ولاسمه أطلقوا اسمه على منطقة المزرعة وظلوا يتمسكون به حتى الآن رغم أن المركز لم يقم بتاتا ··

« وفيما كانت جدران المركز ترتفع بسرعة كان عم « طاهر » قد سافر الى المحافظة ليعرف الأخبار حول اسمه المرشح للبرلمان فاذا به يفاجأ بمصيبة ، انه مطلوب لمقابلة مسئول كبير خطير فى المحافظة . فذهب لمقابلته يتعثر فى شكوكه ، فاذا بالمسئول الكبير يلقاه على غير العادة بوجه متجهم وعلى غير العادة أيضا يأمره بالجلوس ، ثم يأخذ فى استجوابه بعد مقدمة طويلة رهيبة عن الشخصية السياسية وسمعتها وما الى ذلك ، أبدا لم يكن عم طاهر يتوقع أن تجيئه هذه الضربة القاصمة

من هذه النافذة التى كانت حتى وقتذاك مجهولة له تمـــاما . أو كانت بمعنى أصح غائبة عن وعيه . ذلك أن المسئول الكبير راح يستجوبه برهبة حول علاقته بابنة عمته بسيمة ؟ .. ابنة عمته بسيمة ؟ كيف .. من بحق الشيطان أيقظها من رقدتها فى جب النسيان العميق ؟ .. من يا ترى يكون قد رفع فى وجهه هذا المطعن ؟ .. انه لا يكاد يذكر شكلها ، انه لم يرها أصلا ، لقد هربت قبل أن يعى الدنيا ، ثم أنه ليس مسئولا عنها ، انها بالنسبة له مجرد قصة حكاها الناس من حوله فاستوثق من صنختها من أبيه بعد ضنى شديد ، ثم نساها ، وليس له أى علاقة بها ..

عم « طاهر » أفرغ كل هذه الخواطر على مكتب المسئول الذى يعود أكثر برودا فيقول له ما هى علاقتك بشغلهـا ، انهـا تعمل راقصة فى شارع العوالم فى احدى العواصم الأزرقية الكبيرة ، وفى الأفراح ، ولكنها فى نفس الوقت تعمل بالتهريب ، تهريب المخدرات وبعض الممنـوعات الأخرى ، الحق يا طاهر آن وراءها أقاويل كثيرة ووقائع ثابتة وقد جاءتنا أوامر بالتحقيق مع كل أفراد عائلتها ، ولدى فى الواقع أمر ب .. ب .. وهنا عرف عم طاهر أنه قد تم عزله سياسيا ، وخشى أن يتطاير الشرر الى بعيد ، أن تفرض عليه الحراسة مدفوعة بأحد من سببين : ابنة عمته البغى المهربة وعمله كأمين للاتحاد الإشتراكى فى دائرة صغيرة فكون ثروة كبيرة فى أعوام قليلة . لكن المسئول رفع له قلبه الى موضعه حين طمأنه أن الأمر لا يتجاوز حدود العزل فحسب .. نطقها المسئول الكبير دون أن يسأل هو بشكل مباشر اذ أنه بخبرته فى الثراء من خلال المنصب أدرك هموم عم طاهر ومشاغله المباشرة ..

« وهكذا انزوى عم طاهر الى ركن بعيد من الحيـاة واسـتهدف الكسب والثراء المتزايد . فركز جهـوده مستخدما علاقاته القديمة فى التسهيل مقابل المنفعة المجزية ، فكان بذلك أول المنتقلين الى البناء فى هذه القرية الأسمنتية الجديدة ببناء على الطراز الأجنبى محاطا بحديقة عجفاء . وكان قد تزوج ابنة أحد الأعيان السابقين ، فعلمته كيفية الحياة

المدنية الرقيقة وأنجبت له فى العام الثامن والخمسين بنتا ، ثم بنتا ثم ابنا هو صديقى جميل ، ثم بنتا ثالثة كأنها صفة ورثها عن أبيه ..

« كأنما الظروف كانت تلعب لحساب عم طاهر من وجه اذ قلبت له ظهر المجن من وجه آخر .. اذ ما كاد ينسى حلاوة الأضواء والتصفيق والهتاف والسير بين الناس كمشروع زعيم من زعماء المستقبل ، اذا بأخيه عم صادق يموت فى حرب السادس والخمسين وقد حزن الجميع على عم « صادق » الطيب الوديع الا عم « طاهر » فقد شخط فى الجميع محذرا من الحزن على موت الشهيد ، وكان يصفق مع فايدة كامل فى نشوة بالغة مغنيا : عاد السلام يا نيل يا شعب حر أصيل . وحقيقة الأمر انه كان سعيدا اذ خلصه الله من مشارك له فى الميراث ..

« لك ان تعجب حين تعرف أن بنات عم طاهر الثلاث وأخوهم جميل لم يكونوا يعرفون عن أمر عمهم « صادق » الا النذر اليسير ، كان مجرد اسم يتردد فى بعض المناسبات » ..

« اتسعت تجارة عم طاهر فلم تلتفت اليه قوانين المصادرة أو التأمين ذلك أنها اتسعت فى الزمن الملائم حين زحف عقد السبعينات مقتديا بالتقدم المصرى الهائل مهللا لحرية رأس المال والامتلاك ، يزف الملاك والسماسرة بموكب بهيج كأنهم الأبطال الفاتحون . وبعد أن كنا نعانى ضائقة مالية بسبب النكسة وندبر أمورنا كيفما اتفق ، اذا بالأموال تخرج فجأة من تحت البلاط وترفع قامتها تريد أن تشم الهواء هى الأخرى بعد طول تكدس تحت العفن ..

« هكذا كانوا يقولون تعليقا على أموال عم طاهر التى اكتشفت فجأة وتمثلت فى أراض زراعية يشتريها ، وجرارات وعربات أجرة ومحاريث ومكن مياه . لكنهم اسألنى عنهم — لا يعنون ما يقولون أبدا ، انهم حين يقولون لعم طاهر : « طلع اللى تحت البلاطة » ، فانما يقولونها بلهجة ذات معنى كأن عبارة « تحت البلاطة » هذه مجرد رمز للمصدر الذى جاءت منه الثروة أيا كان وضعه ، انهم لا يريدون أن

يقولوا له أنت لص أو سفاح أو مكتنز ، بل يخلقون بديلا لهذا المعنى فيقولون له أنت شاطر أنت جدع أنت ناجح ·· غير أن عقدا شـفويا مجهولا تم توقيعه بينه ـ كأى ناجح من هذا النوع ـ وبينهم ، يقضى بأن يكون كل منا مقتنعا بزيف ما يقال ، يكون هو مقتنعا بأنه ابن ···· قواد وأنهم منافقون جيدون لا خطر منهم ··

« لديه كما تعلمون ثلاث بنات يقلن للقمر : قم لنجلس مطرحك والعجب أنهم كن يعبرن بقرب الشبه بينهن وبين خالتى بسيمة ، ولكن سبب الغيرة كان هو نفسه سبب الفتنة · ثلاث أقمار فوق ثلاث أبدان منحوتة من القشدة تكاد الأعضاء البارزة تندلق أو تنثال على بعضها ثم تعود فتنفصل وتستقل استقلالا فريدا ، حتى صغراهن ابنة الثانية عشرة من عمرها كانت تلهب فوق الشباب رجالا فى الخمسين · وبقدر ما كان يشرب بجمالهن المثل فى البلدة كانت أحزان صديقى جميل ونحن فى المدرسة الابتدائية اذ ينطوى هو على نفسه انطواء شديدا ، وكنت أضبطه متلبسا بالنظر اليهن تارة فى حقد وفى انبهار تارة أخرى ، فلما يرانى قد رأيته يكتسى وجهه بالدم ويزفر فى هم مقيم ، فأقول له : مالك ·· فلا يرد ·· لكننى كنت أعرف سر أزمته ، انه يحبهن بشدة ويغار عليهن بشدة ، وينفر من الصداقات مهما كانت نوايا الأصدقاء تجاهه طيبة ، ظنا منه أنهم جميعا يصاحبونه من أجل البصبصة لاخوته البنات ، وكان يريد أن يجنبهن فرصة أن يلوك سيرتهن أحد ، مع أنه كان من بين من يودون مصاحبته أولاد أنقياء شرفاء قد لا يعرفون أخوته ، وكان يصدهم عنه فى خجل وحياء وأدب ··

« أراحه أبوه من هذه الأزمة · وكان الأب ـ عم طاهر ـ قد توصل الى اقتنـاع تام بفسـولة المتعلمين والجامعيين بل وفكرة التعليم من أساسها ، فماذا سيفعل الولد بالتعليم ؟ انه لن يوافق على توظيفه فى الحكومة بسبعة عشر جنيها فى الشهر ، هل يعلمه ليصبح شحاذا مرتشيا يعيش فى الحضيض ؟ لا ، ان أعماله هو تحتاج اليه ، ومعظم أعماله آلات كهربائية ، وهو قد مال الى المتاجرة فى الآلات الكهربائيـة

الزراعية منها خاصة ، فليكن ابنــه جميل مديرا لكل شركاته ، اذن فليدخل مدرسة الصنايع قسم كهرباء ليدرس الكهرباء دراسة تنفعه فى ادارة شغله ·· وبهذا لم يختلط جميل بأوساط طلابية عريضة أى أنه لم ير المجتمع الأزرقى على حقيقته · ثم ان عم طاهر قــد تصيد تاجرا سعوديا كبيرا فى الخمسين من عمره لديه أموال طائلة ، ما أن رأى البنات حتى تربع فى جلسته وصار يغدق من العطايا والهدايا ما يفوق التصور ، وعم طاهر يبلع بقوة الأرض الشراقى ·· فلما سافر السعودى أرسل كل هذه الجرارات هدية باسم احدى البنات ــ التى قدمت الطعام لهم ــ ثم تفاقم الشوق وتفاقم الانفاق فحضر العجوز يطلب يد الفتاة بأى ثمن ·· فطلب عم طاهر شركة باسمها وعمارة فى المدينة وأرصــدة فى البنوك ووصايا ففعل العجوز كل ذلك دون مقاومة ثم أخذ الفتاة وحولها الى أميرة فاجرة عاهرة فى الخفاء وربما العلن · وبفضل « سوسن » تعرفت أختها « ايفا » ــ شف الأسماء العجيبة ــ على أمير كويتى فتزوجته رغم عدم بلوغها السن القانونية ··

« بذلك أصبح عم طاهر يمتلك هذه القطعة كلها من أرض البناء التى كون بشأنها شركة بناء قامت بالتقسيم والبناء وادخال المرافق ، ولا تزال تمارس البيع والبناء فى أرض كانت للأسف من أجود الأحواض الزراعية وأخصبها فى البلدة كلها · وتحول عم طاهر الى امبراطور يخدمه عشرات الخــدم ويتزلف اليــــه عشرات من الموظفين الغلابـــة طالبى الشقق أو الحاجات · مع ذلك لم يلغ دكان البقالة ، بل تركه ليكون على الأقل مجرد مستودع لاحتياجات أسرته من المواد الغذائية ، فأحاله كما رأيت الى « سوبر ماركت » يدوس فيه الدهماء ويخرجون كما دخلوا فى غباء يستبشع أسعار الأشياء قبل أن يكتشف غرابتها ··

غير أن العطف كان قد أصاب صديقى جميل فجأة وفور تخرجه من مدرسة الصنايع · هذا ليس تعبيرى ، انما هو تعبير أبيه نفســه الذى صار يقوله فى حسرة ، انه ابنه الوحيد ، وأرث كل هذه الثروات ، يقاطعه ويعتبره كافرا ، ويزهد فى كل شىء ، ولا يستخدم من مقتنيات أبيه أى شىء ، شاب يفعل هذا لابد أن يكون أصابه العطف ··

وكان عم « طاهر » يسعى الى الانفراد بى فى ذلك الوقت على غير العادة وهو الذى كان اذا اضطر الى العطف على بهدية صغيرة يبعثها مع جميل أو مع جدته معزوزة الى دارنا ، وكان يتحاشى الانفراد بى ظنا منه أننى قد أطلب مساعدة ــ ألست يتيما وابن شهيد ٠ فلما سعى هو الى الانفراد بى ما طلته وأعطيته ميعادا ثم ذهبت متأخرا ٠ وحين دخلت عليه جلست دون استئذان ثم وضعت ساقا على ساق كأننى رجل يناده ٠ فراح يسألنى عن أحوالى ومستقبلى وأوضاعى المادية وما الى ذلك ، فأفهمته بلهجة مقتضبة ان كل الأمور بالنسبة لى على خير ما يرام ، وليس من أى عائق يعوقنى فى الحياة سوى اضطهاد « بعض الجهات » لى ولكننى لا أعبأ بها ، وضغطت على عبارة « بعض الجهات » هذه كما كنت أسمعها دائما من بعض السياسيين الكبار ، لكى تصورنى فى نظره رجلا ذا رأى وعلى قدر من المسئولية ٠٠

« كنت أعرف أنه كان يتمنى في أعماقه لو ان ابنـه جميل كان أعلى مستوى فى التفكير من مستواي ، وأنضج علميا ، بل كان يتمنى فوق ما يتمنى الا آكون أنا وأمثالى من حثالة القوم والمجتمع أصدقاء لابنه جميل ٠ كان دائما يقرب ابنه « جميل » من أبناء ذوات القرن العشرين ، الملاك المسافرين دوما الى أوروبا للتفاوض على توكيلات ينهبون من خلالها دماء الشعب الأزرقى ٠ كما كان يثير قرفة من أشكالنا ومصاحبتنا .اذ نحن من أمثالى عيال فاقدين ليس وراءنا شىء نخاف عليه أما هو فوراءه ممتلكات ومملكة بحالها تنتظره ٠٠

« يحكى لنا جميل ما كان يدور بينه وبين أبيه من مناقشات حادة حول مطالب يفرضها عليه ولا تجد استجابة في نفس جميل ٠ فحتى التوصيل بالسيارة الى المدرسة رفضه جميل فى أول الأمر درءا لسخرية الأولاد من أبيه البقال البرادعي الذى أصبح يصل الى المدرسة بسيارة ٠٠ ثم بعد ذلك جاءه الاقتناع الكامل بتكفير كل هذه الوسائل ومن ثم تحريم استخدامها ٠٠

أبوه لا يزال يتصور أن « جميل » فيه بعض الأمل ، وان الأمر كله يرجع الى أن « الولد » قد تربى تربية دينية ـ شبوف الفجر ـ محافظة ، انه من نسل طيب ، أليس جده هو الحاج عوضين النشرتاوى البرادعى الذى اقتاد مشيعى جثته الى حيث أراد أن يدفن جميل فى اظهار التدين : أكان جرما ان ظللت أحدثك عن جدك البرادعى باعتباره أحد الأولياء ؟ أتراك تأثرت بكلامى عن جدك باعتباره وليا صالحا فأزمعت توصيل الحبل بينك وبينه من جديد لتصبح بدورك عما وحولك المريدون يأخذون العهد على يديك ؟ أم تراك تأثرت بذلك الشيخ الذى كان سجينا باعتباره من الاخوان المسلمين وأفرج عنه ليخطب فى المساجد محرضا الجميع على كل شىء يمت الى الثورة المدنية بصلة ثم جمع حوله رهطا من الشبان الصغار وأنت منهم ؟ هل يأمرك الدين بأن تعصى والديك وتمتثل لأمر رجل آخر كأنه الله ؟ ..

« لكن جميل لم يكن يعبأ بهذه الثورة أبدا . يقول كان يقابلها بكل برود وتأكد للأب ان ابنه ليس فحسب عضوا فى احدى الجماعات الدينية بل هو ربما يكون قطبا صغيرا ..

« يعتقد اعتقادا راسخا اننى أصل البلاء فى العطب الذى أصاب ابنه الذى لم يكن « له فى السياسة » أو فى مثل هذه المسائل ، واننى قد جرأته على ذلك وفتحت عينيه على كتب وروايات وطرق مسدودة لا تؤكل عيشا أو تبنى مستقبلا . كان دائما يقول ذلك لجميل الذى ينقله الى ليستثيرنى فأبتعد عنه ، ويقول ان أباه لم يعد يقتنع أن السياسة ـ ولو كانت صحيحة ـ هى الطريق الصحيح الى أعلى المناصب فى بلد لا تعرف القراءة والكتابة ، انما الطريق الوحيد الى السلطة هو التجارة ورأس المال ، ان رأس المال يصنع لنفسه الحكومة التى تعجبه ، ان طاقم الحكومات فى السنوات المقبلة سيكون من قلب التجار وأصحاب الشركات وخبراء الاستشارات والمهربين ..

المدهش أن « جميل » انشق على فجأة ونبذني خوفا مني اذ أصبح يعتقد أنني الشيطان مجسدا في بشر ، ثم نبذ الجميع بما فيهم أهله ٠

« يوم ذهبت الى عم طاهر حسب طلبه أراد أن يدخل في الموضوع ليعرف مني تقريرا غير مباشر عن أسرار جميل الخفية ٠ فبدأنا بالحديث عن السياسة وأراد أن يوهمني بأنه متفق معي في الأفكار الثورية » المتطرفة فقال دون مناسبة أنه شرع يكتب مذكراته ليظهر مدى الظلم الذي وقع عليه في عهد الزعيم الخالد ٠ فسخرت في سرى شخرة ارتفع صوتها رغما عني غير انني حولتها الى تسليك أنف ، وبصقت في منديلي بثقة وثبات ٠ ثم انني تجاهلت حديثه ذاك تماما ، وقلت له انني لست أعرف أى شيء عن جميل منذ تحاشى لقائي عن عمد ، منذ أن أنذرني بالقطيعة في رسالة ان لم أغير من كافة أفكاري وأعود الى « حظيرة الله طائعا مختارًا عبدا ذليلا رافضا لكل شيء أنجبته المدنية طوال تاريخها وأشياء أخرى غريبة ٠ وقلت له أيضا انني لست عضوا بأى جماعة أو تنظيم أو حتى نقابة أو اتحاد ٠ فاعتدل ساخرا قائلا : فماذا أنت اذن ؟ فقلت ساخرا أيضا انني أنا أنا ولا شيء غير ذلك ٠٠

« الليلة لابد أن تكون أسوأ ليلة في تاريخ حياة عم طاهر ٠ اذ أن ابنه الوحيد جميل قد توج انعتاقه منه بالزواج ، من عروس لم يذهب أبوه لخطبتها بل لم يقبل أهلها ذلك ، عروس أنا لم أرها ولم تكن من جيلنا ولكنهم يقولون انها تشاركه نفس الاحساس ونفس المعتقدات ونفس الجماعة ٠ ها هي ذي جدتي « معزوزة » تقول انه نائم في البيت مريض ، وانه كان طوال الليل يهذى فليهذى كيف يشاء ويمرض كيف يشاء فان جميلا لن يعود اليه بعد الآن » ٠٠

ـ ٣ ـ

توقف مأمون عن الحديث ٠ وكنا قد ودعنا مساكن القرية الأسمنتية ومضينا نحو غابة جميلة بحق مهيبة بحق ، شكلها ممتد في رحابة ،

والقصر ينتصب في وسطها بسقف جملون على الطريقة الأجنبية ، وثمة خفراء حوله يتجولون - ورغم ان الزمن الذى نعيشه هو نهـاية القرن العشرين الميلادى الا أن منظر القصر كان ينقلنى الى أقدم العصور أمام قصر كاردينال أوروبى ..

كل الخفراء الذين قابلناهم فى الطريق قالوا لنا فى ود : « أهلا سى مأمون اتفضل » ، وقال لهم مأمون فى أخويه : « عشت عشت » . ثم انه توقف بنا عند الباب الرئيسى . لا يوجد ما ينبىء عن وجود فرح . صفق مأمون بيديه وقال : « ياللى هنا » .. لحق بنا خفير يمشى فى سرعة قائلا : « سا الخير يا سى مأمون .. دا الفرح من الباب الثانى .. اللى بيسموه باب الخدم .. الأستاذ جميل حلف مالوش دعوه بالأبهة بتاع الجناح ده خالص .. ومانع أى طبل أو زمر أو كلام من ده .. أمه يا عينى وأخواته كلهم كاتمين الفرحـة فى أنفسهم وكاتمين الحيرة برضه .. أصله ما عبرشى أبوه خالص وقال اذا كان عاوز يحضر أهلا وسهلا مش عايز هو حر .. أبوه كما حلف ما هو رايح ، وأهو نايم فوق ومعاه الدكتور .. كل شويه أم الأستاذ جميل تتسحب من جنب الراجل وتنزل تبص على الفرح وتقدم للناس الشربات فى السر » .

فسأله مأمون : « جميل موجود ؟ » ..

قال الخفير : الأستاذ فى صلاة العشاء .. أصلهم بيقعدوا يصلوا العشا ساعتين ثلاثة .

قال مأمون : « عجايب حتى يوم فرحه .. دا عريس الليلة » .

قال الخفير : « ما هو حيطلع من صلاة العشا هو وزملاؤه ييجوا على هنا يكتبوا الكتاب ويقوم واخدها ودأخل على شقته اللى بناها فوق الجراج دى .. الفقايرى خالص دى » .

نظر مأمون الى الشقة وقال : « لا فقايرى ولا حاجة » وكانت الشقة مبنية وحدها فوق الجراج الملاصق للقصر كأنها برج أو معبد صغير جميل

أنيق . وقال الخفير : « الأستاذ جميل بعت لك دعوه ؟ » . قال مأمون وقد نشف ريقه : « لا والله بس أنا يعنى مش عايز دعوه » . قال الخفير بحرج كبير : « ما أظنش ياسى مأمون .. أنا بس عامل عليك انت .. أنا سمعته بودنى بيقول : اللى أنا دعيته بلسانى هو اللى يحضر » قال مأمون : « على كل حال أنا فاهم جميل وبأخذه على قد عقله ، ثم بدت عليه الحيرة . نظر في ساعته ، ثم في الخفير قائلا : « على كل حال أروح أصلى العشا هناك معاهم لحد ما ييجوا » . قال الخفير : « وماله » . قال مأمون : « أمال مين اللى جوه ؟ » . قال الخفير : « شوية نسوان من العيلتين » . قال مأمون : « والعروسة ؟ » . قال الخفير : « مستخبية » . قال مأمون « على خيرة الله » ..

ثم مضى بى على شاطىء قناة صغيرة خلف القصر ، فاذا بأنوار مبهرة تنكشف على البعد فوق مئذنة أنيقة كمسلة فرعونية . واذا بنا بعد مسيرة قصيرة أمام مسجد جديد لامع باهظ التكاليف حقا . كان محتويا من الداخل على بضع عشرات من المصلين يتركعون وشخص يبدو أنه الامام يتركع وحده في الأمام . ثم اذا برجل يقف ويقيم الصلاة بالصيغة المعتادة الغنائية ، على أثره وقف الجميع واصطفوا فى عدة صفوف ثم نوى الامام وكبر فرفعوا أيديهم بجوار أذانهم وكبروا وراءه ثم شرعوا فى الصلاة ..

دخل مأمون يجرى فتوضأ بسرعة وجاء يجرى أيضا لاحقا بالصفوف وهى تشرع فى السجود صائحا : ان الله مع الصابرين فتأنى الامام فى سجدته فتأنوا بالتالى حتى تمكن مأمون من أن ينوى الصلاة ويسجد معهم . أما أنا فلم أجرؤ على الدخول لسبب تلقائى بل أقعيت على باب المسجد أتأمل أجمل وأورع مشهد يمكن أن تراه فى حياتك ، مشهد الصلاة الجماعية وما تضفيه على الأفئدة من خشوع حقيقى ..

على اننى فوجئت بشبان ملتحين يدخلون فى أثر بعضهم دون أن يبدو عليهم اللهوجة ، بل انهم يتركون الصلاة والمصلين ويتركعون فرادى فى أماكن بعيدة مزورة عن الصفوف ، ثم انهم يسلمون على بعضهم بعضا

كلما نلاقوا في الطريق • كان يبدو أن ثمة رابطة خفية تجمع بينهم وتربط عرى المودة فيهم ، فظلت عيني تلاحقهم وأنا أحاول التكهن بشخصية جميل بينهم فلم أستطع لانهم كانوا جميعا على نسق واحد بنفس اللحية ونفس الملامح التي تحس ان صاحبها قهرها بنفسه لتكون خاشعة هكذا ، ونفس الخطوط ونفس التمتمة •• حتى اذا ما انتهى الإمام من الصلاة وسلم ذات اليمين وذات الشمال شرع أهل الصفوف الخلفية يختمون الصلاة فرادى ، ثم انهم صاروا ينصرفون واحدا وراء الآخر ، وكان الامام آخر المنصرفين • وخرج مأمون هو الآخر بعد الصلاة ولبس حذاءه واعتلى صدغ البـاب الرخامي المؤهل للجلوس ، وراح يتابع معي من بقوا في المسجد •• فاذا بهم ينهون تركعهم الفردي ويقبلون نحو بعضهم فيتصافحون في التحام ودود هادىء ؛ واذا بشاب تبارك الخلاق فيما خلق ، يتهادى بخطوة الوزين ووجهه الأبيض المشوب بحمرة يصنع من لحيته الطويلة السوداء هيبة كأنه وجه الحسين بن علي كما تتخيله ريشة الوسام في الرسم الايراني الشائع • تطرت في ملامحه وملامح مأمون واستحضرت ملامح كل من الجدة معزوزة والجدة الثانية فاكتشفت رتوشا واضحة جدا في ملامحهم جميعا وكلها تذكرني بدم بسيمة وملامحها فعرفت ان هذا هو جميل وان هؤلاء هم رفاقه ، لكنني لم أعرف لماذا هم قاطعوا صلاة الجماعة وأدوا الصلاة وحدهم كأنهم قوم آخرون ذوو دين مختلف وعقيدة مختلفة • على أن مأمون قال لي انهم يفعلون ذلك باعتبار انهم هم الجماعة الأصلية ومن عداهم خارجون مارقون • فبين صفوف المصلين من هو متعلم أو موظف في الجمعية أو تاجر أو شيخ من حملة العالمية ، وفيهـم تومرجية وسـائقوا جرارات وكلهم مستنيرون الى حد التعامل مع أدوات المدينة الغريبة التي أنتجها الكفار ، وكلهم تبعا لذلك يراعون حق الله في العبادة بالشكل الذي يرضي الله ومن الصعب الحكم بأنهم قوم كافرون •• ألا ما أغرب ما يدور في عقـول الشباب ، انه الفراغ والجهل وسوء التربية ؛ ليس منهم بالطبع ، بل من آبائهم الذين بعثرت الثورة الأزرقية ما بقي في نفوسهم من كيانات انسانية زعزعها الاستعمار على مدى التاريخ •

ثم ان مأمون ٠٠ قطع حديثه وقد شعر بما يشبه الغثيان وأشار الى بالانصراف ثم دلق نفسه على الأرض بملل ، ومضى بى خلف المسجد الجامع لنرى في ضوء القمر القرية الأسمنتية رؤية شاملة فاذا هى مدينة آخذة بدورها في التضخم • أشار اليها « مأمون » قائلا : « غدا تصبح هذه المدينة متحفا يضم ناسا لا هم بالرجال ولا هم بالنساء ، لا هم بالأزارقة ولا بالأجانب ، بل نفوس بزرميط ومجتمع متنافر لا ينتج شيئا لهذه الأرض ٠٠ غدا يصبح الوادى الأخضر أرضا مسفلتة يشتريها من يكون قادرا على طرد سكانها منها الى حيث لا مكان » ٠٠

وكنت أظن اننا سنودع القرية ، لكنني وجدت « مأمون » قد لف بنا حواليها عدة مرات ، ثم اتخذ طريقه الى القصر من جديد وقد صمم على أن يؤدى واجبه نحو صديقه مهما كانت الأسباب ، فاذا كان الطرف الآخر يرفضه فانه هو شخصيا لا يصح ان يقصر في واجبه نحوه ، انه سيظل يؤمن بالدم ، بان الدم لا يصير ماء ، وما في عروقه من دم هو نفس الدم الذى يجرى في عروق جميل مهما كان الأمر ٠٠

صرنا أمام القصر من الناحية الخلفية ، فسمعنا لغطا حادا يتصاعد من الداخل ، فعرفنا ان المجموعة قد انهت صلاة العشاء على طريقتها الخاصة ثم عادت لتكتب الكتاب ويتم الدخلة على طريقتها الخاصة أيضا • صفق « مأمون » بيديه قائلا : « ياللي هنا » • فلم يجب أحد • فصاح مأمون بأعلى صوته : « ياأستاذ جميل » • فخرجت سيدة بضة ريفية الطابع لكنها أفرنجية المظهر تماما ، ترتدى أفخر ثياب كصوفيا لورين في كل شيء • عرفت من شكلها ان هذه العروس الهيفاء المتينة البنيان الرقيقة هى أم جميل ، فقلت لنفسى ان منظرها بالفعل يورث الفتنة وان العين لابد أن تهرب منها خوفا من الاستجابة لنوازع الشيطان •

نزلت الينا درج رخامى ، وصوت كعب حذائها المعدنى يدق الرخام بايقاع هوانمى رصين • سلمت على « مأمون » قائلة : « شرفت يا أستاذ

مأمون » ثم همست في أذنه انها سمعت صوته فخرجت اليه مسرعة قبل ان تضع على كتفيها غطاء وعلى وجهها ستارا وها هي تسلم عليه دون أن تلف يدها بجلباب وهذه جريمة كبرى لو علم بهـــا جميل · فطمأنهـا « مأمون » باسما انه لن يقول لجميل · ثم أنها درجته ان يصعد اليه ويحاول اقناعه بتركهم يفرحون ولو قليلا . فيا ربي هل هي محزنة ؟ ابنها الوحيـد يتزوج وهي في ليلة دخلته لا تجد نفسها قادرة على الفرح ؟ · ثم غمزت « مأمون » في ذراعه وانحرفت الى الحديقة لتدخل الجناح الآخر من القصر تلقي نظرة على زوجها المريض المأزوم ··

صعد « مأمون » درج السلم حتى صار أمام الباب · طرقه عدة طرقات متوالية حتى خرج اليه « جميل » من داخل الدهليز · عاجلة مأمون : السلام عليكم · ومد يده ليسلم مبديا استعداده ليعانق · غير أن « جميل » لم يمد يده بل تحاشى السلام عليه وقال في اقتضاب : « عليكم السلام » ـ ثم انتظر كأنه يقول : أي خدمة ؟ فغاضت الدماء وجه « مأمون » وقال له في دهشة : « ما توسع أما أدخل » · فقال جميل : « هه » ، ثم وسع قليلا كأنما رغما عنه ··

دخل « مأمون » على حذر واستياء قاصدا الحجرة الداخلية فاذا بجميل يسبقه اليها ويدخل هو في أثره · فلما دخل وجد المجموعة التى كانت تصلي وحدها في المسجد ، فقال : « السلام عليكم » · فردوا السلام بدون زيادة ·· فتقدم منهم ومد يده ليسلم ، لكن أحدا منهم لم يقم ولم يمد يده ، بل كانوا جميعا يهزون رءوسهم في بلاهة قائلين : « أهلا وسهلا ·· أهلا وسهلا ·· معلهش ·· معلهش » ··

وكنت أوشك أن اعترض على هذا السلوك وأنبح في مأمون طالبا أن يتركهم وينصرف الى شأنه دونما حرج أو ندم ، لكنه ابتسم مذكرا اياي بأنه على وعـد مع خبر لن يخلفـه ·· أما التهنئة بالفرح فقد قدمها ولكنها لم تقبل منه ·· أما الخبر فانه لابد ان يقوله ، ان ملك التنازل عن

حقه فلن يملك التنازل عن واجبه ، لابد ان ينقذ كرامته ولو بشيء من القسوة ، ليظهر لهؤلاء جميعا انه جاء لخبر هام بصرف النظر عن التهنئة •• فقال لجميل : « تسمح يا جميل عايزك فى كلمتين مهمين » فنهض جميل على مضض • ثم عاد فجلس قائلا : « استنى شويه » • وانتبه مأمون الى أن المأذون قد بدأ يكتب الكتاب ، فجلس مأمون على طرف كرسى بجوار الباب ، معطيا للجميع نصف ظهره ونصف اهتمامه ، وبدا ساعتها مسكينا وحيدًا معذبا ••

فلما انتهى المأذون من قولة مبروك انشق السكون المطبق فجأة عن زغرودة رنانة فى هذا الموات كأنها دوى القنابل • وهنا انتفض الجميع واقفين باستثناء المأذون ، كأنما أصابهم مس من الشيطان وركبت العفاريت شابا كان متواريا بجوار المأذون يأمر وينهى فصار يشتم ويلعن ويوبخ ويستنكر ان يحدث هذا الكفر فى بيت جميل بالذات ، وكان « جميل » يعتذر ويتوسل اليه ان يقبل اعتذاره ، لكنه من فرط الغضب كان ينتفض ، وكانوا جميعا ينتفضون لانتفاضه ، فعرفت ان هذا الشاب لابد أن يكون هو أميرهم أو كبيرهم أو سلطانهم •

فى الحال خرج جميل الى الطرقة ، فوجد مجموعة من النساء يقفن كأشباح من الفوضى المذعورة • صرخ فيهم كأنه يلفظ أنفاسه : « مين اللى عمل العملة السودة دى ؟ مين ؟ •• مين ؟ • فقالت أمه بكل عشم وثقة : « أنا يا جميل •• أنا اللى زغرطت » • صرخ فيها بقوة : « تبقى كافرة •• أنا قلت مش عايز كلام من ده •• قلت ولا لأ ؟ » قالت أمه : « طيب حتى زغروطة واحدة مفيهاش حاجة يا جميل •• مش لازم نفرح بيك ياحبيبى ؟ » • صرخ والدماء تقفز من وجهه : « مش عايز •• مش عايز » • قالت الأم لتداري كسفتها : « طب ماتزعقش كده •• حاسب علينا شويه » •• فصرخ بعنف وشراسة : « اطلعى بره » • فشوحت فى وجهه واستدارت خارجة وقد بدا عليها انها لن تدخل عليه ثانية الى الأبد ••

ودخل « جميل » ثانية وهو يخفي توتره بابتسامة اعتذار للموجودين الذين تقبلوا ذلك شاكرين سعداء جلس بينهم برهة ثم نهض ثانية وقال لمأمون : « أيوه يا مأمون عايز تقول ايه تعالى » ، ثم تقدمه خارجا • فظل مأمون يمشي وراءه حتى الباب الخارجي ، وعنده وقف جميل ففضل مأمون ان يقول خبره من خارج البيت فتقدم خارجا وهو يقول في صدق حقيقي ودون أي شبهة خبث : « أنا آسف يا جميل لازم أقول لك الخبر مهما كانت الظروف غير ملائمة •• لأننا لازم نتصرف وأنت بالذات لازم تكون معاية في التصرف ده » • قال جميل في استنكار وتوجس : « خير فيه أيه ؟•• » • فاقترب مأمون من أذن جميل وهمس له بالخبر • فاذا بوجه جميل يصير كالاوطاية الطايبة ، واذا هو يصرخ فيه بلهجة حاسمة لا تقبل المراجعة : « اطلع بره •• مش عايز أشوفك » • وكان مع ذلك يوشك ان يبكي من فرط التأثر • لهذا نظر مأمون اليه باشفاق وصـــار يبتعد عنه في اشمئزاز ••

فلما صار خارج السور بصق من قرف على ما تخيل انه زهور حقيقية فاذا بها نباته من فساء الكلاب • وحين استدار ناظرا الى الخلف من جديد رأى جميلا يتهاوى في وقفته فيسند رأسه على حافة افريز الشرفة ويندمج في بكاء مكتوم •• فأحس مأمون بشيء من الفرح الغريب ، ثم توقف في مكانه يمارس الشعور بالفرح على هزيمة جميل التي أخذت شكل انتصار الكبرياء ، ولم يستأنف السير الا بعد أن رأى جميل يجفف دمعه ويختفي داخل القصر من جديد •

٤

امتد الصمت أمامنا على الطريق الزراعي • وكان منظر « مأمون » وهو يمشي أمامي يذكرني بمشية خالته بسيمة ، حتى تكوينه الجسدي قريب الشبه جدا من تكوين جسمها مع فارق حاسم بين الذكورة والأنوثة • وكان

ثمة بناء كبير يقترب، بدأ سوره الأسمنتي العالى بجوارنا وظل يمتد عشرات الكيلومترات • وكنت أظن أننا سنمشيه كله لكن مأمون انحرف الى طريق جانبى •• فبعد خطوات صرنا فى مواجهتها ـ المزروعة •

أهذه اذن هى مزرعة عبد الجبار ؟ • قال مأمون ان الأرض المحيطة بها كلها ومساحتها ثلاثمائة فدان قد أصبحت ملكا للمزرعة ، تنتج لخدمة المزرعة • منظر المزرعة يوحى كأنك أمام مشروع قومى شاهق مثل مصانع المحلة مثلا أو كفر الدوار فى المدن الصناعية بالديار المصرية الشقيقة • توقعت لذلك أن يكون ها هنا مساكن لعشرات الآلاف من العمال • لكن « مأمون » سخر من خيالى قائلا ان أحدا من القرية أو القـــرى المجاورة لم يشتغل فى هذه المزرعة ولم يستفد منها ، فكل رجالها وعمالها خبراء أجانب يقبضون بالعملة الصعبة وتنقلهم السيارات وتردهم فى ساعات ، وكذلك منتجاتها تخرج هى الأخرى فى السيارات الكبيرة الى حيث لا يعرف أحد ، وعلى فكرة ـ هكذا يقول مأمون ـ فان اقتصار كل من يعمل فى المزرعة على الأجانب الخبراء جعل أهل القرية والقرى المجاورة يشيعون أن المزرعة تزرع أصنافا من السميات المجهولة أو القنابل أو ما الى ذلك ، وزعم اننى ضحكت من خيال العامة حين يريد الانتقام على طريقته من كل شىء يجهل تفاصيله ، الا اننى أدرت قولهم فى عقلى فوجدته يشير الى احتمالات شديدة الخطورة لو درسناها ••

ثم أضاف مأمون قائلا ان مثل هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات هى فى الواقع نوع من الأمراض الطفيلية تعيش على حساب البيئة لاتغذيها بشىء ولاتفيدها بشىء بل هى تستنفدها••نعم نعم ان أهله من بنى الأزرق فيهم خصلة لا أدرى ان كانت فضيلة أم رذيلة لكنها أصيلة فيهم ، تلك هى اعطاء الثقة بلا حدود للأبناء وللأهل والأقارب المتعلمين •• يقينى أن ذلك يعد تعبيرا عن حبهم الكامن وتقديرهم الأصيل للعلم وأهله باعتبارهم رجال الحكمة والمعرفة •• ولهذا قيل : لا تعلموا أولاد السفلة

العلم . وقول كهذا من رسول عظيم كسيدنا محمد لم ينطق أبدا عن هوى ، لهو جدير بالنظر والاعتبار ، بل انه بمثابة تشريع يقوم على رؤية مستقبلية شديدة العمق والنفاذ ، لكأن رسول الله محمد صلواته عليه قد رأى منذ ما يصل الى ألف وخمسمائة عام ان ابتذال العلم لابد يؤدى الى كارثة تنذر باقتراب الجحيم ، مع ملاحظة ان العلم الذى يقصده رسولنا العظيم هو معرفة أسرار وكنه الأشياء ومنطقها ، ذلك ان السفلة أن عرفوا هذه الأسرار الجليلة انحطوا بها الى دركهم واستخدموها لمصلحتهم الخصوصية الشخصية ضد الآخرين وهم عزل من سلاح المعرفة .

باب الحـــديد

★ القضبان والنقرزان ونشأة الطغيان

قال « مأمـــون » :

ــ « لست أدرى أمن سوء الحظ أم من حسنه ان أولد فى نفس القرية التى ولد فيها من قبل عبد الجبار · لكننى واثق ان اهتمامى بظاهرة عبد الجبار كان سيدهمنى حتى لو كنت من دولته المجاورة ·· فما بالك وأنا أسير كل يوم بل كل لحظة بين آثار طفولته وحكايا صباه التى تناقضت بشكل لم يسبق له مثيل أبدا ، ذلك أن ازدواج الشخصية أصيل فى شخصيته من قديم ·

« الخال والد كما تقول أمثالنا · ووالد عبد الجبار الحقيقى هو خاله · أما أبوه الأصلى فرجل لايزال موجودا حتى الآن فى نفس بيتهم القديم لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل مظهرى رغم ان عشرات القواديس تصب أموالا فى خزائنه · الشىء الذى تغير فيه وينمو معه باستمرار هو الغطرسة والنتانة · يضن عليك بالقاء السلام ان كنت من صفوف الدهماء ، وكل البلدة فى نظرة تقريبا دهماء بما فيهم نقطة البوليس والمحكمـــة والمدرسة ، ويبخل عليك برد السلام ان كان مدخلك لا ينبىء عن منفعة له · لا يضيع وقته فى شتم أو توبيخ أو عراك ، انما الأمر ينتهى عنده بنظرة ، أو شخطه ، أو زومة صغيرة ، وربما بصقه ·· ولهذا فله خدم خصوصيون

يحتملونه ، هم جميعـــا من أولاد بنـــاته المتطوعين بدافع من أمهــاتهم في كشف سر من أسرار ممتلكاته يبقى فى حسبانها عند تقسيم الميراث ذات يوم ·· لهذا أيضا فرغم صلفه وقبح تصرفاته وبنو ألفاظه الجارحة القارصة فان الأولاد يتبارون فى تلبية أوامره والاستئثار بحبه ورضاه ، أولاد الخالات يبدو بينهم الأمر طبيعيا ودودا ، لكنه يخفى تيارات تحيته من الأحقاد لاسبيل الى محوها بعد ذلك مطلقا ·

***

·· « كان فقيرا ذات يوم لاتزال تحفظه ذاكرة بعض المعمرين فى البلدة · وكان يعمل تمليا فى بيت مفتش الرى الانجليزى - التملى درجة أدنى من النفر ومن الأجرى فى قرانا القديمة · فاذا كان النفر يعمل عندك بأجر معلوم لزمن محدود ، واذا كان النفر أو الاجرى يتطلب وجوده ان تبعث أنت فى استدعائه للشغل فى عمل يتطلب أياما تحت اشرافك ان كان نفرا ، أو لقضاء حاجة وقتية سريعة ان كان أجيرا ، والاتفاق مع كليهما بشكل ما ، فان التملى شخص يتطوع بالخدمة المجانية الشاملة دون ان تكلفه انت بذلك ، ولا يطلب منك أجرا محددا على عمل بعينه ، انما بالبركة ، وانت تجده أمامك فى كل لحظة من البيت الى المكتب الى توصيل الأولاد ، الى توصيل الخطابات الى غسيل الركوبة الى ما شئت من أعمال ، وانت تراه جوهريا بالنسبة لك فتتعلق به ، وتراه محتاجا للطعام فتطعمه ، وللكسوه فتكسوه ، وللحب فتعطيه له خالصا كخلوص نيته وأكثر ·

« لكن مفتش الرى الانجليزى لايفهم فى مثل هذه العلاقات الازرقية الأصيلة انما هو يراه مجرد خادم من أمة ذليلة تحتلها بلاده ، وانه من المفروض عليه أن يفعل · ويقول أصدقاؤه العجائز ان المفتش الانجليزى اكتشف ان الرجل كان يفعل ذلك لا لكرم فيه بل لخسة أصيلة فى طبعه ، اذ كان يكشف عن أطماع صغيرة دنيئة فقرر المفتش أن يقسو عليه في المعاملة

والا يعطيه سوى ما يسد الرمق ، فان أظهر تمردا اغراه بالقليل ثم عاد فقتر عليه ، ولم يكن والد عبد الجبار ليتمرد رغم الهوان ، ذلك انه كان يتكسب من وراء مفتش الرى بطريقته الخاصة .. فيكفى ان يلمح لبعض المخالفين لقوانين الرى من المزارعين وأصحاب الأراضى بأن المفتش قد علم بالمخالفة وزعل منها آخر زعل . حينئذ تدخل الخشية الى قلوب المخالفين، فتحرك فيهم دوافع الشفقة أو نوازع الخوف فيمنحونه بقشيشا » .

« شيئا فشيئا تطاولت رءوس هذه المعاملة فى نفس الرجل الخسيس وأخذت تبحث لنفسها عن وسيلة ما ، تحولها من بقشيش خاضع لمزاج الشخص الى اتاوة رسمية واجبة السداد ؟ فكان بقدمه الحافى وجلبابه المترهل لا يتورع عن طرق باب أحد الأعيان الكبار فى الليل فيصحيه من النوم هامسا فى أذنه ان سعادة المفتش قد علم الآن بأن أولاده قد ارتكبوا مخالفة كبيرة أو انهم بسبيل ارتكابها ، فى الحال يتذكر الرجل صاحب الأرض ان أولاده بالفعل يقومون الليلة بالرى فيقول « طب وبعدين ؟ » . فيقول والد عبد الجبار : « على العموم أنا هديته بكلمتين وفهمته انكم ناس ولاد أصول بس هو مصمم يطسكم المخالفة بأى شكل يظهر ان جماعة فلان الفلانى هيه اللى زقاه عليكم عشان تعطلكم والعيال يقعدوا لهم يومين فى الحبس .. هو ناوى يقطع الميه بعد عشر دقايق .. بس أنا قلت له مفيش داعى أنا حاروح أجيب لك قرشين واجى » .

« وهكذا يجد صاحب الأرض نفسه مرحبا كل الترحيب بالهدية الصغيرة أو حتى الكبيرة بدلا من التعطيل ومناطحة الحكومة . وهكذا أيضا لم يسلم واحد فى العب كله من عملية ابتزاز رهيبة قام بها والد عبد الجبار حتى أطلقوا عليه فيما بينهم اسم النقرزان ؛ وكانوا يقرنونه بالظروف الغبراء وبالفلس وسوء الطالع فيقول الواحد منهم اذا دهمته مصيبة : « بس وطب على النقرزان نص البليل » ، أو يقول عن مبلغ صرفه فى شىء طارىء غير متوقع : « جانى النقرزان خدهم قلت عليه العوض » ، ذلك ان

النقرزان – أى والد عبد الجبار – كان يريد ان يضفى على شخصيته سمة مميزة . فلم يكن يطرق بقبضة يده على الباب أو الشباك كما يفعل الدهماء ، بل كان يقف بعيدا ويمد عصاه التى هى فى الأصل عود لبلاب غليظ ، ثم ينقر بها نقرا خفيفا متقطعا أول الأمر ثم متواصلا ، ولابد لمن يكون فى الداخل أن يفرج عن نفسه فى الحال قبل أن يشرع النقرزان فى التواصل والا فقد يصيبه الجنون » ·

« الهدايا المبعوثة لمفتش الرى الانجليزى يكاد يشكل من نوعياتها سوق قرية متكامل ، فغير النقود الصريحة كان النقرزان يتسول للمفتش مقادير من القمح والأرز والذرة والسمن واللبن والزبد والخرفان المذبوحة وأقفاص الفاكهة من حدائقهم · ولذا فان «النقرزان» ملم بأيام أسواق كافة القرى المجاورة · فى يوم كل سوق فى كل قرية بعيدة لابد ان يزوغ من بيت المفتش ويرحل لساعات قليلة · وربما التقاه أحد من أهل بلدته ، فانه يسلم عليه ولا يسأل عن مجيئه اذ لابد انه جاء لغرض ما يخص حضرة المفتش · لكنه فى الواقع يكون يباشر أولادا راحوا يبيعون له ما جاء به وهو واقف الى بعيد » ·

« أما الأولاد الذين يقومون بالبيع له فانهم طائفة من كافة القرى اتخذوا من ذلك مهنة يستخدمون فيها مواهبهم الخاصة فى البيع والاقناع بوسائل وأشكال وطرائق متعددة ، ابتداء من بيع فيل وجاموسة الى بيع ساعة مسروقة تجد عيالا أولاد حرام يصنعون للشىء قيمة ويأتونك بثمنه ربما فى لحظات نظير عمولة يسمونها العرق · والثقة فيهم من الجمهور البائع والمشترى تصل الى حد الموافقة على انتظارهم فى البيت أو فى المقهى بالنقود ، وخد تصل بالكاد الى حد الوقوف بجواه من بعيد لبعيد · وكان « النقرزان » فى الأصل واحدا من هؤلاء الأولاد قبل ان يرمى بجثته على بيت مفتش الرى الانجليزى » ·

« ويقولون ان أولادا من أولئك السماسرة قد أثروا من وراء عمولات النقرزان فما بالك بما جمعه النقرزان ؟ » ·

.. « فى ذلك الزمن كان النقرزان قد تزوج من « مبروكة الشيالة » ، كانت ست بيت بحق ولكنها حملت لقب العريانة لأن آباها كان شهيرا بالعريان وكانت جميلة الى حد ما ، ولكن أجمل ما فيها بالتأكيد كونها رضيت بالزواج من النقرزان واحتمـــال الحيـــاة معه . ولم يكن قد دفعه الى الزواج منها سوى كثرة الأموال التى سألت بين يديه بلا انقطاع فانخدع بها وتصور ان الزواج هو مجرد القدرة على دفع مهر ومؤخر صداق وتكليف جهاز . أيام العزوبية كان يقضيها بأى شىء . أما وفى رقبته زوجة فانه مطالب بالصرف ، وانه لقادر على الصرف ولكن أخشى ما يخشاه ان تظهر النعمة عليه ، ان النعمة ان ظهرت عليه فلابد ان يصل خبرها الى حضرة المفتش ويقول له من أين لك هذا ؟ أو يصل الى الذين يدفعون الهدايا باسم المفتش فيشكون فى أمره ويعمدون الى فضحه . وهكذا تعلم النقرزان كيف يرى الحاجة الى الصرف ماسة ومع ذلك لايصرف ، ربما كانت زوجته أو ابنه فى حالة احتضار وهو من فرط تعوده على تمثيل دور المفلس المعدم قد اندمج فى الدور اندماجا باطنيا متينا ، وقد يلهمه الله فى آخر لحظة فينهض زاعما انه سيقصد باب الله فى محنته هذه ، فيقول ويختفى وقتا يقصر أو يطول يعود بعده زاعما ان رحمة الله الواسعة قد أدركته بسلفة من صـــديق » .

« مع ذلك فان مفتش الرى الانجليزى قد علم بما يفعله النقرزان فى الخفاء على حسابه . فجاء به ذات ليلة ووبخه وضيق عليه الخناق وهو يمعن فى الانكار . ودعاه النقرزان الى منزله ليرى بنفسه فلبى المفتش الدعوة فى استفزاز ولكنه اشمأز من وساخة الدار وفقرها فخرج متأففا وأمره بألا يريه وجهه فى القرية مرة أخرى والا سلمه للشرطة . وهذا هو السر فى ان عائلة عبد الجبار قد استوطنت هذه المنطقة البعيدة عن مساكن القرية القديمة ، اذ أن النقرزان كان قد نزل عند انذار المفتش وجمع حوائجه وزوجته واختار هذه البقعة البعيدة وفرض نفسه خفيرا عليها ، ففرح به صاحب الأرض فتركه يقيم لنفسه عشه ينام فيها ، فاذا به بعد سنوات

قليلة يضطر الى ان يبيعه قطعة الأرض كلها ، اذ مرض فجأة مرضا خبيثا صرف فيه كل مدخراته ، وحين فكر في بيع هذه القطعة من الأرض لينفق ثمنها على عملية جراحية في الخارج ، ــ على الأرجح في مصر ــ فوجيء بأن الكثيرين يهربون من شرائها لكي تقل قيمتها المادية خاصة وان المبلغ المطلوب فيها كبير ، وفي اللحظة التي يئس فيها صاحبها من بيعها طب عليه النقرزان وفي جيبه مبلغ حدده بنفسه لنفسه ثمنا للأرض كلها ، رضي به صاحبها على مضض ، ودفعه أجرا للعملية الجراحية ومات بعدها بقليل ــ وكانت هذه القطعة من الأرض هي النواة الأولى لثروة النقرزان » ٠

« لكن « النقرزان » رغم تنامي ثروته وتحرره من المفتش الانجليزى لم يستطع الخلاص من مرض البخل الذى أصابه ، فكانت الخلافات بينه وبين أولاده تصل دائما الى عنان السماء ، وتتدخل الوسائط لفضها في الوقت المناسب ٠ وكانت ولاتزال أربح تجارة بالنسـبة له هي تجارة المحاصيل الزراعية والتقاوى والبذور وكل ما يمكن تخزينه في زمن المواسم لزمن القحط أو الاحتياج ، أو تخزينه لصنع القحط واستغلاله ٠

« من هذا الأب النقرزان انحدر عبد الجبار الكبير ٠ ولم يكن مقدرا له أو لأحد من اخوته أن يدخل المدارس أو حتى يصير أفنديا أصلا ٠ بل ان الأب كان يتعشم ان يستريح على حسابهم وان يجيء اليوم الذى يرى فيه ابنه ماشيا جواره بالمكيال حيث يفرش في السوق ويشترى الحبوب نفسه ولوحده ٠ وكان الطفل عبد الجبار قد امتثل لهذا الأمر بالفعل وتمرس طفلا بطلوع الأسواق ومساومة النساء اللائى يبعن كيلات القمح ليتسوقن بثمنها أشياء أخرى ، بل ومساومة رجال كبار على شراء أردب وأردبين ، مقلدا في ذلك شقيقه الأكبر منه الذى صار مؤهلا لذلك دون غيره من المهن » ٠

« الأخ الأكبر وحده هو الذى فاته قطار التعليم فكان يختلف الى كتاب القرية أحيانا حتى تعلم فك الخط وقراءة الجرنان فصار بذلك وريثا لمهنته التجارة عن جدارة » ٠

« على أن مبروكة العريانة كانت قد اكتفت بانجاب ابنه الأكبر ، لم يتسع صدرها ولا صبرها فتركت له الدار ولحقت بأبيها الذى ترقى بنفسه بائعا سريحا فى البندر ، فزوجها من عربجى حنطور صديقه ، ووجد كل منهما فى الآخر ونيسا وأصبحت مبروكة الشيالة بفضله تلبس المخرق وتجيد الردح وفرد الملاءة كأحسن ما يكون . واما النقرزان فانه بعد ان استراح منها غير مظهره وأصبح يلبس النظيف ويأكل الثمين ، وطلع الحجاز، وطلعت له زبيبة الصلاة فى جبهته بسرعة ، ودفع قدرا من المال رمموا به مسجد القرية وجددوه ليحتل منه ايوانا مستقلا يصلى فيه أوقاته كلها حاضرة ، وحين يصلى ينزوى مشمئنطا كأنه وحده الجدير بالوقوف أمام الله . ثم انه قرر أن يصاهر من المدينة نفسها ، فخطب الآنسة دولت ابنة محمد أفندى خلاف الذى كان موظفا بالدائرة السنية ومات ، وأخت صلاح الدين أفندى الذى يركب عربة ملاكى فى مشاويره باعتباره ـ كما يقول عن نفسه دائما ـ من رجال الأعمال » .

« حقيقة الأمر ان صلاح الدين أفندى خلاف ، خال عبد الجبار ، لم يكن من رجال الأعمال ولا حتى من الرجال أصلا . عجيبا غريبا من السمسرة أو من التهريب أو الخسة قل ما شئت فى وصفه . كان مثل صهره تماما فى النوعية والنمطية وبلا أدنى اختلاف سوى المظهر من ناحية والطبقة التى هو موضوع فيها من ناحية أخرى .

« صلاح الدين أفندى خلاف يعمل والآخر تمليا ولكن على مستوى أرقى وفى معية الجيش الانجليزى المحتل لأرض الازارقة فى ذلك الزمن ، واحدا ضمن عشرات المئات من التملية أمثاله فى نفس المعية على درجات ومستويات متباينة .. فهو اذا كان ضمن فريق مهمته ـ التى لم يكلفه بها أحد ـ السعى فى الأسواق والحارات والأماكن والطرقات يقضون طلبات لأعضاء هيئة الجيش تخص حياتهم الشخصية ومنازلهم ابتداء من توصيل الطفلة الى المدرسة وانتهاء بتوصيل المومس الأزرقية الى الشقة

التى يديرها أيضا لحضرة الضباط أو سيادة اللواء أو سعادة المندوب ··
فثمة أيضا من تكون مهمتهم ـ التى لم يكلفهم بها أحد كذلك ـ التفاوض
باسم شخصيات كبيرة جدا فى الجيش المحتل ، مع زعماء الأحزاب
والسياسيين اللامعين وبعض المسئولين الكبار ورجال العائلات الكبيرة المؤثرة
فى الرأى العام أو عدد الأصوات ·· يتفاوضون معهم على حلول معنية
أو لمشاكل ملحة أو لمسائل مطروحة · ولأنهم وجوه مألوفة فى المحيطين معا ،
ولأنهم وضعوا أنفسهم من الأول فى خدمة هؤلاء بعينهم واشتهروا بذلك فى
الأوساط الاجتماعية ، فان ذلك يعطيهم جواز المرور الى المجتمعات العليا
والمجتمعات المغلقة وبين الدوائر ·· كما يعطيهم الجرأة العظيمة فى أن
يجلس الواحد منهم معك فى مكتبك الرسمى وأنت دولة الزعيم مثلا
فيناددك واضعا ساقا على ساقا مثلك ومدخنا أمامك سجائر ربما أفخر من
سجائرك وأغلى ، ذلك انه قد امتلأ بالثقة فى انك سوف ترتهب من
شخصيات عديدة تعرف انه يعمل فى خدمتهم وانه تبعا لذلك حماية ·
بل ان الجرأة الحقيقية ليست فى هذا ، انما هى ان يميل مثل هذا الصعلوك
كأنه صديقك الأكبر منك ، ثم يهمس فى اذنك قائلا بكل بساطة انه
يستطيع أن يحل لك الأمر الفلانى أو القضية الفلانية أو المأزق الجماهيرى
الفلانى مع المندوب السامى مثلا مثلا ـ اذا انت تنازلت عن كذا وكيت ··
ثم انه هو وشطارته معك بعد ذلك ، لأنك بالتأكيد ستعتدل فى جلستك
فورا وتتهيأ للتفكير الجدى فى اقتراحه الجرىء البسيط ، وحينئذ تكون
قد وقعت فى قبضته ، ان كان ولدا مرقعا فان حجم تنازلاتك سوف يتزايد
حسب لباقته وقدرته على اختيار الزوايا المناسبة للتحدث فى الموضوع
هكذا ـ ثم بعد أن يتأكد من موافقتك يأخذ فى التدبير للانفراد بالمسئول
الكبير الذى هو يملك الحل والربط أو هو الطرف الجوهرى ، وباعتباره
أحد خدمه المخلصين الأمناء فانه يحكى له على هيأة نكتة : كيف التقى بفلان
باشا فى مكان ما وكيف جاءت سيرة الموضوع الفلانى فحدث له كذا وكيف
ابدى الاستعداد لكذا وكيت ـ الطرف الجوهرى قد يضحك للنكتة وقد

لا يضحك ولكنه سوف يتوقف بالتأكيد عند حجم المكاسب التى قد تؤول اليه اذا ما تحولت هذه النكتة الى واقع » ٠

« وهكذا فان المرسال يبدأ رحلة ما تسميه اليوم فى عصرنا برحلة المكوك لكنها فى الخفاء ، بين محتلين وبين ناس فقدوا الوشيجة السحرية التى تربطهم بأهلهم وبأرضهم ففقدوا تبعا لذلك شرفهم وصاروا يبيعون فى السر مالا يملكون ليستمروا أوقاتا أطول يتملكون ٠ وكم طابت للمراسيل أكلات هنيئة دفعت الأجيال تكاليفها الباهظة جوعا وحرمانا وتشريدا ٠

***

٠٠ « صلاح الدين أفندى خلاف كان يتطلع الى مثل هذه المستويات الشاهقة من التملية الكبار ، الذين اخترعوا للمهنة أسماء جديدة براقة تصلح وحدها سببا للتضحية بكل المقدسات ٠ ولذلك لم يكن يعطى عقله أجازة فى السلب والنهب ، كان شحاذا يرتدى القبعة والفراك المخلوع عن أجساد أسياده الانجليز ، يمسك العصا الأبنوس مثل الباشوات ، تنطوى ملامح وجهه الرقيقة اللطيفة على دماء باردة جافـة ، يسـتدرج الضابط الانجليزى الكبير الى سوق المدينة أو شـوارعها أو حواريهـا الجانبية ، يمشى الى جواره مستعرضا نفسه حتى يتأكد الجميع من انه صديق لسيادة الضابط ، ثم يستدرجه أيضا ليزور به بعض الأصدقاء والأعيان ، يعرف بهم فى طريقة ملفوفة لا يفهم الضابط مغزاها انما يفهمها أهل البلد ٠٠ ثم أنه بعد ذلك يصبح من حقه أن يمر على السوق فيتسوق ما يشاء لحضرة الضابط ، أو على الأعيان وكبار التجار ليقترض مبلغا بسيطا فكة لحضرة الضابط ريثما يذهب الى الدار ويعود ٠٠ ثم انه أيضا كان يضع يده على نقطة الضعف فى ضابطه ليتاجر بها كيفما يشاء ، فان كانت الانحراف فدوأوه الرشوة يجمعها له ولا يعطيه منها سـوى نسبة ضئيلة ، وان كانت النساء فانه يعيث على حسه فسادا بين بنات

الناس وحريمهم والضعفاء اللائى لا حول لأهلهن ولا طول ، ولا يورد له مع ذلك الا احدى السناكيح بعد ان يكون قد باعها لعشرات الجنود السكارى والطلاب أبناء المدارس الأجنبية ٠

« صلاح الدين أفندى خلاف ضحك على أحد الضباط وأخذ منه سيارته الملاكى الفيات ذات الرفارف وكابينة تشبه مبنى النقطة الثابتة ، مقابل امرأة ريفية كانت تعمل فى خدمة أبيه فتنازل له عنها نهائيا ٠ صلاح هذا كان فاجرا منعدم الخلق الى أبعد الحدود كما تروى عنه الحواديت والأساطير فى قرانا ٠ كان يعرف تفاصيل مخازن التموين الخاصة بالجيش الانجليزى فى معظم المعسكرات ، ويعرف محتوياتها وما قد وصل اليها وما قد خرج منها ٠ وكان الى ذلك يعرف شبكة من اللصوص الأشقياء ذوى المظهر النظيف ٠٠ فيبلغهم بأمر المخازن أولا بأول ٠٠ ويضع لكل منهم خطة دقيقة لكيفية الهجوم على المخزن وتهريب ما فيه من سلع ٠ وباعتباره صاحب كل شىء فانه يأخذ حقه على الناشف مقدما ، ففرق اللصوص تثق فى خططه وفى نتائجها من حيث كل شىء ٠ وكل أهله وأصدقائه المقربين حين يضبطونه متلبسا بفعل كهذا يلومونه برفق فيرد قائلا انه يفعل ذلك فيهم لأنهم محتلين كفرة سرقونا وليس حراما أن نسرقهم فهى بضاعتنا ردت الينا !! ٠

« ولو ان الأمر هكذا فحسب فلربما انخدع فيه بعض أصدقائه وصدقوا ان سرقاته هذه نوعا من المقاومة ضد المحتل الأجنبى ٠ لكن صلاح لم يكن بالذى يضيع فرصة للكسب فى الوجه الآخر لفعلته ، اذ هو يذهب فى اليوم التالى للسرقة ، ويختلى بالمسئولين ، ويتباحث معهم فى أمر المسروقات ، ويرسم لهم ـ متطوعا كاقتراح ـ خططا للقبض على مجموعات من الأولاد ليكون اللصوص الفاعلون من بينهم ٠ ويتم بالفعل القبض على المجموعة التعيسة التى تأكل علقة تشرف بها على الموت يعترف على أثرها اللصوص ٠ وكان أصدقاؤه المقربون اذا ضبطوه متلبسا بفعلة كهذه يقول لهم قبل أن يلوموه انه لم يشأ أن يخالف ضميره ، فهو يعرف ان هؤلاء الأولاد لصوص ، واللصوص يجب أن يأخذوا جزاءهم !! ٠

« وكان اذا نجا من اللصـوص أحد والتقاه صدفة بادر هو بلوم اللص على ضعفه واعترافه ، ثم ان اللص لن يكون قد تطرق الشك الى نفسه فى صلاح لأنه ليس من الذكاء الشيطانى بحيث يربط بين الخطة المحكمة والتبليغ عنها من مجهول محكم . لذلك فمن المرجح ان صلاح أفندى خلف سيقنع اللص ان ذلك المجهول لا بد أن يكون الولد فلان أو الولد علان من أصدقائه المنشقين . المرجح كذلك ان اللص لن يجد غضاضة فى التعامل مع صلاح مرة أخرى وثانية وثالثة والى ما لا نهاية .

« كان لصلاح بيت فى عزبة الخولى ، عزبة هى كلهـــا عبارة عن البيت وحوله دمامل وخراريج على هيأة دور وأكواخ ، من أعمال المدينة ، يصلون اليها بالركائب وهو بيت تنازلت عنه الدائرة لموظفها الوفى فأقام فيه صلاح وجعل منه تقليدا ساذجا منسوخا لبيوت الباشـوات ، وكل محتوياته مخلوعة من بيوت سابقة وعليها بصمات ناس كثار وأمراض ناس كثار وعرق ناس كثار وذكريات ناس كثار .. حتى ان صلاح أفندى خلاف كان يتشكل تشكيلات نفسية عجيبة كلما تنقل من حجرة الى حجرة بل من ركن الى ركن فى بيته ذاك ، فقد يفرض عليه هذا الكرسى ان يجلس جلسة باشا أو زعيم وقد يفرض عليه هذا الصالون ان يجلس فى دبلوماسية متخيلا نفسه مع ناس من علية القوم ، وقد تفرض عليه المرآة شكلا معينا والسرير نوما معينا والشرفة أن تطل على الجمـاهير خطيبا أو يقف مناديا على الخدم .

ورغم انه فى الأصل خادم ابن خادم فانه كان يستعير فى حديثه دائما صوت الارستقراطية ولهجتها وخنفتها ولثغتها ، التكلم من الحلق والأنف والرقة المبالغ فيها والغطرسة . غير أنه لم يكن ينجح تماما فى أى من هذه المشاهد ، لأن شكله كان رغم الفراك والقبعة شكل الخدم وسلوكه رغم التحفظات الشديدة سلوك الخدم .

***

.. وعلى الرغم من أن النقرزان والد عبد الجبار قد صار من كبار الملاك في الناحية وتكومت في خزينته أموال تشترى ضياعا ، الا انه كان يشعر دائما بالضعف كلما وطئت أقدامه بيت صلاح أفندى خلاف أو كلما تحدث مع أحد من أهله بله أن يتحدث مع صلاح نفسه . ذلك ان النقرزان لا يستطيع ان ينسى أصله أو ينسى انه تطلع الى أهل هذا البيت ودفع أموالا كثيرة وساق وسائط كثيرة لكى ينتمى اليه ، ولا ينسى كذلك انه أخذ أربعا وعشرين ضلعا تمثلت فى الست دولت ، التى نظفته ونجرته وقومت من سلوكه وجعلته رجلا محترما ذا مهابة ، وعلمته الأدب حقا . وكان أبناؤه كلهم يميلون الى أمهم ويحبون رؤية خالهم ويحبون تقليد لباسه وكلامه ولهجته وعنطزته الفارغة .

وذات عام ذهبت الست دولت هى وأبنائها وزوجها لقضاء العيد فى بيتهم لدى أخيها صلاح أفندى . فلما انتهى العيد وتهيأوا للعودة كان عبد الجبار وهو ابن العاشرة تقريبا قد تعلق بخاله وتعلق به خاله ، ولم تجد الأسرة مفرا من العودة بدونه . فرحت الأم ان يبقى الولد مع خاله لكى يكون ذريعة ترسل بسببه لأخيها كثيرا من الأشياء التى يحتاجها فى وحدته بعد ان تخلى عن خادمته وأهداها للضابط الانجليزى مقابل الاستيلاء على سيارته والتنقل بها دون ملكية رسمية .

ألحقه خاله بالمدرسة الابتدائية فى البندر ، المدينـة الواقعة على ضفة فرع للنهر الأزرقى . طول النهار هو فى المدينة ، يخرج من المدرسة ليذهب الى خاله على المقهى حيث يرافقه اينما ذهب . يكتشف الولد ان خاله يرتاد مجتمعات غريبة ، من بيوت الأسر حيث يخترقها بعشم زائد عن الحد ، الى مقار أحزاب يتسقط أخبارا أو يذيع أخبارا ، الى منزل الحاكم العسكرى الانجليزى للمدينة حيث يؤدى خدمات بيتيه من قبيل سقى الحديقة بالخرطوم أو تشذيبها ، أو الاسراع هو بالقهوة للبيك ، أو الاسراع الى الصيدلية لشراء دواء الهانم الصغيرة ..

يجد عبد الجبار نفسه بين مجتمعات عدة يحس خلالهـــا بدونيـة أصله • وفى كل مكان يقدمه خاله للناس قائلا فى تفاخر : « ابن أختى •• فى الابتدائية » فيتطوع الناس بمجاملة خاله فيمتحنون عبد الجبار فى الانجليزية ويخاطبونه بها فى تحد متمرين لسانه ••

فى يوم كان عبد الجبار قادما من المدرســـة ، وكان يتسكع فى شوارع المدينة منجذبا الى المحلات بأنواعها غير المألوفة لديه •• أدهشه وألذه ان يجد ان كافة الأشياء لها محلات فى المدينة • يحلو له ان يقف ويتأمل ويرى أهل بلدته والبـلاد المجاورة وهم يدخلون هذه المحلات ويشترون منها أشياء ومنقولات وأثاث وعطارة • كان يحلو له أن يقف هو الآخر ويشترى ، ليس هذه الأشياء الثقيلة ، بل يشترى أى شيء ، المهم ان يشترى • ذلك أن رفاقه فى المدرسة وفى الشوارع طول النهار يمارسون الشراء ، وكم وقف طويلا أمام عربة « الكانتين » يتفرج على أطبـاق المهلبية التى تنهال بين يدى الأولاد جميلة الشكل يسيل لهـا لعابه ، كم تاق الى شراء قلم رصاص أو كراس من المكتبة التى تحوى أشياء يشتريها الأولاد • ولم يكن يجد فى جيبه قرشا يدفعها رغم بذلته الكاملة ببنطلونها القصير وطربوشه القصير الغامق وحذائه الأستك • وكان موقنا من ان أباه الذى يستهجن فكرة التعليم فى المدارس لن يقتنع أبدا بأن يرسل له مصروفا لليد فى المدينة ، بله ان يؤجر له مسكنا • لكنه كان يعرف أن أمه ترسل لخاله سرا بعض الأموال التى تدخرها من بيع الدجاج والبيض تربية يدها فضلا عن الطعام الناشف • وكان يفكر وهو عائد فى آخر المساء مع خاله كل يوم أن يسأله عن بعض قروش سلف ، فكان خاله يرد عليه من حلقه وهو يقود العربة : « عايزها تعمل بيها أيه ؟ انت حتتعلم الفســاد ؟ » ، فقال : « لا •• عايز أشترى أدوات هندسية وشوية حاجات » • فقال خاله صلاح : « بس كده ؟ الصـبح نتصرف » ••

وفى الصباح ركبا السيارة معا ، وقبل ان ينزله عند المدرسة كما تعود ذهب مباشرة الى بيت الحاكم العسكرى للمدينة الذى كان قد التحق

بخدمته • فدخل السراية بالسيارة ثم نزل فنزل الصبى عبد الجبار • ومشى فمشى وراءه فى انزواء خجل نحو باب المسكن ، وكانوا بالكاد قد تهيأوا للفطور وشمس الصباح فى لون التمر هندى تنسكب من نافذة مقابلة للباب حيث أطلت الزوجة الانجليزية الحمراء التى انعكست عليه انعكاسات الشمس فطار لب الولد • قالت : « هالو بنجور كامن » • فدخل خاله وقال : « تعال يا عبده » فدخل « عبده » يتعثر والزوجة تحييه قائلة : « أبدو •• أو •• أبدو •• ازيك يا أبدو » ، وهو ملخوم لا يعرف كيف يرد قال خاله مستخدما الاشارة بأصبعيه : « ابن أختى » ، ففهمت الزوجة وأحمر وجهها أكثر وابتسمت قائلة : « آ •• ها » ، وأشارت اليهما ان يدخلا • فتقدم الخال يتبعه الصبى والزوجة تقول : « أين كنت بالأمس ؟ • كان الرجل يسأل عنك كان لديه بعض الأصدقاء واحتاجوا لزجاجات الجعه فى آخر الليل » •

فقال صلاح وهو يجلس مباشرة على مائدة الطعام انه ــ والله ــ أحس بحاجة الرجل اليه بالفعل فى لحظة معينة من الليل ، وكان يوشك ان يجىء من تلقاء نفسه ليرى ماذا عساه يكون طلبه له ، غير أنه خشى ان يطرق عليه الباب فى آخر الليل •• ثم شرع يأكل مع الأطفال دون أن يدعوه أحد فبدا ذلك شيئا طبيعيا ، وقال : « تعالى كل يا عبده •• اقعد افطر » ، وعلى استحياء قليل تقدم « عبده » ثم عاد فنظر فى وجه خاله فلم يجد أى أثر للخجل أو لأى شعور آخر ، فنسى هو الآخر ملامح وجهه وشرع ينهل من أشياء كان يراها فى دكاكين المدينة واكتشف فجأة أنها موجودة فى البيوت أيضا ، والأولاد يفضــون عنها الأغلفة الأنيقة الثمينة ويأكلونها فيفعل مثلهم ولكنه يستخسر الغلاف الثمين فيبقيه فى يديه برهة ثم يتخلى مضطرا ويذوق الشىء فاذا به طعم جميل من الجبن والزبد واللبن ، وآخر اذا به حلوى تشتعل منها فروة الرأس لذة ، وثالث ورابع ، وعسل نحل وعيش يصلح غموسا لعيشهم فى البلد ، كل هذا وحليب بعده شاى ثم قهوة ثم فطائر ثم فوجىء « عبده » انه مطلوب منه القيام ومغادرة هذه الجنة •• يومها كاد يبكى من الغيظ ، ولولا طوله

وبذلته وابتدائيته لضرب الأرض بقدمه صائحا : « أنا حافضل هنا » لكنه سلم أمره لله وشرع يمشي ، فاذا بخاله صلاح يتذكر فجأة فينظر الى الهانم الصغيرة قائلا لها ان عبده محتاج لأدوات هندسية وبعض الأقلام والمساطر • فدهشت الهانم الصغيرة وبدأ عليها الحزن من أجله ، وقالت انها ستهديه أشياءها وتشترى بدلا منها ، ثم نهضت فى الحال وتقافزت نحو غرفتها ، وكان عبده يهم بأن يعترض او يتشكر أو يفعل أى شيء لكنه نظر فى وجه خاله فتذكر أنه يجب أن ينسى هو الآخر ملامح وجهه ، ينساها حتى وهو يراه فى المرآة أمامه ، وكان فى أعماقه مرحبا غاية الترحيب بهذا الخاطر بالذات ، اذ ان شكل وجهه كان فى الواقع — ومن ناحية أخرى — لا يسره أبدا ••

ومدت يده بقليل جدا من التردد ، ثم بحماس مفاجيء أخذت الأدوات الهندسية فاذا هى كثيرة وجميلة ومتينة ، فاستبد به الفرح • وكان الرجل الكبير قد خرج من الباب الجانبى فلحق به خاله يجرى فى حين تخلف عبده ، اذ لمح فى عين الزوجة الحمراء نظرة تقول له : « استنى يا عبده » • وفعلا اثمر تلكؤه اذ ان السيدة غابت قليلا ثم خرجت مطبقة اليد على شيء غمزته به فى يده ، فاذا به ورقة نقود • فارتعشت أوصاله وصم بالجرى ، فنزعت هى قطعة بسبوسة كبيرة لفتها فى ورقة وأعطتها له ، فأخذها واندفع يهرول حيث وقف الرجل الكبير يملى على خاله بعض الأوامر ، وخاله متهدل الجسم فى وقفته يهز رأسه بين الفينة والفينة قائلا : حاضر •• حاضر انتهى الرجل من أوامره ثم مضى نحو السيارة التى ينتظره بها السائق فى مدخل باب السور ، لكنه عاد فالتفت ناظرا الى عبده ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز باسم ثم مضى ، وحاول عبده أن يفهم معنى لعوجة شفاه الرجل الكبير ، ولكن لو تذكر صورته كأفندى صغير يرتدى بذلة وطربوشا وحذاء ويمسك كتبا وكراريسا وبيده الآخرى قطعة بسبوسة يحرص عليها حرصا يضاعف من لخمته — لو أنه تذكر صورته هذه لحظتذاك لما احتاج الى معاناة فى التفسير ، لكنه كان ساعتها قد فقد الاحساس بالمرآة • وحين ركب بجوار

خاله فى العربة الكحيانة نظر اليه مبتسما وقال : « مبسوط يا عم ؟ » فهز رأسه من فرط الامتنان ·

ثم انه قد عشق زيارة هذه السراية سواء مع خاله أو لوحده · صار يتطوع بالتكفل بالبكوات الصغار ، يلف بهم فى الشوارع وعند الكورنيش وفى المنتزهات ، يفرجهم على القرد وعلى صـــلاة الجمعة وعلى المراكب والصيادين ، يملأ بطوتهم من سخام الشوارع الذى يباع فوق العربات على هيأة حلوى ومرطبات ومشروبات ، يشترى لهم كل ما فى نفسه ، كان يقنعهم بأن المصروف لو بقى فى يده هو لكان أفضل ، والا فهو غير مسئول عما يحدث لهم من العيال الأزارقة الأشقياء ، سوف يضللونهم ويغررون بهم ويسلبونهم ، أنه يعرف العيال أبناء هذه المدن المحدوفة فى البرارى ، أشقياء ولصوص ومتشردين ، نفس العبارات التى قد سمع خاله يقولها لأحد الشبان الأجانب ، وقد تذكرها وأعاد ترديدها للصبية ، اذ أنه رأى الشاب الأجنبى يوافق خاله ويعطيه قيادة سياحته · وأيا كان الأمر فقد كان الأولاد مسرورين وغير معطين لمسألة المصروف بألا ، فان يكون معه أو معهم أمر لم يطرأ على بالهم ·· انما هم مندمجون فى الفرجة على ما يثير خيالهم ··

ثم ان عبده لم يكتف بأن يكون سميرا ونديما للأولاد متقربا الى عقولهم بما يدرسه فى المدرسة الابتدائية من لغة وعلوم ورياضة تجعل منه خادما مستنيرا يسهل تكليفه بمهام كثيرة ومتنوعة ، ويعيش بذلك على حسابهم ، يلبس من ملابسهم المخلوعة ويأكل من فضلاتهم ، بل انه انتمى الى البيت تماما وصار لا يراه خاله الا لماما · وكان على صغره قد أصبح ولدا « أزوبا » ، كأنه عجوز ، فالسنوات القليلة التى قضاها فى المدينة علمته الصياعة واللف والتطفل على كل شىء يسأل فيه وعنه وعن أسعاره لا لشىء الا ليقيس بالسعر بعد الشىء عنه أو قربه منه · الست هانم تريد اصلاح سور الحديقة يا أبدو · يكون تحت قدميها · ثم ينطلق الى مكان بعيدا جدا ليأتى لها بواحد من المتخصصين فعلا فى أسوار الجناين

والأسلاك الشائكة ، واذ هو يقول للصنايعي منذ البداية ان الست هانم هي التي تريد ، فان الصنايعي بكل صراحة يقول له : « الحديد بكذا .. والسلك بكذا .. وعرقي في التركيب أو البناء كذا » يحسبها « عبده » في نفسه ويذهب ليسأل في دكاكين الأسلاك الشائكة والحديد عن أسعار الأمتار والوحدات ، فيجد أن الصنايعي قد بالغ في رفع السـعر وفي تقدير عرقه . مع ذلك يأخذ الصنايعي من يده ويذهب به الى الست هانم ليتفق معها وجها لوجه .. من هنا لهنا يتكلفوا كذا .. خلاص ؟ .. هاتي الفلوس يا ست هانم . الست هانم تعطي التكاليف لعبده وتتركه يشرف على العملية . يقبضها في جيبه ثم ينطلق مع الصنايعي الى الخلاء لشراء الحديد والأسلاك . وعندما يبتعدان تماما عن البيت يفتعل « عبده » خلافا بينه وبين الصنايعي ، كأن يدخل على الاتفاق تعديلا لم يكن واردا ، يزعم ان المطلوب عشرين حديدة لا عشر ، ويصر على ذلك ويتشبث برأيه ، حينئذ يزهق الصنايعي ويرى ان العقاب الصالح له ان يتركه ويمشي رافضا الشغلانه من أساسها . وهذا عين ما يريده « عبده » . شقي هو ابن شقي ، يتصنع أنه لاص ، وأنه غاضب من انسحاب الصنايعي ، وان هذا أقسى عقاب يوقعه عليه ، كل ذلك ليثير حمية الصنايعي كي يمعن في الانسحاب نهائيا . ثم اذ يرى الصنايعي قد اختفى بالفعل يتخذ طريقه الى محل الحديد والأسلاك . فيشترى بنفسه الحديد والأسلاك التي حددها الصنايعي ، ثم يستأجر عربة بخمس قروش تنقلها الى البيت . وحين تطل الست هانم من الشرفة وترى الأشياء قد وصلت بدون الصنايعي يعاجلها قائلا ان الرجل طلع ابن .... ، رجع في كلامه في السكة وطلب كذ وكذا وتملعن قائلا كذا ، وفاعلا كذا ، وأنه تركه وانصرف بعد شراء الأشياء . فتلوى الست هانم شفتيها أسفا من هذه الورطة . فبكل رجولية يدخل هو قائلا : « ملعون أبوه » .. أنا اللي حاعملها بنفسي ثم يدخل فيخلع هدومه ويبقى بالفانلة والسروال ، ويتحول الى عامل يفحت بالمنقرة ويدق الحديد ، وكلما رأى أحدا من أنفار الحي أو رجاله أو عياله يقول : « يايدك والنبي معـانا » : ينبت في الحال بين المارة

المدعوين للعمل من هو أكثر خبرة بدق الحديد أو تشبيك الأسلاك -
وبعد وقت قصير يكون قد أسلم العمل شيئا فشيئا لناس تفهم فيه ،
وينخلع هو ، ويروح يهنكر حولهم ويشجع ويلاحـظ ، وبالمرة يدرس
وجوههم ، فوجه هذا الجدع يتم عن أنه شهم وقد خدم لوجه الجدعنة
فمقداره الشكر بجدعنة ، وهذا وجه ، ينم عن انتظار لكنه ذكى خجول
فمقداره الايهام بالصداقة ــ نخدمك فى الأفراح يا فلان ، وينطق اسمه
مجردا ــ وهذا وجه ينم عن الحاجة والا فالسراية عرضة للتلبيخ الغوغائى
المزعج ٠ فخمس قروش تجعله يرقص طربا ٠ ثم ان الست هانم بعد
ساعات تجد ان السور قد تجدد بالفعل كأحسن ما يكون فيزداد ، اعجابها
بعبده ، فيقول لها أنه لولا الرجال لما فعل شيئا ، انهم كل شيء وقـد
نفحتهم جميعا أجرهم ومشوا مبسوطين ، كم دفعت يا آبدو ؟ ٠٠ خلاص
يا ست هانم كم دفعت يا آبدو ؟ ٠٠ خلى علينا يا ست هانم ٠٠ كم دفعت
يا آبدو ؟٠٠ كذا ٠٠ وأى رقم ينطقه تعطيه له باسمة ٠

***

اكتشف « عبده » وهو طالب فى الثانوية أنه لا يحب ، ليس له
محبوبة تشـغل باله وخياله ويتحدث عنهـا لرفاقه ٠ ولم يكن يعرف
أنه قد ألغى هذه الناحية من حسـابه منذ البكور ، فاعتبر ان الشبان
زملاءه أغبياء موهومين ٠ وكان قد عجز عن اكتشاف بنات تحبه طالما أنه
وهو طالب الثانوية المحترم لا يتورع عن الجرى وراء الست هانم كالجرو
الصغير ، ويفتح لها الباب وينظف لها زجاج السيارة ، ويمسح حـذاء
الولد ، ويذهب ليشترى الأشياء نيابة عنها وعنهم ، ذلك ان عادة الشراء
بنفسه قد تأصلت فيه وأصبحت تمنحه متعة عظيمة ، ان يشترى حتى
بحساب الآخرين للآخرين ٠ وليس مصدر المتعة ارضاؤه لنزعة الشراء
كتنفيس عن عقدة قديمة فحسب بل من كونها تدر عليه دخلا كبيرا حتى
أصبح وهو طالب فى الثانوية يستطيع الاستغناء عن مصروف أبيه بل

يصبح هو نفسه ذا مال ولو الى حد قليل لكنه لذيذ فائق اللذة • ليل نهار لا يكف ولا يضيع فرصة • زملاؤه من فريق الكرة يريدون ملابس معينة ، ينط هو ، يشتريها بمعرفته ويسمسر من كل ناحية وبشكل سحرى •• أصبح شريكا فى الكانتين • تجىء الأجازة فيذهب ليستريح فى قريتهم كطالب • تراه القرية فتزداد انبهارا به • انه بهدومه النظيفة يستنكف الجلوس فى القرية معتمدا على نفقات أبيه الرأسمالى بل هو ما شاء الله متعلم يتكسب بعلمه وذكائه وها هو ذا ـ يا حلاوة ـ قد اشتغل فى الأجازة فراح يعمل كاتبا للأنفار فى الوسية بماهية كالموظفين ••

وكان أبوه يرى هذا فيزداد زهوا ويشجعه قائلا : « الشاطر اللى يكسب بجدعنته •• لا عيب سوى قلتهم فى الجيب ـ يقصد الفلوس ـ كده أنا مبسوط منك قوى يا عبده •• على الأقل الواحد يقدر يستلف منك •• مش دلوقت يعنى دا لو ربنا والعياذ بالله حوجنا » • الواقع ان أحدا منهما لم يحتج الى الآخر احتياجا ماديا • لكن الأب النقرزان هو الذى عادت عليه شطارة ابنه بكثير من الراحة والزهو • فمنذ سنوات والست هانم لا تستخنى أبدا عن آبدو ، ولذا فقد استغنت له عن حجرة فى حديقة البيت بجوار الجناينى ، ثم استأجرت له شقة من غرفتين وصالة بشرفتين على الشارع آخر أبهة ، تدفع هى ايجارها شهريا بضع برايز فى الشهر ، وفرشتها له بمخلفات من عندها • عبده لا يبيت فيها الا لماما ، اذ هو طول النهار اما فى المدرسة أو لدى الست هانم وكثيرا ما يمسى به الوقت فى خدمة الرجل الكبير فعند خروجه يمر على الجناينى ليمكث معه ساهرا حتى الصباح يشربان الشاى ويتحدثان ويلعبان الورق ويحششان ويبيت معه فماذا يفعل بشقة كهذه ، فليؤجرها ، ولكن هل يؤجرها بملاليم أو بضعة برايز ، مبلغ ما أتفهه ، يستطيع أن يأخذه من ورائها فى جمعة واحدة أو ربما ليلة أو ليلتين ، وذلك لا يكلفه الاتصال بسمسار أو وسيط ، ولماذا سمسار ؟ ان السمسار قد يكون غبيا أو فى وجهه بعض دم فيخفض سعر الشقة ويبتذلها أو يسوىء

سمعتها ، أنه هو نفسه أحسن سمسار ، الأمر يحتاج فقط الى مشية على كورنيش النهر ساعة أو بعض ساعة ، حتما سيقابله ضابط أو مهندس أو تاجر أو طالب ابن ذوات بيده صيد يبحث له عن مكان ، ابتسامة فسلام فكلام فتلميح فعندى لكن صاحبها يؤجرها فى الليلة بكذا لمدة ساعة أو ساعتين مع ضمان الحراسة والتأمين ، ربما لا يمر أكثر من ربع ساعة تكون بعدها العربة الحنطورة قد أقبلت تقرع الأسفلت بايقاع بهيج ، لينزل ثلاثتهم على مبعدة قليلة من البيت ثم يتقدم هو ليفتح الشقة ويرتب فرشها ثم يقف بالباب في انتظار الضيفين ، اللذان يتقدمان الى الداخل وقد امتدت يد الضيف بالمبلغ المتفق عليه ، يتلقفه عبده ثم يغلق الباب عليهما بالمفتاح ويمضى ليغيب ساعتين أو ثلاث يقضيها لدى الست هانم فيضمن أكلا وشايا وأدوات مذاكرة بالمجان ، ثم يعمد الى التأخير فى العودة • فلعل البغى تخاف من العودة آخر الليل وحدها فتقبل المبيت معه هو حتى الصباح بدون أجر فى مقابل ان يلعق ما تبقى فيها بقية المساء ، رغم ثقته بأن ذلك حين يحدث صدفة فدائما ينتهى بغم ونكد ، اذ دائما تنقلب المرأة عليه فجأة من الميل الى الصد ومن الترحيب الى الرفض وبغلظة ، دائما يتوقع ان تستاء المرأة حين يبدأ يجامعها فاذا هى تستاء فعلا دون أن يدرى لذلك سببا ، لكنه دائما يحاول ولا يزال يعتقد أن هناك من سترضى له بسلاسة اذا ما صار قادرا على دفع النقود بسخاء ••

***

لقد كان لتلك الشقة المدنسة صيتا عظيما فى قريتنا وكانوا يحجون اليها فى مناسبة • ذلك ان النقرزان كان يمشى فى القرية مزهوا متفاخرا يتوكأ على العصا يدخل دكان البقالة ليشترى ورقة دخان ويقف ليفرطها ويلف لنفسه سيجارة ، يجلس على رصيف دكان القماش ليلعب الطاولة مع القماشى أخ شيخ البلد ، فان تطرق الى سمعه من هنا أو

هناك حديث عن ناس سيذهبون الى المدينة لسبب من الأسباب فانه يرفع رأسه فى عظمة متواضعة ليقول بهدوء الفلاسفة : خير ؟ . فيقولون : خير . فيقول كأنه يصدر فرمانا بالحرية : « اذا عاوزين أى حاجة من البندر ابقوا فوتوا على الواد فى البيت .. اعتبروه بيتكم يعنى بدال ما تكلفوا نفسكم لوكانده » ، ثم يستأنف ما كان فيه وينسى تماما انه قال هذا .. لأنه كان اذا تصادف وسافر هو الى ابنه فى المدينة يوم خميس ووجد أحدا من أبناء القرية عنده فانه يقيم الدنيا ولا يقعدها . ويقولون أنه ذات يوم طرد خالتى بسيمة من شقة ابنه فى المدينة . يا لها من سنين . لقد ظلت السنين الفائتة قائمة على الدوام أجيالا طويلة من خلال هذه الحدوتة فقط التى يحكونها عن طرد خالتى بسيمة من شقة عبده ، أو جبار كما تعود الناس على مناداته تيمنا بأساتذته الذين قال انهم ينادونه هكذا . حتى لقد ألف الناس فى تلك الواقعة أغنية عاشت سنين طويلة :

« دارك فين يا بسيمه داري دار عبد الجبار »

« رايحه فين يا بسيمه رايحه أزور عبد الجبار »

« رايحه تزورى ولا تحطى رقبة أهلك للجزار »

هذه الأغنية ظللت أسمعها وقتا طويلا فى الأفراح وفى الغيطان ولم أكن أعرف ان المقصود ببسيمة هذه خالتى بسيمة . لا أحد يتصور مدى سعادتى وتعاستى فى نفس الوقت يوم علمت هذه المعلومة ، اقشعر منها بدنى ووقف شعر رأسى ، ثم ان الآلام حطمتنى بعد ذلك .. ذلك ان معرفتى لم تكن كاملة وهذا أشد أنواع المعرفة خطورة ، انها نوع من المعلومات التى لا يرحب الانسان أبدا بأن يعرفها بل أن يكون سعيدا بمعرفتها يكفى اننى عرفتها صدفة ، اذ كنت مع جدى فى فرح أحد أصدقائه من بلدة مجاورة ، وكان ليلتها فى أعلى مزاج ، ورحب بنا أهل الفرح وأكرمونا ، وتوهجت المغنية وغنت : « رايحه فين يا بسيمه » ،

فاذا بالجمهور كله يشرع فى التراقص معها والمشـاركة فى الغناء واذا بجدى الذى كان فى أقصى درجات الفرح قد انهار باكيا بحرقة ، واذا بناس كبار يلتفون حوله « مالك يا خليل ؟ » . شاركتهم الدهشة ، فان يغنى أحد أغنية رايحة فين يا بسيمة أمر مألوف جدا وعادى ، وأنا نفسى قد أردده بينى وبين نفسى فى اعجاب ، فهل بكى جدى خليل من كثرة المشاركة فى الانفعال مع الفرح ؟ .. هكذا تصور البعض لكن جدى خليل كان متوترا عصبيا يرعد بصوت مكتوم قائلا : « أبدا .. هما عارفين ان أنا هنـا وقاصـــدين يهزأونى » .. هما مين اللى يهزأوك ؟ .. عيلة النقرزان « .. يهزأوك ليه عيلة النقرزان ؟ » .. « أهو ما أعرفش .. لكن هما اللى موصيين البنت المغنية تغنى الأغنية دى بالذات عشـــان يكبسونى بيها !! » ، ثم يعتصر نفسه باكيا حتى خفت عليه واحتضنته وغادرنا الفرح منكسرين . وفى طريق العودة كان لا يزال منفعلا متوترا وضعيفا ، فاستطعت ان أجمع خيوط معنى يقول ان عائلة عبد الجبار كثيرا ما يداعبون جدى خليل بهذه الأغنية التى يعرفون معـا مناسـبة تأليفها ..

العجيب اننى بعدها لم أنجح مطلقا فى استدرار شىء جديد عن تلك الواقعة بل انه نسى انها حدثت وراجعنى ، ثم انه تسلح بالطرش المفاجىء . كل ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مناسبة هذه الأغنية ان النقرزان بعد عودته من احدى سـفراته لابنه جلس يلعب الطاولة على الرصيف ويلف السجائر فى الدكان كالعادة ويحكى متفاخرا كيف انه أنقذ الولد منها ــ أى من خالتى بسيمة ــ حيث انها كانت كما هو واضح ــ يقول ــ تعرفه من مدة وتسرح به وتضحك عليه : تصوروا هذه البنت الشيطانة وجرأتها وفجرها حيث انتقته ولدا يستأهل مثل ابنى ولولا ستر الله وحضورى فى اللحظة المناسبة لسيطرت على الولد وأحكمت شباكها حوله . فيقول من يسمعه من الجالسين : « ولكن هل ضبطتهما معـا متلبسين يا حاج نقرزان ؟ » . فيقول مشوحا فى غطرسة : « ان الله حليم ستار » .

فيدققون ، ويقررونه ولو بالعافية ، كأنهم جميعا يريدون مجامعة خالتى بسيمة من خلال الواقعة ٠٠ الواقعية التى حدثت بالفعل وتحققت ٠٠

ثم انهم بعد تلك الواقعة ينسجون بأخيلتهم حواديت وأساطير حول خالتى بسيمة فى شبابها وصباها ، تؤكد كلها ان فلان الفلانى جامعها ، والولد علان أكلها ، والولد ترتان رافقها من وراء زوجها هريدى ، وقائع يحكونها تشبه الحقائق التى كأنهم رأوها بأعينهم ٠ لكنهم دائما كانوا يستدركون قائلين : « والله أعلم ٠٠ يمـكن محصلش ٠٠ الظلم خـرام برضه » ٠ ذلك ان كلا منهم كان يتمنى أن يهتبلها لنفسه فى عز شبابه ولذا فهو يتخيل نفسه فى صور الآخر الذى يختاره ليحكى عنه على أساس ان ذلك الآخر ربما كان أكفأ منه مظهرا أو خلقـا أو مركزا ٠ وكأنوا يخلصون ضميرهم بعد الخوض فى لحمها بقولهم الله أعلم ، اذ هم فى أعماقهم يدركون انهم يحكون مجرد خيال أو اشاعات متنامية ٠٠ فما بالك وهذا رجل كبير المقام والسن يحكى فى الدكاكين كيف طرد هذه البنت الملعونة من شقة ابنه فى لحظة خطيرة ؟ ٠ لكن النقرزان لم يزد عن قوله ان الله حليم ستار ، وظن انه بذلك قد أرضى الله واستغفر من الذنب ٠٠ فتكفل خيال الجماعة بما يتكفل به عادة حين ينشغل بمسألة ، تكفل باحياء الواقعة وتكميلها على النحو الواقعى المنطقى ٠

كان من الممكن أن أنسى خالتى بسيمة أنا الآخر وأتجاهلها كما فعل غيرى من أهلها ٠ لكن كل من نساها دفع فى المقابل ثمنا باهظا جدا ٠٠ فهذا عمى طاهر اقتنع ببغائها واعتبرها عارا عليه أن ينساه ، لكنه نسى مع نسيانه ان سبيل النجاح الوحيد لنسيان العار هو انك تتصرف من منطلق التسليم بالعار ، أى أن عمى طاهر تيقن من أن أحدا فى الدنيا لن يصدق شرفه ومن ثم صار الشرف فى نظره عملة زائفة تصرف كأن العار لاصق به لا محالة ، وكان ان أصبح لا شىء هناك يعز عليه أو يثير انفعاله أو نخوته أو خوفه سوى شىء واحد هو نقصان الرصيد أو ازدياده ، صار حيوانا ماديا يجمع النقود بكافة الوسائل ، يجمع ما لن يستفيد به سوى الأغراب وأبناء السبيل ٠

أما جدى خليل فقد انكسرت صلابته فقوى على لحمها لحاما صلبا من طاقة الصبر عنده ٠ لكنه لحام يسيح عند اشتداد الحرارة فيخلخل الكسر وتصبح نفسه أجزاء متناثرة من الصعب جمعهـا ثانيـة ، لكنه يجمعها ، اذ يغيب عن الوعى ساعات بارادته حسبما يحتاج اللحام من برودة يتصلب معها من جديد ٠ وأما جدتى فانها فقدت صلتها بكل شيء تقريبا الا بالله سبحانه وقرآنه ، كأنها رأت أن تعتذر له مدى الحياة عن خطيئة تسبب فيها جمالها البائد ، لقد خلقها سبحانه جميلة الجميلات ، ثم خلقت سبحانك ــ هكذا تردد جدتى دائما فى صلواتها ــ ابنتى جميلة جمالا مشتعلا بالنار صنع فيها وفيهم وفى الجميع ما صنع : سبحانك جلت قدرتك أنت جميل ولا تحب غير الجميل ، فان كانت بسيمة قد حادت بجمالك نعمتك عن جادة الصواب فسامحها يارب دنيا وآخرة ، فهى فى النهاية بعض جمالك وبعض ما تبدعه فينا من صنع وصنيع ٠ سبحانك أعطيتها الجمال ولكنها يارب مسكينة لم تقو على رد الوحوش والغيلان ٠٠ أكل ذنبها يارب انها كانت آية من آياتك فى الجمال ؟ ٠٠ مسكينة لقد قاومت على قدر ما قاومت ، ولابد انها بذلت أقصى ما فيها من قوة ، فأن كانت قد انهزمت ووقعت فى الأوحال فاغفر لها انها ظلت تقاوم ، واغفر لها انها وحيدة ويتيمة وغلبانة ٠٠ وأنت وحدك تعلم ان كانت لا تزال على قيد الحياة أم صعدت روحها اليك ٠٠

وهكذا وهكذا خذ من صلوات جدتى ما تشاء دون ملل ، شغلتها تسبيحها ، نذرها بقية عمرها ان تظل تصلى وتستغفر عن ذنبها يوم فرطت فى دم ابنتها وألجأتها الى الهرب ، ان تظل بقية عمرها تصم الأذن عن كل مكروه حتى يرضى عنها الله ويسامحها ويسامح ابنتها التى لم تعد تعرف عنها خبرا أى خبر منذ سنوات وسنوات ٠٠

هذه المعاناة وهذا العناء كنت أستطيع أن أدفعه من عمرى لو أنه سيوصلنى بالفعل الى خالتى بسيمة أو يعرفنى شيئا حقيقيا عنها وعن مصيرها بحقائق دامغة ٠ الزمن وحده كان يستطيع أن ينسينى مسألة خالتى بسيمة الى الأبد ، لولا سببين قويين لم أكد أستطيع مقاومتهما ،

هذه الأغنية ·· وملامحى ، فالأغنية لا تزال تعيش كأنها تتحدانى وحتى · كذلك كلما ذهبت الى مكان فيه أقارب لى يطلع دائما من يقول لى : على فكرة انت شبه خالتك بسيمة تماما ··

اندهش قليلا ثم امتعض ، فكل أقاربى الكبار يؤكدون لى ان فى وجهى كثيرا جدا من دمائها وبعض رائحتها وخيلائها · حتى أمى أنا ، هى الأخرى كانت قد أحبتنى كما تقول ـ لهذا السبب نفسه مع انها هى نفسها لم تر أختها خالتى بسيمة ، انما جدتى قالت لها وهى تهشكنى اننى صورة طبق الأصل من خالته بسيمة · ولقد نشأت عندى عقدة قديمة خاصة بعد ان عرفت بشكل أو بأخر الوجه السيىء من سمعة خالتى بسيمة وأتوقع ان كل من يرانى حتى من الغرباء سوف يقولون لى : انت شبه خالتك بسيمة ··

لكن الطريف اننى ذات يوم ليس بالبعيد جلست أشرب شايا فى بوفيه الكلية فى العاصمة ، فصاحبتنى فتـاة لطيفة وجلست معى ، ثم راحت تتأمل فى ملامحى بامعان حتى خشيت ان تنطلق بالجملة المعهودة ، فاذا بها تنطق قائلة : « على فكرة انت فيك شبه كبير جدا من الفنانة رشا الخضرى ·· انت تقرب لها ؟ » · صعقتنى المفارقة فقلت ضاحكا : « لا والله ·· ولا تربطنى بها أى صلة ·· حتى أغانيها لا أحبها ·· وحتى صورها فى المجلات المصورة الملونة لا أحبها لما فيها من خلاعة وافتتان ·· ولا أظن اننى ساحبها فى يوم من الأيام » · ثم اننى ظللت أضحك شهور طويلة على حس هذه النكتة ، متخيلا اننى فى المستقبل قد التقى بمن يقول لى : انت شبه مارلين مونرو أو جاكلين كيندى ·· أليست هـذه مصيبة ؟ من سوء بختى لا يشبهوننى الا بالنسـاء ··

أترانى قريب الشبه بالنساء فعلا أم انها لعنة خالتى بسيمة ؟ · أغلب اليقين عندى اننى رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى · والتصاق شكلى بشكل خالتى بسيمة ليس معناه اننى نسائى الملامح والسلوك حتى يكون الشبه متطابقا الى هذا الحد ، بل ان معناه الحقيقى اننى دون الآخرين

قد انطبع على وجهى وعلى صدرى صليب خالتى بسيمة ، لقد كتب على الى الأبد أن أظل أبحث فيها وفى قضية تشردها ثم عودتها مقتولة على هذا النحو ٠

– ٢ –

واستطرد مأمون :

ترى هل يتذكر عبد الجبار اليوم هذه الأغنية ؟ انه لابد أن يكون قد سمعها من قبل ، فقد ألفت هذه الأغنية ابان فترة طلبه للعلم فى الثانوى أو فى الجامعة تقريبا ٠ كان ذلك فى أواخر الأربعينات ، وهو على الأرجح كان طالبا بكلية الهندسة ، التى دخلها بواسطة من الست هانم وكان يسافر ثلاث أو أربع أيام فى الاسبوع الى الاسكندرية ، ويعود الى شقته فى البندر ليبقى بعض أيام تحت امرة الست هانم وطلباتها التى لا تنفد ٠٠

اننى فى الواقع قد عجزت عن التحقق من تاريخ ميلاد الأغنية ، هل ألفت بعد هرب خالتى بسيمة مباشرة ؟ أم بعده بكثير ؟ أم فى أثناء بقائها فى القرية ؟ ٠ لكن المرجح عندى انها ألفت وتداولها الناس بمناسبة هرب خالتى بسيمة واختفائها عن الأنظار ٠ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان كثيرا من العقلاء والكبار الذين جذبوا احترام ، الناس ، كانوا اذا جاءته هذه السيرة صدفة بادروا بتصحيح تاريخ جوهرى ينفى عن عبد الجبار أى صلة له بالأغنية ، ويؤيدون ذلك قائلين ان عبد الجبار طول شبابه وصباه لم يعرف مسألة الحب والغرام هذه مع أى انسانة ، وانه كان شديد الأدب لا يرفع عينيه فى واجدة ، ويصلى الفرض بفرضه ، وأما الحادثة المزعومة التى رواها أبوه النقرزان فهى كذبة من قبيل التفاخر والفشخرة الكدابة ، أو هى زلة لسان ، والدليل على ذلك ان

النقرزان نفسه قد سئل بعد ذلك فى تلك الواقعة فنفاها تماما وأنب الذى سأله تأنيبا كاد يصل الى حد الضرب وقال : كيف يمكن أن يكون ابنى دنيئا الى هذا الحد ؟ ..

ومن ناحية ثالثة فان أدب عبد الجبار وحسن سلوكه مسألة يعترف بها الجميع من معاصريه وزملائه ، بل انهم يضربون به المثل فى الأدب والحياء اللذان يؤديان بالضرورة الى هذا النجاح وهذا التفوق . ولا يذكر أحد منهم أبدا انه سمع عن عبد الجبار كلمة سوء أو عرف عنه سلوكا يغضب الله .. الكذب خيبة يا جماعة ..

معنى ذلك أن شبهة وجود علاقة غرامية بين عبد الجبار وخالتى بسيمة فى زمن الصبا ، شبهة ضعيفة جدا ، أنا شخصيا لا أصدقهـا ولا أتصورها ، لسبب بسيط هو أن عبد الجبار منذ تخرجه فى كليـة الهندسة وحتى سنوات قريبة كان يعيش حياة مكشوفة للجميع وخاصة نحن أبناء قريته ، اذ أنه حين يريد أن يفعل شيئا بالغ السرية فانه يلجأ الى استراحته السرية فى قريتنا وهى على بعد عشر كيلو مترات منها ولا شىء حولها سوى حدائق وأسوار من داخلها حدائق وأسوار ..

والمرجح طبقا للواقع والمنطق أن تكون خالتى بسيمة مجرد حدث عارض مر به فى الطريق دون أن يترك فيه أو فيها أثرا ولكن خيال الجميع هو الذى حولها الى ملحمة ينفس بها عن أشياء خاصة بهم . على أية حال فلست معنيا بالبحث فى أمر هذه العلاقة الآن ، لثقتى من أن خالتى بسيمة وعبد الجبار قد ذهب كل منهما فى طريق يصعب فيه التلاقى .. فها هو ذا عبد الجبار يفتتح الطرق والكبارى والمنشآت ويعاشر ملوكا وأباطرة .. وها هى ذى خالتى بسيمة قد عادت كما ذهبت وجثتها ترقد الآن فى الثلاجة . أما مشوار خالتى بسيمة الذى قطعته طول حياتهـا فاننى غير ملم به ولا أعرف عنه أى شىء على الاطلاق .. أما مشوار عبد الجبار فهو نار على علم ، وقصة حياته وكفاحه انجيل يحفظه الأولاد . أنت لا تدرى مقدار الفرح فى البلدة يوم تخرجه ، حتى أبوه فى تلك الليلة

بسط يديه لأول مرة فى حياته ودفع نفقات من أجل الاحتفال بحصول ابنه على البكالوريوس ـ كلمة تدرب على نطقها كثيرا حتى أصبح له مذاق خاص فى نطقها ـ ولكن يقولون انه جلس ليلتها بجوار ابنه بين المحتفلين يعيد على رأسه صداعا : دفعت كذا لفلان تصور ؟ ·· وصرفت كذا فى كذا فتخيل ؟ ·· حتى هب فيه عبد الجبار كأنه يوبخ رجلا لا يعرفه : « يا أخى صدعتنا ·· اللى صرفته خده ع الصرمة ومتفلقناش » · فيعتذر الأب بكل كلاحـة قائلا : « لا ما أقصـدش · أنا بس باوريك معزتك عندى » ··

لكن عبده ـ وقد لقب بالباشمهندس من قبل تخرجه بسنوات لم يعد محتاجا لأحد من ذويه ـ ثم انه لن ينتظر الشغل يجىء لحد عنده ، سوف يذهب هو الى الشغل أينما كان · الغريب انه مع ذلك لم يسع الى الشغل أبدا ، لأن الشغل كان دائما يجىء لحد عنده بالفعل · ذلك انه قبل تخرجه بسنة كان ذاهبا الى تفتيش الوسية فرأى الناظر يساوم أحد البنائين على ترميم الاسطبل · فدخل بينهما ، وطرد البناء برفق شديد ثم اختلى بالناظر فأقنعه ان الاسطبل كله فى حاجة الى اعادة بناء على الطريقـة الحديثة ، وراح يكلمه بالأمتـار والمقاييس والمصطلحات الأجنبية البراقة التى يموت الأزارقة فى جلدهم عند سماعهـا ، حتى ارتعت الناظر ووافق راضيا · فاحتسب له التكاليف الشاملة ، ثم قبضها كاملة ، فهو مهندس شاب لا رأسمال لديه وهو سيخدم فقط · وظل الناظر ينتظر أن يجىء عمال ليهدموا الجدران كلها ليبدأ مكانهـا بناء جديد · ولكن ذلك لم يحدث ، كل ما هناك ان اثنين من عمال البناء حضرا بصحبة عربة أو اثنين من الطـوب ، وفهم الناظر فى الحال ان الباشمهندس ضحك عليه واستغفله حيث قبض ثمن عملية بدون عملية · لكنه بعد صباحين أو ثـلاث فوجىء بأن الاسطبل قد تغيرت كل معالمه بالفعل واتخذ شكلا جديدا ومدخلا جديدا وفراغات جديدة ، حيث قد أضيفت أبواب واختصرت شبابيك وبنيت أضلاع اتصلت بأضلاع ثم طلى

كل ذلك بالأسمنت والجير · فسافرت سمعته بذلك الى كل التفاتيش فى كل البلدان ··

وفور تخرجه كانت صـفقة من الجيش الانجليزى فى انتظاره ، عمليات فى جميع الوحدات ، والجيش فى حاجة دائما الى أبنية من جميع الأنواع والأحجام والأسعار وغرف المراقبة الى جانب انشاء طرق وتعبيد أخرى ورصف غيرهـا وهكذا من مقاولات لا تنفد · وكان للست هانم وزوجها دخلا كبيرا فى تعبيد الطرق أمام عبد الجبار فلم يشاركه أحد فى جميع احتياجات الجيش ومقاولاته · وحيث كان المفروض انه مهندس فحسب وانه سيحتاج لمقاولين يفهمون فى جزئيات التنفيذ واقتصادياته وأسعار مواده اذا به يدخل مهندسا مقاولا معا فى نفس الشخصية فى نفس الصفقة · وليس معنى ذلك ان العمليات التى قام بها لم يحتج الى مقاولين غيره من أهل المهن المتخصصة ، بل ان كل خصيصة قام بتنفيذها مقاول ما له أنفاره النوعيين الخصـــوصيين ، لكنهم جميعا مقاولون من الباطن ، من باطنه هو ، يكلفهم باعتباره صـــاحب العمل الأصلى ، أى بشخصية الجيش الانجليزى ، أى ان جميع الأجور وأسعار المواد تدفع ناقصة نسبة مخيفة وبطرق مبتكرة فى التهديد والتلويح بالقوة ··

شاطرا كان مخيفا ، لكأنه الشيطان تجسد فى حركات مادية لكنها لفرط ذكائها ودربتها وسرعتها تبدو مجرد اشـــارات لاسـلكية يبعثها ويستقبلها لتتحول بعد برهة الى ناس تهد أو تبنى أو تحفر أو تسفلت ، انه بارع فى خلق عمل يكدح فيه الجميع كدحا ويحصل هو وحده على أجره · ومشهورا كان الى حد النجومية فى جميع وحدات ومعسكرات الجيش الانجليزى على امتداد طول البلاد وعرضها ، وربما كان اتصاله برجال الثورة الأزرقية قد جاء من هنا اذ انه حسبما يشاع خدمهم فى أمر ما ··

لم يكن غبيا ليتجاهل ما حوله من حركات اجتماعية تناهض المحتل · لذلك فانه أراد أن يضرب المثل فى الوطنية · فجاء ذات يوم من بعثة

عمل خارج البلاد فى مدينة السويس ، كان رغم دمامة وجهه جميل الهندام لامع الشخصية ، هناك نمط فى بلادنا يلمع من بين ذوى الوجوه الدميمة أو العاهات ، فكثيرا ما ترى وجها دميما جدا توطن النفس على ألا يكون لك به صلة ، فاذا به حين يحدثك تكتشف لباقة وجمالا مغريا بتقليده وتقليد حتى نواقصه فى النطق أو عاداته المصاحبة للكلام وان كانت بذيئة • هكذا كان عبد الجبار حين دعى كل شبان البلدة فى دوار بيتهم • يومها نظر فى الشباب الحضور وأحس بسعادة فائقة اذ وجد بينهم شبانا من الوفديين والاخوان المسلمين ومن هم بلا انتماء ، فى الحال جمع ذهنه ، واستحضر خطبة يثق انها تعجب شبان الوفد كما تعجب شبان الاخوان ، أما الآخرون فان أى شيء سوف يعجبهم • وبالفعل صفق له هؤلاء وأولئك بكل حماس ، ذلك انه ردد كل شعارات الوفد والاخوان وأضاف اليها شعارات جديدة براقة يرفعها نفر من الوفد الجديد ومصر الفتاة والماركسيين • فتعالى الهتاف يشق الفضاء الساكن • واذا هدأ الهتاف شرع هو فى طرح اقتراحه : بتكوين جمعية من الفدائيين تعمل لحماية الوطن واقلاق راحة الغزاة ، ولم يجىء بسيرة الانجليز أبدا رغم انه كرر كلمات الغزاة والمحتل الأجنبى والاستعمار وما الى ذلك من ألفاظ كانت مستحدثة فى قاموس الحياة والكلام اليومى ••

واذا كان المفروض ان مثل هذه الجمعيات يدفع أعضاؤها اشتراكات فان جمعيته لن يكون مطلوبا من أعضائها ثمة اشتراكات ، لأنه ـ سى عبد ـ سيتكفل بوضع رأسمال للجمعية من جيبه الخاص • فيتعالى التصفيق والهتاف مرة أخرى لبلدهم • ثم انه بدأ فى الحال فافتتح باب الانضمام وتطوع ولد من أقاربه بتحضير كشف امتلأ عن آخره بأسماء الأعضاء • وهنا وقعوا جميعا على أوراق ولوائح وقال لهم عبده ان هذه الجمعية التأسيسية وانهم بعد ذلك يجب أن يضعوا شروطا وقيودا للانضمام تمنع عن الجمعية أعدادا من الانتهازيين والتافهين فأحس الأعضاء بزهو كبير جدا ونفخوا صدورهم من الفرح ••

اشتهرت الجمعية فى نطاق المديرية كلها وأصبح الانضمام اليها بين شباب القرى نوعا من الشهادة بحسن المستوى فى فهم النضـــال والعمل السياسى المثقف ، الذى ينبذ شغل العصابات والتخريب ويميل الى فلسفة الشغل البناء ، ان فلسفة الجمعية وشعارها المسجل : « اعمل فى وقت فراغك ·· حتى لو لصالح عدوك » ، والمذكرات التفسيرية لهذا الشعار يحفظها نجباء الأعضاء من الشبان القياديين ويطنبون فى مدح عقيدتهم التى هى فى الأصل تقديس للعمل الذى يحبه الله خاصة وان المستعمر سوف يجلو ذات يوم من البلاد فتئول ملكية هذه الأبنية الينا · وعلى هذا فقد انضم الى الجمعية شبان من الأعيان والخياطين والنجارين والبرادعية والتجار ··

ثم ان الأمر سار بعد ذلك على نحو طريف ، حيث قسمت الجمعية الى فرق بحسب نوعية الصناعة والمهنة ، أطلق على كل فرقة اسم له معنى سياسى ، فهذه فرقة دك الاستعمار أى الفلاحين ، وهذه فرقة تنفيض البلاد من غبار المستعمر ـ أى البرادعية والمنجدين ، وهذه فرقة مسح اللوح من قدم الدخيل ـ أى النجارين · وهكذا وهكذا ثم عين عبد الجبار لكل فرقة قائدا أعطاه سلطاته العليا بحيث لاراد لكلامه أو ابطاء فى تنفيذ أوامره ·· فنحن لا نلعب ، انما نحن نعمل عملا خطيرا يتعلق بالمصير · شهورا وراء شهور من التنظيمات والانتخابات زاط فيها الأولاد واحلو منظرهم وقد اندمجوا فجأة فى جدية رجولية رصينة غير مازحة ، ويدعون لأنفسهم ويتناقشون بعبارات فصيحة براقة ويخلبون لب الأباء ويمارسون الاحساس الجميل بالانشغال ولمعان النجوم فى الآفاق ··

بعد أن تهيأ كل ذلك أذيع ان عبد الجبار سوف يجىء ليجتمع بهم لتوزيع خطط العمل الفدائى عليهم · وكانوا وخاصة قوادهم وهم ينشرون خبر مجيئه لهذا الغرض يحسون بارتجافة القلب لخفقة سريعة عميقة كلما شعروا باقتراب اللحظة الفعلية التى تتحقق فيها كلمة فدائى هذه ببريقهـا المتوهج فى خيالهم ، يحسون وكأنهـا لحظة الموت واقفة فى

انتظارهم حيث هم يسعون اليها بظلفهم ، لكنهم سرعان ما ينسون هذه هذه اللحظة حتى لا تهتز شخصياتهم أمام الآخرين بعد كل هذه الدعاية والخطب ·· يا الهى كم حمل هذا الأثير من خطب تنو ء بحملها الجبال ··

المهم ان عبد الجبار جاء بعد أن رسم لنفسه المقدمة المناسبة التى ابتدعوا لها تسميات أجنبية جديدة كأن يسمونهـــا « البرستيج » · ومعناها أن يأخذ النجم وضعه اللائق به من تكريم الجماعة واستقبالهم · وعبد الجبار نجم سابق من صغره ، ابتداء من كونه يتعلم فى الخارج ، مرورا بكونه يستغنى عن ثراء أبيه ، ويضع لنفسه ثراء وهذه ميزة وكل الأباء يشجعون عليهـــا ، وانتهـاء بحادثة خالتى بسيمة التى أشاعهـا النقرزان ، وفى ذلك الوقت ساهمت في شهرته كأنه من أبطال الحواديت الغرامية ، نعم فلقد كانت هذه الأغنية قد ساهمت بقدر كبير فى تهيأة الشباب كلهم للاقتداء به وتقليده على الرغم من أن مغزاها الأصلى هو وصم عبد الجبار بسوء السلوك ، الا أن الأغنية ـ رايحة فين يا بسيمة ـ غطت هذا الجانب فظهر عبد الجبار فى خيـــال أولاد قريته كأنه نجم أسطورى من نجوم المواويل · أليس غريبا وطريفا ان الأغنية التى ألفت للتنديد بسلوك فتاة خاطئة مارقة ، بهدف تبشيع فعلتهـا وفعلته فى أنظار كافة البنات والصبيان ، أليس من الغريب انها تضفى على عبد الجبار نوعا من النبل رغم نذالة موقفه ، وتخلق منه مثلا يلوذ به الشباب ؟ ··

أيا ما كان الأمر فان عبد الجبـــار خطب فى الأولاد يومهـا خطبة رسمت وجهة نظر الجمعية وطريقة تنفيذ عملياتهـــا · ان فلسفة العمل فى الجمعية هى ـ بعد تقديس فكرة العمل أولا : « اعرف عدوك » ، وبناء على هذه الفلسفة فان طريق العمل يكون : التسلل الى قلب العدو والعمل من داخله · ولهذا فقد قرر وضـــع خطة بأن تقوم كافة فرق الجمعية بالانتشار بين أضلاع العدو وفى أحشاء حياته ، لكى يتجسسوا عليه ويجمعون أخبارا ومعلومات معينة يبلغونها لرئيس الفرقة الذى يبلغها بدوره لرئيس الجمعية أولا بأول ، كى يتولى ـ بناء عليها ـ وضع خطط لابادة جنود العدو واثارة جنونهم ··

حينذاك أحس القواد بفرح عظيم انبسطت له أساريرهم وضاعت الخفقة القلبية المفزعة حيث اتضح لهم أن العمل الفدائى ليس بالعنف الذى كانوا يتصـــورونه ، فأكدوا له أنهم وفرقهم تحت امرته فى كل لحظة ٠ فوزع على كل قائد مبلغا من النقود السميكة المخزخشة فى بهجة وقال لهم ان هذا هو تموين الفرق وعلى كل قائد أن يطعم به فريقه طوال أيام العمل ، وانه قد حسب جيدا حجم النفقات التى يمكن أن تصرفها كل فرقة فى الأكل والشرب والدخان والفسح ، وازاد عليه ما يفيض بعد النفقات ، ومع ذلك فان احتاجـوا لشىء آخـر فليتصـلوا بأحد رجاله فى أى مكان ٠٠

وهكذا بدأ العمل ، اذ جاءت عربة جرار فأقلتهم جميعا ثم وزعتهم على أماكن متعددة متباعدة جدا ٠ ثم ان كل فرقة منهم فوجئت بأنها جاءت لتعمل عملا بحق وحقيقى فى معسكرات الجيش الانجليزى ومنشآته ، وبغاية القسوة ، حيث يتأمر عليهم جنود وضباط وناس لا هم بالجنود ولا بالضباط ولكنهم يشوطون فيهم بالشلاليت وبنفس البذاءة يشتمون أمهاتهم ٠ وفى البداية قالوا لأنفسهم انهم لو كانوا يعملون هذا العمل فى غير هذا المكان بالأجر لما رضـــوا بالصبر على هذا الظلم ، فشحنهم القواد بأن العمل الوطنى ليس لعبة وأن عليهم أن يصبروا فى سبيل جمع معلومات وأخبار تفيد قضية الوطن ٠ فاستأنفوا الصبر ٠ وعـاد الطلاب منهم الى مدارسهم ثم رجعوا ثانية فى فترة الأجازة اذ هم على الأقل يأكلون ويشربون ويشاهدون أشياء جديدة تنسيهم بعض الشىء قسوة العمل ٠٠

لكن الصبر طال وطال ٠ وفوجئوا جميعا ولكن على حد بأن قسوة العمل وعرقه تهد حيلهم وتحيلهم الى خرق بالية ترتمى على الفراش فاقدة الوعى لا هى جمعت معلومات ولا هى مؤهلة لجمع شىء ، ثم ان المعلومات التى بهرهم فى الأول انهم يعرفونها ويدخرونها لابلاغها مصاغة الصياغة المناسبة اكتشفوا بطول البقاء انها ليست تدخل فى نطاق المعلومات أصلا انما هى تفاصيل واقع يومى كبير وعاث ٠ وحتى الأذكيـاء منهم الذين

جمعوا بالفعل ما يسمى بالمعلومات أنســاهم الارهــاق جميع المعلومات والمعارف التى حصلها طول حياته ٠ الا أن الزمن كان قد طال بهم على حبلين ينفتلان على المدى البعيد فى حبل واحد ، فالشعور بالخطأ والتمرد يأخذ وقتا حتى يقتنع الفرد باعلانه اذ هو موهوم لا يزال بقضية الوطن . ومعنى تمرده على العمل ها هنا انه يبيع قضية الوطن ويفرط فيها ٠ ولابد أن يمر وقت طويل حتى ينتقل نفس الشعور من فرد الى فرد ومن فرقة الى فرقة ، اذ انهم كشراذم متباعدة يظلون موهومين ببطولة الآخرين . ثم ان الشعور بأنهم لا يجدون الأكل فى الخلاء المدنى كانت تغذية فى نفوسهم أخبار وافدة تقول بأن البلاد لم يعد فيها عمل ، لم يعد فيها خير ، لم يعد فيها انسانية ، وكان ثمة قوة اعلامية مجهولة تريد أن ترسخ فى اعتقادهم ان البقاء فى هذه المنافى هو أعظم اختيار بالنسبة لهم ٠

لكن الثورة المصرية المباركة حين قامت اشاعت فى الشرق الأزرق نورا وحرية ٠٠ وأراحت اخواننا من اعلان التمرد على عبد الجبار والتنكر لقضية الوطن٠اذ ما لبثت الثورة الأزرقية أن قامت فى اثرها ٠ وبفضلها عرف اخواننا هؤلاء ان عبد الجبار لم يكن فى الواقع زعيما وطنيا كما أوهمهم ، انمــا هو مجرد مقــاول للأنفار ، عرفوا ذلك من الثورة التى أشاعتها الثورة المصرية فى المنطقة ، فجرائد كثيرة تفضح العملاء وكتب زهيدة الثمن تنقل المعلومات والمعارف الواسعة واذاعات توصلهم بالعلم عبر مؤشر كعــود الكبريت ٠ ثم ان الزمن أخـــذ يجرى كالاكسبريس لا يتوقف أمام صـــغار المحطات ، وفى كل يوم أنبــاء جديدة متجددة وأحداث مهولة واقعة ، وجبابرة تنهزم فى لمح البصر ، وعائلات كبيرة متسلطة تنخلع أظافرها ، وقد نسى النــاس لبعضهم البعض كثيرا من الأحقاد والثارات ، ومن بينها ثأرهم لدى عبد الجبار الذى باعهم للعدو خدما أذلاء وقبض هو ثمن المقاولة ٠

على ان البعض كان يستبد به الحقــد فيفكر ، فى الانتقـــام من عبد الجبار ، فيظل عمرا طويلا فى حالة جنونية دنيكشوتية ٠ ورغم ذلك كان ثمة من يرى هذه الحالة منتشرة ويظل هو الآخر يسير اليها بالتهديد

المتواصل والصوت المرتفع · ذلك ان ثمة أملا فى الواقع كان يداعب خيالهم ، اذ يتوهم الواحد منهم ان صوته وتهديده قد يبلغ أذن عبد الجبار فيطلبه ويعينه فى عمل مريح كما فعل مع معظم قواده ··

« ما يدير الرأس حقا أننى التقيت بواحد من قواده السابقين يعمل فى وظيفة كبيرة جدا فى احدى شركات سى عبده ، وجاذبته الحديث بلطف متوقعا أنه يعرف عبد الجبار حق المعرفة ويلتقى به كثيرا ، فاذا به ـ وهو فى عمر أبى ـ يقول لى بنبرة صادقة أن عبد الجبار لا يعرفه ، اذ أنه لم يره منذ ذلك التاريخ الذى مات واندفن ، وأنه عين فى احدى شركات بواسطة من أحد رجال الثورة الأزرقية ،وانه فى المرات العديدة التى التقى به فيها رفض عبد الجبار أن يتذكره أو يتذكر أنه كان يوما واحدا من قواده » ·

ـ ٣ ـ

ابتعد مأمون كثيرا حيث راح يسرع فى خطوه وأنا ألهث خلفه كأننى أبحث عن خيط الحديث الذى انقطع · وكان ايقاع نبض مأمون قد ارتفع فجأة فيما هو يغز السير عدوا · فنظرت حولى فعرفت أننا قد سرنا مسافات شاسعة كفيلة بافساد موتور عربة فيات ٢٨ ، حتى لقد غادرنا القرية وعديدا من القرى وصرنا فى البندر حيث يوجد مركز الشرطة · أخذت أهوهو ، وناس تقذفنى بالحجارة دونما سبب فأعود ، والشمس كالبيضة فقست على أديم السماء فتناثر صفارها وأطل منه رأس الكتكوت مشتعلا · رغم أننى مشيت منزويا مهزوما فان طائفة من الكلاب الطائعة هرولت نحوى بأقصى سرعة ناشرة عدوى الحماس بين الآخرين ، فاذا هم يحيطوننى وينهالون على تمزيقا وتلطيشا ، وصوت عوائى لا يبلغ اذن مأمون ، الذى ابتعد عنى كثيرا بل دخل فى مبنى متميز الشكل ··

من فضل الله يوجد دائمـا من يظهر فى لحظات النهش النابحـة ليقول : « امشى ·· بس يا كلب منك له » ثم يفض الاشتباك بطوبة أو ببوز حذائه أو بشومة غليظة · فما أن حدث هذا حتى اندفعت أجرى مهيض الساق أرفعها من الألم · ولقد استغربت من فرط الألم أن يوجد كل هذا السرب من الكلاب الضالة فى هذه البقعة وحدها رغم أننا لسنا فى منطقة سوق مثلا تكثر فيه العظام والنفايات · لكننى بعد أقل من برهة عرفت السبب الذى جمعهم ها هنا · ثم ضحكت ، اذ وضح لى أن تقبهم على شونة ، ولسوف يظلون هكذا بجهلهم يحرسون وهما بولائم قادمة عما قليل . والوهم مبنى على هذه الرائحة التى تسللت الى خياشيمى وهى ذات نكهة ليست فقط فاتحة للشهية بل للشراسة والسعار ، تلك هى رائحة الجيفة ، التى توجد ها هنا مبطنة برائحة ما أعرف أنه عقار اسمه الفورمالين ··

هى عادتى وليس لى خيار فيها : أن أنجذب بدورى نحو هذه الرائحة انجذابا أين منه انجذاب المتصوفة ، يسيل لعابى ويحدونى الشوق الى الخيال البديع فى أكلة دسمة تاريخية · لم يكن ثمة بيوت كثيرة فالمدينة الحقيقية لا تزال تظهر صغيرة من بعيد · عند بيت معين يقف فى الخلاء بعيدا توقفت وقد أسكرتنى نكهة الرائحة تماما · فقفزت داخلا ، فاذا ببوز حذاء حديدى يشوطنى فى فمى ، فاندفعت أصرخ من الألم واندفعت أجرى فزعا بدون وعى · حتى اذا ما صرت بعيدا بعض الشىء هويت أعوى وأتأوه وأبكى ، واذا بكلب عجوز لطيف الشكل يهرول نحوى · فقدرت أن منظرى فى محنتى سوف يرد عدوانه عنى · لكن الكلب العجوز كان لطيفا بحق ، اذ راح يتشمم جرحى ويلعق بعض ما يسيل من دم · وكان حريا بأن يواصل اللعق بلذة فائقة ، أما وقد اكتشف أنها دماء كلب مثله فقد اشمأز ومسح لسانه فى الأرض وفى فروتى ، ثم رفع أماميتيه وربت على ظهرى فى رفق قائلا بحنان أبوى : « أصل مفش ·· غبى ·· جاى مندفع كده منتاش عارف انت داخل فين ·· دى المشرحة يا حمار ·· اللى بيخزنوا فيها جثث أسيادنا الآدميين ·· ع العموم تعيش وتاخد

غيرها .. قوم » . فأخذت أحاول النهوض والنار تلسعنى فمكث العجوز يتأملنى برهة طويلة مشفقا على ثم أومأ لى بالانتظار حتى أستريح ..

وفيمـا أنا ألهث وأتأوه رأيتنى فجأة أنتفض حيث شممت رائحة الأسطى حسنين وروائح أخرى أعرفها جيدا . اعتدلت جالسا أترنح ، يقف شعرى ، اذا بى أرى الجد خليل بذات نفسه ـ جد مأمون ـ يلف حول مبنى المشرحة ، ويتلكأ ، وبيده جهاز تسجيل ، وصوت أحمد عدوية يلعلع قائلا : سلامتها أم حسن .. وخلفها مباشرة جملة من غناء سيف الماوردى ، فما يكاد سيف يستطرد مغنيا حتى تركب عليه رشا الخضرى ، كأن يدا تلعب بمؤشر المحطات . لكن الجد خليل كان يتلفت حواليـه كالمطارد ، ويحاول الاختباء عن عيون تراقبه فى الخفاء ، ثم اذا به يختفى فجأة كأن الأرض انشقت وابتلعته . بعدها بلحظات طويلة ظهر مأمون خارجا من المشرحة وهو يجفف دموعه ويبدو أنه مهـان حتى النخاع . فأخذت أعوى فى طلبه ، فانتبه الى ، فجاء يعزينى فى بلواى . وجلس يتفحص فكى ويجفف الدم بمنديله ، وأنا ألوى بوزى صائحا ليس من الألم ولكن لأنبهه الى أن الأسطى حسنين الذى أحضر جثة خالته بسيمة قد مر من هنا الآن وها هو ذا يمشى بصحبة بعض المخبرين وضبـاط الشرطة . لكن مأمون كان مستغرقا تماما فى تطبيب جرحى ..

ثم أنه أشار لى فتبعته الى مبنى المشرحة من جديد حيث يقف مأمون مع تمورجى عجوز فينفحه سيجارة سوبر لم يجد فى العلبة غيرها لنفسه فرماها وزعم أنه معه علبة أخرى . وكنت أحس كأنه يرشو هذا الرجل الطيب لكى يترفق بجثمان خالته فلا يعرضها للامتهان . وهو لم يقل هذا طبعا ، لكن التمورجى فهم من تلقاء نفســه ما يسعى اليه مأمون بواسطة السيجارة فصار يطمئنه على جثة المرحومة ويزعم أنها فى الحفظ والصون كأنها أخته . وهنا بكى مأمون لا أدرى لم ؟ فقال التمورجى وهو يتجاهل بكاء مأمون أن عليه ان كان يريد استلام الجثة حقا ودفنها على مسئوليته فى مقابر العائلة فعليه أن يسرع فى اتخاذ الاجراءات والحصول

على التصاريح اللازمة والا فبعد ساعات قليلة سيؤمر بدفنها فى مقابر الصـــدقة فبكى مأمون من جديد ولكن فى تشنجات متقطعة جارفة ، وينزرد وجهه الجميل ويزداد حمرة ، وتمتلىء عيناه الجميلتان ــ الجميلتان حقا ــ بدموع تسبح فى خـوف وضعف واسترحام واستيغاث ٠ وهنا شـــوح التمورجى قائلا : « يوه بقى ٠٠ ما تخليك راجل امال حتعمل الحاجات دى كلها ازاى ؟ ٠٠ مش تفوق كده وتروق ؟ » ٠ ثم استدار وانصرف ٠٠

وقف مأمون حائرا عاجزا ، وقال من بين شهقاته المكتومة انه ذهب الى مركز الشرطة فلم يجد به أحدا فماذا عليه أن يفعل الآن ؟ ٠٠

ثم انه اتجه الى مبنى يقع فى نفس الاتجاه الذى تقع فيه المشرحة ولكن الى بعيد قرب مدخل المدينة فاذا به مركز الشرطة ٠ دخلنا نركض على حذر فى طرقة مظلمة كابية مليئة بالحجرات المكتوب عليها أسماء رتب شاغليها ٠ توقفنا فى حجرة النوبتجى القصـــير ذى الشـــوارب المتراقصة دوما ٠ وكان يتهيأ لغفوة حين دخلنا ، فأشار الى مأمون فى احترام أن يأتى ٠ فذهبنا اليه ، فقال له : « يابنى لا تتعب نفســك اليوم ٠ فالجميع ها هنا مشـغول اليوم باعداد المراسيم لاســـتقبال عبد الجبار بيك ٠٠ اليوم لن تجد أحدا يعاونك على تحقيق أو استصدار تصاريح النيابة والطبيب الشرعى وما تعرفه من ذلك ٠٠ اتكل على الله يا ولدى » ٠٠

وكان لابد لمأمون أن يتكل على الله وينصرف تاركا لدموعه العنان ، لكنه ارتد خطوة وسأل الشـاويش النوبتجى عن سبب هـذه الزيارة المفاجئة التى يقوم بها عبد الجبار فى المنطقة ؟ ٠ فنظر اليه الشاويش النوبتجى فى استنكار كأنه يتهمه بالجهل ، وفعلا نطقهـا ولكن بلطف قائلا : « انت حضرتك منتاش عايش فى البلد ؟ ٠٠ عبد الجبار كل يوم والثانى هنا بيفتح مشاريع استثمارية تخدم المنطقة تخدم خطط التنمية ٠٠ وتقول ما المناسبة ؟ ٠٠ انه لا يمر اسبوع الا ويزور المنطقة لسبب من

الأسباب » • ثم أهمل مأمون كأنه سحب تقديره السابق له • ومرة أخرى وقف مأمون عاجزا لا يملك حتى السيطرة على دموعه ••

ـ ٤ ـ

قال مأمـون :

ـ « قلت لك أن فتاة من زميلاتى فى الكلية فاجأتنى ذات يوم قائلة أن فى شبها كبيرا من المطربة رشا الخضرى • أقول لك الحق ، يومها كنت أوافق الفتاة لعل ذلك النسب يكون سببا فى علاقة حلوة أقيمها مع الفتاة فأنا من فرط الجفاف الذى أعيشه وانعدام الأصدقاء فى كل مكان أصبحت أشتاق لمثل هذه العلاقات ، ويا حبذا لو كانت فتاة سمراء خمرية مثل هذه • لكن أقسم بأننى اغتظت من تشبيهى بواحدة كرشا الخضرى • يومها تأملت فى وجه الفتاة برهة اقتنعت خلالها بأن النعيم كله يمكن أن يتواجد لى بجوارها • وخطر لى أن أكذب ، الا أنفى ، والا أؤكد ، لكننى استنكفت •• رشا الخضرى ؟ •• تلك المهربة التى صنعوا منها مطربة لأنها مجرد خادمة سرير لأحد رجال الثورة الأزرقية ؟ ••

« لكن الفتاة لم تقتنع برفضى • فعادت مرة أخرى وسألتنى • وكنت أحس أنها دبرت لاصطيادى فى البوفيه وحدى ، وكان احساسى بذلك يسعدنى ويشعل نار الشبق فى نفسى • فوطنت النفس على الاحتفاظ بها • ورأيتنى رغما عنى ورغم احتقارى لشخصية رشا الخضرى وللانتماء اليها بأى سبب ، أحاول الغاء المسحة الفلاحية الخشنة عن مظهرى ليكون انتسابى لرشا الخضرى قابلا للتصديق ثم اننى طلبت للفتاة قهوة رغم عدم تأكدى من اكتمال ثمن القهوتين في جيبى ، ودعوت الفتاة للجلوس قائلا : « أظن حضرتك وجهت الى هذا السؤال من قبل » • ثم ابتسمت هى الأخرى ودققت النظر فى عينى بعينين ساحرتين متشككتين فى كل

ما سأقوله مقدما ، ثم قالت : « مفيش داعى للانكار ‥ تنكر ليه ؟ ‥ أنا عارفه الحساسية اللى عندك ‥ لكن مهما كان الانسان مايتنكرش لقرايبه » • انجعصت بقهوتى كالرجال المهمين قائلا : « معناه ايه الكلام ده ؟ » فتلعثمت هى قليلا ، ثم انطلقت فى الحديث بكل سهولة وجرأة قائلة ان موقف رشا الخضرى من بعض رجال الثورة الأزرقية وموقف رجال الثورة الأزرقية من بعضهم البعض فى الآونة الأخيرة ثم ما يشاع عنها من اشتغالها بالتهريب لصالحها ولصالح بعض المهربين الكبار من تجار المخدرات أو المتاجرين بمناصبهم ، كل ذلك يشكل حساسية خطيرة أى نعم ولكننا ـ هى وأنا ـ جيل آخر ليس علينا أن نحمل وزر ومسئولية جيل أكبر خاصة اذا كانت شخصية انحرافية ‥

« ارتعشت ، حتى لقد خيل الى أننى قريب لرشا الخضرى بالفعل ، وكلام الفتاة الجميلة وصدق لهجتها فيهما قدر كبير من الجاذبية • ولقد انجذبت اليها بالفعل فتركتها تنساب فى الحديث وأنا أومىء بالموافقة أو التأييد المؤقت من حين الى حين كأننى فى موقف أقارب رشا الخضرى بالفعل • ثم أن الفتاة الجميلة شربت آخر رشـفة فى الفنجان وهزته وقلبته فوق الطبق ثم نظرت فيه بانفعال عميق ثم قلبته على وجهه ثانية ونهضت قائلة كأنها تأمر خادمها : « قوم » لكنه أمر رقيق حتى ليرحب الانسان أن يكون خادمه بالفعل • أحسست بوجهى ركية نار ولسانى يخرج منها منسلخا : « يعنى ايه أقوم ؟ • قالت بابتسـامة خطيرة : « عايزاك » • ما أجمل هذه الكلمة بل ما أسعدها • قلت : « حاضر » ونهضت واقفا أعدل فى بنطلونى الكتان المتقيح عند الركبتين ، وأضع يدى فى جيبى وأتركها تروح وتجىء بحثا عن القروش والملاليم ، وركية النار تصاعد ألسنتها الى رأسى فتطلق لهبا خارقا ‥

« قالت الفتاة باسمة ساخرة فى براءة : « انت بتعمل ايه ؟ » • فلم أراد ، انمـا أوهمتها أننى انتهيت من البحث بأن أمسـكت ورقة الحساب وتقدمت نحو الآلة الحاسبة التى تتركنى فتاتها أشرب أولا ثم

أدفع بعد ذلك . امتدت يد الفتاة الجميلة على كتفي كالخساية وسحبتني من قفاي قائلة : « رايح فين؟ » التفتت ركبة النار اليها بعينين ملتهبتين ولسان يقول من حلق جاف : « حادفع الحساب » . فامتدت يدها وعدلتني في مواجهتها . ورغم أني فكرت في الثورة عليها بغضب فانني ما أن واجهتها حتى أسعدني كل السعادة أن تلعب معي هذه الصبية الفائرة الناضجة الثمينة كما نلعب في الحارة طفلين سعيدين . قالت : « اللي يقعد معاية مايدفعش حسابات .. انت نايم ولا ايه ؟ » كان المزاح في عينيها وملامحها الجميلة السمراء ، لكنني نظرت ثانية لعاملة الآلة الحاسبة فقالت لي : « الحساب وصل » فاغتظت ، واتجهت اليها قائلا : « وصل امتى بقى .. لا لا أنا لازم أدفع .. أنا اللي عازم » . قالت عاملة الآلة وهي تميل على أذني ان هذه هي الآنسة « راندا » ، وهي صاحبة كل شيء ها هنا لو عزمت الجامعة كلها فلن تدفع ، ان رأسمال البوفيه كله من تبرعها ، فضــلا عن التأسيس ، أما بقشيشاتهم فلها معدل آخر ..

« ظننتها تمزح هي الأخرى وانني وقعت ضحية لفتاتين شقيتين تريدان الهزء بي كفلاح متواضع انما هو طالع فيها حبتين كما يقولون .. لولا أنني واثق من عاملة الآلة فهي صديقتي الحميمة التي تحدثني كلما انفردت بي عن نفسها وأهلها وزملائها حديث العارف الخبير كأنها وكالة أنباء كاملة . وأكدت عاملة الآلة انها لا تمزح ، وانني من الآن لن أدفع شيئا ثمنا لأي شيء أطلبه من البوفيه طالما ان قد ظهر أنني من أصدقاء الآنسة « راندا » وما أقلهم . وقفت مذهولا لبرهة . وكانت الآنسة « راندا » قد سبقتني متقـــدمة ببطء نحــو البــاب واضعة يديهــا في خاصرتيها ، فبدت كأن الله يستهدفني بابداعه المذهل يريد أن يصرعني قتيلا في الحال ، وكل هذه الفتنة الدسمة العميقة لم تبلغ العشرين من عمرهــا بعد . قلت : « لحظة واحدة من فضلك يا آنســة راندا » ، واستدرت أنظر في المرآة المجاورة لعاملة الآلة وهي تتابعني بوجه جميل أيضا لكن نصفه حاقد ونصفه مسحوق ، ثم تقول لي في همس ينبيء

عن كثير من التمنى : « حضرتك ماتعرفهاش ولا ايه ·· دى بنت أخت عبد الجبار بيك ·· انها الوحيدة اللى عايشه معاه على طول ·· حتى أبو راندا عايش معاهم فى نفس البيت ·· أصـــل عبد الجبار بيك مبيآمنش حد على نفسه غيرها » · وبعد أن أطلت مدة تسريح شعرى قليلا ريثما تنتهى عاملة الآلة من حديثها الهامس استدرت مجيبا اياها بهزة رأسى وابتسامة كالعـادة ، ثم مضيت خلف الآنسة رانـدا كأننى أرقص فوق أرض من الفلين ··

« مضيت بجوارها صامتا كالمقبوض عليه فى سرقة غسيل الجيران · تمنيت لو أن عاملة الآلة لم تقل لى شيئا عن راندا · لقد استأت جدا من هذه المعلومات ولذلك فقد صدمت وأحسست كأن سعادتى أصبحت محـدودة جدا . وكل الطرق فيهـا مسدودة · على اننى رحت أختلس النظرات الى جسد « راندا » كأننى أبحث عن تصور لشخصية أمها التى نسمع عنها فى قريتنا من قديم كأنها أسطورة هى الأخرى ، فأم راندا هى أسعد أخوتها جميعا خاصة البنات لأنها ولدت فى زمن توقفت فيه الأم عن الولادة وظنت أن قدرتهـــا قـد انتهت ، لذلك حينما ولدت « فهيمة » أم « راندا » كان الخبر قد اخضـوضر فى كل أنحاء الأسرة وصاروا يسعدون بأى قادم جديد يشاركهم كل هذا الهناء والنعيم · وقد تسلم عبد الجبار شقيقته فهيمة تلك وهو على مشارف النجومية لتتولى خدمته ، فأحضر لها المدرسين والضيوف من علية القوم حتى جعلوا منها سيدة بمعنى الكلمة · فلما تزوج عبد الجبـار لم يكن قد اكتشف أن أخته « فهيمة » قد أصبحت منه بمنزلة الأم أو أكبر ، اذ هى فى نظره أحلى من رأى ومن عاشر فى حياته ، هى الوحيدة التى تفهمه على حقيقته ولا تؤنبه ولا تشيل منه ولا تلوى بوزها ، الوحيدة التى تفهم طلباته ومزاجه ولغته وسلوكه ، وتتعامل معها بكفاءة عالية حتى أصبح وجودها أمرا جوهريا فى قلب داره ، لدرجة انها تزوجت واحدا أليفا طيبا من نفس العائلة يعيش معهم فى نفس البيت ومنصبه أنه تقريبا شبه حارس لعبد الجبار فى سفرياته ··

« وصيت « فهيمة » أم « راندا » يدوى فى قريتنا ليل نهـار من خلال عائلتهم الكبيرة المتسعة باستمرار • فنسمع من حين الى حين أنها أمرت ببناء كذا وفعل كذا ، وأن عبد الجبار حين عرضت عليه الوزارة ذات يوم رفضها لولا أن فهيمة أقنعته بالموافقة فى آخر لحظة ، وهكذا وهكذا • هذه اذن هى « راندا » بنت « فهيمة » ؟ •• أى خيال هذا ؟ •• لكنه مع الأسف خيال سقيم اذ أنه سيهوى بى من حالق بعد لحظات قليلة مصطدما بصخور الواقع • اننى مستعد لدفع عمرى كله دون قيد أو شرط اذا كان ذلك فى جوار الآنسة راندا ، الوديعة الرقيقة المشعة بالسحر • ها أنذا أمشى بجوارها والكل يرانى سائرا بجوارها فيقذفوننى بنظرات ثاقبة مستطلعة مندهشة حاقدة متشككة مراقبة • وأنا أنتهز أى فرصة فأرسل التحيات والسـلامات وأبتسم خجلا كأننى أقول علنا : لا تحسدوننى على شىء فأنا فى سراب واضـح المعالم وكذبة مبنية على افتراء محض •• ان الآنسة راندا أيها السادة أقامت جسر الود معى متوهمة اننى أحد أقارب المطربة المبتذلة الشهيرة رشا الخضرى وأنا ليس يرضينى هذا الشرف • ثم استطرد فى نفس ساخرا : ماذا تكون صورتى بعد هذه الحفاوة لو علمت الآنسة راندا اننى ابن واحد من دهماء قريتهم التى لم ترها هى تقريبا فى حياتهـا بل ماذا لو علمت اننى من عائلة بسيمة التى لا شك سمعت أمها بسيرتها أو سمعت على الأقل بالأغنية المشهورة ومناسبتها ••

« كنت فى دوامة عميقة شـديدة الدوار • فرغم أننى من زوار البوفيه باعتبارى ريفى مغترب الا أننى لم أكن قد لاحظت الآنسة راندا أو سمعت عنهـا قبل أن تقتحمنى هى أول مرة • وها أنذا أرى اننى سأسمع الكثير بعد ذلك فى البوفيه وفى المدرجات عن سيرتى •

« تجاوزنا سـور الكلية ، واكتشفت أن « راندا » طوال الطريق تحييني وتبتسم لعشرات ينحنون لها تبجيلا • فما أن صرنا على رصيف الكليـة من الخارج حتى هرع المنادى مهرولا نحو سـيارة مرسـيدس تمساحة صار يمسح زجاجها ويطوقها بالفوطة ثم فتـح البأب فتقدمت

« راندا » وهزت رأسها شاكرة ثم ركبت فيما هى تشير لى أن أركب ٠ ففتحت الباب وركبت بجوارها وقد ارتفعت فروة رأسى واقشعر جلدى من فرط اللذة برائحة الأنثى فى العطر الفاخر ورائحة مقاعد السيارة ٠ علب من السجائر الآجنبية متناثرة فى اهمال حول الكراسى ٠ أخرجت علبتى السوبر التى تفعصت وتكرمشت وأخرجت منها سيجارة كالدودة متكرمشة معووجة ، وأخذت أقوم اعوجاجها وقطع الخشب التى بداخلها توخزنى فى أصابعى وتخرق الورقة فأكتئب ، لكننى مع ذلك أشعلتها وبقيت صامتا ٠ فلما استوينا على طريق الصحراء نظرت الآنسة نحو سيجارتى فى اشمئناط جميل ثم مدت أصابع يمناها وأخذتها قائلة : « تسمح ؟ فتركت السيجارة ، فاذا بها تطوح بهـا فى الشارع وتقول آمرة : « قدامك السجائر النضيفة ٠٠ تسيبها ليه وتشرب القرف ؟ » ٠ ثم دفعت بيدها احدى العلب فى اتجاهى قائلة فى بساطة : « بطلوا العقد دى بقى » ٠ ففهمت من هذه العبارة وحدها أن الآنسة « راندا » تقصد جماعة الذين يزعمون الثقافة الرفيعة ويتحدثون عن حقوق الانســـان والعدالة الاجتماعية والديموقراطية ويسمونهم بالماركسيين ظلما وعدوانا ـ على الماركسية لا على الزملاء بالطبع ٠ ولابد أن الآنسة « راندا » رأتنى ذات مرة أتناقش بحماس وأردد عبارات كبيرة فظنتنى منهم ٠

« لذلك ابتسمت من تعليقها وتناولت العلبة ببساطة وأشعلت منها سيجارة فقالت هى : « ولع لى واحدة » : فأشعلت سيجارة أخرى على الفور أشعلت بدورها كل كيانى لمجرد شعورى بأن شفتى احتوتا نفس المساحة التى ستحتويها شفتاها بعدى ، ففعلت حركة كوميدية أطلت بها سيجارتها باقية بين شفتى لبرهة ثم قدمتها لها ثم عدت فجذبتها ووضعتها بين شفتى مرة أخرى ثم سلمتها لهـا ضـاحكا ٠ فضحكت هى الأخرى ضحكة قصيرة ووضعت السيجارة بين شفتيها وتفرغت للقيادة ٠ قلت لها : « حضرتك بتدخنى ؟ » ٠ قالت : « أحيانا » ٠ فأشرت الى العلب قائلا : « ما هو باين » ثم ضحكنا ٠

توقفت عند كازينو في قلب الصحراء · ما أن يدخله الانسان حتى يفقد شعوره بالمدينة · يجلس فيه طوائف كثيرة من ناس فخام متعجرفين ، أجانب « مصريين وسعوديين وكويتيين ، وبعض الأزارقة المنتمين اليهم بسبب أو بآخر ويبدو مع ذلك كأنهم الأسياد الحقيقيين . وكان من الواضح أن الآنسة راندا معروفة ها هنا الى هذا القدر الكبير من التحية والاتيان بالبرتقال دونما طلب ، وبعده قطائر وشاى كأنهم يستعرضون ما عندهم ولنا أن نأكل أو لا نأكل طالما أننا سندفع نفقات هذا الاستعراض » ..

وقالت راندا :

ـ « أستاذ مأمون .. اذا لم تكن ابن رشا الخضرى فأنت ابن أختها أو أخوها أو ابن أخيها .. المرجح يا أستاذ انك شقيقها ان لم تكن ابنها من أب قديم مثلا اعتبرته هى ماضيا كريها فتنكرت له كما يحدث عادة بين مثل هذه الفنانات .. نعم .. فنفس العينين ونفس الدم وسحبة الوجه بل نفس العود والروح .. أنت ابنها حتى لو لم تلدك أو أخوها حتى لو لم تكن من نفس الرحم قد نزلت .. أنا للعلم رأيتها كثيرا جدا يا أستاذ مأمون .. دعوناها كثيرا جدا يا أستاذ مأمون .. دعوناها كثيرا فى أفراح لا نهاية لها بمبالغ كبيرة .. هى على فكرة انسانة طيبة جدا ونقية جدا وانسانة الى أقصى ما تتصور ، ورقيقة أرق من أرفع نساء البيوتات فى المعاملة والذوق الفطرى .. لذلك هى تصلح أن تكون صديقة لى ، لكننى أؤجل ذلك الآن لأسباب .. أستاذ مأمون .. أنا آسفة .. أعرف أنك ممن يسمونهم باليساريين ، وأنت على شىء من الثقافة والموهبة ، أظنك تكتب أغنيات أو مقالات أو ما أشبه .. أنت حر طبعا ، ومن حقك أن يكون لك رأى معارض للحكومة لكل شىء .. ليس هذا مما يعنينى فى شىء .. كل ما فى الأمر اننى أريد أن أقول لك كلمة بهذا الشأن : لا يكون يساريا حقا من ينكر صلته بأحد حتى

لو كان هذا الأحد سيء السمعة ·· وعموما فأنا ألمح فى عينيك شعورا بالموافقة على كل ما أقول ·· وأدرك كم أنت مستاء لأننى ضيقت عليك الخناق وقدتك الى الاعتراف بأنك من لحم ودم رشا الخضرى ·· لهذا فأنا سعيدة ·· وأشكرك على هذا الصفاء الذى تبديه ، انه هو الآخر دليل وحده على قرابتك المتينة برشا الخضرى ان نفس الصفاء يطل من نفس العينين بنفس الدهشة الفلاحية المتطلعة ·· وأستطيع أن أؤكد لك أنك لو حرصت على هذا الصفاء معى فسوف لا أنساك أبدا بل ربما ساعدتك على اجتياز أى عقبات فى حياتك العملية فيما بعد » ··

ارتعدت مفاصلى من الخوف · قلت لها :

ـ « أرى انك يا آنسة راندا مشغولة بأمر معين ·· ولا شك أننى لو كان ·· » ·

قاطعتنى بسرعة :

ـ « أعتقد أنك فى امكانك الكثير ولكن أرجوك لا تقاطعنى ودعنى أكمل كلامى ·· اننى فعلا مشغولة بأمر معين ·· ولست وحدى ·· أن أمى تحمل هى الأخرى هذا الأمر وأمنيتى أن تساعدنى فى اعادة الراحة الينا من جديد ، على الأقل بصفتك أديب ذو نزعة انسانية محضة كما يقال عادة ·· » ··

قلت مندفعا وراء فضولى :

ـ خير يا آنسة ؟ ·· ما هذا الأمر ؟

تحول الجمال الرائع العظيم فى ملامح وجهها الى موجات حقد دافقة بالشر والتوعد

وقالت الآنسة راندا

— « ان المطربة رشا الخضرى تسلط أسلحتها الفاتنة ، على خالى ٠ وهى تدعى أنها لا تعرف ٠٠ وقد عمدت أمى الى دعوتها على عدة أفراح لأقارب لنا ثم جالستها قبل الغناء وبعده ، ودحلبتها فى الحديث مرات عدة وبطرق متنوعة ، فاكتشفت أن رشا الخضرى — التى يعشقها خالى عبد الجبار — يخلو ذهنها تماما من أى شىء عن خالى عبد الجبار ٠٠ لم تسمع عنه الا أطيافا تجىء وتختفى من ذاكرتها ٠٠ وان كان ذلك صحيحا فان رشا الخضرى هذه سطحية العقل بل متخلفة عقليا ٠٠ فهل يعقل أن مطربة شهيرة ذائعة الصيت ولها صلات كثيرة بكثير من رجال الثورة الأزرقية وأذنابهم وأذيالهم ، لا تعرف عبد الجبار أكبر شخصية اقتصادية فى الشرق الأزرق ؟ ٠٠ أستاذ مأمون ٠٠ لا تندهش ٠٠ ان أمك هذه أو شقيقتك أو عمتك لا تفكير لها مطلقا ولا تعرف فى أى مدارس تعلمت أو فى أى عصر تعيش هذه الغافلة ٠٠ أتراها مجرد قطة فلين يحتضنها الموج فى علياءه كلما صعد ؟ ٠٠ أنا بنفسى جالستها وبعثت لهـا النقوط مجزية وانفردت بها بحجة أننى من هواة الطرب ٠٠ ثم ناقشتها فى كثير من الأمور السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية ، ففوجئت أن رصيدها من كل هذه المعارف ضئيل ضئيل رغم أنها تحفظ الألحان بسرعة فائقة وتؤديها ببراعة ودربة تهيج أعصاب الجمهور ٠٠ فى البداية — آسفة يا أستاذ مأمون — قلت انها من أصل فلاحى واضح ، وأنها مكارة تدعى الهبالة على العبط ، ظنا منها انها بذلك تنجو من القيل والقال وتتفادى الرعب الذى أحدثته الثورة الأزرقية فى البلاد بتخوينهم وتجريمهم وما الى ذلك ٠٠ لكننى صاحبتها فترة ليست بالقصيرة ، أكلمها فى التليفون كثيرا وأدعوها للعشاء وتدعونى لحفل وننفرد ببعضنا أوقاتا لا بأس بها ، وأوجه لها امتحانات كثيرة دون أن تدرى فأكتشف انهـا مسكينة الى أقصى ما تتصور ، غلبانة رغم أن شكلها يوحى بالفجر ، لا تعرف شيئا عن أى شىء الا الذين يعاشرونها وتعاشرهم وتتعامل معهم بشكل مباشر ، هؤلاء فقط هم الذين يرسخون فى ذهنها ، حتى أنا ، تصور ، وأنا ابن شقيقة عبد الجبار التى التقت بها كثيرا فى مناسبات

عدة كنت أضطر فى كل مرة الى تذكيرها باسم خالى ، الذى لم يكن فى ذهنها أبدا أكثر من كونه أحد الأثرياء الكبار وهو تارة اسمه عبد الجبار وتارة عبد الواحد وأخرى عبد الوهاب وهكذا ٠٠ انتظر من فضـــلك يا أستاذ مأمون ٠٠ اننى أطمع فى أن تساعدنى فى فهم شخصيتها نظرا لخطورة الأمر ٠٠ ان وجودها فى حياة خالى سوف يثير حولى كثيرا من الشوشرة ووجع الدماغ ٠٠ لهذا فأمى قلقة ٠٠ ولقد فكرت أمى فى حل ، لكن ظهر بطلانه ، اذ فكرت أمى لو كانت رشا الخضرى طامعة فى ثروة خالى وتدبر لنهبها بشكل أو بآخر فانها ـ أمى ـ على استعداد لأن تدفع لها مبلغا ثمينا بشرط أن تخرج من حياته نهائيا ٠٠ وكان أمامنا مشكلة هى : كيف نتفاهم مع رشا فى هذا الأمر ؟ اننا غير متأكدين من أنها على صلة ـ من جانبها ـ بخالى ٠٠ ونخشى أن ساومناها فى هذا الأمر بصراحة ومن وراء ستار أن نبهها الى نقطة ضعف فينا تدأب على استغلالها بعد ذلك ٠٠ وأننا لفى حيرة شديدة ٠٠ الا خالى عبد الجبار فانه لا يقيم للأمر وزنا فى الظاهر ولا يشغل باله بأى شىء » ٠٠

وجدتنى مضـــطرا للدفاع عن رشـــا الخضرى ٠ وقلت فى غضب واستياء :

ـ « ما ذنب رشا الخضرى ها هنا بحق الشيطان ٠٠ اسمحى لى فأنا فى هذا الأمر بالذات مضطر الى الدفاع عن رشا الخضرى ٠٠ فها أنت قد اكتشفت انها متخلفة عقليا ، وأنها بلا دائرة معارف ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو ما شاكل ذلك ، وهذه محنة الأميين والأزارقة لأنهم لم يجدوا من يربيهم ٠٠ وقد وضح لك بشكل قاطع أن رشـــا لا تنوى حتى أن تتذكر اسم خالك على الحقيقة ، وليس بمعقول أن تفتعل الى هذا الحد وتمثل الى هذا الحد ٠٠٠ كون خالك لمواخذة من مجانين رشا الخضرى ـ أقصد عشاقها ـ الى حد يدفعه ـ مثلا مثلا ـ الى اقتناء شرائطها وصورها وما الى ذلك من أمور فهذا ليس ذنب رشا الخضرى أبدا » ٠٠

ظهر الاستياء الشديد على وجه الآنسة راندا لأنني صورت خالها على هذه الصورة • لكنها سرعان ما نسيت ذلك وبدا عليها الضعف والرجاء وقالت :

ــ « آسفة •• لست أحب أن نتبادل التجريح •• وأنا في الواقع آسفة مرة أخرى •• فربما أكون من الانفعال قد تحدثت عن قريبتك بشيء مزعج •• ولكن لكي تقدر أسفي حق قدره ، استمع الى هذه القصة •••

قالت الآنسة راندا :

ــ « كانت أمي عروسا حين رأت نفسها مسئولة مسئولية كاملة عن خالي عبد الجبار •• وكانت تحب خالي عبد الجبار أكثر من حبها لأي مخلوق آخر ، حتى ذلك الذى من المفروض أن يكون زوجها في يوم •• وكنت أنا في طفولتي أحار في سلوكها نحوه •• فلما دخلت الجامعة ودرست الآداب اكتشفت التفسير الحقيقي لموقف أمي •• اكتشفت أن هناك عقدة يسمونها عقدة اليكترا ، ومنشؤها ــ على ما أذكر ــ تلك الأسطورة العالمية المسماة بأوريست ، حيث ثبت من موقف شقيقته اليكترا تجاهه أن الفتاة يمكن أن تحب أخاها حبها لحبيبها الآخر ، أو الذى مفروض أنه آخر ، المنفصل عن لحمها ودمها •• وعموما فان هذه العقدة ليست ترجع الى تلك الأسطورة بل هي ترجع الى بدائية الانسان حين كان الرجل يحب أخته الشقيقة فيتزوجها •• ان ما يسمونه بعقدة اليكترا هو بقايا ذلك السلوك البدائي في الانسان •• لست أدافع عن أمي ، فليتني في عظمتها •• لقد لاكت الألسن سيرتها في محيط الأصدقاء والمعارف ثم انتشر ذلك في بعض الأوساط •• ومصدر توترهم جميعا هو تلك السيطرة الكاملة التي فرضتها أمي على خالي ، ومدى الضعف الشديد الذى يعتريه تجاهها : هو طفل أمامها لا يملك أى حراك ، وكان ذلك عن حب شديد شديد •• الحاقدون الموتورون من المحيطين بنا ــ اللى كل يوم قاعدين في بيتنا

ويطلعوا يجيبوا في سيرتنا – لا يعرفون شيئا اسـمه عقدة اليكترا ، ولا يفهمون فى هذه المسائل ·· ان أمي في نظرهم – بكل وضوح – « تعشق » خالى عبد الجبار وربما كانت تعاشره معاشرة الأزواج ·· أقولها لك قبل أن تسمعها من الآخرين ·· وحقيقة الأمر يا أستاذ مأمون ان أمي قد أغدقت من حبها على خالى ما جعلنا كلنا حتى نحن أولادها نغار من خالى ونكاد فى بعض اللحظات نكرهه ونحقد عليـه لأنه يأخذ كل عنايتها وكل عواطفها ··

·· « فى يوم تركتنى أبكى حتى انقطع نفسى ، وهى فى حجرته تطيب له نفسه وجراح أصدقائه ، لم تخرج من عنده الا راضية النفس متوردة بالنشوة لأن خالى قد رضى وهدأت جراحه ونام ·· لم تتذكرنى الا بعد وقت ·· لكننى بعد أن كبرت يا أخ مأمـون فهمت كل شيء وتحررت من كثير من المعتقدات البالية ·· وعرفت أن المسألة كلها تنحصر فى أن أمي مصابة بعقدة اليكترا ·· وهى لا ذنب لها فى ذلك ولا تملك الشفاء من عقدتها مهما احتوت خالى عبد الجبار احتواء تاما وعرفت كل صغيرة وكبيرة من أسراره ان كان له تجاهها أسرارا ··

·· « جبارة هى أمي كما يقولون يا أستاذ مأمون ·· قد تندهش كمـــا اندهش الآخرون اذا عرفت انهـــا عقل مدبر من أكبر العقول الرياضية ، لا يباريها أحد فى الحساب والوصول الى النتيجة فى لمح البصر ، تتعامل مع جيوش جرارة من الأرقام تضربها فى بعضها وتجمعها وتطرحها أين منها الكمبيوتر ، ان الكمبيوتر هو مصدر المراجعة الموثوق منه عند خالى لحظـة التحاسب وأمي هى مصـــدر المراجعـة الأعلى من الكمبيوتر ·· هى قد اضطرت لأن تكون كذلك من فرط حرصها البالغ على متابعـة ثروة خالى وملاحقتها بالمليم فى كل مكان فى أى دولة ·· ثمة مبالغ فى بنوك معينة لا تصرف الا بتوقيعها هى ، وهكذا ·· ثم انها يا أستاذ مأمون ترسم مشاريعا تبدو لك جنونيـة ، لكنهـا تبتسم فى استهتار قائلة : « وايه يعنى ؟ ·· عبد الجبار حينفذها » ·· وبالفعل ينفذها خالى ·· ان رسم المشروع فى نظرها ليس الهندسة ولا المسائل

الفنية ، انما هى ترسم طريقة للايقاع بشركات كبيرة وتدخلها شريكة معها بنسبة معينة فى مقابل قيامها بتصميم الشىء الفلانى أو تنفيذ الشىء الفلانى ٠٠ فى العادة ينجح خالى فى ضم أى شركة تتعاون معها وجعلها جزءا من شركاته ٠

٠٠ « منذ أن علمنا أن أمى بالنسبة له كل شىء وهو بالنسبة لها كل شىء تغاضينا جميعا عن كل شىء ، طالما أننا مباح لنا فعل كل شىء والاستمتاع بكل شىء فى الحياة كما نهوى ونرغب ، بشرط أن نضع لأنفسنا القواعد الأخلاقية المناسبة والقوانين التى تحفظ الكرامة وتحميها ٠٠ طالما وجدت من يحمى ظهرك بأمواله وقواه فأنت آمن ، هكذا نعتقد يا أستاذ مأمون ، ونعتقد أن غير ذلك من الاعتقادات مجرد فلسفة لا تصلح لسد الرمق ٠٠ لا تراجعنى فأنت حر فى رأيك ٠٠ المهم أرجو أن آكون قد دافعت عن موقف أمى بما فيه الكفاية ٠٠ أقصد أنه ليس دفاعا ٠٠ لكن أقول قد وضحت موقفها بعض الشىء حتى تكون انت على بينة من شىء قد تفاجأ به فيما بعد ، فأنت تعرف أن الشخصيات الاجتماعية الكبيرة معرضة دائما للخوض فى سيرتها خصوصا الشخصيات الهامة جدا ذات العلاقات الدولية المتشعبة مثل خالى ٠ أنت تعرف أنهم أشاعوا عنه الكثير والكثير فى السنوات الماضية ٠٠ قالوا انه ابتنى الفلل والمساكن الفاخرة للحكام بالمجان ، وحقيقة الأمر انه أخذ تكاليفها فحسب ولكن من بعض الجهات الرسمية واعتبر أنه لا يجب أن يتاجر على رجال عظماء ، وحقيقة الأمر كذلك ــ كما لعلك أن تعرف يا أستاذ مأمون ــ هى أن الألسن الشيوعية المنحلة تقف لخالى بالمرصاد وتشنع عليه أسخف التشنيعات ، غير أن خالى لا يقيم لهم وزنا ، بل لا يهتز من روسيا نفسها ، انه واثق أنه لو سلط عليها أمى فسوف تهزمها ٠٠

٠٠ « هم قوم منحلون كما تعرف يا أستاذ مأمون ٠٠ ولكن الله دائما يقف مع خالى ان لم يكن من أجله فمن أجل المشاريع القومية العظيمة التى لولاها ما كانت الحياة فى وادى الأزرق ٠٠ وقد تعودنا

أن نستمع الى كافة التشنيعات على كل لون وكل مستوى ٠٠ تصـور يا أستاذ مأمون اننا من كثرة تعودنا على الاشـاعات كنا فى كثير من الأحوال يختلط علينا الأمر ، بين الواقع والاشاعة ٠٠ فمعظم الاشاعات عشناها كواقع ، ومعظم الواقع عشناه كاشاعات لذيذة ٠٠ الا أن يقولوا ان أمى « تعشق » خالى عبد الجبـار عشقا من ذلك النـوع الذى فى دماغهم ٠٠ ليكن ٠٠ حتى هذه الاشاعة أرادوا لها أن تتحول الى واقع ، ثم انها قد جرحتنا وانتهى الأمر ولم نعد نبالى ان كانت واقعا أم هى مجرد اشاعة تستند على شيء من الواقع ٠٠ ثم اننا واثقين فى نفس الوقت من شرف أمنا وخالنا وأهل أسرتنا جميعا ٠٠ ان خالى كما تعرف ليس بالذى ينحدر الى مستوى الحيوان وهو يملك أن يكون « دون جوان » القرن العشرين ــ بفلوسه ومركزه ٠٠

٠٠ « آه لقد تشتت ذهنى يا أسـتاذ مأمون ويبدو أننى منفعلة لأسباب كثيرة ٠٠ اشرب قهوة أخرى معى ٠٠ اسمع ٠٠ ليمون ومعه قهوة ٠٠ ليكن ٠٠ دخن من هذه السجائر ٠٠ دخن ٠٠ لقد أنست اليك يا أستاذ مأمون ٠٠ أنت فعلا فيك شيء يجذب النفس اليها ويدعوها الى التصريح والمكاشفة ، كأننى أتوقع أن تكون أنت أيضـا وراءك مثل ما ورائى من حكايات مثيرة ٠٠ أنا للعلم محدودة الصلات كما تعرف ، لكننى بارعة فى اكتشاف معدن الناس الحقيقى مهما دهنوا وجوههم بطلاء من الذهب ٠٠ دخن ٠٠ أحب أن تتعامل معى كأختك ، نساعد بعضنا بعضا فى حل أزماتنـا النفسية ٠٠ أنت بالطبع محتاج الى صـديقة تؤاخيك أنا أيضا محتاجة الى صديق يؤاخيني ، أى يشعر بما أنا فيه ٠٠ فليس لى من اخوة صبيان ٠٠ كل اخوتى بنات صغار ٠٠ ورغم أننى حرمت من الأمومة الحقيقية فاننى ــ شيء غريب ــ أحمل فى أعماقى نفس أم كبيرة ٠٠ ما أسـعدنى وهم يقولون اننى دفعت مبلغ كذا ليستفيد ناس ٠٠ تقول أمى اننى سأكون من رواد الحركة النسائيـة الحديثة وتقصد الحركة التى تدعو لأن يحكم النساء العالم بعد أن جرب الرجال دورهم ففشلوا وملأوا الكون بالدمار والحروب ٠٠ لكن تحدثنى الأم التى

فى اننى لن أحصل على حبيب يحبنى حقا ، بقدر ما سيكون من نصيبى الوقوع فى طفل أحبه أنا لمجرد أنه يغذى فى نفسى مشـــاعر الأمومة بنجاح ، وسيكون على حينئذ أن أتحمل سخافاته وأتجرع أمراضه ومرارة مذاق شخصه على الدوام وبلا ضجر ، ألست أنا التى اختارت ذلك دون أن تدرى ؟ ..

.. « اشرب يا أخى مأمون .. الغريب كل الغرابة يا مأمون يا أخى اننى رغم احتقارى لأمى ــ أقصد رغم أنه من المفروض حسب الاشاعات القوية أن أحتقر أمى لعلاقتها بخالى واهمالها لأبى تماما حتى أصبح ونحن معه نعانى الكثير من الجفاف .. فاننى مع ذلك أحبها وأحنو عليها ، فلعلها هى الأخرى قد حرمت الأمومة من صغرها مع أنها تهيأت لممارسة دور الأم فأدته كما ينبغى .. مهما كان الأمر فاننى حين احتوى رأسها الكبير بين ذراعى فى حنان أراها تنهمر باكية وتتحول الى طفلة وديعة وأرانى مدفوعة بشعور من اللذة يأخذ فى التنامى والتسامى كأننى قد صرت أمها الحقيقية فأدعوها الى طرح مشاكلها الخاصة بكل صراحة ، وأسألها عن تعلقاتها ، ولكنها تنهمر باكية ولا تحكى أى شىء ، وبهذا يظل الحاجز القائم فاصلا بينها وبين أمومتى .. بل اننى فى اللحظة التى تتصل الأمومة فى بالابنة فيها وتشرع هى تحكى بعض همومهـا الخاصة بالخوف من تمرد خالى عليها ، لا تجاوز القشور السطحية الواشية بأشياء مثيرة ، اذ هى تدعى فى الحال لمقابلة خالى ، ان مجرد وجوده فى البيت يجعلها قائمة على قدم وساق حتى يخلد هو الى النوم ، وتكون هى دائما آخر من يراه قبل النوم بعد أن تستأذن زوجته الاستئذان الأخير متجهة الى حجراتها الخاصة ..

« أنت مثقف يا أخ مأمون ومتحرر الفكر ولهذا فأنا أتحدث أمامك بلا حرج عن مثل هذه الأمور ، وأنا واثقة أنك لن تحتقرنى بل ستزداد منى اقترابا وتشاركنى فى موقفى .. أنا لست غبية أو مبتذلة .. أنا اخترت ولدا مثقفا لأفضى له بحقيقة مشاعرى .. أخ مأمون .. ان كان

فى أمومتى مطعن أو شرخ فيكون فى نقطة ضعفى التى لا أملك التغلب عليها أبدا ٠٠ تلك هى أننى أشفق على أمى وأعيش تجاهها موقف الأم بكل حذافيره ، فان كانت لم تفلح فى أداء الدور نحوى فسوف أفلح أنا فى أدائه نحوها ٠٠ انها فى نظرى مسكينة لم تعش حياتها أبدا ٠٠ ان عمق المسئولية وحجم التوتر الذى تعيشه فوق ما يحتمل البشر ٠٠ لا أظن مطلقا مانحة معطاءة هكذا على الدوام دون أن تأخذ أو تفكر فى الأخذ ـ لا أقصد الأخذ المادى ـ انها تحرق نفسها دون أن تدرى فى سبيل أن يحيا كيان انسانى معين ، وقد نسيت نفسها ودب الشيب فى رأسها وصارت تقضى أوقاتا طويلة أمام المرآة بل صـــارت تزفع مباراتى فى الشباب وتكثر من الانفعال على ومحاولة كسر أنفى حتى لا أتيه عليها جمالا ٠٠

٠٠ « لا أدرى سر موقفها العصبى منى حين أكون متألقة الجمال ٠٠ ان قلت انها وهى على مشـــارف سن اليأس قد بدأت تغار من أنوثتى ونضجى فى صورة خوف مبالغ فيه على وعلى عرضى وشرفى وسلوكى حتى لتحملنى مسئولية جمالى ٠٠ ان قلت ان ذلك وضع شبه طبيعى بالنسبة لأى امرأة فى سن اليأس ، يبقى شىء واحد أراها مبالغة فيه الى أقصى حد ، ذلك أنها لا تكون مسرورة أبدا حين ترانى فى لحظة صفاء مع خالى عبد الجبار ٠٠ هذا شىء حرت فى تفسيره يا أستاذ مأمون ٠٠ لا أعرف كيف صرت ألتفت لهذا الأمر ، ولكننى كنت مجبرة على ملاحظة أن أمى دائما أبدا تؤجل طلباتى لمواعيد اللقاء بخالى فى لحظة مناسبة ٠٠ حتى ان التليفون ورددت أنا بالصدفة تتركنى هى برهـة ثم سرعان ما تقبض على السماعة لتكمل الرد ٠٠ وكنت ألجأ الى محاولاتى الخاصة فأتصل بخالى فى أى رقم وأدعوه للمقابلة الضرورية : « عايزاك يا خالى ٠٠ وماله يا حبيبتى الساعة كذا خليكى سهرانة لحد مارجع » ٠٠ وكنت أفعل ٠٠ فاذا أمى ينتابها غضب الى حافة الرغبة العميقة فى التدمير لولا أننى أحتويها فى الحال ٠٠ ثم اننى بدأت بعد ذلك ألاحظ أنها غير مرحبة على الاطلاق بأن انفراد فى جلسة مع خالى الا لدقائق معدودة

وتحت رقابة خفية ·· أنا أقرأ روايات كثيرة يا أستاذ مأمون ، ولكنني أبدا لم أجد نموذجا فى غرابة أمى ، ولهذا فأنا مدينة للروايات بتهيأة عقلى للتوازن وملاقات الأمور ببساطة وبداهة ·· الا أمى فهى عقدة عويصة فى حياتى وسوف تظل كذلك حتى بعد أن تموت بعد عمر طويل باذن الله ··

·· « تزعم أن خالى مرهق الذهن والبدن ولا يزال أمامه واجبات الزامية حيث يلتقى بأولاده ومشاكلهم التى لا تنضب وشواغل مستقبلهم وحيث يلتقى بزوجته ، وحيث يكون قد بقيت فيه حياة لتصفية ختامية فيكون مع أمى ·· انه بالفعل شيء يرهق البدن بل يهد الجبال ، أن يظل المرء طول اليوم يجتمع بناس ويحضر جلسات ويسـافر ويفتتح ويناقش ويفض منازعات ويبقى فيه بعد ذلك متسع لأى ممارسة ·· انهم بالفعل لناس جبابرة يا أخى مأمون أليس كذلك ؟ ·· يخيل الى أن جيلنا ليس بهذه القوة أبدا ·· انني أدوخ من فرط تخيلى لحدوث هذا ، فما بالك بالممارسة ؟ ·· جملة اعتراضية اسمح لى بها ، تلك هى .أننى واثقة أيضا من أنك سوف تقدر موقفى على خير وجه ، سوف لن تتوهم أن علاقة حب أو ما شاكل ذلك من العلاقات الشبانية أو الروائية يمكن أن تقوم بيننا ·· فمبدئيا لن يقوم بيننا زواج لسبب بسيط هو أن طرق العشق والغرام مسدودة بيننا ·· وأنا واثقة من أنك تعلم هذا ، ليس لأسباب طبقية وما الى ذلك ، بل لأنك مثقف ناضج ولا تؤمن بعصر الحواديت ·· انتهت جملتى الاعتراضية ·· هات سيجارة ·

·· « هذه أول مرة فى حياتى أشعر فيها بالانطلاق والحيوية ولهذا أحب التدخين الآن ·· قد لا تعلم أننى حدست هذا من أول ما رأيتك ، فمن النظرة الأولى وضعتك تحت الاختبار وعلمت من كافة مصادرى أنك طيب نقى وفى حالك بقدر ما أنت مستنير ، وأنـك تميـل الى العزلة والسرحان المطلق حيث يتجهم وجهك وتتقلص ملامحه كأنك تحمل هم عار خطير أو هم كسوة الأولاد فى العيد ·· فلما بلغتنى هذه الصورة

عنك ضحكت كثيرا وحدست نوع الهم الذى يكون شاغلك ، لعلك لا تعرف أننى جلست فى مواجهتك من بعيد أنا ومجموعة الصحاب تضحك ضحكا مكتوما ونفعل حركات لطيفة تهدف بها الى ايقاظك وأنت غير موجود على ظهر الأرض ٠٠ أنا الوحيدة التى أحسنت تفسير حالتك هذه الدائمة ، أنت أيضا تعيش فى مأساة عميقة تطفو همومها على وجهك وتسلبك من المكان والزمان ٠٠ هكذا قلت لنفسى طبعا ثم اننى عرفت أن هذه المأساة لابد أن تكون رشا الخضرى التى لا تستطيع أن تهرب من شبهها ٠٠ لقد تأكدت من مراقبتى لك انك تعانى ، وقدرت أن سبب المعاناة هو رغبتك الدفينة فى الانسلاخ عن المطربة رشا الخضرى لسوء سلوكهـا ولكونها عار عليك فى وسـط طلاب سليطى اللسـان انك فى أعماقك تحتقرها وتنفى كل صلة لك بها ومن المؤكد أن لها اسما تحمله شهادة الميلاد غير اسم شهرتها الفنى ٠ إنت كما يبدو لى قد وطنت العزم على أن تتبرأ منها ، ولبسك هذا الدور فصرت شبه مقتنع بأنك لست قريبها حقا ٠٠ لكن ليس على أنا ٠٠ ها أنذا أجرك الى الحديث عن نفسـك فأكاشفك بالحديث عن نفسى ولكنك ثقيل بحق ٠٠ ان ذكائى لا يخيب ٠٠ هكذا تقول عيناك ، وحسى لا يكذب ٠٠ ولسوف أظل بك حتى أجعلك من فرط الحرارة ترمى عن جسمك هذا الغطاء ٠

٠٠ « اشرب قهوتك ٠٠ اشـعل سيجارة لى ٠٠ هكذا يجب أن تبتسم والابتسامة مقدمة لازاحة الغطاء ٠٠ خذ راحتك واعتبر نفسـك فى حضرة أخت شقيقة مأزومة مثلك ٠٠ ان القلق يتعاظم لدى أمى ٠٠ صدقنى يا أخ مأمون ٠٠ اننى كثيرا ما أترك صفحات احدى الروايات وأتأمل وجهها وحالتها فجأة فيخيل الى أنها تذوى من فرط القلق على نفسها وعلى خالى من جراء قريبتك ٠٠ ان كان فى حياة أمى خطر يهددها أو نقطة ضعف قاتلة فهو استمرار شبح قريبتك فى أفق حياتها كأنه حدأة ستهبط من السـماء فجأة ذات لحظة معينة لتنقض عليه فتخطفه وترحل محلقة فى البعيد اللامرئى ٠٠

.. « تقول في نفسك ـ لا شك ـ انه مرض نفسي أو نوعا من التوهم الشاذ .. أقول لك : لا .. بل انه واقع جاثم بالفعل مع الأسف يا أخ مأمون .. ياربى .. أتدرى ؟ .. ربما كان على أن أعترف بالواقع .. وحينئذ ـ ومع كل الأسف ـ سأكون مرغمة على التسليم بالصورة التى رسمتها أنت لخالى حين قلت انه من مجانين رشا الخضرى .. انه بالفعل لا وصف له سوى هذه العبارة .. فرغم أن خالى يؤكد قولا وفعلا أنه لا علاقة له بهذه المطربة ولم يتشرف برؤيتها شخصيا ولا يعنى بجمع أى معلومات عنها ، ورغم أن أمى تحاصره حصارا دقيقا حتى عند سفره الى الخارج تكون هى بنفسها فى تسعين فى المائة من رحلاته الخارجية وبقية الرحلات تكون هى ملمة خلالها بتحركات رشا الخضرى .. ألم أقل لك أنها جبارة ؟ ..

.. « ولكنها يا قلبى قد باتت لا تحمل من كثرة المسئولية والجهد والقلق المتواصل ، وسبب القلق الرئيسى عندها أنها قد وثقت وعن يقين لا يقبل شكا أو مكابرة أن خالى عبد الجبار يموت فى جسد رشا الخضرى وتعتريه رجفة وجد صوفى مفاجىء يتحول خلالها الى حيوان شبق غاضب ممتلىء بالرغبة فى الافتراس والانتقام ، حتى انه قد يردد ألفاظا من بين أنيابه قبيحة جدا تحار أمى حين تضبطها وتتساءل هل دافعها الشبق الجنسى أم الرغبة الحادة فى الانتقام والثأر ؟ لكن الهيام والوجد كان هو الأغلب ، أن رآها تغنى فى التليفزيون تركزت عيناه على مواضع معينة فى جسدها ، ويظل يركز ويتعمق فاقدا الاحساس بمن حوله فيغمغم ويصبح كالحيوان الهائج المتهيج ثم ينقلب فى الحال ـ حين ينتبه الى الموجودين ـ الى ما يشبه الوحش الكسيح ينذر بالغدر والانتقام .. تقول أمى من بين القشور التى ترميها على صدرى فى لحظات الصفاء وما أندرها ، أنها سمعت خالى مرات عديدة يغمغم لنفسه قائلا بكل وضوح « هى .. هى بعينها .. بس ازاى .. حكمتك يارب » ..

.. « هى لا تخجل ، لذلك فاجأته بالسؤال عن معنى التعلق الغريب ؟ .. فأحالها باسما الى حكاية تلك البنية المجهولة التى كان

يحبها وهو طالب ثم أكلهـا الزمن منه فلم يعد يعرف عنها شيئا ..
لكن أمى ليست عبيطة ، انه كثيرا ما أستشير فى مناسبات عديدة فى
أمر فتيات يريدون تزويجه منهن ، فكان يرد بقوله : انها جميلة ولكن
عيبها انها تشبه فلانه فى كذا ، ولو انها تشبهها فى كذا لرضيت بها ..
ورغم أن أمى فكرت أيامها طويلا فى معنى قوله هذا لدى رؤيته لأى فتاة
مقترحة للزواج أو حتى للحب ، فانها لم تصل الى تفسير لتردده ، ولم
تعرف أن كل ذلك الشبه المعين الذى فى دماغه مرفوضا أو مقبولا ؟ ..
ففى ذهن خالى شبه معين لفتاة معينة عجزت أمى عن تخيلها على الوجه
الصحيح لتذهب بنفسها وتخطبها له بأى ثمن .. غير أنه هو نفسه كان
حائرا نفس الحيرة .. فلما تعبوا معه أراد يريحهم فتزوج آخر واحدة
عرضوها عليه ، وهى ذات حسب ونسب وارث كبير وقد استطيبناها
كلنا ، ولم نر منها أى مشاكل أو اعوجاج ، ثم انها قبل كل شىء وبعد
كل شىء تخضع خضوعا مطلقا ودون تذمر لسيطرة أمى على كل من فى
هذه المملكة الكبيرة الواسعة الخيالية التى لا يسعها الا عقل جبار كعقل
أمى ..

.. « والواقع يا أخ مأمون .. هل سئمت ؟ .. عفوا .. الواقع
أن أمى تلك المرأة المتيقظة لمملكتها على الدوام لا تغفل برهة ولا ينـام
ذهنها حتى وهى تخطف لحظات نومها ، لم تنم عن حكاية هذه الفاتنة
المجهولة رغم أن خالى قد تزوج وأنهاهـا .. ولكنه أنهاهـا كمشكلة
قائمة .. وتربصت به أمى ، فاكتشفت أنه لم يقطع علاقته بفاتنتـه
المجهولة حيث دأب على لعنها فى المنـام وفى لحظات استغراقه الجنسى
التام .. عرفت أمى ذلك من خـلال زوجته المطيعة الطيعـة .. عقل
أمى رياضى وعقلية خالى عقلية مقاول موهوب لا أكثر ولا أقل .. ولقد
تأكدت هى من وجود امرأة معينة بلحمها ودمها فى حياة خالى ، ان هذه
الملعونة المجهولة كسرت فى خالى شيئا عزيزا عليه جدا ، غاليا جدا ،
كسرت فيه رجولته على الأرجح ، وأنها ــ الملعونة تلك ــ كانت ذات فتنة
خارقة وعلى الأرجح من بيئة وضيعة أو بمعنى أصح أقل من ناسه هو

وأهله هو ، أو بمعنى أدق كان تودده اليها يعتبر نزولا منه وحطا بنفسه لم تفهمه ولم تقدر قيمته فصدته صدا غير انسانى حطم كبريائه تماما وكاد يدمر نفسيته ٠٠ أمي ليست عبيطة ٠٠ لقد جمعت هذه الحقائق على مهل وأصرت ليس فقط على علاجه بل على معرفة من تكون على وجه التحديد هذه المجهولة الملعونة لتأتى بها أيا كان وضعها أو مركزها ، وتضعها فى الأسر وتظل تبصق فى وجهها وتضربها بالصرمة القديمة كلما آن الطعام ٠

***

واصل مأمون حديثه :

ـ « انتهت الآنسة « راندا » من حكايتهـا واعتدلت فى جلستها معطية ظهرهـا للحائط بعـد ان كان وجهها فى مواجهتى تمـاما عبر الترابيزة ٠ وحط علينا صمت ، كنت خلاله مشغول الذهن أدبر للخروج بلطف من هذه الورطة التى صرت فيها طرفا أصيلا دون أن أدرى وبدون ذنب ٠ لكن « راندا » مسحت شـفتيها الجميلتين بمنـديل من الورق وبطريقة أثارتنى ، وسألت نفسى متحسرا على ما فى الدنيا من حرمان : هل يستوى النعيم مع الشرف ؟ أقصد هل يتأتى للانسان على ظهر هذه الدنيا الغريبة ان يقبل مثل هذه الشفاه ويحتضن مثل هـذا الجسد ويمتلك كل هذا البذخ وفى نفس الوقت يكون محتفظا بطهارته كانسان شريف لا تشوب ثروته أى شائبة من السرقة أو النهب أو اسـتغلال الآخرين ؟ ثم سمحت لنفسى بالتسرع فى الحكم وقلت ان هذا ـ تقريبا ـ مستحيل ٠٠

رمت بالمنديل كله فى سلة المهملات ٠ أما أنا فحين أردت مسح شفتى مـن أثـر الجيلاتى صعب على المنديل كله وهو ثلاث راقات فوق بعضها ، فنزعت واحدة مسحت بها شفتى وأصابعى ثم رميتها ٠ ونظرت

هى نحوى ضاحكة فى صفاء واستغراب وأنا لا أدرى لضحكها سببا ٠ لكننى توقعت ان يكون المنديل هو السبب فقلت لها اننى هكذا تعودت ولهذا فالعلبة تكفينى لبعض الوقت ٠ فعلقت تسألنى اذا ما كنت أرمى العلبة الفارغة فى النهاية أم احتفظ بها ، فضحكت قائلا اننى فى العادة أجمعها وأبيعها للشركة بالجملة ٠ ثم أردت اشعال سيجارة فامتدت يدى بطريقة تلقائية الى علبتى فى جيب الصدر وأخرجتها ، فانقضت عليها « راندا » ونزعتها من يدى وطوحت بها فى الشارع بعيدا ثم اعتدلت جالسة كأن شيئا لم يكن ٠ فالتهبت ركية النار حول أذنى ، لكننى ابتسمت فى شىء يشبه السعادة ، ومددت يدى نحو احدى العلب ، فاذا بيدها الذهبية بغير حلى تمتد معترضة طريق يدى قائلة فى احتجاج : « من فضلك ٠٠ دى علبى أنا ٠٠ عندك الراجل أهه اشترى منه » ٠ فصارت ركية النار ترعى فى كيانى ، وهممت بالنهوض غاضبا فى صمت ، لكنها كانت أسرع منى ضاحكة قد تناولت رأسى بين كفيها فدعكته برفق أطار لبى من السعادة والاسترخاء ، ثم أشعلت السيجارة بنفسها وقدمتها لى بنظرة تقطر صفاء وبراءة ، وقالت ان فيها بعض الشقاوة البريئة وعلى أن أغتفرها لها ان كنت فعلا أرحب بصداقتها ، وأنها قد افتعلت هذه الدعابة البريئة لتختبر احساسى نحوها هل هو طبقى حاقد كما تكتشف دائما لدى من يزعمون صداقتها خاصة ممن يصبغون سلوكهم وحديثهم بألوان يسارية ٠٠ أم ان احساسى تجاهها عادى وبرىء وصاف ؟ ٠٠

فلما قرأت هى فى عينى تلهفا لمعرفة نوع احساسى تجاهها كما اكتشفته الآن ، قالت أنه طيب وجميل وأننى لو كنت كذابا دعيا لانفجرت فيها وأفرغت ما على صدرى من صدأ ومن عبارات حاقدة تجاه الأثرياء ٠٠ الخ الخ ٠٠

قلت لها اننى بكل صراحة يا آنسة راندا ٠٠ مش قدك ٠ وأضفت اننى لا امتلىء بأى مضمون طفيلى ٠٠ ان مضمونى هو نفسى ، هو تجربة

حياتى وما قرأته وتعلمته لا أعتنق منه الا ما يضىء لى تجربتى الملموسة ، واننى لا أرفع أى شعار ولا أنتمى لأى جماعة ، بل اننى ناقم على كافة الجماعات وكافة فصائل اليسار نقمة تكاد تقتلنى ، أحيانا يا آنسة « راندا » أتخيل اننى أعيش لكى أفضح خراب من سميناهم باليساريين فى تاريخ الثورة الأزرقية ، وكثرة النصابين والمحتالين بينهم الى حد لم يتوفر فى أى مكان فى أى زمان ، كذلك كل الجمعيات التى تلبس أقنعة دنسة أو اجتماعية أو فئوية أو رياضية ، وأعتبرها جيوبا تؤنمط الشباب وتشغلهم طول أعمارهم بقضايا فرعية تافهة ، وطالما انها جمعيات وجماعات وفصائل متشرذمة ومتضادة ومتعادية ومتنابذة ، فاننا بهم وبتفشيهم سوف نصبح عما قريب عشرات المئات من المجتمعات لا مجتمعا واحدا .. أصبحت يا آنسة راندا اكتشف فى كل يوم هياكل ورقية كانت مصورة لنا كآلهة عظمى ، ولأنهم جميعا انفراديين فرديين فانهم بلا محتوى ، ولذا فها هم يتفرغون للتفسح والهزء بالقيم ، أطراف تتبادل النصائح ، فئة تنتقم من فئة ، ناس تجرم ناسا أو تكفرهم ، مفكرون يعتذرون عن أفكارهم السابقة طول حياتهم فى كلمة صغيرة ، ثوريون يتنكرون لأدوارهم العظيمة ، مظلومون يتنازلون عن حقوقهم جهلا بالطريق اليها ، آخرون يسلبون لأنفسهم حقوقا وتعويضات ، والأبرياء من الشبان أمثالنا الذين جاء بهم نصيبهم الأسود فى مرحلة الانقلاب من النقيض الى النقيض ، يصيبهم الآن وباء الهجرة أو الانحراف أو الاجرام أو التطلع الى السلطة بأخس الوسائل ، لقد شببنا ونحن نفهم الأمور على نحو معين فاذا بنا فجأة نكتشف ان الطريق مسدود ببحر لا نهاية له وعلى من يريد السباحة منا فليسبح معتمدا على نفسه .. ذلك اننا يا آنسة راندا قوم من الدهماء تتفشى الأمية بينهم وأردنا من جسارتنا أن نقلد الدولة المصرية فى ثورتها دون أن يكون لدينا ما لدى دولة مصر الشقيقة من امكانيات ، صحيح ان كل ثورة تقلد الأخرى كثيرا ، وان الثورة المصرية قلدت الثورة الفرنسية ، ولكن مصر فى النهاية صاحبة أعرق حضارة على وجه الأرض عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ،

ومهما كانت نسبة الأمية فيها كبيرة فان أهلها جميعا مستنيرون ويمارسون الديمقراطية كسلوك قويم عريق ·· اما نحن يا دولة بنى الأزرق فما هو تراثنا الثورى وما هى حضارتنـــا لكى نقوم بثورة ؟ · لقد كان مضحكا بالفعل ان تنبرى الفرق المثقفة عندنا وتروح تكتب وتنظر وتفلسف كأنها بين الشعب الفرنسى مثلا ، ويستريح ضميرها ببساطة شديدة اذا هيأت الجماهير لأمر أو اذا وافق الجماهير على شيء كأنهم كانوا متأكدين ان جماهيرهم ملمة الماما كافيا بهذه القوانين وهذه الصياغات وهذه النظم ·· وكان الاجدر بهم لكى تكون مسئوليتهم على مستوى الضمير المستريح أن يتفرغوا أولا لتثقيف الجماهير ومحو أميتها · لكن من يثقف من ؟ لم يكن هناك وقت للثقافة يا آنسة ، نسيت الثورة نفسها وامتدت الى الخارج ، خيل اليها ان اللحاق بايقاع العصر معناه توسيع مناطق النفوذ وفرض الزعامة على منطقة أوسع · وهكذا فان النظم التى وضعتها الثورة الازرقية فى الداخل على وجاهتها كان لابد ان تفشل وان يسرق الكبار مناصبهم ويسرق الصغار مقاعدهم ويتبجح الدهماء ·· اننى يا آنســة راندا انتمى الى جيل جديد يرى أن الأمور يجب ان يعاد فيهـــا بالنظر من جديد ·· اننا بحاجة الى اعادة دراســة التاريـخ المعاصر وفرزه لكى ننتخبه أو نرفضه ، نبحث فيه بلا حرج ونتقبل رائحة نتنه ونواجه عار آبائنا وأجدادنا بالشجاعة ونعترف به فى قوة ، وشرفنا أننا قد نرفضه ، وبرفضه نمحوه ، لكى نكون على يقين بأننا نرفض ما وجب رفضـــه ونبقى ما استحق البقاء ·

استمعت الآنســـة راندا الى كلامى بكل دقة وانتباه وهـدوء · ثم قالت باســـمة تعليقـــا على خطبتى الطويلة الجوفاء : « هذا كلام ثورى » · قلت باسما بدورى : « لكن ·· ولكننى لن أشتغل بالسياسة طول حياتى » · قالت : « لماذا ؟ » قلت : لأن الانسان يستطيع أن يخدم الناس والأهل كلهم عن طريق العمل الثقافى بشكل أفضل من العمل السياسى ، ان الشعب الازرقى فى حاجة الى من يبصرونه بالتـاريخ على حقيقته ، ومن ينيرون له ظلام المعلومات وتكاثفهـــا وشراســتها ، ومن

يخلصون له للمعلومة ، الشعب الأزرقى محتاج الى مثقفين من نوع خاص لا يشغلهم العمل السياسى ولا ترهبهم قوة البطش السياسى مهما كان ٠٠ ثم ان العمل الثقافى المخلص للأمة وللناس والأهل كأهل اذا سـار بسلامة فانه يهيىء عملا سياسـيا عظيما ، اذ أن أرض الثقافة المستنيرة تطرد من ساحة السياسة كل مدع سـفاح ٠ ثم قلت : وعلى أى حال يا آنسة راندا فاننا لا نزال فى مرحلة التحصيل ولسنا سـوى جهلة بسطاء يتحدثون بقامة مرتفعة ٠

ابتسمت « راندا » وقالت انها كانت بالفعل قد فهمت شخصيتى على حقيقتها قبل هذا الاحتكاك واننى كما توقعت لا أشغل نفسى بالعمل السياسى وأنها اطمأنت الى وهكذا ٠٠ ثم استطردت قائلة اننى بعد هذه الاندماجة اللطيفة السريعة يجب أن أكون وسيطا جيدا بينها وبين الفنانة رشا ــ وأحسست أنها تطلق عليها هذا اللقب مجـاملة لى ــ ثم فوجئت بالموضوع من جديد وقلت بتلقائية : « مالى وهذا الموضوع ؟ » ٠ فنظرت لى باسمه كأننى شجعتها ، فاستطردت تحكى ٠

قالت الآنسة راندا :

ــ لقد وصل الحال بخالى الى درجة تهديد بالانهيار ، اذ انه صرح لأمى ذات ليلة قريبة انه يفكر فى الزواج من رشا الخضرى ٠٠ كادت أمى تصفعه بالكف على وجهه ٠٠ فبكل ضعف قال لها انه فكر طويلا فلم يجد مفرا من الاستحواذ عليها ، انه لن يستريح فى حياته الا وقد امتلكها بين يديه « يفعـل » بها ما يشـاء ، وهذا التملك لن يكون الا بالزواج ، على الأقل الزواج بشكله الرسـمى المظهرى الذى يضعها تحت أمرته تحت سيطرته تحت ارادته ٠٠ لقد فكر انه يستطيع ان يفتح معها ملف العشق والوصال بأى ثمن ، ولن يكون باهظـا مهما بهظ ، لكن ذلك لن يمتعه ولن يريحه لأنها ستكون طليقة تفعـل ما تهوى ٠٠ و ٠٠ وقعت أمى صريعة مريضة من يومها ٠٠ أصابها الهزال يا أستاذ مأمون ، وأصبحت عصبية ، فامتنع خالى عن ذكر السيرة مرة أخـرى ،

ولكنه أصبح عصبيا بدوره متوترا على الدوام ، بل تؤكد أمي ان شخصيته قد تغيرت تقريبا ، وان ثمة حجاب سقط بينـــه وبينها وبين الجميع ، ثمة أشياء غامضة قد أصبح يخفيها ، ثمة أسرار في عينيه وفي انشغاله وتشتت ذهنه لا يريد ان يفضها ٠

٠٠ تقول أمي انها كلمـــا صرحت له بذلك لوى شـــفتيه قائلا : « هذه حال ليست غريبة على وانت تعرفينهـــا جيدا » ٠٠ وترتعد أمي ارتعادا ، لأن هذه الحالة لم تكن تعتريه في العادة الا قبيل الاســـتعداد لشيء كبير خطر كامتحان الليسانس مثلا أو دراسة مشروع كبير أو الخلاص من أزمة مادية أو سياسية خطيرة ، حيث كان يصل الى درجة من الانعزال داخـل النفس والتقوقع والانكماش كأنه يتجمع لينفرد أو لينقض ٠٠ استغربت أمي المسكينة أنه كان قد تخلص من تلك العادة في ســـنوات الازدهار ، حيث استقامت شخصيته وسلست وأصبحت كمن تحققت لها كافة الأمنيات ٠٠ أما الآن فان الوقت طال عليه بهذه الحالة الغريبـــة وأصبح كالبائس المسجون بأمنيات كثيرة لم يحققها بعـد ٠٠ تصـــور ان أمي بطولة لسانها قالتها له ؟ ٠٠ قالت له : « من يراك مهموما هكذا يتصور أنك لم تحقق شيئا في الحياة » ٠

٠٠ أتتصور ماذا قال لها يا أستاذ مأمون ؟ ٠٠ وقف مسمرا في مكانه أمام المرآة ، ناظرا اليهـــا في تصـــميم ملء بغضب مكتـــوم . « كل الأمنيات تحققت بالنسبة لى الا أمنية واحـــدة ٠٠ اذا لم تتحقق ٠٠ فكأنني لم أحقق شيئا » ٠٠ قالت له أمي في توتر : « دى لازم أمنية خطيرة جدا ياعبد الجبار » ٠٠ فاذا به يقول في بساطة شديدة : « نعم خطيرة بل في منتهى الخطورة ٠٠ على الأقل بالنسبة لمستقبلي أنا وشخصيتي أنا ٠٠ ان كل النجاح الذى حققته في حيـــاتي لم يفلح في مداواة جرح فيها ، جرح اتضح لى الآن انه غائر في نفسي ونافذ الى العمق في الداخل ٠٠ اذا لم اداوى هذا الجرح بعملية جراحية فســـوف أظل طول حياتي أحس انني مجرد آلة بشرية حسنة الحظ أوتيت فرصا كثيرة

المكسب فكسبت ‥ بكل أسف ـ وليغضبكم هذا القول أو يجعلني صغيرا في أنظاركم ـ لم أحس أبدا انني سعيد في حياتي ‥ انني أحس ان ثمة أمر كبير جدا كان مؤجلا في أعمق أعماقي ، وانني ادخـــرته عن عمد ونسيته عن عمد حتى أستطيع أن أشق طريقي في الحياة ، ولأنه أمر كبير فان مشاعري كلها كانت هي الأخرى مؤجـــلة حتى انتهى من هذا الأمر ، حتى أصفي حسابه في نفسي ‥ وكنت أعرف عن يقين ان اليوم سيجيء لمقابلة هذا الأمر ، وكنت أظن انه حين يجيء سيراني واقفــا له في العراء أنتظره لأطبق فيه ابطا لابط ‥ فاذا به حين جاء وأصبح سهلا أراني في أوضاع متغيرة تماما ، وأفاجأ انني أسد حبيس في قفص من الذهب لا يملك الخروج لملاقاة هذا الأمر » ٠

‥ لحظتها قالت أمي في تسليم : « عبد الجبار ‥ عايز تتجوز رشـــا الخضرى اتجـوزها اتجـوزها ياخـويا ‥ محـدش حايشك ‥ بس لما تجرجرك في تهم وتمرمط بشخصيتك في الأرض تبقى ســاعتها تعرف انك نزلت بمستواك برغبتك ومرغت نفسك في التراب بارادتك ‥ لما تنزل بنفسك لمستوى يتلعب بيك الكورة ساعتها تبقى تفوق وتلوم نفسك بنفسك ‥ انما دلوقت عايز تخطبهـــا أروح أنا أخطبهـــا لك ياخويه » ‥ وهنا انكسرت نظرة خالي على رباط العنق ، وفكه من جديد بعصبية شديدة ، ولهث قليلا ، ثم ارتدى سترته بدون ربطة العنق ، وتقدم نحو أمي في ضعف قائلا كأنه يعتذر عن انفعاله : « مع الأسف ان كلامك صـحيح يا فهيمه ‥ صـحيح ميه الميه ‥ وأنا مش ممكن حاتصرف من غير ما آخذ رأيك في المسألة دي بالذات ‥ بس أرجوكي قدري الموقف اللي أنا فيه ‥ معلهش ‥ أنا حا عالج نفسي بنفسي ‥ عن اذنك » ‥ فربتت أمي على خده في حنان ، وعدلت له رباط العنق فامتثل لها كالطفل ، ثم ربتت من جديد على ظهره قائلة : مع الســلامة ياخويه » ‥ فخرج خالي بعد أن طبع على وجهها قبلته اليومية ٠

***

قال مأمون :

ـ ثم ان الآنسة راندا كفت عن الحديث وبدا عليهـــا الانفعال ، وكانت غريزتى كمشروع كاتب روائى قد انساقت وراء راندا وأنستنى ما أنا فيه وما سيطلب منى بنـاء على كل هذه الحكايات المؤثـرة المؤلمة • وانست الى صمتها قليلا ، واستقل ذهنى لبرهة أقنعنى فيها بأن مسأله ان أكون روائيا هذه مسألة جنونية ولسنا نحن قدها ، واننى لن أوتى من القدرة والخيال ما يوازى واقعا كهذا وتجربة كهذه • ثم فوجئت براندا تمسك يدى الاثنين وتحتويهما فى جنان قائلة :

ـ « اعمل معروف يا مأمون يا أخى •• ساعدنى •• أنا عاوزه أساعد ماما •• تبقى أنقذت رشـا •• وأبقى أنقذت ماما •• صراحـة اذا اتضح ان قريبتك بتحاول تتصل بخالى ، أو اذا هو اتصل بيها وهى رحبت وفتحت له صدرها ، يمكن تحصل حاجات مش كويسه •• يمكن يموت فيها ناس والعياذ بالله •• عايزاك تفهمها انها ما لهاش أى دعوه بخالى •• ولو هو حاول الاتصال بيها خليها تصده •• فيه اشـــاعات قوية بتقول انها اتطلقت من جوزها الاخرانى وفيه اشاعات بتقول لا » •

فقلت أنـــا :

ـ « وفيه اشاعات بتقول انها اختفت من الحياة الفنية خالص » فصاحت هى بسرعة :

ـ « الخوف من هنا •• أنا أيضا أريد أن أعرف منك هى راحت فين وأخبارها ايه بالضبط •• يمكن يكون ده اللى خلانى أصمم أقابلك بأى شكل وأعرف منك •• أين اختفت أين راحت ؟ أرجوك قل لى •• الخوف أن يكون خالى وراء اختفائها هذا •• أن يكون قد اتصـــل بهـــا وأخفاها •• ان جميع أرقام تليفوناتها لاترد •• ولكن خادمتها ردت على مرة وقالت انها فى الحجاز تؤدى ـ الفريضة » ••

قلت : « جايز ٠٠ كل شيء جايز » ٠

وكادت المسكينة تقوم وتقبلنى وتفعل كل ما أريده فى سبيل ان أحكى لها شيئا عن رشا الخضرى ٠ كدت استخدم النذالة قليلا فى سبيل أن تزداد هى رجاء فتحضننى ٠ لكنها حين أوشكت أن تفعل ذلك بالفعل اقشعر بدنى ودفعتها عن نفسى خوف الوقوع فى عار مجهول ، وقلت برفق : « من فضلك ٠٠ اهدئى ٠٠ واستمعى الى فقد تفاجأين بمفاجآت غير ســـاره » ٠

اذا بها تعتدل كالمنهارة ٠ وقالت مطوحة أصبعها الجميل فى وجهى بانذار شديد اللهجة لطيف : « بس من فضلك ٠٠ حذار أن تنكر قرابتها والا قتلتنى ٠٠ قد لا تدرى ماذا يمكن أن يحصل لى » ٠ أشـــفقت منها عليها ٠ أغمضت عينى وقلت تصميمك على ايجاد صلة قرابة بينى وبين شخصية أنا لم أرها فى حياتى أبدا ولا تربطنى بها أى صلة على الاطلاق ، حتى صلة الاعجاب ليست موجودة » ٠

قالت راندا وقد غاضت الدماء فى وجهها :

ـ « ماذا قلت ؟ ٠٠ تنكر صلتك بها ؟ » ٠٠

قلت بهدوء وتصميم :

ـ « أقسم بالله العظيم يا آنسة راندا ٠٠ وبكل المقدســـات اننى لست من أقارب رشا الخضرى ، وان الأمر كله مجرد التشابه القوى كما تقولين ٠٠ وهذا شيء تملكين وحدك الحكم عليه لأنك شاهدت رشا بعينك وجلست معها أما أنا فلم يحدث لى هذا الشرف عدم المؤاخذه ٠٠ الواقع يا آنسة راندا أننى صرت أخشى من عقدة على وشك ان تصيبنى من كثرة تشبيهى بناس كلهم سيدات ٠٠ فلست أنت وحدك الذى يلاحظ الشبه ٠٠ فهناك من شبهنى بخالتى بسيمة التى لم أرها ولم ترنى فيا له من توافق عجيب ٠٠ هل أنا صاحب شكل نسائى يا آنسة راندا ؟ » ٠

لكن الآنسة راندا لم تكن موجودة وان بقي جسدها متماســكا ، اذ أني نظرت في عينيها أبحث عن رد فلم أجد حتى عينيها ، انما وجدت حبتين منطفأتين من السواد الفاحم تسبحان في صغار بيضة مقليــة ، ولم أجد ملامح وجهها ، انما وجدت سطحا شاحبا على وشك أن يتشقق ٠٠ مع ذلك كانت لاتزال تتشبث بأهداب حياة في الأمل ، بل حاولت الابتسام قائلة بصوت شاحب مهزول : « اذن فأنت لست حقــا من عائلتها » ٠ هززت رأسي في تأكيد وأخذت أتأتيء وأضيف : « ولا من عائلة تعرف عائلتها ، ولا أعرف حتى ان كانت لهــا عائلة أم انها نبتة شيطانية » ٠ فتراجعت يذقنها الى الخلف باسمة في شحوب قائلة في استحياء باسم : « تحلف على المصحف ؟ » ٠ فبكل جرأة مددت يدى وسحبت المصحف الذهبي الكبير المستقر بين مفترق الجبلين على صدرها ، وأطبقت عليه قائلا : « وحق هذا المصف الشريف أنني لا أمت بأى صلة قربى لرشــا الخضرى » ، ثم تركت المصحف ، فدبت الحيــاة في عينيها وقالت : « لا ٠٠ المصحف ده ما ينفعش ٠٠ ده مجرد تمثال صغير ٠٠ المصحف الحقيقي أهه » ، ثم أخرجت من حقيبة يدها الصغيرة مصــحفا صغيرا مجللا بالذهب ، قدمته لى ، فاستغرقت في الفرجة عليه مبهورا من شكله ودقة تكفيته بالذهب ، ثم وضعت عليه يدى قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف انني لا صلة لي برشا الخضرى من قريب أو بعيد » ، ثم أعدت اليها المصحف وأنا في غاية الاشــفاق من الصدمة ٠ وضعت مصحفها قائلة في هزال شديد : « خلاص يا مأمون ٠٠ أنا مصدقاك ٠٠ متشكره انك سمعتني على أى حال ٠٠ وأنا مهما كان تحت أمرك ٠٠ اعتبرني صديقة تلجأ اليها في كل أزمة تتعرض لها » ٠ شكرتهــا من أعماقي وأشعلت سيجارة من علبتها ، وبقينا صــامتين لوقت طويل ٠ ثم انها تثاءبت ونظرت في ساعتها فقلت : « نمشى ؟ » : فأشارت للنادل، والى ان جــاء كانت هي قد رصــت على الترابيزة ورقتين من فئــة العشرين جنيه ٠ ثم مضت فمشيت بجوارها صامتا ٠

فلما ركبنا السيارة لاحظت ان يدها ترتعش قليلا ولكنها تتماسك. وطلعت السيارة فى سلام راستزت على الطريق فى زحف رزين كأنها هى الأخرى حزينة معنا . ثم أشعلت سيجارة بولاعة العربية وقالت :

ـ « على فكرة يا مأمون .. أنا لست نادمة على أى شيء حكيته لك .. أبدا .. كان يمكن أن أندم وأحس انى بقيت عريانة قدام واحد متطفل وفضولى .. لو انى حكيت لواحد غيرك .. أما أنت يا مأمون فلا .. بالعكس لقد استرحت وهدأت أعصابى .. لا أحس انى خسرت بل كسبت صديقا عزيزا » .

انفشخت أنا مبتسما فى خجل وقلت : « اشمعنى أنا يعنى .. .. ما يمكن أكون زى أى واحد » .

فلم تنظر الى ، بل رفعت يدها وصارت تهز أصبعها فى الهواء نافية قائلة : « لا لا لأ .. أبدا .. أنت مختلف يا مأمون .. لو كنت شخصا انتهازيا أو نصابا أو رخيص المعدن كنت وافقتنى على انك قريب رشا الخضرى ، وربما كنت اختلقت قصصا توهمنى بها .. انت انسان جدير بالصداقة فعلا يا مأمون » .

ثم أردفت بعد برهه : « طريقك فين يا مأمون ؟ »

فقلت لها : « باب الحديد »

نظرت لى مندهشة : « تسكن هناك ؟ » .

قلت : « لا .. أنا أمكث فى العاصمة يوما أو يومين أبيتهما عند بعض الأصدقاء المحبين للأدب والقراءة مثلى ، أو فى احدى اللوكاندات ان ساءت العلاقة بيننا وهى كثيرا ما تسوء بسبب اختلافنا فى الآراء وكل منا يعتبر نفسه أكبر موهبة من يوسف ادريس .. أنا فى الأصل موظف صغير فى مدينة البندر ..وأزوغ من العمل ثلاثة أيام فى الاسبوع أمارس فيها التلمذة .

وطوال كلامى كانت الآنسه راندا لا تنى تنظر الى مندهشة تارة ومعجبة تارة أخرى . واذا بها تقول فى نبرة صادقة : « طب ٠٠ انت مرتبط بميعاد معين ٠٠ قطر مثلا أو حاجة ؟ » ٠ قلت : « لا فى الواقع ٠٠ ولكنى أستطيع الرجوع فى قطار الحادية عشرة مساء وأبيت فى البندر فى حجرة استأجرها هناك أنا وثلاث من زملائى فى العمل ٠٠ وأسافر الى قريتى مساء كل خميس لاعود مساء الجمعة أو صبيحة السبت » ٠ فابتسمت هى بكثير من التقدير ثم قالت : « مش حنتأخر كثير » ٠

— ٥ —

توقف مأمون عن الحديث برهة وقفز ، فقفزت وراءه ثم نظرت ورائى فوجدتنا قد تخطينا قناة عريضة نوعا ٠ ووقف « مأمون » مستندا الى جذع شجرة وصدره يعلو ويهبط وأنا أتابعه نبضه لاهثا مدليا لسانى من فرط الشعور بثقل الحمل الذى ألقاه مأمون على كاهلى ، فما بالك به ؟ ٠ وكنت أخشى ان يضيع منا حبل الحديث وهو شديد الأهمية ، فأخذت أحاصر مأمون وأتقافز أمامه قاطعا عليه الطريق ، أحمحم وأتمسح فيه مطوحا ذيلى الى أسفل كأننى أرجوه ألا يتحرك من هاهنا قبل أن يلحم خيط الحديث الذى انقطع بنا فى سيارة الآنسة راندا ٠

فقال مأمون :

— ثم ان السيارة انحرفت عن الطريق الى طرق جانبية خرجت منها الى طرق عمومية أخرى ٠٠ تشرفنا على منشأة شبه جديدة لكن أكوام القدم متراكمة حولها ٠ توقفت السيارة أمام عمارة جميلة هائلة يقشعر منها البدن ٠ وزمرت ، فجاء بواب يجرى منحنيا يقول : « أهلا ست هانم » ٠ قالت : « المعلم فلان موجود ؟ » ٠ قال البواب : « أيوه ياست هانم » ٠ قالت : « انده له » ٠ فانطلق البواب يجرى

مهرولا ثم غاب فى الداخل حوالى خمس دقائق جاء بعدها المعلم يهرول ويكمل ارتداء ثيابه البلدية الفضفاضة • نظر فى السيارة فاشخا حنكه بما أظن أنه ابتسامة عريضة ، قائلا : « أهلا ست هانم » • ثم فتح باب السيارة قائلا : « اتفضلى ياست هانم » • فترددت الآنسة راندا قليلا ثم نظرت الى قائلة : « طب اتفضل معايه » ففتحت الباب ونزلت صاغرا • ولففت لأسلم على المعلم الذى استعد لى بيد عريضة كأنه ينوى أن يضعنى فى جيبه •

رأيتنى أنا والآنسة معنقين فى كفيه وهو ينقدم بنا سائرا نحو العمارة ، حتى اذا ما دخلنا فوجئنا بحجرة كبيرة مفتوحة كمندرة ريفية قصد بها ان تكون مكتبا فصارت متحفا عبيطا لمقتنيات هبلاء المنظر • دلفنا اليها ثم جلسنا وجاء البواب حاملا صينية عليها زجاجتين من السينالكو ساخنتين . وقال المعلم فلان وهو يشير لنا ان نتجرعها : « خير يا ست هانم •• داحنا زارنا النبى » • اعتدلت راندا فى جلستها وعزمت على المعلم بسيجارة « دانهل » فاعتذر قائلا انه يشرب الروثمان ولا يغير ولكنه مع ذلك سيأخذ منها سيجارة ، ثم انه أشعل لنا جميعا • وكنت ألمح وراء نظرة عينيه ثمة خوف من أمر مجهول خطير ، وكان يتعجل أن تفصح الآنسة عن غرضها من هذه الزيارة المفاجئة • أخيرا قالت الآنسة راندا : « عايزين شقة صغيرة أو حتى أوضه بمنافعها بس تكون حلوة زى حضرتك كده » • استراح وجه المعلم وقال : « عشان مين يا ست هانم ؟ » • أشارت نحوى قائلة اننى أحد زملائها وأحد أقارب والدها ــ من البلد ــ ولهذا فهى جاءت بنفسها من أجلى • وهنا نظر المعلم نحوى فى تأمل طويل ثم قال : « أهلا وسهلا •• عينى •• هات عقد ياد » • فبعد برهة وجيزة دخل الولد فاذا به أفندى يريد فى كل خطوة ان يقول أنا فى الثانوية أو أنا جامعى ، قدم للمعلم عقدا ثم جلس بجواره شاهرا قلمه • ونظر المعلم نحوى ثانية وأخذ يتأملنى قائلا : « اسم سعادتك ايه » ، فأمليت اسمى الثلاثى بتلقائية ، ورأيت على وجه راندا كأنها تفاجأ به لأول مرة وتتشرب ايقاعه وحروفه •

ثم ان الولد الأفندى قدم لى العقد لكى أوقع عليـــه مشيرا لى على موضع التوقيع فوقعت باسمى كاملا واضحا • ثم اذا بالولد الافنـــدى يبرز دفتر ايصالات ويأخذ في الكتابة ثم يتوقف ناظرا للمعلم الذى يتردد هو الآخر ناظرا لى من بعيد ثم الى الآنسة ، ثم انه مال نحوها طالبا أذنها فقدمتها ببساطة فظل يكور شفتيه ويفتحهما ويكح وينفس عن غضب فى هيأة مزاح ومزاح جوهره غضب ، فى حين ترد الآنسة على كل ذلك بهزة رأس أو نأنأة أو غمزة نفى • حينئذ بدأت أفيق من الحلم وأنتبـه الى المأزق • فطلبت الكلمة ، فأسكتتنى الآنسة بتشويحة حاسمة • ثم امتثل المعلم ومال نحو الولد الأفندى مبرطما بكلام كتبه الولد الأفندى ثم نزع الايصال وأعطاه لى فأخذته ونظرته فاذا هو محرر بمبلغ عشرين جنيـــه ايجار شهرين احدهما تأمين فظهر التردد على وجهى وتحسست جيوبى وحاولت التكلم لكن الآنســـة عـادت فهدأتنى بحـــركة يدهـا قائلة : « شيل الوصل فى جيبك » فوضعته فى جيبى ، فقالت : « تقوم تتفرج على الشقة ؟ » • قلت : « نعم » • فنهض الرجل وأشار لى فتقدمت وراء الولد الافندى بجوار الحجرة التى نجلس فيها الى الداخـــل فى ممر بينها وبين السلم والأسانسير • ثم توقفنا عند باب فتحه الولد الأفندى فاذا به حجرة بها سرير وترابيزة وكرسيين وقطعة كليم رخيص ، ولكن الحجرة نظيفة مدهونة بالزيت ، وملحق بها حمام ومطبخ ودورة ميـــاه جدرانها كلها من القيشانى الأبيض • قال الولد الأفندى : « مش قد المقام لكن أهو بقى •• ده الموجـــود » • قلت : « فل خالص آخـــر فل » • واستدرت عائدا ، فنزع المفتاح وأعطاه لى قائلا : « عشرة خير ان شاء الله » • فابتسمت وهززت رأسى شاكرا ومضيت • وفى اللحظة التى دخلت فيها الحجرة كان المعلم ملخوما فى قراءة شيك انتهت رانـــدا من توقيعه ، ولما رآنى دسه فى جيبه مشوحا بالأمر لله ، ففهمت ان الآنسة راندا قد أعطته هذا المبلغ على سبيل خلو الرجل •

ثم بدأ الفأر يلعب فى عبى • ورغم اننى غادرت العمـــارة وبيدى مفتاح شقة فى عاصمة بنى الأزرق دون أن أدفع شيئا وفى زمن يدفع فيه

الناس أعراضهم مقابل مأوى أو مخدع فانني رغم ذلك لم أكن سعيدا ، لم أكن أريد اقناع نفسي بأخذ الأمر مأخذ الجد . ولما ركبت السيارة بجوار راندا لتوصلني الى باب الحديد نبهت على بألا أفتح أى كلام حول هذا الموضوع وألا أحاول تفسيره بأى تفسير . والواقع انني لم أكن مستعدا لهذا أو لذاك فبقيت صامتا الى أن دخلت بى السيارة ميدان باب الحديد فسلمت على الآنسة راندا بكثير من المودة والتقدير ثم نزلت متجها الى المحطة لأركب القطار الى البندر كأنني لم أعد الا ضيفا بالنسبة له .

أقول لك الحق انني لم اهدأ من الصدمة الا فى قريتنا حيث ذلك الرجل المجهول الهوية الذى تعود ان يدس رأسه بجوارى على السرير ويقرصنى فى كل شىء قرصات موجعة لكنها تنير بصيرتى بعد ذلك ، واذ التقيت بهذا الرجل المجهول وهو الوحيد الذى يشبهنى فى كل شىء علمت منه ان الأمر ليس خالصا لوجه الصداقة أو حتى الحب . ان مثل هذه الرومانسية لم تعد موجودة فى الدنيا فقد انتهى زمنها ، فما الذى تهدف به الآنسة راندا من وراء كل هذه التضحية من أجلى ؟ صحيح انها فى حسابها لا تعتبر أكثر من صفر ولكن لماذا ؟ ربما تريد ان تشتريك لتصمت عن اللغو ببعض ما حكته لك ؟ أو ربما هى تدبر لاستغلال شبهه برشا الخضرى فى أمر جلل ؟ .

لكن كل هذه الخواطر لم تكن ثقيلة الوطء على ، انما كان الهم الأكبر فى نظرى لحظتها هو : كيف أقبل فى النهاية ان أعيش فى مسكن أجرته لى فتاة ودفعت ايجاره من حر مالها ؟! .. انها ليست أى فتاة والظرف ليس أى ظرف ، أى انني لابد أن أكون مأجورا أو مباعا على أى وضع .. وهكذا قررت فى الحال فسخ هذا العقد الذى أرى انه سيكون فى حقيقة الأمر تعاقدا على ما هو أكبر من شقة ، والأمر ببساطة يمكن ان يتم بالتليفون لصاحب العمارة . ثم عدت فتألمت من الوضع ، هذه تكون اهانة لراندا التى عاملتنى بشكل كريم ، ولابد أن يكون الفسخ معها هى والا كنت جلفا بلطجيا خسيسا .

كان الأمر عصيبا وصعبا ، فلما تذكرت ان فى جيبى ايصـال بشهر هدأت نفسى قائلا اننى خلال هذا الشهر أكون قد استطلعت جلية الأمر وبانت لى النوايا ، ثم أترك الشقة آخر الشهر على أية حال ولكن بعد ان أكون قد اقنعت راندا بعدم احتياجى الحقيقى للشقة ٠

غير ان الشهر جر شهرا والأخير جر أشـهر طوالا ، حتى انتهت شهور الدراسة والعجيب اننى لم أر الآنسة راندا خلالها أبدا ولم أجرؤ على البحث عن تليفون لها وان وجدته فلست أجرؤ على طلبها ٠ وكانت ندرة اللقاء بها قد دفعتنى الى المبيت فى الشقة ليال كثيرة متواصلة علنى أجدها أو أسمع أخبارا عنها ولكن دون جدوى ٠

لكننى لاحظت ظاهرتين عجيبتين جدا ، الأولى هى فرح البـواب وأهله بتواجدى فى الشقة مهما كان معى من أصدقاء وزملاء ، حتى ليخدمنا البواب وأولاده وأحيانا الولد الأفندى خدمات كبيرة وبصدر رحب ودون انتظار لبقشيش ٠ الثانية هى ادعاؤهم الدائم بأنهم لا يعرفون كلما سألتهم عن الآنسة راندا ، حتى أوهمونى فى بعض الأحيان أنهـم يسمعون اسمها لأول مرة ٠ وسرعان ما اكتشفت اللؤم وراء هذا الادعاء ففهمت انهم لا يرحبون بأى حديث عن الآنسة راندا لا من قريب ولا من بعيد ٠ اما الظاهرة الأولى فلم أفهمها الا بعد حين ، اذ فوجئت مرة بالولد الأفندى يركب نفس الأتوبيس الذى أركبه كل مرة وأنه ينزل فى نفس المحطة التى أنزل فيها وان ذلك يحدث من فترة سابقة ٠ ثم فوجئت مرة بزوجة البواب تنظف لى الشقة كالعادة وتسألنى عن أخبار رشا الخضرى بشكل غير مباشر وأحيانا ببساطة الواثقة من اننى أحمل أخبـارها ، كذلك فوجئت بأن ابنة البواب الصغيرة تفتش فى أوراقى الخاصـة بسذاجة مريبة جدا ٠ كذلك فوجئت بالمعلم نفسه يتصيدنى من حين الى حين ويدعونى لشرب حجرين على الشيشة فى المكتب ، فألبى الدعـوة ، واكتشف أن الحجرة من الداخل مرسومة بشكل غريب ، اذ أن حوائطها

مجوفة من نواح كثيرة بأشكال الايوانات والنوافذ على شــكل نوافذ المساجد • فلما شربت الحجرين مع المعلم أول مرة كان الحشيش فيهـا زاعقا وقويا فبدأ التنكيت من أول نفس ، وسألت المعلم ان كانت هذه الحجرة قد انتزعت من مسجد قديم هى الأخـرى كمـا انتزعت هذه الاشياء ؟ وهل اشتراها من المزاد مثلا ؟ • فضحك المعلم ضحكة تقول ان نكتتى سخيفة ، ثم هز يده البضة أمامى مشوحا ، شارحا لى كيف أنه صمم الحجرة فى الأصل باعتبارها مسجدا يمنح العمارة امتيازات كثيرة ، فلما اكتملت العمارة وجد ان ثلاثة أرباع سكانها من الأجانب أصحاب شركات الاستثمار لا يؤمنون بالصلاة ، والربع الباقى من السكان يفضل الصلاة فى عمله حيث انهم لا يعودون أبدا ولابد انهم مهاجرون فى الداخل أو فى الخارج ، فعلام المسجد اذن ؟ • هكذا سأل نفسه ثم أبقاه معلقا فترة طويلة فلما لم يسأله أحد أو يستفسر منه أحد حوله الى شقة هى التى أجرتهـا وحجرة هى هـذه التى نجلس فيهـا أفليست فائدة بزمتك ؟ • ثم انه عبر كثير من الأنفاس بيننا جاء بسيرة رشا الخضرى عشرات المرات وسألنى عن عمارتها الفلانية ماذا فعلت بها وعن محلهـا التجارى الفلانى ماذا بشأنه وعن شركة السيارات هل باعتها أم لا تزال تبحث عن مشتر •• الخ هذه الموضوعات التى أفاجأ بأننى آخر من يهتم بها أو يشغل نفسه بأمرها ••

قل أننى فوجئت بأنى محاصر بجيوش تقودها رغبـة دفينة ملحة فى الكشف عن مدى صلتى برشا الخضرى ، مفترضة مقدما اننى قد أمكر بها وأنفى قرابتها وأنجح فى تمثيل ذلك • وقد حدث ان حيانى البواب ذات مرة فى ابتسامة كبيرة قائلا : « شفتك معاها يا بيه •• مش كان واجب تنزل تشرب قهوة ؟ • لكن دى ست طيبه قوى يا بيه والله العظيم •• أنا باحبها ومن عشاقها قوى قوى » • فتسمرت واقفـا أقول له : « هى مين يا جدع انت ؟ » • فقال ببساطة صفيقه : « الفنانة رشـا الخضرى يا بيـه واحنـا تايهـين عنهـا ؟ » • صحف فيه بعنف : « امتى الكلام ده ؟ » • فقال : « امبارح يا بيه ساعة ما كانت يتوصلك

بالعربية » فاذا بى انفجر ضاحكا فى جنون ، حيث تذكرت ان معيدة فى كليتنا تسكن على امتداد هذه المنشأة وان الصدفة وحـــدها أوقفتنى بجوارها قليلا حتى جاء زوجها ليأخذها بعربته ، فباعتبارى فى طريقهما ركبت فتكرم الرجل بتوصيلى الى مدخل العمارة ، ثم ان هذه الزميله المعيدة لم يكن يربط بينها وبين رشا الخضرى أى شبه على الاطلاق ، مع دلك فان البواب لم يرها هى بل رأى رشا الخضرى · المهم اننى بعد ان دمعت عيناى من الضحك المؤلم حاولت افهام البواب بحقيقة الأمر فكان يهز رأسه مرددا : « هيه ·· أيوه » ، ولكن شيئا راسخا فى عينيه يقول انه لن يتنازل عن اعتقاده بأن رشا الخضرى بنفسها أوصلتنى بعربتها لحد البيت ··

فى اليوم التالى قررت الاختفاء تمـــاما من عاصـــمة بنى الأزرق برمتها · لكن قدرتى على ذلك استمرت أسبوعا واحدا اضطررت بعده الى زيارة الشقة لعشرات الأسباب الحلوة التى ربطتنى بها كمركز ومقر جميلين ، وكنت بفضلها قد ارتبطت ببعض جهات أترجم لهـــا أوراقا ورسائل وقوائم وفواتير نظير مبالغ لطيفه ، وجهـــات لا تستنكر حين أتقدم لها كقاص وروائى ناشىء ، ويسهر معى فى الشقة ناس وأصدقاء يجىء بهم أصدقاء فأتعرف على ناس باستمرار أنتفع من علاقتهـــم بما يسمح لى بدفع ايجار الشقة شهريا ··

بعد ذلك الاسبوع مباشرة تصادف ان ذهبت الى الكلية فوجدت الآنسة راندا هناك فى حجرة يبلغنى صوتها وضحكها ، فلم أقو على مغادرة المكان دون ان أراها وترانى · فتقدمت نحو حجرة العميد وسللت رأسى من وراء الحاجز القطيفى فوقعت عينى على عينها · فاستمهلتنى بيدها ثم استأذنت وجاءت مسرعة فى رشاقه · فلما خرجت سلمت على فى شىء من القلق غطته بقبضة يدها حول يدى وقالت مندفعـــة : « خـــير ·· فيه أيه ؟ ·· حصل ايه ؟ » قلت : « أبدا ·· فيه ايه ·· تقصدى ايه ؟ » · قالت دون تدبـــر : « فيه حاجـــة حصلت لك لا قدر الله ؟ » · قلت :

« لا » • قالت : « أصلك غايب عن الشــــقة بقالك أسبوع » فقلت : « مفيش حاجة كنت فى البلد » • ثم ذعرت فجأة ، اذ كيف علمت بالخبر وهى منقطعة الصلة بى منذ شهور ؟ • وحينئذ أدركت انها فى الواقع على اتصال تام بى عبر جيش من الخدم الرعاع ، وان الآنسة راندا هذه ليست طفلة بريئة كما كنت أتصور ، انها مؤسسة كاملة من الجواسيس والعيون والعلاقات لا قبل لأمثالى بصدها أو الزوغان منها ، وان الآنسة راندا هذه الجميلة الفاتنة الى حد مذهل هى أيضا شريرة الى حد مذهل . أين منها عشرات المعلمات البارزات من أمثال رشا الخضرى أو بمبه كشر أو ما شاكل ذلك من شهيرات السساء ، كل أولئك تفاية بالنسبة لها ، انها لغادرة وفاجرة ، لم تصدق يمينى لها على المصف ، وكانت بالتأكيد ــ وهى بهذه الصورة ــ تستطيع أن تستطلع شهادة ميلادى حيثما كانت وتأتى بكل صغيرة وكبيرة عن أهلى ، لكنها فيما يبدو أرادت أن تضعنى فى أحد سجونها تحت المجهر لتستخدمنى فى عرض ما فى لحظة ما • ترى ما الذى تديره لى هذه الداهية الكبيرة ؟ • اننى وكنت قد ختمت بأصابعى العشرة أن أمها أدهى شخصية على ظهر أرض البلاد ، أعود الآن فأسحب هذه الثقة لأضعها طائعا فى ابنتها راندا فأقول انهـــا أدهى بكثير جدا من أمها ••

وهكذا قررت أن أنتقم من نفسى لنفسى ، أى ان أواجــه الموقف بشجاعة فأنتزع نفسى من السجن غير مبال بما قد يصيبنى الانتزاع من جروح وفروح ودماء ، هى جروح أو قروح لابد ان يشفيها الطبيب ذات يوم ، أما البقاء فى مثل السجن ــ هذا السجن بالذات ــ فان قروحـــه لا تداوى وليس ثمة من شفاء لها ••

ثم جذبت الآنسة راندا برفق قائلا : « عايزك فى موضـــــوع مهم » • فانجذبت معى بسهولة ثم استدارت عائدة بسرعة فحيت العميد وارتدت عائدة فى حماس كبير • حدست انها قد داخلها بعض الأمر فى أن أكشف عن سرى وأنتهى وأعترف اننى أنسلخ بالفعل من جلدة رشـــ

الخضرى وبناء عليه فالأمر كذا وكيت ، وكنت ألمح ذلك الأمل قائما فى عينيها وهى تغرينى أثناء المسير بسهرة هنا أو أخرى هناك ، فان أعصابى فيما يبدو على غير ما يرام ، وان شيئا لابد قد أصابنى وكدرنى ولهذا فهى أول من يعنى بالوقوف معى كما وعدت ، وتسهيل وتيسير كل ما أراه معقدا • اقتراحات بسهرات ترددت فى رحابها أسماء أماكن كبيرة خيالية اسمع عنها فى الجرائد ، وهذا المكان يتميز بكذا وذلك يتميز بكيت واننى أستطيع أن أختار ما يوافق هواى ويرضى أعصابى المضطربة مهما كان الثمن ••

الحق لله كدت أحس اننى بالفعل مضطرب الأعصـــاب وفى أزمة رهيبة تحتاج لمثل ما تقترح هى بل اننى دلست على نفسى قائلا لهـــا ان ما أريد قوله يحتاج لواحد من هذه الأماكن • لكننى وهى تضع يدها فى يدى كأننا خطيبين انتابنى زعب هائل هائج لمجرد احساسى بأنى قد أسلست قيادى لراندا • وأردكت اننى ان جلست فى واحـــدة من هذه السهرات المقترحة فاننى لن أسلوها أبدا ، ومن ثم لن أستغنى عن انفاق راندا ، وبناء عليه قد أضطر الى بيع نفسى على الدوام حتى يرخص قدرى شيئا فشيئا فأصبح بلا سعر ولا قيمة • فتوقفت عند السيارة قائلا فى اضـــطراب :

ـ « آنسة راندا •• أنا آسف •• الموضوع اللى أنا عايزك فيـــه ما يستاهلش الاهتمام ده كله •• أنا بس عايز أقول لك •• انى خلاص معدتش محتاج للشقة •• خسارة تفضل فاضيه •• ان كان حضرتك تقدرى تستفيدى بيها فآدى عقدها •• لأنك فى الواقع صاحبتها الحقيقة حتى لو كان العقد باسمى •• أنا أشكرك •• الأجـــازة خلاص حتبـــدأ وأنا ربما انتقل للجامعة بتاع المحافظة اللى احنا تبعها •• فألف ألف شكر يا آنسة راندا •• أنا مش عارف أودى جميلك فين » ••

ثم سربت يدى بالعقد من النافذة نحوها ، وكانت هى قد أومأت لى باسمة وتركتنى أتكلم بل وتركتنى أضع العقد فى تابلون السيارة ،

ثم دخلت هي وفتحت مسوجر الباب ايذانا لى بأن افتحه وأدخل · هي لم تصوب لى أكثر من نظرة ، فهمت منها أن تصرفى هذا خشن وغليظ ويخلو من كل ذوق · أبدا لم يكن للانثى فى عينى قدرا يماثل قدر التعنيف والاقناع بأننى يجب ان اعتذر عما حدث على الأقل بركوبى السيارة · وهكذا ركبت وانطلقت السيارة ، وأخذت أحس شيئا فشيئا ان الجلوس بجوار راندا في سيارة خاصة تقودها هي أملة كبيرة جدا لأمثالى ممن يعيشون فى الحوارى والقرى التى تشبه الى حد كبير صناديق النفاية وهكذا أيضا لم أنطق بحرف طول الطريق · لكن أجمل شيء انني تخلصت من العقد كأنه وثيقة الاتهام ··

وكانت السيارة متجهة الى مكان ما في الصحراء الشرقية البعيدة · لكن نظرة ذكية شقية مذهلة لمعت فى عينى الآنسة راندا فجأة ، وبدأ كأنها تذكرت شيئا هاما وخطيرا جدا · طرقعت بأصبعيها قائلة فى مرح عظيم : « بس ·· هى ·· على النعمة هى » · قلت فى فضول : « هى ايه ؟ » · قالت وقد تحولت الى بسمة كفتحة النهر : « السهرة الجميلة ·· افتكرتها ·· حتسهر سهرة بقى ياد يا مأمون ·· ياد يا أستاذ مأمون ·· عمرك ما سهرتها فى حياتك ·· وعلى فكرة ·· لو ماكنتش عزيز على يا مأمون ·· ماكنتش وديتك هنا · بس أنا اتفقت معاك على اننا حنعيش أصدقاء ·· وأنا التزمت ·· لأن أخلاقى وتربيتى تحتم على الالتزام بوعدى ·· وحافضل فى موقف الصديق المستعد للتضحية المقدور عليها ·· أما اذا الطرف الآخر أراد أن يركل هذه الصداقة برجله ويتنكر لها فهذا شأنه ، ولست أظن ان أخلاقياته تسمح له بذلك » ··

وقشعر بدنى · أحسست انني لست فقط فى سجن بل قد دخلت تقريبا فيما يشبه الرحم ، وها أنذا فى محتوى رطيب حنون لا مثيل لمناخه · فهل يمكننى الخلاص ؟ وكيف ؟ · قلت في نفسى : « اصبر على الأقل هذه السهرة لكيلا تكون نذلا فى نظرها ، ثم انقطع بعد ذلك

شيئا فشيئا عنها الى ان يفصلكما الزمن من تلقائه · وهكذا ظللت صامتا حتى وصلنا الى جبل المقطم · للعام فجبل المقطم هذا اسـم مستعار ، استعارته عاصمة بني الأزرق من قاهرة المعز على سبيل التقليد الساذج الأعمى ، ولما لم آكن قد زرت في حياتي مقطم قاهرة المعز فانني أعترف ان مقطم عاصمة بنى الأزرق ليس رديئا وليس سـاذجا بل هو جميل جدا الا اننا دائما هكذا يا أولاد بنى الأزرق : نسفه من أحيائنا القومية كما نسفه من أشيائنا الخاصة تجاه النموذج الذى تقلده ··

وقالت الآنسة راندا ونحن ندخل الحى الجميل انها مدعوة لحفل عيد ميلاد احدى صديقاتها العزيزات جدا وهى من المحتمل ان تـكون زميلتى فى نفس المدرج وسوف آراها على أية حال ، ثم أضافت قائلة : « وسوف ترى أمى ·· نعم فهى مدعوة هى الأخرى ولابد أن تذهب » · ثم أضافت بعد برهة تنبهنى الى أنها كانت ستضحى بهذه المناسبة المهمة فى سبيل ان تقضى الوقت معى فى أى مكان · ثم أقبلت علينا بناية مزدانة بالنيون ، وكانت طلائع المساء تهل محملة بأريج العطور والزهور والثراء السائب ··

***

ركنت الآنسة راندا بجوار الباب ثم نزلت وتركت السـيارة مفتوحة ، وقالت للبواب : « مساء الخير » · فانحنى لها · ثم صعدنا سلما مواجها فصرنا فى بهو مستطيل عريض تطل عليه الستائر المخملية المفتوحة ، الذوق مرتفع جدا ، الى درجة تشى بأرستقراطيـة قديمـة مستنيرة · أنا دائما – والحق يقال – لا أنزعج من المظاهر ولا من الثراء المادى الا بين أيدى الاخساء والبلطجية ومنعدمي الضمير حتى ولو كان المال وريثهم من أجيال بعيدة ، لأن المظاهر عندهم تكون فشخرة كذابة والثراء المادى سفه · انما يعجبني حقا ان تكون مظاهر الثراء ليست مجرد مظاهر للثراء بقدر ما هى تمثيل لقيم ومعان وأبعاد ومراكز يتمتع

بها أهل هذا البيت أو ذاك · ويعجبنى الثراء حين اكتشف أنه حرية فى الانفاق على الأثر العظيم بلا حدود ··

الحق ان المظهر خدعنى وتصورتنى فى ضيافة أسرة أزرقية أصيلة قديمة ، بالفعل قرأت لافتة نحاسية كبيرة على الباب عرفت منها أننا فى بيت أسرة يشتهر من بينها أسماء عديدة فى جميع الوجـوه والأنشـطة تقريبا وعلى مدى أجيال طويلة ، فمنهم الوزير ورئيس الوزراء والشاعر الكبير والممثل الشهير وفيها أيضا البائس العظيم والمتمرد الحلو ··

ومن أول ما دخلنا بدأنا جدول ترحيب وسلام وأشواق اسـتمر ما يزيد عن نصف ساعة · فما كدنا ننتهى من أهل البيت وحدهم وهم كما بدا لى أكثر من عشر أسر تقريبا تحت اسم كبير ، حتى استأنفنا من جديد القيام والاستقبال - جاءت صديقة راندا وجلست بجوارنا ، ونظرت راندا الى كل منا وقالت : « هل أنا محتاجة لتقديم كل منكما الى الآخر ؟ » · وقالت نظرة صديقتها لنظرتى أننا بالفعل نعرف بعضنا ولكننا فى حاجة الى التشرف بمعرفة الأسماء فحسب ، اذ أننى وصديقتها طالبان فى سنة واحدة فى قسم واحد وكثيرا ما آراها وترانى · هزت صديقتها رأسها اللطيف وعينيها العسليتين كأنهما صـدفتين فى كل منهما لؤلؤة ، ثم قالت بلباقة : « انا باهى » · فابتسمت راندا قائلة لها : « ما تنصبيش عليه بقى ·· قوليله اسمك الحقيقى » · ورنت ضحكة شارك فيها كل من حولنا ، وقالت « باهى » متحدية : « قصدها تقول لك ان اسمى بهيه ·· واحنا مختصرينـه لباهى ·· على كل حـال مش مشكلتى ·· انتو اللى اختصرتوا ·· ان كان على أنا شخصيا أموت فى اسم بهية ·· ده اسم جميل وشيك وله معناه · بهية » · فعلق ولد شاب مقلدا محمد العزبى : « بهيا ·· ا ·· ا ·· ه ·· وعيون ·· و ·· و ·· » · وضحكنا جميعا فى مرح ، ثم قلت : « أنا أشاركك الاعجـاب باسم بهية ·· ومع ذلك فاختصاره الى باهى جميل أيضا ·· أما أنـا فاسمى مأمون » ·· ورحبوا جميعا بنبرة صادقة : « أهلا وسـهلا ··

تشرفنا يا أستاذ مأمون » . فبدأت ارتبك لشعوری بأننی صرت مهبط الأنظـار ، فلابد لأی شاب يجیء مع رانـدا فی حفل كهذا ان يـكون مهبط الأنظـار ..

بدأت كذلك أغرق فی خجـل . وخفت من الانعزال فحاولت الاندماج بأی شكل . استجبت لدعوة على كأس رغم تحريمی للشرب على نفسی .. ماشی . ولم أشرب غيره ، لأن الدنيا انقلبت بعده مباشرة ولم يعد أحد مسئولا عن أحد . هاجت الدنيـا وماجت فی هذا المربع الصغير ، حيث انزاحت ستارة فی مواجهتنا وظهر من خلفها منصة مسرح أنيقة مفروشة بالسجاد العجمی . وظهرت فرقة موسيقية كاملة لا تدری من أين دخلت وجلست تداعب الأوتار . لكن لو دققنا النظر خـلال ممر صغير بين ستارتين لوجدنا طرقة تتصل شرفاتها العريضة بشرفات بيت خلفی كبير . وتذكرت اننی كنت اقتيدت الى هذا البيت الخلفی السحری منذ ساعات حيث تناولنا العشاء على مائدة ولها عشرة أمتار فی عشر صفوف متوازية فيها من الخرفان الى العصافير وقلاع الحلوى . وكنت افتقد راندا لأوقات كثيرة ، انظر أحيانا فافاجأ بها جواری وأحيانا فأفاجأ بها غير موجودة . « النمر » أخذت تتعاقب فوق المنصة : « هانی شاكر ، ليلى جمال ، على عليوه ، نبوت الغفير ، أحمد بلطية .. أكل ذلك من أجل عيد ميلاد « باهی ؟ » .. ياله من شیء غير عظيم .. يجب ان اسحب تقديری لهذه الأبهة وأغير نظرتی للقوم ..

لكن الدوامة الاحتفالية تفاجئنی بأشياء كثيرة لا أفضل رؤيتهـا ، من صور فاضحة على هيأة رقص ولعب وتفاريح ، وسكر بين ، ومجتمعات صغيرة مكثفة فی هذا المربع الصغير ببراعة فائقة ، ناس تمارس الرقص المتهتك ، بجوارهم آخرون يتكلمون فی العملة وأسعارها ، بجوارهم شاب وجيه ينصب على امرأة ثرية لكی يوقعها فی غرامة ، بجوارهما طالبتان فقيرتان من زميلاتنا فی الكلية يرددون ألفاظا وتعبيرا خارجـة لم يكن مظهرهما ليوحی بها أبدا ، والمغنی ينزل متجـولا بين الصفوف الثملة

المنسلخة مرددا : « حبه فوق وحبه تحت » ، وبتلقى النقوط بسخاء كأنه صندوق النذور ..

ثم حدثت موجة من الانتباه المفاجيء تنقلت بين الجميع ، اذ تبادلوا الهمسات قائلين لبعضهم البعض : « وصلت ؟ .. وصلت » . ثم ارتدت الموجة من جديد قائلة : « بس مش حتغنى .. جـايه تهنى بس .. مش عامله حسابها على المغنى » . قلت لنفسى ان هذه الحمـاوة يليق بواحدة كفايزة أحمد أو وردة أو نجاة من بقايا مطربات الديار المصرية الشقيقة . ولم استبعد ان تكون احداهن صديقـة لأهـل هذا البيت أو مستفيدة بشكل من الأشكال . وفى تلك اللحظة كان الولد الواقف على المنصة قد فقد كل الحواجز الفاصلة بين الأشـيـاء ، بين ما يقـال وما لا يقال ، فراح يهدر بنكات يشمئز منها البدن ، لكننى لاحظت أن كل من هاهنا لا يشمئز لأنهم جميعا فى قلب الاشمئزاز غارقون ، أنهم بعض هذا الاشمئزاز ..

وصل بى القرف الى حد لا أحتمله ، كأنما المطلوب منى ان أخرج من هدومى بل من شخصيتى كلها . من حسن الحظ تلفت جوارئ فرأيت راندا جالسة تغمزنى قائلة : « تعالى » . فقمت معها فى الحال . قالت فيما نسير بين الحشد : « حنقعد بعيد عن الزيطه دى شوية .. جوه » . قلت : « أحسن » ومضيت وراءها . سرنا طويلا جدا بين أبواب ومداخل وسلالم كأننا نمشى فى شارع لا ينتهى . ثم هبطنا سلما ومضينا فى طرقة صغيرة رفيعة . ثم عدنا فصعدنا سلما فى نهايتها ومضينا فى بهو مربع ذى نافذة على اليمين ، نظرت عبر ستائر هذه النافذة فرأيت نافذة مشابهة تماما فى كل شىء وأشباح الحفل تبدو خلفها ..

حودنا الى اليسار وسط أضواء هادئة تنبعث من أماكن شبه مجهولة فى الجدران المبطنة بالخشب الثمين . وكان ثمة لغط احتفالى فى كل الحجرات المطلة على البهو المربع كأنما جاءت المدينة كلهـا تحتفل بعيد ميلاد « باهى » فكرت اننى حين ألقاها بعد ذلك سأقول لها : « يا بهية

وخبريني على حقيقة الأمر » • في آخر حجرة وهي أكبر الحجرات كما يبدو كان ثمة صالون كبير جدا فاخر جدا يجلس فيه رهط كبير من المحتفلين ميزت فيهم « باهي » ، التي نهضت واستقبلتني مرحبة من جديد لتجلسني مكانها بجوار السيدات الفاتنات ، وقدمتني قائلة انني صديقها وزميل دراستها الأستاذ مأمون عكاشة وانني من لوامع الزملاء بنشاطي الأدبي والطلابي •• الخ • فهتف الجميع في نبرة ودوده : « تشرفنا » • فرفعت يدي بالتحية مارا برأسي في اتجاههم جميعا • وكان أول شعور يعتريني بين هذه الكوكبة نساء وشباب وصبيان وعجائز هو شعوري بأنني قد صرت محط الأنظار حقا • الجميع يبحلقون في كأنهم يتفرجون على نجم ، وكنت كلما ركزت النظر في عين تبحلق في ابتسم صاحبها في صفاء وقال : أهلا وسهلا فأقول : أهلا ، ثم أغوص في خجلي من جديد ••

مررت بنظرات سريعة لعدة مرات على أوجه جميع الجالسين وفي كل مرة اكتشف شيئا جديدا فيها • وكان بصري يعود من جولته ليتلكأ دائما عند السيدة الجالسة قبالتي ، فأحس ان بصري قد استراح قليلا ووجد في وجهها ما يغري بالتأمل • بعد تلكؤ طويل ووسط بعض التعليقات الغامضة تيقنت من أنها « فهيمة » أم « راندا » • سررت اذ وجدت شيئا يشغلني ، فأخذت أدرس ملامحها وأتخيل ما حكته راندا عنها • لكن راندا قطعت على الخيط مشيرة الى أمها قائلة : « والدتي •• أظن واضح » • قلت : « واضح » ، ثم أنزلت ساقي عن الأخرى وهممت بالنهوض قائلا : « أهلا يا أفندم » ، فلما استجابت لحركتي هي الأخرى نهضت بالفعل وذهبت اليها فوقفت في احترام شديد وسلمت على بحرارة ، ثم عدت الى كرسي خجلا لا أرفع وجهي عن الأرض • جلست في مكاني ، وقد لاحظت أثناء عودتي أن جلستي محصورة بين سيدتين • جاءتني الصينية عليها كافة المشروبات ، فاخترت فنجان قهوة • وقالت راندا : « عايزين نسمع حاجة » • وقالت « فهيمة » أمها : « بيقولوا الأستاذ مأمون شاعر وأديب •• يسمعنا حاجة تحية لباهي » فضحكت

بصوت عال وقلت دون ان انظر فيها انني لا أكتب الشعر ولم آكن أعرف المناسبة من قبل • وقالت باهي ناظرة تجاهي : « احنا كلنا طمعانين فى صوت الفنانة رشا » • وهززت رأسي موافقا أنا الآخر ظنا منى ان بينهم هاوية للغناء اسمها رشا • لكن صوتا أليفا استمع اليه كثيرا فى الراديو والتليفزيون انساب من جوار اذني مباشرة يقول : « اســـمحوا لى •• أنا متأسفة خالص •• صوتى تعبان وواخده برد » • لويت رقبتى فى اتجاه الصوت فاذا بهذه التى تجلس لصقى مباشرة هي المطربة الشهيرة رشا الخضرى ، ثم انني ظللت معووج الرقبة تجاهها لوقت طويل جدا وهى تحاول الاعتذار من جديد عن الغناء وتبتسم من شدة بحلقتى فيها • وجاء الولد الذى كان قد علق على اسم بهية فى الأول ، وبلهجة مسرحية قال لى : « ما تيجي تقعد هنا عشان يبقى الوش فى الوش وتعرف تتفرج كويس » • فأردت تسخيفه فقمت بالفعـل واتجهت الى مكانه بجـوار فهيمة أم راندا فجلست فصرت فى مواجهة رشا الخضرى مباشرة ••

ثم ابتسمت فى خجل ، اذ اكتشفت سر الأنظار التى كانت مركزة على ، هى اذن كانت مركزة على اتجاه رشا الخضرى • هذه اذن هى رشا الخضرى • كان وجهها ملفوفا في ايشارب بنفسجى غامق وجســـدها ملفوف في معطف من الفرو الثمين ، يبدو وجهها منه كزهرة البنفسج ، كانت ثمة ظلال من هموم ومشاغل ومآسى عويصة تبدو من بعيد جدا فى خلفية هذا الصفاء • هى بالفعل جذابة جدا لدرجـــة انني لم أعـد مستريحا في جلستى منذ تركت جوارها ، لقد كان اشعاعها اذن هو الذى طوقنى وجعلنى آكن وأهدأ • الآن تمنيت ان يرجع الولد فى كلامه ويعود الى مطرحه ، فى عينيها الرهيبتين شيء بل أشياء كثيرة جـــدا لا يبرزها التصوير أبدا ، ان جمال وجهها وعينيها أبرع بكثير جدا من أبرع مصور فى الوجود ، حقا لقد عجزت الكاميرات الحساسة عن التقاط هذا الدفق من الحيوية والجاذبية يجرى ليس فقط فى وجهها بل وفى وجوه كل من تقع عينيه عليه • حينئذ أحببت رشا الخضرى حبا جارفا ابن ساعته • فنهضت واقفـــا وأشرت الى الولد ايـــاه قائلا بلطف :

« من فضلك ٠٠ خذ مطرحك وادينى مطرحى » ٠ فضحك الجميع فى سعادة وقال الولد بغمزة لم أفهم لها معنى : « ليه بقى ما كده .كويس »٠ قلت له : « لا ياعم ٠٠ أنا مش حاقدر أتفرج على وش الفنانة رشا أكثر من كده » ٠ فتغامزت نساء عرفت من غمزهن انهن عاهرات لا شك ، وقالت احداهن بعهر : « ليه يا قلب امك ٠٠ أنت ما تعرفهاش قبل كده ؟ » ٠ قلت فى تحد غير مقصود : « أبدا والله العظيم ٠٠ انتوا ما بتصدقوش ليه ؟ ٠٠ دى أول مرة أتشرف فيها برؤية الفنانة رشا » ٠ وابتسمت رشا فى خجل وامتنان وقال الولد : « لا يعنى عايز تلبد » ٠ قلت : « الله أعلم بالسرائر » ٠ قالوا جميعا : « معلوم » وجلست أنا قائلا : « أهلا يا مدام رشا ٠٠ دى فرصة سعيدة فعلا ٠٠ أنا باشكر الآنسة راندا والظروف الطيبة » ٠ هزت رأسها قائلة فى اقتضاب : « شكرا » ٠ ثم لاحظت أن الجميع قد انتظر برهة عميقة متوترة ، وكنت أبادلهم خلالها النظر مستغربا بل منتظرا أنا الآخر ٠٠

تدخلت « باهى » فى ذكاء ، وأشارت بيديها فى حركة مسرحية وشرعت تغنى احدى أغنيات رشا الخضرى ، فغنى الجميع معها ، ثم رددوا وكرروا ، فاضطرت رشا الى الاندماج معهم فى مرح جميل يغفر للأغنية ابتذال معانيها وعدم أصالة لحنها ، وصوتها رغم ضعف امكانياته حزين ملىء بالشجن المبكى ٠ فى الحقيقة استغربت جدا ان يكون الميكرفون هو الآخر يقلل من حلاة هذا الشجن المبحوح ؟ أتراه عجز حقا أم فضح عيوب صوتها فضاعت نبرته الجميلة ؟ أتراها تكون مجرد مغنية خصوصية تغنى لواحد بعينه فقط ؟ ٠ لكننى عبرت عن رضائى قائلا : « ما شاء الله ٠٠ ايه الحلاوة دى » ٠ وقالت باهى : « على فكرة يا مدام رشا ٠ الأستاذ مأمون مكانش معجب بصوتك ٠٠ من محاسن الحفلة أنها كسبيت صوت » فكأنما ألقت فى الجو صاعقة ، لكن نكته كسب الصوت سرعان ما فجرت ضحكة كبيرة ٠٠

وهنا نظرت رشا الخضرى فى عينى نظرة ثاقبة كادت تصرعنى ، نظرة توحى كأننى أعرفها من قبل كأننى تلقيتها من قبل كأن لغــة مشتركة تقوم من قديم بينى وبين هاتين العينين ، انهما على التحديد عينى أمى أنا بلا زيادة ولا نقصان سرقتهما هذه الفنــانة المتبرجة المبتذلة . سلطت عينى فى عينها كأننى أبحث فيهما عن شىء يخصنى ، فأصطدمت بنفس هذه النظرة المرهقة التى كثيرا ما وجهتها أمى لى فى لحظات الشعور بالمأساة . ثم اننى تذكرت الشبه المزعوم بينى وبينها فوجدته فى العينين أكثر وأعمق وأشد رهبة .. فعلا ان لهؤلاء جميعا الحق فى الفرجة على بدهشة للمقارنة بينى وبينها . أقول الحق أننى نظرت نحو الآنســة راندا باسما وقلت لها : « فعلا يا آنســـة رانــدا .. معاكى حق .. أنا لو مطرحك مش هاصدق غير كده » . فابتسمت راندا وهزت رأسها . وكنت أريد ان أضيف قائلا لهـــا ان التشابه الحق ليس بينى وبين الفنانة رشا الخضرى .. بل بينها هى وبين أمى ، نفس النظرة نفس البروفيل نفس الرقبة ونوع الشعر ونفس الصــدر والقوام وكل شىء فى جسدها كأنها نسخة طبق الأصل منها .. أكاد أظنها هى لولا تأكدى من موتهـــا ..

ثم اذا بى أميل نحو الفنانة رشا الخضرى قائلا فى صـــدق وصراحة : « أمال حضرتك منين يا مدام رشا ؟ » . وهنا انتبه الجميع كأن على رؤوسهم الجراد . وقالت الفنانة رشا أنها ــ كما سمعت من أمها ــ ليست من الجنس الأزرقى انما هى من أب تــركى وأم حبشــية أما هى نفسها فقد ولدت فى احــدى قرى الصعيد الأعلى لنهر الأزرق فاعتبرت نفسها أزرقية خاصة أن أباها وأمها مدفونان فى قريتهم بالصعيد الأعلى لنهر الأزرق . فهز الجميع رؤوسهم موافقين ، وقال الولد الذى تبادل معى المكان : « وحضرتك منين يا أستاذ مأمون » . الحقيقة خفت لبرهة ، فلو قلت اننى من قرية كذا بالوجه البحرى لعرف الجميع اننى بلديات عبد الجبار بيك وتهتز صورتى فأصبح واحدا يلتمس القربى

من عبد الجبار • لكننى اخترت اسم البندر الذى تتبعه قريتى وزعمت اننى منه هو نفسه • فلم يعلق على ذلك أحد ••

انتبهت فجأة على صينية كبيرة من الفضة المزخرفة مطروحة أمام رشا تتعاقب فوقها الهدايا من مظاريف بها أوراق نقد الى بعض التحف الثمينة • وراقبتها رشا الخضرى فانفرجت عنهـــا أزمة البرد وانطلق صوتها مغنيا كما لم يغن من قبل ، وبدت فى أعلى درجات المرح البرىء الضاحك ••

وبعد أن استراحت قليلا وشربت عصير الفراولة باللبن ، اعتدلت « فهيمة » أم « راندا » قائلة :

ـ « شوفى بقى يا ست رشا •• احنا بصراحة بنشكرك قوى قوى ونتمنى نخدمك فى الأفراح •• بس احنـــا بقى •• لينـــا خـدمه عنـــدك » ••

رفعت رشا عينيهـــا عن صـــينية الهدايا قائلة فى ترحيب مبتذل رخيص :

ـ « قوى قوى •• دانا خدامتك •• انتوا تأمروا بس » •

وقالت فهيمة هانم : « أصل الولد ابن سلفى •• ما شاء الله كان فى أوروبا بيدرس مزيكة •• ومتخرج من معهد الموسيقى العربية •• وله نشاط •• ونفسه يسمعك لحن من تلحينه •• اذا عجبك نبقه نشوف اذا كان ممكن يعنى تغنيه وتشجعيه واحنا عنينا لأى تكاليف يتكلفها » •

وقالت رشا الخضرى والكذب واضح فى عينيها : « ليه لا •• دانا حتى ما بيهمنيش الأسماء •• كان الأول •• دلوقت ممكن أغنى للمخنين شبان •• بس على شرط يكون لحن شيك ويخيش » وهنا تقدم الولد المذكور ، فاذا به قصير القامة أكرش دميم الوجه منساب الشعر فى اهمال متقن

على جبهته • بيده عود ثمين • ونظـــر لى مستأذنا فى احتلال مكانى فلم أجد مفرا من التنحى عنه • وقالت راندا : « تعالى مكانى » ، وذهبت هى الى جوار أمها وجلست أنا مكانها فغصت فى لهب عظيم •

احتل الشاب بعوده مكانى • وقال وهو يرفع فخده على الكرسى ليريح العود فوقه ، أنه لم يتفرنج فى ألحانه ولم يتأثر بالأشكال الأجنبية انما هو سيأخذ الأعمال الفولكلورية العتيقة ويجلوها ويوزعها بمقتضيات لحنية جديدة • وقال كذلك أنه نطبيقا لوجهة نظره سوف يسمعنا هذا اللحن الذى أخذه من أعمق أعماق التربة الأزرقية فى قراها البعيدة وخلق منه عملا فنيا رشيقا وجميلا ومضمون النجاح • قالت رشا وقلنا جميعا : « نسمع » • فأخذ صاحبنا يد وزن أوتاره ثم يبـــدأ فى عزف مقـدمة موسيقية مبهجة جدا وجميلة جدا اذ هى مألوفة لى جدا ، بدليل اننى أترنم مع ايقاعها دون أن أستطيع ترجمته الى كلام مع أن كلامه كامن فى ذاكرتى ، ثم اذا بالملحن يذهلنى ويخدر أعصابى بأول كلمة نطق بها ، اذ راح لفرط ذهولى يردد :

« رايحة فين يـــا بســيمة رايحة أزور عبـــد الجبـــار »

« دارك فين يـــا بســـيمة دارى دار عبـــد الجبـــــار »

« رايحـة تزورى ولا تحطى رقبــــة أهلك للجـــزار »

« ولا حتيجى وجايبه العـــار ؟ رايحـــه فين رايحـــه فين »

صفق كل الحاضرين فى حماس شديد الا أنا ، حتى رشا الخضرى صفقت هى الأخـرى من فرط الاعجـــاب ، وقالت : « تأليف مين الكلام الحلو ده ؟ » • فقال الملحن : « تأليف واحد غلبان كده بيتردد على معهد الموسيقى •• يظهر أنه كان حلاق ولا مانى عارف بس موهوب وطيب » • قالت رشا : « اسمه ايه » قال الملحن : « اســـمه حسن أبو غلفه » • ضحكت قائلة : « عجايب •• دا واد بيعرف يألف اهه •• دأنا ماكنتش

مقتنعة بيه » . فاستأنف الملحق عزف المقدمة من جديد وما كاد يدخل في الغناء حتى كانت رشا قد بدأت تردد معه اللحن كلمـــة كلمة حرفا حرفا ، وصار هو والجميع يغنون معها ثم يستخف بهم الطرب فيرددون : يا عيني .. يا سلام . وفي المرة الثالثة رددت رشا اللحن وحدها وهو يصاحبها بالعود . ثم قالت ان اللحن جميل جدا وانها سوف تظل طول عمرها تغنيه لنفسها اعجابا به ، لكنه ليس من لونها ، أنها لاتريد تقديم هذا النوع الريفي المحض لكيلا تدعى احدى المطربات الأقل منها مستوى انها تقلدها في لونها ، الا أنها ـ هكذا قالت وهي تتهيأ للنهوض ـ سوف يسعدها أن تتلقى ألحانا جديدة من سيادته وأنها سوف يسعدها أن تغنى له لحنـــا في القريب . ووقفت ، ووقف الجميع وسلمت على بعضهـــم وتجاهلتنى ثم مضت ، فاذا بالآنسة باهي تغطي الصينية الفضية بايشارب جميل فاخر وتمضي به وراء رشا . ثم اذا برشا تتوقف بعد خطوة وترتد عائدة الى قائلة في اعتذار ساحر : « آسفة .. ما سلمتش عليك .. أنـــا سعيدة قوى الليلة دى .. حاكون سعيدة أكثر لو سمعتنى صوتك في التليفون .. أهلا وسهلا » . ثم سلمت على بحرارة فأحسست ان قلبى كله يستكين في يدها بهدوء . لكنني نظرت في حاجبيها الرفيعين المتأهبين للتراقص في فجور فعاودني الاحساس بشيء من الاشمئزاز وسحبت يدى مؤكدا لصاحبتها كذبا انني سوف أتصل بها بلا شك ..

وكانت « باهي » قد انتهزت الفرصة وهبطت بالهدية الى عربة رشا ووضعتها فيها وأغلقت الباب . ثم ان رشا غابت وودعوها في حفاوة . وقلت لراندا انني يجب أن أنصرف فهل تأذن لي ؟ قالت نعم ، ثم مالت على أمها وتهامست بعض حوار ، ثم عادت الى قائلة : « تفضـــل » . فقمت وسلمت على السـيدة فهيمة وعلى الباقين ومضيت وراندا في أثرى ، ثم تقدمتنى هي الى السيارة .

***

كنت مدووشا جدا من كثرة ما دار ، فلم أنبس بحرف • وفوجئت بأن السيارة تقف بي عند العمارة ، وبأنني أنزل شاكرا ومع السـلامة وتصبحي على خير • ثم تقدمت وفتحت شقتي وارتميت على السرير كأنني أغوص في بحر من رغوة الصابون ذي الرائحـة الجميلة ، فها أنذا قد استرحت من حمل ثقيل ، ها هي ذي – راندا قد تأكدت انني لست من عائلة رشا الخضري ولا أمت اليها بأي سبب ، فماذا يكون مصـير هذه العلاقة ؟ • وقلت ان الأمر الآن يسمح لي بقبول السكنى في هذه الشقة ، وأما راندا فان مسار كل منا في الحياة سوف يتباعد عن الآخر دون ريب ، ثم نمت • وظللت نائما عدة أسابيع لا أحتمل التفكير في هذا الموضوع • ولم تتصل بي الآنسة راندا ولم أتصل بها •

***

ثم ان الدراسة قد بدأت من جديد وصرت ألتقي براندا كل يوم تقريبا فنكتفي بتبادل التحية الباسمة الودودة وينصرف كل منا الى حال سبيله • وكان الله قد أكرمني بأعمال يتجمع من ورائها ايجـار ومصروف لا بأس به يسند المرتب الحكومي • وكانت الشقة قد أكسبتني رونقـا وأبهة بين الطلاب • وأصبحت شقتي لا تخلو على الدوام من زملاء أصدقاء وأثرياء وآخرين فقراء ولكنهم جدعان • وأصبحنا نبيت في ندوة لنصحو على ندوة ، ويتبارى الشعراء والقصاصون في قراءة أشعار لهم وقصص ، وينبري لها نقاد من بيننا متعرضـين لها برءوس موضـوعات كبيرة وقضايا مهولة ••

الى أن ظهر في شقتي هذه من يدير شرائط سيف الماوردي ويدعو لها ويكتب دراسات عنها • فداخلتني فرحة كبيرة وقلت للتخلص منهم ان سيف الماوردي هذا هو خالي ولكن من أم أخرى • فقالوا كيف • فقلت متفاخرا : أقسم بالله انه خالي ، واسمه الحقيقي ليس سيف ولا ماوردي •• اسمه هريدي خليل هريدي ، ثم ندمت بعد ذلك على نطقي بالاسـم

الحقيقي حتى لو كان ذلك لصديق • ثم قالوا : اذن فهيا بنا اليه • انهم يحضرون مجلسه جماعات دون أن يكونوا معروفين لبعضهم البعض ، فجماعة تأتى بجماعة وهكذا ، لكنهم جميعا يأخذون معهم بعض الهدايا من مأكولات ومشروبات وفواكه ، وقد يتركون في يده بعض الجنيهات مكافأة له على جرأته وموهبته التي سخرها للمعارضة السياسية بواسطة الغناء • قلت لهم وأنا جد آسف انني لا أعرف مسكنه وانني منذ سنوات طويلة لم أره لظروف خاصة • قال واحد من خلصائي أنه يعرف مسكنه ومستعد لتوصيلنا • قلت انني مستعد للذهاب معيم اليه لمشاهدته على الأقل • فقال صديقي هذا : ما رأيكم لو دعوناه الى شقتنا هذه لنحتفل فيها على راحتنا ويكون هو ملكا لنا وحدنا نسجل منه ما نشاء ونكرمه آخر كرم حتى يجود بأحلى ما عنده ؟ • وقال صديق آخر من المشهورين بيننا بالخبث – والعجيب انه موهوب – ان شرائط سيف الماوردى تدر الآن دخلا عظيما لبعض المحترفين ، وانه آخـــر من يستفيد من عائدها المادى • قلت : كيف ؟ • قال لأن سيف الماوردى شخص بلا شخصية فى الواقع وانه فوق ذلك جاهل تمام الجهل وليس يعرف من أمور التعامل مع المثقفين أو التجار شيئا ، كما لا يعرف لغاتهم ، وذلك انه قد تعود على تلقى المنح التى يخيل له دائما انها أكثر مما يستحق ، فلم يعد قادرا على شغل نفسه بتنظيم حياته واستثمار مواهبه الرائجة ••

ازدادت دهشتى وقلت لهم أن شرائطه نادرة وغير موجودة فكيف تكون رائجة ؟ • قال الخبيث ان مثل شرائطه تروج فى الخفاء كالمخدرات ، ولذلك فان الشيء الوحيـــد المتوفـــر فى البلاد بكثرة هو الشيء الممنوع أو المحرم ، ومن يبيع شرائط سيف يأخذ فوق ثمنها ثمنا آخـــر ، ثمن كونها ممنوعة ، والمشترى يشعر بفداحة ثمنهـــا فيشعر بعظم أهميتها وخطورتها فيستمع اليها ربما فى السر وحده أو مع أصفياء ، ولا يعيرها والا ضبطت باعتبارها منشورات سياسية تشجع على قذف النظام الأزرقى بالطوب والحجارة بغية هدمه أو تشويهـــه حتى يصبح آيلا للسقوط • فأضاف الصديق الذى يعرف مسكن سيف ان الحكومة هى التى تشجع

على ترويج شرائط سيف الماوردى لأنه يمتص غضب النـاس وولعهـم بالانتقاد ، وان شرائطه متوفرة فى كل مكان لكن معظمها سىء التسجيل ، وميزة ان ندعو سيف الماوردى للغناء هنا أن نحصل على تسجيلات نقية صافية لا يشوبها هياج أو لغط • فقال الصديق الخبيث بلهجة ذات معنى ان هذا مطلوب بالفعل لكى يجد المشترون نسخة تستحق الدفع الثمين !!•

قلت أنا ان الأوساط جميعها يمكن أن يتواجد فيهـا من يتاجر بأى شىء غير صالح للتجارة • لكننى أوقن ان الأشياء دائمـا لا تأخذ وجهها الصحيح أبدا نتيجة لوجود التجار والمقامرين الكبار ، انهم فئة طاغية باغية تحترف المتاجرة ولو بمصائر الشعوب بأكملها ، ولأنهم أذكياء وأقوياء بشكل ما فانهم ينجحون فى تغيير وجه الأشياء بألعـاب جهنمية ، وعلينا نحن يا من نؤمن بدور الثقافة أن نتبصر أمر هؤلاء قبل كل شىء ونبصر الناس بهم • فلم يعلق أحد • فقلت : هل تدهشون اذا قلت لكم اننى لم أعد معجبا باغنيات سـيف الماوردى ؟ • قالوا فى تشكك : ألهذا لم تتصل به من قبل ؟ • قلت : ربما ولكننى لم أعد معجبا بأغانيه ولا بشخصيته نفسها . لقد استمعت الى الشرائط التى عرضت علينا الآن ، والى غيرها فى مناسبات سابقة كثيرة جدا ، وآخـر كلام أستطيع أن أقوله بشأن هذه الأغانى انها لم تعد تبهرنى كما كانت ، وقد أجدنى منساقا الى ترديد بعض أنغامها ، ولكن من قبيل استحلاء النغم أو الايقاع ، وهذه نصوص متناثرة كما نعلم ، بعضها ردود فعل لعصر سابق ، وبعضها تعبير عن العصر الحالى ، فلا نجد سوى كلاما مزبلحا زبلحة شعبية فى صورة فنيـة لطيفة ، وهذه الزبلحـة ـ أى تشايه الجميل المتسق بشىء دخيل اقتضته الضرورة ـ لها أسماء كثيرة فى قاموسنا العامى اذا أردنا ترجمة غير حرفية أو مدلولا قريبا الى الذهن، قل انها من الردح يجوز ، نوعا من التريقـة يجوز ، نوعا من تلعيب الحواجب وتطليع اللسان يجوز ، انه غنـاء الزعر المنسحقين المنحطين غناء من تحت عقب الباب ، غناء الخدم الذين يستنجدون بأى قوة ،

يعرفون مقدما أنها لن تهب ــ اذا هبت ــ لنجدتهم بل للتسيد عليهم ، فليس في الأرض قوة تهب لنجدة المظلومين أبدا أبدا أبدا ، هذه حقيقة ينبغي ان تكون في وضــــوح الشـمس يستظل بها الكافة ، ان العواء والصراخ حتى وهو يتحول الى غناء كهذا الغنـــاء يصبح اغراء للقوى الخارجيه المتحفزة ، يصبح حذبا ، يصبح هو الصـــوت الشجي لذي يناديها قائلا : تعالى واركبيني وطوحي ساقيك على مؤخرة أبائي وأجدادي وأمهاتي ٠٠ ما هكذا يكون الغناء أبدا ٠٠ ان ما بهرني فيه سابقا هو اكتشافه ان للغناء ثمة دور حاسم يسمو به عن الترفيه الرخيص ٠٠ لكن قدرة المؤلف والمغني وقفت عند هذا الحد فحسب ولم تتقـــدم ، ولأنهما ليس وراءهما ثقافة عظيمة توازي الدور فان تيار الاعجاب ــ وهو تلقائي دهمائي خشن ــ جرفها بلذة فائقـــة الى التنفيس عما في صدور الجماهير من آهات مكبوته ، مثلهما كمثل الخبير بمواضـــع الاكلان في جسدك فيروح يهرش لك فيهـــا وأنت تتلذذ ، وهو يهرش وأنت تتلذذ ، وسوف ترعى في جسدك البثور والدمامل والغرغرينات ويؤوب جسدك الى جده أيوب من جديد ولكن بدون سيادة أو عظمة ٠ صحيح ان الأغنية الشعبية في تاريخ الشعب الأزرقي كانت في معظمها نوعا من المعارضة أو الاحتجاج ، ولكنها كانت قبل هذا وفوق هذا تحمل مضمونا انسانيا محسوسا وقويا ، ولم تكن تستهدف أشـخاصا بعينهم للتنديد بهم أو فضحهم ٠٠ واني لاحتقر دور كل هذه الأغنيات الماوردية الى حد الازدراء ٠ وأعتبر أن مثقفي بني الأزرق مجرد دهمـــاء في حقـــل الثقافة ، فرغم أسمائهم الكبيرة وسمعتهم الرنانة يشجعون ظواهـــر ومعتقدات وأوضاع وأشياء من شأنها دائما تثبيت الشيء وترســيخه بل وخلق وضع له دون أن تدري ، أو لعلها تدري فيحق لنـــا حينئذ أن نعتبرهم جميعا خـــونة للشعب ولأنفســـهم ٠٠ لكل هذا فأنـــا ــ اسمحوا لي ــ ضد كل فن أو أدب أو كلمة تساهم في اشـــاعة مناخ الهزيمة والضعف ، ضد كل فن أو أدب يســـاهم في تجهيل النـــاس أو خداعهم ، وضد ــ بالأحرى ــ الأدب والفن الذي ينتجه المذهبيون

من شـــيوعيين ودينيين وعقائديين وما الى ذلك وأمقت الذين ينتجونه لأنهم سخروا مواهبهم في توسيع رقعة التحيز لأفكار بعينها أو عقائد بعينها أو عصور بعينها أى أنهـــم أجرموا ليس فقط فى حق أنفسهم بالحكم عليها بالانحصار والتوقع والتخلف ، بل فى حق الناس الذين تأثروا بفنونهم وآدابهم فاستضاءت فترات وتعتمت فترات ، وسادت أفكار وماتت أفكار ، وخطـــر ذلك انه يؤدى الى تجزىء الانســـــان وتمزيقه ٠

وكانت هذه الخطبة الانشائية التى تخلو فى نظرى من كل معنى قد خلبت لب الأصدقاء فعرفت أنهم غـلاية الى حد ما ، ليس لمحدوديه ثقافتهم فحسب بل لأن نصف مواهبهم تضيع فى الكيد بعضهم لبعض ، وافتعال فصول ونوادر شيطانية للتسفيه من قيمة بعضهم بعض ومن أصل بعضهم بعض ، مجموعة أحس عن يقين رغم اجتماعنا فى شقتى اننا لم ولن نجتمع فى يوم من الأيام على شىء حقيقى ٠٠ أفليس مثلهم الأعلى أغنيات على هذه الشرائط كتبت ولحنت خصيصا لشتم واحـــد واتهامه بالخيانة ، أليس طريفا وفوريا انهم يبالغون فى الاعجاب بهذه الشرائط وما عليها ، دون أن يلاحظوا ان أســـماء بعض الشخصيات اللامعة وردت فى بعض الأغانى باعتبـــارها المثل الأعلى فى الثورية ، ووردت فى أغنيـــات أخـــرى حديثة باعتبـارها شخصيات زرية خائنة وضيعة ؟ فاذا كانت الأغنية الأولى قد أعطت الدليـــــل المقنع على ثورية هذا الشخص فى حين قدمت الأغنية الثانية الدليل المقنع على خيانتـــه وانحطاطه فأين الحقيقة تكون ؟ ان ســلاح الفن لا يصلح الا للتمجيـــد فحسب ، ولهذا فالواجب أن نختار قيما نجسدها ونصنع لها تمثالا ، وليست قيمة الفنان فى انه يعرف كيف يتفنن ، انما قيمته فى مدى وعيه بخطورة السلاح الذى وهبه الله ٠

ان مأساة جيلنا انه لم يجد له أخوة كبار يؤنســـون وحشتـه ويبادلونه بث الأسرار والمعـارف ، فوجئنا بأن علينا أن نتصـــل رأسا

بالآلهة ، المسيطرين الكبار من جيـــل الخمسينات ، فكيف نستطيع الوصول اليهم أصلا وهم فى عليائهم بله أن نقترب منهم ، انهـــم آباء مرضوا علينا فرضا وليس ثمة من معابر أو قناطر بيننـــا وبينهم حتى سيف الماوردى يعتبر نفسه الها متواضعا يسير بين البشر ٠ وأكبر أثر تركه فينا صراع جيل الخمسينات مع جيـــل الستينات هو أن كثرت بيننا عيوبهم المتورمة ، التحمس بلا ثورية حقيقية وبلا مضمون سياسى حقيقى وبلا مبادىء حقيقة ، القسوة والعنف فى معاملة بعضهم لبعض ٠

ثم أنهيت كلامى قائلا : اننى مع ذلك موافق على دعوة خالى سيف الماوردى الى شقتى ، والتعرف عليه ان أمكن ، اذ اننى ــ تقريبا ــ لم أعد أتذكر شكله الا من خلال حكاياهم عنه فى بلدتنا يوم زارها خلسة فى أواسط الستينات ٠٠

ويبدو أننى قد أثرت فضولهم ، اذ رأيتهم جميعا يهتفون برغبة الذهاب اليه فى نفس الليلة ، ليس برغبة توجيه الدعوة اليه ، بل بحب استطلاع مما يمكن أن يحدث بيننا لحظة اللقاء ٠٠

★★★

عاصمة بنى الأزرق تحمل ملامح كثيرة من قاهرة المعز ، فهذه الأخيرة هى الأعرق والأقوم ٠ لكن المساوى والمهاوى التى يحفل بها النموذج المقلد ــ بفتح اللام ــ لا يتحمل نتيجتها الباهظة فى العادة الا النموذج المقلد ــ بكسر اللام ، ولهذا فان الأحياء المملوكية منتشرة جدا فى عاصمة بنى الأزرق ، مجرد ديكور قديم ، فاذا كانت قاهرة المعز هى التى رأت هذا التاريخ وعاشته أحداثا واقعة ، فان عاصمة بنى الأزرق تعيش التاريخ تاريخا تمعن فى تقليده واعادة تمثيله من جديد فترة وراء فترة وبأمانة الراغبين فى الابقاء على هذا التاريخ العظيم حيا قائما ٠٠

وهكذا دخلت مع الأصدقاء حيا مملوكيا قرأت أسماء الكثير من لافتاته الزرقاء فى كتب التاريخ ، الحى حافل بالباعة والبضائع والأموال على الأرض والأرصفة متناثرة · عن يميننا ميدان المشهد الأزرقى · وعن يسارنا حى الكرابجية الذى قيل انه كان يستوطنه جماعة تحترف صنع الكرابيج التى يحضر لشرائها سياح من جميع أنحاء البلاد ··

دخلنا فى حارة أفضت بنا الى حارة ثم عطفة ثم حودة ثم اختراق بوابات ودهاليز ، حتى صرنا فى حارة طويلة عريضة يخيم على جوها ارهاب خفى غريب ، والناس تتحرش ببعضها ، والمطاوى مشرعة على الدوام ، وثمة ترابيزات متناثرة عليها قطع الحشيش بأصنافه والأفيون بأنواعه · فذعرت . وهمسوا فى أذنى قائلين أننا فى حى تجارة الحشيش ومركزها الرئيسى فى البلاد ، وان علينا أن نسير مؤدبين وفى حالنا درءا للحكومة أو للبلطجية · وهكذا أغلقنا الآذان عن كل الدعوات التى وجهت الينا ونحن سائرون قائلة : « اتفرج يابيه ·· عندى حشيش طازة حلو ·· شوف واتفرج ·· زيت ما اتخلطش لسه ·· اتفضل يابيه ·· احنا عندنا مبدأ ترجيع الحشيش اللى ما يعجبكش حتى بعد ما تشربه كمان » · فلا نلتفت الى أحد أى التفات ، وان كانت نوازعنا قد تمنت أن يحصل كل منا على قطعة · وحين مال الولد الذى يعرف المسكن قائلا ان علينا ــ على فكرة ــ بشراء قطعة حشيش كبيرة نحيى بها سيف الماوردى ، وجد ترحيبا عظيما واستعدادا لدفع الفلوس فى الحال · ووجدنا ان جميع الناس تتوقف وتتفرج وتقلب وتختار وتشترى بكل بساطة · وقفنا نحن أيضا وتفرجنا واشترينا ربع أوقية وقطعة أفيون صغيرة لزوم السهر بثلاثين جنيه · ثم رحبنا جميعا ــ ولأول مرة ــ أن تظل هذه الأمانة فى حوزة الصديق ليقدمها حين الخروج من منطقة الخطر ··

غير انه دخل بنا فى حارة جانبية قذرة جدا · تنتهى نظافتها عند بيت على زاوية لتبدأ فى الحودة بيوت عبارة عن هياكل بنائية فقط ، بعضها يميل على بعض ويتمرد · بدأت أفقد الثقة فى أن يكون ثمة بشر ها هنا

يسكنون ، اذ هبطنا صحن دار مظلمة تماما وشرعنا فى صعود سلم متآكل قدىء كئيب ، وصديقى حامل الحشيش يصيح بنا فى ذعر : حاسب .. دماغك .. فيه بسطة فوقك .. حنحود .. يمين .. شمال على طول .. يمين تانى .. أيوه .. اطلع .. شمال وانزل .. أيوه .. وطى راسك شوية » . وهكذا حتى اصطدمت رءوسنا عشرات المرات كأننا مجموعة من الديدان تزحف بين فراغات الصخور الجوفية . فلما انفتح أمام طرقاتنا باب قمىء نظرنا فى الضوء العليل المنبعث من لمبة جاز نمرة خمسة فى الحجرة التى تواجهنا على بعد خطوتين فى ممر تمشى فيه بجنبك فقط ، وعشرات من الأفندية المثقفين والطلاب والصحفيين يجلسون فوق بعضهم كيفما اتفق ، اذ لا أثاث فى الحجرة سوى سرير حديدى سفرى مفروش بطبقة من العرق المتجلد المتصلب ، يجلس فوقه سيف الماوردى بعوده وبجواره المؤلف الحلو ، ومجموعة من الرجال والنساء ، وتناثر الباقون على الأرض فوق جرائد مفروشة ودكك خشبية خشنة ..

بهرت . لايمكن أن يكون هذا سيف الماوردى . لقد سمعت أنه يعيش فى شقة لطيفة عيشة نظيفة كريمة ، ولم أكن أتصور أبدا أن يعيش هذه العيشة المنحطة . وكدت أبكى من الشعور بالانسحاق . وقال صديقى حامل الحشيش ان سيف الماوردى قد طرد من جميع الشقق التى اتسعت له فيما قبل لأسباب متعددة . وكانت الحكومة قد طار لبها مرارا وسجنته مرارا . وضيقت عليه خناق الزوار ، فصار لا يجد حتى قوت يومه ، وهذه الحجرة التى يقيم فيها ليست حجرته انما هى حجرة ولد من هذه الحارة ورثها عن أمه وليس له شغلة ولا مشغلة فى الأصل سوى السمسرة بريزة أو شلن من وراء ربع قرش يشتريه لك ، ولما جاء ناس يسألون عن حجرة لهذا الرجل الغلبان سيف تلقفه لعله يعيش من ورائه ، وبالفعل فوجىء بأن سيف الماوردى هذا مهم وله جمهور غفير يجىء بالخير ، ولكنه يجىء أيضا بالحكومة فى كل لحظة لتأخذهم الى الحبس فى المعتقل شهورا .. على أن الزوار سرعان ما مسحوا مخ الولد وأوهموه أنه فنان حقيقى ذو قضية

لمجرد انه رسم أمامهم زخرفة يدارى بها شكل دولاب الحائط القبيح ، فاذا به قد رسم لوحة كما قالوا ، واذا بهم ينشرونها فى الصحف ، ويتكلمون عنه باعتباره فنان ، واذا به يطلق العنان لخياله الأهوج المعوق فيرسم تخاريف لامعنى لها ولكنهم يعاملونها باحترام هازىء ويشترونها منه ببعض نقود .. فأصبح يتقبل الاعتقال ويسعى اليه سعيدا ، وصار مرافقا لسيف الماوردى أينما ذهب ، وعمرت حقيبته بالبقشيشات وعمر ذهنه بالألفاظ والتعابير البراقة التى يرددها بلا وعى أو قصد أو ارادة ..

حينئذ قلت للصديق اذ روى لى ، اننى أرجوه ألا يجىء بسيرة قرابتى لسيف حتى لا يعرضه ذلك للحرج أمامى .. نعم لست أحب أن يعرف سيف اننى ابن شقيقته الآن لأنه لا يود أن أراه فى مثل هذه الحالة المنحطة . وأنذرت صديقى ان هو قدمنى بهذا الاعتبار فسوف أكذبه . فوعد الصديق بعدم فتح هذه السيرة .



أخذنا نعد الترتيبات اللازمة لزيارة سيف الماوردى لشقتى . كنت أحس بخوف عميق لمجرد انتشار الخبر بين الزملاء . حتى ذلك الشاب الذى كان قد علق على اسم بهية مقلدا محمد العزبى ، التقيت به فاذا هو شقيق بهية واذا هو ملم بالخبر . ودعوته على الحضور ، وقلت له ان سيف الماوردى سوف يحضر الى شقتى ليس باعتباره المغنى المدعو للغناء بل لانه أحد أقاربى سيجىء لزيارتى فحسب . ودعانى هو على شرب « حاجة ساقعة » فى مكان ما فرحبت على الفور ..

انطلق بسيارته الى مكان بعيد ساحر فى سفح احدى الهضاب الجبلية الجميلة . وأخرج من حقيبة السيارة كراسى حديدية كالأسرة مطبقة كالحقيبة وتنفرد بفرش من المشمع المتين . كما أخرج أيضا ثلاجة صغيرة

وزجاجة ويسكي وبعض المأكولات المعلبة • شربنا وأكلنا واستمعنا الى الموسيقى الأجنبية بل ونسينا الغرض من اللقاء ان كان ثمة غرض آخر • وواقع الأمر انني خلال اللقاء حصلت على اجابات شافية لعديد من الأسئلة التي كانت تدور في ذهني ، أهمها ما ثرثر به حول حفل عيد الميلاد •• يا •• كان ولدا لطيفا حقا ، ولو ان شخصيتي فارغة فراغ شخصيته لأصبح من أعز أصدقائي • لقد سب الحفل وأصحابه وكل ما جرى فيه ، حيث قد كلفهم الحفل مبالغ طائلة حرمتهم من مصروف جانبي كثير ، والسبب أمه ، فهي صديقة لأم راندا ، وهي تسعى دائما لكسب صلة هذه السيدة باستمرار معتقدة ان أخاها عبد الجبار بماله من سلطات داهمة يعتبر ثروة اضافة بالنسبة لهم • ولأن أمه فوق ذلك تعرف الفنانة رشا الخضرى اذ هي جارة مباشرة لهم وتعرف عنها كثيرا من المضايقات ويحدث بينهما الكثير من المجاملات لهذا فقد تلقت أمه وعدا من أم فهيمة بالحضور اذا حضرت رشا الخضرى ، وهذا معناه أن ينفق أبوه كل هذه المبالغ ويدفع لكل هؤلاء المطربين والراقصات لكي يكون الحفل مشرفا يليق بحضور رجل كعبد الجبار • قلت من فزع : « هل حضر عبد الجبار الى الحفل ؟ » • قال الولد اللطيف : « نعم •• أكنت نائما يومها ؟ » • ثم أضاف وهو يزغدني بكأس :

ـ « لقد حضر وحضر •• وجلس برهة انهار فيها وفقد توازنه وصار يضحك ويدمع •• ويفعل حركات كالأطفال الأشقياء •• كل ذلك ـ تصور ـ بمجرد رؤيته وجه رشا الخضرى من بعيد وعبر فتحة بين ستارتين •• فما بالك لو جالسها ورآها كاملة ؟ •• المسكين تلقى الأمر بالانصراف من همسة جاءت بها راندا •• فمضى زاعما ان موعدا مع ضيف هام قد حان •• لكنه قبل أن ينهض •• كانت رسالة منه قد أعطيت للفنانة رشا الخضرى وبقية المشاركين في الحفل •• أما الآخرون فانه أعطاهم نقوطهم عينا بعين عبر أمناء •• أما رسالة رشا الخضرى فقد أخذتها أنا لتوصيلها وكانت •• أتدرى كم ؟ •• عشرة آلاف جنيه •• باعتبارى ابن الأسرة الأمين فانه قد

اصطفانى فى السر على جنب وأوصانى بأن أختلس لحظة انفراد بالفنانة رشا الخضرى وأعكمها هذا المبلغ كهدية خاصة من عبد الجبار بك ·· من كثرة الفرح شهقت يا أخى يا مأمون ·· قال لى سيادته وهو يسلمنى اللفة الكبيرة فى جرنان استخرجه من شنطة السيارة : ماتنساش ياليم ·· اوعى تنسى تقول لها تتصل بى ·· قلت له : حاضر يا أونكل ·· اطمئن يا أونكل ·· تأبطت اللفة ·· اختفيت بها فى حجرتى الخاصة ·· فككتها سقط منها خطاب عليه عدد من النمر السرية لتليفوناته الخفية ·· الذى جعلنى أفتح اللفة أصلا يجعلنى أفتح الخطاب ·· فلما قرأته قررت اختلاس الأمانة كلها نكاية فيه ·· لكننى تنازلت عن بضع مئات منها وضعتها فى نفس اللفة الكبيرة ثم دخلت فوضعتها على الصينية بين الهدايا وهمست فى أذن رشا همسة مضغمة لا تقول أى شيء محدد ·· فهزت رأسها وقالت شكرا ·· وبهذا قد أشهدت الجميع على أننى سلمت لرشا لفة جرنان كبيرة واننى همست باسم صاحب الهدية الذى عرف الحاضرون بالايحاء انها من البيك الكبير ·· فنظروا الى فهيمة وراندا نظرة ذات معنى ثم ابتسموا » ··

جرعت الكأس كله كأننى سكير أصيل ، وجذبت « ليم » من ذراعه قائـــلا :

ـ « انتظر ياليم ·· أنت قلت الآن انك فتحت الخطاب ·· فما الذى كان فيه ·· ان ما فيه لهام جدا بالنسبة لى ·· نعم قل لى بربك ماذا كان فى الخطاب ؟ » ··

فشوح « ليم » بذراعه الرفيعة واكتس وجهه الدقيق المسمسم حمرة قانية ، ثم قال :

ـ « مراهقة عجوز متهتك لا أكثر ولا أقل »

قلت بحماس يقرب من الغضب :

ـ « ماذا قال بالتحديد ·· بالحرف الواحد ان أمكن ؟ » ··

تفكر « ليم » بعض الوقت · ثم صب لنفسه ملحق كأس جرعه وأشعل سيجارة · وكان مضطجعا على الأرض ببنطلونه الجينز الفاخر والقميص على اللحم ، وقال كأنه عجوز حكيم يدلى بأوصاف طفل تائه :

ـ « كلام من قبيل ياحبة القلب ، يالؤلؤة العين ، ياجوهرة الفؤاد ·· أهديك اغنية أنا من ضيع فى الأوهام عمره ·· اننى أنتظر لقاءك على أحر من الجمر ·· فبادرى بالاتصال بى ·· سأنقلك الى دنيا من الأسرار لو قبلت الارتباط بى ·· أقيم لك شقة فى أمريكـــا ، فى سويسرا ، فى القمر لو اردت ·· الخ ·· الخ » ··

ثم شد نفسا عميقا من السيجارة فهمت منه انه فى غاية الضيق من هذه الأسرة وهذه العلاقات غير الطبيعية وهؤلاء البشر المرضى بأمراض يصعب علاجها فقلت له :

ـ وهل أعطيتها الخطاب يا ليم ؟

قال ملتفتا الى فى استنكار شديد :

ـ « لا طبعا » ··

ثم أضاف مبررا غضبه :

ـ « لقد كنت أتحرج من توصيل الأمانة لشبهة أن يكون فيها جانبا من القوادة ·· فماذا يكون موقفى وقد تأكدت من الخطاب ؟ ان دورى هو القواد لا أزيد ولا أقل ·· لقد مزقت الخطاب طبعا ـ انهم ناس رخاص ياعم مأمون ·· فى يدهم الأموال كأنها الجبال ·· ولا مانع لديهم من دفعها كلها مقابل ارضاء رغبة رخيصة منحطة ·· عليهم اللعنة » ··

يومذاك شعرت ان « ليم » ، أو عبد الحليم ـ هو أصدق نموذج يمكن أن تخلقه بيئة كهذه ، وانه يمكن أن يكون صديق فكاهة أتفرج من خلاله

على أسوأ ما سوف يراه وادى الأزرق بعد ذلك من أجيال · وكنت أهدف من وراء تلبيتى لدعواه أن يدعو أخته باهى وصديقتهما « راندا » لتشريفى بالزيارة فى شقتى ، للاستفادة بنفوذ راندا اذا ما حدثت أشياء غير سارة ·· ولكننى بعد لقائى ذاك بليم قررت الا أدعوهم الى شيء على الاطلاق ·

★★★

اكتظت الشقة عن آخرها بمجموعة سيف الماوردى وحدها ، القادمين معه من أتباع وعشاق وحامل عود ونافخ نار وحامل جوزة وحامل حشيش · قل ان مدخل العمارة كله قد انتهك تقريبا وامتلأ بالكراسى الاضافية المستعارة من البواب على مضض · وبقى باب الشقة مفتوحا · ثم لم يعجبنى ذلك المشهد فاعتذرت لصاحب العمارة وللبواب وزعمت انه حفل عيد ميلادى وكل سنة وهو طيب والعقبى للأنجال ، ففتل شاربه من الانبساط وجاء ليجلس معه قليلا على سبيل التحية · فوجد ان الشقة قد انقلبت الى غرزة غريبة تمتلىء بناس من كل لون يتناحرون على الشرب والتوليع ونوع التعميرة ويثيرون ضجيجا فارغا ، والجو يمتلىء بعواصف من الدخان الأزرق الكثيف تحجب الكثير جدا من الملامح والوجوه ·· وسيف الماوردى يتقافز فى جاسته مع العود مغنيا والجمع من الحفظة يردد خلفه ويشيع كل ذلك جوا من البهجة المحفوفة بالخطر · ثم أن صراخ الكلمات فى الأغانى صار أوضح من الألحان وأكثر طغيانا فتجسد الخطر · هم يغنون أى نغم ، ولكن عبارات خطيرة تفرقع لاعنة حكاما ومسئولين ومندمة بأوضاع وهكذا ، وأجهزة تسجيل تعمل بلا انقطاع ، لو فرغنا شرائطها لوجدنا غابة من الأصوات البوهيمية تختلط فيها الكلمات بالصخب الطائش بالنكت البذيئة بالتعليقات الجارحة بكركرة الجوزة بكل ما فى اللحظة من تفكك وتدن ··

استأذن صاحب العمارة ومضى لينام · وبعد خروجه بنصف ساعة أو أقل قليلا فوجئنا بطائفة من أمناء الشرطة والضباط يقتحموننا ثم يطوقوننا

بحزام حديدى ويتم تفتيشـــنا بكل غلظة . حتى البنـات الحاضرات تم تفتيشها ببذاءة وتم تجريحهن عن عمد ، وتم التحفظ على أجهزة التسجيل والشرائط والجوزة والحجارة وقطع الحشيش الموجودة · ثم تم شحننا فى عربة البوليس · وفى القسم وجهت لى تهمة مذهلة : « أنت متهم باقتحام شقة الغير واقامة حفل غير مشروع بها ، تبغى من ورائه التآمر على النظام ومحاولة قلب نظام الحكم » ··

صـحت من ذهول :

ـ « كيف يا سعادة البيك ؟ ·· لقد كنت أحتفل بعيد ميلادى فى قلب شقتى ·· وكل هؤلاء الأصدقاء حضروا للتهنأة ·· كونهم بالغوا فى اظهار الفرح « لا يعنى هذا الاتهام » ··

قال المحقق :

ـ « لقد كذبت فى نقطتين هامتين كذبا صريحا ·· الأولى انك احتفلت هذا اليوم فى حين ان تاريخ ميلادك المدون فى بطاقتك يرجع الى قبل يوم الاحتفال بشهور طويلة ·· فهل تحتفل بأثر رجعى ؟ ·· النقطة الثانية انك أدعيت انها شقتك » ··

رحت · وقعت من طولى · تجاهلت حكاية تاريخ الميلاد وشبطت فى النقطة الثانية قائلا :

ـ « لست أدعى ·· هى شقتى ·· باسمى » ··

قال المحقق :

ـ « معك عقد ؟ » ··

قلت : « أينعم » · قال : « أرنيه » · فبحثت فى جيوبى وذاكرتى ثم حط الذهول على ، اذ تذكرت اننى رميت بالعقد فى سيارة الآنسة راندا ولم أسترده لسذاجتى · فقلت له ببساطة : « آسف ·· العقد مع الآنسة

راندا ابنة شقيقه عبد الجبار ‥ كنت معها فى سيارتها الخاصة ونسيته فيها » ٠

قال المحقق :

ـ « لا يا أستاذ ‥ العقد انت تنازلت عنه فى يوم كذا ‥ وتم تمزيقه مع المالك ، واسترد المالك شقته ‥ لكنه تركها لك أياما حتى تدبر شأنك ‥ ولكنك لم تدبر ‥ واقتحمت الشقة عنوة وادعيت انك لازلت تملكها ‥ ثم انك بكل بجاحة أقمت حفلك فيها ‥ ثم ان الحفل مشبوه اذ يقوم باحيائه شلة ، من الخارجين على النظام الذين سبق اتهامهم فى عشرات القضايا المشابهة ‥ ثم ان ما ضبط على الشرائط يثبت ان الحفل كان لغرض واحد فقط هو التشهير بالنظام ورجاله والتنديد بحياتهم الخاصة وتجريحهم بعبارات يعاقب عليها القانون » ٠

الحقيقة لم أجد ثمة جدوى من مراجعته فى هذا الكلام ٠ لكننى بكل صدق حكيت له قصة الشقة من أساسها ، واعترفت له اننى ضد كل ما حاولت هذه الشرائط أن تذيعه وضد حتى أسلوب وطريقة اذاعته . ووقعت بامضائى على اننى برىء حتى من عزومة سيف الماوردى وأن صاحب الدعوة هو أحد أصدقائى واننى قبلت دعوته ورحبت بحضور الماوردى ، واننى رغم كل ذلك لا أكون متهما بشىء ، لأننى لم أتفق مع المغنى على الغناء وان رحبت بغنائه ، ولا على كلام معين يغنيه وان علمت ان غناءه معارض ، فكل واحد له رأيه ويتحمل مسـئوليته وطريقة اذاعته ٠ الخ ‥

المهم اننى لخبطت لخبطة كبيرة فى كل شىء ، وخلطت من فرط الخوف بين أشياء كثيرة لا جامع بينها ولا رابط ٠ فقد كنت حتى وقت القبض على فى شقتى أتصور ان مسألة ابداء الرأى هذه عمل محترم ، وان المواطنين خاصة المثقفين يعاملون معاملة خاصة حين التعرض لهم ، وان ثمة فرق بينهم وبين المجرمين ، اذ هم على الأقل أصحاب رأى ، أى على

أقل الأقل يعرفون الحد الأدنى من حقوقهم الدستورية تجاه الدولة ، فضلا عن انهم أهل فضيلة ونزاهة .. كذلك كنت أظن ان ما يشاع عن معاملة المسجونين السياسيين وما قد قرأته من شهادات، كتبها خريجو سجون ما قبل ثورة بشنس ـ فالثورات عندنا أحيانا تتعاقب بتعاقب الشهور ـ ان كل ذلك محض افتراء مبالغ فيه بهدف الاساءة الى النظام الذى سجنهم .. فاذا بى يا جدع أرانى يوم القبض على مربوطا من قميصى فى قميص الآخر فى فستان الأخرى وهكذا . وكنت طول عمرى يضطرب قلبى فزعا أن ترانى أمى أو أحد معارفنى وأنا مقيد اليد بالكلبشات فى تهمة سرقة أو نحر . ولا أدرى لماذا.كنت أخشى ذلك وأقيم له حسابا ولكننى أظن انها راجعة لكثرة رؤيتى لأولاد متشردين مقبوض عليهم على هذا النحو ، وأعترف كذلك ان هذه الخشية من مثل هذا المنظر هى التى أيقظت اهتمامى على الدوام بأن أكون شيئا مهما فى المجتمع الأزرقى أتعلم وأحمل الشهادات العالية وأشتغل بالتعبير وهكذا .. ترى ما الذى كانت تفعله أمى لو رأتنى وأنا الطالب الجامعى المحترم مقيدا ليس فقط بقيد حديدى بل مربوطا من قميصى امعانا فى الهزء بى والتقليل من شأنى واشعارى بأننى أقل حتى من حرامى الغسيل ..

ثم اننا يومها دافعنا عن أنفسنا داخل التخشيبة بين المتشردين وأرباب السوابق . دافعنا قدر الامكان ولكن الضباط والمعاونون لم يتركوا لنا شيئا نعتز به أمامهم ، ابتداء من فروج أمهاتنا وانتهاء بمؤخراتنا التى أعلنوا لنا وللجميع اننا نستخدمها فى غير أغراضها الطبيعية . وبعد انغلاق الأبواب حدثت معركة دامية بيننا وبين أرباب السوابق والمتشردين لهذا السبب الأخير عينه ، استعملت فيه المدى والأمواس والجرادل وتحطمت الأجساد تماما . وقال الضابط الذى فتح الباب علينا ونحن جثث هامدة انه سيعرف أسماء الذين استنفروا نزلاء التخشيبة وأقاموا الشغب بينهم وسيرمى بهم فى جب . ثم أغلق الباب ثانية . وهنا تقدم ثلاثة ولدان من زملائنا المشهورين باللباقة والقدرة على جذب الأصدقاء عزموا على الموجودين

كلهم بالسجائر والود ، فاستجابوا جميعاً للمبادرة ٠ ولم يمض وقت طويل حتى كان الثلاثة قد أقنعوا الجميع أنهم أخوة لهم وأنهم جيء بهم الى هنا من أجل كذا وكيت ، فالتحموا جميعا فى لمح البصر وتبادلوا العناق والاحترام وصار المتشردون وأرباب السوابق ينوبون عنا فى الاحتجاج على المعاملة وسوء الطعام ، واكتشفنا ان لهم قدرة رهيبة فى ردع الشرطة بوسائل غريبة ٠٠

على أية حال لقد فوجئنا بأن البعض قد صدر الأمر باستمرار حبسه أربعين يوما آخرين ٠ وكنت أنا من بين الذين أفرج عنهم ٠ وقيل ان الآنسة راندا هى التى توسطت بنفوذها للافراج عنى ولكننى لم أتصل بها حتى لأشكرها ، ويوم الافراج عنى كان يوم عيد وبداية عذاب جديد ، اذ فوجئت بأننى مفصول من العمل لتجاوز نسبة الغياب فكان على أن أقدم التبريرات اللازمة لالغاء قرار الفصل ٠ ولم يكن فى جيبى مليم واحد أتحرك به ، فأقترضت من جدتى معزوزة عشر جنيهات ٠ ولم يكن هذا هو مصدر العذاب، انما العذاب الحق هو شعورى بالمهانة ، شعورى بأننى لم أعد ولن أكون ـ محترما بعد ذلك أبدا ، لقد انكسرت بداخلى أشياء وقيم وتدهورت مسائل كثيرة ، وباختصار لم أعد أنا هو أنا قبل القبض على ٠٠ لكننى أيقنت بعد ذلك ان ذلك العذاب كان ارهاصا بميلاد شخصيتى الجديدة التى أصبحتها الآن ، وأعنى بها شخصية الرأى الحر الذى لابد أن أعتنقه وأدافع عنه وأفسره بعشرات الأدوات والأشكال الفنية ٠٠ اخترت أن أقف فى جوار العدالة فى مواجهة الطغيان والظلم بجميع أنواعها وأشكالهما ، مقتنعا بأن الخوف من بطش الطغيان هو مساهمة فى الطغيان ، وان مواجهة الطغيان هى أولى محاولات هدم الطغيان وايقاف بطشه ٠

بـــاب الســـــــد

★ كيف يمكن أن تتصالح الدماء فى العروق ؟

١

انتبهت فاذا « بمأمون » قد أشرف بنا على منطقة فسيحة تميزت عن بقية الأرض بوجود كثير من الأجهزة المرتفعة الغامضة ، والأبراج الحديدية العالية ، وأرتال من السيارات المتنوعة الأشكال والألوان والماركات ، من فناطيس الى ملاكى وجيب وما الى ذلك ، تقف متناثرة هنا وهناك ، وثمة سور من الأسلاك الشائكة تبدو أطراف حديدة من بعيد جدا حيث ينتهى البصر ، وثمة أيضا أبنية صغيرة جميلة مزركشة بالألوان يسكنها ـ لاشك ـ مهندسون وخبراء ..

وكان منظرى قد أصبح غير سار أبدا ، اذ حزمت وراء « مأمون » من أراض زراعية مروية حديثا ، وعبر قنوات صغيرة ، وبجوار مستنقعات مليئة بالزفارة الجيبة فلما توقفنا بعد سير طويل أمام هذه المساحة المميزة فوجئت بأن كل المستنقعات والأوحال التى خوضت فيها قد علقت بجسدى وبطنى وكل فروتى ، حتى صرت مقززا جدا ، ورحت مع ذلك ألحس فروتى بخجل وأدعك بوزى فى عنقى وأخلص قدمى من متعلقات سخيفة رذلة ، وصرت ألهث ولسانى ممتد أمامى كضابط الايقاع ..

« مأمون » ولد جدع كما حدست وأى جدع ، ولد يستاهل السلامة بحق وهو من فضل الله على وكرمه .. فمن فى عصرنا هذا يضيع وقته مع

كلب مثلى محشو بالمعلومات أى نعم وملم بجحافل من الأسرار هذا صحيح ويعرف عن ماضى قضية « مأمون » مالو أبرز منه كلمة واحدة لانحلت كل العقد في حياة « مأمون » ووصلت قضية مقتل خالته بسيمة الى حلول هذا مؤكد ، لكننى فى النهاية كلب بمعنى اننى لا أملك بله أستطيع قول شيء أو تفسير شيء أو توضيح شيء · اسمحوا لى فأنا لا آدرى ـ والله ـ ان كانت هذه صفة كلبية أصيلة أم اننا معشر الكلاب قد اكتسبناها بطول عشرتنا مع بني البشر بوجه عام وبنى الأزرق منهم على وجه خاص · وعهدنا بالأسرار والمعارف انها كلما انفضت أمام الفعل دفعته الى الأمام وبصرته ونورته الا بين جنس الكلاب ·

وباعتبارى من جنس الكلاب القارئين فاننى أصبحت أومن برأى تكون في داخلى عمليا طوال خبرتى العمرية والحياتية ، هو أن جنس الكلاب تنحصر كل قدراته العقلية فى المعارف الوجدانية ، ان ذاكرة الكلاب ليست فى رءوسهم بل فى قلوبهم انها ذاكرة وجدانية خالصة ولذلك فان الكلب منا لايقطع صلته الانسانية بأحد من البشر أبدا ، الا اذا بادر البشر بافقادنا هذه الذاكرة ، لكننا مع ذلك نظل أرفع مستوى منه وأعمق انسانية وأعرق حضارة ، اذ أننا حتى اذا فعل بنا صاحبنا ذلك لا نرتد عليه غدرا أو تمزيقا بل اننا قد نكتفى بأن ندير له ظهرنا وننطلق عنه الى غير رجعة · وذاكرة القلوب أو الذاكرة الوجدانية تختلف عن الذاكرة الذهنية فى شيء جميل غاية الجمال ، ذلك هو أن الذاكرة الوجدانية لايعلق بها أثر لجرح أو فعل غادر ، اذ انها سرعان ما تلتئم صلتها كأن ما حدث لم يحدث ، بمعنى أننى لو طردنى صاحبى مهانا مثخنا بالجراح وغبت عنه شهورا أو حتى سنوات ورأيته من جديد فاننى لابد أن أرتمى عليه بالأحضان وتسقط فى الحال تلك الفترة الزمنية التى غبتها عنه مهما كان طولها كأنها لم تكن ··

دون جنس الكلاب أرانى مهموما بهذه القضية الخطيرة : قضية علاقتنا بالأسرار التى نعرفها ونراها ، والمعارف التى نحصلها بكثافة ، ثم لانستفيد

بها • وإذا كان قد قضى علينا بأن تعجز عن الاستفادة بها فنظل الى الأبد كلابا •• فهل يا ترى بامكاننا أن نفيد بها أسيادنا من بني البشر؟ •
انهم ـ بنو البشر ـ يستفيدون كثيرا جدا بذاكرتنا الوجدانية وينظمون عملية استخدامهم لها بدربة فائقة ، ابتداء من التعرف على المجرمين والقتلة وكشف آثارهم وانتهاء بتربيتي كمثـــل للوفاء وحفظ العشرة • وان ما أستطيع الجزم به انني كلب رأيت وعشت من الأحداث والأسرار ما يكاد يخرج بي عن كلبيتي • اننا معشر الكلاب حين نذوق دم العدوان بلساننا نفقد ذاكرتنا تماما ، ونصاب بما يسمونه السعار اذ ربما هبرنا لحم من يطعموننا . وسر ذلك أن الكلب منا جبل على اســـتعذاب طعم العدوان واشتهائه في أي عروق جرى . وربما كان صاحبي وسيدي الذي يطعمني قد تغيرت نفسه علي فجرت في أعماقه جراثيم الخوف مني والعدوان علي فأشم رائحتها فيصيبني الهياج تماما ويظل يصيبني متصاعدا كلما سخنت الدماء أمامي بجراثيم الخوف والعدوان ، فإن بادر بالهجوم علي بآلة حادة أو بأي شيء كنت أسرع منه في رد العدوان بشراسة قد تسيل دمه ، وهنا تقع الكارثة ، وتكون محققة اذا ما طال دمه طرف لساني وذقت فيه طعم العدوان ، اذ استحل لحمه على الفور ولحم بني جنسه من كل من يعترض طريقي الهارب بعدوان ، ولقد تصيبني رصاصة أو أقع في حصار داهم يودي بحياتي ويحولني الى جيفة تصلح طعاما مستساغا لبني جنس ، ولكن ذلك لن يكون مؤلما لي بعد ذلك بالتأكيد ، لأنني استجيب لجبلتي الطبيعية في وتحولت الى طعام يتغذى به بعض بني جنس فلم أذهب هباء على أي حـــال ••

لم تطل وحدتي ، اذ أقبل « مأمون » نحوي بعد ما لف ودار حول احدى البنايات • وكان مهموما ، لكنه نظر في نظرة شملتني بعطفها ، ثم سحبني من عنقي ومضى محني القامة تجاه ساقية على مبعدة • ثم رفعني وغطسني في القناة المنسربة من الساقية ، وبكتلة من الأوراق والأعشاب الخشنة صار يدعك جسدي ورأسي وقدمي حتى فهمت لأول مرة معنى الكلمة

الأجنبية التى يرددها بنو الأزرق دائما بعد الاستحمام : « رفرش » . واذ أمرنى « مأمون » باشارة منه قفزت فوق طارة الساقية وجلست فى قلب شعاع الشمس المنصب على الساقية . أحسست أن غشاوات كثيرة قد انزاحت عن عينى ، وعم الصفاء كل شيء ، ونظرت كأننى أقول : « أين ذهبت بنا يا مأمون ؟ » . فجلس « مأمون » بجوارى قائلا اننا فى المنطقة التى سيشرفها عبد الجبار اليوم بالزيارة . فأعدت النظر حولى ، فرأيت ان كثيرا من الأشجار والنخيل قد تحولت بقدرة قادر الى صفوف من العساكر يسمونها فى بنى الأزرق عساكر الهجوم الفركشي نسبة الى انها منوطة بفركشة أى تجمع وأى تكتل وأى عصلجة .

أشار اليهم « مأمون » وهو يتسم فى سخرية مريرة ويقول :

ـ « يقولون فى قريتنا على سبيل التنكيت ، والتبكيت عند بنى الأزرق يعنى التنكيد والتبكيت ، أن فرقة من هذه العساكر كلفت بفض أى تجمع فى البلدة ، فاذا بها تقتحم مجلس أسرة كبيرة معروفة فى البلدة بكثرة شبانها ورجالها وأولادها ونسائها أيضا .. وتصر الفرقة على فضها بالقوة .. يقال ان رب الأسرة كان رجلا حكيما ساخرا .. أراد أن يساعد الفرقة على أداء واجبها دون عصلجة أو غباوة .. لكن الفرقة لاتنى تهاجم مجلس الأسرة فى حملات تصدر صيحات همجية يقلدها الأطفال ضاحكين بغطيان الحلل والعصى القصيرة .. فما كان من رب الأسرة الا أن استدعى مندوبين منهم وأجلسهما معه على باب بيته وجيء لهم بالشاى لا رشوة بل تعبيرا عن الواجب تجاههم .. وباتفاق مع المندوبين صنع ثلاثتهم مكتب أمن فرعى خاص لا شبهة فيه ولا خيانة .. وتعين على كل من يدخل داره أن يبرز بطاقته الشخصية فان كان لا يحمل لقب الاسرة يمنع من الدخول نهائيا .. وقد حدث .. وفى ظرف ساعات قليلة كانت الدار قد امتلأت وصارت تعج بالصبيان والشبان والرجال ومع ذلك لايزال الليل يحمل أبناء لم تعد بعد .. وكان أحد المندوبين قد انساق وراء ما فى الموقف من طابع مسرحى فأصابه الشعور بالعظمة والأهمية ونتيجة لكل هذا الترحيب ..

فاذا به ينظر فى الدار نظرة تشكك غريب ، ويقول لرب الدار فى استرابه : أواثق أنت ان كل هؤلاء أولادك وأحفادك قال رب الدار : ألم تر بعينك بطاقاتهم وشهادات ميلادهم ؟ ٠٠ فعاد المندوب يهز رأسه متشككا ويقول : ولكن كيف سمحت لنفسك بالتكاثر هكذا الى حد هذا التجمع الكبير المخيف ؟ لابد أنك تتآمر ضد النظام ٠٠ فتعال ٠٠ وأصر على اقتياده إلى المخفر ليضع بنفسه حدا ٠٠ فابتسم ضابط المخفر وضحك حتى استلقى على قفاه ٠٠ وكان من المفروض أن يوبخ مندوبه ويعتذر للرجل ، لكنه بسرعة أدار منطق المندوب فى رأسه ٠ فخيل اليه أنه يحمل بعض الوجاهة فانطلق يضحك من جديد ، وفى غضب مصطنع صاح فى مندوبه أن : عيب مالكوش دعوة بيوت الناس فاهم ولا لأ ؟ ، وصاح فى رب الدار أن : وانت يا راجل مفيش داعى للتجمهر محبكتش يعنى تتجمعوا كلكم كل يوم فى ساعة واحدة ٠٠ ثم حولها الى نكتة تدعو الى الابتسام قائلا : مش خايفين تتحسدوا ؟ » ٠٠

ثم اندفع « مأمون » فى ضحك مكتوم ٠ فواكبته بمجموعة من الحركات المبتهجة لكنها مبطنة بالخوف من تواجدنا ها هنا حيث نصير هدفا لفرق الهجوم الفركشى ٠ اننى ككلب أصيل أرى من واجبى الانصراف عن هذه المنطقة برمتها والا فاننى كمن يقف أمام القطار السريع ٠ وهكذا أخذت أتمسح فى « مأمون » راجيا اياه أن ينهض لنغادر هذا المكان ٠ فأخذ يربت على ، ويجفف ما بقى مبتلا فى فروتى وذيلى ، ويقول فى صوت دافىء أنه لابد أن يقابل حضرة المأمور أو أحدا من المسئولين اليوم لاستصدار أمر بايقاف دفن جثة خالته فى مقابر الصدقة ، والدعوة الى فتح محضر واجراء تحقيق وتحريات حول ظروف موتها وعودتها على هذا النحو ، وقال انه بعد قليل سوف يأتى عبد الجبار ـ ليفتتح هاهنا مشروع حفر للبحث عن بترول تأكد وجوده فى هذه البقعة من قرى بنى الأزرق ، ويعلم الله ان كان ذلك حقيقيا أو هو مجرد وهم بالثراء المعاصر ؟ ولكن الذى يعنينا الآن ان عبد الجبار سيجىء ويمضى بعد ساعة أو ساعات ، ومن حسن الحظ ـ لا تتخيف ـ فانه سيجىء ويمضى من طريق آخر بعيد ، ونحن الآن فى

الساحة التى لا أهمية لها بالنسبة لأى شىء ، وان وجودنا نفسه لا أهمية له من قريب أو بعيد ، كل ما فى الأمر اننا بعد انتهاء الموكب سنتسرب الى أحد ضباط المركز الكبار ، ونستحلفه بانسانيته أن يسمع شكوانا ويقدر ظروفنا ، ورجاءنا وأن يتفضل مشكورا بمساعدتنا قدر الامكان ، ولابد أن خطورة الظرف الذى نحن فيه ستشفع لنا ما تفعل ، ذلك والا فانهم جميعا سينصرفون من هنا الى بيوتهم فتضيع علينا ساعات قد ننقذ فيها جثمان خالتى ..

لا أعرف ان كانت الطمأنينة قد داخلتنى عن اقتناع أو بمجرد لمسات يد « مأمون » على جلدى وأعصابى ، وكان الوقت يمضى ببطء وحرارة الشمس لاسعة فى الصميم . وكان مأمون يتزحزح بى شيئا فشيئا نحو بقعة ظليلة فى حوض الساقية الذى يشبه حوض البانيو الى حد كبير . فاضطجع فيه متمددا ، كأنه نائم فى البانيو ، نفس الضجعة التى كانت عليها جثة خالته بسيمة يوم اكتشفت فى بئر ساقية كهذه ، وكان مستوحدا تماما ، يشعر بكثير من الكآبة ويقاومها بكثير من الابتسام والبهجة المصطنعة ويحاول نسيان الوقت حتى لا يتعذب بالانتظار . وقفزت أنا فوق جسده فنزلت باركا على صدره بالعرض فلم أشعر بأنى فى حاجة الى الاعتدال ، فبقيت مستجيبا لمداعباته وصوته الذى راح ينساب في أذنى بغرائب مدهشة يقشعر لها بدنى ، اذ اكتشف من خلالها كيف يكاد « مأمون » يمضى الى ذاكرة الكلاب شيئا فشيئا دون أن يدرى ، اذ ها هو ذا بكل ما يحكيه يثبت بما لا يدع مجالا للشك انه عرف كثيرا من جوهر الأسرار ، بل عرف نواة كثير من الملغزات ، لقد انكشفت أمامه أسرار خاصة ليس فقط بقضية خالته بسيمة ولا بقضيته هو فحسب بل بقضية كل بنى الأزرق برمتهم ، ولكن كل ما عرفه من أسرار ومعلومات وأحداث يظل مجرد معلومات ومحض أحداث عارة طالما بقى مأمون عاجزا عن ربط بعض الأزمنة ببعض الأمكنة . ان نجاتك يا مأمون ، أو بمعنى أصح نجاحك فى ربط أوراق قضيتك هذه مرهون بتخليصك من الذاكرة الكلبية ، لتصبح قادرا على رؤية الزمان

الماضى فى الزمن الحالى ، تصبح قادرا على رؤية الزمان فى المكان والمكان فى الزمان ..

اننى ليسعدنى أن أقوم بدور نحوه يتفوق بى فوق ذاكرتى الكلبية وينجو بمأمون من شرك الذاكرة الكلبية التى ربى عليها بمنهج الفترات الزمنية المتسلطة ، منهج أن كل فترة تستهدف أول ما تستهدف تلك الفترة التى سبقتها ، محاولة مسحها من الوجود والغائها من حساب الزمن .. فتنطبع شخصيات الأولاد بطابع غريب فادح هو التعود على التنكر للماضى والتخلص من مسئوليته على الدوام ، فكل ماض ملعون بالضرورة وعليه وحده تقع مسئوليات كافة الكوارث ، والشاب ما يكاد يشب حتى يكون مدربا على أن يعمل بمعزل عن الماضى حتى ولو كان ماضيا محيدا ، اذ ما أسهل ما يتغير وينس ، بمعنى أصح لا يصبح لديهم أى احساس بالتاريخ أو بالأصالة ومن ثم يفقدون الاحساس بما يسمى الوطن . وسر حبى لمأمون انه معنى بالبحث فى ماضيه رغم انه ماض مبعثر مجزأ مرغم علمه ما فيه من تقزز وعار بمجرد بحثه فيه ، لأن البحث شرف وعلو ، أما التنكر للماضى فهو العار بعينه ، وهو تكويس للعار أبد الدهر ، وربما يكون قد شاع فى صورة عار ما ليس بعار فحينئذ ينقلب وجه العار ، وربما يكون العار الحقيقى ما كان دائما هو الأخفى . كذلك من أسباب حبى لمأمون ايمانه بأن اتصال التاريخ على عاره أكثر شرفا بكثيرا جدا من الفصل بين فتراته لتعتيم فترة وتزييف أخرى لحساب الحاضر وهكذا مما يحدث كثيرا فى مناهج بنى الأزرق ..

على أن عمق المأساة فى قضية مأمون انها غير متصلة الحلقات تكاد تصبح بلا تاريخ على الاطلاق فى حوزته . كل ما يعرفه عن حياة خالته بسيمة مجرد حكايا وحواديت أو وقائع تشبه الأساطير حدثت فى أزمنة متعددة فى أمكنة متعددة ومعظمها مجهولة الأماكن أو مجهولة الأزمنة . لقد ورث باختياره قضية بلا أوراق وبلا مستندات لأنها بلا تاريخ موثق بين يديه . لكن مأمون قد بدأ يقول أشياء تكشف لى ايمانه بكثير من حقائق

تبدو كالأساطير هي الأخرى ، هي حقائق في نظره ، اذ يقول انه منذ أصيب بشبه المرحومة لم يعد له خيار ، ان التشابه بينه وبين خالته يثبت ان دماء الأجناس البشرية تكون عبقرية في وضع بصمتها الدامغة على وجوه قادمة بعد أزمنة طويلة تكرر بها أشكالا ووجوها بنصها وظلالها عاشت قبل ذلك بسنوات طويلة ، ليس غراما بالتكرار ـ في حد ذاته فليس من ثراء الطبيعة التكرار ، بل لكي ترشد بصمة الشكل الى بقايا دمائها خلف أشكال طبق الأصل منها كانت الأزمنة قد بعثرتها في أماكن عدة وحجبت بينها الأحداث والمشاحنات ورخيص الرغبات ؟ واذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، واذا يقول العامة أن العرق يمد الى سابع جد ، واذ نكتشف نحن حقيقة ذلك على مدى الأجيال ٠٠ أفليس من المحتمل أن تكون فصائل بعينها من الأجناس البشرية أو جميع الفصائل في جميع الأجناس ، تحتوى على اشعاعات وذبذبات تنادى بها بقاياها وأصولها المتبددة في أماكن متباينة في أزمنة عدة ؟ ٠٠

ان طلبتم رأيي ككلب فانني أجزم أنا الآخر بذلك ، اذ أن صلتي بجميع البشر والأجناس انما تقوم على حاسة الشم ، كل صداقاتي وعلاقاتي تقوم على قدرة أنفي على اختيار نوعية الدماء وما يجرى بداخلها من أنواع الجراثيم والخلايا والمكونات ٠ وعموما فان قدرة بنى البشر لاتزال تكشف عن كثير من الأسرار والمعلومات الكونية المذهلة ٠ لقد قرأت ان آلة تصوير حديثة تستطيع أن تصور أثرك على الكرسى بعد أن تقوم انت من عليه وتمضى ، ولو نظرت في الصورة لوجدت هيكلا ضوئيا يتشكل بشكل جلستك قبل أن تقوم مباشرة ، ذلك هو الاشعاع الضوئى الذى يتركه جسم الانسان في أى مكان يحل به ، ويقال ان ذلك الاشعاع يبقى في المكان مدة طويلة ٠ وتجرى الأبحاث لمعرفة أين يذهب ، وتميل بعض الآراء الى انه لا يذهب بل يمكث في نفس المكان ٠٠ ورأيي أن ذلك قد يفسر اشتياق الانسان لزيارة أماكن سبق أن زارها ، انه في الواقع يزور اشعاعه الذى تركه فيها من قبل ، ان اشعاعه يناديه ، واذا لم يكن الانسان

قد زار مكانا من قبل واشتاق لزيارته فلابد أن يكون له فيه بقايا اشعاع أو أصول اشعاع لدماء من أهله المجهولين هذا وحده ما يجعلنى أظن ان مثل هذا الاشعاع يكون بعض الأسباب التى يتحرك بها مأمون مدفوعا للتردد على أمكنة بعينها ٠

٢

قال « مأمون » :

ـ منذ شهور قليلة كنت قد اقتنعت بأن جدى خليل يتمنى من أعماقه لو اننى سافرت ذات يوم وبحثت عن خالى فى المدينة الكبيرة الواسعة التي أتعلم فى جامعتها ٠ هو لم يقل لى ذلك أبدا ، ولكنه كان دائما كلما انفرد بى فى لحظة صفاء يستدرجنى فى الحديث عن المدينة ، فاكتشفت من فرط شغفه بالمدينة انه يحبها لدرجة التقديس ، فلما بحثت فى تفسير منطقى يجعل جدى خليل يحب المدينة الى هذا الحد رغم انها تستلب كل شىء ، لم أجد تفسيرا واحدا معقولا سوى أن ابنه هريدى يعيش فيها لامعا تحت اسم سيف الماوردى ويحارب الحكومة وتحاربه الحكومة ، كانت المدينة فى نظره تعنى سيف وصـــوته القاطع للرقاب تلتمع عين جدى وتسبحان فى بحيرة صافية جدا من دموع الفرح ، ويلتمع فيهما ضوء مزهو فيه ذكاء عميق وثقة لا حدود لها حين ينطق كلمة : سيف ٠ ودائما أبدا وبدون مناسبة يضع يده على اذنه صائحا تجاهك : ماذا ؟ ٠٠ أقلت سيف ؟ ظننتك تقول سيف » ٠ أبدا اذا جاءت سيرة المدينة أمامه بأخبار سوء يصبح هو فى ذعر وسيف ؟ ـ كأن فناء المدينة سيكون « سيف » ونماؤها بكون « سيف » ـ ٠

صراحة كنت أحس بالخجل من نفسى ـ كيف أعيش فى نفس المدينة مع خالى سيف ولا أحاول الاتصال به أو زيارته والتقرب اليه والعيش فى

كنفه ؟ • صحيح ما الذى منعنى من ذلك طوال السنوات الفائتة ؟ بل ما الذى جدد قلبي ونشفه الى حد أن يدعى هو الى شبقتى ثم لا أتعرف عليه بنفسى ؟ •• أية قسوة هذه بل أى عبث هذا ؟ •• هل كتب على بطاقات دمائنا المسماة عمليا بالجنيات أن تظل بذورنا مغتربة حتى داخل الجسد الواحد ؟ حتى وان تلاقت وتعارفت ؟ أيكون الاغتراب صفة موروثة فى الدم حتى ان أبناءه بعلم أو بغير علم يساهمون فى تهتك العلاقات وعدم التآمها أبدا ؟ •• انه اذن يكون دما ملعونا •• ولكن كيف يستوى هذا مع كونه دم ذكى شفاف ومن شفافيته يتعرف على بقاياه وأصوله فى ناس معينين ، لا ليقيم أواصر الود بل ليمنعه من أى تلاحم انسانى •• يا الهى أيكون هناك مثل هذا النوع من الدماء وأكون أنا منتسبا اليه ؟ ••

أعترف بأننى كنت أحب أغانى خالى سيف أول ما سمعتها ، بل لقد بهرتنى كما بهرت الكثيرين • وكنت دائما أحب ماضيه الممثل فى شخصية هريدى خليل هريدى ، وأعتبرها لم تغترب كثيرا ، وانها ربما امتدت طبيعيا فى شخصية سيف الماوردى ، لكننى لا أدرى لماذا كلما كبرت قليلا وعرفت نذرا يسيرا انقطعت بداخلى عروق انسانية يتضح انها كانت فى الأصل واهية ، وأصابنى الاحتقار لجوانب كثيرة من تراثى العائلى والشخصى من بين ما احتقرته بشدة ودون قصد منى خالى بشخصيته : هريدى وسيف ، أى اننى كرهت هريدى واحتقرت سيف •• ربما بسبب خالتى بسيمة وما أحسه من حقد عليه لنذالته تجاهها • اعترف اننى حين علمت انه تخلى عنها فى أول مفترق طرق نقمت عليه نقمة شديدة واعتبرته أول مجرم فى حياة خالتى بسيمة • هو مجرم بدون شك أراد أو لم يرد ، سيان عندى ان كان قد مارس جرمه بوعى أو بغير وعى ، بارادة أو بدون ارادة ، كل ذلك لا يعفيه من جرمه • أليس من الطريف المحزن أن يصبح هذا الشخص علما على الوطنية فى أنظار فئة لا بأس بها من المجتمع ؟ • ما يزيدنى احتقارا له انه ليس علما ولا يحزنون ، انه مجرد لافتة لا حول لها ولا قوة تحملها الأيدى المتركبة وهو نفسه لا يعتبر نفسه بطلا قوميا والعياذ بالله ،

انما هو باعترافه وجد نفسه فى قلب الدور مرتديا ثيابا والملقن أمامه جاهز، فلبس الدور فصفق له الجمهور فركب فوق أكتاف الجمهور وأصبح مسرحا قائما بذاته تستأجره عقول أكثر ذكاء واستنارة ·

ويوم أن قبض علينا جميعا فى شقتى كان هو يردد اسمى بطلاقة وقد حفظه عن ظهر قلب باعتبارى صاحب الشقة الداعى : الطالب الجامعى الأستاذ مأمون عكاشة ·· وهكذا فى كل تحقيق · وكان الجبن المتأصل فى نفسه لايزال متأصلا وان اتخذ مظهرا من صلابة المثقفين أهل الرأى الذين لا يتذللون ولا يترخصون فى الاداء بالأقوال ، وكنت أضحك من أعماقى ، وأبحث عن أصل القناع الذى استعاره ووجده على مقاس وجهه وهيكله بالضبط فوجدته رجلا محترما من أقطاب الوفد فى قريتنا ، اذ تفتحت طفولتنا على وقفاته الحادة مع العمدة والمأمور والحكام ، كان فلاحا مستنيرا فصيحا وذا شخصية ، وهكذا كان خالى سيف وهو يقف فى التحقيق متكلما ، ولكن لأن بى بعض دمائه فقد لمحت الرعشة فى ساقيه عنيفة سريعة الى حد الاختفاء · أما وهو يغنى فى شقتى فاننى لم أتح لنفسى فرصة الانفراد به أبدا حتى لا أضعف وأعرفه بنفسى قبل أن أتفهم أبعاد شخصيته ، فشغلت نفسى بمراقبة الجو – وما كان أغبانى بالطبع – ومتابعة المطالب العاجلة ، وكنت أندمج معه أحيانا اندماجا كاملا لدقائق معدودة مع شعورى بأن كثيرا من النصب والاحتيال فى تلحينه ، بمعنى أن ما يجب أن يقال بصوت جهير ولهجة خشنة يقوله هو برقة واستياء وتذلل كأنه يبكى · ولأن جمهور بنى الأزرق يصفق لكل من يبكيه فانه كان يصفق ، ولم تكن تأخذنى أنغامه الا لكونه أخذها من تراث قريتنا الغنائى ؛ وكنت أعجب لمجرد انه تذكره واستفاد به فى نقل كلمات سياسية من هذا القبيل ، الا أنه كان يلوى عنق اللحن الشعبى فجأة ويدخل به فى حودة مفاجئة يراها ختاما مناسبا لجملة أو كلمة · فيزداد اعجابى لذكائه فى التصرف بغير دراسة منهجية ، ولكن لا أعطيه احترامى أبدا ، لأنه غير خلاق وغير أصيل ، انه كائن طفيلى يعيش على حياة فن أصيل ·· . .

· ليكن كل هذا صحيحا أو مجرد أحقاد مبالغ فيها الا أنني أتعجب الآن كيف يمكن لأي سبب في الدنيا أيا كانت نوعيته أن يجعل الانسان يلفظ دماءه ويحتقرها ؟ ·· ان أية أسباب في الوجود لا ينبغي أن تكون قائمة بيني وبين أي أحد من أقاربي حتى ولو رفعوا هم جسور الود عني · فليكن في حوزتي جسر صناعي أمده أنا عبر البحور والمسافات الفاصلة بيننا حتى أصل الى أحد أقاربي قائلا : « ازى الصحة أمال » ·· فيقول بكل برود وتقل دم : أهلا أهلا عاش من شافك · ليكن ، فلو أن جسور الود كانت قائمة بيننا الآن لوجدت جثة خالتي بسيمة من يدفنها في اكرام ويقيم على روحها الصلوات · والأحرى بي ان أقول : لو كانت جسور الود قائمة بيننا لما عادت جثة خالتي بسيمة على هذا النحو بل لما اغتربت أبدا ولا اغتربت دماؤنا · لنفرض ان جدي خليل مات الآن ؟ أيموت ويدفن كخرقة بالية وابنه علم من أعلام عاصمة بني الأزرق الملاعيب ؟ · أليس من الأفضل أن يكون ابنه على علم بالأمور حتى لو تصرف حيالها بنذالة ؟ · ان عدم الاتصال به يعتبر نذالة من جانبي لأنه سيحتج بأنه مشغول وفي ظروف بالغة الحساسية · ومع يقيني انه سيظل ينصب علينا بهذه الحجة الرخيصة الى ما لا نهاية طالما أنه أمعن في التنكر لأبيه ونسيان بلدته · لكنني مع ذلك لابد أن أنفي عن دمائي تهمة المروق والصد والاغتراب · سأحاول ان أثبت ان الدم الذي يجري في عروقي دم ذكي وغير منحط أبدا · لقد انتسبت الى هذا الدم بأي سبب ، ولن يكون لي دور في الحياة الا بأن أتشرف بانتسابي اليه ، وسوف أتشرف بانتسابي اليه بأن أنتسب اليه ، فبي سوف أعلو به وبغيري قد انحط قدره فهذا ليس من شأنه ، انه في النهاية دمي ، دمي أنا ، يجري في عروقي وفي عروق أشخاص آخرين ، هو دمي حتى وان عاشت به نفوس كريهة وضيعة ، ولا يسمم الدم ويحرقه سوى وضاعة النفوس ··

حقيقة لقد اكتشفت - بعد لأي كما يقولون - أن ميراث الدم وحده هو الذي يضع في صفحة وجهي قليلا من الحياء ، ويرغمني على الابقاء على

أهلي وعشيرتي والتنازل عن كل شيء في سبيل ان نكون ـ في أســوأ الأحوال ـ صافين على البعد ، في سبيل ان يظل هيكل الأسرة قائما ٠ فعلى كثرة ما عانيت برغم صغر سنى تيقنت تماما من ان انسانا بلا أسرة انما هو شيء مهمل تماما مهما حقق من نجاح وارتفاع شأن في الحياة وعلو مركز وما شئت من ذلك ٠ أترى لو تحقق لواحد منا كل هذه الاملة واكتشف انه في النهاية مجرد فرع في الهواء ، مجرد لوح من قارب أو سفينة تحطمت على متن أمواج هوجاء ، فدفعه الريح السريح المخادع الى ذرى عالية في أمواج فائقة ثم اذ به يصل من العلو والرشاقة والتفرد بما لا يستطيع الوصول اليه أعظم القوارب ، مع ذلك اذا بنفس الرياح الهوج تهبط به في منحدر يلقى به على شاطئ أو في ممر عميق ٠٠

لايصعد ولايبقى في ضمير الأمم على مدى الأجيال سوى من كانت الأسرة في دمائهم ٠ لو فتشت في حياة عظماء التاريخ بحثا عن سر عظمتهم الخارقة فستجد ان الذى وضع بذور العظمة في نفوس العظماء هو حبهم لدمائهم الذى تتكون منه الأسرة الصغيرة ثم الكبيرة ٠ كل العظماء كانوا يحاولون في الأصل خلق شيء تنتفع به الأسرة ، وأسرته ليست أهل بيته فحسب ، بل لناس يرون أنفسهم على أشكالهم ويسمعون في الليل صرخات كالتى كانت في بيتهم ٠٠ ولقد فعلوا أشياء عظيمة لأنهم أحبوا أمهاتهم وخالاتهم وآبائهم وأعمامهم وأولاد الشقيقات ٠

انني وقد تأكدت من ان اخفاء التاريخ ودفن الفترات وكتمان الذكريات هو أول وأكبر جرم يقع في حق الانسان ، وان أفظع ميراث يمكن أن يرثه انسان هو قضية ليس في حوزته من أوراقها قصاصة واحدة ٠٠ كان على ان أبادر باقامة الصلات مع كافة الأطراف وعلى رأسها خالى سيف أو هريدى خليل هريدى ٠٠ انه أول مصدر من مصادر التاريخ يجب أن أبحثه : متى انقطعت الصلة بينه وبين خالتى بسيمة ؟ وهل انقطعت ؟ وهل انقطعت ثم سعى هو بعد ذلك الى لقائها ؟ وما الأمر على وجه اليقين ؟ ٠٠

وهكذا دخلت وحدى الى ذلك الحى المملوكى العجيب ، الذى هو خليط عجيب من أزمنة متعددة متباعدة ، ومن حوارى وخرائب وعمائر ومساجد ومحلات شهيرة فى الأطعمة وحمامات نادرة ووكالات عظيمة البنيان يحتاها الصياع وقطاع الطرق . بيوت متلاحمة تميل على بعضها البعض بكل همومها .. فى المواجهة خرابة ، وبجوارها من البشر على مختلف الأشكال والألوان بعربات فارهة وجناطير وكارو ، وصخب وعرق وهياج وعنف ..

فى مطعم السلامة طيبت جراح نفسى بنصف كيلو كباب دفعة واحدة ، ودفعت نصف أجرى فى أسبوع فانثال العرق الساخن على وجهى كأنه ينوح على ما ضاع منه بلا أمل فى عائد مواز . جلست على مقهى قريب وطلبت قهوة وشيشة ثم قرأت الجرائد كلها بامعان . ولاحظت اننى لم أنظر فى ساعتى ولم أشعر بأى ملل ، بل أحس أننى سوف أجلس على هذا المقهى طويلا وسأجىء له كثيرا ، بالتحديد هذا المكان المثلث الأضلاع من المقهى حيث تصبح الجلسة على الرصيف والطراوة شيئا كالحلم ، كل سكان هذه البيوت رائحون غادرون أمامى فى مواجهة مطعم الكباب الذى يطلق مهرجان رائحة كبابية صارخة ، والأطفال يحملون أطباق الفول المدمس ووضعوا فوقها الأرغفة البلدية كأنها قطع من خدود الشمس هبطت فوق الأطباق مظلة بحزم الفجل والبقدونس والبصل ، موكب لا ينتهى من نساء تتعارك طول النهار مع الباعة حول قرش تعريفة فوق سعر « الأوطه » ، وحول استكراد المكوجى لها فى قرشين ، وحول استنكارها لحجم الشىء المباع ، وهكذا دوشة لا تنتهى ولكنها تفجر فى البشر طاقات هائلة من الابداع والامتاع ..

كانت هذه أول مرة أقعد فيها . ثم لما تكررت زياراتى للحى نفسه بررت ذلك باستحسانى للكبابجى رغم سوء أخلاق عماله وسوء النقود فى يدى . ثم اننى بعد اعتياد طويل للزيارات اكتشفت ان خالى سيف الماوردى يسكن فى هذه المنطقة بل فى هذه البقعة على وجه التحديد . وحين تذكرت

ذلك ضحكت ساخرا وقلت لنفسي : ألم تكن تعلم انه يسكن هنا ؟ . ثم أجبت على نفسي قائلا نعم ولكن هذا لم يدر بخلدي يوم انجذبت لهذا المكان . ثم انني وجدتني أتلهف على العودة الى الحي كأنني أحد سكانه الأصليين ، فأجلس على نفس المقهى وأقرأ الكتب وحـــدى مع الجرائد والمجلات ، أو أكتب بعض الخواطر . ومع ذلك لم أتصل بسيف الماوردي رغم انني صرت تقريبا معروفا في المقهى والحي ورغم أنني كنت أرى وجوها كثيرة معروفة متخذة طريقها الى مسكنه ؟ ..

الى أن دأب على الجلوس قبالتي في المقهى شاب مثل سني خيل الى انه مخبر سري من مخبري الطلاب مدفوع لمتابعتي . فأردت إن أتحداه باقامة الود معه حتى يريحني من القلق ويأخذ ما يشاء من معلومات . لكنه في الحق سعى الى التعرف على ، اذ شرعت مرة أدفع حساب القهوة فقال الجرسون : « الحساب وصل .. دفعه الأستاذ طارق وبيقول لك كما تشرب أيه ؟ » . فنظرت اليه شاكرا . فانتقل وجاء نحوى باسما يقول : « أظن مش عارفني » . نهضت واقفا وسلمت عليه : « شكلك مش غريب على » . قال على الفور : « احنا زملاء في نفس القسم في الكلية » . قلت : « أهلا وسهلا .. تشرب أيه ؟ » . قال معترضا : « لا .. دى قهوتنا » . قلت له : « انت جاى لسيف الماوردى ؟ » . قال باسما : « أنا ساكن هنا .. بيتنا على الناصية دى » . قلت في بعض تشكك : « أهلا وسهلا فرصة سعيدة » . قال : « أهلا بيك .. انت جاى لقريبتك ؟ .. على فكرة احنا ساكنين معاها في نفس البيت » . قلت من خوف : « قريبتي مين خير يارب ؟ » . قال : « اوعى ماتكونش قريبها » . عاودتني العقد القديمة ، قلت في شحوب : « أنا عارف .. لابد حاطلع شبه واحدة ثانية .. ما أنا موعود .. دايما يتضح انى شبه حد .. ولازم تكون واحدة ست .. حاجة غريبة والله » ..

فنظر « طارق » في وجهي نظرة اندهاش واستنكار : « حاجة غريبة صحيح .. اللى يعرفها ويشوفها لازم يقول انك قريبها قرابة جامدة ..

لدرجة اني توقعت تكون بتجيلها .. من أول ما بدأت أشوفك هنا مالقتش أي مبرر غير كده » . قلت له مندهشا : « هي مين ياطارق ؟ » . قال طارق : « ست بتعه .. ربنا يخليها ويديها كمان وكمان .. ست طيبة قوى .. عايشة معانا هنا سنين طويلة ، كانت اتجوزت واحد كبير وعاشت معاه في الخارج طلع مش ولابد سابته وجت على شقتها القديمة وبدأت حياتها لوحدها من أول وجديد » . قلت في تعجل وتوتر : « شغلتها ايه ولا ظروفهـا ايه هي روخره ؟ » . قال طـارق : « انا مايهمنيش شغلها .. أنا بقى .. اسمح لى في النقطة دى .. كل واحد حر يشتغل زى ما هو عايز .. محدتش عارف مين اللى ربنا راضى عنه .. لكن احنا نعرف ان فيه ناس سيرتها كويسة ومع ذلك معندهاش انسانية ولا ايمان أى رحمة .. لكن ست بتعة » . قلت بضيق صدر حاولت اخفاءه : « بتشتغل أيه يعنى ؟ » . قال طارق : « بيقولوا بتبيع حشيش وبتهرب مخدرات .. وساعات يقولوا بتهرب نسوان .. وربنا يستر على ولايانا .. لكن احنا الحق لله ماشفناش منها حاجة وحشة .. انما يظهر سيرتها كده لأنها متزوجة راجل غرزجى أصله صايع قديم .. اسمه كحكوح .. طول عمره لبط فى لبط .. هو اللى سوء سمعتها .. لكن الناس وكل جيرانها بيحترموها وهى بتعمل خير كتير قوى » ..

تفكرت قليلا وقلت : « هيه » . ويبدو أن لهجتى كانت تحمل قدرا كبيرا من الأسى ، اذ أن « طارق » نظر نحوى نظرة ذات معنى ثم قال : « أظن دلوقت تقدر تعترف بالقرابة اللى بينك وبينها .. ان كنت لمؤاخذة مستعر منها .. احنا ناس تعجبك قوى .. سيبك من وسط الجامعة والمجتمعات اياها .. الخير كله هنا والحلاوة كلها هنا والأصل كله هنا .. قريبتك باسم الله ما شاء الله خيرها على أهل الحتة كلهم .. فيه عيال هنا من أهل الحتة بتتعلم على حسابها .. وأسر عايشة على حسابها .. ربنا يديها ويديك .. لو ماكانش راضى عليها مكانش خلاها مبسوطة كده » ..

فى ذلك اليوم اكتفيت بهذا القدر . وقررت عدم المجىء مرة أخرى هربا مما يمكن ان أتورط فيه من مشاكل بسبب هذا الشـبه الغريب

الجيب ، ذلك أن كل من ظهر أننى أشبهه اتضح انه محاط بمخاطر لا قبل لى بها • فمن يحمينى من خطر هذه البتعة لو ظللت ارتاد الحى ؟ أليس من المحتمل ان تجيئنى بلوى بسببها ؟ كل شىء محتمل بالطبع ولهذا يجب ان اختفى ••

لكننى رغما عنى عدت فى اليوم التالى ، بل وسألت الجرسون عن « طارق » وكان الجرسون يقول انه يسأل عنى هو الآخر • أحسست ان طارق يحبنى بنفس القدر الذى يحب به شخصية البتعة ، هل لمجرد اننى أشبهها ؟ أم لأننى كما يقول شخصية مريحة وجذابة ولبقة ؟ • أيا ما كان الأمر فاننى قد قبلت عزومته على الغداء فى بيته حيث تعرفت على أهله •• البتعة •• ست بتعة •

●●●

كانت جميلة جمالا أقوى من ان يتركها فى مثل هذه البيئة أو مثل هذه السيرة أو مثل هذه الأعمال • وكانت هى قد صعدت الى الشقة العليا بدعوة من أم طارق لتسهر معهم قليلا حتى يعود زوجها المعلم كحكوح آخر الليل ؛ ترتدى فستانا بسيطا فاخرا جدا لا يليق الا بسيدة مجتمع من الطراز الأول ، لكنها تلتف مع ذلك بملاءة لف وكلما تهدلت الملاءة عن رأسها أو كتفها أو صدرها سارعت بعدلها واحكامها من جديد ، وتعصب رأسها بمنديل بأويه وشعرها مسرح تسريحة أولاد البلد كأنه شعر لم يذهب الى الكوافير أبدا • وكانت بسيطة ، تخفى صفحة وجهها توترا أبديا ، وتنظر عينها فى الانسان بتمعن كأنها تدرسه قبل أن تتبادل معه كلمة ، وتنظر وراءها باستمرار ، وتنزعج من أى نقر غير مهذب على الباب ••

حين جلست معنا فى صالة صديقى سألت بعض أسئلة عن أشياء فهمت منها أن ست بتعة كثيرا ما تعطف على جيرانها بهدايا مثل راديو صغير أو فستان أو قطعة قماش أو بعض نقود • تمعنت فيها جيدا ، فوجدتها

كبيرة الشبه بالفنانة رشا الخضرى ، لولا غلظة فى وجهها قليلا ، وفى الطبع وفى بعض اختلافات جانبية ، واللهجة أيضا بما فيها من تطنجين بلدى • وقالت هى بشىء كثير من التدلل الحلو : « بتبص فى كده ليه ياد ؟ » • قلت : « باتشبه على حضرتك •• فيكى شبه من الفنانة رشا الخضرى » • قالت باسمة كأنها سمعت هذا التشبيه آلاف المرات : « وانت فيك شبه من أمى •• ها •• » • ثم ضحكت ضحكة فى ايقاع ضحكة الحشاشين فقط • وضحكت أنا بصوت عال وصحت فى غاية الألم : « برضه فى شبه من واخدة ست ؟ » • فقالت : « يخلق من الشبه أربعين » • قلت : « فعلا •• هذا صحيح مائة فى المائة » • وأردفت هى : « الا بالمناسبة •• هى فين دلوقت •• ماعادلهاش حس ولا خبر ؟ » • قلت : « صحيح • بقى لها مدة مختفية تماما » • وقال طارق : « الله أعلم •• اصلها اتجوزت واحد كبير من رجال الثورة الأزرقية ومنعها من شغل الفن » • وقالت البتعة : « غلطانة •• لو كنت منها كنت رفضت •• حد يبيع فنه بالجواز ؟ » ••

حينئذ مال « طارق » على أذنى وهمس قائلا : « يقولون أنها هى الأخرى •• ست بتعة •• كانت تشتغل بالفن » • صحت قائلا : « صحيح يا ست بتعة •• لسة بتشتغلى بالفن ؟ » • قالت مشوحة بيديها المبتلئين بالغوايش الذهب كأنها معرض جواهرجى ثرى : « ماتفكرناش بقى » ، وكانت مثل طفلة جبيه تنعى عروستها الضائعة : « كنت غاوية •• بس طلعت لى مقصوفة الرقبة رشا الخضرى دى فى البخت •• قلت مابدهاش •• اللى قلدوا عبد الحليم كلهم سقطوا حتى اللى صوتهم أحلى من صوته – ثم ضحكت – وأنا كمان صوتى على قدى » • أحسست أنها بريئة وطيبة الى حد كبير ، وصافية الى حد لايمكن الشك فيه ، الى حد يقنعك ان مثلها لايصلح للشهرة وأنها لاتملك عهر رشا الخضرى ولاعلاقاتها ولامواهبها الشخصية • كانت الى الطابع البلدى أقرب • شكلها شكل مارلين مونرو مضافا اليه خفة الدم الأزرقى ، لكن طبعها وسلوكها طبع وسلوك معلمه ان سلطت فيك عينيها أرغمتك على الخضوع المطلق • لهجتها خليط من

حذلقة أهل الفن ورقة أهل البيوتات الكبيرة وتطجين أهل الحوارى والأزقة·
هو خليط فذ قد لايجتمع ولكنه فى شخصيتها متسق وباعث على احساس بالطرافة اللامعة والاثارة الجامحة ، ، لكأنك أمام تمثال يعبر عن الجنس بأجمل وأجلى معانيه ، وانه ثمين الصنع وليس حوله من يفهم قيمته ، وهنا يتسلل اليك وحدك الغرور ، متصورا أن بامكانك الاستحواذ عليه · ان الانسان أول ما يرى هذه الست لابد أن يقع ضحية الاغراء بأن يكون هو المنقذ لها من الضلال · ولابد أن جميع من عذبتهم وعذبوها فى الحياة كانت تدفعهم واحدة من رغبتين باطنيتين تجاهها : الوهم بانقاذها من الضلال أو الرغبة فى اختلاس لحسة أو لحستين من هذا الطعام المراق ·· وكلاهما كان من نفسه فى ضلال ··

سألت صديقى « طارق » فيما نقف فى بلكونة شقتهم : « كم رجلا فى حياة ست بتعة ؟ » · قال طارق كأنه يدافع عن أمه : « اثنان فقط لاغير ·· وعلى سنة الله ورسوله ·· أحدهما عذبها فعذبته حتى طلقها غيابيا خارج البلاد ·· والثانى مات فى السجن من فترة قليلة » · ثم استدرك ضاحكا : « هم فى الواقع ثلاثة ·· الثالث هو كحكوح ·· وهو الذى سوف يميتها فى سجنه هو » · ثم أضاف موضحا ان كحكوح شخصية كاريكاتيرية قاسية فارغة من كل المحتويات العاطفية والانسانية وما الى ذلك ، وأنه ثور هائج لايكف عن اعتلائها ليل نهار متوهما أنه بهذا الأمر وحده يهزم جسدها ويمنعه اشتهاء أحد آخر ، ولأنه خسيس وست بتعة أصيلة ، مجرم وهى خيرة ، قواد وهى مصون ، فان العلاقة بينهما دائما ليست على ما يرام ··

وأشار طارق بأصبعه نحو الأرض قائلا : أنظر · فنظرت فوجدت عربة مرسيدس فاخرة مركونة تحت بلكونة ست بتعة · قال طارق : « هذه سيارتها ·· ويوم نراها مركونة هكذا باحكام تحت البلكونة نعرف ان العلاقة ساءت بين الزوجين فسحبت هى سيارتها الخاصة وتركته يتحرك بسيارته الهيات » · سألته : « ولكن ما الذى يكرهها على العيش مع رجل كهذا ؟ » · شرح طارق وقال ان هذه هى حكمة الله التى لاينبغى أن

لتراجعه فيها ، وأن أقوالا كثيرة تتناثر فى الحارة والحى كله تشبه الأساطير، عن علاقة ست بتعة بكحكوح ، وعلاقة كحكوح بناس معينين من جميع فئات المجتمع ، يقولون انه هو الذى التقط ست بتعة ذات يوم من طريق الضلال وجعلها تتوب وتحج الى بيت الله ، أما كيف يجعل منها مؤمنة تقية هكذا فى حين نخاعه فهذه أيضا حكمة يعلمها الله ، يقولون أيضا أن زوجها الذى مات فى السجن كان أحد صبيانه وأنهما معا كانا يعملان كصبيين فى بعض مشاريع المهندس المقاول الكبير عبد الجبار ، وأن هذه النقطة هى الوحيدة التى يرشحها أهل المدينة سببا للثروة التى تهبط على هؤلاء الناس باستمرار ، لكنني – هكذا يستطرد طارق – سألتها ذات يوم فى قليل من الخبث عن مدى صلتها بالمهندس عبد الجبار ففوجئت بأنها لاتعرف من هو المهندس عبد الجبار ولاتعرف شيئا عن مدى قوته أو سطوته أو علاقاته • ولما كنت قد تربيت معظم سنى طفولتى فى حجر الست بتعة فى أول عهدها بالسكنى فى بيتنا ، فاننى خير من يفهمها ، وقد فهمت أنها بالفعل صادقة وأنها لاتعرفه ، فى حين أننى تأكدت ومن قبلى تأكد أبى وأصدقاؤه أن زوجها المرحوم وزوجها الحالى يعرفان عبد الجبار معرفة وثيقة ويعملان لحسابه فى كثير من المشروعات ••

ثم دخلت أم طارق بالشاى لنا • فسألها طارق عن زائر الست بتعة الذى تجلس معه فى الحجرة المجاورة • فقالت فى غموض : « لا •• لا أحد » • فاهتم طارق أكثر وقال يستحثها على التصريح : « قولى •• فربما كانت محتاجة الى مساعدة » • ونظر لى مفسرا قوله بأنه هو واخوته تعودوا منذ طفولتهم أن يقوموا بخدمات للست بتعة ، وأنها حتى الآن لاتتورع أن ترسل أباه نفسه فى طلب من الدكان ، اذ أن خيرها بلا حدود • لكن أم طارق ترددت فى الافصاح عن زائر الست بتعة ولكن فى شىء من الاثارة اللطيفة • فأشار طارق نحوى قائلا : « الأستاذ مأمون مش غريب » • فقالت مؤيدة : « أيوه دا باين عليه زى ما يكون ابنها » ثم ابتسمت : دى واحدة ست يمكن انت عارفها » • صاح طارق مستوضحا كأنه عرفها :

« سمراء يا حلم الطفولة ؟ » · ابتسمت أمه قائلة : « النبى انت فايق » · ثم خرجت ·

قال طارق : « سمراء يا حلم الطولة هذه هى ست وسيلة ·· هى الأجرى من أساطين النساء فى هذا الحى كله ، وشخصيتها قوية الى حد لاينهزم أبدا ·· ولو تعرض أعتى الرجال لما تعرضت له لانقلب الى أنثى فى أول شوط ، أما هى فلا يطرف لها جفن ·· يكفى أنها كانت زوجة كحكوح » ··

هتفت قائلا كأننى لدغت : « كحكوح زوج الست بتعة ؟ » ··

قال طارق : « نعم ·· كانت هى الرجل الذى فى شخصيته ، الذى خدع به الناس طويلا بحركات شهمة وكريمة ونبيلة كان يفعلها فى الواقع ليعلو بها فى نظرها ·· فلما غدر بها ـ الله يغدره ـ حزن عليها الناس كلهم ونقموا على كحكوح أكبر نقمة ، لأنهم عرفوا خسته » ·

قلت لطارق : « فكيف يغدر بها وهى مسند شخصيته ؟ » ··

قال طارق : « كان يريد أن يتخلص منها ، لأنها كانت تحب الحاج شحات أبى شافية حبا عميقا صادقا وهو أحد صبيانه ·· وكان يريد أن يتخلص من أبى شافية ، لأنه كان يحب البتعة ويموت فى هواها ·· ففكر أنه لو تخلص من الاثنين فى ضربة واحدة يكون قد أصبح متوحدا فى الساحة ويتلقف البتعة على حجره ·· وفعلا ·· تمكن من ذلك بخطة جهنمية أودت بست وسيلة وأبى شافية معا الى المؤبد ·· فمات أبو شافية ·· وبقيت الست وسيلة حتى نفذت حكمها الا قليلا حيث أفرج عنها بعفو صدر من رئيس الجمهورية عن ذوى الأخلاق المثالية فى السجون » ··

خيل الى أن « طارق » يروى أساطير من ألف ليلة وليلة ، وتعجبت من أن يعيش فى هذه العاصمة عدة عصور فى زمن واحد فى نفس المكان · ان زمن النتيجة الورقية المعلقة على الحائط ليس يجرى وحده

بل انه مجرد وعاء تعيش فيه أزمنة عديدة من عصور سابقة وربما أخرى لاحقة ٠

وقال « طارق » :

٠٠ « الناس طول هذه السنين كانوا يزورون الست وسيلة فى السجن كل اسبوع ويقدمون لها العطايا ٠٠ بل ان معلمين كبارا من تجار الحشيش والخردة كانوا يزورونهـا فى السجن ويعشمونهـا بأنهم فى انتظارها حتى تخرج ليتم الزواج ٠٠ لكنها ٠٠ تصور يا مأمون ٠٠ لم تقبل أى عطية من أى واحد اشتممت رائحة الوغد فيه ٠٠ ولم تكن تقبل العطية الا من فقراء الناس وأنزههم عن الغرض ٠٠ ربما تندهش يا مأمون حين أقول لك شيئا سوف تراه كالسينما ٠٠ هل قرأت رواية أو دخلت فيلما يتحدث عن أم فى روسيا كانت تشجع الأولاد كلهم على الثورة دون أن تدرى من أمر ذلك شيئا الا غريزة الأمومة الطاغيـة ؟ ٠٠ لكنـك لو سمعت عن الست وسيلة ما سمعنا ورأيت ما رأينا لاعتبرت ان تلك الأم شيئا ساذجا جدا بالقياس الى ست وسـيلة ٠٠ لقد كان الشبان والرجال يذهبون لزيارة أقاربهم فيجدونهـا عمدة السجن ، ويجدون أنفسهم مدفوعين للسؤال عنها وقضاء الوقت المخصص للزيارة كله معها هى دون أن يشـعروا ٠٠ وكانوا يعتذرون عن ذلك لأهلهم وأنفسهم قائلين أن فيها شيئا يشجعهم على حب الحياة وتسهيلها ٠٠ لذلك لم يكن ثمة من أوامر السجن يسرى عليها ، ولم يحدث أن اعترضها حارس أو ضابط أو مأمور ، بل كانوا جميعا ينزلون عند رغبتها ويخدمونهـا طائعين اذ أنها خلقت لهم من سجن النساء واحة ظليلة ٠ وأنشأت مصلى وأقامت حفلات غنى فيها سجينات ٠٠ كل شاب جلس معها تحول بعد الزيارة الرابعة الى زوج مستقيم أو شخص ناجح ٠٠ فان سألت أحدهم : ماذا كانت تقول لك بالضبط من كلام أو تصبه فيك من شعور ٠٠ يعجز عن قول شىء محدد ٠٠ ان شبانا كثيرين جدا فى هذا الحى العريض لم يكن عندهم أى مانع من أن يتزوجوا من الست وسيلة اذا لم يكن ثمة مانع لديها ٠٠ ذلك انها يا مأمون رغم انها على مشارف الخمسين من

العمر لا تزال تحمل قوام وصدر وخصر فتاة فى العشرين أو أكثر قليلا ، شكلها شكل أميرة حتى وهى فى الملاءة اللف ‥ فان تركت الملاءة فى البيت خرجت من قمقمها سمراء فى حمراء كأنها وهج الذهب ‥ أما عقلها فيزن رجالا ورجالا » ‥

ثم ضحكنا بصوت عال لا ندرى لم . وهمس « طارق » فى أذنى : « على فكرة ‥ يقال ان بعض المسئولين عن سجن النساء عرض عليها الزواج العرفى ‥ فرفضت بشدة ، وامعانا فى تأديبه قالت له : ولا حتى الرسمى » . ثم ضحكنا ثانية وقهقة طارق بصوته الأجوف اللطيف : وهمس مرة أخرى فى أذنى بكثير من دفء شبق : « أنا شخصيا لا أمانع فى الزواج منها لو رضيت هى » . لكننى كنت مشغولا بأمر آخر ، فسألت طارق : « ولكن ماكنهالعلاقة الحالية بين الست وسيلة زوجة كحكوح سابقا ، والست بتعة زوجة كحكوح حاليا ؟ » . فقال طارق أن الست بتعة بصرف النظر عن كونها زوجة كحكوح فهى صديقة قديمة للست وسيلة ، وان الست وسيلة والست بتعة كلاهما قد عرف انه وقع ضحية مجرم واحد عبقرى فى الاجرام هو كحكوح ‥ لكن كلاهما ـ بتعة ووسيلة ـ لا تملكان القدرة على الكره أو الغدر أبدا ، هذه مأساتهما فى هذه الدنيا ، ولذلك فان كل منهما تعرف أن غدرا من جانبها لن يقع وان الله وحده سوف يتدخل بعدالته للفصل فى هذا القدر عليهما ‥

ثم استطرد طارق :

ـ « الست بتعة رجل يعجبك ‥ لقد عيشت وسيلة خلال سجنها حياة كأنها جنات النعيم ‥ الهدايا الكبيرة والأموال والكيوف لكل من له على وسيلة سيطرة ولو من بعيد ‥ غير أن هذا لم يحدث الا مؤخرا جدا بعد أن اكتشفت الست بتعة مؤامرة كحكوح العميقة ‥ وها هى ذى الست وسيلة قد خرجت من السجن على غير توقع ‥ ومنذ أن طلقها كحكوح فى سجنها وهى تعرف أن الست بتعة سوف تكون حصنا أمينا لها ‥ وبالفعل تحقق لها ذلك ‥ فالست بتعة هى التى استقبلتها يوم

خروجها من السجن ·· وجهزت لها غرفة مفروشة فى شقة فى أحد الأحياء التى تعرف فيها ناسا أمناء ·· وصارت تمد الست وسيلة بالنقود لتنفق على نفسها بكل ارتياح ·· شهور طويلة مرت ولم يحدث أن ضجرت الست بتعة من الانفاق على وسيلة واعطائها ثيابها القديمة وشراء جديدة اضافية وهكذا » ··

ودخلت أم طارق مرة أخرى ونبهت علينا هامسة بفحيح ، ان علينا أن نخفض من صوتنا لأنه يصل الى الحجرة الجانبية حيث تجلس الست بتعة مع الست وســيلة · ثم ونظرت الى ابنها فى تأنيب وتحقير مرير قائلة : « انحنا قلنا كلام فى الموضوع ده لأ ؟ » · فأشاح عنها قائلا : « يا ماما أنا مش عيل صغير ·· ثم ده صاحبى » · فشوحت هى الأخرى نحوه فى تهديد ثم خرجت · فقال : « أمى تخشى أن نتحدث معا ، أنا وأنت ، عن فعل الخير الذى تنوى الست بتعـــة أن تفعله » · قلت : « كيف ؟ » · قال : « أمى ، كأم ، تعرف انك كزميل لى فى الجامعة ، فهناك اذن حساسية لو تحدثنا فيه » ·

ازداد الأمر غموضا واستغلاقا · كدت أشاركه فى شرب سيجارة الحشيش التى يدخنها بشراهة ، ولكننى أحجمت ، وقلت له : « ان كنت تخشى شيئا فلا تقل شيئا » · الا انه نظر فى وجهى قائلا :

ــ « ست بتعـــة تســعى لفعل خير كبير جدا ، لو انكشف فربما يستثير ضدها ما لا قبل لها باحتماله ·· اذ انها قد بدأت تسعى فى تنسيق حياة سيف الماوردى وانتشاله من وهدة الانحطاط التى يعيشها ·· وقد اختارت له عروسا بالفعل ·· وهذه العروس هى الست وسيلة خريجة السجن وزوجة كحكوح سابقا ·· تصور ·· هذه لا يستطيع اقامتها سوى شيطان أو ملاك ·· هل يداخلك الآن شك فى أن الست بتعة تريد أن تلفق لسيف الماوردى امرأة من أرباب السوابق ، خدمة لصديقتها واعفاء لنفسها من النفقات ؟ ·· ولكن لا ·· الواقع ينفى ذلك تماما ·· لقد استطاعت الست بتعة أن تهدى سيف الماوردى هدية عظيمة

جدا جدا ‥ انها خير من فهم سيف الماوردى فى الحى ‥ كل الناس ها هنا من أول ما جىء به ساكنا لاحدى الغرف القديمة الآيلة للسقوط وهم يستنكرون صوته ولا يستسيغون غناءه ويتعجبون من هؤلاء الذين يضيعون وقتهم فى الاحتفال به ‥ لكن الست بتعة حين سمعت عنه من خارج الحى وعلمت بأنه يسكن فى الحى سعت الى الاستماع اليه ، فجىء لها ببعض شرائط خاصة سجلها بعض أصدقائه ‥‥ وكان ذلك متأخرا جدا بعد أن كان سيف الماوردى قد أصبح نجما لامعا يذكر اسمه فى خطب رسمية ضمن من يشكلون عدوانا على النظام ‥ حتى هذه الخطبة وهذه المعلومة لم تكن قد علمت بها الست بتعة ‥ لقد عرفت سيف الماوردى حين أصبح يعيش فى الخفاء بلا زاد ، بعد أكثر من عشرين عام على شهرته ، وبعد ان استثمره المستثمرون وزيفه المزيفون وكسبوا من ورائه ما كسبوا ، كان هو قد بدأ يعى دوره ويقتنع انه بالفعل يجب أن يكون معارضا للنظام على الدوام ، بالغناء ، ليس لقضايا اجتماعية أو انسانية محددة بل لمجرد المعارضة والانتقام — على الأقل — لما لحق به من اهانات ، لكنه مع ذلك ظل أغنية جميلة لمن يريد أن يعلن تمرده ووعيه الثقافى من أهل الأحياء الشعبية التى يسمونها عادة بالأحياء الوطنية الا أنه منذ سكن ها هنا فى هذه الحجرة التى لم تكن مؤهلة للسكنى أصلا كان قد نبت من يهتمون به من جديد ويعطفون عليه ويدعونه للاحتفالات السرية مقابل أجر مقنع ، ومن ينفق على تنظيف حجرته وتجميلها بعض الشىء ، على أسوأ الأحوال فانه يدعى للغناء فى بعض أفراح الطلاب أو المثقفين المقيمين خارج البلاد ‥ وفى هذه السنوات الأخيرة فى السبعينات عرفته الست بتعة ‥ ألم أقل لك انها طيبة ومنعزلة بقدر ما هى متألقة وثرية ؟ » ‥

. . . . .

‥ « ولقد عزمته فى شقتها ‥ ويومها ثار كحكوح وهدر بالغضب الأهوج فى عرض الحارة أمام الجميع كأنه يعلن للحكومة ذات العيون المجهولة براءته من هذه الخطيئة ‥ الست بتعة أرجل منه ‥‥ تركته فى الحارة يهذى وتحدته بدعوة سيف الماوردى وبعض الأصدقاء من فئات

عجيبة لا تدرى كيف اجتمعوا ·· يا لها من ليلة ·· العمارة كلها كانت تخدم فى الحفل ·· وسيف الماوردى بصوته الأجش غير المدرب كان مع ذلك جذابا منهلا ملعلعا ، مشعشعا على آخر الطاقة ، كأنه يغنى فى فرحة ، وترك عند الست بتعة أنقى وأجمل تسجيلاته ·· حوالى أربع شرائط بأربع ساعات غنى فيها منتخبا كبيرا من مراحل حياته الفنية التى مثلته وشهرته طوال هذه السنين ·· أما أنا ·· فقد اشتغلت فى تلك الليلة غرزجيا من أجل عيون الحفل والجمع السعيد ·· وواقع الأمر اننى كنت أنا الآخر قد عشقت أغانى سيف الماوردى وبدأت أحفظها وأغنيها فى المناسبات ·· وكانت الست بتعة تروح وتجىء فى ابتهاج عظيم ، ومن حين الى حين تدخل الى مجلس الصحبة وتقول كأنها طه حسين أو سهير القلماوى : « يا سلام يا سلام ·· يا لها من عظمة ·· أنت فنان كبير والله يا أستاذ سيف » ·· فيحنى سيف قامته باسما فى امتنان سعيد « متشكر قوى يا ست هانم ·· ربنا مايحرمناش منك ·· وانتى وطنية قوى يا ست هانم دا ايه الحلاوة الشعبية دى » ·· سيف أيضا كان نكته ·· ثم انها سألته : « يا ترى حضرتك من أنهو بلد يا أستاذ سيف ؟ » ·· فقال انه من العاصمة نفسها ·· ولد هو وأبوه وجده فى نفس هذه العاصمة ولا يعرف من أى جنس هو بين الأجناس العديدة التى استوطنت العاصمة ولكنه يرجح انه من أصل كردى جاء مع صلاح الدين الأيوبى ·· وفى نهـاية الحفل وقف سيف الماوردى أمام الست بتعة كتلميذ نجيب خجل من فرط اعجاب أمه به ·· وقالت الست بتعة وهى تنظر اليه فى تقدير : « دى أسعد ليلة عندى يا سيف ·· ومن هنا ورايح اعتبرنى أختك ·· أى طلبات أى خدمات أنا موجودة ·· مايهمكش من كحكوح ·· دا جدع فالصو متاكلش من كلامه » ·· فانحنى سيف شاكرا وهو غير متصور أن هذه الست البلدى المشهورة فى الحى يمكن أن تكون حساسة الى هذا الحد ، ذلك انها ــ فتك فى الكلام ــ كانت فى كل دخلة عليه تبدى اعجابا بالنغمة واللازمة وتستخدم كل مصطلحات الفنانين العارفين فيالها من معجبة لقطة سخى بها الزمن عليه ·· فتك

فى الكلام أيضا ـ لقد غنى لها سيف من بين أغنياته هزأ فيها برشا الخضرى وفضح الذين تحمسوا لها وقدموها وفرضوها مطربة على الجماهير ، ولا تسل عن سعادة الست بتعة بهذه الأغنية ، الوحيدة التى استعادته اياها أكثر من ثلاث مرات ، وكانت تخرج الى الصالة ونضبطها متلبسة بهز وسطها مع النغمة فى ابتهاج باسم ، فابتهجنا نحن الآخرون وعرفنا أن سيف قد انتقم لها من شخصية رشا الخضرى التى أحبطت آمالها الفنية واعترضت طريقها .. المهم انها فى النهاية سلمت عليه وفى جوف كفها عشر ورقات من فئة العشرين مطبقة .. فقبض عليها وصار يبعث عبارات الشكر والامتنان طوال نزوله من درجات السلم » ..

.. « منذ ذلك اليوم استنام سيف الماوردى لعطف الست بتعة هو الآخر .. ولما كان معظمهم قد انفضوا من حوله فى السنوات الأخيرة فان المسكين فى حال لا يحسد عليها .. كان يبعث المراسيل الى الست بتعة بطلبات فلا تردهم خائبين .. الى أن خرجت الست وسيلة من السجن وتلقفتها الست بتعة فى حضنها من وراء ظهر كحكوح .. فعزمته على حفل فى شقة أحد أصدقائها المهربين الذين ادعت له أنهم من رجال المجتمع .. وأخذت معها ست وسيلة .. وتركتها تقوم الحفل وتسهر على راحته .. كنت فى هذا الحفل أيضا .. فأنا على وجه التقريب أتحرك وراء الست بتعة كظلها الا اذا هى أومأت الى بأنها اليوم غير محتاجة الى .. نوع من الوفاء فلولاها ما دخلت الجامعة .. لا تسلنى عما فعلته الست وسيلة بأدمغة المحتفلين على الاطلاق .. ما أن دخلت بفستانها البسيط الثمين حاملة صوانى الأطعمة حتى بدت كملكة فرعونية تنازلت عن عرشها لتخدم حبيبها .. وظلت هى رهن الاشارة لكل من طلب ماء مثلجا أو قهوة أو ليمونا .. فما تكاد تظهر حتى ينتعش الجميع ويدب فيهم نشاط وحيوية .. كان ذلك الحفل أروع حفل أقامه سيف الماوردى فى حياته .. أتدرى لماذا ؟ .. لأنه لأول مرة فى حياته لا يغنى أغنيات سياسية ولا انتقادية ، بل شرد فى حدائق العشق بمواويله الحمراء وآهاته المعذبة الأبدية ، حتى لقد اهتز من نشيجه الحلو كافة ما فى

الشقة من أثاث وستائر وجدران .. تسجيلات هذا الحفل ـ للفلم ـ تجدها عند واحد بعينه في خارة القللية .. والست بتعة لم تكلف نفسها مشقة عرض الأمر على سيف .. انما هو الذى بادر بالاتصال بها وقال أنه يرجوها السعى فى زواجه من الفاتنة السمراء .. فحكت له قصتها بالتفصيل فلم يعن بالاستماع اليها .. فوعدت بالتفكير فى ذلك » ..

وقدم لى « طارق » ذبالة بقيت فى السيجارة قائلا : « نفس » ..

فأخذتهـا وجذبت بقاياها وأطفأتها . ولمحت حركة غير عادية فى الصـالة الصغيرة الضيقة . وتناهت الى روائح عذبة . لكن « طارق » جذبنى من جديد قائلا : « لو فهمت قصد الست بتعة من تزويج ست وسيلة لسيف الماوردى لعرفت أنها خطة جهنمية جدا » ..

قلت بلهفة : « كيف ؟ » ..

أشعل « طارق » سيجارة ثم قال :

ـ « ان ست بتعة تريد لسيف الماوردى أن يقلع عن الغناء السياسى ضد الحكومة نهائيا .. هذا أمر تعجز عنه الحكومة نفسها .. لكن ست وسيلة سوف تخلق من سيف الماوردى انسانا آخر تماما .. هى لن تمنعه من الغنـاء ضـــد الحكومة فى الواقع بل ستنظم له شخصيته وترتبها .. تسقيه معنى الاستقرار كزوج ينبغى أن يعود لزوجـه فى المساء كل يوم ، وكرجل يستخسر انقضاء ساعة خلف أسوار السجن بل فى أى مكان ليس فيه الست وسيلة .. ان الست وسيلة سوف يهدأ سيف بالحياة ربطا وتسقيه معنى الحرص عليها .. حينئذ سوف يهدأ كثيرا ، اذ تتوفر له أشياء كثيرة مفتقرة فى حياته ، ويتوفرهـا سوف تلتمع مواهبه وتغير صيغتها ، وربما تضع ألحانا وطنية أيضا ولكن بشكل لا يأخذ صيغة المعارضة .. تريد له الست بتعة أن يصبح فنانا لا مهيجا جماهيريا ولا داعية سياسيا .. ليس هذا من تصـوراتى ، بل هكذا سمعت ست بتعة تقول له ذات حفل صـــغير على الضيق .. أتعرف

يا مأمون .. لقد أحسسنا كلنا ان الست بتعة تحب الاثنين حبا كبيرا جدا : وسيلة ويسف .. ولذا فهي سوف تنفق أموالا كبيرة في تهيأة عش لهما » ..

وصمت « طارق » ، وانشغل في تقليب أوراقه بحثا عن شيء ثم قال ان جوابا وصله من البنت التي يحبها وسوف يقرأه على ، لكي أساعده — بما لدى من عبارات جميلة وأسلوب جميل — في كتابة رد يسجدها . تمنيت ألا يجد الخطاب ، لأنني لن أقوم بهذه المهمة أبدا . من حسن الحظ دخلت أمه ووجهت الى نظرة حرجة فيما تقول لابنها :

— « وبعدين يا ولد .. ست بتعة عايزاك في مشوار » .

قال طارق : « عيني » ، ثم نهض قائلا : « عن أذنك » . وغاب مع أمه في الداخل برهة طويلة ثم اذا بصوته يناديني : « اذا سمحت يا أستاذ مأمون » فقمت على استحياء ودلفت الى الصالة ، فقال : « تعال » . فرفعت بصري فاذا بي محتاج لقوة هائلة أحتمل بها ما أرى من ضوء واشعاع : أميرتان من أعرق أمراء العالم القديم الحديث ، لا أحد في الأرض يحمل هذه الكمية من الجمال والكبرياء الطبيعي الجارف القاصم الست بتعة والست وسيلة امرأتان على مشـــارف الخمسين كأنهما في مقتبل العمر ، كأن الكرة الأرضـــــية يجب أن تقسم بينهما بعـدالة وقسطاس ..

اقتربت منهما في خجل . بالله ، هل كانت هذه زوجة لكحكوح ؟ وبالله هل هذه الأخرى زوجة كحكوح ؟ . مدت الست بتعة يدها وسلمت على ، فسلمت بحرارة ، وتمنيت لو بقيت يدى في يدها طويلا . فلما سلمت على ست وسيلة انتابني نفس الاحساس ونفس الشعور . وقال طارق يقدمني : « زميلي وصديقي الأستاذ مأمون » ، ثم يقدمها : « الست بتعة .. الست وسيلة » . واحتوتني وسيلة في صدر كأنه وجه الرغيف يرتفع في قلب الفرن ، واحتوتني بتعة بنظرة قادمة تسبح من أعالي

البحار . وقالت الست بتعة : « طارق بيثق فيك .. وأنا كمان ما أعرفش ليه حبيتك ووثقت فيك .. عشنان كده وافقت على انك تبقى صديقى » . قلت لها صاغرا : « دا شيء يشرفنى يا ست بتعة » . فنظرت فى ساعتها وقالت : « طب يلا بينا بسرعة عشان نيجى بسرعة » . وانتزعت الملاءة اللف وألقت بها الى وسيلة ، وأخذت هى « روبا » سترت به كل جسدها ثم أشارت لنا ، فنزلنا طارق وأنا نسبقها الى سيارتها المركونة تحت شرفة شقتها .

بدربة فائقة لم أكن أتوقعها من الست بتعة خرجت السيارة الفارهة المصقولة من بين حوار وأزقة ضيقة ، ثم زاغت بين زحام الشـــوارع العمومية ثم استقلت الطريق العمومى الى منشأة جديدة متاخمة لميدان المشهد الأزرقى ..

نزلنا أمام عمارة عالية ، ثم دخلناها وركبنا الأسانسير حتى آخر دور ثم صعدنا على أقدامنا الى السطح فاذا بشقة جميلة جدا ومفتوحـة على سطح العمارة وقالت الست بتعة لوسـيلة : ما رأيك ؟ . وقالت وسيلة : فل خالص آخر حلاوة . ثم اننا طرقنا باب الشقة فانفتحت فاذا بهـا من الداخل جميلة ومجهزة بعفش وأثاث لائق جدا ، وبعض أتباع من مقاطيع سيف الماوردى ، ثم سيف الماوردى نفسه ثم المأذون ..

سلمنا عليهم جميعا . وأطلقت ست بتعة زغرودة بلدية ريفيـة رائعة رائقة . ثم جلسنا وســط مظاهر فرحة نشأت فجأة كأنهم غير مصدقين قبل حضورنا . ثم همس صديقى طارق فى أذنى قائلا ان الست بتعة هى التى استأجرت هذه الشقة لسيف من نفسها اذ أن العمارة ملكها والله أعلم . ثم استقامت جلسة ضمتنا كعائلة واحدة : سيف الماوردى وست بتعة وست وسيلة والمأذون وصديقى طارق ، وأتبـاع الماوردى منغمسون فى المطبخ يعدون طعاما وشرابا . ثم اذا بهـا بجلسـة لعقد القران . ثم اذا بعقد القران يتم ، واذا بى أنا وصديقى طارق نشهد عليه دون كافة الموجودين . وكنت وأنا أوقع عقد زواج خالى سيف الماوردى

أحس بشعور وهزة داخلية تمنعني من التصريح له بأن أباه خليل هريدى بعد هربه وموت أمه حزنا عليه تزوج من جدتي أم بسيمة زوجته السابقة فأنجبت له أمي كل ذلك دون أن يعلم سيف وبناء عليه فهو خالى دون أن يعلم . العجيب انني يومهـا لم أجد رغبة قوية في التعرف عليـه والكشف عن شخصيتي ، احساسا منى بأنه طالما رفضني ورفض الانتماء الى أهله أهلي فانني يجب على الأقل الا أرحب بانتمائي اليه ، وهكذا تماديت في استغفال نفسى تاركا انكشاف الأمر للمجهول . على انني كنت أوقن من أن الست وسيلة هي أكبر هدية أعطيت لخالى سيف وانها سوف تغير مسار شخصيته لا بد ، أوقن من ذلك لمجرد رؤيتها واكتشاف ما في وجهها من نبالة ..

ليلتهـــا احتفلنا أعظم احتفال بدخلة ســيف الماوردى على الست وسيلة . غنى سيف وغنت الست بتعة مقلدة مها صبرى تارة وشريفة فاضل تارة أخرى ووردة تارة ثالثة . وأكلنا وشربنـا وفرحنـا حتى النخاع ، ثم عدنا في بداية النصف الأول من اليوم التالي في ســيارة الست بتعة . ونزلتنا عند بيتها وقالت لى : « أنا عاوزاك يا مأمون » . فقلت كأنني طارق أو أحد أخـوته : « تحت أمرك يا ست هانم » . وانصعت اليها . ورأيتها تفتح حقيبة يدها فمددت يدى بسرعة غاضبة وأوقفت حركة يدها قائلا : « فيه حاجة ؟ » . قالت : « عايزه أعطيك هدية » . قلت : « أرجوك .. بلاش اهانة » . قالت : « مش فلوس » . قلت : « ولا أي حاجة » . فقالت باسمه : « اوعى ياد يا شبه أمي ياد .. باقول لك انت شبه أمي .. والمصحف شبهها .. مش هزار » . ثم أزاحت يدي بغضب رقيق قائلة : « اوعى » ، ثم أخرجت من الحقيبة ولاعة رونسن ثمينة غالية تساوي عشرين جنيهـا . فتقبلتهـا شاكرا . ثم أوصتني بأنني يجب أن أكون على اتصال دائم بها سواء مع طارق أو وحدي ..

غير أنني لم أكن أستطيع الاستقرار تماما في العاصـمة فورائي وظيفة وقرية وأهل أعنى بهم . لكنني كنت قد قررت بيني وبين نفسى

أن أعاود الاتصال بالست بتعة هانم فى فرص أخرى كثيرة • ولم يمنعنى من ذلك سوى اقتراب الامتحانات وهروبى من جو سيف ومنطقته برمتها . وبعد اجتياز الامتحان عاودنى الحنين الى المنطقة من جديد • وانجذبت الى بيت صديقى طارق بعد شهور طويلة لم أره خلالها ••

وجدت جوا من الحزن والخطر يخيم على البيت ، ولا أثر للسيارة هناك • فحدست أن تكون الست بتعة فى مشوار أو على سفر ، حتى صديقى طارق نفسه لم يكن موجودا بالبيت لعدة مرات وبشكل يدعو للريبة • وأخيرا تربصت به فتصيدته على المقهى • فاحتضننى وجلس جوارى كالمهزوم قائلا :

ــ « مش الست بتعة مقبوض عليها ؟ » ••

قلت مذعورا : « كيف ؟ لماذا ؟ » ••

قال « طارق » :

ــ « لا نعرف •• ولكننا صحونا ذات يوم فلم نجدها ولم نجد السيارة •• وكان زوجها النطع كحكوح قد قطع صلته بها وقيل انهما انفصلا •• لكن لم تمض بضعة أيام ــ وكنا لا نزال ساهرين نتدارس فيما بيننا أخبار الست بتعة وهل يمكن أن تكون قد اختطفت مثلا ؟ ــ اذا بنا نفاجأ بمجموعة من الرجال يفتحون شقتها فى الهزيع الأخير من الليل •• فنزلنا نستوضحهم الأمر •• فقالوا أنهم من مباحث أمن الدولة ، وأبرزوا بطاقاتهم •• ونزل أبى وقطع الشارع وخرجت أمى وأختي الى البلكونة لاستجلاء الأمر فتبين لنا ان عربة الهجوم الفركشى المكتظة بالفرق ترابط عند مدخل الشارع •• فانزوينا جميعا فى الأركان •• ولم نسأل بعد ذلك أبدا عن أى شئ ••• الا ان الاشاعات أكدت أن الست بتعة قد انكشف المستور وراءها فظهر انها كانت على علاقة مريبة ببعض الشخصيات السياسية والاجرامية المعروفة والمراقبة ، وبأنها متهمة فى كذا وكيت من عشرات التهم التى تكفى الواحدة منها

لوضع كل ممتلكاتهـا تحت الحراسـة ووضـعها هى نفسها فى حبل المشنقة .. وكنا نظن ان انقلاب الحكومة عليها هكذا يرجع الى علمهم بتشجيعها لواحد يعارضهم ويعمل على فضحهم .. لكننا اكتشفنا أكبر من ذلك بكثير جدا وانهم يدخرون لها عشرات التهم المخفية من قديم » ..

ولاحظت ان صديقى « طارق » يريد أن ينهى الحديث بأى شكل لكى ينصرف الى حال سبيله من شدة الخوف . فسألته : « وأين توجد الست بتعة ؟ » . قال « طارق » كأنه يستهجلنى : « فى السجن طبعا » . قلت له : « أى سجن ؟ » . قال : « سـجن الاسـتقبال .. المعتقل السياسى » . ثم سلم على وانصرف ، فأحسست بحزن كثيف . ورأيت الحزن يتكاثف على الشارع كله حتى أولئك الذين يهبرون الكباب فى شراهة على رأس الشارع . فتركت الحى كله ضائق الصدر معتكر المزاج . لم أجد مكانا آخر يصلح للانتماء اليه فى هذه اللحظة ، فكل مكان قد احتله ناس فى يدهم نفقات باهظة ، جميع الأماكن تزدحم بزخم كريه مهين ساحق للانسـانية ، لا يملك الانسان ان يختار أى شىء أو يميل الى أى شىء أو يتمنى أى شىء أو ينتظر أى شىء أو يؤمل فى الوصول الى شىء بل حتى لا يثق فى امكانية انتقاله من هذا الحى وسط هذا الزحام الهمجى الى حى آخر بله أن يكون له حى ..

واذ وقف سائق الأجرة مستجيبا لتذللى قال انه ذاهب الى المكان الفلانى . فتذكرت ان لى بعض شأن فى هذه المنطقة التى ذكرها . وأمام فرحتى بوجود المواصلة ركبت بجوار السـائق فاستأنف السـير فى صمت .. فلما استرحت قليلا فكرت فيما يقودنى الى هذه المنطقة رغم ثقتى فى استحالة العودة منها بسهولة ؟ . على اننى حين أعطيت ما طلبه دون مناقشة ومضيت أدب فى المنطقة السكنية الجديدة . جلست على أول مقهى وطلبت الشاى والشيشة ثم رحت أفكر : هل جئت الى هذه المنطقة فى حقيقة الأمر مدفوعا برغبة أصـيلة وملحة فى الكشف عن شخصيتى لنسيف الماوردى ؟ لأطمئن عليه مثلا هل قبض عليه مع الست بتعة ؟ أم لأطلعه على جلية أمرى معتذرا بأنى لم أكن أعرف أو لم أكن

أريد وقد أردت فليغفر لى ؟ • ان الرغبة فى صلة الرحم والدم شيء أصـيل وجميل ولا موجب للاعتذار عنها بأى سبب • ان جدى خليل هريدى يجب أن يشعر بابنه فى أواخر سنى وعمره لعل شخصيته تعتدل وتستقيم ، وسيف يجب أن يعود الى رشـده فيتذكر أباه ويرتد اليه صاغرا ••

ووجدتنى أمام البيت الذى يسـكنه سيف •• فتحت لى الفاتنـة السمراء • أبدا ليست هذه زوجة رجل بسيط ، انما هى زوجة ملك ، يقول لك قوامها الملفوف ومظهرها الفائق الكبرياء ان قف مكانك مؤدبا مهذبا قبل ان تمثل بين يدى زوجها سيدك وتاج رأسك • أبدا لا يمكن ان تكون هذه الرصانة والسلاسة قد عاشت مع حثالة المجرمين في الحياة والسجن على السواء •• انها لم تغادر قصر الملكة برهة واحدة ولم تكف عن الأمر والنهى برهة واحدة • واذ تمعنت قليلا فى وجهى ابتسـمت فكأنما الدنيا كلها قد رضيت عنى ، وهزت رأسها أن تفضل • فدخلت • فاذا بأريج حياة كاملة يكاد يعصف برأسى من النشوة ، رائحة الاستقرار والتوقد والاشتعال العاطفى ، والنظافة الشفافة • العود قابع فى أحد الأركان ، والستائر الجميلة تداعبه • سيف بيك الماوردى — ما أسعده — يضطجع فى حجرة النوم ، وهى سوف تبلغه حالا • وككل من يبلغ نبأ زوارهم فى السرير جاء الشاى طليعته ، ثم مضت برهة طويلة دخلت لها الست وسيلة — أقصد الامبراطورة وسيلة وسرحت شعرها فى وقار واحترام ثم جلست قبـالتى قائلة : « أهلا وسـهلا أيه الأخبـار ؟ » يا للطرافة ، هى الأخرى تسأل عن الأخبار • ثم جاء سيف مرتديا الروب دى شامبر الفزدقى ، ودعائم الصحة بادية على وجهه ، فسلم على بحرارة وجلس بجوارى • ومضت وسيلة • وقال سيف انه كان يتصـورنى — يوم القبض علينا معا فى شقتى — من عائلة الفنانة رشا الخضرى فاذا بى من عائلة الست بتعة فيا للتوافق العجيب وأهلا بى وسهلا • فلم يعجبنى منظر خدوده المتوردة ولا غلظة احساسه ، فقلت له اننى كنت مسافرا الى البلد فلما عدت ذهبت لزيارة صديقى طارق .فعلمت ان الست

بتعة قد قبضت عليها مباحث أمن الدولة فهل لديه أخبار تصحح هذه الأخبار المزعجة ؟ . فقال فيما يشبه الجملة الاعتراضية : « ولكن هل حضرتك من أقارب الست بتعة ؟ » . قلت : « لا فى الواقع ، ولا من أقارب رشا الخضرى ، لكننى تعرفت على الست بتعة مؤخرا بواسطة زميل الدراسة طارق مرزوق » .. فقال وهو يشعل سيجارة أجنبية : « اذا كان يهمك أمرها فاننى قرأت اسمها بالفعل فى كشوف المقبوض عليهم مؤخرا .. وكنت أخشى أن يكون ذلك بسببى .. لكننى تحريت فعلمت أن فى الأمر قضايا أخرى كثيرة تتعلق باتصالاتها بشخصيات كبيرة ضخمة .. وهى مسائل غامضة لم تتضح الى الآن ، ولا أظن انها ستتضح بسهولة .. وربنا يستر علينا جميعا » .

ثم دخلت الملكة الفرعونية النوبية حاملة صينية القهوة كأننى فى حضرة الزعيم سعد زغلول . شربت القهوة كأننى ألتهم الست وسيلة مذابة فيها . وجلست هى قبالتى مدارية ركبتها بطرف الفستان كفتاة خجولة ما تزال . كان فى عينيها حزن عميق جدا تكشفته شيئا فشيئا . وكانت تغيب فى شرود ويرتسم على صفحة وجهها تعبيرات مخيفة ، ثم اذا بها تهدر قائلة : «آه لو كنت أعرف أين هى الآن ست بتعة .. لكان اتصالى بها أمرا ميسورا .. ولو اتصلت بها لعرفت حقيقة السبب . واذا عرفت فلابد أن أقف معها حتى تنجو من الكارثة بعون الله .. لكن آه لو أعرف .. مصيبتنا جميعا اننا لا نعرف كثيرا من الأشياء ، ولو عرفناها فربما انقلب كل شىء رأسا على عقب » ..

وقال سيف وهو يشرب القهوة فى شىء قريب من الانذار الضاحك : « بلاش الكلام ده يا وسيلة .. خليكى عاقله شويه » .

فبدأ على الملكة ما يشبه التوتر والخوف من شىء غامض ، وصارت تلوح بيدها حول رأسها فى استفهام مبهم ، وسيف يترجم حركتها قائلا : « أنا معاكى أنا قلت المسألة غامضة .. ومسيرنا نعرف .. احنا يعنى حنسيبها لوحدها ؟ » . ونطق صوت فى داخلى : « وفيه حد ينسى أبوه

الستين دى كلها يا هريدى ؟ فيه حد كان ينسى مراته فى المولد فى الزحمة ويجيله قلب يقعد من غيرها من غير ما يعرف هى راحت فين عامله أيه ؟ فيه حد يعمل كده الا أنت يا هريدى ؟ ·· لكن مين عارف ·· يمكن سيف الماورى يصلح غلطة هريدى ·· الانسان بتخلقه الثقافة والمعرفة ·· وينقيه الفن ويصفيه ·· لكن » ··

وجاءنى صوت الملكة يقول : « ان عشت يا أخ مأمون فاننى سوف أعرف كل شيء عن الست بتعة ·· سوف تكون شغلتى الآن هى البحث عن مكانها والاتصال بها وزيارتها بأى ثمن ·· وسوف أساعدها بكل ما أستطيع اذا ما كان فى الأمر محاكمة أو قضاء » · فأحسست أن هذا كلام الملكة ، وانها لن تنقضه أبدا ، ان العظمة والسلوك العظيم كلاهما ليس ينبع من اطار المنصب أو المركز أو العلم أو الثقافة الجوفاء ، انما هو سلوك تحدده الشخصية نفسها بارادتها ، وارادتها هى شخصيتها . وهنا داخلنى الاطمئنان وأشعلت سيجارة ونهضت — أقصد فوجئت بنهوضى واقفا أقول : « طيب ·· استأذن » · فلما فوجئت بأننى قد استأذنت بالفعل داهمنى شعور غريب بأننى ربما أكون شخصيتين مختلفتين ، لكننى متأكد من اننى مشطور الشعور ، فحيث جئت للالتحام بدمى ها أنذا أتجه نحو الباب خارجا وفى داخلى شعور مرتفع بأن دمائى نافرة الى الخروج خوف الاجتراء على حرمة ناس غرباء عنى تماما ··

كان ذلك منذ بضعة أسابيع · وعدت من العاصمة ضائقا لأحضر فرح « جميل » وأبقى بالبلدة أياما · وكنت ألوم كثيرا من أقاربى مثل جميل وأخوته وغيرهم على كونهم لا يسألون عنى ولا يهتمون بوجودى فى البلدة ، لكننى فى لحظة الوصول الى الغضب منهم تذكرت اننى شهدت عقد زواج خالى سيف وعزمته فى شقتى وقبض علينا معا والتقينا كثيرا ولم أشأ أن أكشف له عن صلة القربى بينى وبينه ·· فأتمزق من شعورى بالوضاعة ، وأزداد اشفاقا على الناس أجمعين ، فكل الدماء مسمومة على ما يبدو ··

لكن آه لو تدرى ما طرأ على الآن وجعلنى أحس بالحاجة العاطفية لأن يكون معى رجلا كسيف الماوردي • اننى مصمم على المضى في طريق ربما كان فيه حتفي ، وأعرف أنه محفوف بالمخاطر لكنني أحب مخاطره وأطلبها لتكشف لى عن سر جوهرى ومدى أصالته • هذا دور قد اخترته لنفسي بمحض ارادتى : أن أفتح ملف خالتى بسيمة وأبحث فى تاريخها ووثائق حياتها لأصل الى مصدر قتلها وعودتها على هذا النحو الى قريتها • هودور أعرفه ولن أطلب أحدا يحارب معى ، انما أنا محتاج فقط الى روافد من المعرفة • وهنا سوف أتخلى لأول مرة عن ذاتى وعن ارادتهـا الشخصية ، سأنهار وأعترف بانتمائي لسيف لا لشيء الا لكى أحصل منه أو عن طريقه على بعض الحقائق ، أليس زوجها ؟ انه فى حقيقة الأمر أول طرف يجب أن يكون مسئولا ومعينا فى هذه القضية •

ـ ٣ ـ

•• وانتفض « مأمون » قاعدا فى حوض الساقية وهو يشـــعر بالنشاط المفاجيء والرغبة فى الوجود • أما أنا فقد أخذت أحمحم حوله معبرا عن شعورى بأصالة العلاقة بيننا • فها هو ذا « مأمون » يكشف أن صلته بى قديمة وأنه سبق أن رآنى على الأقل مرة فى صحبة سيدتى • وليست صلته بى وحدها هى القديمة ، بل ان صـــلته بالموضوع كله أقدم ، بل وأكثر أصالة بطبيعة الحال • ولكن هل يكفى أن يكون المرء طرفا أصيلا فى القضية لكى تقام القضية ؟ • لا بالقطع • لأن تفاصيل الجريمة فى قضية مأمون هى تفاصيله هو نفسه التى تمزقت من قبل أن يولد وألقي بكل منها فى سلة مهملات بعيدة • هكذا أصبحت أفهم « مأمون » ولكن فهمى له يشكل مأساة خاصة بالنسبة لى فوق مأساته هو الشخصية • فمأساة مأمون هى كيفية تعرفه على أشلائه المبعثرة فى وادى بنى الأزرق • أما مأساتى أنا فهى أنى ككلب أمين وفى على أن أساعده فى التعرف على أشلائه ومعالم حقوقه التى أعرفها • أليس فيه

بعض ما فى ؟ أليست مأساته تشبه بعض مأساتى ؟ أنا نفسى لا أذكر من طفولتى كلها سوى مشهد أمى وهى تهرع صارخة مشجوجة الرأس بنبوت عدوانى همجى حقير بدون أى ذنب جنته ثم تهوى فى المستنقع النتن بين أعشاب الحلفاء · أنا الآخر رأيت أشلائى وهى تتمزق بالفعل وتنحدر الى مستنقع الجيف ·· هو كذلك قدر له أن يرى أشلاءه وهى منحدرة بالفعل كذلك فى مستنقع الجيف ··

واذا كان قد قدر علَى أن أجيء الى هذا الوجود كلبا مفتت الذاكرة لا يملك الحق أو القدرة على موهبة التعبير ، فاننى وفاء لكلبيتى فقط وليس لأن ادعاءات أخرى ، سوى أحاول مساعدة مأمون بقدر الامكان على التعرف على تاريخه المجهول ··

لكننى فجأة وجدت الدنيا قد انقلبت · صحيح ان فرق الهجوم الفركشى لم تكن ظاهرة لنا ، والا ان وفودا كبيرة من الأفندية والضباط قد زحفوا نحونا يتحدثون فى لغط مرتفع · رفعت رأسى فوق الساقية فعرفت ان « مأمون » قد خدعنى ، اذ وضعنى فى قلب المنطقة المحظورة وادعى اننا خارجها · نهض « مأمون » واقفا يعدل نفسه ويبتسم قائلا : « أهلا وسهلا » ، ثم معتذرا : « لمؤاخذه راحت على نومه » · ونظر له ضابط الشرطة فى ريبة واستنكار ، وسكت على مضض ، اذ أن أفنديا شابا متحذلقا يرتدى بذلة كاملة تقدم نحو « مأمون » مسلما : « أهلا أستاذ مأمون » ، ثم نظر الى الوفد الذى معه : « مأمون عكاشة طالب جامعى من خيرة شباب البلد ·· هو اللى ساعدنى فى مصادر الدكتوراه بتاعتى ·· أهلا يا أستاذ مأمون بتعمل أيه هنا ؟ » ·

قال مأمون : « أبدا يا دكتور على ·· الواقع أنا فى ظروف مش كويسه ومشيت أنفس عن نفسى من كتر الهم » · قال ضابط الشرطة فى لهجة ذات معنى : « وما لقتش مكان تتنفس فيه غير هنا ·· اشمعنى هنا يعنى ؟ » · دهش مأمون ، وقال الدكتور على : « معلهش يا حضرة الضابط ·· مأمون أخ مش بتاع كده ولا كده ·· ولد شريف وبيحب

بلده .. بس لازم ميعرفش ان المنطقة عليها ظروف استثنائية وممنوع المدنيين فيها » . أسرع مأمون قائلا : « فعلا والله يا دكتور .. ولو حضرة الضابط عرف ظروفي يمكن يقدرها .. الواقع أنا تايه مش داري بأي حاجة .. اعذروني .. جثة خالتي وصلت من يومين ثلاثة وحيدفنوها في مقابر الصدقة .. وأنا الوحيد من عائلتها أريد أن أستلم جثتها وأفتح محضر ولا أجد أحدا يتعاون معي .. يقول لي ماذا أفعل » . وهنا خف بعض الجفاف على الوجوه ، وقال الضابط مدافعا عن نفسه في لهجة تأنيب متذاكية : « طب وايش عرفك بقى يا خويا ان المحضر حيقيد ضد مجهول ؟ » ..

وهنا إرتفعت موجة الحركة مصحوبة برعب وخوف وتذلل ، حيث ان موكب عبد الجبار نفسه قد اقتحمهم ومعه الخبراء والمهندسون يشرحون له خواص المنطقة ويشرح لهم مميزاتها . وكانت يد عبد الجبار تشير الى وجود الساقية كاحدى المعالم المطلوب ازالتها ، حين برز له وجه مأمون مباشرة ، لحظتها تعلقت نظرته بمأمون لبرهة طويلة وكاد يبتسم له كأنه تعرف عليه ، لكنه اعتقل ابتسامته وتجاهله . وتقدم ضابط أكبر صائحا : « فيه أيه ؟ أيه الجدع ده ؟ . بتشتغل أيه يا أخ ؟ بيعمل أيه هنا ده ؟ » . وهنا توقف الموكب في قليل من الخوف والتشكك ، فقال الضابط الكبير : « اتفضلوا انتوا سعادتكم » . فقال عبد الجبار مبتسما : « مش مهم بس فيه أيه ؟ » . قال الدكتور على ناظرا الى مأمون كأنه يقدم له أكبر خدمة في حياته : « الموضوع وما فيه يا أفندم .. مفيش حاجة .. حصل لبس صغير .. الأستاذ مأمون طالب في كلية الآداب وأديب ومتطور ومثقف » . قال عبد الجبار بشيء يشبه الخوف مع التقدير المزيف : « طالب في الجامعة ؟ » . قال الدكتور على : « أيوه بس هو في ظرف قاسي » . قال عبد الجبار وقد أستعد لشيء شهم : « خير يا مأمون يا ابني .. قول ما يهمكش .. انت بلدياتي .. يعني أخويا الصغير .. أنا تحت أمرك في كل اللي انت عايزه » .

قال مأمون وهو على وشك البكاء : « لا يا أفندم العفو أنا مش عايز أى حاجة » . قال عبد الجبار فى اهتمام : « أمال أيه الحكاية ؟ » . قال الدكتور على : « من يومين تلاته يا أفندم .. جثة خالته وصلت البلد بشكل غريب .. وفى ظروف أغرب ..والبلد كلها عارفه .. وهو الوحيد من أهلها وعايز يستلمها .. وخايف أحسن خلاص حيدفنوها فى مدافن الصدقة .. فمش عارف يعمل أيه أو يتصل بمين .. فانذهل .. فضل ماشي من امبارح .. لحد ما تعب نام هنا . ومكانش يعرف ان فيه زيارة ولا أى حاجة .. هو كان ماشى فى الليل تايه .. حتى ميعرفش دخل هنا ازاى .. ده صاحبى وأنا عارفه كويس قوى .. شخص شريف وصافى » ..

وأوشك الدكتور على أن يبكى من فرط التأثر ، أقصد من فرط مهارته فى تمثيل التأثر . وصار الضابط الكبير يركز بصره فى مأمون ويهم بانهاء الموقف ، لكن عبد الجبار قال له متأثرا :

ـ « لحظة من فضلك .. الجثة دى .. اعتبروها قطعة منى أنا .. أرجوكم .. عاملوها كانكم بتعاملونى أنا شخصيا .. المرحومة دى ست طيبة من دون شك .. تعرفوا ليـه مع انى لسـه ما أعرفش هى مين ولا اسمها أيه ؟ .. لأن ربنا أراد يسترها فى مرواحها .. ألهم الشاب اللطيف ده انه يمشى عشان يقابلنى .. أنا يا مأمون يا ابنى .. تقديرا لظروفك .. حاعفيك من أى متاعب » ..

وهنا نظر الضابط الكبير الى ضابط صغير فامتطى سيارة نصف نقل وانطلق يجرى بها نحو البلدة . ثم ان عبد الجبار نظر فى شخص خلفه ، فتراجع ثم انفصل وامتطى سيارة انطلق بها خلف السيارة النصف نقل . ثم نظر عبد الجبار فى مأمون :

ـ « كن مطمئنا غاية الاطمئنان .. من هذه اللحظة سوف يبدأ رجال فى بناء مقبرة فخيمة تليق بالمرحومة خالتك .. يشيع جثمانها من مسجدى فى البلدة ، ويقـام عليهـا العزاء فى أفخم سرادق بجوار

المسجد ، حيث يقرأ القرآن مشاهير القراء ٠٠ أليس هذا ما يرضيك يا مأمون ؟ ٠٠ اذهب انت الآن وشاركهم فى أى شىء تراه أو فاجلس فى السرادق لاستقبال المعزين ٠٠ لعلك فى الجامعة سمعت عنى أقوالا ما انزل الله بها من سلطان ، وربما كنت فى احدى الجماعات أو الجمعيات أو المنظمات وحينئذ يكون تراثك حافلا بالأكاذيب عنى ٠٠ أعرف هذا ٠٠ لكننى يا ولدى لست سفاحا ولست لصا ولا تاجرا ٠٠ أنا رجل يعمل ليستفيد الآخرون ويفيدون ٠٠ لست أعبد المال ٠٠ انما أعبد بلادى ، وأتمنى لها الازدهار والنماء ٠٠ ولم أرد أحدا طرق بابى ٠٠ لسوف اعتبر ان هذه الكلمة وهذا اللقاء القدرى غير المقصود بيننا جزءا من خطبتى فى هذه المناسبة ٠٠ نعم ليكن ما حدث الآن جزءا من زيارتى لا نفرط فيه ٠٠ هكذا أراد الله وأنا لم أسع الى المنظرة أو الدعاية انما أنا وضعت فجأة أمام محك يفضح حقيقة شخصيتى ٠٠ وأنا أنتهز هذه الفرصة وأقول لكل من يهاجمنى بدوافع سياسية أو بأحقاد طبقية : أنا مستعد لانفاق كل أموالى فى وجوه الخير ٠٠ ان أعمالى كلهـــا تتسم بالقومية والوطنية الخالصة ٠٠ و ٠٠ خالتك هذه الغريبة العائدة يا مأمون ليست تدفن معززة مكرمة فحسب بل انها ستكون سببا فى انشاء مسجد جديد أقيمه فى البلدة على نفقتى بجوار البقعة التى يدفن فيها جثمان خالتك ٠٠ ولنسمه جامع العائدة ، لنكون بذلك قد حققنا مصلحة قومية جماعية ، وفى نفس الوقت يظل المسجد قائما لأجيال طويلة يذكرها بأن كل عائدة الى وطنها شريفة طيبة سوف تجد نفسها مثل هذا التكريم » ٠

ووجد « مأمون » نفسه فى دوامة : آلات تصـــوير تحاصره بين الجميع ، أضواء متوهجة ، قفزات وحركات بهلوانية وناس تكتب وآخرون يحملون الميكرفونات ٠ حاول هو أن يعترض ، فلم يجد للاعتراض سبيلا ٠ حاول أن يشكر سيادته على فعله ويتحفظ على مسألة دفنها هذه ، فمسألة أن يقام حولها مسجد ومقبرة فاخرة وما الى ذلك هذه مسألة غير مقبولة من أساسها اذ أن خالته تكون بذلك تكون قد دفنت فى مدافن الصدقة ، أى تكون قد تحققت المأساة بالفعل فما الذى سعى اليه اذن ؟ أكان يسعى

لدفنها في مقابر الصدقة محاطة بكل هذه الفضيحة العالمية ؟ ليته اذن تركها تدفن في السر .. كان يريد أن يقول ان دفنها في غير مدفن أسرتها لن يشفي غليله مدى الحياة ، وأي تفخيم لدفنها ان هو الا مساومة رخيصة أو مزايدة على جسد ، فكيف وهو الذى لم يقبل دفنها فى مقابر الصدقة يقبل ان تقام على جسدها المزايدات ؟

. . . . . .

لكنه لم يجد نفسه في الدوامة الجارفة . سرعان ما حملته الدوامة الى عربة فاخرة واختفى الموكب خلف ظهره وهو بين مجموعة من الرجال العتاة كالمقبوض عليه معززا مكرما ، حتى أنا سمحوا لى بالركوب معه لكى يوافق ويكون مبسوطا . وفى الطريق هم بالصياح عدة مرات قائلا فى تذمر : « أرجوكم .. أنا مش عايز الجمايل دى .. أنا حاتصرف أنا .. معايه فلوس .. معايا على الأقل دفنها وخرجتها وقرآنها .. فأرجوكم ساعدونى بس على استلام الجثة والتصريح بالدفن ومالكوش دعوة » . ولكن أحدا لم يعطه الفرصة فى الكلام أبدا ، وبشكل فكاهى غريب ، فمن قائل بعشم كبير : « يا أخى ما تسكت » ، ومن قائل فى عتاب : « يا أخى خلاص الراجل سجل على نفسه » ، ومن قائل : « مفيهاش حاجة ياخونا » . ومأمون يتابع كل ذلك ويكاد يبتسم من فرط الشعور بالغيظ الدفين . أخيرا استسلم مأمون للقوى الضاغطة واسترخى فى مقعده كأنما ليفكر فى حل للخلاص . وزحفت أنا فوق صدره وتسلقت كتفيه كأننى أواسيه . فأحسست انه يستريح قليلا ويضع يده على ظهرى .. فسمعت صوته فى أعماقه يسرى وكان كأنه موجه الى : ..

قال مأمون :

« الجميع .. بلا استثناء .. طول عمرى أحتقرهم .. لم اكن أحب أن يروننى أبدا فى هذا الموقف .. هم يركبون معى الآن باعتبارهم من أهلى متكلفين بى وببعض أحزانى .. هم الذين سيتولون الانفاق على الجنازة من جنيه لألف . هم الذين سيشرعون من غد فى حفر أساس المسجد

بجوار المقبرة التى سيقيمونها اليوم على عجل ٠٠ وهم الذين سيستفيدون من المقاومة كلهـا ٠٠ انهم أولئك الذين أصبحوا فجأة من رجال عبد الجبار ٠٠ لعله وجد فيهم والدانا تحب المكسب ولغير المكسب لا ينحنون ٠٠ لعله وجد فيهم أعوانا خلصاء له فأغدق عليهم وأتاح لهم فرص المكسب واسعة ٠٠ أما الدكتور على فحدث عنه ولا حرج ٠٠ هو الآن من جملة الوفد الطليعى الذى يتقدم الموكب لتذليل ما يعترضه من مفآجات مثلى ٠٠ لقد أصبح دكتورا وذا عدة مناصب ومهام فى البلدة ويريد امتطاء العمل السياسى لتحقيق طموحات شاهقة ٠٠ أنه شخص نافع ومفيد جدا لكل من يريد استخدامه ٠٠ انه مرشح لأن يكون موضوعا لواحدة من أجمل الروايات التى سأكتبها يوما ٠٠ يكفى انه حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة السلحفاة أكبر جامعات بنى الأزرق طرأ فى موضوعين عميقين جدا ٠٠ فباعتباره طالبا فى قسم اللغة الأزرقية فانه تقدم لنيل درجة الماجستير ببحث فى الغاء كلمة « ليه » ٠ أو لماذا باللغة العربية الفصحى ٠٠ وموجز بحثه ان اللغة كائن حى كالجسد يستغنى عن كثير من الحروف والألفاظ والتعابير التى لم يعد لها وجودا فى الحياة المعاصرة وأصبح تقريبا لا محل لها من الأعراب ٠٠ اذ ما معنى كلمة ليه ؟ أو لماذا ؟ ٠٠ نعم ما معنى ان تقول لماذا ؟ انك حتى لم تعد تقولها لأنك لم تعد محتاجا لقولها أصلا ، ليس لأنك لن تجد لها جوابا بل لأنها لم تعد متداولة فى القاموس اليومى أصـلا ٠٠ وقد نوقشت الرسالة فى احتفال ٠٠ وحصل بموجبها على درجة جيد جدا ٠٠ فما كان منه الا أن سجل « الدكتوراه » فى موضـــوع أغرب يعتبر فى نظره ــ أكاديميا ــ استكمالا للبحث السابق ٠٠ وكان البحث فى الغاء الجملة الاعتراضية من الأساليب الكتابية المعاصرة ، اذ انها هى الأخرى دخيلة على الأساليب ، أليس اسمها اعتراضية ؟ نعم انها كاللقمة فى الزور تقطع استرسال الجملة بشرطة قليلة الذوق مغيظة ، لتقول كلمة أو جملة لا طلعت ولا نزلت ، ثم تعود فتبسك بنفس الشرطة ٠٠ ان سماحة اللغة الأزرقية لا تقبل هذا النوع من الدخولات تحت أى سبب ، فهى لغة تنبو

بنفسها دائما عن الهوى ، كما وأن الأسلوب الأزرقى بطبيعة تكوينه ضد أى اعتراض بجملة صغرت أو كبرت .. ونوقشت الرسالة أيضا وتحصل بموجبها على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى .. فبالله وسط نماذج كهذه كيف يمكن لمثلى ان يوجد ؟ » ..

توقفت السيارة عند مبنى المشرحة . ونزلوا . وكانت الأوراق قد سبقتهم الى التجهيز . وتقدم جماعة وطلبوا أن يذهب مأمون معهم للاطمئنان على المقبرة . فقال مأمون : لا .. سأبقى هنا لحين خروجها من هذا المكان . ثم ظل يروح ويجىء فى توتر ، ويختفى خلسة فى الشوارع الجانبية ليميل على عربة أجرة ، ويعود خائبا . لحق بهم وهم يخرجون بالجثمان الى السيارة . فاندفع نحوهم بكل قوة وتصدى لحاملى الجثمان قائلا وقد انتصب فى جسده مارد قوى :

ــ « خلاص .. لحد هنا انتهت مهمتكم .. متشكر جدا .. أنا صاحب اللحم وأنا اللى حالله واستره .. كتر خيركم » ..

فاستاءوا جميعا . وربت عليه بعضهم ، ودفعه آخرون ، وصاح أحدهم فى استنكار : « شيلوه من هنا .. دا حرام .. ما تقفش فى طريق ميت » . وأخذ بعضهم يدفعه بشدة . فانتفض كالأسد الذبيح ولطش فى الجميع بيديه صائحا من أعماقه :

ــ « مالكوش دعوه .. ادونى جثتى .. هو بالعافية .. أما برود .. محدش يعترض طريقى باقول لكم .. يا بوليس .. يا مخابرات .. يا عالم .. أنا مش عايز حد غيرى يدفن لحمى فى مدافن الصدقة .. أنا عايش على وش الدنيا ، ولحمى لازم أدفنه فى مدفن أهلى » ..

فوجدوا أنه قد أساء التصرف ، فاندفع بعضهم وحمله عنوة وهو يفلفص ويضربهم برجليه وذراعيه وأنا أنبح من أعماقى وأهبش وأخربش . تقدم أقواهم ولوى ذراعه فاستدار اليه مأمون وضربه بالبونية فى وجهه ، فطوقه الولد الأقوى وظل يضربه بالدماغ فى أرسه وأنفه وبالركبة فى أماكن حساسة حتى فقد مأمون الوعى وتجندل على الأرض . فاندفع نحوه

من حمله بسرعة الى سيارة جرت به الى المستشفى الأميرى وأنا فى أثرها ٠ وهناك سمعت من الأطباء أنه مصاب بحالة هيـاج عصبى خطير وأنهم سيحقنونه بمخدر ثم ان حالة قلبه غير مطمئنة ٠٠

ولما توصـلت الى سريره فى المستشفى رأيته مريضـا بالفعل ٠ ولا ادرى كم يوما مر على بقاء مأمون فى المستشفى ٠٠ ولكننى بعد وقت طويل فوجئت به ينظر الى فى بشاشة كأنه يرانى لأول مرة ٠ بعد قليل غادرنا المستشفى الى البلدة ولكننا فوجئنا بأن مأمون يجب أن يمر على مركز الشرطة ليدلى بأقوال ، فمكثنا ساعات هناك ٠ ثم انطلق مأمون يجرى الى حيث دفنت جثة خالته ، فوجد مكانا فى مدخل البلدة فيما بين المقابر والبلدة ، وكان فى هذه البقعة بقايا بناء كنيسة متهدمة ، كان ثمة من يعمل فى ترميمها ، وعلى مبعدة نحو المقابر ، كانت ثمة مقبرة صغيرة قد أقيمت وامتد حولها سور كبير ، وثمة من يقوم بالبناء فى المسجد المقترح ٠ توقف مأمون عند المقبرة وقرأ الفاتحة فى خشـوع وصفاء مشوب بالدموع ، ثم عاد فقرأ بعض آيات كريمات ٠ ثم مشينا ، وعدنا الى مركز الشرطة من جديد حيث جلس مأمون مع محقق مدنى لفترة طويلة سرعان ما انضـم اليه محققون آخرون انهـالوا على مأمون بالأسئلة واقتراح الأجوبة كأنه المتهم ٠ وقال المحقق : « سوف نصل الى الفاعل الحقيقى بأسرع مما تتصور » ٠ فنظر مأمون فى عينيه فرأى ثقة كبيرة فيما يقول ٠

باب القرافة

★ مأمون ينقذ القضية من مدافن الصدقة

ـ ١ ـ

أمضى مأمون فى القرية عدة أيام أخرى مهزولا منبوذا مرذولا ، ولم يجىء ليعزيه أحد ، بل ان جميع أقاربه وأصدقائهم كانوا اذا رأوه حولوا وجوههم الى الأرض تعففا من وجهه أن تقع عليه نظراتهم . حتى جدته معزوزة الطيبة معه دخل عليها الدكان صدفة ليشترى سجائر فصاحت فيه بكل غلظة كأنها لبؤة شرسة « مفيش ٠٠ معندناش » ، وحتى جده خليل ، كان مقبلا عليه فى الليل وهو جالس وحده فوق المصطبة يجفف دمعه فلم يلق عليه السلام ، فدخل وراءه الى القاعة . فلم يعبأ به أبدا ولم يعرض عينيه لعينيه أبدا ، وكان محمر الوجه فى غضب مكبوت أسيف لا ينطق ٠ فتركه « مأمون » ودخل الى جدته ، فرآها مندمجة فى صلاتها فى تمتمة حماسية غير واضحة ، وكانت تنظر اليه ولكن كأنها لا تراه مطلقا ٠ فتركها ومضى نحو جده مرة أخرى يريد أن يحدثه ، فاذا بجده قد استغرق فى النوم مغطيا وجهه باللحاف ٠ فرجع مأمون الى المصطبة ساهرا طوال الليل ٠٠

وكنت أريد أن أنبهه الى أن الرحيل أمر واجب وضرورة ، وعلاج فورى ، لكننى كنت أراه مشغولا بمسألة مسيطرة عليه تماما ٠ كان صوتا فى أعماقه يهدر وأسمعه ٠٠ يقول :

ـ « لسوف أنبذكم أنا الآخر .. ولكن لن أنصرف من هذا البلدة قبل أن أنقل خالتى الى مدافن أهلها .. مزيدا من الاهانة لكم أيها القوم الغامضون القساة .. تنبذوننى ، تعتبروننى مرذولا .. الا اننى رضيت بدفن لحمي فى مقابر الصدقة وعلى نفقة رجل غريب ؟ ولكى يتخذ من جثمانها مناسبة دعائية ؟ أم لأننى تسببت فى ايقاظ جراحكم القديمة ؟ المرجع عندى أيها القوم القساة أنكم تنقمون على فضحكم .. وهذه نذالة .. حسن .. فاليكم المزيد من الفضائح ان كنتم لا تحبون .. ان ما هو فضائح فى نظركم هو قمة الشرف والرجولة فى نظرى .. سوى أنقل جثمان خالتى الى مقابر أهلها فى مهرجان أقيمه وحدى ، وأقدم فيه العزاء لنفسى بنفسى ، لسوف أكسر القاعدة التى سارت على نهجها دماؤكم منذ أجيال طويلة .. لسوف أثبت ولو لمرة واحدة انها دماء متآلفة ، وأنها يمكن أن تنادى بعضها فتجيب .. ان الدماء الذكية لا ترتبط بأصل الانسان أو طبقته انما يتمثل ذكاؤها فى نبل نفوسها حتى ولو كانت لشخصيات فقيرة عادية .. ان كان نقل جثمانها الى مقبرة أهلها فيه فضيحة ثانية لكم فاعذرونى .. فلست مغرما بتعذيبكم ولست ساديا أغرم بتعذيب نفسى .. انما أنا مضطر .. فلو تركتها مدفونة فى مقابر الصدقة فسوف أجدنى مساقا الى دفن قضيتها برمتها وراء حاجز العار وستار النسيان .. وهذا ما لن يكون » ..

بعدها انغلق الصوت فى صدره تماما وآب الى شخير وشحير ، فأمنت عليه وجلست متيقظا فوق المصطبة اقتصد فى النباح قدر الامكان ، وأكثر من الحركة والوثب ومعالجة الطوارىء بانقضاض مفاجىء صامت وحمحمة . الى أن أصبح الصباح وفتح مأمون عينيه ثم تمطع ودخل فغسل وجهه وغير ثيابه وبدأ رغم هزاله فى منتهى النضارة والحيوية والشباب . ثم أخذ من الصندوق الكبير قرقوشة مضغها ، ثم أخذ واحدة أخرى وأخرى يقضم . ثم تذكر فعاد وأخذ ثلاث أخرى ورمى بواحدة تجاهى فنزلت بين فكى . ومضيت أقرقشها وهو يرسل الى بالثانية ثم الثالثة وكانت طرية لدنة لذيذة ، أليست من قمح بنى الأزرق الجميل ؟ . ثم مضينا

فاخترقنا القرية القديمة الى القرية الأسمنتية الجديدة ثم وقفنا بين جمع تحت ظل جدار عرفت أنه مبني المدرسة الجديدة • وجاءت عربة الأتوبيس التي ركبناها جميعا الى البندر ••

★★★

تقع مدينة البندر على ضفاف فرع كبير من النهر الأزرقي العظيم • جميلة محندقة • يسكنها قطب كبير من أقطاب الصوفية • هي على التحديد المدينة التي ضاعت فيها خالته بسيمة في المولد • وأشار لي مأمون الى ميدان الجامع الذي يقام فيه المولد ، والمكان الذي لا تزال تقام فيه السرادقات والسيركات • ثم توجه مأمون الى مبنى كلاسيكي جميل عرفت لأول وهلة انه المكتبة التي يعمل بها ••

دخل من فوره على رجل في مكتبه منفرد ، فغاب عنده قليلا ثم خرج باسما ، والتقى ببعض الزملاء وانتحى بهم جانبا • وكتب وريقات ودار بها في عدة حجرات بين عديد من الموظفين يؤشرون عليها ثم اتجه بها الى الصراف فقبض ما أظن انه سلفة شهرين أو أكثر ••

ثم اننا عدنا الى نفس القرية ثانية في نفس اليوم ، حيث قصد « مأمون » الى دار يعرفها ثم اتفق مع رجل يسكنها ودفع له مبلغا معينا ، وقصد الى دار أخرى واتفق مع رجل فيها ودفع له مبلغا • ثم انه اندفع بعد ذلك الى موقف السيارات فاستقل منها واحدة الى البند من جديد حيث ذهب الى مركز الشرطة ، وقدم عريضة للنيابة يستصدرها تصريحا له بنقل جثمان خالته الى مقابر أهلها ارضاء لمشاعرهم التي هاجت وهددت بتفاقم الأمر وما الى ذلك وأن هذا الأمل يظل عارا وسبة في أنظار الأسر من القرويين • قرأها المأمور ونصحه بعدم قلقلة الموتى ، وبعدم فتح المقابر عليهم مرة أخرى ، وان الأمر لن يتم بسهولة • فأصر مأمون وهدد بفضيحة وبنقل الجثمان عنوة • فتركه المأمور وشأنه : فلما قرأها رجل النيابة وافق على الطلب منعا للمشاكل وفضا للمنازعات • ووعده « مأمون » أن يتم ذلك في هدوء ••

ثم عدنا الى القرية فى صبيحة اليوم التالى حيث اتجه « مأمون » مباشرة إلى مقابر القرية - خرمنا فيها طويلا حتى وصلنا الى مقبرة عائلتهم فوجدنا الرجل الذى قابلناه من قبل يعمل فى ترميمها بالأسمنت والجير والطوب ، ويستعد عماله للحفر ، فطمأنه مأمون بأن كل شيء على ما يرام . ثم اندفع خارج المقابر حيث توجه الى مسكن الرجل الثانى وأبلغه ان يأخذ عماله ويذهب لاستخراج الجثمان من المقبرة وحمله الى مقبرة العائلة ، ثم انطلق مأمون جريا الى مبنى نقطة الشرطة الخاصة بالقرية حيث قابل المعاون وعرض عليه موافقة النيابة واستصدر منه اذنا بفتح المقبرة تحت اشراف الشرطة . وخرجنا بصحبة شاويش طويل الشاربين ..

استسمحه « مأمون » فى الطريق عدة مرات حود خلالها على ناس وسلم عليهم وتكلم بدون مناسبة لمجرد اعلامهم بما يحدث . وكانوا جميعا يعجبون كيف تمكن هذا الولد الجرىء من فعل هذا الشيء الجنونى وكيف سمحوا له بذلك وهكذا . ولهذا فقد كان مأمون يمشى فى زهو كبير كأنه يريد أن يتحدى كل أجهزة التصوير التى سبق أن صورت الحديث . وكان على الشرطى أن يواصل معه السير الى المقبرة ارضاء للضمير على الأقل ، وهو فى الواقع سينصرف اذا ما قبضت يده على الورقة المالية أم ربع جنيه ، التى أمسك مأمون عن دفعها له حتى يصل الى هناك ويراه الناس ويعرفوا ان الأمر رسمى . مع أول ضربة فأس هرش الشرطى يده وتثاءب وطلب الاتكال على الله ، فعلى مغض أعطاه مأمون الورقة الماليه مطبقة فى هيئة سلام . ومضى العمال يفتحون .

ظهر باب الفسقية . فتقدم الحانوتى وانحنى داخلا يتحسس مكانه ، ثم إذا به يرتد صائحا فى ذعر : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسم الله الرحمن الرحيم .. لا اله الا الله » ثم وقف بالباب يرتعش من رعدة قوية ، حتى تسمر الجميع حوله ، وتصلب مأمون فى قرفصته وداخ وكاد يقع فى الحفرة ، وقالوا جميعا بعد برهة طويلة جدا : « ايه .. فيه ايه؟ » . فقال الحانوتى وهو لا يزال يرتجف : « مفيش جثة هنا .. الطربة فاضية خالص » . قالوا جميعا : « ازاى ؟ » .. قال الحانوتى :

« تعالوا شوفوا » . وانتقلت الرجفة الى مأمون وصار ينتفض باكيا حتى وقع بالفعل فى الحفرة . لكنهم سناندوه فتماسك واقفا غارقا فى التراب الناعم ، وقد أحس بخنجر ينفذ فى قلبه ، لقد وقع فى خديعة اذن . انه لم ير لحظة الدفن ، فهل يكون قد عاش فى وهم ؟ . غير انه كان لا يزال يتشبث بتشككه فى الحانوتى ، فوقف بباب الفسقية يرتجف بل ينتفض ، ويقول : « بتكلم جد ؟ » قال الحانوتى ببساطة : « ادخل شوف .. ادخل متخافش » . أهى مؤامرة عليه ليدخل المقبرة فيهيلون عليه التراب ؟ . أهو قدر أن يدفن حيا بجوار جثمان خالته التى تلبسته كأنها لعنة أصابته ؟ .

وقال الحانوتى : « أرجوك تدخل .. ادخل شـــوف » . يدخل ؟ كيف ؟ .. ثم انه مال ونظر فى داخـــل الفسقية . فشجعه الحانوتى بأن يدخل أمامه وغاب فى الفسقية وناداه من الداخـــل صائحـــا : « تعال .. تعالوا انتوا يا اخوانا شوفوا » . ورقبـة مأمون تميل شـيئا فشيئا وتندفن داخل الفسقية شيئا فشيئا . ورغم أن عينيه ألمتا بكل الفراغ الذى فيها الا أنه تشجع دفعة واحدة ودخل محنى القامة يبحث فى الأرض بيديه فلا يجد أثرا لأى شىء فيها على الاطلاق . فانفجر يبكى بصوت عالى ملىء بالنواح والعجز والضغط على الأنياب ..

وقال الحانوتى وهو يدفعه : « لا .. مش هنا .. تعال بس » . وأخرجه . ثم وقفوا جميعا يتباحثون فى هدوء ويطلبون من مأمون أن يكف عن اثارة فضيحة حتى يتمكنوا من معرفة السر . وضاقت به دائرتهم ثم تركوا التراب كما هو تمهيدا لابلاغ الشرطة والمعاينـــة . وبقى العمال جالسين حـــائرين فى انتظـــار أن تجىء الشرطة وتأخذ أقوالهم ، ومأمون منهار فوق كومة التراب يبكى وينتفض فى صمت ..

واذا به بعد برهة طويلة وفى قمـــة حـــيرته وانعـــدام قدرته على التحرك ، يرى رجلا مقبلا نحوه تبين فيه الرجل المكلف ببناء المقبرة ، وكان شاحب الوجه يجمع فى عينيه شىء يشبه الذهول أو الجنون .

ثم ألقى على الجميع نظرة كأنه يخرجهم بها من حيرتهم ولكنها مع ذلك غامضة . وتقدم من مأمون وجلس بجـواره ، ثم مال على أذنه وهمس فيها . وظل يهمس لوقت طويل ، ووجه مأمون يهدأ شيئا فشيئا وأعصابه تنشد ، حتى استطاع أن يقف ويمشي خطوتين ملتقطا أنفاسه . واذا به يشير الى العمال الواقفين قائلا : « خلاص ياجماعة » وراح يدفع بقدمه التراب : « رجعوا كل حاجة زى ماكانت اللى عمله ربنا هو اللى كان .. دى حكمه .. الله أعلم بالغيب » . ثم مضى . وراح العمـال يهيلون التراب من جديد كما كان . وعلى مبعدة منهم كان ثمة عمال آخرين يواصلون البناء فى المسجد لا علاقة لهم بأى شيء آخـر حولهم ، كأن كلا منهم قائما بذاته لم يكتشف الآخر بعد ..

ثم ان مأمون مضى مع الرجل البناء حتى وصلنـا الى المقابر وهو صامت لا يقوى على الكلام . حتى اذا وصلا سحبه البناء من ذراعه برفق وميل كتفه ومال معه ونظرا معا على ضوء ولاعة البناء ، فرأينا صندوقا خشبيا مزركشا ملفوفا بالملاءة الخضراء ينام مستريحا فى الفسقية ، مع أن مقبرتهم لم تكن قد استقبلت أحدا قبل سنوات بعيدة ، وكان مكتوبا على الصندوق بالبوية الملونة : « الله أكبر .. هذه جثة بسيمة أحمد ربيع زوجة هريدى خليل هريدى » . فأمر « مأمون » باغلاق الفسقية والانتهاء من كل شيء على ما يرام .. ودفع كافة النفقات عن طيب خاطر ومضى معتمدا على الله . وكان من فرط الدهشـة والانبهار بما يمشي دون أن يرى أحدا . ولو أنه تلفت حواليه قليلا لرأى جـده « خليل » يختبيء فى منحدر الحلفاء حتى لا يراه أحد . فلما وقعت عينى فى عينى الجد خليل صدفة استرحمنى بنظرة ضارعة ألا أنبح ، فاستجبت لضراعته ومضيت أنا الآخر لا ألوى على شيء ..

★★★

وكنت أظن أن « مأمون » سيتخذ طريقه الى المدينـة مباشرة بعد انتهائه من هذه المهمة . لكننى فوجئت به يتجه الى بعض البيوت ويتفق

مع بعض الناس • وكان المساء قد أقبل حين استأنف « مأمون » جلسته على مصطبة الدار الخارجية ، وبجواره جلس الشيخ ابراهيم الكردى والشيخ مصطفى غلوش يتناوبان قراءة القرآن • فجاء على صوتهما بعض الجيران وجلسوا مع مأمون قليلا لكن أحــــدا لم يقل له : « البقيــة فى حياتك • وكانت جدته تدخل وتخرج بالشاى والماء دون أن تعرف لماذا يقيم مأمون هذا الحفل القرآنى الصغير • وهكذا ظل مأمون ساهرا حتى الفجر فذهب وصلى فى المسجد جماعة ، وعاد الى الدار فأيقظ جدته من غفوة صباحية قصيرة • ودخل فأحضر سبتا صغيرا وضــع فيه بعض الأرغفة وبعض القراقيش • وظنت جدته ــ كما قد بدا لى ــ أنه يأخذ بعض الزوادة ليسافر بها ، فقالت باســمة انها قد اشتاقت لتوصــيله بالزوادة مثل زمان ، فقال انها ســـتقوم بتوصيله أى نعــم ولكن الى مكان قريب ••

ظلت جــــدته العجوز تمشى بجواره حاملة « السبت » والشمس الحمراء تتكسر أشعتها على الأرض والأعشاب • فلما رأت مأمون يحود الى المقابر توقفت مندهشة وقالت : « ايه يا مأمون ؟ » • فمال على أذنها وصاح مبلغا اياها انه رأى أمه فى المنام زعلانه ، وأنها طلبت أن يزورها هو وجدته بالرحمة • فأقبلت العجوز نحو المقــابر فى ابتســـامة بلهاء وصارت تقرأ وتتمتم • ولما توقفت عند مقبرتهم راحت تتفرس فيهـــا بتشكك ، فطمأنها مأمون انه اكراما لأمه قام بترميم المقبرة • فصارت جدته تملس على المقبرة بيدين حنونتين وهى تبسمل وتحوقل بلا توقف • أما هو فقد انتهى من قراءة بعض الآيات وجلس ينــــادى كل من مر من أمامه ليعطيه رغيفا وبعض قراقيش ••

مكثنا فى المقابل حتى الضحى • ثم عادت الجدة وحدها وســـافر مأمون الى البندر حيث مكثنا هناك بضعة أيام حصل مأمون خلالهـــا على أجازته السنوية ، حيث أمضاها كلها فى البندر متنقلا بين مكاتب المحامين المشهورين والمغمورين ، يطرح عليهـــم قضية شبيهة بقضية

خالته بسيمة ويأخذ مشورتهم فيها ، ويشترى كتبا فى القانون يقرأ بعض صفحات منها ويرميها ، ثم يسافر الى عاصمة المحافظة ويحاول أن يخلق لنفسه عملا آخر بين الناس حتى ولو كان جرسونا فى مقهى لبضع أسابيع . وقد جرب بالفعل ولكنه سئم ، فعاد الى قريته من جديد بعد رحلة مضنية عجفاء ليحتفل بذكرى الأربعين لخالته بسيمة ٠٠ وفى الصباح جمع ثيابه وخرج ٠ وكان لابد أن يمر على مشروع المسجد الجديد الذى يقوم العمل فيه ٠ ولقد دهشنا غاية الدهشة ، اذ رأينا أن بعضهم قد استولى على المقبرة اياها وصنع فيها كشكا يبيع بعض البضائع الجاهزة المهربة من بورسعيد ، وشرائط الكاسيت ، وجهاز لتجريب الشرائط عليه لا يكف عن الصياح ٠ توقف مأمون أمام المقبرة البوتيك نصبة الشاى لا يدرى أيبتسم مشجعا أم يبصق متألما ٠ لكنه تقدم ونظر فى مجموعة الشرائط المعروضة للبيع فوجد من بينها شرائط لرشدى الحضرى وسيف الماوردى ٠

– ٢ –

دخلنا العاصمة الأزرقية قبل مدخل المساء ببضع ساعات ٠ كنت من الابتهاج بالعودة الى العاصمة أتراقص وأتباعد عن مأمون لمسافات طويلة ثم أرتد اليه ٠٠ فنحن معشر الكلاب من بنى الأزرق تضربنا المدينة قدر ما تضربنا ومع ذلك نبتهج للوهلة الأولى حين نراها بعد غيبة ٠٠

لاحظت أن مأمون يتابع خطواتى بكل دقة وحساسية ، فاطمأن بالى ٠ واذ دخلنا الشارع العمومى المزدحم توقف مأمون ليمارس لعبة المهانة باستيقاف عربة أجرة ٠ لكننى صرت أجرى الى بعيد وأتوقف نابحا فى اتجاهه وحده ٠ وكان يظن اننى أوبخ الجميع بنباحى على هذه الفوضى الهائلة حتى ليباح لكل نذل رخيص ابن ٠٠٠ أن يمارس تعذيبه للناس واراقة ماء وجوههم وتهديم كراماتهم ٠ فلما رآنى ممركزا النباح تجاهه

بصوت أعلى تصور أننى أدعوه لمقاطعة أسباب المواصلات اذا كانت على عرجهـــا تكلفه كرامتـــه وتهـــدد انسانيته · وكان ينادينى قائلا : « طب بس ماتزعلش دلوقت ربنا يحلها ونلاقى مواصلة بأى شكل ·· ولا عايز تغدر بى وترجع لوحدك ؟ ·· خلاص بطل ازعاج » · وأنا لا أكف عن النباح تجاهه فى هوهوة بلهاء مبهمة ترتفع ثم تنخفض ثم ترتفع · فتركنى وشأنى فى استسلام حذر ، وانصرف لشأنه ويالها من شئون فى شئون من داخل شئون ·· كان الله فى عونك يا مأمون ، انك داخل شرنقة من الهموم تتوقف فيها على محطـــات لم تكن تريدها وتركب مواصلات لم تكن تحبها ، ويرمى بك فى بؤرة فتجاهد للخلاص منهـــا حتى تصل الى المستنقع الذى يلبها ·· مأساتك هذه يا مأمون أمامك فانظر اليها بدلا من الاستغراق فيها ، نعم فها أنت ذا قد صرت فى بؤرة مأساتك على وجه الحقيقة ، مأساتك انك ممزق المواصلات : ان رق بك الاحساس أو حدى بك الهوى أو كابدك الشوق الى الوصال فان ذلك مستحيل وأى مستحيل ·· ان بينك وبين نفسك فواصل لا حصر لها ، ابتداء من محو فترات كاملة من تاريخ أهلك وماضيك ، وانتهاء بشوارع صاخبة الضجيج والعنف والاستهتار واللامبالاة ·· فكيف بك يا مامون تريد أن تصل الى لب الحقيقة فى قضية ليس فى حوزتك من أوراقهـــا قصاصة واحدة أو معلومة حقيقية واحدة ·· كيف تحلم بالوصول الى هذا وأنت عاجز عن الوصول الى مكان ثمة يأويك ؟ ·· هذا قد أصبح أمرا محققا ·· فان تلتقى حتى بنفسك مع نفسك هذا محال ، انك بالكاد تصير على الدوام مجندا للدفاع عن حياتك ضد مختلف الأخطار الداهمة بلا وعى أو تفاهم أو رحمة ·· أتريد بعد ذلك يامأمون أن توصـــل بين أشلاء لحم قضيتك لتعيد ضمه حتى تدب فيه الحياة من جديد ؟ · انك تحلم بالمستحيل ·· ان أشلاء لحـــم قضيتك موزعة بين مجموعة عصور وأزمنة مختلفة وأمكنة بعينها وناس بعينها ، بدول قامت ثم دالت وأخرى وثبت ثم ضعفت وغيرها اعتلت ثم ضلت ، فكيف تتعرف على ابرتك وسط كل هذا الركام المترب ؟ ·· العجيب العجيب انك غارق

فى لحم قضيتك تماما ، بين وثائقه ، لكنك لا تعرف ، لأنك مثل دودة صغيرة نشأت من هذا الركام وظلت تسعى بينه عمياء لا تدرى ..

كل هذا كان يتضمنه نباحى أى نعم ، ولكننى كنت أقصـــد به أن ينزل مأمون عن فكرة سيارة الأجرة بل أن يعدل عن كل مشوار فى دماغه ويأتى معى ، يمضى خلفى أنا حيث أقوده الى ما أشاء أن يعزف عنه شيئا . لكن .. هب .. تحققت المعجزة وتوقفت سيارة فركبناها .

اذا بمأمون يقتادنى الى المكان الذى أريد أن أقتاده اليه . فى الواقع لم أكن أتوقع منه هذا . كنت أتوقع أن يبحث عن مكان يأويه ليبدأ فى تدبير أموره ، أما أن يتجه من باب الحديد مباشرة الى الحى الذى تسكن فيه الست بتعة فهذا مالم يخطر لى على بال .. كأنما هو حيه الذى فيه بيته وأهله .

صرت أجرى أمامه بتؤدة وأنظر خلفى لأتابعه فأجده يتابع السير خلفى . ثم اننى حودت فى حارة فحود ورائى وكان قد شرع يحود فى غيرها تمويها على . فما أن صرت فى مدخل الحارة حتى اندفعت أجرى لاهثا من الفرح منجذبا الى رائحة البيت القديم الذى شهدت بنفسى أيام عزه ، بيت الست بتعة . ثم اننى وقفت على عتبة البيت وصرت أنبح ، ثم استدرت فوجدت مأمون يقف ناظرا الى فاغر الفـــم من الدهشـــه والذهول . ثم اذا به يقترب منى وعلى وجهه تعبير منبهر مستضاء بأشياء ومعان لا حصر لها . وبدأ على ملامحه أنه يقول : « حلو الكلام ده .. شىء مذهل صـــحيح لكن دى حـــلاوته .. بقى انت تعرف البيت ده بالتحديد ؟ .. هيـــه .. يارب .. مش معقول .. ده يبقى لغز .. لو اللمحة اللى طرأت على مخى دلوقت تطلع صحيحة أبقى وقعت فى أكبر لغز فى حياتى .. أبقى وقعت فى أسطورة الكنز .. أبقى فى منطق السينما الأزرقية وتمثيليات التليفزيون » ..

ثم بقى مسمرا فى مكانه كالمصلوب ، نبحث فيه كأننى أقول : « مالك » · فنظر فى قائلا : « مائة عام من السينما على هذا النحــو المعروف وما تقدمه من محتويات مشابهة ، يليها ثلاثون عاما من التليفزيون يقوم بانضاجها ونشرها فى كافة البيوت الأزرقية حتى كفورها وعزبها ، كل هذا لابد أن يقيم واقعا على هذا النحو نفسه فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين الميلادى وأوائل الخامس عشر الهجرى ·· لن أستغرب شيئا فى هذا ·· سأصدق أى بادرة وأى لمحة يشى بهـــا الواقع حتى ينتقضها واقع جديد ولا أقول يحتويها ·· ان ما أراه على شاشة السينما عبر شاشة التليفزيون فى أى مكان وأرفضه بشدة وأسـخر منه مرير السخرية ·· أفاجأ بأنه ليس فقط واقعا فى الشارع الأزرقى والحياة الأزرقية بل هو واقعى أنا شخصيا ؟ ·· انه لشىء عجيب حقا ·· أواقع تنقله تمثيليات وأفلام ميلودرامية ســـمجة ؟ أم تمثيليـــات وأفلام ميلودرامية سمجة قد أنشأت ورسخت واقعـــا ميلودراميا ســـخيفا سمجا ؟ ·· ليكن ·· لابد أن يكون عقلى مرنا كالواقع ، ميلودراميـــا كالواقع ، وربما سمجا وسخيفا أيضا كالواقع » ··

ولما رأيت « مأمون يهم بالمضى سبقته جريا على الســـلم الذى طالما قفزت عليه ونمت فوق بلاطه وشمشمت فى صفائح زبالته · السلم هو نفسه والرائحة هى نفسها وكل شىء هاهنا لا يزال هو نفسه ، الا رائحة الست بتعة ، ولهذا فعند باب شقتها وقفت أخمش بابه بأظافرى وأعوى ، ويعلو صوت بكائى ونواحى على نباحى · ثم ان الذكرى كانت تتسرب الى خياشيمى شيئا فشيئا فيصيبنى الهياج شوقا الى الماضى الجميل ، وأحاول تذكير الذكريات بنفسى ، وبما كنا نفعله من حركات فرحة مرحة على هذه الدرجات فى سنى الازدهار حيث كل يوم فراخ ورومى وبط وماعز فى شقة سيدتى بتعة وزوجها كحكوح ·· لم يكونوا يستخدمون الثلاجة فى مسألة اللحوم هذه ، كله صابح بصابح وطازة ، ما كان أحـــلاها مــن أيام ، انها الفترة الوحيدة التى عرفت فيها فى حيـــاتى معنى التعفف لكثرة الفيض ، الآن لا أحد يريد أن يفتح لى ، بل ان كلابا من أجيال

جديدة كادت تستغربنى فى الطريق على السلم ، لكننى أخذنهم فى عشرة أونطه واحتويتهم بحركاتى العجوزة وأفهمتهم أن الضيف هم لا أنـــا ، ما أذكاهم وأشقاهم ، ذكاء دود الأزقة ، يسألوننى مظهريا لا يهامى بأن الدار لم يعد فيها خير يستاهل القتال وخسران الود ، صحيح أن جو البيت كله قد أصبح يخلو تماما من رائحة اللحوم والمقليات والمشويات ، وصفائح الزبالة قد تغير محتواها وصار أوراقا نظيفة مكورة وعلبا فارغة بدون نكهة ، لكنه لايزال فى نظرى عامرا بالذكريات الحلوة ، انهم أغبياء سذج ، فما أبحث عنه هو زادى الحقيقى ، هو ذكرياتى هاهنا ، ولحظات الكوم التى عشتها ، حتى ان لم أجدها فان كرمها الباقى بداخلى سوف يقوم بالواجب ..

نسيت « **مأمون** » طوال هذه البرهة .. طالما تذكرته بحثت عن رائحته التى تاهت بين روائح حشد من الذكريات .. فوجدته قد واصل صعود السلم نحو شقة صديقه « طارق » وقد وقف فى منتصف الدرج يتابعنى فى تأمل ذاهل وقد غاب من ذهوله عن كل وعى . نبحث فى تنبيهه . فنظر الى ، ثم نادانى باشارة فقفزت نحوه وواصل صعوده حتى شقة صديقه طارق . طرق بابها فى رقة مرتين ، ثم هبط ثانيـــة عدة درجات ، وانتظر . انفتح الباب وأطلت منه الأم قائلة : « أهلا يا ابنى فينك من زمان » ، فقال مأمون : « طارق موجود ؟ » . قالت : « حظك حلو كان بيلبس ونازل .. كلم ياطارق صاحبك الأســـتاذ مأمون » . فأخذت أصيح بقوة ابتهاجى كأننى أصيح به قائلا : «ها ـ طارق ياويكا ».
وجاء صوت طارق الذى أعرفه جيدا : « مأمون ؟ مش معقول » . فصرت أهو هو . فقالت الأم وطارق معا فى نفس واحـــد : » غريبـــة .. الكلب أهه » . وأضافت الأم : « كلبها القـديم .. ياحـرام .. ايه اللى رجعك الساعة دي .. حكمتك يارب » . وكان طارق يكمل ارتداء القميص حين خطا متحرجا خارج الباب مصفقا بالسلام على مأمون فى نصف ترحيب لكنه عالى النبرة : « ده كلام ؟ .. نسيتنا خالص ؟ » .

وجذب مأمون فدخل معه فقفزت خلفه تلقائيا ودخلت . نفس الشـقة المطابقة لشقة سيدتي ، ونفس الجو ونفس الناس ..

وقفوا ثلاثتهم ذاهلين حولي : الأم وابنها ومأمون ، وعلى وجوههم نفس التعبير ، نفس الشعور بشيء خارج شارخ قد حدث . قالت الأم مصفقة بكفيها في عجب : « هو كلبهـا .. حاتوه عنه ؟ .. ياترى كنت فين وهي غايبه ؟ » . وقال طـارق وهو يفكر في عمق شرير : « الكلب ده بقى له حوالى شهر غايب .. اشمعنى ميجيش الا النهاردة ؟ .. ويبقى أكيد كان معاها يوم بيوم « . ونظر الى مأمون : « أنت قابلت الكلب ده فين ؟ » . أحس مأمون أنه وقع في ورطة ، قال بكل اهتمام وبراءة : « انتوا تعرفوا الكلب ده قبل كده ؟ » . قالت الأم في استنكار متراجعة بذقنهـا : « ايـه .. كله الا ده .. دا الكلب ده بالذات عشرة عمر » . وقال طارق في شقاوة خطيرة : « تعـرفه انت كمـان يا مأمون ؟ » . قال مأمون : « هو كلب مين بالضبط ؟ » . صاح طارق بشيء من الخشونة : « تعرفه قبل كده ؟ » قال مأمون في لجاجة أحزنتني: « الحقيقة هو كلب لطيف قوى .. بصيت في يوم لقيتـه جنبي في البلد » . صاحت الأم وابنها في اهتمام شـديد : « بلدكم ؟ » . قال مأمون : « ايوه » . غابت الأم في شرود طيب ، وشوح طارق بيده حول فمه مرددا : « الله ؟ » ، ثم لمعت في عينيه شقاوة ذكية ، قال : « بس .. بس .. بس .. يبقى هو ولف عليك يوم ماكنت بتيجى عندنا .. حاكم الكلاب دى عشرية قوى .. ومش أى واحد تحبه أو ترمى نفسها عليه .. لا .. اللى تستطيبه بس .. اللى تحب ريحته .. شوف انت بقى اللى راح وراك البلد من غير ما تشعر .. كلب أصيل والله .. شوفى له حاجه يأكلها يا امه » . وسحب مأمون الى غرفته قائلا : « دا ياسيدى كلب المرحومة » ..

قال « **فأمون مصعوقا** » مرحومة مين ؟ » ..

قال طارق في تأثر شديد جدا : « ست بتعة » ..

صاح **مأمون** : « ماتت ؟ » ..

ثم كاد يبكى ، فبكى طارق بدلا منه وقال : « نعم .. ماتت فى المعتقل .. ماتت المسكينة بالسكتة القلبية » ..

وشهق **مأمون** قائلا : « لا حول ولا قوة الا بالله .. الله الله يرحمها » ..

فقال طارق وهو يعدل ثيابه : « تصور .. اتضح انها كانت مسكينة .. معندهاش أى حاجة .. كل حاجة كانت متباعة لشركات استثمارية أجنبية .. رصيدها فى البنك لقوه صفر .. النهاردة الخبر وصل مع ان جثتها لسه ما اندفنتش .. راح فين ماتعرفش .. الله أعلم .. بيقولوا كان عليها حجوزات قديمة .. وديون قديمة .. والحكومة صادرت اللى صادرته .. وهى كمان الله يرحمها كانت ايدها فرطه ، كانت بتصرف من غير حساب .. كل اللى سابته حاجات بسيطة ما تذكرش بالنسبة لثروتها .. آنت للمخفى كحكوح .. بما فيها العربيه المرسيدس والشقة ومحل آثار صغير وشقة تانية صغيرة .. كل ده ورثه كحكوح خلاص » ..

غرق « **مأمون** » فى ذهول . ثم صاح فجأة : « الكلب ده .. كلب الست بتعة ؟ » . قال طارق مؤكدا : « أى نعم .. داحنا متربيين سوا هنا » . وراح مأمون ينظر فى ملامحى مدققا لعلنى أكون قد تغيرت فى الطريق بكلب آخر . وكانت الدنيا تدور فى عينيه ، وصوت فى صدره يهدر : « مش ممكن .. دى معقولة .. ودى معقولة .. يكون كلب خالتى بسيمة .. وكلب الست بتعة .. دى جايزه ودى جايزه .. لو كلب الست بتعة يبقى صحيح ولف على وسافر ورايا البلد مرة من غير ما أشعر .. مع ان ده صعب .. لكن الأصعب منه أن يكون كلب خالتى بسيمة » ..

ورفع مأمون صوته يسأل : « وأين ستدفن جثة الست بتعة ؟ » . قال طارق : « فى مقبرتها ها هنا .. لقد كانت المرحومة تقيم المقابر

للناس على نفقتها وكان حريا بهـــا أن تبنى لنفسها واحدة ٠٠ كانت المرحومة مشغولة البال دائما بمسألة دفنها وخرجتها ٠٠ وتتحدث عنها كثيرا » ٠٠

وصاح مأمون : « متى سنشيع جنازتها ؟ » ٠٠

صاح طارق بنفس الحماس : « ولكن كيف جاء الكلب هذه اللحظة بالذات ؟ ألم يكن معك فى البلد ؟ يعنى جاء معك ٠٠ فهل تكون الأقدار قد دفعته الى المجيء ليودع صاحبته الوداع الأخير ؟ ٠٠ أم أن صلة خفيه بين الأرواح وبعضها سيان فى الكلاب أو فى البشر وأنها لا تنقطع حتى على البعد ؟ ٠٠ هذا جائز وهذا جائز ٠٠ لكنه لشيء جميل بالفعـــل أن يتواجد ذكر الست بتعة وتعم الحى رائحتها وسيرتها فيكتمل كل شيء حتى بكلبها الغائب عنها ٠٠ انها لسيدة طيبة بكل تأكيـد » ٠ ثم هز كتفيه كأنه ليس مقتنعا تماما بما قال ٠٠

ثم ان طارق لبس السترة فصار أفنديا مسمسما محبوك المظهر يدعو للاحترام وقال لمأمون : « تحب أن تحضر الجنازة بالطبع » ٠ قال مأمون : « بكل تأكيد » ٠ ونهض متقدما وراء طارق ٠٠

نزلت أجرى فى المقدمة حتى عتبة البـــاب ، حيث تركت القيادة لطارق الذى حود بنا فى الحارة الجانبية الخلفية فاذا هى على اتساعه قد سدت من آخرها وتحولت الى سرادق ممتلىء بالكراسى فى صفوف متراصة ، وثمة فراشين يدورون بالقهوة المرفوضة مقدما ، ورجال فى زى محترم يقفون فى المدخل لتلقى العزاء كلما أقبل أحد ، وفقيه يقرأ ٠ تقدم « طارق » ودخل فسلم على الجميع وفعل مأمون مثله ثم جلسا معا فى عمق السرادق صامتين واجمين ٠ فلما اطمأننت ارتددت عائدا الى البيت من جديد أتقافز فى ضيق مزاج ، اذ بدأت رائحة كحكوح تنفذ الى خياشيمى برخمها المقزز المريب ٠ مع ذلك ما أن لمحته يدخل الشقة حتى قفزت نحوه وداعبته فلم يعبـــأ بى ، وكان باب الشـــقة قد انفتح

واندفعت منه تلال من الســـواد الرادح بالصـــوت الحيانى متفجعا :
« يا دهوتى ·· ى ·· ماكانش يومك يا اختى ·· ياحبة عينى ·· ى ··
يامؤمنة ومصلية ·· يافاتحة بيوت يتامى ياست بتعة ·· يا أميرة » ·
ثمـــة صبيات وولدان يتباكون ويمسكون المناديل ويرددون عبارات
الترحم على الست بتعة · ثم اذا بالضـــجة ترتفع فجأة الى أعلى درجة ،
يعقبها خروج أربع رجال يحملون جسدا متخشبا ملفوفا بكوفرته خضراء
ويمشون به على حذر ، وفى جلال مهيب نزلوا به الدرجات ثم تقدموا الى
خشبة النعش فوضعوه فيهـــا وطرحوا على النعش ملاءة كبيرة طوقتـــه
وربطوها من جميع الجهات · ثم تقدم الرجال فحملوا النعش ومضوا به ،
ثم توقفوا عند السرادق برهة حيث تجمع الرجال وأدوا الصـــلاة على
النعش · ثم استأنفوا حمله من جديد ومضوا ، فمضينا خلفهم جميعا فى
صفوف متحاذية متخاشعة متزاحمة ··

سرنا على هذا النحو حتى وصلنـــا الشـــارع العومى فاخترقناه
وبعد مسيرة طويلة بين مرتفعات جبليـــة مخيفة أشرفنا على القرافة التى
تحفل ببيوت ومدائن وقباب ثمينة · اخترق موكب الجناز هذه المقـابر
فوصل الى مقبرة أنيقة جـدا عبـــارة عن بيت مدهون بالزيت بألوان
اردوازية كابية ، مكون من غـــرفتين يفصـــل بينهما حوش كبير ملىء
بالأشجار العتيقة · حجرة فيها الأرائك والكراسى وحجرة فيها الدفن ·
تراجع الجميع كثيرا · وجلسوا متناثرين هنا وهنـــاك · أما كحكوح
وصحابه وبعض النساء فقد جلسوا فى الحجرة · وكنت واقفا فى الحوش
أرقبهم · وكانت حجرة الدفن قد تجهزت وتم فحت الأرض · كذلك جاء
الطربى وأخذ تصريح الدفن · ثم ان الجثة دخلت أمام الجميع الى مثواها
الأخير وتم الردم عليها ثم خرج كحكوح وسلم على البعض ، وبدأ الجميع
فى الانصراف ، وسمعت طارق يقول لمأمـــون : « متخافش على ركس
حيرجع لوحده » ·

لم يبق من الجميع ســـوى كحكوح وسيدتين وبعض الشبان من
حاملى المطاوى والناضورجية الذين أعرف شخصياتهم · ودخل كحكوح

الى الحوش واقترب منى وأعاد النظر فى ذاهلا ، ثم هم يرفـع رجـله ليضربنى بها فى مؤخرتى ، لكنه تراجع وتركنى فى حالى ثم دخـل الى حجرة الدفن فتسربلت وراءه ، فرأيته يلف حول المقبرة ويتوقف خلفها فى شيء كالتلصص ، ثم يتقرفص ويرفع عن الأرض بلاطتين متجاورتين ، فاذا تحتها فجوة عميقة مظلمة . نظر خلالها مشعلا ولاعتـه ، ثم زام ، ودمدم بصوت خفيض مسلوخ يائس : « برضه معنديش ثقة فيكم ياولاد .... لازم أشوف وأتأكد بنفسى » . ثم رفع أربع بلاطات أخرى فاذا تحتها أرض ، فمد أصبعه ونزع بظفره طرف هذه الأرض فاذا هى مربع من الحديد الصلب أخذ شكل الأرض ، ما أن ارتفع حتى ظهر تحته فجوة كمحطات التقوية الكهربائية فى شوارع العاصمة ، ثم اذا بكحكوح يهبط فيها نازل بل ويمشى فى الغبب داخلهـا . فجئت أنا أتلصص ومددت بوزى برقبتى كلها فى الفجوة الكبيرة فرأيتها سردابا ينتهى بعد أمتار طويلة بشكل فسقية دفن . ورأيت كحنوح يفك عن الجثمان الملاءة الخضراء فاذا هى ليست تضم جثمانا ، بل تضم تابوتا على شكل قامه الجسم البشرى ، رفع غطاءه المستطيل فاذا بطرب الحشيش هرتصـة بجوار بعضها فى ترتيب دقيق . صار يعدها فوق السطح طولا وعرضا ثم بالعمق ثم يجمع ويضرب ويطرح ويشرد مفكرا . فيفاجأ برأس مدلاة من الفجوة فينفزع صائحا فى حقد : « امشى داهيه تخرب بيتك .. انت ايه اللى جابك دلوقت .. ماتروح فى داهية بعيد عننا . احنـا ناقصينك ؟ » فرفعت بوزى عن الفجوة ، واستدرت أهو هو فى فروغ بال خوفا من انفجار شرايين مخى .

باب السلطنة

★ من دخل غرزة كحكوح فهو آمن !

في اليوم التالى مباشرة لم يطق مأمون صبرا • كان قد أمضى الليل كله في صحبة صديقه « طارق » • وكنت قد لحقت بهما آخـــر الليل حينما عاد كحكوح الى السرادق لينهى سردقته بربع أخير من القرآن ، بينما يتحاسب مع بعض القائمين بالأمر ، وسلم على الجميع وطيب خاطر الجميع . وسلم على « طارق » • وأراد أن يحتويه كما كانت المرحومة تحتويه ، فقال له : « رايـــح فين ؟ » • فنظـــر طارق الى مأمون قائلا : « معايا واحـــد صاحبى ضيف عنـــدى » • فزام كحكوح بصوت كظيم هفتان : « هـ •• م •• طب اسبقونى على القهوة •• خلى دى معـــاك » وغمز طارق بقطعة حشيش صغيرة كبيرة ، طواها طارق فى كفه وجذب مأمون فى فيء من الابتهاج قائلا : « شوف بقى •• انت لازم تخرج من الحالة دى •• تعـــالى نفرفش بقى بقيـــة الليـــــل •• انت معزوم على حسابى » ••

لم يعتذر مأمون ، فأسلس قياده لطارق ، الذى مضى به فى نفس الطريق الذى أعرفه ، حيث لا تزال غرزة صاحبى كحكوح قائمة فى مكانها نفسه • سمعت طارق يقول لمأمون إن هذه الغرزة هى الشيء الوحيد الباقى من ممتلكات كحكوح • وكان قد باعه عدة مرات فلا يستطيع المشترى وضع يده أبدا فيلجأ الى عشرات المحاولات الودية والقضائية فلا يفلح

لأنه يتوه في مغارة من الأوراق وتعدد المسئوليات عدم وضوح الملكية الحقيقية وما الى ذلك من مشاكل يعرفهــا كحكوح ويسلطها عليهم حتى يفقدوا الآمل فيطلبون التنازل عن الشراء ولو نقصت نقودهم النصف ، والواقع ان نقودهم تنقص كلها اذ تضيع عليهم ولا يعرفون كيفية التصرف معه ·· لكنها الآن ـ الغرزة ـ قد استقرت بين يديه وقام بكل جــرأة فأنفق عليها حوالى ثلاثين أو أربعين ألف باكو ··

فانطلقت أجرى تجاهها · فاذا بى اكتشف اننى لم آكن قد جئت الى هذا المكان منذ نقمت على صاحبى الأصلى كحكوح وانتميت الى سيدتى وسيلة ثم الى سيدتى بتعة · فهل حدث كل هذا التغيير فى هذه الفترة البسيطة ؟ · أهى شرعة الشركات الاستثمارية ؟ أم هى قدرة رأس المال الأجنبى ؟ ·· ·

وقال طارق :

ـ « لقد بيعت المنطقة كلها لشركة استثمارية قررت أن تبنيهــا ناطحات سحاب ·· وتم تسريح أهلها جميعا بالقوة الى أماكن فى منشآت جديدة من تلك التى يسمونها الايواء ·· الا كحكوح ·· لا تدرى هل صدفة أم بتــدبير ، حسن حظ أم قوة نفوذ ·· ولكن الجميع سرحوا الا كحكوح ظل محتفظــا بغرزته ·· وهى بالطبع ليست مدونة فى أى أوراق رسمية كغرزة ·· انما هى مجرد ربوة عالية تأخذ الطابع الاثرى العتيق ·· يقول كحكوح متفاخــرا انه أقنع الشركة أن تبقى على هذه الربوة كمظهر سياحى ، فالكلورى ، أمال يا سيد ·· وهكذا ساق الهبل على الشيطنة ، فكان يقيم شعارا من المشمع والكتان حول كراســيه وترابيزاته ليحجب العملية كلها عن الأنظار بعد أن هدمت المبانى القديمة كلها من حولها ، وبقيت هى فى الهواء الطلق مكشوفة لكل العابرين ·· ما رأيك يا مأمون فى أنها تحولت الى شىء ساحر ·· حتى الذين يثورون على وجودها ، حتى المنوطين بمهـة ازالتها رسميا بالقوة حين يجســون فيها يرون ان التفريط فيها خطل كبير ، وانهــا قعدة تمنح الهــدوء

والسكينة بهواء خرافي رطب ·· كحكوح يا مأمون يا أخي ليس وحده النصاب المحتال ·· بل ان الشركة الكبرى نفسها نصابة مثله وأكثر احتيالا ·· ولكن على من ؟ على كحكوح ؟ ياخي دهده ·· لقد نصبت الشركة على الدولة واتضح ان المدينة السكينة المزعومة ـ والتى أخليت من أجلها المنطقة ـ لم تكن سوى مشروع فندق كبير جدا فى قلب العاصمة يتمتع بمزايا عديدة تتيح زوارا بسيارات لا حصر لها · ومجموعة المبانى التى أقيمت حول الفندق السياحى الكبير ان هى الا محلات على طراز معين تخدم الفندق وزواره ، وتؤجرها الشركة للمواطنين الذين يفرض عليهم نوع المحل وبضائعه ونظام البيع فيه ، أى أن الشركة تستأجر لمحلاتها عمالا من الأزارقة الغلابة يدفعون ثمن بنائها وهم فى الحق لا يملكون ·· كحكوح سيدهم فى هذا المضمار ·· كان الفندق يبنى أمام غرزته مباشرة ، فشرع هو الآخر يبنى ·· كان مشهدا طريفا جدا يا مأمون ·· الفندق بكل هاله وهيلمانه فى جانب ·· وكحكوح بربوته العالية فى جانب آخر ·· طريقة المبانى سابقة التجهيز سرعان ما رفعت القوام وركبت الجدران ·· كحكوح هو الآخر ما أسرع ما أقام مبنى صغير من دور واحد ، وأحاطه بحديقة غناء فعلا ·· وضع للربوة مطالع مسفلته فى عدة اتجاهات ·· وأنت تجىء من أى ناحية فتصعد على راحتك هكذ وتدخل فاذا بك فى كازينو غارق فى غابة ناشئة من الأشجار والأزاهر والورود ·· يقوم على تشغيله بضعة ولدان فى غير صخب ولا ضجيج ، اذ هم يقدمون لك البيرة المثلجة والجيلاتى والشاى والقهوة ، وأطباق الاسكالوب والبوفتيك والدجاج المشوى والكباب ·· المكان ذو وضع خاص لا يؤمه العائلات الازرقية ، لكن لا بأس من خواجاية سائحة ولا بأس من شبان أزارقة يصطحبون بعض الفتيات ·· ولذا فلا زحام ، اذ أن الأسعار هنا سياحية فوق السياحية بأضعاف مضاعفة ·· انك تحتجز نفسك ـ وأنت فى قلب العاصمة ـ فى غابة حقيقية تفصلك عن الوجود كله وتوهمك بالتوحد فى الحياة ·· وان دخلت وجلست فانك تجد أعدادا كبيرة من الشبان ذوى المزاج الخاص يتخذون طريقهم عبر

سرداب ضيق يقف عليه فتوة حيث ينفذون من باب سحرى الى حيث يختفون تماما ·· من هذا السرداب سندخل يا مأمون ·· لا شـــبأن لنا بالكازينو طبعا ·· أم انك تحب الجلوس فيه قليلا ؟ ·· رأيى أن ندخل على الشرب فورا ، الى الغرزة ، فقد خرب دماغى من كثرة البكاء » ·

وهكذا فان طارق ـ اقتادنا الى البناية من الخلف · فتجاوزنا مدخل الكازينو ودخلنا من باب العمـــال ، الذين تعرفوا على طارق فتركوه · وبينما نحن نسير عبر السرداب الضيق الذى بنى بالقيشانى قال طارق :

ــ « كل من يدخلون هاهنا معروفون لهم بحكم التقادم والخبرة ·· هكذا يسمحون لهم » ·

هذه اذن هى القعدة الداخليـــة السرية ؟ · وجدت كأننى دخلت دائرة أنيقة مبنية من الرخام · تتوسطها دائرة رخامية مزروعة بالزهور والورود وبها نافورة ثمة كراسى خيزران وترابيزات رخاميـــة بحوامل حديدية ، ومنصة فى ركن بعيد عليها أكوام وأكوام من حجارة الجوزة والقطع الخشبية ذات المســـامير · خلفهـــا أولاد يقومون بتحصيتها وتغسيلها · ولأننا أصـحاب مطرح فقد أهملونا قليلا · أما الذين كانوا يدخلون من الزبائن فكان الولد يلحق بهم فيطلب الزبون منـــه قائلا : « نص قرش » ، أو : « قرش » ، أو « ربع أوقية » · ويجاب طلبه فى الحال · أما ان طلب أقة فما أكثر يأكل من ورائها عيشا فعليه بانتظار المعلم كحكوح فى لحظة مناسبة ··

وجاء الولد بالمعسل وشرع « طارق » يوقع بامضاء الحشيش على الحجارة وبدأنا نشرب ، أقصد أنهما يشربان وأنا أشم الدخان فأبتهج مثلهما · ثم أن القعدة كلها سرعان ما امتلأت عن آخرها بمجموعة من شلل صار من الواضح انهم جميعا يعرفون بعضهم ، وانهم زبائن دائمون يجتمعون هاهنا كثيرا فى الهزيع الأخير من الليل · وأربع ولدان بالجوزة يسهرون على السقيا والمجاميع تتبادل التعليقات الساخرة اللاســـعة ،

والضحكات العالية ترتفع الى عنان جدران الفندق السياحي الكبير الذى يطل مباشرة على قعدتهم الصيفية الشتوية الساحرة ذات الأضواء الخافتة والتليفزيون الملون يعرض شرائط الفيديو المتنوعة ··

لم تمض أكثر من ســــاعة حتى كان مأمون قد عرفهم جميعا عبر التماسى المتبادلة والتعارف السريع ، وعبر طارق والولد الذى يسقى هو نجوم القعدة اللامعين الذين من الواضح أنهم مصدر الانفاق على المجاميع بسخاء ، كانوا هكذا على الترتيب ابتداء من الترابيزة المجاورة لترابيزة طارق ومأمون : ولد أزرقى ابن حرام يعمل مرشدا سياحيا بدون مؤهلات وقد تصيد جماعة من السياح اليهود وجاء يحشش على حسابهم ويأخذ تموينه ·· نجم الترابيزة الثانية رجل شكله شكل بواب وطبعه وحواره ولهجته فى الحديث لا تدل اطلاقا عن هذا النمط ، لكنك تشعر بأهميته حين تعلم انه تاجر عملة ولديه كشك صغير ولديه حظيرة مواشى حلابة وهو الى ذلك بواب بالفعل فى احدى العمارات الكبيرة التى يضع كشكه على بابها ·· نجم الترابيزة الثالثة الولد « توتو » ، يعمل مع أحد أمراء الجزيرة العربية ، اما ما نوع العمــــل وتفاصيله فليس من حقك أن تعرفه ، انما لأنك مش غريب فانه شبه وكيل للأمير فى البلاد الأزرقيه يقوم بتخليص خدمات له ومصالح ومهام ، وهو يصرف عن سعة باذخة جدا جدا ·· نجم الترابيزة الرابعــة رجل تاجــــر خردة لديه عمارات سكنية · ·الخ ··

فى طلعة الصبح سأل مأمون : لماذا لم يأت كحكوح كما وعد ؟ · فأخبره طارق بأنه ليس من المهم أن يعود وانه حسنا ما فعل ، أحيــــانا يحلو له أن ينكد على الســــاهرين بدون أى سبب الا ارضــــاء لمزاجه الشيطانى · ثم أشار طارق الى لافتة مكتوبة على رأس السرداب بالبلاط القيشانى الملون ، قرأها مأمون فاذا هى : (من دخـــــل غرزة كحكوح فهو آمن) · فضحك مأمون حتى دمعت عيناه · وقال طارق :

ــ « مع هذه اللافتة الواثقة من نفسها ·· فانه كثيرا ما يصيح : يلا يا أفندى انت وهو أحسن الجو مش كويس ·· الحكومة بتمر ··

فيقول له أحدهم : وهذه اللافتة أين سرها ؟ فيشوح قائلا : واحنا برضه يكون عندنا نظر ·· العجيب انه لا أحد يجـــرؤ على دخول هذا المكان الا برغبة كحكوح ورضائه » ··

وقال مأمون :

ـ « شيء فى منتهى الجنون ·· مجتمع كحكوح » ··

وكان الأسى قد عاد يغلف وجهــه حين شرع ينزل عن الربوة مع صديقه طارق ··

وقال مأمون :

ـ « عايزين نشترى الجرايد » ·

فقال طارق :

ـ « ونفطر فول وطعمية » ··

فقال مأمون :

ـ « وآخد بعضى وأسافر » ··

ومضيا معا فى اتجاه المشهد الأزرقى ·

مأمون لا يطيق الصفحات الأولى فى جرائد بنى الأزرق القومية ·· لكن طارق يقرأها · واذا به يطبق على الجرنال فى دهشة كبيرة ويصيح جاحظ العينين :

ـ « ايه ·· معقولة ؟ ·· مش ممكن ·· يا نهار أسود ؟ » ·

قال مأمون فزعا :

ـ « الحرب قامت ؟ » ··

فعرض عليه الجرنان ذاهلا يشير الى خبر كبير فى الصفحة الأولى حول صورة لسيف الماوردى . انعقد جبين مأمون وتحول الى جمرة ملتهبة بمجرد وقوع بصره على المانشتات الكبيرة التى تقول :

(القبض على سيف الماوردى فى جريمة غامضة) .

(سيف الماوردى متهم بقتل زوجته الفلاحة بسيمة أحمد ربيع) .

(سيف الماوردى ليس اسمه سيف ولا مواردى .. بل اسمه هريدى خليل هريدى) .

(المتهم يدبر للجريمة تدبيرا محكما يكشف عن شخصية مجرم أصيل متأصل) .

ثم ان مأمون لم يشأ قراءة الموضوع . بل طوى الجرنان فى شعور شديد بالتقزز والقرف واليأس . ونهض متوترا يرتعش من الغضب المكتوم والقهر والذهول والمفاجأة . وودع طارق على عجل . ونظر خلفه فعرفت أنه يطلبنى فاندفعت وراءه أجرى ..

أتاح لنا الصباح المبكر سيارة أقلتنا الى شبقة سيف الماوردى . وانفتح بابها عن الست وسيلة بوجه ملفوف بالطرحة السوداء ولكنه بارز القوة والتصميم والشجاعة . قالت باسمه فى حزن : « اتفضل » . فدخلنا . وقال مأمون : « منذ متى قبض على خالى سيف ؟ ـ ثم استدرك فى فزع ـ الأستاذ سيف أقصد ؟ » . فثقبته بنظرة ذات معنى كأنها كشفت أحد أسراره الكامنة . ثم جلست قائلة : « منذ بضعة أيام .. ولم أتمكن من الاتصال به .. لكننى سوف أتصل به .. لن تستطيع جدران أو قوة أن تمنعنى عنه » . وقال مأمون فى حذر : « هل علمت شيئا عن زوجته هذه المزعومة ؟ » . قالت وسيلة : « لقد بلفقوها له .. نعم لفقوها له » . قال مأمون : « ألم يحك لك شيئا عن زوجة سابقة فى حياته ؟ » . قالت : « لا .. لم يحدثنى عن شىء . وهى قصة من اختراعهم » ..

.. ثم حط عليهما صمت عميق مؤسف مؤلم ، قطعه مأمون بنسيج حاد . ثم مضى وأبدى الرغبة فى الانصراف . لكنها احتوته فى حضنها وقبلت رأسه . فاستسلم لها . فقالت : « عايز تقول حاجة ؟ أنا حاسة انك عايز تتكلم » . قال مأمون فى ضعف حقيقى : « نعم .. عايز أتكلم .. عايز واحد صديق يحبنى واحبـــه عشان أفرغ اللى ف قلبى كله قدامه » . فربتت على ظهره قائلة : « أنا يا حبيبى .. أنا صـــديقك الوحيد .. خليك معايه .. أنا برضه عايز أتكلم معـــاك .. اعتبرنى والدتك .. اسمع .. تعالى ننزل سوا .. نتمشى .. نشم هوا .. نتفسح » . فمضى مأمون وراءها كطفلهـــا الصغير . وكان يحس كأنه يمشى بجوار فتاته التى داعبت أحلامه وخياله ، فكان ينتفض من الفرح . وكان السياح يملكون شوارع العاصمة ويحتلون كل أماكنها ومرافقها ، فاختارت وسيلة أن يكون مشيهم بين شعاب الجبل . وكان الجو جميلا حقا والهدوء سـائد . وكان مأمـون قد بدأ يحكى لها ـ وبكل صراحة وصفاء ـ عن خالته بسيمة وخاله هريدى .. وهى تستمع اليه بكل دقة ..

وكان من حقى عند هذه اللحظة أن أشعر بغاية الاطمئنان ، ولكننى كنت قد بدأت أشعر من جديد بالحنق والغضب . فمبدئيا ، أو من أن اجتماع مأمون بالست وسيلة هو البداية الصحيحة المبشرة بتجميع خيوط القضية كلها ، وعلى يديهما معا قد تتجمع أشلاء المأساة .. ولكن المؤكد أن ذلك سيستغرق وقتا ربما يطول ويطول . بل وربمـــا أدى تراكم الأسرار فى الصدور الى مزيد من الأسرار كما يحدث دائمـــا فى تاريخ بنى الأزرق بوجه عام ..

وكان بامكانى ـ لو لم أكن كلبا ـ أن أختصر عليهما كل الوقت والجهد وأحكى لهما التفاصيل التى تتجمع بنـــاء عليها خيوط القضية وأشلاء المأساة . لكننى مع الأسف كلب نشأت لا أملك القدرة على القول حتى وان تعلمتها ، ولا اجرؤ على التصريح بشىء حتى وان عرفت الكثير ،

ولا على البـــوح وان أمرت به ٠ فى اعتقادى ان الكثيرين غيرى قد رأوا هذه التفاصيل نفسها ألموا بها وبكل شيء ٠٠ فمن كان منكم يعرفهـــا ولا يكشف له عنها فانه يكون كلبـــا مثلى ٠٠ أما أنا فلم أعد قادرا على ممارسة هذه المشاعر الضاربة فى نخاعى ، لم أعد أطيق القـــدرة على الاختزان ٠ وهذا هو السر فى أن مأمون والست وسيلة أصبحا فى اليوم التالى فلم يجدانى ٠ أشعر انهما سيحسان بكثير من الأسف لفقدى ٠ ولكنى أشعر ان مأمون ســـيحدثها كثيرا عنى ، وستحدثه كثيرا عنى ، وستنصل الخواطر وتلمع الأفكار ٠٠ وستنفتح كل أبواب هذه التغريبة المدهشة على بعضها ، وتصبح مكشوفة لهما وللجميع ان عاجلا أو آجلا ٠ ولكننى من نفس هذه الأبواب قد ودعتهم فى الفجر وانطلقت الى حيث يشدنى شوق عارم لمكان ما ورائحة ما ٠ فما ان وصلته حتى تبينت انه تلك الربوة المرتفعة التى لازلت أذكرها فى طفولتى يوم انضربت فوقها أمى بالنبوت وهوت الى قاع المستنقع الملىء بالحلفاء ، ها أنذا أجرى وأجرى فوق القمة نفســـها ثم انداح فى المنحدر هاويا الى قاع المستنقع نفس المستنقع ٠ لست متحققا مما اذا كنت مندفعا باشعاع أمى حيث ذابت هنا ذات عام بعيد ، أم اننى وجدت رائحة المستنقع أقل كثافة من مستنقع الحياة بين بنى الأزرق الملاعيب ، ولدرجة الجذب ؟ ٠٠ أغلب الظن انه كذلك ٠



(المعادى ـ ١٩٨٠)

رحلات الطرشجى الحلوجى

(فانتازيا روائية فى الزمكان)

الفصـــل الأول

دعوة للافطار عـلى مائدة المعز لدين الله الفاطمى

تلقيت دعوة شخصية من المعز لدين الله الفاطمى لتناول طعـام الافطار على مائدته ، أو سماطه كما ورد فى الدعوة .. وذلك بمناسبة أول رمضان قاهرى خالص ، أو بمعنى أصح أول رمضان تشهده القاهرة . ذلك أن شيئا اسمه القاهرة لم يكن موجودا قبل المعز لدين الله الفاطمى . كانت هناك مصر وعاصمتها الفسطاط ، وكان للفسطاط ضواحى أقامها الحـكام الوافدون الفاتحون لسكناهم كى تكون بعيدة عن زحام الدهماء والحكومات المدحورة ، ما لبثت أن صارت مدنا مثل العسكر والقطائع ، ثم ما لبثت أن ذابت فى مدينة واحدة كبيرة اسمها القـاهرة . وحتى القاهرة نفسها كانت فى الأصل ضاحية هى الأخرى يسكنها البيت الفاطمى الحاكم ، قبل أن تتمدد وتصبح علما على مصر ..

لم تكن هذه أول مرة أرى فيها المعز ، فقد سبق أن ارتحلت الى المغرب بصحبة أستاذ لى يدعى « ابن خلكان » ، وزرنا مدينة القيروان وتعرفنا على الدولة الاسلامية التى كان المعز خليفة لها . والحقيقة لقد انبهرت بمظاهر البذخ غير المجوج ، وأعمدة المرمر فى المساجد وداخل الناس لا تخطىء العين لمسها . بعد ذلك ببضعة قرون حدث ان كنت أتجول فى القاهرة الحديثـة ــ قاهرة الفرنسيس والبريطان ــ فتعرفت على رجـــل يدعى « ستانلى ليبول » من عشاق القاهرة ومؤرخى سيرتها ، فتفرس فى وقال : أنا شفت البيه قبل كده . فحاولت تذكره ، فاذا به يهتف قائلا ولكن بالخواجاتى طبعا : بنس قابلتلك مرة فى المغرب فى مجلس الخليفة الفاطمى المعز لدين الله . قلت يا سلام ، ثم تعانقنا وسرنا معا فى شوارع القاهرة

وحواريها القديمة نشرب الشاى الأخضر والجنزبيل والشيشة على مقاهيها ولا حديث لنا ســوى المعز · خواجا أروب يعرف كل شيء ، صرح لى ــ والعهدة على الراوى ــ أن دعاة الشيعة أصــابوا ثلاث خطوات من النجاح : الأولى هى سيادة القرامطة على بلاد العرب والجزيرة وسورية فى القرنين التاسع والعاشر ، والثانية هى امتداد الخلافة الفاطمية الى شمال أفريقية ومصر ، والثالثة كانت انتشار مبادىء الاسماعيلية فى بلاد فارس ولبنان · وكانت الخلافة الفاطمية التى اشتقت اسمها من فاطمة زوج على بن أبى طالب وبنت النبى عليه الصلاة والسلام أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، التى وجدت فى بلاد البربر تربة خصبة ، ووجد دعاتها من يصلح خليفة لعلى بن أبى طالب وزوجه فاطمة فى شخص عبيد الله المهدى فى القيروان حاضرة البلاد التى تسمى تونس الآن وذلك فى سنة ٩١٠ م · ويضيف الخواجا الأروب قائلا أن بلاد المغرب من فاس فى مراكش الى الحدود المصرية خضعت لنفوذ المهدى بعد أن غزاها مرتين ·· وكان المعز رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدى وصاحب الفضل فى فتح مصر رجلا قديرا نزيها ذكيا وسياسيا بارعا خبيرا بشؤون السياسة ·

ثم أن الخواجا الأروب اختفى فجأة فيما كنا نجلس على مقهى فى ميدان المشهد الحسينى نأكل الفالوذج ــ أقصد المهلبية · وأغلب الظن أنه هرب من دفع الحساب ، فقررت ملاحقته وتهزيئه حتى النخاع ، ليس لأنه ورطنى فى الحســاب ولكن لأنه تركنى عند نقطة هامة لم يكملهــا هى : كيف تم بناء القاهرة · ساهيت الولد الجرسون وزغت فى الحارة الجانبية أحاول ايهام عيون خفية أننى لست هاربا من شيء بل سأشترى شيئا وأعود · واذا بى ــ وأنا لم أغادر مكانى الا قليلا ــ أجد نفسى محاطا برهط من الجنود المغاربة بزيهم الرسمى · قالوا لى : أين تذهب أيها المخلوق الغريب ؟ · قلت أما والله عجيبة وما لكم أنتم ··· ــ أننى أقول لهم ــ أمشى فى حارة متفرعة من ميدان المشهد الحسينى ، وسأشترى سجائر وأعود لأدفع حساب المقهى · قالوا أى مقهى وأى حساب يا عبيط

يا مخلول .. الحساب الحقيقى سوف تراه الآن جزاء اقتحامك منطقة البناء ! . نظرت أمامى فاذا بى ويا للعجب وسط أرض فضاء محاطة بسور ثابت وأسوار أخرى كثيرة تصنع مربعات ومستطيلات ومثلثات ودوائر من الحجر الصلد . أخذت أتلفت مندهشا . قلت بالله أين أنا يا خلق ! . تقدم منى مغربى عجوز تبينت فيه عرافا عاقلا ، قال أنت يا بنى لم تبرح مكانك . قلت من دهشتى فما هذا الجبل ؟ قال : المقطم . قلت وما هذه المدينة البعيدة قليلا ؟ . قال هى الفسطاط وضواحيها .. وأما هذه العشش الصغيرة البعيدة فهى قرية أم دنين . قلت اذا كان هذا هو المقطم فأين طريق صلاح سالم وأين طرب الامام وأين الدراسة بل وأين المشهد الحسينى بل أين أنا ؟ . ربت على كتفى برفق ثم تبسم قائلا : تفضل معى . مضيت خلفه . اجتزنا الحارة التى كان اطارهـا لا يزال قائما فى دماغى . تخطينا فضاء ضيقا فاذا بنا أمام أساس لمبنى . ثم مررنا بأساس آخر وثالث ورابع حتى وصلنا الى ما يشبه المعسكر ، يمتد منحدرا من جبل المقطم حتى المنطقة التى كانت منذ قليل يحتلها الجامع الأزهر ، غير أنها كانت مجرد أسـاس منحوت فى الأرض حول بستان مهول وثمة خيام أنيقة متناثرة يحوطها الجند والوجهاء من كل ناحية ، وبينما نسير مررنا برجل شيخ ممتد اللحية بيده قصبة وقلم ومحبرة ، وحزمة أوراق ، وجند آخرون ينازعونه وينازعهم بلطف وابتسام فيما يدون بين الحين والحين شيئا فى الورق ، عرفته ، أنه الشيخ تقى الدين المقريزى صاحب الخطط الشهيرة فى عصورنا ، أردت أن أبين لمن يصطحبنى أننى أعرف ناسا وصلوا الى مراتب رئاسة الوزراء ، هتفت فيما أسير : أزيك يا مقريزى فهز رأسه بلطف النجوم اللوامع ، قلت رغم محنتى بكل صفاقة : ميلزمش خدمة ؟؟ .. صاح بكل بساطة : يلزم . سابت مفاصلى ، خفت أن يطلب فلوسا أو مؤازرة ، لكنه صاح : ان كان لديك معلومات عن هذه البقعة من الأراضى فأملها على ، لقد سجلت كل قدم داستها منذ ما وعاه خيالى من السنين ومع ذلك لا بأس عندى من المراجعة . وجدتنى أبتسم فى بلاهة وأنصاع لجذبة العراف المغربى .

اجتزنا ممرا ترتص على جانبيه قصارى الزرع الأخضر ، وترتص ـ على جانبيه أيضا ـ الجند المتأهبة ، وكانوا يستقبلوننا بالتحية ، حتى صرنا فى باحة مستباحة لا يمكن التصديق بأنها من قماش الخيم بل هى من المرمر ، مفروشة أرضها بالسجاد ، ثم حود العراف المغربى فحودت وراءه وجلا فاذا بنا ـ وجها لوجه ـ أمام القائد الأعلى بذات نفسه ، لم يقل أحد أنه هو ، انما هو الذى قال دون أن يقول · انحنى العراف المغربى أمامه وأشار نحوى قائلا :

انه فى أول رمضان سنة ٣٥٨ هـ وجده الجند يتلصص فى أرض القصر صحت قائلا : قصر قصر ؟ والله والله لم يكن هناك قصر · ضحك القائد ونظر نحوى ثم تراجع فى كرسيه المذهب ووضع ساقا على ساق فكأن الدنيا تلعبكت فى عينى ، قال : لقد أصدرت العفو الشامل وأمرت جندى بالكف عن أى فعل عدوانى نزولا على رغبة نساء مصر اللاتى جئن يلتمسن منى الرحمة فما الذى أمرتك به نفسك الامارة بالسوء يا هذا ؟ ·· وتبسم ··

قلت فى نفسى : حلو ·· ثم قلت فى الهواء : يا سيدى القائد جوهر الصقلى كما ظننت ؟ ـ هكذا عقبت · فهز رأسه أن نعم · فركعت بين يديه وقلت بربك سامحنى ان كنت أخطأت فما أنا الا صعلوك يتجول فى الأزمنة بمطلق حريته · رفعنى باشارة من اصبعه وباشارة أخرى أجلسنى على كرسى بجواره ضعت فيه تماما ، وبنظرة صرف العراف المغربى · ثم مسح على ذقنه الصغيرة ومرر يده على وجهه الكبير الممتلىء دما وعزما وصلفا ، ثم بسمل وحوقل وداعب حبات المسبحة الذهبية ، ثم كأنه انتبه الى وجودى فنظر لى قائلا :

ـ صائم أنت ؟

هتفت :

ـ رمضان كريم ·

قال :

ـ اذا لم تكن من مسلمى مصر فلا تتحرج واطلب شرابا ومأكلا ٠

قلت رافعا نبرة الحرج الى أقصى درجة :

ـ مسلم وموحد الله يا سيدى القائد ٠

ـ الحمد لله

هكذا قال بلكنة غير فصيحة ، غير منسابة انسياب اللسان العربى .

ثم دخل حاجبه يجرر أذيال جبته الجوخ المعتبر ، يتأبط أفرخا من الورق المبروم ، تقدم من جوهر وفردها فاذا بها مجموعة خرائط عليها خطوط لقصور ومآذن وبوابات وايوانات وشرفات صار جوهر الصقلى ينقل البصر بينها فى نظرات مقارنة ، وكان من الواضح أنهما نسبيا وجودى تماما ، وعقد جوهر ما بين حاجبيه وقال :

ـ ثمة اختلاف بين خرائط مولاى المعز ، والخرائط التى وضعها هؤلاء البناؤون !

قال الحاجب :

ـ فروق طفيفة ٠٠ هى خرائط التنفيذ لابد أن تكون مجزأة ٠

قال جوهر فى رجاء رقيق ـ رجاء من يتدخل فى غير مهنته :

ـ أنا ملتزم بخرائط مولاى المعز ٠٠ لقد وضع عليها تصميما لكل نقطة وفاصلة ٠٠

قال الحاجب :

ـ ونحن أيضا ٠٠ كل ما هنالك انها فروق تفرضها طبيعة المكان ، وهى طفيفة ٠

قال جوهر وهو يتناول القلم من يد الحاجب :

ـ على بركة الله ٠

ثم وقع بامضائه على احدى الخرائط ثم فردها وشملها بنظرة واسعة سمحت لى أنا الآخر برؤية تفاصيل الخريطة ، صمت فى غبطـة : انه الجامع الأزهر ، نعم هذا رسمه ، فكأن جوهرا لم يسمعنى ، طوى الخريطة وفرد أخرى ثم وقع عليها بامضائه وشملها هى الأخرى بنفس النظرة . رأيت عليها قصرا غاية فى الفخامة والأبهة غاية فى التركيب والتعقيد . صحت فى غبطة أشد : لا بد أن هذا هو القصر الشرقى الكبير . وهنا طوى جوهر الخريطة ونظر للحاجب قائلا :

ـ سوف يصبح قصر الخلافة الفاطمية .. ثم أومأ شاكرا فانصرف الحاجب . ليدخل حاجب آخر أقل أبهة . تلقاه جوهر فى قلق :

هيه .. ماذا فعلتم ؟

قال الحاجب الأقل أبهة وهو ينحنى :

ـ توصلنا الى حل جميل لمشكلة الابلاغ الفورى ..

قال جوهر وهو ينجعص :

ـ ماذا ؟

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ كانت المشكلة أمام العلماء والمنجمين المرابطين فوق جبل المقطم يتشاورون فيما بينهم عن تحديد موعد الافتتاح ..

صاح جوهر فى عصبية :

ـ أسأل عن افتتاح البناء .. متى يبدأ العمال فى العمل ؟ .. هل انتهيتم من أبحاثكم ؟ .

انحنى الحاجب الأقل أناقة فى حرج وأرسل صوته الرقيق :

ـ مولاى .. ان المنجمين والعلماء لا زالوا يتشاورون ..

ـ فى ماذا ؟ ..

ـ فى تحديد موعد البدء فى العمل ..

ـ ومتى يتم البدء فى العمل ؟ ..

ـ حين يتأكد المنجمون من حسن الطالع ؟

ـ ومتى يتأكدون من حسن الطالع ؟

ـ حين يقترب برج ماذا لا أعرف من برج ماذا .. أو حين يدخل البرج الفلانى فى البرج الفلانى .. مسألة فلكية كما تعرفون لا أفهم فيها ..

زام جوهر كأنه يسلم هو الآخر بعدم فهمه فى الفلك ، ثم صاح من جديد :

ـ اذن فما الحل الجميل الذى توصلتم اليه ؟

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ كانت المشكلة أمام المنجمين هى أن أمرهم حين يصدر بالبدء فى البناء يكون على العمال أن يبدأوا فى الحال دون أن يفصل بين صدور الأمر والبدء الفعلى ولو ثانية واحدة .. فكيف يتأتى لهم تحقيق ذلك ؟

صحت فوق صياح جوهر :

ـ أى نعم كيف ؟ ! ..

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ هذا ما توصلوا الى حله ؟ ..

ـ كيف ؟ ..

ـ تعرف أنه لا مبانى حولنا سوى دير العظام ولا زرع سوى بستان الكـــافور .

قال :

ـ نعـــم ..

ووقفت أنا فوق الكرسى فى نزق ورحت أنظر من فتحة مستديرة وأصيح فى انبهار :

ــ يا سلام ٠٠ هذا اذن هو بستان الكافور الممتد من هنا حتى العتبة الخضراء حيث يطل على خليج أمير المؤمنين الذى هو الآن شارع بورسعيد ٠٠ واذن فام دنين هذه هى ما عرف بعد ببركة الأزبكية ٠

واتجهت الى جوهر واقفا ينظر من فتحة بجوارى والحاجب الأقل أناقة يشير موضحا :

ــ وضعنا قوائم فى مربع يبلغ كل ضلع من أضلاعه ألفا ومائتين من الياردات ٠٠ ثم علقنا أجراسا على الحبال الممتدة من عمود الى آخر !! ٠٠

رفعت أذنى ٠٠ وقال جوهر :

ــ ولماذا الأجراس ؟

قال الحاجب الأقل أناقة :

ــ حينما يتفق العلماء المنجمون على حسن الطالع ٠٠ يشدون طرف الحبل من عندهم ٠٠ فتدق الأجراس ٠٠ فيبدأ العمال العمل فى الحال ٠

صحت أنا وجوهر :

ــ يا سلام ٠٠ يا لها من فكرة طريفة :

ثم شوح بذراعه وارتد جالسا ، فبسرعة تكورت فى كرسى لاهث الأنفاس كجرذ ٠ انتبه الحاجب الأقل أناقة الى وجودى ، فتلفت حواليه منذعرا كأنه يبحث عن مقشة يطاردنى بها ٠٠ تأهبت للقفز فى وجهه لالهائه ٠٠ لكننى تذكرت أن بجيبى دعوة على الافطار من المعز شخصيا ٠٠ فاعتدلت منتفخ الأوداج فقال جوهر باسما :

ــ لا عليك منه فلا بد أنه مصرى طيب القلب بــ ٠٠٠

قاطعت جوهرا :

ـ ومعى دعوة من مولاى الخليفة ٠٠ سأتناول الافطار على مائدته فى قصره اليوم ٠٠

ورحت أبحث عن البطاقة ، فهدأنى جوهر بحركة من يده قائلا :

ـ هدىء من روعك ٠٠ هدىء من روعك ٠٠ ان القصر الذى ستتناول فيه افطارك لم يبن بعد ٠٠ لقد جئت متقدما أربع سنوات على الأقل ٠٠

قلت :

ـ ولكننا الآن فى شهر رمضان ! ٠

قال جوهر :

ـ تناول الافطار عندنا لو أردت ٠

قلت : لا ٠٠ شكرا يا سيدى ٠٠ وآسف لازعاجك ٠٠ سوف أعود بعد أربع سنوات ٠

قال جوهر :

ـ ليكن ٠٠

تأهبت بلانصراف ، واذا بالأجراس تنطلق مصلصلة فكأنها زغرودة أسطورية تنداح فى الأفق لتعود من جهة أخرى مجلجلة ٠ انتفض جوهر واقفا كما انتفض الفرح على وجهه ، عانق الحاجب الأقل أناقة وصاح كلاهما صيحة فرح ، هاصت الدنيا وزاطت فجأة ، وامتلأ الهواء بأصوات دق وحفر وصياح حماسى ، قال جوهر :

ـ جئت مع حسن الطالع يا هذا ٠٠ والله لا تنصرف من هنا الا معززا مكرما ٠٠

وأمر بأن أجاوره على مائدة الافطار وأن تعد لى بعض الهدايا ، أخذت أرقص من الفرح ، وداخلنى شعور بالزهو لكونى حظيت بشرف حضور اللحظة التى بدأ فيها بناء القاهرة الحبيبة ٠ وانتبهت فاذا بناس كلهم

من علية القوم فيما يبدو يتوافدون على الباحة الأمامية ويوقعون في دفتر لابد أنه دفتر تشريفات ، استطعت أن أتعرف فيهم على أبى المحاسن ابن تغرى بردى وابن خلكان وابن عبد الحكم والمقريزى والدكتور عبد الرحمن زكى والدكتور حسن ابراهيم حسن والمهندس حسن فتحى ونجيب محفوظ والدكتور حسين فوزى والدكتورة سعاد ماهر وعدد كبير من أصدقاء أعرفهم ويعرفونني غير أنهم لم يحاولوا النظر الى ليروني أجلس في حضرة جوهر الرومى الصقلى قائد جند المعز في اللحظة التى بدأ فيها العمل في بناء القاهرة ٠

لكن الدنيا سرعان ما انقلبت دفعة واحدة وعلت الوجوه تكشيرات رهيبة ، وسمعنا صراخا وصياحا غاضبا ، وحوافر خيل تقترب ، ودخل من يصيح فى غضب :

ـ يا للشؤم ٠٠ يا للتعاسة ٠٠ كيف حدث ذلك ؟

ثم بكى بحرقة ٠ فرحنا ننظر اليه وقد تهدلت أناقته ٠٠

ـ أتبكى أيها العالم المنجم ؟

رفع العالم وجهه صائحا :

ـ كارثة ٠٠ لقد بدأ البناء فى أشد اللحظات نحسا !!

انتفض جوهر واقفا وهو يشهق :

ـ ماذا ؟ ٠٠

قال العالم المنجم باكيا :

ـ حين بدأ البناء كان الطالع غير سعيد على الاطلاق ٠٠ غير سعيد بالمرة !!

صرخ جوهر غاضبا :كيف ؟!

قال العالم :

ـ كان كوكب المريخ ـ القاهر ـ فى صعود !!

ضرب جوهر الأرض بقدمه :

ـ القاهر .. وكيف اذن اصدر لهم الآمر بالبناء ؟!

ضرب العالم الأرض بقدمه هو الآخر .

ـ لم نصدر أمرا .. لم نتحرك من مكاننا ..

ـ فمن الذى أصدر الأمر اذن ؟ . من الذى ضرب الأجراس ؟

هكذا صاح جوهر .. فرد العالم باكيا :

ـ غراب .. نعم غراب أحمق .. لم يعجبه مكان فى الدنيا يقف عليه فى هذه اللحظة سوى طرف أحد الأعمدة . وحين وقف أعجبته الوقفة فراح سيادته يهتز ويتراقص .. فأخذت جميع النواقيس تدق وبدأت عملية البناء ! .

لا أستطيع وصف الكدر الشديد الذى احتل وجه جوهر .. هذا الجسد الهرقلى أنهد على الكرسى فاقد الحيوية منطفىء العينين . وأخذت أدبر للتسلل خفية . لولا أن وفدا من العلماء العقلاء المتماسكين دخلوا يجرجرون عباءاتهم فى وقار ، انحنوا أمام جوهر الذى لم يعرهم أى التفات .. تقدم كبيرهم محاولا تخفيف وقع الكارثة :

ماذا حدث بحق الله .. ليحدث ما يحدث .. لكننا يجب أن نكون متفائلين .. كوكب القاهر فى صعود .. فلنسم المدينة الجديدة باسم القاهرة

جاء صوت جوهر من غيابة الجب :

ـ قاهرة ؟ ..

ـ نعم . أملا فى أن يتحول الفال المشؤوم الى نتيجة مظفرة .

انطلقت جوفة الأصوات :

ـ والله صحيح ..

ـ ما أحسن التفاؤل ..

ـ باذن الله منصورة ..

ـ اذن فلن يتوقف العمل فى انتظار طالع آخر سعيد ؟

هكذا قال جوهر ..

ـ وما توقف العمل الا نذير شؤم بدوره يا مولاى .. اذا كان الطالع غير سعيد فان هدم ما بدأناه لن يكون فالا سعيدا بأى حال .

هناك فقط لمعت عينا جوهر من جديد ببعض الحيوية . شوح بيده كالمغلوب على أمره . فاستدار العلماء يصيحون صيحات تهدىء ذعر الجماهير فى الخارج رأيت الجموع تتوافد من جديد لتوقع فى الدفتر ، وبينهم ستانلى ليبول يتلكأ فى انتظار دوره .. فساهيت جوهر واندفعت أصيح :

ـ ضبطتك .. تعال ..

بقفزة واحدة صرت ضمن الجموع .. تعلقت بستانلى ليبول وهمست فى أذنه بقلق :

ـ دفعت حساب القهوة ..

فنظر الى باسما وبدا أنه لم يتذكر شيئا . ثم أنه جذبنى وتهنا فى الزحام برهة ، أفقت بعدها فوجدت نفسى أطوف بالمشهد الحسينى بعد الفطور وحدى . وكنت أعرف أننى أتجول فى نفس اللحظة ـ فى أروقة قصر الخلافة : القصر الشرقى الكبير .

وراح يحضر افتتاح القصر فحضر خرابه

نظرت فى ساعتى فوجدت بينى وبين موعد المعز ألفا وثمان وثلاثين سنة · أى حوالى عشرة قرون ونصف قرن تقريبا · قلت : بسيطة أضيع وقتا فى المشهد الحسينى متجولا ، وأشرب شايا على مقهى الفيشاوى ، مالى أنا ولهذا المقهى الحديث الذى يسمونه الفيشــــاوى ؟ اننى أتكىء فحسب على أرضه لأجلس فى المقهى القديم بكل حذافيره · ليس البناء مجرد بناء أبدا ، هو عصور من الصور المتراكمة التى لا تمحى ، يستطيع « ابن شلبى » أن يعيش فى الصورة التي يهوى فى الزمن الذي يشاء وقتما يرغب · مع ذلك يا أخى ، تسقط فى بئر الزمن ، تسقط ولا بد أن تنتشلك من قاعه الى سطحه لحظة رؤية عابرة ··

جاءنى الشاى بالنعناع والشيشة ، فراحت العين تزحف على الجدار الخشبى المشغول بشبكة من الرسوم المخروطية الدقيقة ، وليس معى من أحد فى المقصورة ، ليس معى سوى الزمن ، تحاول المقهى أن تبيع لى الزمن القديم متجمدا فى بقايا نقوش أو مقاعد ، أزحزح نفسى وأجلس بالضبط فى باب المقصورة أريد أن أطفو على سطح الزمن ، أرى السياح أنصاف عرايا بيدهم الخرائط والآلات ، وأرى « نظيرة » جالسة على الكنبة العتيقة كأنما منذ ألف عام تقرأ الفنجان لبنت صغيرة ، وأرى جماعة باعة السميط والبوهيجية والمراوح الكهربائيـــة وأشـــياء من واردات أمريكا واليابان ، وأرى الشحاذين السافرين « نسبة الى أبيهم سفر ، الذى قيل

أنه كان من جنود لا أدرى من ، فاستوطن وأصبح له نسل كبير لا يؤمن بالعمل أو وجع الدماغ ، ويقـال أن جدهم الأكبر كان أول من احترف الشحاذة واتخذ منها مهنة مريحة » ـ أراهم وأرى كيف أن الآخرين ليسوا الا شحاذين سذجا يكلفون أنفسهم أشياء يقدمونها لك أو جهودا يطرحونها عليك ، وأسمع ضجة وزلزلة تحدثها شرائط الكاسيت من ثلاثة محلات متجاورة متقابلة يحاول كل منها أسماع الزبون بصـوت أعلى ـ شيئا مختلفا تماما فى نفس الآن ! ٠

ضقت بالفيشاوى ، ضقت بكل الأماكن التى تجعلنى هدفا لجحافل الباعة و « أولاد سفر » ٠٠ مشيت بين حوانيت الصاغة والعاديات والتحف متهدل القامة أغوص بين وفود السياح المنطلقين فى ابتهاج يطل من عيونهم شبق الى المعرفة ، ويطل من أعماقى احساس بأننى أنا الآخر تحفة غير فنية وثمة بينهم من يمكن أن « ينسك » فى ويشترينى ٠ ثم أن الزحام أخذ يتكاثف ويتكاثف حتى أغرقنى تماما وصرت أرقع بالصوت كالنساء ولا من مجيب ، تدوسنى الأقدام بلا رحمة ٠٠ أخذت أضرب سيقان الناس وأعضها حتى وسعت لنفسى براحا نفدت منه الى بقعة أقل كثافة ، تمكنت فيها من الوقوف ثم السير وسط الحشود المتدفقة المتلاصقة ، ولقد ذهلت ، اذ أننى حين وقعت بين الأقدام ، نظرت حوالى فلم أجد أحدا يلتفت الى أحد ، فقلت هل بلغت الأمور الى هذا الحد الفظيع ؟ ٠ ولكننى اكتشفت أن الملابس كلها مختلفة عن ملابس أيامنا ، كرنفال من السراويل والعمائم المملوكية والجلابيب المصراوية والعباءات المغربية ، دفعنى الزحام الى رحبة واسعة جدا تفصل بين قصرين عظيمين لم أر لهما مثيلا فى حياتى ، قلت هذا هو ميدان بين القصرين الشهير وهذان هما القصران الشهيران أحدهما القصر الشرقى الكبير وهو الذى أمشى الآن بجواره ، والثانى القائم فى الطرف الآخر للميدان هو القصر الغربى الصغير ، لماذا هذا الزحام اذن ٠ كانت الرحبة عبارة عن سوق حافل بالدهماء والباعة من مختلف الأنواع ، يقعدون بأصناف المأكولات من اللحمات المتنوعة والحلاوات المصنعة والفاكهة

... وكان يخيل الى أن الجو نهار فاذا بنا فى الليل ؛ سرج وقناديل خارجة عن الحد فى الكثرة ورمضـــان واضـــح للعيان أمام الباعة وعلى الوجوه المنشرحة رغم الزحام الخانق حيث يختلط الناس بالحمير وأصحاب الفخامة بالمكارين . هذه حلقة مسورة بأجساد بشرية ومقاعد ودكك ، اقتربت منها ، منشد ورباب وسيرة لبطل من الأبطال لعله عنترة أو الهلالى ، هذه حلقة أخرى . انها مجموعة من الشبان تقدم فنونا من اللعب ، الناس يتفرجون ويصفقون ويضحكون . لاحظت أن من يرانى لا يكف عن النظر الى بتمعن واستغراب فعرفت أن بذلتي ورباط عنقي وحقيبتي السمسونيت هى كل ما يثير الاستغراب ، أوقفت شخصا كان يبدو عليه الذهول مثلى وقلت له : يا أخى ـ ما بال الناس مجتمعين للمرور من هنا كأنهم فى زفة أو جنازة كبيرة ؟ . قال والله لقد سألت نفس السؤال قلت ومن أنت ؟ .. قال : محب الدين محمد بن قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى وقادم لتوى من الكرك . قلت : وفى أى عام نحن الآن ؟ . قال : نحن فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فتركته ومضيت وقد فهمت أننى أخطأت الزمن وصرت أتدبر فى كيفية العودة من حيث أتيت ـ لكن الزحام يدفعنى ، هذا شادر كبير ملىء بالبطيخ ويشهد زحاما هائلا كأننا فى مصر فى نهاية القرن العشرين الميلادى ، وجدت المقريزى يجلس على مقربة منه فظننته ينتظر بطيخة لعياله ، لكنه كان يجرى تحقيقا مع ولد تبينت أنه من الصياع والمتشردين قلت ماذا بهذا الولد يا مقريزى ؟ . قال أنه ورفيق له من غلمان الخيل خرج فى هذا الليل الرمضانى المقدس وسرق بضعا وعشرين بطيخة وبضعا وثلاثين شقفة جبن ، قلت وهل أنت صاحب البطيخ والجبن ؟. قال : أننى أتعرف منه على كيفية الفعلة فحسب لكى أكتبها . قلت والله أنك لرجل عظيم ، فنظر لى باستrabة وقال : ألم أرك من قبل فى قبضة جند جوهر ؟ . قلت : نعم . قال : ماذا تريد بالضبط ؟ . قلت معى دعوة للافطار على مائدة المعز لدين الله الفاطمى أبى تميم معد . قال : بأى مناسبة ؟ قلت : بمناسبة أول رمضان تشهده القاهرة . قال : ارجع من

حيث أتيت لأنك الآن تسير فى خط بين القصرين بعد أن زالت الخلافة الفاطمية على أيدى الأيوبيين وأستبيح ميدان بين القصرين كما ترى ..

يبدو أن المقريزى توسم فى أننى ابن ناس طيبين، خاصة حينما أسندت حقيبتى السمسونيت على ركبتى وفتحتها بفخامة : تك تك .. ثم لوحت بالبطاقة المذهبة التى تحمل دعوة المعز لى وكانت مكتوبة بماء الذهب . وكنت أفكر فى ان الواحد يمكن أن يبيع ماء الذهب هذا لأى صائغ اذا فشلت الدعوة — وضربنى السلك أى أفلست ، ولهذا اكتفيت بالتلويح بالبطاقة وارتعشت يدى حين هم المقريزى بامساك البطاقة ليقرأها : فحتى البطاقة نفسها كانت من الفخامة بحيث يمكن أن تكون قابلة للرهن مقابل فلوس نفك بها عذرنا . ابتسم المقريزى وقال : أين كنت قبل هذه اللحظة ؟ قلت له : كنت أمشى قادما من المشهد الحسينى مخترقا البوابة المواجه له بين محلات العاديات نحو شارع المعز فاذا بى أجد نفسى ها هنا . قال : حلو .. أترى هذا الباب العظيم ؟ . قلت : نعم . قال : هو باب الديلم الذى يطل على هذه الرحبة المدعوة رحبة قصر بشتاك ، ولو مشيت فى هذه الرحبة من خزانة البنود هذه لصرت فى المشهد الحسينى ، ان المشهد الحسينى وراءك بالضبط ولكن يفصلك عنه سنوات طويلة ، ومن باب الديلم هذا يمكن أن تسلك الى باب تربة الزعفران — مقبرة أهل القصر من الخلفاء واولادهم ونسائهم ، وعلى فكرة ، باب تربة الزعفران هذا يحل محله الفندق الخليلى اتعرفه ؟ . قلت لم أر الفندق أو الخان ولكن اسم خان الخليلى فى عصرنا نار على علم . هز رأسه وقال وكأنه يزوم : لم يبق سوى الاسم فحسب ، أيه يامصر كم تحتفظ ذاكرتك بأسماء وأسماء ! .. المهم — لا يزال يقول — فيما بين الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع التى يتوصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات فيجلس بمنظرة الجامع الأزهر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد والجمع ، ويمكن أن تسلك من باب تربة الزعفران الى باب الزهومة . هتفت صائحا : باب الزهومة أين هو . أشار بأصبعه نحو باب عظيم كبير وقال ها هو ذا . قلت : هذا الباب لا تزال بوابته قائمة الى عصرنا ، ولسوف أقوف أمامها

ممسكا بها فلعلها تصعد بي من قاع الزمن الى سطحه لأعود فأنزل الى بئر الزمن من جديد محددا طريقي بالضبط • قال المقريزى مبتسما : أأنت مدعو على الافطار ؟ • قلت نعم •• قال أتعلم ما معنى باب الزهومة ؟ قلت لا والله • قال يعنى باب المطبخ ، فتطلعت اليه ـ أقصد الباب ـ فى تدله ووله شديدين • فشدنى المقريزى برفق وأجلسنى بجواره ثم أخرج من جيبه مطواه أنيقة جدا ومشغولة اليد بآيات قرآنية ورسوم اسلامية زاهية ـ لكنها ليست قرن غزال أي أنها ليست ممنوعة ـ ثم سحب بطيخة نقر عليها بحرفته ثم دب المطواة في قلبها وجرها ثم فعل ذلك مرة أخرى وسحب شرخة هائلة قدمها لى قائلا : روق دمك • فدفنت بوزى كله فى شرخة البطيخ غير عابىء بما قد تفعله فى بذلتى ورباط عنقى وياقة قميصى قال المقريزي وهو ينحت شرخته في أدب ورصـــانة • أليس في زمنكم بطيخ ؟ • قلت لا والله ، انما يوجد شيء شبيه به واسمه بطيخ أيضا • قال رحم الله محيى الدين بن عربى الذى قال : اذا نزل زحل برج الجوزاء عزت الأقوات بمصر وقل أغنياؤهم وكثر فقراؤهم يكون الموت فيهم • قلت ومتى يدخل زحل برج الجوزاء ؟ • قال كل ثلاثين سنة شمسية فيقيم فيه نحوا من ثلاثين شهرا • قلت ان شيئا مما قاله ابن عربى صحيح ولكن عدد الفقراء كلما تزايد صاحبه تزايد فى عدد الأغنياء وارتفاع فى ثرواتهم " قال اذن فان برج القاهر لا يزال فى صعود قلت لقد اقترب موعد المعز • قال أعلم أن وصول المعزالى قصره هذا كان فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة أثنتين وستين وثلاثمائة • قلت وأنا أدون فى مفكرتى : الآن استطيع الذهاب بسهولة ، سوف أركب الأتوبيس الذى يوصل الى هذا الزمن مباشرة •

ثم أننى ودعته وانصرفت وقد شعرت بالخجل مما حل ببذلتى فأخذت أعالجها بمنديلى ، فاكتشفت أن تراب القاهرة كله قد خرج من جبهتى روجهى الى المنديل ، فأخذت أطويه على الوسخ وأجعل الوجه النظيف الى الخارج ، فما أن أتم طويه حتى ينبت العرق من جديد فأضعه فوق العرق فيتلون بالأزرق النيلة ، فداخلنى شعور بالاكتئاب مصدره الخوف من

حرس المعز واشتباههم فى مظهرى وربما يأخذنى البوليس تحريا وتكون ·· مش ظريفة · استندت الى باب الزهومة ورحت أملس عليه بيدى ، وكان لايزال عفيا قويا لم يدخل بعد فى مرحلة الاثر ، وراح الكل ينظر الى فى استرابة وأحيانا فى استطراف · وقال ولد مكارى : لابد أنه من الصليبيين · وقال بائع كرشة بعربة : هو من الترك يا عبيط ، قالت بائعة عابرة : قل من الديلم ، فزغدها شيخ عجوز ببوز عكازه ثم برطم : ترك وديلم وزويلة: وفرنجة. وفرس لم تعد تعرف من أين هذا ومن أين ذاك ·

توقفت البائعة رغم الزحام وجنحت نحو الشمال فصارت فى مواجهة العجوز ومواجهتى كذلك ، يا اله العالمين ليس هناك أجمل من هذا ، دم تركى أو فرنسى أو رومى أو فارسى أو قوقازى أو حبشى ، أغلب الظن أنها مزيج من كل هذه الدماء ، وأغلب اليقين أنها تنحدر من احدى الجوارى القديمات ومن صلب أحد الأمراء ربما · نظرت الى ببأس شديد وقالت : مسكين ، خطفه أحد تجار الرقيق منذ قرون طويلة وتاه منه ، ألا زلت تائها يا حبة عينى ؟ لا تحزن فسرعان ما تجد لك بين هؤلاء القوم مخدعا ورغيفا ، آه من هذه المدينة العجيبة القاسية الرقيقة فى آن ، لكأنهم جميعا تجار رقيق ، وكأنهم جميعا رقيق فى نفس الآن ، يظننى هذا العجوز جاهلة أو مجرد ابنة ليل ، أعلم يا عجوز النحس أننى ابنة نهار كذلك فضلا عن اننى قرأت الكتاب وخططت فى الكراس ·· كل الملوك والأباطرة كانوا فى الأصل رقيقا ومماليك وانتزعوا السلطة بسواعدهم ودسائسهم ومؤامراتهم ، يصبحون مصاصى دماء ؟ ··

عوج العجوز شفته السفلى فى قرف وهز عكازه قائلا : اغربى عن وجهى ايتها الشيطانة ، اذهبى الى دارك فى بركة الرطلى أو فى أى داهية ·

فانعوجت هذه برشاقة وقالت : دارى هى القاهرة كلها ، مثلما تنام أنت فى أى مسجد من مئات المساجد المفتوحة ، أنام أنا فى مئات العيون المنبهرة بجمالى ، واستكن فى مئات الصدور المشفقة على أمرى ، ذلك أن أمرى من أمرهم وأمرهم من أمرى فما أحلاك يا أمرى ، · ثم أنها استدازت بتماوج

الضوء على فستانها الثمين وغابت فى الزحام ، فنهرنى العجوز قائلا : اسمى ٠٠. اسمى ٠٠ فلما وجدنى غير عابىء به هز العكاز فى وجهى ومضى يبرطم حتى اختفى . فكأنما اذن لبقية المشهد بالاختفاء ، ولم يكن قد بقى فى نظرى شىء لبرهة سريعة جدا كانت رأسى خلالها تصدح باصداء أصوات عذبة تغنى موشحات أندلسية غامضة ٠٠ فلما فتحت عينى من جديد وجدتنى استند على بوابة باب الزهومة ، لكنه كان مجرد أثر ، وكانت خريطة الواقع الذى أعرفه تنطرح أمامى شيئا فشيئا لأجد أمامى كوعة الحارة التى توصلنى بعد خطواته الى مسجد الحسين ٠

اجتزتها مترنحا وقد كرهت الحقيبة من ثقلها ٠ اصطدمت بابراهيم منصور ممسكا عصاه العوجاية ومعه اثنان من المثقفين الأجانب يشرح لهما شروحا تحتاج بدورها الى شروح ٠ رغبت فى الزوغان منه بسرعة خوف أن يطالبنى ــ أمام الأجانب ــ بخمسة جنيهات فرض على اقتراضها فى لحظة لم أكن فى حاجة اليها قط ، ولهذا أكره أن أردها بسهولة ٠ من حسن الحظ رأيت عبد الرحمن الشرقاوى مرتديا القميص والبنطلون والشبشب ويمسك مسبحة صغيرة ويهرول فى ورع نحو مسجد الحسين ، فجريت نحوه هربا من الجنيهات الخمسة لكن ابراهيم جذبنى بعصاه فسمرنى فى مكانى . وصار يطول ويقصر ، ويشرح بمنتهى العصبية ، ويتفتف مرسلا الكلام فى جدية ، قائلا أنه اكتشف مقهى شعبيا غاية فى اللطف والجمال ، وأنه يقع ها هنا ــ وأشار الى المجهول ٠ قلت أين بالضبط حتى أحسب الخطوات ؟ ٠ قال فى « العطوف » ٠ قلت لا بأس بالعطوف ، أن هذا الحى المجاور لحى الجمالية كان فى الأصل مسكنا لخدم القصر ، وقد سمى الحى باسمهم نسبة الى الخادم الأكبر « عطوف » ٠ وقلت لإبراهيم : يمكننى دخول القصر من باب الخدم ٠ فقال ابراهيم : اذن تكون قد عرفت طريقك الحقيقى ، ثم ترجم النكتة للأجانب فضحكا ، أما أنا فلم أضحك ربما لأن النكتة أصابتنى فى القلب ، لكننى انتويت أن أبخل عليه بمعلومة كنت أنوى تزويده بها ، ذلك أنه أنضم الى عشاق سيرة القاهرة منذ بدأ يعد

كتابا عن نجيب محفوظ وأخذ يحقق الأماكن التي تربى فيها ..

.. ثم أننا توغلنا فى حى العطوف ، واذا ابراهيم يعرف المعلومة التى حرصت على عدم اذاعتها ، واذا بالأجنبيين يعرفان أكثر مما نعرف كلانا . كانت البيوت الحديثة تتجاوز مع البيوت القديمة فى تناسق بديع ، لكن البيوت القديمة كانت تبدو هى الأصل والعمائر المجاورة لها تبدو كالحلفاء والأعشاب المتسلقة على الأشجار العتيقة .

ارتد ابراهيم فجأة ونظر فى حارة موصلة لحى بيت القاضى كنا قد تجاوزناها ، ثم عاد بعد برهة وقد زعم أنه « أختيل » بنجيب محفوظ يجلس على مقهى يدخن الشيشة وحوله رهط من المعلمين تجار الفراخ والجزارين وعلية القوم ، وأن قعدته ـ لابد ـ ستكون حافلة بأطايب النكت والدخن ، ثم أراد أن يستأذن ولو لالقاء السلام عليه فلا يصح أن يراه ويتصنع أنه لم يره ، واختفى فى الحارة يدب بعصاه كمحارب ضال . ووجدتنى وحدى مع أثنين من الخواجات ينظران الى فى استجداء الكلام فلا أحن عليهما بحرف ، أنقذنى منهما « ابن عبد الظاهر » صديق مؤرخ غربى كبير سوف أعرفكم به فيما بعد ، أهلا يا عبد الظاهر ، أهلا يا أبو شلبى أيه أخبارك ؟ بخير والحمد لله ، رأسه وألف سيف أن يعزمنى على نارجيلة مع القرفة قلت لو لم يكن سريع الحلفان ، هيا بنا ، و .. ما تتفضلوا معانا يا خواجة .. مرسى حبيبى .. ثم ملصت منهما .. وقادنى ابن عبد الظاهر ، فاذا بنا وسط حى من أجمل مساكن القاهرة ، فيه من الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد مالا يدخل تحت حصر ، كل سكانه سمر الوجوه تبدو عليهم العظمة والأبهة حتى السابلة فهم يعيشون فى اعتزاز لطيف . قال « ابن عبد الظاهر » :

ـ أنهم عائلة عطوف وأهله وأقاربه .

قلت : ومن عطوف هذا على الحقيقة يا ابن عبد الظاهر ؟ .

قال : هو عطوف غلام الطويلة أحد خدام القصر ، بالتحديد خادم ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ابن ابن المعز لدين الله ابى تميم معد ..

ثم غمزني « ابن عبد الظاهر » فانتبهت ، فاذا بموكب حافل من التشريفاتية والحرس ينثالون على الشارع قادمين من عطفة ذات شكل خاص ومتميز . كالقطة انشبت أظافري في جدار البيت المجاور وقذفت بنفسي الى مشربية جميلة وقفت عليها ، فتمكنت من رؤية باشا أسود الوجه قصير القامة « نعم لا أقل من سعادة الباشا ، يرتدى حلة بالقصب وتتناثر منها بقع الضوء المصفى ، والروائح العطرة تسبقه ، وهو يمشي في تؤدة عظيمة ورهط من الاهل والسابلة يتبعونه بالابتسام وحنى الرأس في تفاخر . أشار لي « ابن عبد الظاهر » فنزلت الى الشارع ومضينا خلف الباشا الأسود و « ابن عبد الظاهر » يقول : هذا هو عطوف وهو متجه الآن نحو القصر . منسينا في كعبه . جاءني زخم أزمنة قريبة ومعاصرة ، حتى لقد أندهشت أن يصبح للواقع المعاصر شيء من عراقة في ظل هذه العراقة الصرفة ، قلت لابن عبد الظاهر ونحن ندخل من بوابة هائلة : ما اسم هذا الباب ؟ . قال : هذا باب الساباط ، من الرسم أن يذبح في باب الساباط مدة أيام النحر وفي عيد الغدير عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف ، وفي سنة ستة عشرة وخمسمائة بلغ جملة ما نحره الخليفة الآمر بأحكام الله ، وذبحة خاصة في المنحر وباب الساباط ـ في ثلاثة أيام ـ ألف وسبعمائة وست وأربعون رأسا .. ومن باب الساباط هذا يدخل الى من حوته القصور والى دار الوزارة والاصحاب والحواشي اثنتا عشرة ناقة وثماني عشرة رأس بقر وخمس عشرة رأس جاموس ، ومن الكباش ألف وثمانية رأس ويتصدق كل يوم بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

قلت لابن عبد الظاهر أن زخم الزمن الملتصق بي أو القادم معي يكاد يظهر في الحال ، فأنا الآن اشم رائحة مكان الخرنفش . وقال ابن عبد الظاهر أن القصر الغربي ممتد الى هناك ثم نظر في بوصلة أخرجها من زنبيله المعلق فوق ظهره ، قلت كم الساعة الآن ؟ . قال الساعة الآن مساء الأحد لاحدى عشرة خلت من صفر سنة احدى وأربعمائة ..

لحظتها اجتزنا ممرا مبلطا بالرخام الأصلي المعتبر وعلى جانبيه أشجار

الموز والحناء وأنواع من المزروعات لا أعرف لها أسما ، انما كانت الجدران الرخامية القصيرة والعالية تغوص كلها فى أنواع شتى من الفروع المزهرة تتخللها شبكة من أشعة الشمس والضوء الفضى ، وفى امتداد البصر أشجار وأفرع لا نهاية لها تختبىء بين ظلالها قصور متباعدة متقاربة ٠٠ قلت ما هذا يا ابن عبد الظاهر أفى الجنة نحن ؟ ٠ قال صوته من مكان بعيد : أنسيت أن بستان كافور دخل ضمن القصر الغربى الصغير ؟ ٠ قلت ولكننى كنت أهدف الى القصر الشرقى الكبير مقر الخلافة الفاطمية حيث أنا مدعو للافطار على مائدته ٠ قال ابن عبد الظاهر أنه سيتعهد بتوضيلى بعد ما نزور « ست الملك » فى جناحها لأمر هام ، فهذا القصر بناه العزيز بالله نزار أبو الحاكم بأمر الله لتسكن فيه ابنته « ست الملك » الشقيقة الكبرى للحاكم ، ثم اختفى صوت « ابن عبد الظاهر » فجأة ونظرت حولى فلم أجد له أثرا ـ فارتعدت ، وخفت من المناداة أن يكشفنى صوتى . وأخذت أضرب فى القصر البستان أو البستان القصر خبط عشواء ٠ انبعث ضحك نزق من مكان مجهول أفزعنى وانتفضت ، فرأيت نفسى أمر على شرفة تطل على نافورة تحوى عددا من الأشكال الحيوانية كلها من الرخام تنفث المياه فى حوض عظيم من المرمر الملون ، من الشرفة تطل باقة من الوجوه الحسان ، كأنها زهرات ورد متراصة على أغصانها الممتدة فى أعماق بعيدة ، واذا باحداهن أمامى تعترضنى باسمة فى رقة ٠٠ أأنت قصرى مثلنا ؟ قلت ما معنى قصرى ؟ قالت : من خدم القصر ٠٠ قلت نعم أنا أحدث خصيانه ، فضحكت وضحكن من خلال الشرفة فقلت لها من انتن ؟ ٠٠ قالت : جوارى ست الملك وعددنا ثمانية آلاف جارية ٠ فشهقت ، وشهقت هى الأخرى ثم فرت مذعورة هاتفة : الحاكم بأمر الله وصل ٠ فانبطحت أرضا وصرت أزحف على بطنى كثعبان غشيم ، واخترت من سور الحوض ما يشبه لونى وداريت نفسى فى ظله ورحت اراقب الحاكم، كان خارجا من بوابة تشبه فوهة الكهف لكنها تحمل طابع القصر ، فحفظت شكلها وموقعها جيدا وما أن صار الحاكم فى مدخل جناح على اليمين حتى كان فى لقائه « عطوف » الأسود ٠ انحنى فى تبجيل سلطانى فصرفه

الحاكم باشارة سلطانية من إصبعه فأوسع له الطريق ومنى خلفه ، لكن الحاكم توقف فجأة واستدار ناظرا اليه مفتعلا ابتسامة كأنه يصرفه بها ، فبالغ الخادم « عطوف » فى الخضوع للأوامر السلطانية . ولكن فى شيء من الكلاحة واصل السير وراء الحاكم فتوقف الحاكم للمرة الثانية وضرب بقدمه فى حنق ، فارتد « عطوف » الى الوراء وأخذ يتقهقر ، وكنت قد انتهزت هذه الفرصة وقفزت على الحائط المجاور لسير الحاكم كأننى طيف من زمن مقبل ، تابعته اذ يصعد السلم المرمرى الى جناح تشقشق فيه العصافير وتنبعث الموسيقى الحالمة ، ستائر المخمل تغلف الجدران بالسحر أشباح حراس تتجسد بين الستائر وبعضها على الجانبين ، فما أن وصل الحاكم الى حجرة فى المنتصف تنحنح فانبعث من باب الغرفة ضوء مبهر سرعان ما تجسد فى « ست الملك » زاحفة نحونا كالظبى ، فى نبل كبير ..

استقبلت الحاكم بابتسامة كأنها بسمة الدنيا . فهز الحاكم رأسه فى تفخيم سلطانى ، فعرفت أنه يؤدى طقسا يوميا وأن بينه وبين ست الملك علاقة ود خاصة ، ثم أنه استدار عائدا من حيث أتى ، تفرست فيه فوجدت عينين زرقاوين حادتى البصر ، ووجها مستطيلا حاد الملامح قاسى التعبير ..

مشى ثم اختفى فى باب سرى عجزت من تحديده ، لكننى سلكت نفس الطريق التى جئت منها فاذا بى فى دهاليز القصر وجها لوجه مع الخادم ـ أقصد الباشا الأسود « عطوف » وكان يمشى فى اتجاه البستان الكافورى حين انشقت الأرض فن مجموعة من القيصرية ـ اى خدم القصر بمختلف أنواعهم ـ مسلحين بالسيوف ، فصنعوا دائرة من الأسنة المسنونة حوله فعاقوه عن السير فتقدم أحدهم واجتز رأسه فتلقفها آخر ولفها فى ثوب أسود ثم تقدم اثنان وحملا جثة « عطوف » واختفيا بها تماما ، ثم اختفى الجميع ..

أخذت الهث على الحوائط كضوء ينداح أمام درفة شباك تنغلق . وكان البستان يمتلىء بآلاف النجوم الخاصة به وحده ، على هديها وصلت الى البوابة التى تشبه بوابة الكهف ، وحين واجهتها كان يفح منها ظلام ، ولكن حين اقتحمتها وجدتها مضاءة بعشرات الثريات واصص الزرع منتشرة

على الجانبين واذا بها طريق طويل وحافل ، متجدد الهواء ككورنيش الاسكندرية ٠٠ فعرفت أن هذا هو السرداب السرى الذى يمتد تحت الأرض ليوصل بين القصرين وكان الخليفة يسلكه راجلا أو راكبا حسب المزاج اذا ما أراد التنزه على شاطىء خليج أمير المؤمنين الذى هو فى عصرنا شارع بور سعيد ٠٠٠

من فرط الأمان والسحر وددت ألا ينتهى السرداب ، ولكنه كأى شىء فى الدنيا لابد وأن ينتهى ٠٠ فاذا بى فى داخل القصر الشرقى الكبير مباشرة ، فما أن بزغت برأسى من فتحة البوابة حتى دوت صفافير الانذار ودبدبت في الأرض أقدام الجنود ٠ وكان السرداب قد أمدنى بطاقة معنوية سلطانية مكنتنى من الوقوف أمام الجند فى عظمة متقنة ، وباشارة من أصبعى أشرت الى واحد يبدو وكأنه كبيرهم وأمرته أن يصرف هؤلاء الجند عن طريقى ، ثم قلت بلهجة الذى يعرف ويدعى أنه لا يعرف : « فيه أيه ٠٠ عشان أيه ده كله ؟ » يا سيدى نحن فى حالة طوارىء « لقد استولينا على القصور المعزية كلها ٠٠ ونقوم الآن بعملية جرد لكل محتوياتها من الأثاث والثياب والأموال والجواهر والنفائس والعبيد والجوارى » ٠ قلت فى نفسى بضيق : « يا ربى ٠٠ هل جئت لأحضر افتتاح القصر فأحضر خرابه ! » ثم قلت لكبير الجند بلهجة جهدت أن تكون مستنكرة : « لكن من انتم » ٠ قال كبير الجند فى شىء من الاستنكار والتشكك : نحن جند مولانا السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ، الذى أمر بمصادرة القصور الزهراء واجلاء نسل الفاطميين عنا » ٠ قلت فيما ازوم وأهز رأسى : « هه صلاح الدين الأيوبى ٠٠ هذه اذن هى الدولة الأيوبية » ٠ هز قائد الجند رأسه ، فابتسمت له قائلا : « اذن فلم أته ٠٠ لم أذهب بعيدا ٠٠ الدولة الأيوبية ما أقصدها ٠٠ أوسع لى » ـ فأوسع لى فى الحال

ولكنه استفسر فى أدب : « حضرتك مين ؟ » فقلت له مع التفاتة بسيطة : « أنا واحد من لجنة الجرد التى جاءت تستلم القصر » فانحنى قائد الجند حتى كاد يلامس الأرض ولحق بى هامسا فى تؤدة كبير : ما أوصيش سعادتك ·· ولو خاتم بفص للذكرى ·· فهززت رأسى موافقا وقلت له : قوى ·· أنا تحت أمرك ·· ربنا يسهل » ·

الموت جوعا أمام بوابة الذهب

وجدتني فى متاهة عظيمة ، حيث كنت أتصور أن القصر قصر واحد فاذا به مجموعة قصور لا نهاية لها ، وأن أصدقائى الذى تحدثوا الى عنها لم يبالغوا حين أطلقوا عليها اسم القصور المعزية أو القصور الزاهرة ٠

مررت بعسكرى أيوبى واقف فى استرخاء ، ما أن رآنى حتى انحنى فى تبجيل وقال : « من هنا ياسعادة البيه » ، فكدت استدير اليه قائلا ؟ ٠ « أيش عرفك أن أنا بيه ياولد ؟ » ٠ لكننى مضيت حيث أشار فوجدتنى أشرف على باب كنت لحظتها أراه من الجنب ، فلما استدار بى الطريق وجدت بوابة لا تقل من أن تكون بوابة الشمس نفسها أو بوابة جهنم أولا فلعلها بوابة من سنابل قمح منصهر ، وكان يخيل الى أنها على مرمى حجر فاذا بها على مرمى طائرة نفاثة ، وكنت كلما اقتربت منها قطعت أشواطا طويلة دون أن يبدو تفصيل جديد ينبىء عن أننى تقدمت ، ولابد أن الأرض تنسحب من تحت قدمى ما أخطـوه أول اللحظة فى آخرها ٠ هو طريق طويل طول الزمن الأبدى ، كغيره من بقية الطرق العصرية ملىء بالحفر والمطبات والأبار والمجارى ، فضلا عن التراب والروث وما اشبه ، حتى وأنت داخل القصور المعزية الزاهرة حيث الأرض مفروشة بسجاد أخضر من حشائش ونبات نادر تستحيل هذه الجنة المزهرة فى طريق الزمن أو زمن الطريق طريقا مصريا حافلا ــ ولا فخر ــ بكل الحفر ٠

غريبة هذه الحفر التي في طريق الزمن ، عثرة صغيرة جدا هبطت بالبوابة هبوطا ملحوظا كأنما تغيب في بطن الأفق ٠ في نفس البرهة خرجت رأس ضاحكة تبينت فيها رأس صديقي « ابن عبد الظاهر » قال : حاسب يا جدع تأخذني في وجهك وتدب ! ٠ قلت ما معقول من أري بحق الله ؟ قال هو القاضي الرئيسي محيي الدين عبد الله شن عبد الظاهر الروحي الكاتب ٠ قلت من فرحتي : أهكذا يا راجل تتركني في القصر الغربي الصغير وتهرب ؟ ٠ قال : لم أهرب ولكنك من عجالتك تقفز الخطوات سريعة هوجاء السبت محقا حين أقول أنك أنت الذي هربت مني ؟ الزمن يا صديقي مثل المكان ملئ بالأروقة والأبواب والنوافذ والفراغات الهائلة ٠ وفراغات الزمن أشد هولا من فراغات المكان ، ففراغ المكان براح أحيانا ولكن فراغ الزمن خواء وجدب وخراب لأنه لا شيء فيه قد حدث ٠٠ لا بناء فيه قد بني ٠

وكان قد صار يتضح شيئا فشيئا فلا أعرف ان كان هو يبزغ من أرض المسير أم أنها هي التي انحدرت بي نحوه ، لكن البوابة كانت لاتزال تصبغ الفضاء بلون الأصيل ٠٠ أشرت اليها وقلت : أهي بوابة الشمس يا ابن عبد الظاهر أم بوابة السنابل ؟ ٠ تبسم قائلا ما هذه الا من تلك ، ولكن أعلم أنك مقبل على وابة باب الذهب أحد أبواب القصر الشرقي الكبير الذي لقب بقصر الخلافة الفاطمية ٠٠ هو الباب الرئيس للقصر تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة ٠٠

قالها وراح يكح ويتساند على عصاه ويسعل في منديل كبير أنيق ، ويعتذر قائلا أن رائحة الدخان تخنقه ، ولما لم يكن هناك دخان الا ما تركه التدخين على صدري ورئتي فانني قلت : دخان ماذا يا ابن عبد الظاهر ؟ ٠ فقال : هو دخان قادم من فترة زمنية بقامة على مبعدة قليلة كمدينة صغيرة ، منها بدأ تدخين أنواع من الأعشاب والعطارة ينتشر في الديار المصرية ٠ وقلت له فلنبعد قليلا ، ونجذبته الى الوراء جذبة قليلة فاذا به يتلاشى كما يتلاشى الشبح في برهة وجيزة ٠ واقفا ببوابة الباب الذي قيل أنها باب

الذهب مجرد باب غاية في الأناقة لاتزال وتوش الصناع والنقاشين واضحة عليه ، ونظرت فاذا بقافلة من الجمال المحملة بالطواحين مقبلة من ناحية أم دنين تخترق البستان الكافورى متوجهة نحو القصر الكبير ، واذا بقوافل أخرى من الجنود المغاربة تنتشر فى المكان وعلى مرمى البصر ، واذا بالقائد « جوهر الرومى الصقلى » يتقدم بفيلقه ويقبل الأرض بين يدى رجل لا أعرف كيف ظهر وهل كان راكبا أم راجلا انما رأيته محاطا بكوكبة من الاعلام البيضاء والمهابة العظيمة ، ورأيته يبتسم فى امتنان ويحرك شفتيه بكلام لم أتبينه • اقتربت من جنديين متقاربين يشبكان يديهما فى بعضهما وأظهرت الود على وجهى وسألتهما : « هو فيه أيه » • فاشاحا على بغلظة ولكننى فهمت أن هذا هو المعز لدين الله الفاطمى أبى تميم معد وأنه يدخل الديار المصرية لحظتئذ وهذه أول نظرة يلقيها على القصر الذى انتهى قائده جوهر من بنائه له • قلت : بس •• هذه فرصتى •• أخيرا عثرت على اللحظة التى أبحث عنها •• ها هو ذا الخليفة قد وصل ويمكننى أن أدخل لتحيته وأعرفه بنفسى وقطعا سيشرح صدره بوجودى • وصرت أبحث عن منفذ بين الجند ولكننى كنت بالكاد أستطيع البقاء فى المشهد حيث أنا من فرط الاستحكامات ، لحظتها كان المعز يقذف بصره نحو الجامع الأزهر الذى ــ بالكاد أيضا ــ أزيلت عنه معدات البناء فصار لامعا فى قرص الشمس كالأرجوانة الكبيرة وان كان ابن شلبى لم ير هذه الأرجوانة فى حياته ولا يعرف ما هى على وجه التحقيق ••

ثم أن المعز أبى تميم معد لما ملأ نظره من الجامع الأزهر أشار الى قافلة الجمال التى بلغت ما يقرب من خمسمائة جمل محملة بالطواحين • ففى الحال أناخت الجمال وتسلقها الولدان وفكوا الحبال عن الطواحين ثم اندفعوا يفتحونها وينشرون منها سبائك أصيليا ، فتحات الطواحين ــ أو الأرحية ــ تسكب ادفاقا من هذا السائل المصفى ، صحت من جنونى : ما يكون هذا بحق الله وآل البيت ؟ حينئذ عطف على جندى مغربى فنظر فى وجهى من فوق كتفه قائلا : ايه •• ذهب •• ما تعرفش الذهب ؟ •

قلت : « يا خير اسود .. يسكبون الذهب على عتبة الباب هكذا كأنه الأسمنت ؟ » . فتبسم الجندي المغربي مرة أخرى وغمزني غمزة تهديد أن أنصرف قبل وقوعك في قبضة الحرس ، لكنني لم انصرف ، بل أخذت أحاول الاقتراب من هذه البوابة العظيمة لعلني الحق بركب المعز الذي دخل بالفعل واختفى بالداخل . فرأيت البوابة وقد اكتملت وصار لها عضادتان من الذهب وأرضية وعتبة وسقف مكفف بالذهب ..

كان منظرها جذابا جدا ولم يكن يظهر في المشهد كله شيء سواها .. أردت أن أملأ نظري منها وامتلىء بها فأخذت أسرع الخطو ثم أسرع ثم أهرول كأنما تجذبني بقوة ما فيها من بهجة ، وكلما خيل الى أنني اقتربت أكثر اتضحت فيها تفاصيل تقنعني أنها لاتزال بعيدة . ثم أنني امعنت في الاقتراب قدر الامكان وكان ميدان بين القصرين قد بدأ يتضح ، والناس تمشي في تكاسل وتخاذل وتلصص ورجال محترمون يشمشـمون في الأرض وينحنون لالتقاط أشياء يقذفون بها في أفواههم ويلوكونها في سأم وقرف ، ونساء يخفين في صدورهن اطفالا صغارا ، وولدا ينحت في قطعة من الطين .. فقلت ما هذا يا ربي ؟ ونظرت في ساعتي فوجدت أنني دخلت في زمن الخليفة المستنصر بالله ، فأكتأبت من هذه العثرة ولكن قوة ألمت في عقلي احتملتها .. لا مفر اذن من رؤية الشـــد المستنصرية . يا الهي ما هذا ، الظلام يعم شيئا فشيئا وأشباح تتسلل من كل ناحية وتنتهك حرمة القصر وتتوقف عند البوابة الذهبية متلصصة تتصيد بعضها البعض ، شبح في حالة انقضاض رهيب على فريسة يقع هو نفسه في قبضة مجهولة ، الأجسام تكر على الأرض متأوهة عارية أو فاقدة النطق ، ثمة من يحملون مبارد يقطعون بها قطعا من عتبة البوابة ومن احـــدى عضادتيها ، كلهم مسلحون باسلحة القصر فلابد أنهم جميعا حرسه ينداح الظلام قليلا ثم يشتد قوام الضوء فاذا الأشباح في ملابس الحراس يقبضون على جثث القتلى ويقدمونها للتحقيق . مئذنة الجامع الأزهر تصدح بأذان الفجر ، يتلاشى صوت الآذان كالخواء المكسوف ، كصوت

مستعار ، يغسق الضوء ثم ينفرج عنه الخناق ، يقبل الخليفة المستنصر بالله يحف به الحرس وتسبقه البسملة • يتوقف حزينا عند البوابة . ينظر الى شخص خلفه مباشرة « قتال دار مع الحرس من أجل البوابة •• دعوا الناس يبردون ما يشاؤون •• الأفضل أن يبرد كل واحد قطعة صغيرة حتى يجد الكل قطعا يبردونها » ينحنى كبير الحرس ، يستأنف الخليفة سيره ، يختفون •• ينتشر الضوء وتتوهج الشمس فى ميدان بين القصرين . يمتلىء بالبشر يحملون بأيديهم المبارد من مختلف الأحجام ، يندفعون نحو بوابة الذهب ينهالون عليها بردا وتقطيعا ، أفواج أخرى تقبل بمبارد أكثر طولا وأشد غلظة ، يدفعون من قبلهم دفعا عنيفا ، يتسـلقون البوابة كالبهلوانات ويصنعون من أكتاف بعضهم البعض سلالم يرتفعون فوقها الى أعلى المضادة ، يبردون يقطعون الذهب ، أفواج ثالثة تندفع نحو البوابة غيلان ، واذا بالمبارد فى ايديهم آلات حادة ، واذا بها تبرد فى الرجال وتقطع فى رقابهم •• يرتفع دوى الهدير الصارخ المجنون ، يختلط لون الدماء بلون الوهج الذهبى بلون الشمس ، تصير البوابة كوجه عروس شوهته خيوط الدمع الغزير وشلفطت رتوشه • زمارة الخطر ترتفع ، فيالق الحرس تنطلق من كل حدب وصوب •• صوت باسم الخليفة يأمر بحمل باقى الذهب ــ وكفاية كده ــ الى داخل القصر ، منظر البوابة يأخذ فى الشـحوب •

صوت أمعن فى الاقتراب بدافع من الشفقة هذه المرة • بعد ما كانت فى مواجهتى تماما صارت بجوارى ولكن مواجهتها كانت ميسورة • غير أنى فوجئت بجمع كبير جدا من أولاد الناس الذين يبدو عليهم الاحترام وأنهم عزيز قوم ذل ، يقف فى انكسار وذعر وان كانت العيون تعكس يأسا وتبلدا ، كانوا كالمقبوض عليهم فى قضية خطيرة وأنهم من أرباب السوابق الخطرين ، يحاصرهم الجند فى احتراس ، حاذيتهم ، فرأيت فى العيون دمعا غزيرا وفى الوجوه ألما دفينا ، مصمصت بشفتى محاولا التكهن بجريمتهم النكراء • أخذت أحوم حولهم وقد تصورت أنهم ربما

كانوا وفدا من السياح الأجانب من قارة بعيدة وأنهم فى انتظار عربة الشركة السياحية . همست فى اذن أحدهم : « جبت بقشيش ؟ » فنظر فى وجهى ثم ابتسم . ذهبت لآخر لاحظت أنهم منقسمون الى فريقين : النساء فى جانب والرجال فى جانب آخر . ولم أجد لذلك معنى . تقدمت من سيدة رائعة الحسن تقف ملامح وجهها فى الحد الفاصل بين النبالة والسوقية ، لكنها النبالة التى تشعرك كأنها سوقية فتكون أكثر جذبا ، قلت لها : « جبت بقشيش ؟ » فظلت تلاحقنى بنفس النظرة التى من فرط سوقيتها تدعونى للتطاول عليها ومن فرط نبالتها تحذرنى من أى تطاول . انتقلت لأخرى ، حاولت أن أكون جادا ، وكانت نصف عجوز ونصف صبية ، لكنها ما أن رأتنى مقبلا نحوها حتى فتحت حافظة نقود جلدية ثمينة ومطعمة بفصوص الماس والذهب ، وأخرجت قطعة من القروش الذهبية ، دستها فى يدى ، فحركت اغرائى وقلت لها بتطجين واضح ، فستان فلاحى فضيات .. خان الخليلى بين القصرين جامع قلاوون الأزهر .. أى خدمة محسوبكم مرشد سياحى معتبر ، فلم تكف العجوز عن النظر الى بابتسامتها العذبة ، وباهتمام تساءلت عن معنى ما قلت . فزعمت أننى مرشد سياحى وأننى أستطيع أن أفرجهم على خان الخليلى والغورية وغيرهما . قالت ما معنى خان الخليلى ؟ قلت لها فوقك مباشرة بأربعة أو خمسة طوابق من الزمن حى بأكمله اسمه خان الخليلى كان فى الأصل مكانا لفندق بناه رجل يدعى الخليلى ، وبجواره تماما توجد الغورية فوق هذه البقعة . فهزت الولية رأسها فى يأس وتنهدت . ثم أن الذعر دب فيها فجأة بينما رحت أنا اعدهم ، فاذا بهم مائة وثلاثون وخمسة وسبعون طفلا . قلت بالله ما الذى يوقفهم هكذا ؟ فلما نما الذعر بينهم نظرت الى بعيد فوجدت مخيما قد أعد على عجل ، ورأيت رجلا يرتدى زى العسكر ولكن بشرائط ونياشين لا حصر لها ، كان تخينا وطويلا وغليظ المنكبين ولكنه نحيل الوجه صارم الملامح كان وجهه جلد طبلة مشدود ، وكان يمشى خلفه عدد من العسكر الأقل رتبة ومن خلفهم جماعة أقل رتبة وهكذا .

همس طفل كبير وهو ينتفض في ذعر : الطواشي : فأنتقلت عدوى الذعر الى بقية الأطفال فصاروا يرتعشون ويبكون ، وتحرك الألم على الوجوه كما فاضت الدموع في العيون . تقدمت نحو الطفل الباكي وكان يبدو عليه أنه أمير صغير وأنه لايزال يتصور أنه أمير . قلت له : ماذا يبكيك يا شاطر ؟ .. يس ما تعيطش .. مالك فيه أيه يا حبيبى ؟ « فأشار بأصبعه الجميلة الى أعلى قائلا » : الطواشي .. سوف يقتلها ؟ : « طواشي مين ؟ » . قال : « ماتعرفش الطواشي ؟ » .. بهاء الدين قراقوش .. ماتعرفوش ؟ « قلت وأنا أحاول امساك ساقي من الرعشة » : « تقول قراقوش » . قال : « نعم وها هو ذا .. ألم تره ؟ » قلت فاغر الفم : « هوده قراقوش ؟ » . قال الصبي : « دا أيه ماشفتوش قبل كده ؟ » . قلت : « شفته مرة قبل كده » . قال : « أين ؟ » . قلت : « في مسرح الريحاني » . فنظر الى الطفل في حيرة . لكنني عاجلته قائلا : « لكن انتوا مين بالضبط ؟ » قال بكل ثقة وبساطة : « احنا أهل العاضد لدين الله .. الطواشي بينفذ أمر صلاح الدين الأيوبي » . قلت له : « متخافش يا ابنى متخافش دا الطواشي ده راجل طيب وابن حلال » . ثم نظرت في ساعتي فوجدتني في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة .

وقلت لنفسى في غيظ : « أن قراقوش هذا قاس .. كيف يطردهم الى مثل هذا المخيم خارج القصر كأنهم رعاع ! » . ثم اندفعت الى داخل القصر أتراقص بين الشعور بالخوف والشعور بالقوة . واذا بالطواشي قراقوش يقبل نحوى في خطو عسكرى رشيق ، فلما أقترب مني ظهر على ملامحه كثير من الصلف والعجرفة وبدا كأننى لن أحتمل أكثر من سحقة صغيرة من احدى قدميه ، فرسمت على وجهى كل الصلف والعجرفة الذى تعلمته من وجوه الزعماء الأمريكان الذين أراهم في الصحف كل يوم ، « ووضعت يسراى في جيب بنطلوني وتركت الأخرى تهتز بالحقيبة السمسونيت ، وقلت كأنه النكرة وأنا العلم الذى في أعلاه نار » : « أين - من فضلك - الطواشي بهاء الدين قراقوش ؟ صراحة اهتز الرجل وكاد

يقع من طوله . لعله خاف من حقيبتي السمسونيت ولعله خاف من صوتى أو ملبسى الله أعلم . لكنه قال في رقة وخضوع : « أنا يا أفندم » فنقلت الحقيبة الى يسراى ومددت يمناى صائحا متهللا : « أهلا طواشى » . « أزيك يا طواشى » .. « ياه والله زمان .. فين من آيام ما شفتك على مسرح الريحاني بيمثلوك ؟ فصارت يد الرجل تهتز في يدى ويهتز معها بدنه كله ، أطلقت سراح يده وقلت بعجرفة :

ـ لماذا تفعل هكذا بهؤلاء يا طواشى ؟

قال الطـــواشى :

ـ لأنهم رفضه .. كفاهم ما جنوه وما عاشوه وعانوه !

قلت له : ولماذا تعزل رجالهم من نسائهم يا طواشى ؟

قال الطواشى : لكيلا يتناسلوا .. ويكون ذلك اسرع لانقراضهم !

قلت : ما شاء الله .. تالله أنها لعبقرية .. هذه عبقرية الابادة يا طواشى

قال الطواشى : من أين سيدى ؟

قلت : سيدك من زمن سوف يراك ولا يراك .. وسوف يحبك لأنه يكرهك ! .. وسوف يحبيك لأنه يريد ابادتك !

قال : نطقت لغزا يا هذا .. ثم استدرك مصححا يا سيدى

قلت : سوف يراك باطشا وقويا ومحققا للعدل حتى ولو كان أخرق ولكنه سوف لن يراك في المكان التى تعلم بها .. وسوف يحبك من خفة ظلك التى تبدت وتتبدى دائما في بطشك الرهيب الساحق الماحق حتى وان كنت به تتيح هدوءا داخليا لصلاح الدين ريثما ينتهى من تحرير القدس الشريف وهو يكرهك بقدر ما في صلاح الدين من شرف .. ولسوف

يجعل منك مثلا خيا فى كتبه ومسرحياته وأقلامه ليقول بك لا يقتدى أحـد ٠

الطواشى سمع هاتين الكلمتين سابت ركبه ٠ قال لى :

ـ ما تتفضل سعادتك

شوحت فى وجهه :

ـ ما آتفضلش ٠٠ أتفضل فين ٠٠

ـ سعادة البيه زعلان من حاجة ؟

هكذا قال « الطواشى بهاء الدين قراقوش » فيما يحاذينى بقليل من الرود ، فما أن اقترب منى هذه المسافة البسيطة حتى رأيت « الوحش » الذى بداخله ، وشممت رائحة القوة وشممت أيضا رائحة الشراسة ٠ لكننى تذكرت فى حضرة من أنا وقلت هذا هو منطق التاريخ ، وقبل أن أستغرق فى الفلسفة كشر عن أنيابه واستثمر رائحة الخوف فى وضرب الأرض بقدمه وصرف من تحت ظله من الجند والرتب ٠ والتفت الى ليستكمل الأمر بانهاء اللحظة ، لكنه خفف جفاءه ، بقوله : « أيه بس اللى زعل سعادتك مننا ؟ » قلت له اسمع يا طواشى : أتقدر أن تقول لى من هم الذين يحتلون القصر بعد طرد أهله منه هكذا طرد الهوام والمخلوقات الغريبة ؟ ٠٠ هه ٠٠ أتقدر أن تقول لى ٠٠ « من الذين سيحتلون مكانهم ؟ » هنا فقط ارتعش الطواشى وقال لى بكل بجاحة :

ـ أنهم المسؤولون عن النظام والأمن فى المدينة ٠

قلت وقد انحمقت :

ـ الذين سيسكنون القصر ما أريد وليس الذين أمروا

قال بهزة رأس لطيفة :

ـ أى نعم وهم ما أقصد أنا أيضا .. هم الذين أمروا بأن يسكنوا هم فى القصر بدلا من بقايا روث الرفضة أولاد الذى والتى ..

قلت له :

ـ اسمع يا طواشى .. أنت كذاب !

بهت الذى كفر .. عاجلته بضربة يدى التى حلمت بها .

قلت له :

ـ عدم المؤاخذة يا طواشى .. أنت طردته وتطرد ذرية الفاطميين وأولاد وأولاد العاضد من قصور أبائهم واسكنت مكانهم أبناء عمومتك .

ضحك الطواشى وصفق بكفه على كفى كأننا صديقان من ألف عام ، وحين سحبت كفى الصغيرة من كفه الكبيرة وجدتها ـ كفى المتواضعة ـ قد التصقت بها عدة أشياء أظنها ورقة مالية وقطعة جوهر . فانشدت خيوط الخجل كلها فى جسمى وارتجفت عضلات وجهى وابتسامتى ، وقلت له : « عيب يا طواشى .. تظننى أقبل البرطيل ؟ » هزنى من كتفى بعنف ودود وقال : « لا برطيل ولا زفت .. هى هدية بسيطة خصصت للزوار بوجه عام .. نحن ناس نعمل فى الضوء .. نحن ناس أن قتلنا نقتل فى الضوء .. وان خوزقنا نخوزق فى الضوء ولكن لمصلحة الديار المصرية .. هؤلاء الذين تقول عنهم سيادتك أنهم أبناء عمومتى لم أسكنهم القصر انما احتجزتهم فى الايوان الكبير فقط ريثما تنتهى من بناء القلعة » قلت له وأنا أضع الهدية فى جيبى : « ليكن .. أنا لست أناقشك للحساب لكن دعنى أدخل القصر » .

وسع لى بانحناءة قائلا :

ـ اتفضل سعادتك ، بس أنا معرفش لسه مين سعادتك ؟

قلت له :

ـ أنا عضو بلجنة الجرد في القصر

ووسع لى فدخلت • رأيت الزى الأيوبى منتشرا فى جميع الأرجاء والأنحاء ، يمشى متبخترا ما بين خفير ووزير وأمير وألاديش • كانت الساعة قد وصلت الى ثالث عشر من ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة ، فعرفت أن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب قد تسلم القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس • وعند دخولى حضرت تبليغ أول قائمة من المجرودات يبلغها الجارد لكاتب صلاح الدين ، وكانت كما يلى : أغلق القصر على ثمانية عشر ألف نسمة •• عشرة آلاف شريف وشريفة ، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة ومربية ، ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده •• وكنت قد فهمت عند لقائى بالطواشى أنه فقد تم القبض على الأمير داوود بن العاضد ـ ولى العهد وينعت بالحامد لله ـ والأمير أبو الأمانه جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم وسليمان بن داود وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة من بنى أعمامه •• وعلمت كذلك أنه اعتقلهم بدار الأفضل من حارة برجوان •

كنت أعرف أن أمامى بضع خزائن شهيرة شهرة عالمية وعلى أن أجردها ، خزانة الكتب وخزانة البنود وخزائن السلاح وخزائن الدرق وخزائن السروج وخزائن الفرش وخزانة الكسوات وخزائن الأدم ـ من فضلك ما تسألنيش يعنى أية الأدم ـ وخزائن الشراب وخزانة التوابل وخزائن الخيم ودار التبعية وخزائن دار التكين ودار الفطرة ودار العلم وخزانة الجوهر والطيب • كل خزانة بناء قائم بذاته ، يمضى الخليفة الى موضع من هذه الخزائن وفى كل خزانة دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينقلها طول السنة وله أجر فى كل شهر •

جاءني مندوب يرافقني فى عملية الجرد عرفت أنه برتبة قاض كبير وأنه منوط فى النهاية بالصياغات القانونية لمحاضر الجرد والحكم فى مسيرتها . سلم على وسلمت عليه فى كثير من الجفاء ـ فهو يحس أنني عين عليه من فوق وفى المقابل أحس أنا أنه ضائق بى ليستمر الجفاء متبادلا ـ ثم مضينا الى خزانة الكتب . أدهشني أنها منظمة وأنها تحتوى على عدة رفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل .. وطلبت مائتى ألف كتاب من المجلدات فوجدتها كاملة ، منها الفقه والنحو واللغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء ومنها النواقص التى تمت ، كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة . وذهبنا الى خزانة الطيب والجوهر ، وكان مرافقى يريد أن يتجاوزها توقفت عندها وتسمرت فى الأرض ، فاذا بشخص مهيب يجرى ورائى قائلا :

من فضلك .. صلاح الدين الأيوبى منتظرك فى قاعة الذهب !

التاريخ للبيع في مزاد علني

اذن فصلاح الدين بن يوسف بن أيوب ينتظرني في قاعة الذهب ، كيف ؟ .. ان كون صلاح ينتظرني في أى قاعة أو أى مقهى أمر طبيعي فهو رجل ليس يعاني من أى عقد نفسية ومن ثم لا يشعر بالضعة حين ألطعه على احدى النواصي لبرهة . اسمع ياولد ـ أقول للمندوب : قل لصلاح أنني سأجيء اليه حالا .. اسمع .. قل له يشرب قهوة أو شاى على حسابي .. وأحذر أن يدفع الحساب .. فلما مضى المندوب خافض الرأس علامة الامتثال لقولي احسست بالاشفاق على صلاح وكدت أرتد عائدا اليه لكنني مططت بوزى في اشمئناط وقلت لنفسي جلسنا طول عمرنا ولأجيال بعيدة ننتظر الزعماء في كل مكان ، فلا بأس من أن ينتظرنا الزعماء لبرهة وجيزة . ثم عدت فقلت آه لو أنهم انتظرونا من حين الى حين لبرهة طويلة اذن لتغيرت هذه الأزمان وتغيرت تبعا لذلك الأحوال والبلدان لكن كيف ينتظرني صلاح في قاعة الذهب ؟ أن قاعة الذهب الآن مقلوبة رأسا على عقب لسبب وحيد وهو أن سرير الملك وهو من الأبريز الخالص وفيها الايوان بستائر الذهب وفيها عتبة بصمت على أديمها عشرات الآلاف من الجباه مقبلة راكعة داخلة لمحضر الخليفة الفاطمي . لعب الفأر في عبي وقلت لابد أن ثمة مؤامرة تتم لابعادي عن مكان الجرد ليتم أمر ما من وراء ظهري ..

ارتددت بسرعة وناديت : خذ يا ولد . وكان الولد المندوب لايزال يتلكأ في سيره نحو قاعة الذهب . فلما ناديته التفت الى وفى عينيه نظرة استنكار مكبوتة ترعى فى حديقتها السنة اللهيب ، إقتربت منه فاذا به « قراقوش » بذات نفسه ! قلت لا اله الا الله من أرى بحق الله ؟ قال من بجلسته : أنا المندوب يا سيدى وقد وقفت عندما ناديتنى فماذا وراء النداء هل غيرت رأيك ففضلت مقابلة مولاى صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ؟ . قلت لكنك « قراقوش » ومتنكر فى لباس المندوب ، كخراطيم الاطفاء اندفعت ضحكته تحاول اطفاء اللهب في عينيه فكأنهما عينا شيطان أثيم . وقال بينما يضحك . أنا يا سيدى لا قراقوش ولا ظفر فى قدم قراقوش ولكن اللهم قد بشرتنا بعلو الكعب والمرتبة ، وتفحمت النار فى عينيه وفح منهما خبث رطيب وقال : أظنك فضلت مقابلة مولاى . قلت : لا أنتظر يا شيطان - شيطان هذا كانت فى سرى - اذهب الى مولاك وقل له أن المهمة التى كلفت بها تقتضينى البقاء فيها الآن ، ثم شوحت له بيدى وعـــدت ..

وكنت ساعتها أمر بخزانة الكسوات ، وهى بناء قائم بذاته تنبعث منه رائحة العطور والقماش الجديد والثمين ، تتخلله رائحة عرق طازج : وفود من البشر يروحون ويغدون جول خزانة الكسوة ويدخلون ويخرجون ، كلهم بلباس فاطمى ، فاخر : الثياب الدبيقى والعمائم بالطراز الذهبى ، طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ومن تلك التى تخلع على أكابر الأمراء أطواق وأساور وسيوف محلاة ، بل ثمة من يلبسون عقد جوهر مما كان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق . قلت : لا .. أنا لازلت متنبها وممسكا بالزمن فى قبضتي ، فكيف تتميز هذه البقعة دون أنحاء القصر بكونها كلها فاطمى في فاطمى بينما بقية أنحاء القصر ملابس أيوبية خالصة : ثم قلت لابد أن هؤلاء من الفاطميين ، بحثت عن أحد أمناء الكسوات لأسأله فلم أجد أيا من الأمناء على الاطلاق ، انما رأيت من يلبس ملابس الخليفة مقبلا نحوى ، ما بين الخوف من أن يكون الخليفة بحق

والشعور بالهزء ممن يلبسون غير ملبسه تقدمت نحوه وقلت بلهجة ذات معنى : « لكأنك الخليفة بعينه » • فضحك ضحكة سوقية كجعير ثور وشد يمناى وصفق عليها مثلما يفعل زميلنا فى الشغل محمد بركات ! كدت أقول له : « لست الخليفة اذن » ، لولا أنه صار يفرد ذراعيه ويمد رجليه دائرا حول نفسه ناظرا الى البدلة السلطانى التى يرتديها وكمها المذهب ويضحك فى بلاهة كطفل شـــقى فى ملابس العيد • وقلت له : « أنت أيوبى ولا فاطمى يا أخ ؟ » • فقال أنه أيوبى ، ثم عاد فقال أنه فاطمى الأصل ، ثم قال أخيرا أنه فى الحقيقة لا أيوبى ولا فاطمى بل هو فى الواقع لا يعرف أصله الحقيقى لأنه حين خطفه النخاس لم يكن يعى شيئا وقد باعه واحد لواحد لواحد وها هو ذا الآن فى حوزة واحد لا يدرى من هو على وجه التحديد ولكن صاحبه الذى يأمره يتلقى الأمر بدوره من واحد يتلقى هو الآخر الأمر من واحد ، وقد جىء به ــ يقول ــ ليجمع ما فى هذه الخزانة من كسوات ليتم جردها بالدفتر والقلم • قلت له : « وطبعا كل واحد منكم خيط له بدلة ولا اثنين على الدواق » •• فنظر لى فى استنكار وحشى وقال : « لا هذه التى نرتديها كانت الخلع التى ألقى بها من النافذة ــ أقصد التى كان المفروض أن يلقى بها من النافذة بعد أن هجرها الخليفة أو أهل قصوره ! » • قلت : « وفين بقى العهدة ؟ » • فأندهش • فصحت فيه قائلا : « عاوز أشـــوف كل حاجة على دابر خيط » • التم على صوتى ناس كثيرون ، وجاء واحد وان كان فاطمى الملبس هو الآخر الا أنه قدم لى نفسه بأنه أمين الدفتر الذى يقوم الآن بأحصاء ما فى الخزانة ، ثم أشار لى قائلا : « اتفضل » ••

فمضيت أمامه كالذهل ، فاصطدمت « بابن الطوير » المؤرخ خارجا حيانى من بعيد فهو يكش منى دائما كلما لقينى ، وأتجاهله كلما رأيته ، ذلك أن أحدا لم يعرفنا ببعضنا فصعب على منا أن يقدم نفسه للآخر • اندهش لرؤيتى أرتاد مكانا كهذا • اغتظت بل تجاهلته الى حد الاهانة بل أشرت له بطرف اصبعى وقلت : « لو سمحت والنبى » • فجاء الرجل بكل رصانة وأدب فقلت بكل قلة أدب : « حضرتك بتشـــتغل فى خزائن

الكسوات ؟ » . فاذا به يقول : « وهل مثلى ينفع ؟ أن الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات ! » .. كلمت نفسى وقلت له : « أظن أحنا نعرف بعض » . فهز رأسه وقال فى اقتضاب : « أى نعم .. آنت أبو شلبى على سن ورمح » . قلت له : « بشرف أبيك الطوير هلا حدثتنى عن هذه الخزانة ؟ » . قال : « هما خزانتان ، الظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة أما أستاذ أو غيره .. وفيها من الحواصل ما يدل على اسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس والشروب والخاص الديبقى الملونة رجالية ونسسائية والديباج الملونة والسقلاطون .. واليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بمدن تنيس ودمياط والاسكندرية من خاص المستعمل ... وبها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين ولأصحابه مكان لخياطتهم .. والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة اليه .. ثم ينقل الى الخزانة الثانية أى خزانة الكسوة الباطنية كل ما هو خاص للباس الخليفة » . قلت له شكرا شكرا يا ابن الطوير شكرا ، ومضيت أتعثر نحو الداخل . خطوة أو خطوتين واذا بصراخ يهب فزعا فيسمرنى فى مكانى ، ثم اذا بى أمام سيدة تجاور فى خلقها الجمال مع الرزانة والجرأة مع الحياء ، وحين تمعنت فيها كانت تضع يدها على صدرها وتشهق ، وثلاثون سيدة أكثر منها جمالا وفتنة يقبلن وينظرن الى فى دهشة بالغة . نظرت للسيدة الكبيرة وقلت : « متأسف يا مدام » . فضربت صدرها بيدها ثانية وقالت : « مدام ؟ .. أنا زين الخزان أبدا » .. قلت لها : « ومن أنت يا زين الخزان أبدا ؟ ؟ . قالت : « أنا زين الخزان وبين يدى هاتيك الجوارى .. مهمتى هنا معروفة فكيف تقتحمنا وتدعى أنك لا تعرف ؟! قلت : « والله وحق الله يا زين الخزان ما أعرف شيئا البتة » . قالت : « الخليفة لا يغير ثيابه الا عندى ، ولا يلبس الا من هذه الخزانة » . أصابنى الذهول ، صرت أنظر حولى وعيناى من خـلال النوافذ الكبيرة تعانقان بستانا كبيرا يطل على شاطىء الخليج . قالت زين الخزان أن هذا البستان برسم هذه الخزانة . قلت ما معنى هذا يا زين الخزان ؟ . قالت يعنى خصص هذا البستان

لانتاج النسرين والياسمين ، فيحمل كل يوم منه شيء فى الصيف والشتاء لا ينقطع البتة يرسم الثياب والصناديق ٠

صرت أتأسف لزين الخزان وأبالغ فى الوقوف والتلكؤ والنظر الى الجوارى خلسة مع الادعاء بأننى مؤدب ، وقلت لنفسى أن « ابن الطوير » ضربنى هذا المقلب الخبيث ، حيث تركنى أدب فى الأماكن المحرمة لأتلقى شر أعمالى ٠ وخرجت قبل أن يجيء موعد تغييرلبس الخليفة ٠ جهدت كثيرا حتى استطعت العودة الى أمين الدفتر الذى دعانى للتفضل ، شد لى كرسيا يصلح للفرجة لكننى تجاهلته بالجلوس عليه سريعا ٠ قلت لأمين الدفتر : « ازاى يا راجل تلبس ملابس مش بتاعتك مع أنك حتجردها من ضمن الأمانة ؟ » ٠ قال أمين الدفتر : « ربما كان السلطان نفسه مجرد شخص يلبس لباس السـلطان ٠٠ وكم من سلاطين حقيقيين فى غير لباس السلطان ؟ » قلت له : « غلبتنى ياولد ٠٠ أرنى دفاترك » ٠ فابتسم فى تهكم وقال : « لا دفاتر ولا يحزنون مولانا بهاء الدين قراقوش كشف حاصل الخزائن ٠٠ وعن خزائن الكسوات بلغت حصيلتها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع وعقود ثمينة ٠ ثم قدم لى كوبا من الفضة كبير وملىء بشراب ، ذقته فوجدته ليمونا عظيما ، كدت أدلقه فى جوفى دفعة واحدة لولا خوفى من الكسوف ، وحسنا ما فعلت لأن أمين الدفتر كان قد أحضر لفة كبيرة وضعها بجوارى ، بطرف عينى تفحصتها فاذا بها « بقجة » ملابس ، همس فى اذنى : « هدية بسيطة للذكرى تحطها فى متحف سعادتك الخاص » ٠ ثم صاح : « وصل البيه يا ولد » ٠ فقمت غاضبا وقلت : « لا ٠٠ أنا لا أقبل هدايا ٠٠ ولكن اذا كانت الهدية قيمة وثمينة فلا بأس عندى من قبولها بشرط أن أدفع ثمنها ! » ٠

قال أمين الدفتر من خلال ضحكة شاحبة : « الانسان لا يدفع ثمن الشيء مرتين ٠٠ لقد دفع كل المسلمين فى مصر ثمن هذه الرفاهية غاليا » ٠٠ فخيل الى أنه صادق ، ولهذا قبلت الهدية راضيا وقلت أننى سوف

أمر على « صلاح » فى مكتبه لأسلم عليه وأنصرف ، ومضيت وفى أثرى ولد يحمل بقجة ملابس فاخرة من أجلى ٠

حرفوش مصرى يجرى ورائى لا يأنف من حمل البقجة على رأسه كالسيدات ، ثم ينقلها من يد الى يد ويحاول ملاحقتى وارسال البسمة تمهيدا لقول شىء أحسست أنه يريد أن يخدمنى به ، فتوقفت وأشرت اليه ووضعت راحة يدى على كتفه فى أخوة قائلا : « عايز تقول حاجة ؟ » ٠ فأشار الى مبنى مجاور كدت ـ من طهمتى ـ أتجاوزه ، وقال أننى يجب أن أمر على هذه الخزانة بشكل خاص فربما يكرمنى الله و ٠٠ « أروح متعشى » ٠ أجبته رغم لذعة النصيحة وقلت : « خزانة ماذا هذه ؟ » ٠ فقال أنها خزانة الجوهر والطيب والطرائف فشكرت الولد الحرفوش من الأعماق وقلت له انتظرنى ها هنا برهة ، ثم دخلت ، اطربنى وقع خواتى فوق الرخام وأصداء فى الحجرات المتقابلة على الجانبين وسط هدوء شامل ، وكان ضوء النهار الملون ينبعث من حجرة قريبة وثمة خيال لانسان يروح ويجىء فى دبلسة ، أكاد ألقى السلام على وجوه حية نابضة منفعلة فما أن أقترب منها حتى أكتشف أنها وجوه من ذهب ورخام وابريز وكافور وصندل ، وأناث ورجال ووحوش فى كافة الأشكال والألوان ينبعث منها عطر أرستقراطى حريف ٠ وفى الجنب ـ فوق كرسى عباسى مطرز برسوم فاطمية ـ يتربع بستان أرضه فضة مخرقة ذهبا طينه ند وأشجاره فضة مذهبة مصوغة ، قلت فى عقل بالى ترى ما وزنه ؟ فاذا بالحرفوش المصرى الواقف على مقربة مبعدة فى نفس الآن يقول : « زنته ثلثمائة وستة أرطال » ٠٠ قلت يا خلق الله ٠ قال وهذه بطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال ، ثم أردف الحرفوش المصرى : « لامؤاخذه كده خليك ابن بلد يعنى ٠٠ هه ٠٠ اتلحلح يعنى ٠٠ يا كده ٠٠ ياما تاخدش حاجة ٠٠ مش أنت من غير مؤاخذه مصراوى ؟ ٠٠ يعنى مالكش حاجة ٠٠ يعنى تخدم وبس ٠٠ مع آنك أنت اللى بتدى ٠٠ فعشان تآخذ ٠٠ « وغمز بعينه وشفتيه » ـ لازم تبقى ولد ملحلح مفتح ٠٠ البيه والتيه والمأمون وحاضر على عينى وأنا بتاعكم ٠٠٠آه ٠٠ هو ده من غير مؤاخذة اسمه الجرد

الحقيقى ·· انما حتخش دخلة جرد ·· يعنى هات الدفاتر والكلام ده ·· اللهم أنك حترجع من الرحلة خسران ·· حتجيلك الدفاتر مظبوطة أربعة وثمانين قيراط ·· وبس خد لك صابونة يا ابن شلبى ·· أنا مستنيك وعلى مهلك وخد راحتك ·

ثم خرج ،تقدمت نحو الحجرة المفتوحة وانعوجت برشاقة لأواجه بابها، فاذا بها منسرجة الى بعيد جدا ، الى حيث ينطبق حد ماء النيل على صفحة الستارة المخملية ، حتى لتحار فيما اذا كان هذا هو ماء النيل نفسه أم بحيرة خاصة ، أم هو تمثال للنيل من المرمر والياقوت والدر ، ان صفحة مائه المرصعة من بعيد تنعكس على كل شيء ها هنا · تماثيل وتحف تفوق الحصر فى الكثرة ، حتى الرجل الرفيع المهيب المرتدى حلة فاطمية مذهبة حين تقدم نحوى فى ترحيب لم أتحقق بالضبط ان كان آدميا من لحم ودم مثلنا أم هو من بين التماثيل الذهبية المرمرية الياقوتية الدرية الزمردية ، لكننى حين وضعت يدى الصغيرة فى يده الأصغر لم أشعر لها بأى نبض حقيقى حتى أنها انسلتت من يدى كقطعة بللور ·· قدم لى كرسيا فرحت أتفرج عليه فى انبهار وأهز رأسى فى دهشة وألوى شفتى وملامح وجهى من عجب ، وأقول يا سلام عشرين مرة ويا الهى ألف مرة وغير معقول مليون مرة ، حتى اغتاظ الرجل المهيب ونظر لى قائلا فى أدب شديد : « قدمت الكرسى لك لتجلس عليه لا لتخلق منه أعجوبة » · فأخذت أنظر اليه والى الكرسى فى تردد وخوف لكننى فى النهاية جلست على حرفه فى انكماش ، فى حين جلس هو أمامى منتفخ الأوداج واضعا رجلا على رجل ، ثم قدم لى كأسا من البللور الساذج ينضح بعرق البرتقال ما أن وضعته على شفتى حتى أعدته فارغا وقد تعطر فمى وأنفى وجسدى كله بروائح بعثت فى النشوة ، وكان هو بالكاد يضع كوبه على فمه حين فاجأته بطرقعة كوبى على الصينية الذهب المطروحة على حوامل من صندل وكافور ، فقدم لى كأسه مع ابتسامة مبكتة تجاهلتها وطوحت بالكوب الى جوفى المشتعل بحرارة الزمن العتيق ، فانجعص هو قائلا : « هيه » ·

انجعصت بدوری قائلا « هيه » . قال وهو يمضغ شيئا مجهولا لم أره يضعه في فمه : « يبدو أن الطريق كان طويلا عليك .. ولكن أنا قلت لفخر الدين أن المسألة ليست ملحة الى هذا الحد » . قلت دون أن أعرف أي شيء : « أي نعم هي ليست ملحة الى هذا الحد ولكن » .. « ثم صمت . فقال : ما اسم الكريم ؟ » قلت : « ابن شلبي الحنبلي المصرى الطرشجي الحلوجي » . ضحك في رزانة وقال في أدب : « كيف اذن يجتمع العلم بالجوهر والتبحر في الطرشي ؟ » . قلت : « عافاك الله أنني اعجوبة من أعاجيب الزمن في رأيك ولكنني اذا ما وضعت رأسي في المشكل ـ فبعون الله وبالصلاة على حضرة النبي ـ افلقه نصفين .. أي انني أجيء بداغة . قال الرجل المهيب : « ما معنى تجيء بداغة ؟ » . قلت : « أي أنني أصفيه » . قال : « ما معنى تصفيه ؟ » . قلت : « أي أجعله مفهوما واضحا للعيان » . قال : « ولماذا لم تقل هذا من الأول » . قلت : « ولكن العربية أمدها الله بطول العمر وأغناها تجعل من الألفاظ اقواما وقبائل وانماط حياة وتخلق تبعا لذلك من الاحساس أحاسيس ومن الألم آلام ومن الثراء جياع ومن النمور فرائس » . قال الرجل المهيب وهو يضحك في لهجة تقدير : « المهم عندى أن تكن خبيرا بالجواهر حقا كما أنبأني فخر الدين » . قلت : « أنا خبير بالجواهر طبعا رغم أنني لا أعرف من هو فخر الدين » . قال « اذن فبالضرورة لا تعرفني » .. قلت والله ما حصل لي الشرف بعد فمن الذي اتشرف بحضرته ؟ . قال : « أنا أبو سعيد النهاوندی كبير أبناء القصر وكنت قد طلبت من صديقي فخر الدين أن يرسل لي من طرابلس أو من المغرب أو من الفرنجة أو الأسبان خبيرا بالجواهر فلما دخلت على ظننته أنت » .

انجعصت في جلستي وقلت : « نعم أنا هو ـ اقصد هو أنا الخبير الذي تريده وقد ساقتني عناية السماء اليك من حيث لا تدرى ولا أدرى فماذا وراءك يا أبا النهاوندی ان كان مالا فرقبتي سدادة وان كان فعلا ف .. قاطعني الرجل المهيب قائلا : « ماذا تعني بكون رقبتك سدادة ؟ » . خفت

أن ينهرني على هذه الشهامة فقلت يعني سدادة زجاجة ، ووضحت قولي بأن المشكلة دائما في نظري تشبه زجاجة السبرتو ما لم أسدها برقبتي تبخرت وصارت عدما ! •• ووضح أن الرجل اقتنع بشخصيتي أيما اقتناع وملأت أنا دماغه ، اذ اعتدل قائلا : « مادمت يا ابن شلبي خبيرا بالجواهر فانني يجب أن أحدثك في الأمر » • اعتدلت بدوري وأشعلت سيجارة خاف منها وانتفض ، وقلت له : « أي نعم يجب أن نحكي في جلية الأمر ولا تخبيء شيئا أي شيء » • قال : « أصل الحكاية يا ابن شلبي يا خوية أن فيه شدة جامدة شوية تمر بالديار ويعاني منها القصر نفسه » • قلت : « وما له يا خويه يتحصل في أحسن العائلات » • قال : « المهم أننا أتينا بكبار تجار الجواهر في الدياز المصرية وعرضنا عليهم بعض ما في الخزانة للبيع •• فقالوا لنا : كم قيمة هذا ؟ •• قلنا لهم : حددوا أنتم تجارا كبارا ؟ فقالوا : « انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجودا ومثل هذا غير موجود وليس له مثل ؟ •• فان كان لديك المثل ياابن شلبي تكون اذن خبيرا حقا » • قلت : « اتكل على الله » • قال : « ماذا » ؟ قلت : « وريني اللي معاك » • قال : « ليس معي شيء » قلت : « أقصد ما في حوزتك » • فنهض واقفا وتقدمني فاقتديت به ، تخطينا ممرا في نفس الغرفة أوصلنا الى دهليز كبير ممتليء بصناديق الخشب ، قلت ما هذا ؟ قال : « هي على مثـال كيزان الفقـاع من صـافي البللور المنقوش والمجرود • فقلت : غيره • فوقف بنا عند مقصورة مليئة بصواني الذهب المجزأة بالمينا المنقوشة بسائر أنواع النقوش • قلت : « وما هذه الآلاف من الصناديق ؟ » قال هي مملوءة كلها بسكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر •• أما هذه الصناديق فمملوءة من أنواع الدوى المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس الزنجي والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة •• وهذه صناديق مملوءة مشارب ذهبية وفضة مخرقة بالسواد صغار وكبار • ثم فتح بابا فدخلناه فأشار الى كتل من الربط قائلا هذه مخلفات رشيدة ابنة المعز : ثلاثون ثوب خز مقطـوع واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت الوانا ، ومائة قاطر ميز مملوءة كافورا

قبصوريا ٠٠ كل ذلك قدره المرجفون بألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار • ثم خطونا الى حجرة أخرى قال أنها خزائن السيدة عبلة بنت المعز أيضا وأنها حافلة ويكفى أن بها أربعمائة قمطرة وألف وثلاثمائة قطعة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم ، وأربعمــائة سيف محلى بالذهب وثلاثون ألف شقة صقلية وزمرد كيلة أردب واحد • ثم خطونا الى ممر آخر طويل به حصير من الذهب وقال الرجل ان وزنها ثمانية عشر رطلا • وأنها الحصير التى جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون • ورأيت بجوار الحصير ثمان وعشرين صينية ميتا بحرى بالذهب بكعوزنبه ورأيت صناديق مملوءة مرائى حديد من صينى ومن زجاج المينا لا يحصى ما فيها كثرة جميعها محلى بالذهب المشبك والفضة ومنها المكلل بالجوهر • أما المظال وقبضها الفضة والذهب فرأيت منها الشىء الكثير ٠٠ ورأيت الشطرنج والزر المعمولة من سائر الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير والذهب مالا يحد من كثرة ونفاسه • ثم أننا خطونا الى خزانة الطرائف فرأيت ستة وثلاثين ألف قطعة من محكم وبلور ، ومن تماثيــــل العنبر اثنتان وعشرون ألف قطعة ومن تماثيل الخليفة ما لا يعد •

ثم أننا توقفنا من فرط التعب فأشعلت سيجارة وعزمت على الرجل بواحدة فأمتنع باشمئناط • فأسندت كتفى على مظلة من الذهب وقلت : « عايز تبيع ده بكام ؟ » • فلم يلتفت الى ، انما كان منشغلا بالنظر من نافذة مستديرة وممتدة فى الحائط كالأسطوانة ، فنظرت منها ، فرأيت الزعر والحرافيش فى الشارع البعيد يدفعون أجسادهم المنهكة ويتثاءبون فى ملل ويصيح بعضهم فجأة : يا غنى ، والباعة الجائلين يبتعدون عن حائط القصر فى حذر وهم ينادون بصوت هده الجوع والتعب ، وكانت أعجب نداءات باعة سمعتها فى حياتى ، كان ثمة من ينادى قائلا : « بخمسة وسبعين دينار الكلب الحى ٠٠ بخمسين الكلب الميت » ! ٠٠

التفت الى الرجل المهيب قائلا : « أما الكلب الحى فأمره مفهوم ،

ولكن لماذا الكلب يباع وهو ميت ؟ « ٠٠ فانتفض الرجل المهيب وضغط بيديه على اذنيه قائلا : « أرجوك تسكت ٠٠ لا شأن لك بما يدور فى الشارع » ٠

قلت : « ما يدور فى الشارع جزء لا يتجزأ مما يدور هنا » ٠ قال بغطرسة : « لا ٠ ٠هم دهماء » ٠ قلت : « وانتم ملوك وأباطرة » ٠ قال فى ألم حقيقى : « وقد نتساوى فى أكل الجيف » ٠ قلت : « اذن فأعلم يا سيدى أننى وقد رأيت جواهرك وتحفك الثمينة وأعملت فيها خبرتى أقول أنها بلا قيمة على الاطلاق » ٠ هب فى قائلا : « كيف ٠٠ على أى مثل قست تقيمك » ؟ أشرت من النافذة الى من يسيرون فى الشارع وقلت : « هذا هو المثل » ٠ قال : « هم معدمون وليس بداخلهم أى قيمة » ٠ قلت : « لقد ربيتموهم على عدم الاكتناز واكتنزتم ٠٠ فامتلأت خزائنكم بأطنان المعادن وأملأت صدورهم بالقيم النفيسة » ٠ قال مكشرا عن أنيابه : « هذا تدخل فى أرزاق الخلق ٠٠ هذا الحاد » ٠ قلت : « بعد اذنك » وظللت ادخل فى طرقات تقودنى الى مقاصير تفضى الى ممرات حتى خرجت الى الطرقة الأصلية والرجل خلفى وكنت أسمع ضجة هائلة فوق رأسى فألتفت الى الرجل قائلا : « اذا ماكانش عاجبك فصالى ٠٠ فوق منك بالضبط بحوالى ألف عام أو أزيد أو أقل يوجد حى بكامله اسمه حى الصاغة فابعث فى طلب أحدهم » ٠ وخرجت فاذا بى فى فراغ تحوطه المبانى والحدائق فى اطار واحد وفجأة توقفت اتبين أين أنا من قاعة الذهب التى قيل ان صلاح الدين الأيوبى ينتظرنى فيها وأين الولد الذى كان يوصلنى بالهدية ، صرت اتلفت حائرا و ٠٠ ذب ٠٠ آه ٠٠ دماغى مش تحاسب يابنى آدم ٠٠ انتبهت مذعورا أمسك برأسى من الدوار وأمامى رجل يمسك دماغه هو الآخر ٠ وحولى وخلفى عشرات الآلاف من البشر والدكاكين المتجاورة ٠ دعكت عينى ٠ فاذا بى اسير فى شارع الموسكى ! ٠٠

صرت أمشى فى قرف أدفع الزحام والعرق وامارس الغيظ ، المزابل نفسها قد استوءجرت ودفعت فيها « الباكوات » وتحولت الى معارض

لمنتجات أمريكا واليابان والفرنجة ، حتى منتجات أولاد شلبي المساكين وهم أهل البلد يعرضونها أيضا ولكن بعد أن يضعوا عليها شارة فرنجية . وكانت ثمة لافتات فى بعض الواجهات تشير الى ثمة احتفالا سوف يقيمه لا أدرى من بمناسبة مرور ـ أقصد بداية العام الربعمائة بعد الألف من تاريخ الهجرة . قلت لنفسى : « احتفال كيف .. هل يكون فيه رقص وغناء وسمر ؟ » . ردّ واحد يبدو أنه قرأ اللافتة معى وقرأ معها أفكارى : « أهم شيء أن يكون فى الحفل عشاء ولو ربع فاخر » .

قلت : « تقصد ربع فرخة ؟ » . قال : « حد طايل » .. ثم أنه ابتسم لى بود كأنه أدلى بشهادة لصالحى ثم غاب فى الزحام ، ولكنه سرعان ما ارتد عائدا نحوى فتفرست فيه فخيل الى أنه ذلك الحرفوش الأزعر الذى كان يسير ورائى حاملا بقجة الثياب فى الزمن القديم لولا اختلاف الملبس . قال فى تردد : « البيه بيدور على حاجة ؟ » . قلت : « نعم » . ثم عدت فقلت : « لا » . ثم أردفت قائلا : « بتسأل ليه ؟ ؟ . قال « أحب اخدم .. معاك أجنبى ؟ » . قلت : « ما معنى أجنبى ؟ » . قال : « عملة صعبة يعنى .. دولار .. اديك سعر كويس » . وبلا مناسبة وضع يده على جيب سرواله وحرك رزمة من العشرات الحمراء ذوات المآذن ثم أخرجها فسواها واعادها الى السروال .

دلقته جانبا وانصرفت فى اتجاه الحمزاوى ثم الى الغورية ثم شرعت أصعد سلم الكوبرى الذى أقامته القوات المسلحة لعبور المشاة من الغورية الى شارع المعز وبالعكس ـ كنت متعبا ، فأخذت أصعد السلم بهدوء وألعن أولئك الذين يصرون على التسلل من خلل المتاريس وأصب جام غضبى على العساكر الذين يتناحرون معهم طويلا وفى النهاية يسمحون لهم بالتسلل . ثم اذا بصوت غليظ وخطير يصيح بى :

ـ عندك .. خطوة واحدة حاضرب فى المليان .

رفعت بصرى فوجدتنى أصعد سلم بوابة عظيمة عالية ، ونظرت الى نفسى من بعيد فوجدت البوابة كأنها فك تنين خرافى وكأننى نملة تسعى بين أسنانه ، وفى مواجهتى حارس ممسك بسيف .

الهجرة للعمل فى أزمنة بعيدة

استوقفنى الحارس الفارسى بطرف سيفه كأنه يهشنى ٠٠ وقفت ناظرا اليه فى عجرفة ، هز رأسه مستفهما فى استنكار ، مددت حقيبتى السمسونيت فى دائرة ابصاره ، فسرها باتع فى نظرى ، وكم لها من فضائل فى حياتى ، يكفى أنها كانت ترغم سائق التاكسى على الوقوف اذا ما أشرت له بها ، ويكفى أنها كانت تجعل أى بائع أو أى سمسار يعاملنى باحترام اذا ما فتحتها واغلقتها بكل رشاقة دونما حاجة لذلك . الا أن الحارس الفارسى لم يلتفت الى حقيبتى بل عاملها بكل احتقار واستخفاف ، فاندهشت من أن تفقد الصناعة الأمريكية سحرها الباتع ، وقلت فى نفس أن هذه لقطة مثيرة يجب أن انبه اليها صحف المعارضة العربية لكى تكتب عنها ضمن ما « تأخذه » على فسولة الصناعة الأمريكية . وقلت للحارس الفارسى : « يعنى مبسوط حضرتك ٠٠ ها أنت ذا ستتسبب فى خراب بيت أمريكا » ٠ واستطردت قائلا بكل صلف : « وسع وسع » وهممت بتخطى حد السيف الممدود ، قال : «ماذا تريد من قاعة الذهب؟»٠ قلت أن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ينتظرنى فيها فهى التى تريد منى ولست أنا الذى أريد منها » فقال لى : « أيوب ماذا ٠٠ لقد انتهى صبر أيوب بموته وحفظه فى دفتر النبوة » ٠ قلت باسما : « لا لا ٠٠ ليس كل أيوب نبيا ٠٠ ليس كل الصابرين بأيوب » ٠ فأضاف قائلا : « ولكن كل أيوب مصرى » ٠ قلت : « اذن فأنت تعرف سر البلاد » ٠ قال : « الى حد ما » ــ واستشعرت بعض الخجل فى صوته ، فقلت بجرأة :

« ليست فضيلة الصبر وحدها ما يميز المصرى ٠٠ أنه ليس الصبر على احتمال البلاء بل هو الصبر على مداومة العلاج ٠٠ غير أن دود الجروح المتجددة على الدوام أكثر صبرا من المصرى ، فهى تحتمل علاجه بصبر عبقرى وتقاومه حتى لتفقده العقل » ٠

هز رأسه موافقا فى بلادة ، ثم عوج ذقنه وعد لها عدة مرات تأهبا للتجشؤ ، فلما تجشأ وجدتنى فى مهب ريح القت بى الى بعيد ، لويت ملامحى اشمئزازا وقرفا مع أننى شممت رائحة خروف مشوى وكدت أراه بكامل هيأته تحت كرش الحارس الفارسى ، شوحت له بيدى قائلا : « ابتعد إيتها الدودة القذرة » ٠ ضرب سيفه فى الهواء فنترت نفسى الى أعلى كالبهلوان ، قال : « تلقينى بالدودة يا حشرة ؟ » قلت : « لقد زعمت أنك تعرف سر بلاء المصرى اذن فتعلم أنك من بين دود الجروح ٠٠ ! ٠ أن صفحة جسد التاريخ مليئة بالدمامل والخراريج المزمنة ، كل دودة تغزوه تترك فيه قرحة هائلة ٠٠ لولا ميـــاه النيل ما تطهرت جروحات هذا الجسد » ٠ فصار يلعننى بأقبح الألفاظ من قبيل أننى حشرة ودهماء وجاهل وعبد هارب من النخاس الى آخر هذه الافتراءات الملوكية ، وكنت أسمعها وأجر « ناعم » قائلا بين كل تمتمة وأخرى شأن أى مصرى : « الله يسامحك يا عم ٠٠ كثر خيرك ٠٠ أنت برضة زى أخويا الصغير » ٠ فلما وجدته يزداد تهيجا وعنفا عالجت خوفى قائلا : « على كل حال ماعبتش فيك » ٠ بصراحة هدأ وحضر خاله الطيب فأكتفى بذلك واستدار ينادى على أحد من الداخل مهملا أياى ، فانتهزت الفرصة وصفعته بالقلم على قفاه فى سرعة شديدة واندفعت أجرى تاركا أياه يتخبط فى ذهوله ٠

صرت أجرى كالأعمى و « اتكعبل » فى شجيرات واصطدم بأعمدة من الذهب وأقفز حاجزا من البلاتين والمرمر ، وكانت كل الأبواب التى مررت بها مغلقة فيما عدا الشبابيك والشرفات العالية ، فلما أحسست أننى ابتعدت وأن لا أحد يجرى ورائى صعدت درجات صادفتها فى طريقى ، أفضت بى الى ممر طويل أرضه من رخام وله صور من الذهب ممتد بأعمدة

مخروطية وأفرع الورد البلدى تتبسلل بينها لتستريح الورود وتتضاعف فى صفحة الأفريز ٠ وكانت خطواتى قد انتظمت وحدها فى خطو ملوكى أنعشته الورود والأبهة ، وصوت وقعها يتضاعف هو الآخر فى الابهاء الكثيرة المجاورة النابعة من الممر الطويل ٠ جلست فوق طابية قريبة فوقع بصرى على حجرة كبيرة مربعة وحافلة بالدواليب الفضية الحافلة بدورها بأوان غريبة الشكل والأحجام ، فجأة انفتح باب لم أكن أظنه بابا ٠ وخرج منه عبد أسود يرتدى حلة بيضاء محلاة بالأشرطة والزخارف ويضع على رأسه عمامة فاطمية ٠ ارتعدت واقفا وهو يقترب منى ، فاذا به يتوقف على مبعدة ويصيح فى « تبدأ اللعب من الآن أيها الجرذ القبيح ؟ ٠٠ هل بعثوك لتجلس هكذا ؟ ٠٠ لقد طلبنا منهم أن يرسلوا لنا صبيانا تعالج العمل فى أعداد السماط لا لتجلس هكذا » ٠ قلت : « سماط ؟ » قال مشوحا نحو الباب الذى خرج منه : « أمشى أيها العبد القبيح وضع نفسك تحت أمر صاحب السماط » ٠ قلت : « حاضر يا سيدى » ٠ ثم اندفعت أهرول نحو الباب ودخلته مسرعا ، فوجدتنى بين عدة أبواب متجاورة متقابلة تحرجت من اقتحام أى منها فظللت أسير فى ممر جديد مفروش بالسجاد وقصارى الزرع المصنوعة من الذهب والفضة على جانبيه ، أغرانى السير فقادنى هذا الممر الى باحة مهيبة طويلة وقد ارتفع فيها مستوى كل شىء ارتفاعا هائلا ، سجاد تغوص فيه القدم فيدفعها الى أعلى برفق ٠ وشباك كأنه شاشة السينما ، وسرير من الذهب الخالص ممتد أمامه ، مشيت بجوار الحائط المزخرف بالرسوم الذى لم أعرف ان كان من الخشب أم من المسلح ، لكن ستائر الديباج كانت تنثال على الحوائط فى عظمة مهيبة ، والبساط مطابق للستائر ، ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل ، على السرير مرتبة مؤهلة للجلوس فى هيئة جليلة ، وكنت قمينا بأن أظل أسير فى هذه القاعة الهائلة الى نهايتها لولا اننى لمحت على مرمى البصر عدة بوابات تنسلخ من بعضها وفى نهايتها يقف الحارس الفارسى وكان لايزال يتحسس قفاه بكفه وينفخ فى غيظ ، حينئذ ارتددت عائدا من حيث جئت ، صحوت على يد تذكرنى برفق فارتعدت ناظرا اليها فاذا

بمجموعة من السودان البكوات ذوى الحلل الجميلة يقبلون حاملين شيئا كبيرا تبينت أنه مائدة من الفضة ، قال الذى لكزنى : « تحرك يا حيوان ·· من اين يجىء بكم النخاس » · فعلق واحد منهم قائلا : « أنهم ـ وأشار الى ـ مثل البخت ·· قد يطلع لك ابن ملوك وقد يطلع ابن سفلة » · فضحكوا بعنف ولكن دون صوت ، وعلق ثالث : « النخاسون أنواع ·· هناك من يتخصص فى خطف أولاد الأمراء والناس وله عصابات فى كل مكان تعمل لحسابه ··· وهناك من يتصعلك فى الحوارى ليغزى الأولاد بالحلواء ·· فأى نخاس باعك يا ولد ؟ » · قلت : « تقصد أى نخاس اشترانى ؟ » · قال : « عبد لمض ·· ليكن ·· اذن فهل باعك النخاس أم اشتراك ؟ » · قلت : « النتيجة واحدة ·· والنخاس واحد ·· فطالما أن هناك نخاسا يبيعنى فلابد أن يكون ثمة نخاس يشترينى » · تبادلوا نظرات هلعة ينبعث منها البؤس والفكاهة ، وقال الذى كان قد لكزنى : « لولا أن الذين يجيئون ها هنا يهدون الى الخليفة لكانت تهمتك الآن عظيمة أيها الولد القذر طويل اللسان ·· هيا ·· ارم هذا الصندوق الذى بيدك وساعد بشىء ·· ما الذى فى هذا الصندوق ؟ ·· قلت : « بل هو حقيبة وفيها مسوغات وأمور تخصنى » · أمر فانتزعت منى الحقيبة برفق ، وأمر فدخلت فى زمرة العاملين · لكن كل شىء كان ـ تقريبا ـ قد اعد : نصبت المائدة الفضية المدورة قدام باب المجلس ·· أقصد السرير ·· وصرت أروح وأجىء معهم من المطبخ الى الرواق حتى وضعنا على المائدة ما يزيد على خمسمائة صحن ، كلها من الفضة أو الذهب أو الصينى ، نحوى فائح الطيب وفاتح الشهية ، خضروات ، دجاج فائق مسمن معمول بالأمزجة الطيبة النافعة ·

ثم أننا رحنا ننصب السماط أمام السرير الى باب المجلس قبالته بطول القاعة ما يشبه الدكك الخشبية يصير من جمعه للأوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول وبعرض عشرة أذرع ، فرشنا فوق ذلك الأزهار ، ورصعنا السميط ـ أقصد السميذ بتعبيرهم ـ على حافتيه ، كل سميطة تزن ثلاثة

أرطال من نقي الدقيق مدهون وجهها بالماء عند نضجها ليحصل لها هذا البريق وهذا الحسن في المنظر . أما داخل السماط على طوله فقد حشدناه بواحد وعشرين طبقا في كل طبق واحد وعشرون ثنيا سمينا مشويا وفي كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلاثمائة وخمسون طائرا فصار كقامة الرجل الطويل ، وسورناه بشرائح الحلواء اليابسة وزيناه بألوانها المصبغة ، وسددنا خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التي في كل واحد منها سبع دجاجات وهي مترعة بالألوان الفائقة من الحلواء المائعة والطيب غالب على ذلك كله . نظر أحدهم في تحفة فنية من الخشب الأبنوس المحلى بالذهب موضوعة على رف من المرمر وقال : لم يبق الا القليل ويعود الخليفة من المصلى والوزير معه » . ونظرت أنا في ساعتي الخاصة فوجدتني في رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة أي السنة الخامسة عشرة من ولاية العزيز بالله نزار على مصر ، وهو ابن المعز لدين الله معد ، وقد استشعرت من روح المرح المنتشرة في القصر أنه قد تم للعزيز فتح حمص وحماة وحلب وأن صاحب الموصل قد خطب له كما خطب له باليمن وضرب اسمه على السكة ــ أي النقود ــ والبنود .

دخل الخليفة العزيز نزار . كان أسمر أصهب الشعر أعين أشهل العين بعيد ما بين المنكبين . وكان الوزير قد سبقه الى باب الدخول وأخذ يتلقاه وينزع عنه ثياب العيد التي في عمامتها السمة ويلبسه سواها اعدت خصيصا لذلك ، ثم أن الخليفة تقدم ونزل على السرير أمام المدورة . وقام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحتكين وأربعة من خواص الفراشين . ثم طلب الوزير فطلع اليه وجلس عن يمينه ، واستدعى الأمراء المطوقين ومن يليهم من الأمراء دونهم فجلسوا على السماط . ثم جاء الذي قد لكزني وأخذ يجرجرني بعنف ويقول أن سماطا آخر يشق بين القصرين لعموم أهل القاهرة . ثم دفعني الى خارج القاعة من باب لم أكن تبينته فاذا بي في ميدان بين القصرين مباشرة والسماط ممدود في شكل مليح مدهون بأوراق الذهب وفيها شخوص ناتئة كأنها مسبوكة في قوالب لوحا

لوحا ، أخذت أهرول مسرعا لأجد لنفسى مكانا بين زحام الجموع المتوافدة من أهل القاهرة يأكلون ويضعون فى أكمامهم ما يشاؤون ، جريت حتى لهثت ووجدت مكانا صغيرا فحشرت نفسى فيه بين البشر ، وكان ثمة صياح وصخب بدا يتضح ، دفع رجل رجلا فوقع على طفلة فصرخت فقام الأخير ولكمه وقامت جموع تحجز بينهما وأنا من بينهم ، فلما تباعدت شتائمهما لبعضهما وعدنا لنأكل وجدتنى أحاول الجلوس على ترابيزة فى الشارع العمومى أمام مطعم رخيص فى حى الغورية ، وكنا جميعا نجلس فى انتظار مدفع الافطار ، وكانت الأطباق الصغيرة تبدو أمامنا كبقايا فضلات تافهة لا تسمن ولا تغنى من جوع ..

اغتظت جدا وقررت اللحاق بالسماط فى ذلك الزمن القديم ولو على البقايا ، فبقايا السماط لا شك أفضل من وفير خيرنا ، تحرجت من ترك الطعام والقيام مع أن هناك من ينتظر قومتى ليجلس محلى ، لكننى قمت بلعبة حيث ذهبت الى سبت العيش وأخذت أقلب فيه برهة ثم تسللت الى الخـــلاء .

حاولت الرجـــوع من حيث أتيت ، وجدتنى أجنح يمينا الى حارة الجودرية فخفت أن توصلنى الى زمن أبعد فضلا عن أنها تضعنى بين الجند . ارتددت الى شارع الغورية نفسه وسرت بحيث يكون الخرتفش خلف ظهرى . رأيت « نجيب محفوظ » يمشى متنكرا فى زى بائع أوطه يدفع عربة أمامه يستبدل النداء بالضحك المتواصل بصوت عال ، ورأيت المطرب محمد قنديل يبحث عن لعب للأطفال ، ورأيت كثيرا من الفنانين التشكيليين الذين أعرفهم ولا يعرفوننى أو يعرفون غيرى وكانت أفخاذ الموديلات مرسومة على صدورهم وعلى وجوههم ، ورأيت عربات الكارو والدراجات والموتوسيكلات والسـيارات المرسـيدس التى يركبها تجار المخـــدرات والســـمكرية والتجـــار المتطلعون ، والعربات النقـــل التى يملكها أصـــحاب المحـــلات عارضـــة البضـــائع الأجنبية كل ذلـــك يســـير فى اتجاهات متعاكســـة متقـــابلة فى نفس الآن ،

وبنى شلبى يوسعون الشارع الضيق ويستجيبون لصياح الكلاكسات وشتائم الركاب فاذا ما أحدثت احدى السيارات ربكة وعطلا فى الشارع تطوعوا لمساعدته في الخلاص من الربكة سواء بدفع سيارته أو بارشاده للقيادة الصحيحة ٠٠ ورأيت وسطهم رجلا طويل القامة قاسى الملامح لاحظت أنه يتجاهلنى عن عمد فاقتربت منه ومددت له يدى مسلما فى ود : « أزيك يا راجل » ٠ فقال ببرود : « أهلا » ٠ قلت من كسوفى : « أظنك المرتضى أبو محمد عبد السلام ؟ » ٠ قال بنفس البرود : « نعم » ٠ قلت : « ابن محمد بن عبد السلام بن الطوبر ؟ » ٠ هز رأسه أن نعم ٠ قلت : « القهرى القيسرانى الكاتب المصرى ؟ » ٠ قال بضيق : « نعم » ، قلت : « أتذكر يوم أن أوقعتنى فى شر أعمالى وأدخلتنى لدى زين الخزان ؟ » ٠ تبسم قائلا : « وهل أنت الا قدها ؟ » ٠ قلت : « كيف يتأتى لك أن تحضر فى عصرنا وتتجول فى شوارعه كأنك لا تزال تعيش بيننا ؟ » ٠ قال : « مثلما تأتى لك الانتقال الى عصورنا ، ثم أنك يمكن أن ترانى فى كل بقعة فى هذه الأرض » ٠ قلت : « لقد ضقت بالحياة ها هنا يا ابن الطوبر » تبسم قائلا : « يمكننى أن أبعث لك بعقد عمل فى خارج العصر » ٠ قلت : « فى عرضك ٠٠ ويا حبذا لو كانت شروطه مغرية والسكن على حساب العمل وأن يحتفظ لى بمركزى الذى حققته فى عصرى » ٠ قال : « ما مركزك ؟ » ٠ قلت : « بالاضافة الى عملى كمحرر فى احدى الصحف لدى معمل كبير وشهير للطرشي ولدى مصنع حلواء وأفكر فى افتتاح مكتب ثقافى واسع النطاق » ٠ قال : « ما معنى مكتب ثقافى ؟ » ٠ قلت : « تكون مهمته جلب الكتاب والمحررين والفنانين من كافة البلاد وتسفيرهم أو شحنهم للعمل فى بلاد أخرى نظير عمولة كبيرة اتقاضاها من الطرفين ٠٠ كذلك جلب الموضوعات والقصص والتحقيقات ممن لا يحبون السفر والقيام ببيعها لأكثر من جرنان وقبض ثمنها والانتفاع به فى توسيع معمل الطرشي ومصنع الحلواء فاذا ما طاردنى أصحاب الموضوعات الى حد الزهق راضيت كل واحد منهم بعشرة جنيهات زاعما له أن الموضوع لم يبع ، واثقا ٠٠

من أن أحداً منهم لن يكشف كذبي لأن جميع الصحف والمجلات والدوريات التى أتعامل معها لا تدخل الديار » ٠٠

قال ابن الطوبر : « مع أننى لم أفهم معنى المجلات والصحف التى تقصدها الا أننى أراك تصلح للعمل فى « ديوان الانشاء » ٠ قلت : « فى أى عصر هو ؟ لاحظ أننى أعانى من حساسية ضد الأجواء الحارة » ٠ قال : « اطمئن ٠٠ التكييف موجود وكل شيء على ما يرام » ٠ قلت : « تكييف بالمراوح أم بالمركزى ؟ » ٠ قال : « بكل لون يعجبك » ٠ قلت : « عال ٠٠ أكون لك من الشاكرين » ٠ فأنزل الرجل زنبيله عن كتفه فاذا به زنبيل جميل أجمل بكثير من هذه التعليقات التى يكلف بها السياح أكتافهم ، وأخرج منه بطاقة وريشة ودواة محلاة ، فتحها وغمس الريشة فى الدواة وكتب بالرقعة الجميلة خطابا لرئيس ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى أوصاه فيه بتسهيل مهمتى ٠ وضعت البطاقة فى حقيبتى بحرص ولفع هو زنبيله على كتفه ومضى فأستوقفته لما وجدت أننا أمام فاترينة جاد الحلوانى الملاصقة لوكالة الغورى وقصر ثقافة الغورى ، طلبت من جاد طبقين من البسبوسة وقلت لابن الطوبر : « هذا هو قصر ثقافة الغورى » ٠ قال ابن الطوبر : « أهو الذى تود افتتاح مثله ؟ » ٠ قلت : « لا طبعا » ٠ قال : « وهل هذه الحلواء من منتجاتك أم من منتجات القصر ؟ » ٠ قلت : « لا من هنا ولا من ها هنا ٠٠ انما نحن المصريين هكذا دائما نرى فى كل بناء جانبه التجارى » ٠ لحظتئذ زحف علينا رهط من المارة فرقوا بيننا لمسافة زمنية طويلة بحثت بعدها عن ابن الطوبر فلم أجده لا هو ولا طبقى البسبوسة ، أخذت أبحث فى الحوارى والمنعطفات الضيقة فاستوقفتنى بوابة خربة رحت أتفرج عليها مسحورا بدقة صنعها ، دخلت فاحتجب الضوء لبرهة وجيزة عاد بعدها مثلما يعود النور قويا جدا بعد خفقة ضعف ، حتى لقد خفت أن تحترق اللمبات فى دماغى ، لكن الضوء المبهر كشف عن ساحة كبيرة تنبعث عنها عشرات الأبواب والشرفات عشرات الداخلين والخارجين يتبادلون تحية الاسلام بالسلام والبركات ٠٠

تقدمت خطوات فى تردد . القيت السلام على حرفوش أزعر يجلس على الباب عرفت أنه لابد أن يكون أحد السعاة . رد السلام واقفا . قلت : « أين نحن ؟ » قال الحرفوش الأزعر : « فى الدواوين » . قلت : « حلو .. ديوان ماذا هذا الذى تجلس على بابه ؟ » . قال وهو يهز سبابته أمام فمه فى توجس : « هس .. أنت أمام ديوان المجلس .. ما الذى تفعله هكذا فى روحك ؟ » ـ وأشار الى ثيابى الأفرنجية . قلت : « هى ثيابى الرسمية » . قال : « وهل ستدخل بها ها هنا » . قلت : « لم لا ؟ » . قال : « هذا ديوان المجلس .. بعض أصل الدواوين .. فيه كل علوم الدولة .. وفيه كتاب كثيرون لكل واحد مجلس منفصل .. وصاحب الديوان هو المتحدث فى الاقطاعات » ، ثم قرب فمه من أذنى وهمس بلهجة ذات معنى : « وله المرتبة والمسند والدواة .. والحاجب . ويخلع عليه وينشأ له السجل » . قلت : « هذا المجلس بمثابة الجهاز المركزى فى عصرنا » . قال : « لست أعرف ما تعنى ولكن هنا يوجد دفتر المجلس وصاحبه من الاستاذين المحنكين ، يتضمن كل الباطن من الأنعام فى العطايا والظاهر من الرسوم المعروفة فى غرة السنة والضحايا والمرتب من الكسرات للأولاد والأقارب والجهات .. الخ » . قلت : « خلاص خلاص .. فهمت .. عن اذنك .. » . فوسع لى فدخلت .

اتجهت يمينا ، سألت حرفوشا آخر : « ديوان ماذا هذا ؟ » . قال : « هذا ديوان النظر .. أجل الدواوين يتولى النظر عليها وله العزل والولاية ومن بيده عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة وله الجلوس بالمرتبة والمسند وبين يديه حاجب من أمراء الدولة » . قلت : « شكرا شكرا » ، ومضيت الى طرفة أخرى كأننى فى مجمع التحرير . سألت حرفوشا ثالثا : « ديوان ماذا هذا ؟ » . قال : « ديوان التحقيق .. مقتضاه المقابلة على الدواوين ، لا يتولاه الا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب .. » . فشكرته ومضيت الى ردهة نشأت بجوارى ، اعترضنى حرفوش رابع سألنى :

« ماذا تريد ؟ » . قلت : « ديوان الانشاء » . قال : « ماذا ؟ » . فتحت الحقيبة وأريته بطاقة ابن الطوبر .. قال : « لمن هي ؟ » . قلت : « لرئيس ديوان الانشاء » . قال : « تقصد الشيخ الأجل » . قلت : « هل تسمونه هكذا ؟ » . قال : « نعم يقال له كاتب الدست الشريف .. ماذا تريد منه ؟ » قلت : « لسوف التحق بالديوان موظفا » . قال : « ان منصب الشيخ الأجل لا يتولاه الا أجل كتاب البلاغة .. أنه يتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده وهو الذى يأمر بتزيلها والاجابة عنها للكتاب ، والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ولا يحجب عنه شيئا متى قصد المثول بين يديه » . قلت : « وما راتبه ؟ » . قال : « جاريه مائة وعشرون دينارا فى الشهر ، وهو أول أرباب الاقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات » . قلت بلهفة : « من فضلك أريد أن أقابله فى الحال » . قال مشوحا : « لا سبيل أن يدخل الى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد الا الخواص » . قلت : « أين حاجبه لأكلمه ؟ » . قال : « حاجبه من الأمراء والشيوخ وله فراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة » . قلت : « لابد أن أقابله .. خذ هذه البطاقة واعطها لحاجبه لكى يوصلها له » . فلم يأخذها ، فظللنا فى مشاحنة حتى رأينا رجلا مهيبا يقبل نحونا ، همس الحرفوش : « هو هوذا حاجبه الأمير » . قال الحاجب الأمير وهو يحاذينا : « ما الأمر ؟ » .. قدمت له الورقة ، فنظر فيها بتمعن لبرهة ثم نادى قائلا : « أيها الحرس .. اقبضوا على هذا الشقى وأودعوه الحبس حتى ننظر فى أمره .. » . فانشقت الأرض عن الحراس الذين أحاطوا بى وامسكونى بينما اختفى هو فى مكان لا أدريه . وكانت الساعة فى يدى تشير الى سنة احدى وخمسمائة .

الحبس فى خزانة البنود

أحاط بى الحرس وأحدق بى الخطر واستغربت كيف بكلمة كهذه قالها رجل ببساطة ومضى كالطاووس كأن شيئا لم يكن · يترتب عليها كل هذا التنكيل بى ·· الحقيقة دخت ، فمن قراءتى لكتب وشهادات الذين سجنهم عبد الناصر أصبح يقشعر بدنى لمجرد استماعى لكلمة سجن . ولو استطعت لألغيت التعامل مع حروف السين والجيم والنون الا متفرقة مشتتة · بقدر رعبى من السجن نشأت فى أعماقى البعيدة رغبة دفينة فى تجربته على الحقيقة بشرط أن يكون ذلك لسبب غاية فى الخطورة ·· فكيف بى أقف الآن على مشارف باب السجن دونما سبب ! ··

فكرت أن أنزع نفسى من هذه الفترة الزمنية بدلا من أن يفقدنى أولادى فى « شربة مية » ، لكننى لم أستطع ، واكتفيت بأن لعنت كل ديكتاتور يضع فى يمينه سجنا وسوطا وسيفا ، وعدت من جديد أنظر فى ساعتى فوجدتنى قد غفوت وقفزت بى عقارب الزمن خطوة فاذا بى فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، فعرفت أننى فى السنة السابعة عشرة من ولاية الآمر بأحكام الله منصور · اسمه منصور ، وكنيته على ، ولقبه الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر بالله على بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله محمد بن المنصور اسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدى عبد الله العبيدى الفاطمى ، السابع من خلفاء مصر

من بنى عبيد ، والعاشر منهم ممن ملك المغرب · تعرفت عليه منذ زمن بعيد حين زارنى الصديق « ابن تغرى بردى » يوما فى منزلى ومعه صبى صغير عمره خمس سنوات وقال لى أنه سلطان مصر الجديد ، فأخذت من يومها أتابعه وأتصل به وتصيبنى الدهشة من فعاله الهوجاء ، وكان الأفضل شاهنشاه ، بن أمير الجيوش هو مدير سلطانه فقتل الأفضل وأقام فى الوزارة المأمون أبا عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى ، فما أن بدأ البطائحى يمارس الظلم والفساد حتى قبض عليه وصادره ثم قتله وصلبه وقتل معه خمسة من اخوته ، وكنت طول عمرى أتجاهله وأحتقره كلما لقيته فى محفل لدرجة أننى مرة كنت معزوما على العشاء فى صـــالون الامبراطور الفرنسى نابليون بونابرت وكان هو من بين المعزومين فأبديت عدم ارتياحى ثم انسحبت من الجلسة ، ومرة أخرى دعيت لافتتاح الجامع الأقمر الذى أنشأه الخليفة الآمر فوقفت الى بعيد غير راغب فى السلام عليه ، وكانت آلات التصوير السينمائى والتليفزيونية تتخابت وتمر على وجهى من حين الى حين لتظهر للمشـــاهدين عمـق ازوراری ، فالحق أن لهذا الكره سبب لعله فسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادرته واستحسانه للفواحش ؛ ولعله أصـــابته بداء العظمة والأبهة والتعاون فى أمر الغزو والجهـــاد حتى لقد أخـذ الفرنج فى أيامه عكا وطرابلس وعرقه وبانياس وصور وبيروت وصيدا فلم ينهض لقتالهم البتة حتى قصد بردويل الأفرنجى مصر ليأخذها ودخل بالفعل بلدة « الفرما » وأحرق جامعها ومساجدها ، والفرما هذه كانت مدينة من حصون مصر القديمة واقعة فى الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة أى أنها مدينة بور سعيد فى الوقت الحالى · ولقد بقى الآمر فى الملك تسعا وعشرين سنة وتسعة أشهر فلم أبعث له بالتحية ولم أخاطبه أبدا وظلت القطيعة بيننا حتى قتل وهو يعدى الجسر الى جزيرة الروضة سنة أربع وعشرين وخمسمائة حيث كمن له قوم بالسلاح فلعبوا عليه بالسيف وأثخنوه بالجراح ·· فمن كان يتصور أننى أقع الآن فى قبضته ؟ ·· الواقع لم يكن يرعبنى السجن انما كنت مغتاظا من « ابن الطوبر » الذى هزأ بى لثانى مرة ··

أخذ الحرس يحاولون ايقافى على ساقى دون جدوى ، وثمة من يدلك لى صدرى ويحرك ذراعى ومن يتحدث فى أمرى حديثا غامضا و ٠٠ يا لهذه الرائحة العطرة ، رائحة كولونيا لم أشمها فى حياتى ، فيها كل الزهور مجتمعة ممتزجة ، بها وحدها فتحت عينى وتركت جسدى يسيل على كتفى حارسين قويين ، انتصبت الجدران مشدودة وبزغ فى المكان رجال يقفون فى انتباه وتخشب وثمة شخط ونطر وأبواق ، ورجل مقبل من الداخل نحونا فى عظمة كأنما الأرض خلقت لقدميه فحسب ، يمشى فى تؤدى ووقار وغرور ويشع رهبة وانعكاسات حمراء قاتمة تسبح حواليه كدخان السيجارة ٠ تمعنته فاذا به الرجل الذى أصـــدر الأمر بالقبض على ٠ ساهيت الحرس واندفعت نحوه صائحا : « فى عرضك يا بيه دانا راجل غلبان وأبو عيال ٠٠ وما ليش فى السياسة ولا الامامة ٠٠ ولا الكتابة ولا الحجابة ٠٠ أنا راجل لمؤاخذة طرشجى حلوجى وابن الطوبر هو اللى ضحك على وبعتنى بالورقة دى » ٠ وقف الرجل مشدود القامة ناظرا الى فى اشمئزاز وعصى الحرس تنهال على مؤخرتى وكتفى وأنا أتنطط صارخا : « يا كفرة ٠٠ يا رفضة ٠٠ يا فسقة » ٠٠ حينئذ ارتفع حاجب الرجل فى ذهول ولمعت فى عينيه معان غامضة ثم صرخ :

ـ لعله من أتباع الافرنج ٠٠ كيف دخل القصر ؟

فجاء الحرس يسبقهم « الاسفهسالار » ـ أى قائد المعسكر وهم يتعجبون من وجودى ، قال « الاسفهسالار » :

ـ لا تشغل بال معاليكم ٠٠ سوف تعرف كل شىء عنه ٠٠ ثم نظر الى العسكر صائحا :

ـ « ضعوه فى حبس المعونة » ٠

فدفعونى بعنف شديد استعملوا فيه أقدامهم وأيديهم وألسنتهم فى حين مضى الرجل الوزير واختفى ٠٠ فعاد « الاسفهسالار » وقال :

ـ « ضعوه فى خزانة البنود » ٠ ٠ ٠

فانقلب الحـرس يربت على كتفى برفق يكاد يعتذر عما بدر منه نحوى . فما أن خرجنا من البهو الى الممر حتى تكفل بى عجوز طيب القلب وان كان قاسى القبضة ، قلت له : « من هذا الوزير ؟ » . نظر فى تودد وقال : « لو سألتنى هذا السؤال وأنت ذاهب الى حبس المعونة لركلتك ببوز حذائى .. أما أن تقوله وأنت متوجه الى سجن خزانة البنود فانى لا أجد بأسا من اجابتك » . وصار يتابع حركة يدى ويسيل عليها بنظرات ضارعة فأخرجت ورقة من فئة المائة مليم دفعت بها فى يده فأطبق على يدى ولما سحبتها منه وجدت أن الخاتم الفضى الذى كان فى اصبعى الصغير قد اختفى فلم أجرؤ على السؤال عنه ، وقال بغمزة من شاربه : شف يا سيدى .. أما الوزير فهو المأمون البطائحى وزير الآمر .. وقد احتقرتك حين أمر بسجنك فى حبس المعونة اذ أن هذا الحبس لا يدخله سـوى المجرمين والمتشردين والهاربين من العدالة .. فى حين احترمتك حين أمر بسجنك فى خزانة البنود اذ أنها سجن الأمراء . وأرباب الدولة وغيرهم من الوجهاء » . ضحكت وقلت : « يعنى أنك عرفتنى من نوع سجنى » . ثم أضفت : « قل لى أين سجنك أقل لك من أنت » قال العسكرى العجوز : « بالمناسبة من أنت ؟ » . قلت له : « ابن شلبى الحنفى المصرى الطرشجى الحلوجى الكاتب » ، فرفع حاجبيه من الدهشة وأخذ يزوم . ثم أننا خرجنا من باب العيد الى قصر الشوك المجاور للقصر الكبير فأشرفنا على خزانة البنود الملاصقة للقصر الكبير منذ أن بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله . كان أمامها عسكرى أبله الوجه أشار له العسكرى المرافق لى فقام وفتح الباب وقال لى : تفضل .. فطفرت الدموع من عينى وأنا أدلف الى جبل الظلام الكثيف .

أخذت أتخبط فى الظلام لبرهة طويلة ، ميزت قدمى لمس الأرض خلالها .. ثم ما لبثت الأرض أن احتشـدت بعشرات الأشـياء المتراكمة المتجاورة ، تذكرت أن بيدى قداحة لاشعال السجاير أخرجتها وأشعلتها فرأيت معرضا جميلا لما يسمونه بالبنود أى الرايات والأعـلام وما الى ذلك ، ما يربو على ألفى ورقة ، وما يزيد عن الآلاف من الفضة والذهب ،

ورماح لا حصر لها ، وشارات ، وثياب تشريفات ودروع وزرد ، وسروج ولجم وحوالى مائة ألف سيف مجوهرة ، كل ذلك فى فتارين أو دواليب زجاجية أو أفاريز بارزة فى الحوائط . انطفأت شعلة القداحة ولكن الضوء بقى ، ولأمر ما خفت من بقاء القداحة فى يدى ، فأعدتها الى جيبى وجسدى يقشعر مما يمكن أن يحدثه أى اشتعال خاصة وأنه على بعد خطوات منى توجد أعدال كتان وأمتعة كثيرة ، وفجأة انتفض الذعر بداخلى اذ رأيت بعض الفراشين مقبلين من ناحية باب آخر يمسكون بشمعدانات موقدة يحاولون تثبيتها فى بعض الأماكن فى حين دخل آخرون يقودهم رجل يبدو عليه الصلاح . فكرت فى الاختباء فى أى شىء ولكننى داريت خوفى بالصياح الأهوج كخفير الدرك . قلت : « من هناك » . فرد على فراش هادىء قائلا «بسم الله الرحمن الرحيم» أيظهر العفاريت حتى بين البنود ؟ » . قلت : « ما عفريت الا بنى آدم .. فمالى أراكم تقتحمون خزانة البنود ؟ » . فقال الذى رد على : « من الكريم ؟ » . قلت لا شأن لك بى وقل من أنتم والا ضربت فى المليان » . فضحكوا جميعا .وقال الفراش نفسه بينما يشير الى ذلك الذى يبدو عليه الصلاح : « أنه .. سعد الدولة ، المعروف بسلام عليك » . قلت : « أهلا .. تشرفنا يا سيد سلام عليك » . قال الفراش « لا بد أنك تعرفه » . قلت : « محصليش الشرف » . قال : « سعد الدولة الشهير بسلام عليك » مولاى الخليفة المستنصر بالله وقد وهبنى كل ما فى هذه الخزانة من جميع المتاع والآلات . فنظرت فى ساعتى فوجدتنى فى صفر سنة احدى وأربعمائة . فعدت أنظر اليهم وهم يشرعون فى جمع الأشياء وتنسيقها وحملها ، وكنت أشعر أننى رأيت سعد الوله هذا من قبل فى لقاء لى مع المقريزى ولكن المقريزى لم يقل لى من هو على وجه التحديد فحقدت عليهما معا ، تقدم منى وسلم على قائلا : « أحب أن أتشرف باسم الكريم » . فوقعت فى حيص بيص - أى فى ورطة والله أعلم - لكن الظرف تكفل بانقاذى من الرد . اذ فى لمح البصر سقط الشمعدان من يد أحد الفراشين وارتفع الصراخ فى الحال ، ذلك أن قربات من النفط كانت موجودة بكثرة فى الخزانة ، وراحت ألسنة اللهب تتقافز فى نشاط مرعب وتلتحم بالجدران

والمعروضات والدواليب وتتوحد بها فى وهج كأنه جهنم ، وامتدت عشرات الأيدى فالتقطت « سعد الدولة سلام عليك » ، أما أنا فقد كنت من كثرة الحروب التى عاصرتها قد تكونت عندى مناعة ضد النيران فتسلقت قضيبا من الذهب وانزويت به فى ركن بعيد وسيول الماء تتدفق على وعلى المكان من كل جنب وصوب والهياج لا مثيل له ، عشرات الألوف من قربات وزراقات النفط تتفجر فتحيى النار من جديد وأن هى الا دقائق معدودة حتى كان كل شىء قد تحول الى هشيم ، واندفعت وفود العسكر ورجال القصر والفعلة يرفعون أكوام الهشيم والهديم ليخرجوا من تحتها بقايا سيوف وبقايا ذهب وجوهر ، وبلغ عدد السيوف المجوهرة وحدها التى أنقذت حوالى خمسة عشر ألف سيف سوى غيرها ، ومر يوم ويومان وربما شهور وأنا واقف فى مطرحى أشهد المصير المؤلم الذى آلت اليه البنود ، رأيت خلالها الفعلة يدخلون ، وينظفون الخزانة ويتركونها خالية مظلمة ، أشعلت سيجارة وسرحت معها فى أمر المؤلفين والروائيين الذين قرأت لهم من أهل الغرب والشرق على السواء ، وكنت أحاول اصطياد معنى يجىء ويختفى مؤداه أن التاريخ المصرى يتحدى مواهب أبنائه فكيف ينبغ بينهم نحات يطاول قامة الأزميل الذى نحت تمثال رمسيس وعشرات الآلاف من التماثيل العظيمة . وكيف ينبغ بينهم روائى يطاول خياله قامة هذا التاريخ . أنه واقع تجاوز كل قدرات الخيال على التحليق والابتكار والتركيب ، من حسن حظ الذين برعوا كروائيين أنهم لم يقرأوا هذا التاريخ ولو قرأوه لاختشوا من محاولاتهم الساذجة ، فجأة انفتح الباب فى صرير مزعج ، والقى فى الأرض بجثة رجل صار يتخبط فى الظلام ويسب ويلعن فى هلفطه وفقهته ، صرخ لما توهجت نار السيجارة بين أصبعى ولكننى صرخت فيه بالا يخف ، وأمرته بالاقتراب — شأن أى بلطجى مسجون — فاقترب ، ثم انحط جالسا بجوارى فى خوف وهو يقول : « أجد معك ورقة ومحبرة وقلما ؟ » . قلت : « نعم ها هى ذى » وأعطيته ورقة وقلما . قال : « أجد معك مصباحا ؟ » . قلت : « نعم ها هو ذا » ، وأخرجت القداحة فأشعلتها فقال : « عن اذنك » . وصار يكتب ويشطب ويستحسن القلم ، فقلت : « ايه اللى بتهببه ده ؟ » .

قال : « أكتب رسالة للكامل بن شاور » . ثم راح يكتب مع الانشاد :
« أيا صاحبى سجن الخزانة خليا نسيم الصبا يرسل الى كبدى نفحا ».
وقولا لضوء المسبيح هل أنت عائد الى نظرى أم لا أرى بعدها صبحا ؟
ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا » .
قلت : « عال عال .. ومن أنت بحق الله يا هذا ؟ » . فنظر فى وجهى مستنكرا وقال : « اذا لم تكن تعرفنى حقا فأنا القاضى المهذب ابن الزبير وقد اعتقلت ها هنا » . ثم راح يواصل الكتابة حتى سخنت القداحة فى يدى فانطفأت ووقعت ورحت أتحسس الأرض بحثا عنها فما وجدتها ولا وجدت القاضى المهذب وصرت أنادى ببدن مقشعر فلا يرد على سوى صوتى نفسه يرتد عائدا من الجدران والأركان البعيدة .

انفتح فى جدار الظلام عامود من الضوء الساذج مقبل من بعيد جدا كشعاع كشاف ، وسرعان ما تبين لى أن باب الخزانة الذى فى مواجهتى تماما على مبعدة فدان مثلا قد فتح ، وجاء يركب الشعاع صوت جهورى يقول : « أين المدعو بالطرشجى » . فلم يرد أحد سوى الصوت نفسه فعاد يقول : « أين المدعو بالطورشجى الحلوجى » ، فرد الصوت على نفسه مرة أخرى ، فعاد يقول : « أين عميل بردويل الأفرنجى ؟ » . فصحت قائلا : « لا أحد هنا » . فقال : « وأنت .. لماذا لم ترد الا حين واجهناك بالتهمة ؟ » . قلت : « معك حق .. انكم دائما هكذا معشر المحققين تضعوننا فى موقف ذى حساسية تحاسبوننا على ما أصابنا من حساسيته .. ماذا تريد من ابن شلبى ؟ » . قال : « أكتب ما قلته الآن بالحرف وسلمه لى » . صحت من ذعر : « أكتب ؟ .. لا يا عم . هى الكتابة فى السجن من أيامكم ؟ .. أما ما باعرفش أكتب » . لدهشتى سمعته يضحك . ويقول « أعنى أن تكتب مظلمة .. أليست لديك مظلمة ؟ .. أكتبها اذن ونحن نقدمها لديوان المظالم » . قلت من فرحتى : « ليكن .. سوف أفعل » . ثم انسحب شعاع الضوء واضمحل ولكن ضوءه فى دماغى لم يكن قد اضمحل بعد ، اذ تبينت أن أمامى مسافة هائلة للحركة كنت قد نسيتها ، بفعل الظلام ، فأخذت أمشى ولكن على

جذر ، فلما الفت عيناى الظلام رأيت خلال الخلاء ملاء من الضوء يتزايد ، ويتفسر فى رجال يلبســون بذلات من القصب يحملون سريرا وأمتعــة رتبوهــا فى الأرض فاندهشت من وجــود هذا الفرش الفاخر فى هذا الســجن ، فما أن انتهوا حتى اختفوا كالجن ، ودخــل آخرون فى زى العسكر من ذوى الرتب يقبضون على رجل ذى أبهة كما يبدو ، ويقودونه برفق ويشــيرون له على السرير والأمتعة ويهزون رؤوسهم فيما يشبه الاعتذار وهو يتأمل السرير فى خيبة أمل ويبتسم فى أسف وأخيرا هز رأسه فى تسليم فصرفهم وجلس على سريره خافض الرأس فى احساس شديد بالمهانة • وبعد برهة أخرى دخل حارس برتبة أيضا ، انحنى أمام الرجل وأشار الى صبى خلفه فتقدم بكرسى عباس فوقه صينية من الفضة مطروح فوقها ملاءة نظيفة تتجسد خلالها الأطباق فشكره الرجل فانصرف• وبعد برهة تقدمت أنا نحوه وانحنيت فى تبجيل مثلهم ثم مددت يدى نحو القدر والكوب دون احم ولا دستور فأفرغت فى الكوب شيا مما فى القدر وشربته فاذا به شراب لم أعرف اسمه ولكننى وجدت الكوب لن يسعفنى فى ارتشــاف الحلاوة فهممت برفع القدر نفســه الى فمى لكننى عدت فوضعته وهززت رأسى شاكرا ، ثم أخذت أبصبص للصينية وكان الرجل يتابعنى فى ذهول نصفه رعب ونصفه غيظ فلما نظرته أشار لى بكفه فى دعوة فرفعت الملاءة ونظرت فوجدت عليهــا صــنوف الأطعمة والأشربة ففردتها من جديد وقلت : « خليها تنفع يمكن تطول المدة » • نظر الرجل الى وقال : « من العفريت ؟ » • قلت : « ما عفريت الا بنى آدم » • قال : « من الشيطان ؟ » • قلت : « لا شيطان الا من يقود الناس الى التهلكة » قال : « فمن الجن ؟ » قلت : « جن يلهفك » • قال : « تفضل بالجلوس » • فجلست بجواره ، فعطف على بنظرة حانية وقال : « تظلمنى متصورا اننى من المتســلطين •• ولو عرفتنى لاحترمتنى ولو عرفت مأساتى لعذرتنى » • قلت : « من ســيدى ؟ » ، قال : « أنا الحسن بن على الانبارى •• وزير الخليفة المستنصر » • قلت : « ومن وضعك فى الحبس

يا وزير الخليفة ؟ » قال : « الوزير الجديد : « أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى » . صحت قائلا : « هذه سنة الحياة فلا حول ولا قوة الا بالله ـ ان مجرد ابعادك عن الوزارة فى حد ذاته سجن فلم الحبس بين الجدران فى خزانة البنود ؟ » . قال : « هذه حكاية طويلة أتحب أن تعرفها ؟ » قلت : « بكل تأكيد » .. فتربع الانبارى .. وشرع يحكى :

ـ منذ أيام الخليفة الحاكم بأمر الله نبغ اخوان يهوديان يتصرف أحدهما فى التجارة والآخر فى الصرف وبيع ما يحمله التجار من العراق .. هما أبو سعد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنـا سهل التسترى .. طار صيتهما فى جلب ما يعجز الآخرون عن جلبه .. فلما جاء الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ـ ابن الحاكم ـ استخدم أبا سـعد ابراهيم بن سـهل التسترى فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة ، وتقدم عنده فباع له جارية سوداء فتحظى بها الظاهر وأنجب منهـا ولده المستنصر .. فحفظت لأبى سـعد ذلك الجميل .. فلما أتت الخلافة الى المستنصر ـ ولدها ـ قدمت أبا سعد وتخصصت به فى خدمتها » .. فقلت له : « وما دورك أنت يا ابن الانبارى ؟ » .

قال : « عندما مات الوزير أحمد بن على الجرجراى طلبت الوزارة وأعطيت لى .. فقصدنى « أبو نصر ـ أخو أبى سعد ـ فتركت أحد غلمانى يرد عليه ويصرفه .. فحقد علي وسعى الى أخيه أبى سعد الذى سعى بدوره الى أم المستنصر مولاته فتحدثت مع ابنهـا الخليفة المستنصر فى أمرى فعزلنى من الوزارة .. فسعى أبو سعد عند أم المستنصر ونجح فى تعيين « أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى » بدلا منى فى الوزارة ، وتولى أبو سعد الاشراف عليه وصار الفلاحى وزيرا بالاسم أما الفعل فلأبى سعد » .

قلت : « الى هنا والأمر طبيعى .. يحدث فى كل عصر .. فما الذى جاء بك الى الحبس ؟ » ..

قال : « جعلنى ابن الفلاحى شغلته .. صار يغرى بى ويصنع على

ديونا .. ويذكر عنى ما يوجب الغضب على .. وقد نجح .. فها هم ذا يقبضون على » .

قلت : « بأى تهمة ؟ » .

قال : « استخرج من الدواوين أموالا كثيرة مما كنت أتولاه قديما والزمنى بحملها .. وقد جاء منذ دقائق من همس فى أذنى بأنهم استصفوا أمـوالى » .

ثم تنهد ونكس رأسه ثم رفعها وأراد أن يواسى نفسه فقال : « هل أنت مسجون هنا من زمن ؟ » . قلت له : « أنا مسجون فى هذه الأرض منذ آلاف السنين » . قال رافعا حاجبيه من الدهشة : « بأى تهمة ؟ » . قلت : « أسأل نفسك » فازدادت دهشته وقال : « كيف .. مالى أنا بسجنك ؟ » . قلت : « أقصد تسأل أمثالك مما يعتلون أريكة السلطنة او يتشعلقون بها » ، ولم أكد أتم حديثى حتى دخلت هيئة مكونة من ثلاثة رجال وسياف ، ووقفت أمامنا وتقدم كبيرهم من الانبارى فعلمت أننى لست فى الصورة بالنسبة له ، وقال له : « يا انبارى .. لقد جئت لأنفذ عليك حكما .. لقد ثبت أنك متلاعب فى أموال الدولة ومدلس عليها وخائن لمبادئها .. فأرجو أن تقبل عذرى فيما سأفعل » . ثم انحنى فى تبجيل ونظر للسياف الذى جرد سيفه من غمده وهوى به على رقبة ابن الانبارى فطيرها وغمر وجوهنا بالدم الساخن . ثم لفوا جثته فى ثوب ، وكانت الحفرة قد أعدت حيثما طارت الرأس ، ودفنوا ابن الانبارى ورأسه فى الحفرة وأهالوا عليها التراب وانصرفوا كأن شيئا لم يكن . فبقيت مسمرا فى مكانى لا أريم وكانت ساعتى تشير الى يوم الاثنين الخامس من محرم سنة أربعين وأربعمائة .

مر شعاع الضوء الساذج من أمامى فعرفت أن الباب قد فتح . وجاء الصوت يركب موج الضوء حتى أذنى قائلا : ابشر يا طرشجى يا حلوجى .. لقد وصلت مظلمتك الى ديوان المظالم .. ولسوف ينعقد الديوان عما قريب ان شاء الله فلا تقلق » . قلت لشعاع الضوء ان الانسان لا يقلق فوق أى بقعة فى أرض مصر لأنها مسكونة بالأرواح وكلها أرواح ذات تاريخ

ولابد أن تطلع عليك لتحكى لك المزيد من الأسرار المروعة وتسليك وتطيب خاطرك الثائر حتى ليصبح الانسان من فرط الحذر بالحكمة غير راغب فى أى ثورة ٠ قال شعاع الضوء بنبرة أسف ان الحبس قد أثر على عقلى ، ثم أخذ ينسحب متراجعا الى أن اضمحل ، فاذا بى غير جالس على أى سرر لا شيء في الخزانة سوى الفراغ والظلام ، ميزت خلال الضوء المنسحب البقعة التى دفنت فيها جثة الأنبارى الوزير ، وأنا رجل عشرى ، دفعنى حب العشرة الى زيارة البقعة لقراءة الفاتحة على رأس الأنبارى ، فما أن شرعت أخطو نحو رأسه حتى انبثق من البقعة نفسها ضوء مضبب صار يرق شيئا فشيئا الى أن تكشف عن مجموعة من العسكر ذوى الرتب يقبضون على رجل يبدو أنه من علية القوم هو الآخر ، تركوه فى مكانه ثم انصرفوا فصار الرجل يهذى ويصفق كفا على كف ويردد فى هياج : « هذه غلطتى الوحيدة ٠٠ أعطيت الأمان لمن هم غير جديرين به ٠٠ ولكن لا ٠٠ لابد من تصحيح الأوضاع ولابد أن يسمعونى بما فيه الكفاية ٠٠ .أنه ظلم وأنا لا أستأهله ٠ صحت فيه قائلا : « بطل غلبة يا جدع أنت وجعت دماغنا » فصاح نحو صوتى : « اخرس يا حيوان يا دهماء ٠٠ اعرفت من أنا حتى تخاطبنى بهذه اللهجة القذرة ٠٠ ثم أن خزانة البنود سجن للوجهاء فكيف يهم يضعون أمثالك فيه » ٠٠ تقدمت منه حتى يرانى وقلت له : « من أنت يا سيدى ؟ » قال : « أنا ــ ان كنت لا تعرفنى حقا ــ أبو نصر صدقة ابن الوزير الفلاحى الوزير » ٠ قلت : « الذى كان يعمل تحت اشراف اليهودى أبى سعد يستمد القوة منه ؟ » ٠ قال فى ضعف : « أنت دسيسة » ٠ ضحكت قائلا : « أنا الدسيسة ؟ » ٠ وما أن أتممت ضحكى حتى دخلت نفس الهيئة السابقة الحافلة بالسياف » ، وناس تحفر الأرض ، وقال كبيرهم : « يا فلاحى ٠٠ قد جئت لأنفذ عليك حكما ٠٠ لقد ثبت أنك متلاعب فى أموال الدولة ومدلس عليها وخائن لمبادئها ٠٠ فأرجو أن تقبل عذرى فيما سأفعل ؟ ٠ ثم أشار للسياف ٠ وكان الحفارون قد وقفوا مدهوشين فنظرنا فى الحفرة وصاح الفلاحى : « هذا رأس ابن الانبارى ٠٠ أنا قتلته ودفنته ها هنا ٠٠ .يا الهى ٠٠ رب لحد قد صار

لحدا مرارا ·· ضاحكا من تزاحم الاضداد » · وحينئذ هوى السياف على رقبته فسقط رأسه فى نفس الحفرة بجوار رأس ابن الأنبارى ، فأهالوا عليهما التراب ·

وهنا مر شعاع الضوء الساذج أمامى وجاءنى الصوت قائلا : « ابشر يا طرشجى يا حلوجى ·· فقد نظرت مظلمتك ووقع عليها بالقلم الدقيق » قلت : « اذن فستفرج عنى ؟ » · قال : « لا ·· لابد أن توقع المظلمة بالقلم الجليل » · ثم أضمحل قبل أن يشرح لى الفرق بين القلمين ·

وغلقت الأبواب على أصحاب الأبواب

بقيت جالسا فى خزانة البنود وحدى أترقب أخبارا جديدة بشأن مظلمتى التى قيل لى أنها شرفت ـ أخيرا ـ بالتوقيع عليها بالقلم الدقيق . تمهيدا لنيلها شرف التوقيع بالقلم الجليل ! • وكنت قد بدأت أعانى السأم من كثرة ما تواترت الأحداث فى الخزانة وترادفت ، لا رأس تعلو على السيف ها هنا أبدا ، بل أن السيف لا يقبل الانحناء مطلقا ، ولا يميل نحو الرؤوس الواطئة أيا كانت قامة صاحبها ، انما هو فى شموخ وكبرياء هائلين يندفع كلمعة الضوء لتسقط الرأس العالية فى الأرض • وكان مصدر الاطمئنان الوحيد بالنسبة لى هو أن رأسى لم ترتفع بعد الى مستوى السيف • رفعت رأسى قليلا وقذفت البصر الى أعلى كأننى الوذ بالقوة الأعلى ، فرأيت سقف الزمن طبقات من السحب المتراكمة ضاع فيها سقف الخزانة نفسه حتى لم أعد أذكره ، خرجت من دماغى أشعة راحت تتسلط على السحب الرمادية محاولة ازاحتها ، وكانت الاشباح تروح وتجىء فلا أرى سوى أقدامها ، فى الحق اعجبتنى هذه اللعبة وتذكرت قصة كنت قد قرأتها لا أذكر لمن وكان بطلها يعمل فى البدروم ويرى اقدام الناس فحسب وهى تمر رائحة غادية فكان أن اكتسب قدرة على معرفة الناس من خلال أقدامهم ، ربما اكتسبت أنا هذه القدرة فى مدة وجيزة جدا حتى أننى تعرفت فى آلاف الملايين من الأقدام التى تمر فوق سقف الزمن على بعض أقدام أعرفها وأعرف أصحابها ، فأخذت أداعبهم وأعاكس أقدامهم

يقطع من الحصى أو الشتكلة فيتعثرون ويتماسكون فى خوف ويستأنفون السير من جديد ، ثم اذا بسقيفة الزمن ترق شيئا فشيئا حتى أصبحت أرى الناس كاملة وهى تندفع من بعيد الى بعيد ، وكانت ثمة عربات تزحف بلا نهاية ، وكان الشيخ متولى الشعراوى يمشى بجلبابه البسيط وطاقيته البيضاء وعربات التليفزيون فى اثره ، تتبعته حتى دخل مسجدا وتوقفت عربات التليفزيون وراحت تجرى استعداداتها فعرفت أن ميدان المشهد الحسينى يقع فوق خزانة البنود مباشرة ، فقمت ومشيت داخل الخزانة الى الخلف فى اتجاه رحبة باب العيد ، ووقفت تحت مقهى الفيشـــاوى بالضبط وأخذت أتفرج على العجب العجاب ، رأيت أفواجا هائلة من مشاهير مصر وادبائها وساستها وفنانيها يتوافدون على الفيشـــاوى ثم ينصرفون بنفس السرعة التى تستغرقها فى رفع صفحة من كتاب ، الا كلام عبد الفتاح البارودى عن الدراما لايزال يرن ها هنا ؟! ٠

عدت ببصرى الى الأرض فكأنما انسدلت ستار على المرئيات ، اذا بالمقريزى يجلس بجوارى مباشرة لكن حاجزا زجاجيا غير مرىء يفصل بيننا ، صحت فيه : « أنت فين يا مقريزى من الصبح ؟ » ٠ تلفت الرجل حواليه دهشا فلما رآنى قال : « أهو أنت ؟ » ٠ قلت : « نعم أنا ٠٠ فمن الذى وضعك فى الحبس معنا ؟ » ٠ قال : « أنا لست الآن فى خزانة البنود ٠٠ انما أجلس فى منزل أحد الأصدقاء » ٠ قلت : « كيف » قال : « هذا المنزل الذى أجلس فيه الآن يقع بين خط السقيفة وخط خزانة البنود ٠ وهو كما ترى يقع فيما بين درب السلامى من رحبة باب العيد وبين خزانة البنود ! ٠٠ وعلى فكرة ٠٠ هذا المكان الذى أجلس فيه الآن فى هذا البيت كان يقف فيه المتظلمون للخليفة » ٠ قلت : « لابد أنك تجلس فى بيت الجبرتى » قال : « فمن الجبرتى ؟ » ٠ قلت : « الشيخ حسن الجبرتى أحد مؤرخى مصر فى عهد محمد على باشا الألبانى واسرته الخديوية ٠ وبيته فى حارة هنا اسمها الصنادقية » ٠ قال المقريزى : « المهم ٠٠ كيف آل بك الزمن الى الحبس فى خزانة البنود ؟ » ٠ قلت :

« نصيبى » • قال : « ما أحلاه من نصيب •• لقد صرت من علية القوم ـ ثم ضحك ـ ومن ثم أصبحت رأسك مهددة • أرتعدت • قلت له أننى تقدمت بمظلمة الى ديوان المظالم وأنها وقعت بالقلم الدقيق ولسوف توقع بالقلم الجليل » • قال : « فى أى عصر أنت ؟ » • قلت : « فى عصر الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله » • قال : « ومن الذى أخبرك أن مظلمتك وقعت بالقلم الدقيق ؟! » • قلت : « صـــوت السـجان » • قال : « لا تصدقه •• ان التوقيع بالقلم الجليل يتم فى نفس المجلس الذى يتم فيه التوقيع بالقام الدقيق » • قلت : « فمن هو صاحب التوقيع بالقلم الدقيق ؟ » • قال : « الشيخ الأجل صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات أو كاتب الدست الشريف •• ذلك أن الخليفة لابد له من جليس يذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله وتجويد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء ، فهو يجتمع به فى أكثر الأيام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك فيكون الأستاذ ثالثهما ، ويقرأ على الخليفة ملخص السيرة ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويكون صحبته للجلوس دواة محلاة ، وله منصب التوقيع وله طراحة ومسند وفراش يقدم اليه ما يوقع عليه ، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات فى الرسوم والكساوى وغيرها » • قلت : « اذن فقد كذب على السجان الملعون » • فضحك المقريزى ووصمنى بالسذاجة وأضاف قائلا أن حبسى فى خزانة البنود يثير شـــهوة الكذب والنصب والاحتيال لدى الحرس ، وأن على أن أطلب مقابلة الخليفة وتقديم مظلمتى بنفسى فهذا من حقى •• ثم جاء من يدعو المقريزى للغداء فأستأذن واختفى ، وعم الهدوء خزانة البنود واحتواها الظلام ••

بحثت عن شىء اتسلى به فلم أجد ، فتذكرت أن معى مذياعا صغيرا فى حجم اليد أخرجته فرحا وفتحته ورفعت صوته الى أقصى حد ، وكانت أم كلثوم تغنى بألحان محمد عبد الوهاب ، فان هى الا دقائق حتى رأيت جميع أبواب الخزانة تفتح ويدخل منها العسكر ويقبلون جميعهم نحوى ينظرون الى المذياع فى انبهار ، فأغلقته ووضعته فى جيبى فازداد انبهارهم

وتحول الى شيء قريب من الخوف . قال رئيس الحرس : « أساحر أنت » ؟-
قلت : « نعم وهذا شيء من اختراعي أريد أن أقدمه هدية الى الخليفة » .
قال : « اذن فسلمه لى وأنا أوصله » . قلت : « لا .. أريد تسليمه يدا بيد » . فجمع كبير الحراس رجاله ومضى وهو يرتعش ، ثم غلقت الأبواب من جديد من حديد . وبعد دقائق معدودة انفتح أحدها ودخل رجل يرتدى حلة بالقصب محلاة بالذهب والنياشين ، ويمشى خلفه رهط من رجال يبدو عليهم أنهم أمراء أو كأمراء . تقدم نحوى وانحنى قليلا وقال : « هل أنت صاحب السعادة الطرشجى الحلوجى ؟ » . قلت : « نعم هو أنا » . قال :
« أنعم وأكرم » . « أين هدية الخليفة ؟ » . قلت : « فمن أنت » .
ابتسم فى خجل الكبار المشاهير حين يضطرون الى التعريف بأنفسهم ،
ونظر حواليه فتقدم أحدهم وأشار اليه قائلا لى : « هذا هو المعظم صاحب الباب . أما نحن فأرباب السيوف ــ أمراء .. وان شئت فأنا صاحب النيابة الشريفة أى نائب هذا الرجل » . قلت : « ما أسمك ؟ » قال :
« هدى الباب » . قلت : « هذا هو اسمك ! » قال : « هو ما أنعت به أبدا » . قلت : « فما مهمتك يا سيد هدى الباب ؟ » . قال بتواضع جم :
« أتلقى الرسل الواصلة من الدول ومعى نواب الباب فى خدمتى ..
أحفظهم .. وأنزلهم بالأماكن المعدة لهم .. وأقدمهم للسلام على الخليفة والوزير .. ويكون صاحب الباب يمينا وأنا يسارا .. أتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم ولا أتيح لأحد التقصير فى حقوقهم واجتماع الناس بهم .. والاطلاع على ما جاؤوا فيه .. ثم أعمل على منع ثقل الأخبار اليهـم » .

وضعت ساقا على ساق وقلت ما شاء الله ما شاء الله كنت أظن أننى لن أقابل مثل هذه الشخصية الحافلة الا فى عصرنا نحن بنو شلبى .
وقال صـــاحب الباب فى لطف : « ما حقيقة ما يحمله ســـيدى على التحديد ؟ » . قلت له : « أولا أنا لا سيدك ولا حتى سيد نفسى ..
خلى بالك من دى . أنا .. راجل زى حالاتك لمؤاخذة .. برضة بأخدم

فى القصور ، بس القصور اللى عندكم قصور موجودة بالفعل ، انما احنا بقى ·· قصور فى الهوا ·· فتاكة بقى ·· مصرنة ·· ولو شفت السيما بتاعتنا ولا التليفزيون بتاعنا حتلاقيها معنية بالتاريخ لأمجادنا العظيمة ، وبفضلها وحدها أصبح أى طفل صغير فى أى قرية نائية ـ والحمد لله ـ يعرف أننا نحن الذين دهنا الهوا بالدوكو ونحن الذين خرمنا التعريفة نحن الذين وضعنا الفيل فى المنديل ناهيك عن وضع الشنب فى المصيدة ·· قصر الكلام يا صاحب الباب قل لى ما هى شغلتك فى القصر على الحقيقة لكى أفضى اليك باختراعى » · قال صاحب الباب فى أدب مثالج ونبرة لبقة : واذا لم يكن سيدى قد استوعب بعد حقيقة دورى فاننى أبعث اليه الأمل فى فهم جيد ·· ولسوف يرانى سيدى على الطبيعة » · قلت له بما يقارب الغضب : « ولكن ما لكم واقفين كده زى اللى عاوزين تقبضوا على ·· أيه لكم حاجة عندى ؟ » · فتبادلوا نظرة دبلوماسية مبتسمة وتقدم منى صاحب الباب فى لطف أشار الى من بجانبه قائلا : « أقدم لك الاسفهسالار » · قلت رغم أننى أعرف : « الاسفهسالار · ؟! ·· يعنى أيه اسفهسالار ·· أنت حتهددنى ؟ » قال بابتسامة : « عفوا ·· الاستفسار هو زمام كل زمام ، اليه أمور الاجناد » · قلت بغيظ : « يعنى بتهددنى · رئيس الاجناد تبقى بتهددنى » · « فتبسم قائلا » : « أقصد أن أقول لك أنه يلينى فى الرتبة » · قلت بجفاء واشمئناط : « تشرفنا » · فقـــال صاحب الباب مغطيـــا على صوت الجفـاء : « يلى الاسفهسالار حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة ·· بعد كده بقى ·· من يخدم طائفتى الحافظية والأمرية وهما وجه الاجناد ·· وهؤلاء أرباب الأطواق ·· يليهم أرباب القصب ، والعماريات ـ الاعـلام يعنى ـ ثم الطوائف ثم من يترشح لذلك من الآمال » · صفقت كفا على كف وقلت : « والله عال · آأنت يا أستاذ حتوصف لى مولد سيدى القناوى ولا سيدى مش عارف مين » ضحكوا جميعا فى الحال وصفقوا على أكف بعضهم البعض وقال الاسفهسالار : « طب يا أخى لما أنت عارف الموالد ·· مالك مش عايز تتفاهم معانا مش تخليك ابن بلد ؟ » · تنازلت بمد كفى

نحوه فى دعوة للمصافقة فلباها فى خبطة سريعة نزقة أشعرتنى أنه يخفى بداخله طفلا تشرد فى الحوارى والخرابات ونام داخل مواســير المجارى وصادق خفراء المباول ٠ قلت لهم : « ما تقعدوا يا اسيادنا » ٠ فاذا بلفيف من القصرية يقبلون مسرعين كأشباح الذين يغيرون ديكور المناظر فى العروض المسرحية ، عدد من الكراسى الفاخرة الموشاة بالذهب جئ بها وارتصت فجلسوا جميعهم وبقيت وحدى على الدكة الخشبية التى لا ترقى الى مستوى أى دكة فى أى قسم شرطة فى مصر ٠ قال صاحب الباب دون مناسبة : « على فكرة ٠٠ الدولة لا تسند مثل هذه المناصب الا الى أرباب الشجاعة والنجدة » ٠ قلت كأننى أنا فقه : « نعم نعم ٠٠ لا شك ٠٠ ولهذا دخل فى مثل هذا المنصب أخلاط الناس من الأرمن والروم وغيرهما »٠ قال الاسفهسالار والغضب يبرق فى عينيه على بعد آلاف الأميال : « يعنى تقصد أيه مش فاهم » ٠ قلت محاولا كتم نفس الخوف الثابت فى جوفى : « لست أنا الذى يقول هذا ٠٠ أنه المقريزى ٠٠ أنه ليس فقط يقول هذا؛ بل هو الذى قال ما قلته أنت وهو منذ دخولكم ٠ لقد رددتم كلامه بالحرف ـ ربما لأنه كان ترديدا لكلامكم فى الأصل والله أعلم » ٠ قال صاحب الباب فى حرفنة تشريفاتى عريق : « الواضح أن سيدى قد ألفنا مثلما الفناه ٠٠ ليعلم سيدى أننا لا نريد سوى خيره وحمايته ٠٠ وأنت تعرف أننا قد صرنا فى مهب رياح تقذف علينا بالفرنجة ونخشى أن يكون دماغهم قد تفتق عن حيلة جديدة تؤدى بحياة أمير المؤمنين » ٠ قلت وأنا انفث دخان سيجارتى : « طبعا ٠٠ تحرصون على حياته من حيل الفرنج الغادرة ٠٠ ويغتاله أشــباه الرجال وهو يعدى الجسر الى الروضــة » ٠ قال الاسفهسالار : « ونحن نبيد كل دخيل افرنجى غاز ٠٠ وما قصة البردويل ببعيدة » ٠ قلت ضاحكا : « وما لكم أنتم بما حدث ٠٠ لقد دخل بردويل واحتل مدينة الفرما فهبت عليه طوائف الشعب ودمرته عن آخره وحرر المكان لنفسه زمنا فى التاريخ فتفرعت من أنهار العاطفة المصرية الأصيلة بحيرة البردويل » ٠ قال الاسفهسالار بصلافة واضحة : « اسمع ٠٠ أنت لمض وأحنا مش فاضيين لك ٠٠ طلع اللى معاك » ٠ فضغطت ركبتى فى

ركبتى لاوقفهما عن الرعشة المفاجئة ونظرت الى صاحب الباب نظرات استنفار أو استعطاف لا أذكره فصار يهز جميع انامله المضمومة فى الهواء أمام الاسفهسالار طالبا الهدوء والتروى ، صرت أقلد صاحب الباب فى حركته حتى كدنا نلكز وجه الاسفهسالار ، ثم بحركة مسرحية صحت قائلا : « والآن ·· افتحوا آذانكم » · وامتدت يدى داخل جيبى فضغطت على ذر أرجع الشريط الكاسيت الذى كنت أسجله لهم ، وهم يسمعون الأزيز ويتعجبون ويخافون ، ثم ضغطت على الزر فانطلقت أصواتهم تحكى كل ما دار من حوار وما ارتفع من صوت فبهتوا جميعا وركبهم الذعر والدهشة والهستيريا الضاحكة · ونهض صاحب الباب قائلا فى حماس : « فليتفضل سيدى معى لمقابلة الخليفة » · فقمت فى الحال ، تراجع موسعا لى فضربت الهواء بقدم نزقة ومضيت أمامهم فى ثبات وزهو ··

فما أن خطوت خطوتين حتى أحسستنى أمارس الشـــعور بالندم والحنق ، ذلك أن هذا الجهاز لم أدفع ثمنه بعد ، وقد أوصيت فاشتراه لى صديق يسافر الى بور سعيد ، وكنت أظن أن زمالته لى ستمكننى من امتلاك مثل هذا الجهاز بسعر لا يتجاوز ما سنقبضه فى منحة « عشرة أيام » انعمت بها الحكومة علينا بمناسبة دخول المدارس ! لكن الزميل سامحه الله لم يعفنى من الجمركة فبقى له فى ذمتى بضعة جنيهات وعدت أن أدفعها على مرتين على شهرين ·· ولم أهنأ بالجهاز بعد ، فكيف أفرط فيه بكل بساطة كهدية لواحد حتى ولو كان الخليفة الآمر بأحكـــام الله أمير المؤمنين ! · لكننى تعشمت خيرا فيما سوف ـ لابد ـ يخلعه على الخليفة من سائر المنح ، وبحكم المناخ الذى أعيشه خلال هذه السنوات الأخيرة رأيتنى أفكر بنفس المنطق الذى صرت أتنفسه كل يوم : أذهب للسؤال عن صديق فيقولون لى « سافر يرأس تحرير مجلة فى وادى النمــل » أشتاق لعزيز فيقولون لى : « أما علمت ·· ربنا يعطيك ·· ربنا يعطيك ·· لقد بنى بالأمس عمارته السابعة اذ هو يدير بنكا فى سهل الأشرم » · أفتقد شخصا طريفا بريئا من كل ذنب فيقولون لى : « ذهب لينشىء دارا لكذا وكيت » · وهكذا فقدت كل أصدقائى وأحبائى الذين ذهبوا يرأسون

ويرقصون وينشئون ويفعلون مالا يتصوره الجنون ، صحيح انني كثيرا تفاجئني الظروف بواحد منهم أمامي وجها لوجه وربما جلسنا وتذاكرنا ولكنني مع ذلك لا أكون قد وجدته ، حســن ، فليســافر من يريد الى ما يشاء وأما أنا فقد أخترت السفر فى الزمن ويبدو أنه مشروع قد بدأ يؤتى ثماره الطيبة ، لسوف أدخل على الخليفة دخلة كبيرة ، نعم أنا لست أقل من أحد ، سوف اتعاقد معه على انشاء اذاعة مرئية ومســموعة ، يا حبذا لو تعاقدت أيضا على انشاء مصلحة سينمائية جزارية شعبية ، الأفضل أن أكون جامعا مانعا شاملا ، فأتعاقد مع الخليفة شخصيا على انشاء شبكة للقمر الصناعي وأخرى للزراعي ، بهذا وحده استطيع أن أعود الى قاهرة القرن الرابع عشر الهجرى وأجمع الموهوبين المشردين من بنى شلبىوما أكثرهم فأكتب لهم عقودا فى عشرات المهن والحرف بأجــور بالنسبة لهم مجزية تماما ، صحيح أننى سأسفحه فى نصف ما يستحقه تقريبا ليضاف الى مستحقاتى العديدة ولكن أى صعلوك من بنى شلبى يقبل العمل بأى سعر أفرضه عليه ، ثم أننى لن أختار سوى الموهوبين منهم ــ أقصد الموهوبين فى مهنة الخدم ، أكثرهم قدرة على الحركة أحسن من يداعب أطفالى ويوصلهم الى المدارس ، أليق من رأيته يقدم القهوة لضيوفى الأجانب ، أقواهم ذاكرة فى الاحتفاظ بعشرات الحوارات التى سمعها فى عشرات الغرف ليحكيها لى بكل التفاصــــيل ، أكثرهم تجاوبا مع رغباتى وتقمصا لآرائى ، أخفهم دما على قلب زوجتى ، أقلهم قدرة على المساومة ، ثم لماذا يساومون ؟ أننى أعرف أصلهم واذكرهم به لو تبجحوا فبائع الجرائد وبائع الكازوزة وبائع الفول حين يصبحون أفندية محترمين يمسكون الدنانير كبقية الخلق عليهم أن يقبلوا قدمى ظهرا لبطن ٠

أفقت على صاحب الباب يضغط على كتفى برفق قائلا : « أجلس ها هنا برهة » ، وأشار الى كرسى فاذا بنا فى غرفة شرقية عظيمة على صغر حجمها تتفرع منها عدة أبواب من خشب الصندل التخين محفور عليها كلها قصة استشهاد الحسين وكل ضلفة تأخذ شكل صفحة الكتاب المحلى

ببرواز اسلامى جميل • غاب صاحب الباب وراء واحدة منها ثم خرج متهلل الوجه والاسارير • قمت لاستقباله فوضع يده على كتفى همس قائلا فى تبشير : « لقد نقلنا للخليفة كل ما رأيناه بدقة — لسوف يقلدك الوزارة دفعة واحدة اذا كان فى سحرك الذى معك منفعة كبيرة للناس وللدولة » • قلت : « هو ده الكلام •• أى نعم فيه منفعة وأى منفعة » • قال : « على فكرة قلت لمولاى أنك ابن بلد ونقى السريرة وسريع البديهة ومثقف » • قلت : « ربنا يكرمك •• لك الحلاوة ان شاء الله » • قال : « هو الآن فى مجلس النظر فى المظالم — وقد أعطى الاذن بدخولك عليه » ، ثم أضاف : « من حسن الحظ أن أرباب الظلامات قد انصرفوا مبكرا » • ومد يده ليفتح لى الباب فدخلت فتاهت عيناى فى القاعة الهائلة العالية الجدران فى المواجهة سرير الملك من الذهب وخلفه شباك تعلوه قبة ، الخليفة الآمر بأحــكام الله جالس على سرير الملك وحــوله جمع عرفت بالفهلوة أنهم أجلاء أهل الامارة • كنت أعرف أن ثمة طقوسا على أن أفعلها ولكننى تغافلت عنها بلا دوشة دماغ وهتفت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فنظروا جميعا الى فى اندهاش عطلهم عن رد التحية • فأحسست أن موقفى سيبوخ ، فمددت يدى فى جيبى واخرجت الجهاز وقلبته بين يدى ثم وضعته فى جيبى من جديد وعيونهم تكاد تدخل جيبى معه والغيظ والحنق والجلافة والصلافة والقهر والعصبية كل ذلك واضح تمام الوضوح فى سيماهم • كان الخليفة ربعة ، شديد الأدمة — على فكرة مانيش فاهم الكلمة دى لكن شكلها حلو — جاحظ العينين يكاد كل شىء فيه يقول : أنا مهم ، شاب هو فى عز الشباب ، تطل من تحت عباءته عشرات العباءات الثمينة وتلمع على صدره وفى أكمامه ويديه ورقبته عشرات الفصوص الزمردية والذهبية كعيون بلهاء ساحرة فى نفس الآن رفع الخليفة رأسه نحوى على بعده البعيد وقال : « تقدم ياهذا »• فتقدمت بضع خطوات وهزنى الشعور بالضآلة فتوقفت ، فقال الخليفة باسما : « اذا صح ما سمعته فان الدولة ستفيد بك الديار المصرية والعربية أجل فائدة » • قلت : « هو صحيح يا مولاى » قال : « فهل يستطيع هذا الكف المعدنى

الذى يجيبك أن يلتقط الأصوات ويحفظها ويعيد ترديدها من جديد ؟ » ..
قلت : « نعم يا مولاى » . قال : « فهل يستطيع أن يتجسس على أصوات أعداء الخليفة والحاقدين عليه ؟ » . قلت باسما فى تهكم : « نعم .. نعم يا مولاى » . قال « فهل نستطيع أن نصنع منه آلاف من الذهب والفضة والياقوت والصندل ؟ » . قلت : « بكل تأكيد يا مولاى » قال : « فهل يستطيع أن يبدد سأم الخليفة ويعالج وجدان الرعية وأدمغتها من أمراض الفكر والقلق وما الى ذلك ؟ » . قلت : « جدا جدا يا مولاى » . قال : « لو صح هذا لقلدتك وزارتى » . « لسوف اسمع مولاى كل ما قاله الآن » : فأرتبك الجميع وبدا عليهم التحفز والخوف والفرح . قال الخليفة : « اذن فقد قلدتك وزارتى » ثم تأهب وبدا عليه أنه ينتظر منى فعلا ما ، ولما لم أكن أدريه فقد وقفت مرتبكا واكتفيت بالانحناء والاعتدال مرات عديدة ، الى أن لحق بى صاحب الباب فى عدلة أمسكنى فيها ومنعنى عن مواصلة الانحناء وهمس : « ادخل الى مولاك وسلم عليه وقبل الأرض بين يديه » . قلت : « بكل سرور » . وكنت قد رأيت أحدهم ذات مرة يبرك على الأرض بين قدمى الخليفة فيشبعها لثما وتقبيلا كأنها ثغر معشوقته ، ففعلت مثله ، اذ بركت على الأرض ولثمت الأرض من فوق كفى فى « أونطة » متقنة ثم نهضت واقفا فمد لى الخليفة يده فسلمت عليها بحرارة ثم قبلتها فاذا به يمد لى قدمه ، وقفت مشدوها ، وصار الجميع يتبادلون النظر فى كسوف ويغمزون لى نحو قدم الخليفة أن ألثمها هى الأخرى كما يفعلون ، وكنت أعرف أنهم جميعا يفعلون هكذا وأن هذا من شروط العلاقة ، لكننى ظللت مسمرا فى مكانى لا أريم تتملكنى الرعشة . قال الخليفة آمرا : « قبل قدم الخليفة » قلت : « ضرورى يعنى يا مولاى ؟! » . صاح بحدة : « قبل قدم الخليفة » . فلويت شفتى كطفل يئن وتهيأت للجعير الباكى ، ويبدو أن الخليفة قد أحس بأننى سأفعلها فاسترد قدمه الى السرير مفتعلا ابتسامة وقال : « أعفيناك من هذا الأمر تقديرا لظروفك .. أجلس » . فجلست . قال : « هات ما معك » . فأخرجت الجهاز وفتحته ولكن صوته لم يخرج ، فنظرت فيه بقلق وأخذت

آحرك واداعب كل ازراره دون فائدة وهم ينتظرون وكان على رؤوسهم بلاليص مياه ملانة • تصبب العرق منى وقلت بريق جاف : « معنديش فيشة هنا ! » • فنظروا الى بعضهم البعض فى استهجان فصحت قائلا : « قصر زى ده مافيهوش بريزة ولا اثنين » ثم استدركت قائلا : « آه .. نسيت أن معندكش كهرباء » فصاح الخليفة غاضبا : « ماذا كهربا وماذا فيشة وماذا بريزة •• لم لم ينطق » • قلت بأسف : « أصل الحجارة خلصت » • فقال : « أرنى » فأعطيته له ، فصار يقبله فى عجب ويضغط على ازراره بحذر ثم رماه على طول ذراعه فظهر فى الحال من تلقفه وأنا ألاحقه بهلع ، واذا بالخليفة يصيح : « طرشجى نصاب • أعيدوه الى خزانة البنود مرة أخرى » • فهبطت الأيدى على كتفى كالخفافيش وأطبقت •

الفصـل الثـامن

حينما يصبح الحبس موطنا

لم يكن يدور بخلدى أن سوء الحظ سوف يحالفنى هكذا ، حتى ليصبح مصيرى مرتبطا « بزرجنة » هذا الجهاز الصغير المعقد ، كان يجب أن أكون مسيطرا عليه بمعنى أن أعرف كل دقائقه قبل أن أفكر فى اتخاذه وسيلة للتسيد ، عالم ثالث بعيد عنك ، يتصور أن استيراد المنتجات الصناعية من الحضارة أو من التحضر ولا يعلم أنه حتى لو عرف سر الصنعة فهو مجرد مستهلك لها ، بل حتى لو كان يملك مادتها الخام ، ان المسألة أكبر مما يتصور بنو شلبى بكل فروعهم فى انحاء المنطقة ، هكذا رحت أحاول استرضاء الخليفة والتسرية عنه ولكن العسكر سرعان ما أحاطوا بى فى حرج ، اذ يبدو أنهم غير متعودين على مهاجمة أحد ممن يجلسون فى مجلس الخليفة ، ربما كان السبب انهم لم يتعودوا حضور دهماء مثلى يعكرون مزاج المجلس ٠ سبقهم الاسفهسالار قبل أن يستخدموا النذالة معى ، حرصا على مظهر الخليفة لا حرصا على مظهرى بالطبع ٠ وكنت أشعر أنهم جميعا ـ كافة أكابر المجلس واصاغر العسكر يحقدون على لأننى عملتها حلوانة فى سلوانة وامتنعت عن تقبيل قدم الخليفة التى انحنى لها ذوو رؤوس أجعص من رأس أبى عليه السلام ـ أقصد عليه رحمة الله ٠ ولهذا رحت أرتعش مما سوف يصيبنى فور مغادرتنا لمجلس الخليفة الآمر ٠ فمضيت وقد دبرت فى نفسى أمرا ٠٠

تقدمني الاسفهسالار وتعقبني العسكر حتى خرجنا من القاعة وهبطنا الدرج وانطلقنا الى الممر الذى جئنا منه ثم ما لبثنا أن خرجنا من رحاب القصر الى ما يجاوره وكانت خزانة البنود قد ظهرت أمامى على حقيقتها فاذا بها مكان كبير جدا يصلح لاقامة عدد من العمائر الهائلة ناطحات السحاب ، لولا أن السحاب فى عصر ذاك أعلى من أن ينطحه أحد ، وقلت محاولا استعادة مركزى فى نظر الاسفهسالار : « أعرف شركات أجنبية تستطيع أن تقيم لكم فى هذا المكان وحده حيا بأكمله من ناطحات السحاب »٠ فقال الاسفهسالار ساخرا : « ليس من أهدافنا نطح السحاب ٠٠ ثم لماذا ننطح السحاب أو نعمل على نطحه ! » ٠ قلت : « تحلون بها مشكلة الاسكان » ٠ قال : « أهم مشكلة تواجهنا الآن هى حضرتك » ثم تقدمنى ، وفصل ظل شجرة بينى وبينه لبرهة ٠ فخيل لى أن طوابق من الأزمنة تنهار فوق دماغى السحاب وأنا فى محاولة لنطحه مستمرة ، بجهد جهيد استطعت أن أميز فى أعلى طابق زمنى عمائر شويكار هانم التى تقوم فوق دكاكين خان الخليلى ، ورأيت محل البان السنوسى وخلفه المقهى التى أجلس عليها كلما زرت الحسين ، وفى الطرف الخلفى البان المالكى ، وكنت قد أوشكت على الصعود تماما لولا أن شخطة الاسفهسالار أرعدتنى وسمرتنى فى الأرض ، كان قد وصل الى باب خزانة البنود ولم يجد البواب قائما على بابها فشخط فى الفراغ يشتم ويسب ويعترض على سوء النظام الذى يوشك أن يؤدى الى انهيار ، وراح يخطو هنا وهناك بحثا عن البواب التعس ، وراح العسكر يساعدونه فى التلفت والبحث وقد وقعوا جميعا فى لخمة ، قلت هذه فرصتى ، أخذت أشاركهم فى البحث أنا الآخر وأبدى اعتراضى على اهمال هذا البواب ٠٠ « القذر » وأوصى برفده وأزعم أنه لو كان فى عصرنا لشنق ، ثم دحرجت نفسى شيئا فشيئا نحو باب بوابة يفح منها الظلام فاذا بى قد صرت خلف الخزانة فى ناحية بعيدة ، ولم يكن ثمة أحد على الاطلاق يمشى بجوار الخزانة فجلست على بروز عريض فى أسفل الجدار وأحسست بالرطوبة تسرى فى مفاصلى ، ورأيت مجموعة من العسكر يقبلون من بعيد فى خطو عسكرى منتظم ، وكانوا يلبسون زيا

مختلفا ، قلت فى عقل بالى لابد أن احتلالا أجنبيا قد وقع بالبلاد ، فاذا بهم يتحركون فى ثقة واطمئنان شديدين حتى لقد تساءلت : هل هذه صفة المحتل أم هى صفة ابن البلد ؟ ولم أعثر على الجواب لكننى تمعنت فى الوجوه فخيل الى أنها مألوفة لى وفى الملابس فخيل الى أننى رأيتها كثيرا فى البلاد ٠ اختفى العسكر دون أن يعيرونى التفاتا فاستغربت ، بل تجرأت قليلا فنهضت واقفا أنظر الى جدار الخزانة من الخارج فأجده كالحا مفعما من كل ناحيـة ، تجـرأت أكثر فتسلقت البروز وأنشبت أظافرى فى الشباك الصغير حتى وجدت بعض حديدة قد تآكل وتغرز من الحائط فسمح لقبضة يدى بالمرور ومعالجة الباب الحديدى المســـتدير كباب المبرابط فى السفينة ، دفعته فانفتح فنظرت داخل الخزانة فاذا بها حجرة صغيرة تطل على ممر طويل ، اذا بها خالية تماما من أى نفس ، ولم أصدق أن هذه هى خزانة البنود التى حبسونى بها والتى هربت من استئناف الحبس بها ، ونزلت من جديد وجلست فرأيت جموعا هائلة من البشر ، أشكال وأنواع لا أستطيع حصرها ، وجوه حمراء مستطيلة وأخرى سمراء مستديرة وثالثة كالقمر ورابعة كالكرة الشراب ، وجوه لا يجمعها دماء واحدة ولا ملامح واحدة ولا يجمعها أى شىء سوى أنهم جميعا يتكلمون لغة واحدة هى النطق المصرى العامى للعربية الفصحى ، ويصيحون بصوت واحد ذى هدير مهول : « قلاوون أيا قلاوون ٠٠ النصر لك والعون » ٠ الانسان منا يشبه الموج لا فرق ، يمكن أن تجرفه الأمواج بسلامة ، أمواج الحماس دفعتنى فى قلب الجموع رغم أننى لم أكن عرفت بعد ماذا فى الأمر ، ووجدت بين الجموع كل اصدقائى الكبار من أمثال ابن عبد الحكم وابن عبـــد البر وابن عبـــد الظـــاهر وابن تعـزى بردى وابن اياس وابن الغرطوس وابن المركوب وابن المضروب على عينه كلهم يمشون ويبدو أنهم يشـــاركون فى الهتاف مع أنك لو اقتربت منهـــم لوجدتهـــم لا يهتفـــون !٠٠

سحبنى ابن تغرى بردى على جنب وقال فى همس : « ماذا كنت تفعل عند خزانة البنود ؟ » . قلت فى شىء من التفاخر : « كنت فى الحبس » . فلم يبد على سمت الرجل ما ينبىء عن تقدير أو أكبار ، فاستغربت ، فاستغرب من استغرابى فقلت له أن التفاخر بالحبس عدم المؤاخذة آفة كانت منتشرة بين جيلنا نحن العيال والخارج منه بطل موشوم بشارة النضال والعياذ بالله ، ثم أبعدت الموضوع فقلت لابن تغرى : « ما الأمر ؟ ما الذى يحدث الآن ؟ » . قال أن الأمة خارجة لاستقبال الملك الناصر محمد بن قلاوون العائد منتصرا من الكرك وهو السلطان التاسع من ملوك الترك بالديار المصريـة . قلت : « فهل كان يحارب التتـار ما يزال ؟ » . قال : « لا .. لقد أصبح التتار والمغول حقيقة بارزة وموجودة فى المنطقة وبطل الحرب معها باستثناء المشاحنات والخلافات الحادة المستمرة .. لقد انهزم التتار والمغول مرات وانتصروا مرات ولكنهم اكتسبوا وجودا فى المنطقة لا قبل لأحد بمناهضته » . قلت : « فكيف قدر لهم ذلك ؟ » . قال : « أنت لا شك تعلم الحقيقة المرة » قلت : « زدنى بها علما » . قال : « ان أى مستعمر أو غاز لا يعدم بين أبناء هذه الأمة العريضة جنودا لصفه .. ما عليه الا أن يدخل قويا .. فان كانت له السيطرة على المعارك الأولى فلتنهزم بعد ذلك جيوشه وليدب فيها الطاعون فلسوف يستعيض عنها بجنود متطوعين ! » . قلت : « هذه مبالغة يا ابن بردى .. أنت تتهم امتنا بابشع التهم » . قال : « وأين هى أمتنا وسط كل هذه الركام .. ان الغزاة والمستعمرين سرعان ما يصبحون من بين امتنا » « وكل الموبقات ترتكب باسم امتنا » . فقلت : « هذا صحيح يا ابن تغرى ولكن المؤسف أن كل السفاحين والغزاة والمستعمرين استخدموا جنودا من بيننا .. وكم من أبطال ضاعوا بأبخس الأثمان وكم من عظماء قتاهم أشباه الرجال وكم من مواقع عالية القيمة هبطت الى سفح الحضيض فى قابل الأيام » . قال ابن تغرى وهو يغذى انفه ببعض النشوق : « هو الظلم .. هو الجبـروت المستبد يملأ الأرض جررا .. ان تفشى الظلم

واستبداده يخلق من الأخوة أعداء ثم ما يلبث أن يخلق من الشخص نفسه عدوا لنفسه ذلك هو الانتحار المبين لهذه الأمة أن يفرط الفرد فى الجماعة فتسقط من فوقه ومن خلفه ومن تحته كل الجدران والستر » •
ثم قال بعد برهة : « هذه هى المرة الثالثة التى يتسلطن فيها الناصر محمد بن قلاوون ويعود من الكرك ليجلس على اريكة السلطنة فى القاهرة • وفى هذه المرة الأخيرة كان التآمر عليه من اثنين من مماليك ابيه المنصور هما بيبرس الجاشنكير المدعو بالمظفر والآخر يدعى سلار •• وكان قد قرف من السلطنة بعد عودته من حروب التتار فى الشام واكتشف أنه لم يعد يحكم وان مقاليد الأمور بيدى هذين المملوكين مع ملاحظة أن الثانى وهو سلار استعمل الخيانة المزدوجة فباع السلطان ابن استاذه للجاشنكير وباع الجاشنكير فيما بعد للسلطان وها هو ذا يجلس فى انتظاره فى القلعة بعد أن أصدر البيانات التى تجرم الجاشنكير وأفرج عن مماليك السلطان الذين كان الجاشنكير قد اعتقلهم » • نفخت فى غيظ وقلت : « اسكت يا ابن تغرى اسكت ولا تقلب المواجع » •• وكانت ساعة يدى تشير الى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال سنة ثمانية وتسعين وستمائة •• ثم عدت وقلت : « ولكن كيف تأتى للسلطان أن يعود منتصرا على مماليك ابيه رغم أنهما قد جرداه من كل شىء ورغم أنه ساعدهما على ذلك قرفا وتقززا » • قال ابن تغرى : « ان الكلب يصاب بالسعار حين يذوق طعم الدم الساخن واللحم الحى •• ولعبة السلطنة هكذا •• فما اكتفى المملوك بطرد ابن استاذه ومولاه وانتزع ملكه فأراد أن يجهز عليه لتستقر مؤخرته على أريكة السلطنة •• ولكن مماليك قلاوون البرجية كانوا عددا مهولا فى الشام والعراق ومصر وكان يصرف عليهم بسخاء ويعلمهم الفروسية ويتطلع عليهم باستمرار •• فان ظهر بينهم كلب عقور فغى الآخرين عوض •• فقد دخل الناصر قلاوون القاهرة قادما من منفاه فى الكرك محميا بمماليك وكلهم ولاة دمشق وحلب وحمص وحماة ورجالهم • وسكت ابن بردى منشغلا فى أمور تحدث وهى غاية فى العجب •

.. كانت ثمة خناقات ومساومات عالية الصوت ترتفع من بين مجاميع هائلة على ضفتي الطريق القادم من القلعة تشق باب القصرين ، هـذا يقول : « ادفع خمسين درهما » • فيقول آخر : « ادفع سبعين » • وعلى البعد يقول ثالث « خذ لك مائة درهم » • فقلت : « ما الأمر يابن تغرى » قال باسما : « هؤلاء الواقفون على الأبواب هم أصحاب البيوت » • قلت : « فلماذا يساومون ؟ » • قال : « ان السـلطان سـوف يمر على هـذه البيوت » • قلت : « ليكن •• فما الأمر » • قال : « على من يريد أن يصعد الى أحد هذه البيوت لينظر من الشباك أو المشربية أو الشرفة أن يدفع خمسين دينار الى مائة دينار ! » فقلت : « يا للعجب » • ثم مضيت أزحزح نفسي حتى اقتربت من موكب السلطان الذى كان قد وصل الى باب النصر حيث ترجل الأمراء كلهم وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكناش الفخرى أمير سلاح ، وأخذ يحمل سلاح السلطان فأمره السلطان أن يركب لكبر سنه فامتنع ومشى ، ومشى كل أمير فى منزلته ، وفرش كل منهم الشقق من قلعته الى قلعة غيره التى أنشؤوها بالشوارع ، وكان السلطان اذا تجاوز قلعة فرشت القلعة المجاورة اليها الشقق حتى يمشى عليها بفرسه مشيا هينا من غير هرج بسكون ووقار لأجل مشى الأمراء بين يديه ، وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى ووقف حتى يعاينها ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك •• ثم •• يا الهى ما هـــذا الذى يحدث فى الموكب ؟ • لحقنى ابن تغرى بردى قبل أن يصيبنى الجنون وقال انظر فى هدوء فنظرت فاذا أمراء مقيدون ورؤوس معلقة فى رقابهم قال ابن تغرى أنهم أمراء التتار وهذه رؤوس من قتل منهم •• ورأيت ألف رأس على ألف رمح •• ورأيت خلفهم عددا من الأسرى بلغ عدهم ألفـا وستمائة وفى أعناقهم أيضا ألف وستمائة رأس وطبولهم قدامهم مخرقة • فقلت يا ابن تغرى هل نحن فى عودة الناصر قلاوون الثالثة أم الثانية ؟ قال اننا فى عودته الثانية عقب الحرب • قلت فكيف قلت أننا فى الثالثة ؟ قال أننى قد هربت منه أثناء الموكب برهة ولما عدت اليه أخطأت الطريق فعدت الى العودة

الثانية خاصة وأن الموكب تشابه فى كل عودة ما عدا وجود الأسرى ! •
ثم أننى فرحت بمنظر القلاع فصرت أتابعها • والمراد بالقلعة هنا الزينة المركبة على قلعة من الخشب معلق عليها المصابيح وهى التى نسميها فى عصرنا بقوس النصر •• هذه قلعة الأمير ناصر الدين ابن الشيخى والى القاهرة بباب النصر ، يليها قلعة الأمير مغلطاى أمير مجلس ، تليها قلعة ابن ايتمى السعدى ، تليها قلعة الأمير سنجر الجاولى ، تليها قلعة الأمير طغريل الايغانى ، ثم قلعة بهادر اليوسفى ، ثم قلعة الأمير مهدى ، ثم قلعة بيليك الخطيرى ـ « على فكرة الراجل ده له جامع فى بولاق اسمه جامع الخضيرى » ـ ثم قلعة برتغى ، ثم قلعة مبارز الدين أمير شكار ، ثم قلعة أيبك اخازندار ، ثم قلعة سنقر الأعسر ، ثم قلعة بيبرس الدوادار ثم قلعة سنقر الكاملى ثم قلعة موسى بن الملك الصالح ثم قلعة الأمير آل ملك ثم قلعة علم الدين الصوابى ثم قلعة الأمير جمال الدين الطشلاقى ثم قلغة الأمير سيف الدين آدم ثم قلعة الأمير سلار النائب ثم قلعة الأمير بيبرس الجاسنكير ثم قلعة بكناش أمير سلاح ثم قلعة الطواشى مرشد الخازندار ثم قلعة بكتمر أمير جاندار ثم قلعة أيبك البغدادى نائب الغيبه •• ثم تهت بين القلاع فجأة وتهت بين عديد الأمراء الذين نهشوا لحم مصر عصرا بعد عصر •• ثم تكاثر الزحام واذ بنا قد وصلنا الى البيمارستان المنصورى ببين القصرين حيث نزل السلطان ودخل ليزور قبر والده الملك المنصور قلاوون وأخذ القراء يقرؤون أمامه •• ثم اذ بالزحام يتحرك من جديد ويظل يدفعنى دون وعى حتى لقد اختفى كل من أعرفهم من الموكب بل واختفى السلطان نفسه وحاشيته وجنوده ولم يبق سوى الأمراء المقيدين والأسرى والرؤوس المدلاة من رقابهم ، وكان ثمة من ينهال علينا بالضرب لندخل فى مكان ما نظرته فاذا به •• خزانة البنود •• يا للمصيبة •• ثانى •• خزانة البنود مرة أخرى ؟ • مالى أنا ولهذه البلوى يا أسيادنا •• أنا مش معاكم •• أنا مش أسير •• أنا لست من عصركم أصلا • ولكن تقول لمن •• لقد دفعنا الزحام بقوة الى داخل الخزانة فصرنا وكأننا فى قبر ضيق يزهق الأنفاس •• ثم بدأت

المناحة العظمى : صراخ وعويل بلغات لا يعرفها ابن شلبى ولم يسمعها فى حياته ، لطم خدود وشق جيوب وأصوات تكاد تشق الجدران وتخترق أجواز الفضاء وأخرى لا تكاد تعرف أن كانت تضحك أم تبكى أم هى هيستريا البكاء تقود الى الضحك أو عمق الضحك يقود الى البكاء ، وكانت رؤوس القتلى المدلاة من رقاب الأسرى تتصادم ببعضها وتتشابك من فرط الزحام وتنشر على الوجوه بقايا دم جاف أو نثارات من اللحم البشرى المفروم ٠

عجب بل وأعجب من العجب أن يحل الهمود فجأة ومرة واحدة جميع أنحاء الخزانة كأن لم يكن فيها حياة صاخبة منذ ثوان معدودة ٠ أضأت النور فى دماغى فامتدت أمامى عشرات المئـات من الجثث المرميـة فوق بعضها وفوق الأرض ، الرؤوس المدلاة من الرقاب تتكوم فى مناطق وتعزل بين الأجساد تارة وتقرب بينها تارة أخرى ٠ وكانت الخزانة ممتدة وكبيرة وحافلة بالغرف ، وكنت صغيرا أصغر من الحدث ومن محتويات الخزانة فرحت أمشى فوق الجثث الحية كنملة ، فاذا بى أجد حجرات الخزانة قد امتلأت هى الأخرى بالجثث حتى لم يعد فيها موضع لنملة ٠ تسلقت احدى النوافذ ونظرت منها فرأيت دماغ الحارس منكسرا على صدره يغط فى نوم عميق ، فقرصته فى أذنه فهب صائحا مذعورا فقلت له : « لماذا تضعوننا فى الحبس يا ظلمة » ٠ التفت الحارس نحوى صائحا فى ألم أراه كثيرا فى أصوات المصريين فى عصرنا : « يو ٠٠ ه ٠٠ قلنا ليس حبسا ٠٠ قلنا مائة مرة أنكم لستم فى الحبس ٠٠ السـلطان الناصر محمد بن قلاوون حفظه الله أبطل السجن بخزانة البنود ومنحهـا لكم تقيمون فيها أكثر الله خيره فهيا أدع له » ٠ قلت : « تقصد من نحن ؟ » ٠ قال : « أنتم ٠٠ الأسرى ٠٠ أولاد الروم والتتـار والمغول » ٠ قلت : « هذه أول مرة أرى فيها الأسرى يعاملون كأنهم ضيوف » ٠ قال الحارس وهو يلعب شاربه فى غمز متواصل : « انك أنت لا تعلم أن السلطان قلاوون أعزه الله يختلف عن كل السلاطين » انه عدم المؤاخذة يهادن ملوك الفرنجة ويشترى ودهم ٠٠ انه رجل لا يحب وجع الدماغ ولا المشاكل

خصوصا اذا كانت قادمة من وراء الحدود ٠٠٠ صحيح أنه حارب التتار والمغول وانتصر عليهم عدة مرات لكنه فى النهاية ليس محاربا محترفا ٠٠ أقصد ليس يعيش ليحارب ٠٠ ولهذا أحبة الناس ٠٠ أجد معك تنشيقة نشوق لوجه الله ؟ » ٠ قلت : « لا ٠٠ معى كودايين بيور وريتالين وأستطيع أن أعطيك شما تنزل بك الأرض وتطلع برأسك السماء » ٠ قال : « هل هو كالنشوق ؟ » قلت : « أفظع بكثير ٠٠ هو مخدر اخترعه الفرنجة وتاجر فيه الصيادلة وكسب من ورائه تجار المخدرات أطنانا من الفلوس من دماء الشعب ٠٠ ونشروه بين الشباب والشيوخ على السواء ٠٠ أعرف رجلا يشم فى اليوم الواحد بأربع مئات من الجنيهات مع أنه ليس يعمل فى أى عمل ولابد أن فلوس الشم وفلوس الأكل تأتى من مصادر غير مشروعة » ٠ هز الحارس رأسه وقال : « عجيب والله ٠٠ لقد أكلت الحشيشة منذ المغرب وضاع مفعولها منذ العشاء فأرحنى بشمة مما معك » ٠ قلت : « فهل تفتح لنا الباب لو أعطيتك ما تبغى ؟ » قال : « الباب سيفتح من تلقاء نفسه فى الصباح ٠٠ لكى تدخلوا وتخرجوا منه لابتياع حوائجكم » ٠ قلت : « وهل سيختفى الحراس ؟ » ٠ قال : « فيما بعد ٠٠ يحلها الله » وهنا تحركت احدى الجثث تحت الشباك مباشرة وقالت بعربية مكسرة : « كل ما يريده الحارس موجود معى » ٠ هبطت اليه فى الحال وطلبت رؤية ما معه ، ففتح جرابا يشبه الزنبيل من قماش كتانى مشمع حافل بالأربطة ٠ أخرج قطعة كبيرة جدا من الحشيش وانتظر ، ثم أخرج علبة من الصفيح ملآنة بالنشوق ، وانتظر ، ثم أخرج علبة أخرى ملآنة بالأفيون عرضها على وانتظر ، ثم أخرج قارورة كبيرة تلوح منها رائحة العرق والزبيب المخمر » قلت : « ما شاء الله ٠٠ ما كل هذا الذى تحمله معك ؟ : قال : « كانت هذه شغلتى فى الحياة فى بلاد الشام منذ أن جئت اليها من الروم ٠٠ رأيت الناس يطلبون هذه الأشياء بكثرة فصرت أحملها لهم وأبيعها بأغلى الأثمان » ٠ أخذت من كل شىء شيئا يسيرا وقلت له أن يعيد أشياءه فأعادها ٠ وهنا تحركت جثة أخرى لرجل ضخم غاية الضخامة ، وتقلب فانفردت أعضاؤه فوق الجثث المجاورة فتأوهت وصرخت وانزاح رأس القتيل المغلق فى رقبته وخبط شخصا فى أنفه فاقشعر وبدا

ـديه القرف رغم أنه هو الآخر يفعل نفس الفعل فيمن يجاورونه • تعرى صدر الرجل الضخم فاذا به موشوم بعلامة كبيرة عرفت منها أنه من أكلة لحوم البشر ، فأقشعر بدنى من الخوف ، قال الموشوم : « ماذا يطلب هذا الحارس اللعين ؟ » : « لا شئ لا شئ هدئ من روعك أنت » • قال وصوته يرن فى بطنه التى كالقبة العالية : « ظننته يثير المتاعب •• اذن لقمت وأكلت رقبته خاصة وأننى جائع » • قلت « فلماذا لا تأكل هذا الرأس المعلق فى رقبتك ما دمت جائعا ومن أكلة لحوم البشر ؟ » • قال بهدوء : « هذا لحم بايت » • فقفزت بعيدا عنه فارتطمت بسيدة نصف جميلة غبراء الوجه ممزقة الثياب وكانت تعانى من اختناق وتحاول فك الحبل عن رقبتها ، ذلك أن رأس القتيل المعلقة فى رقبتها صارت طوال الطريق تلف وتبرم فلما نامت وتقلبت انجذبت الرأس الى ناحية أخرى فاشتد الخناق على رقبتها • ساعدتها فى تخليص رقبتها بتقطيع الحبل ووضعنا رأس القتيل فى الشباك • فانشرح وجه السيدة وقالت : « سـوف أكافئك » ، وفتحت زنبيلا كبيرا أخرجت منه مجموعة قوارير ثم بقى فى الزمبيل شئ كبير فقلت لها : « ما هذا ؟ » قالت : « المعصرة •• معصرة الخمور » • قلت : « تقعين فى الأسر بمعصرة خمورك ؟ » • قالت : « هكذا انقض علينا الجند ونحن نقوم بعملنا فى الأسواق » وقلت : « فكيف كان هذا الموشوم لحظة وقوعه فى الأسر ؟ » قالت : كان فى المعارك •• أنه جندى مرتزق يعيش فى المنطقة منذ سنين طويلة يقاتل مع هولاكو وغيره •• لقد وقع مثله كثيرون وهم معنا هنا » • ثم أفرغت لى قليلا مما فى احدى القارورات ومزجته بشئ من قارورة أخرى وشئ من قارورة ثالثة فلما ذقته اشتعلت رأسى شيبا من فرط التلذذ ، ثم أعطتنى قارورة كاملة احتفظ بها وقالت : « اذا كنت صديقا للحارس فأنا سوف أكون صديقتك » • قلت لها : « نعم سوف يكرمنا الله كلنا » • وقمت من جوارها الى رجل خنيس منكسر الرقبة فى ذلة أشار لى فتوجهت اليه فهمس فى أذنى قائلا : « أصديق للحارس أنت ؟ » • قلت : « نعم » • قال : « أستطيع أن أمنحك هدية عظيمة ! اذا جعلته يسربنى من الباب » •

قلت : « ما هى الهدية ؟ » • قال : « لدى مجموعة جوارى جميلات أعطيك منهن واحدة مجانا » قلت : « من أين لك بالجوارى ؟ » • قال : هى مهنتى •• أتاجر فى الجوارى أنا •• أشتريها وأتسوقها من كل أنحاء الأرض لأبيعها •• وها هى ذى أمامك خـذ منها ما تشاء » • وأشار الى مجموعةمن النساء الجميلات غاية الجمال يرقدن فى غيبوبة تامة ، فأندس الخدر فى رأسى مصحوبا بقليل من الغضب وعشمته خيرا ثم شرعت فى الانصراف فاذا بمن يشير لى ، كان شابا فى مقتبل العمر أنيق الملبس فى يده حقيبة كبيرة تشبه الصندوق يضمها الى صدره وكان قد فقد الاحساس بوجود رأس القتيل المعلقة فى رقبته فانزاحت الى الوراء واستقرت على كتفه كجزء منه ، تخطيت الجثث حتى وصلت اليه فقال : « هل تريد رشوة للحارس كيما يفك أسرنا ؟ » • قلت : « لا بالطبع ولكن ماذا لديك من الهدايا ؟ » • همس فى أذنى قائلا : « معى جواهر نادرة •• ها هى ذى » • وخبط على الحقيبة فشخلل الذهب داخلها فقلت : « ما شاء الله •• هل أنت جواهرجى ؟ » • قال بكل صدق وبراءة : « لا •• أنا صبى لأحد الجواهرجية فى العراق •• وكنت متوجها الى الشام لتسليم هذه الجواهر لأحد عملاء صاحب المحل الذى أعمل به فلما هبط القدر فى صورة جند المسلمين اقتادونا كلنا دون تمييز وأنا مستعد للتفريط فى كل هـذه الجواهر اذا سمحوا لى بالخروج والعودة الى صاحب المحل » • قلت : « هات ما تريد أعطاءه للحارس » • ففتح العلبة وأخرج خلخالا من الذهب الصافى حشرته فى جيبى وطمأنت الشاب ومضيت فى شعور بالأهمية • اعترضنى رجل مهذب وقور قائلا : « لست أملك شيئا ولكننى أملك هذا » « وأشار الى دماغه » • قلت : « ما شغلتك يا هـذا ؟ » قال : « نفكر •• يستعان بى فى تخطيط المعارك والخلاص منها ومن الأزمات وقد وقعت فى الأسر ظلما وعدوانا » • قلت : « سوف نستعين بك فى الوقت المناسب » • ثم تركته ومضيت ، فاعترضنى آخر نحيف القوام على صدره صليب من الذهب وقال : « وأنا •• ألستم فى حاجة الى ؟ » • قلت : « فما شغلتك ؟ » • قال : « أنا طبيب مجند •• وأعرف الكثير

فى شؤون الطب » قلت : « سوف نستعين بك أنت الآخر فى الوقت المناسب » · وتركته ومضيت وصرت أتلقى من الجثث عروضا متواصلة أدوس فوقها وأتخطاها ، فهذا نجار وهذا حداد وهذا خياط وهذا شاعر وهذا وهذا وهذا الى أن فوجئت بما يشبه الدائرة غير المستباحة ، حيث يقف حرس من الأسرى لهم سمات خاصة ومظهر خاص مع أنهم لا يزالون يحتفظون برؤوس القتلى المعلقة فى رقابهم · قلت : « من أنتم ؟ » قال أحدهم : « نحن رجال الأمير ·· » وقلت : « أى أمير ؟ » قال : « هو أمير تترى ينام فى الداخل بعد أن فككنا عنه قيوده ·· كان أميرا قبل الأسر وكنا بعض رجاله ألآديشة وسوف يظل أميرا فى الأسر ونظل رجاله أيضا » · فنظرت فى الحجرة فوجدتها قد أخليت من الجثث واستأثر بها الأمير وحده وقد نام كالقتيل وتصاعد شخيره · فأردت الانسحاب ولكننى رحت أتبين طريقى فوجدت أن عدد الدوائر غير المستباحة كثير ، فعرفت أن عدد الأمراء كثير وأنهم استأنفوا الامارة فور وقوعهم فى الأسر · قلت لمن هم أمامى : « وكيف تتوفر للأمير أمارة داخل الأسر ؟ » · قال أحدهم : « كل أمير معه حامل خزانته وفلوسه ·· أن الأمير لا يتحرك هكذا كبقية البشر » · قلت : « هذا شىء عجيب والله » · ثم جلست فى مكانى فوق أى أحد ورحت أفكر فى الانتماء لأى من هذه الدوائر وصوت دماغى يصيح : ما أعجب ما سوف نراه فيك يا خزانة البنود ·

الموشومون يقيمون في الحبس دولة قوية

بحكم كونى من بنى شلبى الأصلاء فان خبرتى بالحياة أعطتنى شهادات فى اكتشاف الأقوى ومن ستكتب له الغلبة فى السيطرة ، انتهازى أنا لا بأس ، لكننى يعلم الله لا أنتهز من وراء ذلك سوى الشعور بالأمن والاطمئنان ، غيرى ــ وربما كانوا من بني شلبى أيضا ــ ينتهزون الكثير والكثير من وراء انتظارهم للقادم الجديد لحظة يشيع فى الأفق نبأ قادم جديد ، تراهم يقيمون معه فى جسور الود حتى لو لم يكن بينهم ود على الاطلاق ، حتى لو كان قيام الود بينهم مستحيلا من الأساس لكنهم والحق يقال موهوبون فى مد الجسور الوهمية فيما بينهم ــ هؤلاء القادمون الجدد ــ لا لشىء الا لكى يدخل كل منهم فى الآخر ويتكشف نقط ضعفه التى يمكن أن يضربه فيها اذا ما لاح فى الأفق نبأ رواح أو قدوم • بحكم كونى من بنى شلبى تعلمت الانحياز للجانب الأقوى يقينا من وهم العدالة الا بين الأقوياء وريثما يغفل أحدهم برهة • وهكذا استشعرت أن ذلك الأمير التترى ستكتب له الغلبة فى السيطرة على خزانة البنود ، استشعرت ذلك من الواقع الذى وضع نفسه فيه ، فها هوذا يحتل أهم وأنظف بقعة فى الخزانة : الركن الذى كان يجلس فيه أمناء الخزانة للاشراف على المحتويات ودخولها وخروجها ، أشبه بفراندة كبيرة عالية عن الأرض بأربع درجات رشيقات من الرخام الأصيل وتمتد على الجانبين بدرابزين من

النحاس الأصيل أيضا القائم فوق أعمدة من الرخام ، ثم أن عدد مقدميه – أى أولئك الذين تعود فى غير الأسر أن يتقدمهم بالامارة – كبير جدا ، ما يزيد عن عشرة رجال تتميز حركاتهم وايماءاتهم بمظاهر غير عادية . اتخذوا مجلسهم حوله غير عابئين بما هم فيه من حال سيئة ، أما حراسه فحدث ولا حرج ، يزيد عدده عن ثلاثين أو أربعين غلاظ شداد من بينهم خمسة أو سبعة من الموشومين أكلة لحوم البشر ، كانوا يفقون فى وضع التحفز .. الحراس أمام هذا النصب الجميل .. أما الأمراء الآخرون فقد تناثروا وسط الحشد المهول وفوقه بما يذكرك بسرادقات الطرق الصوفية حين تنتشر وسط مولد الحسين أو أى مولد . هذا أمير أحتل حجرة كانت مخصصة للسيوف ووقف حراسه على ضفتى بابها . وهذا أمير احتل حجرة الشارات والأعلام ، آخر احتل حجرة كانت مخزنا لعدد الحرب والزرد ، وغيره احتل غرفة استقبال الزوار الكبار الذين كانوا يفدون الى الخزانة أيام مجدها لاختيار ما يطلبونه منها .. وفيما عدا ذلك تكومت الجثث فوق بعضها وصارت تصدر أصواتا لا حد لرهبتها لا تعرف أن كان أنينا أو زلزالا بشعا .. وكانت رؤوس القتلى قد انخلعت عن الرقاب وصنعت أكبر مشكلة فى الوجود يمكن أن يتعرض لها قوم كهؤلاء لا يعرف أحدهم الآخر بل لا يعرف ان كان قد حارب فى صفه أم فى صف عدوه ، أنهم جنود مرتزقة على مواطنين أروام على مواطنين مغول على مواطنين من الفرس على مواطنين من التتار وغيرهم تجمعت فيهم كل هذه الجنسيات بل آن بينهم بعض المصريين الذين كانوا يمارسون التجارة فى الشام وبغداد وأوقعهم حظهم العاثر فى لحظة أسر لا تعرف الرحمة ولا تقبل التفاهم .

من عند النصب النحاسى زحف أربعة لا غير من الموشومين ، كل منهم يتقدمه كرش كقبة القلعة أو أضخم ، والوشم على صدره الكبير ينسبه الى طائفة الحيوانات البشعة المخيفة ، زحف كل منهم فى اتجاه ثم وقف صامتا ، ثم تجاوبت ضحكاتهم الأربع كأنما السماء ترعد ، فسكت صوت

الزلزال تماما ورددت جدران الخزانة أصداء قلقلة الضحك الخشن ؛ صار كل منهم يجمع من الآخرين رؤوس القتلى المربوطة جيدا فى حبال متينة ، يشبك فى كل اصبع ما يزيد عن عشرة حبال . ثم مضى أربعتهم نحو باب الخزانة كل منهم هرقل تتدلى من ذراعيه القويتين خمسون رأسا على الأقل ، حتى اذا ما وصل أولهم الى باب الخزانة ضربه ببوز قدمه فاهتزت الجدران بعنف واضطر الحارس الى فتح الباب ، فيقدمه ضرب الموشـوم الحارس فرماه عند آخر قصر بشتاك وأخرس بقيـة الحرس وسمرهم فى مكانهم ، وبنظرة أمر غيره ففتحوا الباب عن آخره وصار هو يرمى بالرؤوس الى الشارع العمومى ، ثم يتسلم حمل زملائه ليرميه ، ثم صاروا كالفعلة يناول بعضهم بعضا حبال الرؤوس بالعشرات وصاحبنا يقذف الى الشارع العمومى حتى صنع أكواما صغيرة من الرؤوس منع المرور تماما وتكاثر الناس على الجانبين وفى المشربيات ينظرون وقد عقد الذهـول ألسـنتهم لكن بعض الحـرافيش كانوا من فـرط الاحساس بالذعر والفجعية يضحكون ضحكا أسود الوجه كثيف الرنين ، ثم أن الأبصار فى الشارع كلها ــ وقد بدا لنا الشارع من داخل الخزانة جميلا حقا اذ يمتد فى أناقة واتساع ليفصـل بين القصر وبين حى العطوف المنتمى اليه ــ تعلقت بمشربية معينة على مقربة بعيدة قليلا من الخزانة تنبىء عن بيت عز وفخفخة أعلى بكثير من فخفخة حى العطوف ، وكان يطل منها ــ المشربية ــ وجه زجل وقور تسبح فى دمائه الحمراء بحيرات من الألم والضيق والاحساس بالعار ، ولما انتبهت اليه العامة راحوا جميعا يلوذون به من تحت المشربية ويتحدثون معه فى ذعر وهو يهز رأسه فى تهديد مبطن بالاحساس بالقهر ، وكنا قد خرجنا بدورنا من الخزانة نتنسم عبير هواء الشارع ولكن على حذر وخوف من الاختلاط بالمارة لئلا تتعرض لمكروه ، فسألنا أحد الحراس عن هذه الشخصية فقال فى قليل من الذلة وكثير من الطيبة أنه « الأمير الحاج آل ملك الجوكندار » . فاهتز بعضنا ولم يعبأ البعض والموشومون يواصلون رمى الرؤوس في الشارع والناس من خوف يتقافزون بعيدا ويغلقون أبواب المشربيـــات كل برهة تفاديا

لنثارات اللحم الجاف النتن • ثم اذا بالموشوم الأكبر وقد انتهى من مهمته وسنع ما بين رجليه كصبى شقى ووضع أصبعيه فى فمه فأطلق صفير القاطرة ، فانتبهنا جميعا فأشار لنا أن هيا الى بيتكم ، انصعنا جميعا اليه ودخل هو الآخر وأغلق الباب وراءه كأن شيئا لم يكن ، وهنا ارتفعت بعض الأصوات المرحة وبدت الخزانة كأنها اتسعت أضعاف حجمها وصار من الممكن أن يسير البعض فى سهولة • وكان موشـــومون آخرون قد تكفلوا بفتح طرق بين الأجســاد تربط أماكن الأمــراء بعضها ببعض • فوجدتنى أنحاز الى الأمير ذى المقصورة النحاسية الرخامية ، وكان الزلزال قد انتقل من الخزانة الى الشارع وبلغنا أصوات حركتهم وهم يقومون بتنظيف الشارع واخلائه من البلاء ، ثم أن التعب هدنى فانحنيت وكنا بجوار المقصــورة وتمددت نصف نائم ، وفى اللحظة التى شعرت فيها بالنوم الحقيقى يملأ جفونى تيقظت من جديد على ناس من حوالى يبكون فى صمت وينشرون عدوى البكاء فى أنحاء الخزانة • تقلبت متململا اصطدمت بسيدة ذات أنف رومانى وحواجب غليظة مبرومة سوداء وعينين واسعتين عميقتين ، تأسفت لها فلم تعبأ بأسفى انما استمرت فى البكاء ، قلت لها : « لماذا تبكين يا ست الستات ؟ » قالت : « وهم أيضــا يبكون لنفس السبب » • قلت : « فما هو السبب يا ست الستات ؟ » • قالت : « لأننا رمينا بالرؤوس وضاعت منا الى الأبد ! » • قلت فى استغراب : « وهل كنت تفضلين الاحتفاظ بها ؟ » • قالت : « لا •• ولكن كنت أؤمل أن يكون من بينها رأس أبى •• ومعظم هؤلاء كان كل منهم يتوقع أن تكون رأس أخيه أو ابنه أو ذويه بين هذه الرؤوس •• جاؤوا بها من موقع القتال » • ثم واصلت البكاء • فقلت لها : « هونى عليك يا ست الستات •• هكذا المصير المحتوم والبكاء لا ينفع » • فاعتدلت كأنها وجدت من يسليها وقدمت لى قطعة صغيرة من تمرة جافة كان لها مذاقا عظيما ، ومال رأسها على كتفى فى عفوية أو قصد لا أعرف لكننى تركتها تستغرق فى النوم واستغرقت أنا الآخر بعدها مباشرة •• ولكن هل يهنأ أحد بنوم فى خزانة البنود وهى على هذا الوضع ؟ ••

سرعان ما عدت الى يقظتى بعد اغفاءة قصـــيرة لاكتشف أن هذه السيدة الرومانية الأصــل العربية اللســان قد صارت من متعلقاتى فى الخزانة ، فقلت لها : هل أنت لى ؟ » • قالت : « نعم » ـ وأضافت بعربية مكسرة : « على سنة الله ورسوله » فعرفت أنها عاشرت العرب منذ طفولتها ، وقلت : « وأنا لك •• على سنة الله ورسوله » • بعد برهة وجيزة صاح فى القوم صوت جهورى : « هل بقى من النساء من لم تجد لها زوجا ؟ » فاندهشت حتى من صارت شبه زوجتى شعرت بالدهشة والخجل ، واذا برجال من حرس الأمراء يقبلون نحو المقصـورة النحاسية من طرق بين الأجساد متعددة ، بعضهم يسوق أمامه بعض النساء والبعض الآخر يحمل أشياء أخرى غامضة ، تساءلت عن كنه ما يحدث فقالت من صارت شبه زوجتى أن بقية أمراء الحبس قد بادروا بارسال الهدايا الى الأمير «خزعل» • قلت : « فهل تعرفينه ؟ » • قالت : « عرفتهم كلهم خلال الطريق •• كلهم أمراء وحالهم أغرب من الخيال » • قلت : « كيف يا ست الستات ؟ » قالت : « أما الأمير خزعل فقد تقلد الامارة مقابل المشاركة فى غزو بغداد والديار العربية كلها •• أى أنه خارج العرب لم يكن له امارة » • وقد سقط فى المعركة كل قواده وذويه ولم يبق سواه على قيد الحياة » •• ثم همست فى أذنى بأنفاس لا يمكن تمييزها اذا كانت رومية أو عربية : « وقد وقع الأمير خزعل فى الأسر وهو يدبر للهروب من تجريدته نفسها والاحتماء بديار العرب وحكامهم بحجة أنه لاذ بالاسلام » قلت : « فلعله باست الستات قد أسلم بالفعل وتيقظ ضميره فانشق على اخوته الغزاة » • قالت باسمة : « مصرى أنت حتى النخاع أى انك عبيط كبير » • قلت : « وغـــير ذلـــك من بنى شـــلبى » قالت : « فـــاذن أنت من فرط العبـــط تقـــوم بخـــدمة عـــدوك وتـــكريمه طالمـــا هو ضـــيف عليك وما أكثر ما طالت لديكم ضيافة الأعداء يابن شلبى » • قلت : « عودى بنا الى الأمير خزعل » • قالت : « كان هو المسؤول عن مئونة التجريدة وأموالها وأسلابها وغنائما طوال رحلة الغزو » • قلت : « وهل ضاعت عليه الاسلاب والغنائم والأموال فصار الى مجرد أسير ؟ » • قالت :

« هذه أول خيوط العبط فى شخصكم ·· لقد حارب محمد بن قلاوون بروح وجبلة الترك وهم أولاد عم المغول ، صحيح أنه يشرب الدواء كمغولى ولكن ما تعلمه من آخلاق الاسلام والعرب يضعه فى شكل محارب شريف نزيه ·· ولما علم أن بين الأسرى أمراء من الفرنج ، والتتار والمغول أوصى بعدم استلابهم فلربما تحدث المفاوضات ويكون الحساب عسيرا ·· وهكذا لم يتعرض للسلب سوى أمثالنا من المعدمين » · قلت : وبقية الأمراء ؟ » · قالت : « كل منهم على حالة وكل منهم يوقن أن أحدا لن يسأل عنه فيما بعد ·· أنهم جبابرة يا ابن العرب ·· وبعضهم يدفن اسلابا وأموالا وكنوزا فى بقع معينة من أرض الشام أو بغداد أو على الحدود ويستطيع بعد أيام قليلة أن يبعث فى طلبها من يأتى بها سرا » · قلت : « كيف بحق الله هذا يا ست الستات ؟ » · قالت وأنفها الرومانى يهتز أمام الحائط : « أتظن أن هؤلاء الأمراء غرباء تماما عن هذه المنطقة ؟! » · استدعيت عقلى من جديد وتحفزت فواصلت هى : « أنهم كانوا طلائع الغزو منذ سنوات بعيدة ·· جاؤوا المنطقة وصنعوا لهم صداقات حميمة من حكامها وكبار علية القوم فيها من التجار والأمراء المستضعفين ·· بل لقد حارب بعضهم فى صفوف ملوك وولاة من المنطقة ضـــد اخوة لهم وأشقاء ·· أن سوء الحظ وحده هو الذى أوقعهم فى الأسر ، وربما سوء النية ، وربما سوء الأصدقاء » · قلت : « بالله عليك يا ست البنات كفى عن الحديث فقد أفسدت على خيالى وصيرته فيلا يريد التحليق بجناحى بعوضة » · فضحكت ورحت أنا أبكى فى صمت المقهور · وفجأة انفتح باب الخزانة على مصراعيه وأطل منه الاسفهسالار شخصيا ثم ما لبث أن تقدم يحف به العسكر من كل ناحية ، وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر ولكنهم جميعا كانوا يتقمصون الوداعة ، وكان ثمة من يتقدمهم ويشير لهم نحو المقصورة النحاسية التى بجوارنا مما كشف لنا أن ثمة مفاوضات حدثت بين أمراء الحبس بقيادة « خزعل » وأن قائد المعسكر قادم بميعاد ومهمة · ها هوذا يتقدم نحو المقصورة النحاسية الرخامية وخلفه العسكر حتى اذا ما وصل دخلت فى أعقابه ، القى تحية الاسلام فردوا عليه بمثلها

ولكن في خشونة وجلافة واضحة ، فكأنه كان يتوقع شيئا كهذا ولم يعره التفاتا ، انما جلس حيث أشار له « خزعل » وأشار هو بدوره الى العسكر أن يقفوا بعيدا ولكنه لم يجد للعسكر أثرا ، فنهض من جديد وتساءل : « أين قواتي ؟ » فقال أحد الموشومين : « قواتك فى حوزتنا وعند خروجك تتسلمها » . فجلس كالفأر يحاول استعارة هيئة القط ، وكان « خزعل » ذا رأس كقطعة من جذع شجرة عجوز صخرية ، وصدر عريض جدا ملىء بالجروح الملتئمة كأرض الأسفلت فى شوارع القاهرة مفخوت ومردوم فى كل خطوة ، أمامه زجاجة العرق يجرع منهـا ، ثم قدم للاسفهسالار كأسا من الخزف به بعض العرق فأزاحه الاسفهسالار فى حرج قائلا : « لا أشرب المنكر ولكننى جئت فى مهمة .. أنتم تعرفون أن السلطان أعزه الله قد منحكم الراحة والمسكن ها هنا فلا أقل من حسن المعاملة .. نحن قادرون على معاملتكم معاملة الأسرى ولكننـا لن نتعجل .. وكل ما نطلبه منكم عدم اثارة القلاقل والمشاكل والا .. » . ثم انتظر برهة نظر خلالها خزعل الى من بجواره وطلب شيئا يأكله فجىء له فى الحال ـ ولا تدرى كيف ـ بفخذ ثور كبير يحمله أحدهم على كتفه كاملا غير منقوص ثم قال لخزعل : « برهة وأسويه لك على نار حامية » . وقال الاسفهسالار : « من أين جئتم بهذه اللحوم وكيف دخلت هنا .. هذه مخالفة ! » . قال خزعل : « أى شىء نطلبه يجىء لنا حتى ولو وضعتموها فى بروج مشيدة » .. ثم نادى : « يا خوارنق » فجاء الموشوم الأضخم يبتسـم عن فم كفم حوت العنبر ثم انتظر ، فقال له خزعل : « ان الاسفهسالار يعترض على دخول اللحم الى هنا » . فقال الموشم : « يعترض على اللحم الحى .. أم المذبوح .. أم الميت ؟ » . فقال الاسفهسالار غافلا عما فى كلام الموشوم من غمز : « صنف اللحوم .. نحن الذين نأمر بدخول أى شىء ها هنا أو بعدم دخوله » . فضحك الموشوم حتى اهتزت الأعمدة النحاسية والجدران واقشعر الاسفهسالار ، وأردف الموشـوم : « اذن فلأ تناول وجبة غذائى قبل صدور أوامر جديدة .. هات يا ولد » . فخرج من احـدى الحجرات ولد يجر خروفا هائلا يمأمىء فى احساس

بالفجيعة ووقف الاسفهسالار منزعجا : « من أين جاء هذا ٠٠ أنا نفسى لا أجده خارج الخزانة لو أردته » !! ٠ فقال الموشوم : « اذا أردت شيئا ولم تجده فى البلد فاتصل بنا ونحن نوفره لك بكل سرور » ٠ ثم صاح : « هات السكين يا ولد » ٠ فجىء له بسكين دبها فى رقبة الخروف ورماها فتكالب عليها العشرات ٠ ثم سلخ الخروف فى ثوان معدودة ثم تقرفص أمامه وراح ينزع شرائح اللحم ويأكل فى تلذذ والاسفهسالار يتابعه فى شعور بالقرف والخوف ٠ فقال له خزعل : « تفضـــل وسوف نتبع أوامرك » ٠ فنهض الاسفهسالار فى الحال شاكرا وانصرف ليجد رجاله فى انتظاره خارج الخزانة ٠ ليلتها بات باب الخزانة نصف مفتوح ٠ وليلتها سهرنا نحتفل بهذه المناسبة فقضينا فى الاحتفال زمنا طويلا جدا يقدر بالشهور أو السنوات ، كنا خلالها نتريث عن الهزر برهة لنبحث فى أمر الغذاء ، أو يخرج بعضنا الى شوارع القاهرة دون أن يعترضه أحد ليشترى أو يشحذ أو ينهب أو يخطف أو يسرق ما يشاء أو يشاؤه أمير الحبس ، أو نستمع الى رجال أرسلهم المدعـــو بالأمير الحاج ملك الجوكندار ليتفاوضوا معنا فى شـــأن حسن الجوار ، وكانوا ــ الرجال المراسيل ــ يفاجؤون بأننا ناس مثلهم وفينا من يتكلم بلهجتهم بل ومن يعرف أسماءهم وأسماء أبائهم وأمهاتهم ، هم المصريون الذين وقعوا فى الأسر المصرى دون ذنب جنوه الا اقتحام الأسواق المتاخمة فى أيام النزاع والقتال ، كانوا يتواجدون عند المفاوضات بجانب « خزعل » ويساعدونه فى اللعب بالمراسيل ويكشفون له عن ألاعيب اللغة وأسرارها ليفيق لهم ، عجبت والله من أمرهم ولكننى حينما تذكرت أن لهم أهلا وأقارب فى حوارى القاهرة ولهم حقوق المواطنة عذرتهم وقلت لنفسى أن الظلم أمر لا مثيل له فى الوجود ، الأعجب بل الأكثر عجبا أن هؤلاء المصريين المأسورين تهيأ لهم الدخول والخروج دون رقيب أو حسيب ، وتهيــأ لهم التجوال فى شوارع القاهرة وحواريها والاتصال بأهلهم وأصدقاء طفولتهم ومع ذلك كانوا يعودون الى الخزانة فى آخر الليل يحملون أطايب التجوال كالعائدين لأولادهم بعد طول مشقة ، وكنا جميعا نعلم أن تجاراتهم وأعمالهم قد

استؤنفت من جديد كأحسن ما تكون وأن أموالهم محفوظة فى خزائنهم الخارجية ولم نكن نأخذ هـذا عليهم طالما أنهم يدينون بالولاء للخزانة ولا يقبلون المبيت خارجها ليلة واحدة ! وفى ليلة استدعانى « خزعل » أمير الحبس فآثرت ذات الأنف الرومانى الا أن تصطحبنى لتشد أزرى فى هذه الشدة ، وحين دلفت الى المقصورة ذات الدرابزين النحاسى الأنيق بحثت عن بقعة بعيدة عن ظل الأمير فلم أجد لأن ظله فى الواقع كان ممتدا الى أنحاء الخزانة كأنـه الليل يغمر حتى باطن الأشياء · قدمت للأمير كل فروض التحية بعدد من الأساليب وبشكل أدهشه وخيل اليه أننى من علية القوم الذين أنا منهم ، قال : « من أى جنسية أنت وعلى أى ملة ؟ » · قلت متحفظا : « ربما خدعتك مظاهر تحيتى فتصورت أننى من علية القوم ·· انما أنا تعلمت هذه الأشياء من قراءة الكتب » ، قال فى ثقـة : « اذن فـأنت من عليـة القـوم » · فدهشت من هذه اللهجـة الحضارية التى لا تتفق مطلقا مع أى شىء فيه أو فى حاله ، ثم هز رأسه نحوى فى احترام هاتفا : « أعالم أنت أم أديب أم فلكى أم فيلسوف ؟ » · قلت : « خدامك ومحسوبك خيرى بن شلبى الحنفى المصرى والطرشجى الحلوجى الكاتب » · فنهض الأمير خزعل واقفا ومد يده للسلام على · فسلمت عليـه بحرارة ووضعت ذات الأنف الرومانى ساقا على سـاق وانجعصت كسيدات القصور ، ثم أن الأمير خزعل جلس وقال : « لابد أن تتولى مسؤولية كبيرة ها هنا ·· اسمع ·· أنت مسؤول عن الدعوة لكل ما تنتجه الخزانة من خمور ، لدينـا عشرات الأصناف على عشرات الأنواع من التقطير المتقن المتقدم ، وتجار الخزانة يسافرون بها الى القرى والحدود ليبيعونها جملة ، ونحن بحاجة الى ترويجها أكثر فى داخل القاهرة وهذه مسؤوليتك ·· وبجوار الخزانة أمير يدعى الحاج آل ملك الجوكندار وهو يزعجنا كل يوم بمرسال يهددنا بابلاغ الأمر ـ أمرنا يعنى ـ الى السلطان الناصر بن قلاوون ، ونحن لايهمنا منه ، فمعلوماتنا القادمة من القصر رأسا تفيد بأن السلطان بن قلاوون يتراخى فى أمرنا ويريد مهادنة الفرنج ، وقد شاهد مرسالنا بعينى رأسه الأمير الحاج آل ملك الجوكندار

وهو يلح على السلطان فى أمرنا والسلطان غير مصغ اليه مطلقا ٠٠ ولكن ، الأمر بيننا وبين الحاج آل ملك يحتاج الى كلام وشكليات يجب أن تكون مرعية على الأقل لنوهم السلطان أن لنا منطوقا معينا وصيغة معينة تصلح للتفاهم وهذه أيضا مسؤوليتك ٠٠ والخزانة الآن ـ كما لعلك ترى ـ قد صارت بقعة الضوء الوحيدة فى المنطقة ، هـذا ما يجب أن تقوله بلساننا ، أفهم ، أن الخزانة تستقبل كل يوم ناسا جددا وقع عليهم الظلم فى البلاد وهى ـ الخزانة ـ لابد أن تفتح صدرها لكل من يلوذ بها أو يطرق بابها ولابد أن يعلم الكل هذا وهذه كذلك مسؤوليتك ٠٠ أعرف أن جهودا كبيرة سوف تتكلفها مهمتك ولكننى سأفتح لك ديوانا للانشاء »٠ انحنيت قائلا : « لسمع والطاعة يا سمو الأمير » ٠ وقال : وهيا فباشر مهمتك .» ٠ فنهضت وقد امتلأت حماسا وهواء فاسدا ، وطلبت مكتبا فى مواجهة الباب وحجرة خاصة وجهاز تكييف وبعض الكراسى الفاخرة ، فوعدنى بكل ذلك ولكن مؤقتا على أن اتخذ من شباك الخزانه المطل على كيمان الدراسة مستقرا لى أباشر منه عملى ، على أن يخصص باب الخزانة لدخول وخروج أهلها أما التفاهم فى أى شىء فيتم كله من أمام الشباك ٠

! زهزهت الحيـــاة انطلقت ذات الأنف الرومانى تمـــارس النصب والاحتيال فى الخزانة باسمى وتخلق لى أعمالا وأتعابا اضـــافية جعلت الفلوس تجرى بين أيدينـــا فى غزارة ، وصرت أتلقى بطاقات مظروفة بالهـــدايا والأموال تحمل معلومات عن تجار من خارج الخزانة لعلهـــا ـ المعلومات ـ تفيدنى ! » ، وان هى الا شهور قليلة حتى اختفى صنف العسكر من المنطقة كلها ولم يبق لحراسة الخزانة سوى ظل الموشومين فحسب ، وما يخرج منها من أخبار ساخنة ، وكنت أمارس عملى بدقة ، فالفلاح من بنى شلبى اذا وضع فى عمل أداه على الوجه الأكمل ولو كان هذا العمل ضد مصلحته ولو كان لحساب عدوه وهو لا يدرى أن اتقان العمل جبله فيه ٠ أنه يعمل ولا يعنيه لمن يعمل ، وهو يعنى حقيقة واحدة فى هذا الصدد وهى أن الذى بلا عمل بين قومه أن هو الا « عواطلى » حقير لا يستحق الحياة ٠ بهذه الفلسفة قمت بعملى خير قيام ، ولكن ما كان

يؤرقني هو مسألة الغاء عقلي تماما وأنا أبحث في طلب الكلام الذى على أن أصرخ به فاذا جاءنى صرحت به في الحال دون نظر فيه ولو من بعيد ، وقد فوجئت ذات يوم برهط من رجال محترمين يقبلون نحو الخزانة ثم يقفون في انكسار وذلك بينما تقدم أشيبهم قائلا : « اعمل معروف ٠٠ نحن في عرضك أعطونا عبد العال » ٠ قلت : « فمن هو عبد العال هذا يا هذا ؟ » ٠ قال : « أنه مجرم كبير ٠٠ قتل عشرة رجال وطاردته الشرطة في كل مكان فلما أوشك على الوقوع في يدهم التحق بالخزانة بطلب الحماية ٠٠ فسلموه لنا تنالوا ثوابا عظيما في الدنيا والآخرة » ٠ بعثت طلب استطلاع فجاءتنى الصيغة فأعلنتها قائلا : « يا قوم أنكم ظلمة قساة القلوب وما عبد العال الا ضحيتكم وضحية جيلكم فأنتم الذين خلقتم منه ذلك المجرم وهو برىء لا ذنب له ومن العار أن يطلب الحماية من الخزانة وترده خائبا » ، ثم أغلقت باب الحوار بالضبة والمفتاح ، وحين جاؤوا مرة أخرى بالشرطة تصدى لهم الموشومون في الطريق فأكلوا ذراع أحدهم ورقبة آخر وردوهم على اعقابهم ٠ وفي يوم آخر جاءت سيدة عجوز وقدمت لى رشوة غير مباشرة فهزأتها وفرجت عليها الدنيا وأعطيتها درسا في تقديم الرشوة وكيف أنها يجب أن تكون مباشرة صريحة والا فقدت جلالها ، وعلمت منها أن ابنتها التى كانت تنفق عليهم هربت ولجأت الى الخزانة ، فطلبت خبرها فجاءنى أنها ـ البنت ـ تستحق الشفقة ، لأنها تربت في منبت سوء فخرجت على حل شعرها وقد لجأت الى الخزانة لتبحث عن حريتها فيها ، فذهبت العجوز ولم تعد ٠ ومرة ثالثة جاء رجل من علية القوم يطلب زوجته التى هربت ولجأته الى الخزانة فقلت له أن زوجته قد تحررت منه ومن تسلطه وأن عليه أن ينساها تماما ٠ ومرة رابعة جاء فيلق من رجال الشرطة قاموا أمامنا بعمل استعراض ساذج أظهروا فيه ضعفهم في صورة قوة ، وفي النهاية طالبوا برأس مهرب كبير ، أقصد جاسوسا كان يهرب الأخبار الى العدو ٠٠ فقلت لهم هذا الرجل ربما كان أكثرهم وطنية لمجرد لجوئه الى الخزانة ، وأن اتهامه بعدم الوطنية يعرضكم للمساءلة القانونية ، فلما أكثروا في الكلام خرج

فريق من الموشومين وراحوا يلعبون الكرة ويجرون ويشوطون العسكر بأقدامهم فى عفوية كأنهم الكرة · وفى مرة خامسة وسادسة وعاشرة وألف حتى لجأ الى الخزانة أعداد مهولة من أهل القاهرة وكثرت الحواديت والشخصيات التى نسهر معها كل ليلة ، فهذا بقال طارده رجال التموين وهذا لص طاردته الشرطة وهذا سفاح سئم شرب الدماء وهذا أمير توعده السلطان بالعقاب وهذا أمير آخر توعد السلطان بالعقاب ·· وهكذا صارت الخزانة دولة داخل الديار المصرية لا يستهان بها أبدا · وقد جاءتنا الأنباء فى ليلة بأن السلطان أغلظ فى القول للأمير الحاج آل ملك الجوكندار لكثرة الحاحه فى الشـــكوى من الخزانة وقال له : « انتقل أنت عنهم يا أمير ·· فلم يســعه الا الاعراض عن ذلك وعمر داره التى بالحسينية والاسطبل والجامع المعروف بآل ملك والحمام والفندق وانتقل من داره التى كان فيها بجوار خزانة البنود وسكن بالحسينية · يا لها من ليلة ·· لقد شربنا نخب الانتصار نشوة ، ومزق بعض الموشومين ـ من الفرح ـ لحم بعض الفتيات اللاتى لجأن الى الخزانة ·

وبعض الظلم ترياق لبعض

ظللنا ليالى طويلة نتندر بما حدث للأمير الجوكندار ونعيد ترديد كلمة السلطان له : « انتقل أنت عنهم يا أمير » ـ نعيد ترديدها بكل أنغام الشماتة والاشفاق والنذالة والسفالة أيضا ٠ وكان صبية الخزانة وأطفالها كلما التقوا فى الشارع بأحد من علية القوم الذين يحملون سمة الامارة قالوا لهم فى تلعيب حواجب وتطليع السنة « انتقل عنهم يا أمير » ، فيهب ذلك الذى يحمل السمت كأنه أمير بالفعل بل كأنه الأمير الجوكندار نفسه ، ويصرخ فى الصبى أو الطفل قائلا : « امشى يا قليل الأدب » ، وكنت باعتبارى صاحب الشباك قد سمعت هذه الجملة عشرات الآلاف من المرات بأبعاد وألحان وأنغام مختلفة ٠٠ « أمشى يا قليل الأدب » ، يقولها أحدهم بحرج كأنه يشترى بها خاطر الأمير الذى لابد سيكون على علم ، يقولها آخر بخوف من كونه سمعها ، يقولها ثالث برعب كأنه الذى عرض بالأمير ، يقولها رابع فى تشف وسخرية بالأمير وبالسلطان ، يقولها خامس بنفاق لأصحاب الخزانة كأنه يســـتنكر أن تنجب الخزانة المؤدبة غير مؤدب ! ٠٠

كل ذلك أعطى الخزانة الموقرة قوة على قوتها ، فأمليت على بيانات جديدة الغيت فيها ليس فحسب عقلى أنا بل العقل الانســـانى كله ، وأرسلتها عبر الشباك تضرخ بأن الهدوء سوف يسود بين الخزانة وأعداء

الانسانية من السفاحين واللصوص والقتلة أو بأن الخزانة سوف تعمل على اشاعة روح السلام فى المنطقة اكراما لخاطر السلطان الذى اشترى خاطرهم ونصرهم على واحد من أشد أمرائه بأسا . وكان علينا أن ندرب الموشومين على نوع جديد من التعامل يتفق مع هذه البيانات الصارخة وكنت قد انتهزت فرصة راق فيها مزاج خزعل وأفهمته بأن أهل الديار المصرية لن يحتملوا كل هذه المعاملات والمظاهر الفاحشة ، وأننا لا يجب أن نخسرهم ، وركزت جل حديثى على بنى شلبى الميامين المساكين وقلت له أنهم ربما كانوا الوحيدين على الأرض الذين يخلدون جلاديهم وغزاتهم .

فأنبهر خزعل ولكن بنفسه ثم انجعص قائلا فى غرور « أى نعم أعرف هذا ولذا فقد أحببت أن أكون مخلدا » قلت له : « لا ياسمو الأمير ليس الأمر كما تفهم .. فان المسألة ليست تخليدا ولكن على ماذا كان الخلود .. أنهم يخلدونك على صورتك الحقيقية بكل ما فيها عدم المؤاخذة من قبح أو جمال » .. شوح قائلا : « يعنى ماذا ؟ » .. قلت : « يعنى تخليك حلو مع أهلنا عشان يحبوك » .. فقال : « حاضر .. عشان خاطرك بس » .. ثم أنه أمر باقامة اجتماع لمساعديه من أشباه الأمراء والموشومين على السواء . وبصفتى رئيس ديوان الانشاء المزمع أنشاؤه جلست الى جوار الأمير خزعل وأوقفت وراء ظهرى عشرات من الولدان بحقائب وملفات وزجاجات عرق يصبون لى منها كلما نشف ريقى . فلما شربت ودخنت كان الاجتماع قد أكتمل وقدمنى خزعل الى رجاله قائلا أن خزانة البنود طول عمرها موطن اللاجئين من كل زمان ومكان وأنها لتعتز بهذا الدور وتعتز بأنها قد آوتنى مع أننى من زمن بعيد جدا وقدمت لى ليس الحماية فحسب بل والمركز المؤثر . ثم اختتم كلامه بأننى قد طالبت بتعديل فى السلوك العام تجاه العدو وأننى سوف أتفضل مشكورا بطرح وجهة نظرى هززت رأسى شاكرا لهم ثم قلت أن قضيتى فى الواقع بسيطة جدا ولا تستاهل الكلام وأنها ببساطة تطالب بالتزام الرأفة وكف اليد عن أى شخص فى المنطقة حتى ولو كان يأخذ سمت المعتدى ، ثم أننى كالعادة

ظللت أشرح فى هذه الكلمة البسيطة ما لا يقل عن عشر ساعات ألف وأدور وأحكى مشاهد وحكايات لا رابط بينها ولا ضابط لها ولكنها كلها تدلل على أهمية ما أطلبه . فاذا بالموشومين يتململون فى جلستهم . واذا بأحد فصحائهم يصيح قائلا : « قل لنا ماذا تريده منا بالضبط .. نحن الموشومين لا نفهم الأساليب الانشائية المطاطة ، لا نحب سوى الأسلوب العلمى المحدد .. فما معنى استعمال الرأفة وما معنى كف اليد .. اننا أولا وقبل كل شىء لا نعرف ما هى الرحمة ولا نفهم معناها ولم نسمع بها من قبل أبدا .. فكيف نوافق على قبول شىء لم نفهمه .. قولو لنا ما هو المطلوب منا على وجه التحديد ونحن ننفذه ! » ..

ضحكت حتى بكيت ، وضربت بكف يدى على الترابيزة فى اشمئزاز ، وقلت : « كيف يكون كلامنا انشائيا وهو فى غاية الوضوح .. كيف نكون أكثر تحديدا من هذا ؟ لكن الأمير خزعل أمير الحبس نصحنى ـ بحركة من يده ـ بالهدوء والتريث ثم قال : « يؤسفنا يا سيادة الطرشجى الحاوجى أنك لم تكن موفقا فى عرض وجهة نظرك ، فأنا نفسى لم أفهمها على الاطلاق .. ولكن دعنى أبلغ ما تريده للموشومين على النحو الذى تفهمه » .. ثم اتجه بأنظاره الى الموشومين صائحا : « يا أيها الموشومين .. لقد أمرنا بأن يكون التعامل مع الناس كما يلى : بدلا من أن تقطم رقبة الولد وتشرب دمه اخلع أحد ذراعيه فقط .. وبدلا من أن تقتل البائع المربع من أجل ما معه خذ ما معه كله ودعه ولا تقتله .. وبدلا من أن تفقأ عينى أحد الفتوات أفقا له عينا واحدة .. وبدلا من أن تخطف الخروف من الجزار وتأكله فى نفس الموقف خذه وكله بعيدا عن الأنظار .. وهكذا وهكذا » .. وكان يقول هكذا هذه وهو ينظر الى ليرينى كيف يكون أسلوب التفاهم مع الموشومين .

ركبتنى الرعشة وتيقنت من تعس الديار المصرية حتى لكأنه سنة كونية لا تراجع فيها ، وقلت فى نفسى : « أعان الله أهلها على الاحتمال » ونظرت فى أنحاء الخزانة فرأيت أبناء الديار المصرية الذين تزايد انتماؤهم

للخزانة يسمعون الكلام الذى أقوم بتسريبه من الشباك لهم فاذا بهم يؤيدون كل حرف فيه بل ويرسلون أو يجيئون هم أنفسهم بكلمات تشجع السفاح على مزيد من السفح والقاتل على مزيد من القتل واللص على مزيد من اللصوصية ، وكنت أراهم وأرى بينهم الكثير من بنى شلبى فأخصهم بنظرة احتقار تحتية يجدون لذة فى تجاهلها ، ولم آكن أنزعج من حقارتهم هذه لعلمى أنهم لا يمثلون بنى شلبى على الحقيقة ، نعم وهذه النماذج من بنى شلبى أيضا لا تمثل الديار المصرية ، أنهم مجرد لصوص وسماسرة وانتهازيين يتواجدون فى كل عصر وفى أى بلاط ويلوثون كل أسرة ..
فلما انفض الاجتماع أخذتهم على جانب وقلت لهم : « يا بنى شلبى لماذا تجاهرون بالولاء لمن لا ولاء له ، وتظهرون الحب لمن لا يستاهل الحب ، وتشجعون على المضى فى الطريق من صار فى طريق تعذيبكم وشرب دماء اخوانكم ؟ » . فقال قاتل منهم وهو يتأهب للعراك : « لأننا نعرف أن كل شىء سيمضى على ما هو عليه سواء رغبنا أو لم نرغب ، والظلم باق والسفح قائم سواء رضينا أم أبينا ، فمن الخير لنا أن يكون الأمر ــ ولو فى الظاهر ــ متفقا مع رغبتنا ، هذا هو الموت بالمجان » . وقال آخر كأنه يعتذر عن صفاقة الأول : « أعلم يا سيدى أنه لا ناقة لنا فى الأمر ولا جمل ونحن نشترى الحاكم بكلمة طيبة ، أو قل اننا نتقيه ونتقى شره » . ثم أننى خرجت ضائقا أنفض عن نفسى ما علق بها من غبار ، ولم يكن ثمة شعور بالحبس ، نعم فلقد تبدد هذا الشعور منذ مدة طويلة بل وربما كنا نحن سكان الخزانة أكثر شعورا بالأمن والاطمئنان من سكان الخلاء والدور الحرة فى سائر الديار المصرية ، الحرية الممنوحة لنا تفوق بكثير جدا تلك التى من المفروض أنها ممنوحة لغيرنا ، على العكس ، ربما كانت الحرية قيدا على الآخرين بينما هى انطلاق بالنسبة لنا . سألت نفسى : « ما السر فى ذلك يا ابن شلبى ؟ » . ولم استطع فى الواقع تفسيره ، لكنى قلت أنه ربما كان السبب هو أن الديار المصرية يحكمها سلطان وحكومة وقانون أما نحن فلا يحكمنا شىء . وكل واحد فينا تقدر له الحرية بقدر ما يجلب للأمير من خيرات ويدرأ عنه من مشاكل ويخلع عليه من صفات ويعطيه من

تسريه ، أما الأمير نفسه فلا حاكم له على الاطلاق . ولقد حاولت أن أجد تعريفا صحيحا لهذه الخزانة في وضعها ذاك فلم استطع أيضا ، فاذا كنت أنا لا أستطيع تفسير سلوك أولاد شلبي وهم عشيرتي فكيف أستطيع الزعم بالقدرة على تفسير أي شيء آخر .. وكنت قد طاوعت قدمي فقادني السرحان الى ميدان بين القصرين وعدت لأتسكع قليلا في حي العطوف ثم أخرج منها الى كيمان الدراســـة وألف حول الخزانة وأشرف عائدا الى الجامع الأزهر ، فأرى سكان الخزانة هم أبرز ما على الأرض وأقواهم جميعا . ولم يعد أحد منهم يدور بقوارير الخمر ليبيعها على جانب وفي كتمان مسرحي بل أصبح الواحد منهم يسرح بآلة التقطير نفسها ويقف على أي ناصية تروق له ليبيع الخمر كما عربات العصير في عصرنا في القرن الرابع عشر للهجرة .. وصار يحلو لي متابعة الجموع المتناثرة في أنحاء ميدان بين القصرين وحتى باب النصر وميلا نحو الخرنفش ، تقف أمام آلات التقطير وتداري نفسها بستارة وهمية من الخجل المتبجح كالذين يفطرون في رمضان وهم في الظاهر محترمون جدا ، وثمة مشايخ أجلاء وأمراء كبراء وناس فضلاء يسيرون في الطرقات فما أن يمروا على احدى الجموع حتى تلتوي شفاههم في اشمئزاز وتتضح وجوههم بالقرف الشديد ويتمتمون بشتائم وادعية ولعنات غاضبة ، وكنت أشعر في أعماقي أنني أشاركهم نفس الغضب ونفس المشاعر ولكنني أنطق بلسان آخر واتحرك بدافع أقوى من أي دوافع أصيلة وكم كنت أود لو هربت من هذه الخزانة الى الأبد وها أنذا في شوارع القاهرة حر غير أن الهروب من الخزانة ليس له أي منفذ ، فلن تهرب من الخزانة الا اليها ، وسوف يعود بك جنود متطوعون ..

اصطدمت بي فتاة تلف نفسها في ملاءة من حرير ديبقي معتبر مما يدل على أنها بنت ناس ، وكنت أظنها مخبولة من شكل اصطدامها بي ولكن ما أن نظرت فيها حتى تعلقت برقبتي والدموع تقطر من عينيها وتقول : « في عرضك وقعت أيها الفرنجي الطيب » . وكانت من الذعر في حالة ناصعة الوضوح . قلت لها : « ما أنا بافرنجي يا فتاة ولكن ما بك ؟ » .

فصارت تنظر خلفها وحواليها فى توجس وتقول : « أين هم ·· أين ذهبوا ؟ » · قلت : « من هم ؟ » · قلت : « أولاد بعض الأمراء وبعض التجار الكبار ·· أعرفهم ويعرفوننى ·· يطاردوننى · لو وقعت فى أيديهم سيفتكون بى » · تعجبت · قلت لها : « لم ؟ » · ثم نظرت فى وجهها ثانية أتمعن فى ملامحه وأحاول اكتشاف الكذب والادعاء فلم أستطع لم أر الا ذعرا حقيقيا وتعاسة حقيقية وحزنا حقيقيا ودموعا يتصاعد من قطراتها صهد قوى ، فى السادسة عشرة من عمرها كانت وحورية من حوريات الجنة كانت ولكن الذعر جعلها كتلة من الدماء تبحث لنفسها بين الأطراف عن منفذ تندفع منه · قالت الفتاة : « هناك أحد الأمراء رزاه الله بولد لم نعلم من أين جاءت بذرته ، أمن شيطان أم من حيوان مفترس لا أحد فى الديار المصرية يعرف : مريض هو ربما ، وحش يجوز ، لكنه مصاب بداء والعياذ بالله لا تفسير له » · قلت : « ما هو بحق الله » · ــ وزحت أرتعش داخل هدومى وأتلفت باحثا عن أحد الموشـومين لأنذره بالبقاء فى جوارى الآن ، قالت الفتاة : « كل يوم لابد أن يمزق لحم فتاة بشفرة حادة ، ويشرب دمها ، ثم يتركها ، ليكون فى انتظاره ثلاثون طفلا يتدرب فى رقابهم على ضرب السيف وجز الرأس من العنق » · جررت ساقى بصعوبة وبحثت عن لسانى حتى وجدته ، قلت لها : « أس ·· م ·· عى ·· يا ·· فتاة ·· هل أنت من أبطال ألف ليلة وليلة ؟ » · قالت : « لا أعرف شـــيئا » · قلت : « هل أنت جنية من جنيـــات الأساطير ؟ » · قالت : « والله أنا من هذه الديار المصرية أبا عن جد لنا فيها مقابر نزورها لنقرأ الفاتحة على رؤوس عشرة أجداد على الأقل » · قلت : « ولكن ما تقولينه يشبه الأساطير وحياة الغابات » · شدتنى فى ذعر صارخة : « أنظر سيدى » · فنظرت · فرأيت مجموعة من الفتوات يســحبون فتاة كالوردة وهى تصرخ بأعلى صـــوتها وتدبدب فى الأرض بقدميها وتتعرى وهم فى النهاية يكتفونها ويحملها أحدهم تحت أبطه كالزكيبة ، يسأله أحد الشيوخ فى أسف : « أهى ابنتك أو ابنة أحدكم ؟» · يقول حاملها : « لا شأن لك » ؟ ويقول آخر منهم « كن فى حالك يا رجل »،

ويذكره ثالث قائلا : « أنها بنت خاطئة وكانت تزمع الهرب وهى بنت ناس ولذا سيقيمون عليها الحد ·· سيرجمونها ·· وتصرخ فتاتى فى صدرى : « هكذا يقولون دائما ·· يخطئون الفتيات فى الديار المصرية لارضاء نزوة جنونية حيوانية فى ابن الأمير ·· هذه التى يقولون عنها أنها خاطئة كل خطيئتها أنها مشت فى الطريق لسبب فوقعت فى قبضتهم ·· لسوف يقودونها الى حتفها » ، قلت فى رعشة : « أهؤلاء هم الذين طاردوك ؟ » · قالت : « بل طلائعهم » · قلت : « الهم طلائع ؟ » · قالت : « الشبان الصغار المرفهون ·· يمشون وراء الفتاة يوهمونها أنهم معجبون وأنهم للود خاطبون ·· واذ تميل الفتاة لسحر كلامهم تتلكأ فى مشيها فيدخلون عليها بالحديث اللطيف والبسمات العذبة والأصوات النشوانة الهيمانة وبعد لحظات وجيزة يطب الفتوات ليأخذوهم جميعا ، بعد خطوات يسربون الشبان ويقبضون على الفتاة » ·

جن جنونى ، وكان الفتوات قد توغلوا فى حى العطوف وأوشكوا على الاختفاء حينما لمحت أحد الموشومين قادما من بعيد يقزقز فى رأس خروف ، صحت مناديا أياه فجاء يهرول والأرض تهتز تحت جسده ، فلما اقترب منى أشرت له الى الفتوات وقلت الحق بهم وخلص الفتاة منهم ، ففى خطوتين أو ثلاث كانوا جميعا تحت سيطرة الموشوم · فى حين سحبت فتاتى وسرت نحوهم · أخذ الموشوم فى بطنه شخصين فوقعا على الأرض وبقدمه شنكل ثلاثة فتكوموا فوق بعضهم · وبأطراف أصابعه أمسك بالفتاة من تحت أبط الفتوة وشيع له ضربة قدم فى بطنه فنزل ميتا · لما وصلت كانت الفتاة تنتفض فى قبضة الموشوم فأخذتها منه وقلت له : « تصرف مع هؤلاء » · فجاء صوت أحدهم وهو مكوم على الأرض قائلا أنه يحذرنا مغبة ما نفعل لأنهم من ألاديش أحد الأمراء وأن علينا أن نترك لهم الفتاة بدلا من التسبب فى حدوث أزمة بين الخزانة والأمراء ، فضحك الموشوم وقال له : « سوف أقتلهم جميعا الا أنت سأتركك حيا لسبب واحد هو أن تذهب الى أميرك وتنقل له ما حدث ليجىء ويرينى قوته · ثم هاج كالوحش فبتر بطن هذا وخلع رأس ذاك وبطط جسد ثالث وهشم رأس رابع ولم يبق الا على

المسحوب من لسانه وكان قد صار خرقة بالية رفعه الموشوم عن الأرض وأوقفه وقال له : « هيا اذهب الى أمرك » • ولكن الفتوة كان قد مات بالفعل وتهاوى على الأرض • نظرت للموشوم غاضبا مما فعل ، فقال بهدوء « كانوا يريدون أكل هذه الفتاة •• أكل بأكل نحن أولى بها » • قلت له لأطمئن الفتاتين : « لا أكل ولا شرب •• لقد أدينا رسالة الخزانة وانقذنا الفتيات من مصير مظلم وهذه رسالة سامية ! •• ولكنك خلقت لنا مشكلة ما كان ينبغى أن نواجهها : قال : « تقصد القتل الذى حدث ؟ » • قلت : « لا •• أقصد الجثث •• أما القتل فهو أمر هين بالنسبة لنا وليس مشكلة •• لكن الجثث •• كيف نتصرف ازاءها ؟ » • قا الموشوم : « هذه ليست مشكلة •• سأجرها الى كيمان الدراسة •• لو كنا أيام الفقر لجررتها الى الخزانة نقتات بها •• لكننا الآن لا نعانى من مشـــكلات اللحوم •• دع ذلك لى وامض فى طريقك لا تخف » • ثم ربط الجثث فى بعضها بحبال ثيابها وأحزمة لها كانت معها ثم جرهم جميعا ومضى فكان الثور الذى يحمل الكرة الأرضية على أحد قرنيه فى حالة نقل الكرة الأرضية على قرنه الآخر فالأرض تهتز هكذا •• ونظرت فى ســـاعتى فوجدتنا فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة •

رحت أسير بجوار الفتاتين والدنيا فى نظرى كئيبة كئيبة كئيبة ، وليس ثمة من يعرف أحدا ، لم أر مشهدا واحدا يدل على أن ثمة علاقات بين الناس وبعضها فى هذه المدينة ، لم يقف أحد ليسلم على أحد أو حتى ليتعرف عليه أو يرمى له التحية من بعيد ، كذلك لا أحد يبتسم • أندر شىء فى هذه المدينة زمنذاك هو الابتسام ، والعيون فقط هى اليقظى ، عيون تتسلل خلسة لتنظر فى الأشياء والناس ثم ترتد حاسرة ، كأنهم جميعا رجال خنس يعرفون ويجبنون عن اظهار ما يعرفون ، التجار من أصحاب اللحى يبسملون ويحوقلون ويساومون فى سأم ويحلفون أغلظ الايمان بأن هذا السعر أو ذاك لا ينفع • وفى النهاية يبيعون به • فجأة راق الجو الذى كان منذ برهة يمتلىء بسحب التراب ، ورأيت النـــاس تغلق الدكاكين وتتجه الجموع الى الجامع الأزهر فعرفت أن اليوم يوم

جمعة وأن موعد الصلاة قد أزف · وعاودني الحنين الى الصلاة جماعة وفي الجامع الأزهر ، فعرجت على الخزانة حيث سلمت الفتاتين لأحد رجال حاشية الأمير خزعل وعدت متجها الى الجامع الأزهر لألحق بالصلاة · كانت واجهة الجامع نظيفة والمآذن الشامخة تغوص في قرص الشمس · نظرت في صحن الجامع فلم أجد موضعا لقدم ، لكنني مع ذلك دخلت وشعرت بكثير جدا من الفرح وأنا أرى عشرات المئات من الرؤوس والأكتاف المتجاورة الخاشعة التي كأنها جسد واحد ، الطريف أنني رأيت بعض الموشومين يدبون في صحن الجامع بين المصلين في بلاهة كحيوانات ضالة بعضهم يتساقط الماء منه ومن بعضهم يتساقط الوسخ ، وكان خطيب المسجد منهمكا في حماس يرسل الآية تلو الآية والحديث وراء الحديث ، وصحن المسجد يرن بأسماء عمر وعثمان وعلي وآل البيت الصالحين ، ورأيت المصلين ينظرون الى الموشومين بحرج شديد يشوبه خوف أشد ولا يجرؤ أحدهم حتى الخطيب نفسه أن يلفت أنظارهم الى التزام الهدوء والأدب كما يفعلون مع بقية الخلق · فانتهزت الفرصة وأشرت للموشومين وطلبت منهم بالاشارة أن يجلس كل منهم في مكانه لأنهم سيقابلون الله الواحد الأحد · فجلس كل منهم في مكانه فوق الجالسين ، اكراما لخاطري وسع بعضهم لي فجلست محشورا وبدأت أنتبه الى صوت الخطيب لأتمعن فيما يقول ، فاذا به — وبصوت ردائحة مصرية من شارع كلوت بك أو محمد علي يقول بلهجة ممطوطة ومشوحا بيديه : « نعم يا عو ·· و ·· مر ·· هكذا الأمر ·· مر ·فكيف تدعى ذلك يا عو ·· مر » · غلبني الضحك حتى لم أعد قادرا على كتمانه · قال الذي يجاورني : « علام تضحك ؟ » قلت :« لمن يردح الخطيب ؟ » · قال : «مامعنى يردح؟» · قلت : « في عصرنا في القرن الرابع عشر الهجري نساء يحترفن العراك الحاد بالكلام والشتائم ، كل منهن تفرش الملاءة لزميلتها وتصفقن بكفيها وتشوح قائلة : « أيه ده يا عومر » · قال الذي يجاورني ·· هل صارت هذه اللهجة المنحرفة في الخطابة الى ما تقول عنه ؟ » · قلت : « لكن من هو عووومر هذا الذي يقصده الخطيب ؟ »

قال : « سيدنا عمر بن الخطاب » . الردح وصف من أوصافكم أنتم ..
أما هذا الخطيب فهو من فرط الحماس والتشيع ينطق الاسم هذا ممطوطا منغوما بسخرية وتسلية » . قلت : « هل هذا الخطيب شيعى ؟ » قال : « نعم هو من بقايا الفاطميين » . قلت : « ولكن كيف يسمح له س .. » .
قاطعنى قائلا : « لقد اختلط الحابل بالنابل يا ابن عمى .. لم يعد ثمة صفاء في شيء .. كل شيء صار مشـوبا بأشياء أخرى حتى الصـلاة والعبادة .. أكثر من نصف المسلمين يفعل طقوسـا وزيادات وعادات لا يعرف معناها ، لو رأيت أحد المصلين يفعلها لقلت أنه شيعى خطير ، ولو اقتربت منه لوجدته غير شيعي بل قد تجده لا يعرف ما هو الشيعى وما هو السني ، ان الوعى بالدين لم يعد موجودا على الاطلاق ، ان الجميع يصلى فحسب وبأى شكل يروق له ، وهو معذور فهو قد استهدف لعشرات البدع من عشرات الفرق ، ثم أخيرا صار الشيوخ موظفين ولم يعد أحد يسأل فى أحد فخل عنك ولا تشغل بالك الا بالله وحد الله » . فقلت لا اله الا الله ولا حول ولا وقوة الا بالله . ورأيت الضيق الشديد يظهر على الوجوه وكبار المصلين يرسلون الاشارات للخطيب حتى يوجز ويصرفهم الى مشاغلهم ، لكنه كلما أوشك على الختام استطرد من جديد وانفعل وخبط بالسيف أرض المنبر فى عصبية فائقة . حينئذ ضـــحك الذى بجوارى فقلت له : « وعلام تضحك أنت ؟ » قال . « فما الداعى لهذا ؟ » .
قال : « يريد أن ينتهى .. لقد أعاد وأزاد وكرر ما قاله مرات ومرات ..
ولسوف تطفر الدموع من عينيه أن لم يهبط عليه الخلاص كالمعجزة ! »
قلت : « يا لها من طلاسم غامضة .. أى خلاص وأى معجزة ينتظرها هذا الخطيب ؟ » . قال هامسا : « أنه يطيل فى الخطاب حتى يجىء مندوب من القصر يبلغه عن الدعاء ! » . قلت فى غيظ : « دعاء من وأى دعاء » .
قال في هدوء « المفروض أنه فى نهاية الخطبة سوف يدعو لمولانا السلطان ابن قلاوون كالعادة » . قلت : « طبعا .. وهل تجىء له صيغة الدعاء محددة من القصر كل أسبوع ؟ » . قال الرجل : « لا .. أن السلطان الناصر محمد قلاوون يعانى الآن سكرات الموت ومنذ أيام طويلة .. وقد

تلقى هذا الخطيب اشارة من الألآديش تنذره بالتأنى فى الدعاء فربما يموت السلطان وتكون صلاة الجمعة فرصة سانحة لاعـلان السلطان الجديد المنصور أبى بكر بن الناصر محمد الحالى !؟ قلت : « والله أنه لمزاج سمج وهذر سخيف ٠٠ لن أؤدى الصلاة وراء هذا الخطيب ٠٠ ثم قمت فأديت الصلاة وحدى وخرجت ٠

من حسن الحظ اننى خرجت قبل خروج المصلين ، ذلك أن الشوارع كانت تغص بالجموع القادمة تهرول فى ذعر من ناحية الخزانة ، وكان بعضهم يجر ساقا مهيضة وآخر مكسور الذراع وثالث مشجوج الرأس وكانوا رغم ذلك يضحكون ولكن فى ألم ، فلما اقتربت من الخزانة وجدت تجريدة من الجند عائدة فى ذلة منزوعة السلاح منزوعة الكرامة ٠ ورأيت واحدا من رجال الخزانة فسألته عما حدث فقال ان الأمير صاحب الابن الشاذ قد جاء يثبت أن له سطوة فعاد بلا كرامة على الاطلاق وكان مأسورا لولا ان تشفعت له فتاة من الفتاتين ٠ قلت : « هى روح التسامح المصرية أنهما اذن لمصريتان حتى النخاع » ٠ وما كدت أدلف الى باب الخزانة حتى صـاح فى الجـو صـائح جهـورى يقول : « البقية فى حياتكم ٠٠ مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٠٠ وخلفه ابنه المنصور أبى بكر » ٠ قلت : « على خيرة الله ٠٠ ثم دلفت الى الخزانة ٠

أيها السلطان يا من أضاعتك « السلطنة »

عقدت الخزانة أكبر اجتماع فى حياتها ، ظل منعقدا طيلة النهار والليل يستقبل أبناء الخزانة العائدين من مشـــاويرهم داخل أو خارج المدينة ، منهم من قطع رحلة تجارية كان قد بدأها ، ومنهم من أدرك الخبر فى احدى القرى فركب من فوره وعاد ، وكأنما الخزانة قد صارت وطنا لنا وكأن الوطن يمر بمحنة تشدنا اليه وتوقفنا معه ! وكان كل قادم جديد يفاجأ بعد برهة أن الأمر لا يستاهل القناع الذى ارتداه فيبدأ فى خلعه ويصير طبيعيا مثل أمراء الحبس يضحك ويمزح ويعاقر • الحق لله لم يعجبنى المنظر • كيف نكون فى محنة كهذه ونقطع الوقت فى لهو ولعب ! لقد مات حليفنا الكبير وصرنا بدونه فى العراء فكيف نستهين بالأمر الى هذا الحد ! وخفت أن يتمادى الأمير فى استهانته بالمأساة فيطلب منى فتح الشباك على ساحة الهذر • وقد صح ما توقعت ، حيث أمرنى الأمير خزعل أن أفتح الشباك على الطبول والدرابيك ، فما أن فتحت الشـــباك حتى امتلأت الخزانة بأصحاب الطبول والمزامر والدرابيك والمزامير والأراغيل وما لبث الجو أن امتلأ بكل الأصوات الرائعة وأنا أتفرج فى شعور شديد بالحرج والوجل • ضربنى خزعل بالكف على ركبتى فى مرح فوقعت على الأرض فعدلنى باصبع قدمه فتوازنت • قال خزعل ضاحكا : « بودنا ان يشاركنا سيادة الطرشجى فى مرحنا » • قلت : « فعلا أنا فى غاية

المرح » • قال : « نعم بكل تأكيد » • فسحب لاسة حريرية رماها على وقال: « قم » • قلت : « لماذا ؟ » • قال : « أرنا قدرتك على المرح » • قلت : « كيف ؟ » • قال : « تحزم وارقص » • قلت : « ماذا ؟ ! » • قال : « هيا •• ان لم يرقص المرء مات ناقص عمر » ، ثم أشار للطبول أن تجعل بالها معى فهدأت وصارت تفرش لى بايقاعات فى البداية ، ثم لما صار جسدى يهتز رغما عنه قلت : « كيف بالله يا أمير نرقص هكذا ونحن لا نعلم أى تدبير ينتظرنا الليلة بعد موت حليفنا ؟ » • قال خزعل : « لست أدرى من أى مصدر جاءك القلق •• أنت مصرى •• يعنى أنك تعرف خلة الحكم فى الديار المصرية » • قلت : « نعلم ولهذا أريد أن نفكر فيما يمكن أن نواجه به ظروفنا القاسية • قال : « يا عبيط •• ثق أنه لا أحد الآن يفكر فينا على الاطلاق •• أتعرف لماذا ؟ •• ان الملك فى الديار المصرية ينتزع انتزاعا ، والسلطان والأمراء مشغولون بأحلام الثروة والجاه •• ان دماغ كل منهم لا يفكر الا فى نفسه فحسب •• وغدا ترانا ملوكا بدورنا لأنه سيكون دائما ثمة من يستعين بنا لمساندته •• والى أن يجىء من يطلبنا العون دعنا نرقص •• الا أن كنت تخشى على مظهرك كطرشجى وقور » • قلت : « أى نعم هـذه هى الحقيقة •• ولا يليق بطرشجى مثلى أن يتحزم ويرقص حتى ولو كان ذلك تعبيرا عن سعادته » قال : « أنت حر » • ثم نزع اللاسة منى وتحزم بها و •• هات يا رقص على كل لون ، من دبكة وتحطيب الى واحدة ونص » فما أن اندمج فى الرقص حتى صارت الخزانة كلها ترقص حتى بدأ جميع من فيها كذرات وسط ماء يغلى بعنف • فتركها الأمير تغلى بالرقص وانسحب وعلى شفتيه ابتسـامة واهية ، ثم جلس وسط خاصـكيته قائلا : ما آخر ما عرفتموه ؟ » • فقال أحدهم أنه شاهد فى جنح الليل عسكر السلطان يسحبون بعض الأمراء ثم يضعونهم فى خزانة شمائل » •

ضـفق الأمير خزعل فى مرح وقال ناظرا الى بلهجة ذات معنى : « هنا قد بدأت المذبحة يا طرشجى •• أمراء يزج بهم فى خزانة شمائل •• أقبح سجن فى القاهرة •• أليس كذلك ؟ » • قلت : « نعم •• خزانة

شمائل هذه سبق أن عرفني بها صديق يدعى المقريزى ·· الست تقصد هذه التى بجوار باب زويلة ·· على يسرة من دخل منه بجوار السور ·· لقد عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ·· هى من أشنع السجون وأقبحها منظرا ·· يحبس فيها من وجب عليه القتل ، أو القطع ، من السراق وقطاع الطرق ، ومن يريد السلطان اهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة » · قاطعنى خزعل : لسنا فى حاجة الى درس فى تاريخ خزانة شمائل ·· انما أريد أن أذكرك بأننا أكثر حرية من أمراء كانوا فى السلطة منذ برهة وجيزة » · عجبت لرجل كهذا يفهم سر الحياة فى الديار المصرية بأدق وأجل مما يفهم أبناؤها ، ثم عدت فضحكت ضحكة سوداء حين تذكرت أن نسبة كبيرة من بنى شلبى لا يفهمون شيئا على الاطلاق فى شؤون الحياة بله أن يفهموا فى شؤون السياسة · سألت الأمير « خزعل » عن سر مفهوميته فقال أن أبناء الديار لا يتسنى لهم أن يفهموا ، ليس فحسب لأنه من غير المهم أن يفهموا وانما لأن الحياة فى ديارهم مرتبة بحيث ألا يفهموا ، لقد كانوا أقنان أرض وعباقرة مقابر ، عباقرة المقابر عزلوا الأقنان عن نور العلم والحضارة تماما بفكرة الأسرة ·· مات عباقرة ودفنوا فى مقابرهم العظيمة ودفن أقنان الأرض فى جهلهم العظيم ــ من كهوف الجهل يخرج الأطفـال أرتالا كالجرذان تسعى فى أرض الوادى الخصيب ·· انداحت الحضارة وانداح كل شىء ولم يبق فى هذه الديار سـوى عبقرية الأرض نفسها ·· وعبقرية الأرض التى تواءمت مع جهل الأقنان تصبح ويصبحون فى حاجة دائمة الى من يسوسهم ويسوقهم ·· لقد كتب على هذه الأرض أن يمتلكها حكامها وأن يظل رعاياهـا مجرد رعايا لا ناقة لهم فى الموضـــوع ولا جمل كما يقول فصحاؤكم ·· من هنا فان امتلاك السلطنة مسألة دونها ــ كما يقول فصحاؤكم ــ خرط القتاد ·· السلطنة تنتزع بالسيف لا يعوقها خجل ولا حياء ولا شرف » · وهنا أكلتنى الدماء فى عروقى وهممت بالرد عليه صحيح أننى لم أكن قد جمعت بعد ما سوف أرد عليه به ولكننى تعلمت

من عملي بالصحافة أن الانسان يجب أن يرد والسلام ٠٠ غير أن « خزعل » أشار نحوى بيده فى محاولة لوم قائلا : « كنت أنتظر أن تقوم بعمل مهم يفيد الخزانة الآن وأهلها » ٠ قلت : « من أين يجيء العمل المفيد وسط الرقص ؟ » ٠ قال : « فليكن مفيدا للرقص ٠٠ هى فائدة على أى حال أفضل من قلتها » ٠ قلت بكثير من الغضب المكبوت : « يعنى سمو الأمير يريدنى أن أبذل جهودا تخدم هذه الأغراض ؟ » قال : « من الذكاء والحكمة أن يلتحم صوتك بالصوت الذى يتردد فى االأفق » ٠ قلت : « وشرف الانسان » ٠ قال ضاحكا : « ما سر هذه الأفكار الجديدة الغريبة التى بدأت ترددها ؟ » ٠٠ هل انضمت الى احدى الفرق ؟ ٠٠ نصيحتى لك : أحذر أن تكون متشيعا لأى فكرة ٠٠ والا ٠٠ فابحث لنفسك عن مكان آخر غير هذه الديار ٠٠ ها أنت ذا ترى أن السلطان فى سبيل راحتنا قد لفظ ذاك المدعو الملك الجوكندار ٠٠ الناس تحبه لأنه طيب بالفعل وصاحب مبدأ وينادى بالشرف والأخلاق ولكن هل نجح ؟ » ٠٠ قلت : « لقد أدى ما عليه » ٠ قال باسما : « كان قمينا بأن ينجح لو أن هدفه الحقيقى من أجل خـدمة جماعة ٠٠ كان من المـمكن أن يتصرف السلطان المرحوم فى أمرنا لكى تستريح المنطقة من شرورنا المزعومة ؟ ٠٠ لكن هدفه الحقيقى من محاربتنا كان أراحة نفسه ، حماية أهله وأولاده من بعض تجاوزاتنا ، فلما خذله السلطان ترك لنا المنطقة وهاجر ٠٠ ان المحارب من أجل هدف شخصى سرعان ما يسأم من توالى الهزائم ٠٠ أما المحارب من أجل هدف جماعى كبير فهو لا يسأم أبدا مهما جافاه النصر ، لأنه سيستمد من حرارة الهدف ودفء الجموع وقود الحرب » ٠ قلت : « والله أنك لحكيم يا سمو الأمير ٠٠ هكذا الأمراء والا فلا ٠٠ ولكن قل لى ٠٠ هل تعتبر نفسك محاربا من أجل هدف شخصى أم من أجل هدف جماعى ؟ » ٠ قال ببساطة : « لم أعد محاربا ٠٠ انما أنا مدافع ٠٠ نعم ٠٠ أدافع عن حياة كل هؤلاء المظلومين فى الديار المصرية ٠ صحيح أن بينهم ظلمة ولكنهم لم يكونوا ليظلموا لولا وقوعهم تحت سـنابك الظلم ، انك اذا دست على جسد ثعبان فسوف يعض من يقف أمامه ! » ٠

ثم أنهى كلامه قائلا : « والآن ما رأيك فى أن نرسلك فى مهمة للتجسس لحساب الخزانة ؟ » . قلت : « أين ؟ » قال : « فى القلعة .. لتجىء لنا بأخبار المذبحة التى لابد ستحدث حول من يعتلى عرش السلطة » . قلت : « ولماذا التجسس يا سمو الأمير ؟ » ، « ان لدينا نافذة تتعامل من خلالها مع البعيد ، والأفضل أن يكون لها مندوبون ومراسلون فى كل مكان يعملون فى العلن ويتعاملون مع الناس بلا حساسية .. وهكذا تفعل وكالات الدول العظمى كوسيلة رشيقة لجمع الأخبار بكل صنوفها » . شبوح قائلا : « نظم الأمر كما يحلو لك ولكنك أنت شخصيا لابد أن تكون موجودا فى القلعة لتوافينا بكافة الأنباء .. ولسوف تتولى الخزانة حراستك دون أن يشعر أحد » . قلت : « أريد بدل سفر بالعملة الصعبة » . قال : « ماشى » . قلت : « أريد ناقلة خاصة بى وحدى » . قال : « هى لك » قلت : « وسكرتير يحمل حقيبتى وآخر تكون وظيفته اقتحامى وأنا جالس يهمس فى أذنى على الدوام » . قال : « وعلام يهمس فى أذنك وبأى شىء ؟ » . قلت : « لا لشىء .. فليهمس بأى شىء ؟ » . قال : فما معنى هذا ؟ » . قلت : « لا أفهم معناه بالضبط ولكنه لزوم الأبهة وممارسة الشعور بالأهمية » . قال : « كلكم فى الديار المصرية مصابون بعقدة الخدم .. لك ما تشاء على أى حال » . انتقلت من فورى الى القلعة محمولا على صهوة جواد يحف بى حرس شرفى فلحقت بالسلطان وهو يعتلى الأريكة ، هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن السلطان الملك الناصر أبى المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، جلس فى الايوان فى القلعة بعهد من أبيه اليه ، وكان لابد من وسيط يدخلني الى القلعة ، من حسن الحظ أن رأيت ابن تغرى بردى يهم بدخولها للقاء السلطان فسلمت عليه ودخلت معه ، فقال لى ونحن فى طريقنا الى الايوان أن المنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر ، والأول من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . حين دخلنا الايوان بالقلعة فاذا بالمجلس حابك بكامل هيأته ، الملك المنصور في المواجهة على الأريكة ، شاب حلو الوجه فيه سمره وهيف

قوام، عمره حول العشرين سنة ، فحل كبير . سلمت على الملك وقبلت الأرض بين يديه ووسع لى بعضهم مكانا بجواره فجلست وجلس ابن تغرى وأخذ يعرفنى بهم : « الأمير طقز دمر الحموى ، حمو الملك المنصور ، قائم بنيابة السلطنة بديار مصر ، اذ هو من أكابر الأمراء وأيضـــا صـــهر السلطان .. الأمير قوصون الناصرى مدير المملكة ورأس المشورة ويشاركه في الرأى الأمير بشتمك الناصرى . قلت : « أهلا وسهلا .. أجدع ناس » . فهزوا رؤوسهم فى تجلة قائلين : « أنت الأحسن يا أبو العم » . ثم اننى اقتربت من السلطان وهمست فى أذنه بأننى أريد أن أتحدث معه فى أمر يخص أبناء شلبى الذين قابلتهم فى عصره وحملونى شكاواهم لما عرفوا أننى سأقابل السلطان . فقال السلطان أهلا وسهلا بكل سرور ، ثم أضاف : « ولكننى الآن سوف أتوجه الى جامع القلعة حيث قد جمعت القضاة للنظر فى أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن أبى الربيع سليمان واعادته الى الخلافة » . قلت له : « ليس الآن بالطبع .. ان مشكلة بنى شلبى ليست أهم من الخلافة بالطبع » . ولكنه هز رأسه موافقا وقال أن مهمته فى جامع القلعة لن تستغرق وقتا طويلا يكون بعده فى جلسته تلك ويشرفه حضورى أو على الأصح عدم انصرافى . ربك والحق وجدت نفسى مكسوفا من الرجل وخفت أن يظننى أتعالى عليه ففضلت البقاء حتى يعود . ثم صرت أتلقى كؤوسا من الفضة تارة والذهب تارة أخرى أجرع ما فيها وأعيدها لأتلقى طبقا فيه حلوى التهمتها وأعيد الطبق لأتلقى منديلا أجفف به يدى وفمى ، ونظرت فى وجه طقزدمر فوجدته مسحوبا مدبب الفك مطبق الشفتين غير مريح . فعرجت على وجــه قوصــون الناصرى فوجدته كالبطيخة تماما وان كان ســـطحها لون قلبها فامتعضت ، ثم انشغلت بزخرفة الألوان ودقتها وتوازنها ، ثم صرت أنشغل بأشياءلا حصر لها ، فلما انتبهت بعد برهة لم أجـد فى المجلس ســواى ، لا طقزدمر ولا قوصون ولا تغرى ولا السلطان الشاب ، لا أرى الا خدما يواصلون خدمتى دون ملل . سألت أحدهم عن الذين كانوا معى فقال أنه لا يدرى ، ثم اذا بالسلطان يدخل متجها نحوى ويسلم على معتذرا عن تأخره فى

النوم ونسيانه لموعدى ، ثم أمر بأن يدخل الخلان ، فدخلوا ، فقدمهم الى :
« الأمير بلبغا اليحياوى ، أكثر من صديق ‥ الأمير ملكتمر الحجازى
أحب ندمائى ‥ الأمير طاقار الدوادار ‥ الأمير قطليجا الحموى » ·
قلت له : « فلماذا لم تعرفنى ببقية الإمراء ؟ » ــ وأشرت الى جمع صغير
كان معهم · قال باسما : « أنهم جماعة من الخاصكية » · قلت : « فرصة
سعيدة جدا » · قالوا : « نحن الأسعد » · ثم قام الأمير ملكتمر وصار
يروح ويغدو فى حركات لينة ، ينادى على هذا ، ويهمس فى أذن ذاك
ويذكر ثالثا ، ويضحك لرابع ، حتى أطل علينا الخدم بالقوارير والكؤوس
وثاروا يرصونها أمامنا فصفقت بيدى فى مرح وقلت : « كسبنا صلاة
النبى ‥ احنا ليلتنا فل باذن الله » · وأخذ الأمير ملكتمر يصف الكؤوس
ويوزع البسمات فى شغف · وقال الأمير طاجار : « ماذا تم فى أمر
بشتك الناصرى ‥ كان يحلم بنيابة دمشق · قال السلطان الشاب :
« هو الآن فى الحبس بالاسكندرية ‥ لم يدعه قوصون الناصرى فى
حاله ‥ ظل وراءه حتى أقنعنى بالقبض عليه » · قال قطليجا : « لكنك
يا مولاى كنت موغر الصدر منه » · قال السلطان : « لا شك » · قال
يلبغا : « الآن المرحوم كتب له بنيابة دمشق قبل أن يموت ؟ » · قال
السلطان : « لا ‥ ولو صبر واتزن لنالها ‥ لكننى اغتظت منه ‥ لأنه
صدق كلمة صبرته بها وصار يصرف على اعتبار أنه نائب دمشق » ·
ثم ارتفعت الضحكات عالية · قال السلطان بلهجة ذات معنى : « وغاظنى
أكثر اسفافه فى العطايا والمنح ‥ لقد وزع مساحات شاسعة من الأراضى
والجمال والخيول والحلل المذهبة والخلع على ناس ومماليك من مختلف
الأشكال والألوان » · قال مكتمر : « ما نالنى من الذهب والجوهر واللؤلؤ
لم أكن أحلم به من مولاى السلطان نفسه » · وقال الطنبغا : « لقد أهدانى
جاريتين جميلتين » · وقال السلطان بغيظ : « لم يترك أميرا الا وأهداه
بسخاء » · قال ملكتمر : « لكن كيف يا مولاى تقبضون على رجل طيب
يفعل الخير ؟ » · قال السلطان وهو يضربه على خده بأطراف أصابعه :
« لو تركناه هكذا لوثب على السلطنة واحتواها » · قال يبلغا : « لكنه

غنى الى حد لا يصدقه عقل ·· تصور يا مولاى انه وزع على الأمراء اثنى عشر ألف أردب غلة من شونته الخاصة ·· وأخرج ثمانين جارية بعدما شورهن بالأقمشة والزراكش وزوجهن » · قال السلطان الشاب فى غيظ : « دعونا منه ومن سيرته ·· عليه اللعنة » · قال ملكتمر فى دلال كبير : « لكننى ·· يا مولاى ·· أريد أن أعرف ·· هل حقا قتل بشتك » · انزعج السلطان الشاب من هذا الخبر ، ولاحظت أنا أنه انزعاج مسرحى الى حد ما وقال : « كيف سمعت هـذا الخبر ؟ » · قال ملكتمر : « سمعت ·· يقولون أن والى الاسكندرية قتله بأمر » · شرد السلطان قليلا ثم قال : « يجوز » · قال ملكتمر : « ويقولون أن قوصون الناصرى هو الذى أوعز لوالى الاسكندرية بذلك » · قال السلطان الشاب : « يجوز » · ثم صار يشرب ويشرب حتى غلبه السكر ، فوقف ومشى نحو شباك ثم وقف فيه ونادى كأى سوقى : « أمير ايدغمش ·· أمير ايدغمش » سمعنا صوتا من أسفل الجدار يرد فى شعور بالخجل والدهشة : « مولاى ·· مولاى ينادى هكذا ·· أقصد خيرا يا مولاى » · قال السلطان الشاب : « هات لى قطقط » · جاء صوت ايدغمش من أسفل : « يا خوند ·· ما عندى فرس بهذا الاسم » · صاح السلطان الشاب فى غضب : « يا أمير أخور ·· قطقط هذه امرأة مغنية وأنت تعرفها ·· أبعث لها من يناديها على الفور » · ثم عاد الى مجلسه كأن شيئا لم يكن ، فنظرت اليه معجبا وقلت : « لكن دأنت فل خالص » فضحكوا جميعا ، وكنت أسمع صوت طبول تدق من بعيد ، ثم اذا بأرباب الوظائف يدخلون علينا واحدا وراء الآخر ويهمسون فى أذان بعض الأمراء وعلى محياهم الخوف الشديد · فقال السلطان بلسان معووج : « ما الأمر ؟ » · قال أحـد أرباب الوظائف : « فى الجو مؤامرة » · فقال السلطان : « يا طاجار دوادار ·· اذهب الى الأمير طقزدمر النائب وأسأله عن الخبر أو فاستدعه » · فذهب طاجار فذهبت معه ·

وجدنا طقزدمر عند « جينكلى » بن البابا والوزير وعدة من الأمراء المقيمين بالقلعة · قال طاجار :

ـ يا طقردمر ٠٠ يريدك السلطان الآن

قال طقزدمر

ـ لا أدخل على السلطان ٠٠ أنا مع الأمراء حتى أنظر ما عاقبة هذا الأمر ٠٠ أنت وغيرك سبب هذا ٠٠ حتى أفسدتم السلطان بفســادكم ولعبكم ٠٠ قل للسلطان يجمع مماليكه ومماليك أبيه حوله » ٠

فرجعنا طاجار وأنا الى السلطان وأبلغناه ما حدث ٠٠ فخرج السلطان وطلب المماليك وأمرهم كل طائفة تخرج الى باب القلعة ، فما أن ساروا حتى عادوا وقالوا ان باب القلعة مغلق ، فأحسست أن السلطان قد وقع فى الأسر وأن آمورا غير سارة سوف تحدث بعد قليل ، فتسللت الى أحد الشبابيك وبحثت عن مواسير أهبط عليها فلم أجد ، ولو كان معى حصان المملوك الشارد لفعلت مثله ورميت بنفسى من فوق سور القلعة ، لكن حصانا آخر كان معى أكثر حذقا من حصان المملوك الشارد ، ذلك هو خيالى ، استخدمته حتى خرجت من الايوان كما تخرج الشعرة من العجين ، ووقفت الى بعيد وتمكنت من رؤية السلطان وهو يتوجه الى نفس الشباك وينادى : « أيدغمش ٠٠ دق الكاسات وشد الخيل للحرب » ٠

فقال له ايدغمش : « لم يبق فى الاسطبل غـلام ولا سايس ولا سبلاخورى يشد فرسا واحدا » ٠ فقال : « ابعثوا لى بالنائب » ٠ فرد عليه صوت : « النائب ممتنع عليك » ٠ ثم اذا بالأمير برسبغا يتوجه فى جماعة الى القلعة ويقتحم الايوان فيمسك بالملك المنصور ويكتفه ويسلمه الى بعضهم ٠ ثم يدخل الى مسكن السلطان مع جماعة أيضا ويخرج سبعة نفر نظرت فيهم فعرفت أنهم اخوة الملك المنصور ، مع كل منهم مملوك صغير وخادم وفرس وبقجة قماش ، كان منظرهم لا يسر وهم يمضون مقهورين خارجين من باب القلعة ٠

٠٠ رأيت ابن تغرى ماشـيا معهم فمشيت معه أتعظ وأعتبر ٠ وعند شاطىء النيل أوقفوهم وأنزلوهم فى حراقة ـ أى سفينة ـ سارت بهم

الى قوص . وقال ابن تغري أن قوصون هو الذى قاد هذا الانقلاب ضد الملك المنصور وأنه لم يترك بالقلعة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الا كجك . وكان الذجول قد برح بى فلما أفقت تذكرت الخزانة .. فعدت اليها أكاد أطير من الفرح وفى ذهنى أننى سأقوم بتبليغ أخبار هامة شهدتها بنفسى . ودخلت باب الخزانة لأرى الرقص لا يزال قائما والطبل والزمر لا يزال يلعلع ، وخزعل جالس فى مكانه يجرع العرق ويأكل اللحم النيء المتبل بالفلفل . تقدمت منه قائلا : « أما علمت بالأخبار الطازجة ؟ » . قال خزعل ساخرا : « أما علمت أنت بأخرها ؟ » .قلت : « شحنوا الملك الى قوص » . قال خزعل ساخرا : « هذه أخبار قديمة يا طرشجى .. لقد وصلتنى أخبار الآن من قلب نهر النيل حيث تسير الحراقة ! » . قلت : « كيف ؟ .. أنتم لم تعرفوا اللاسلكى بعد » . قال : « وهو يمضغ اللحم : « نحن أقوى من اللاسلكى .. لأننا باللا .. لاسلكى » ثم لكزنى بكوعه فى مزاح فوقعت على الأرض مستغرقا فى النوم العميق ..

. . . .

وعندما استيقظت كانت أيام طويلة قد مرت ، وكان الرقص لا يزال قائما غير أنه لم يكن رقصا بالمعنى المفهوم لدينا ، انما كان أقرب الى الحركات الهمجية الفاقدة كل معنى ، وكان خزعل لا يزال فى مكانه ولكننى لدهشتى وجدت ابن تغرى يجلس بجواره ويتأمله فى تمعن كبير نفضت النوم عن نفسى وذهبت لأسلم على صـديقى ابن تغرى فقال باسما : « هدك التعب » . قلت : « من فرط ما رأيت » . قال : « وهل رأيت شيئا ؟ .. أنت لم تر سوى بقايا فصل .. فماذا لو رأيت فصلا كاملا أو عددا من الفصول ؟ .. » . قلت : « فى عرضك .. لا أحتمل » . قال : « أرأيت الملك المنصور يخرج هكذا منفيا الى قوص ؟ » . قلت : « يا له من منظر لا يسر » . قال : « فى خلعه من السلطنة واخراجه الى قوص مع اخوته عبرة لمن اعتبر ، فان والده الملك الناصر محمد بن قلاوون كان أخرج الخليفة أبا الربيع سليمان المستكفى بأولاده وحواشيه الى قوص منفيا مرسما عليه ، فقوصص الملك الناصر عن قريب فى ذريته بمثل

ذلك ، وأخرج أولاده أعز مماليكه وزوج ابنته وهو قوصون الناصرى » ·
قلت : « يا لهـا من عبرة لمن يعتبر » · ثم نهض ابن تغرى واسـتأذن
فمشيت معه قليلا لأودعه فامتد بنا الحديث وجرنا الى شوارع القاهرة
الحافلة فاذا بنا نرى مناظر غير طبيعية : ناس تبكى وتصرخ وتعول ،
ووجوم يخط على المارة جميعا · تقدمت فسألت أحد المارة : « ما الذى
حدث ؟ » ، فلم يجبنى ومضى باكيا فقلت لابن تغرى : « لابد أن حدثا
جللا قد حدث » · قال : « مثل ؟ » · قلت : « باعتبارى مصريا ومن بنى
شلبى أعرف أن هذا الحزن لا يتم بهذه الروح الجماعية الا عندنا وحدنا
ولسبب قوى ·· كموت أحد الزعماء الكبار » · قال ابن تغرى : « هذه
بالفعل روح مصر ·· تبكى زعماءها بهذه الحرقة » · قلت : « فهل مات
أحد الزعماء ؟ » · قال : « لنسأل » · ولما سألنا علمنا أن الملك المنصور
قد قتل ·· قتله عبد المؤمن من متولى قوص ، وأن رأسه قد جاءت سرا
الى قوصون · قلت لابن تغرى : « ولكن كيف تبكى الأمة سلطانا لم
تعرف بعد مدى فاعليته ولم يمكث على أريكة الحكم سوى أيام معدودة ·
قال ابن تغرى : « لقد كان سلطانا كريما ، وشابا » · ثم هبط الليل
وامتلأت شوارع القاهرة بالجوارى اللابسات السواد والممسكات بالدرابيك
يندبن ندبا موزونا مفجوعا والناس كالكورس يردوا خلفهن بالبكاء · قال
ابن تغرى : « لله درك يا مصر ·· ان أنت الا بلد البكاء والحزن العميق » ·

فأين تهرب يا برىء من الخورقة ؟

شعرت بقليل من الخجل لما أنبأنى الأمير « خزعل » أنه قادر على معرفة الأخبار فى لحظة حدوثها ، ذلك اننى من عصر التليفزيون والراديو والأقمار الصناعية وكنت أظن أن عصرنا وحده هو المتقدم فى أمور التجسس والتصنت والتوصيل وما الى ذلك ، فاذا بعصر الأمير « خزعل » أكثر تقدما فى هذه الأمور وبدون أجهزة ، أنا نفسى رغم حضورى فى قلب الحدث فأتت على أشياء كثيرة لم أرها ولم أسجلها ولم أفهم تبعا لذلك مداليل كثيرة لأشياء مرتبطة بها ، فكيف رآها « خزعل » كلها وهو لم يغادر مجلسه فى خزانة البنود ؟ • أحس « خزعل » بما يدور فى خلدى ، طبعا ، ليس من المعقول أن يعجز عن رؤية ما فى خلدى ، فقال باسما : « تريد أن تعرف كيف رأيت ؟ » • قلت : « بحق الله عليك يا شيخ لانت قايل لى •• بس أوعى تخبى أى حاجة » • أعتدل « خزعل » فى جلسته فضرط فى وجهى بلا حرج وقال كأنه الفيلسوف : « كل أهلك وعشيرتك من بنى شلبى عيون لى وآذان •• ان الشىء يتحرك بسرعة حدوثه بقدر ما تمتلىء شوارع الديار بالمظلومين والمكلومين •• والخزانة كما تعلم حققت الحماية لكثيرن ممن دخلوا فى رحابها ، وكل من لا يزال يمشى فى الشوارع أكثر احتياجا منهم للحماية ولكنهم لسبب أو لآخر لا يطلبونها ، أنهم فقط يؤيدون بقاء الخزانة برغم كل شىء ،

يتمنون أن تظل هكذا الى الأبد مهما بلغت بشاعتها ، فكل منهم يحس أنه في لحظة ما فى يوم ما سيحتاج الى من يحميه من آلاف المخاطر المحدقة به ولذا فهم يتطوعون بتأميننا ضد ملاك السلطنة والحكومة ·· فئة أخرى من أهلك وعشيرتك لا يبغون حماية ولا يعلقون على الخزانة أى آمال خاصة ولكنهم لله يكرهون السلطان وجوره وبودهم لو بقى فى الديار من يستطيع قهر القوة الغاشمة ولذا فهم يتطوعون أيضا بتأميننا دون أن نطلب منهم ذلك أو ننقدهم أجرا ·· أحيانا أكون سائرا فى الطريق وليس فى دماغى أى شيء فاذا بى أفاجأ بمن يتمسح فى وينتحى بى جانبا ويهمس فى أذنى محذرا آياى من خطر ما لم آكن أضعه فى حسابى ، أو منبها اياى الى شيء مفيد أيما فائدة ·· وهكذا وهكذا » ··

المصيبة أن كلامه صحيح الى حد كبير · وقال صوت فى دماغى : « كل عباد الله فى كل البلاد يزورون دولا ويمكثون فيها قدر ما يمكثون ولكنهم فى النهاية لابد لهم من العودة الى بلادهم ، الا مصر ، يجيئها الخلق من كل ملة ولون فيلتصقون بأرضها لا يفارقونها ويصبحون من بين أهلها بل وربما صاروا من قادتها ، ثم أننى استأذنت من الأمير خزعل وأردت التحول فى المدينة حتى تهدأ أعصابى فنظر لى قائلا أننى يجب أن أكون على حذر من نزوات السلطان · قلت له أن السلطان طفل لم يكمل من العمر خمس سنين أى أنه لم تتضح له بعد نزوات · قال : « أنت تقصد السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبى المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى الذى ركب بشعار السلطنة ولقب بالملك الأشرف ! » · قلت : نعم وهو السلطان الرابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والثانى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون » · قال خزعل : « لا يا غبيط ·· هذا سلطان بالاسم والرسم فحسب ·· أما السلطان الحقيقى فهو الأمير قوصون الناصرى الذى فضل أن يقيم على حاله فى الأشرفية من القلعة ولا يخرج منها الى دار النيابة خارج باب القلة من القلعة ·· هو نائب السلطنة كما لعلك تعلم ، وهو الذى أطاح بالأمير

بشبتك على قوته وأطاح بالسلطان السابق على سلطنته . ويستطيع أن يطيح بأسرة كاملة من السلاطين .. خل بالك منه على أى حال » . قلت : « لا تخف على يا أمير خزعل فأنا صاح » قال باسما : « أنت حر .. لقد حذرتك وانتهى الأمر » : قلت : « على الله التساهيل يا أمير » . ثم أنني خرجت . واتخذت طريقى تجاه القلعة ، فرأيت الشموع قد اشتعلت بالحوانيت والشوارع فقلت اللهم أجعله خيرا ، ثم سمعت دق الطبول مع زئيط مقبل من بعيد فقلت اللهم أجعله خيرا ، ثم ظهرت الجموع مقبلة وكانت ساعتى تشير الى السبت سادس عشرين جمادى الآخر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فلما ظهرت طلائع الجموع كان من بينها شباب وقور وشيوخ محنكين يبدو على وجوههم فرح شرير غريب تختبىء فى خلفيته البعيدة مشاعر انسانية منسحقة تماما ، قلت لأحد الشبان : « ما الأمر ؟ » . قال الشاب : « حالة تشهير كما ترى ! » قلت : « يعنى ماذا ؟ » قال شيخ آخر : « انضم الى الموكب وأنت تعرف » . قلت : « وموكب أيضا .. كيف أنضم الى موكب لا أعرف كنهه ولا أعرف الى أى موقف هو سائر ! » . قال الشيخ الآخر : « انضم لتعرف » . قال ثالث : « أو أنضم لكى لا تعرف ! » . وقال رابع : « وهو منضم حتى لو لم يكن يعرف ! » وقال خامس : « هى المواكب دائما .. كل شىء يمكن أن يتحدد فيه جانب الفرح من جانب الحزن الا المواكب تختلط فيها كل الأمور » . قال أحد الشباب متفلسفا : « ولهذا فنحن نسير فيهـا مرغمين » . فرد عليه ثان أكثر تفلسفا : « تقصد المرغمين الضاحكين ! » . أحتد الأول : « يعنى ماذا ؟ » . لطف ثالث : « يعنى الضاحكين برغمهم » : فعلمت أن الأدمغة فى الديار المصرية ضاربة ، وأنها سبقت أدمغتنا فى ضرب الأسلاك واختلاطها بأزمنة طويلة ، ومضيت فاذا بى دون أن أدرى قد صرت جزءا من الموكب ، صحيح أننى كنت داخل اطار وهمى من الذاتية المنفصلة وأننى كنت أسير بمنطق ورؤية واحساس المتفرج الا أننى رضيت أم أبيت صرت جزءا من الموكب وصارت تنعكس على نفسى مشاعره وتقودنى نفسى أمواجه بالسرعة التى يشاؤها ولم تصبح لى رغبة أو أى دوافع يمكن

أن أسيطر عليها لسبب بسيط هو أننى حتى لم أعد قادرا على الرغبة وسط هذا الطوفان الأبلة المجنون • ثم اننى بعد ان كنت بين الطليعة صرت من حيث لا أدرى فى القلب ، وصرت أستمرىء دفع الموكب لى الى الخلف حتى تبينت فى كثافة الطبول الفرحة جملا كبيرا يمشى فى وقار عظيم ويمد عنقه فوق الأعناق ناظرا ذات اليمين وذات اليسار وعلى شفتيه ــ الجمل ــ بسمة عتيقة السخرية لا تصدر الا عن فيلسوف كبير جدا ، فوق الجمل هيكل خشبى سرعان ما تبينت فيه شكل المستطيل ولكن بداخله صليب • قلت لنفسى هذه أول مرة أرى فيها الصليب يحاط باطار يحميه ويلفت عنه الأنظار ، لكن الصليب الذى بداخل المستطيل الخشبى كان ينبض برعشات لا تكاد ترى وكانت برك الدماء تنثال من حوله وله رأس متهدل فوق الصدر معوج العنق ، وذراعان ممدودتان وقد سمرتا بمسامير فى الخشب ، كذلك الساقان والعجزان ، قلت لنفسى أما الذراعان فيكفيهما مسماران خمسة سنتيم ، أما الساقان والعجزان فلابد لهما من مسامير حدادى كبيرة ، وتخيلت أن الذى يقوم بمسمرة البشر لحساب الحكومة ولد صنايعى ماهر يخترع مسامير وصواميل محكمة ، ويخرم ساق الانسان « بالشينيور » أولا ، ويمكن أن يقوم بمعجنة مواضع الخرم بعد دق المسامير ودهنها بالبوية حتى يصير شكل الصورة جميلا ويبهر الناظرين •

ولما كنت فى الموكب كالريشة فى فك الأمواج المضطربة فان أحد السائرين بجوار الجمل لكزنى ، فنظرت فيه بغيظ فهز يده بجوار راسه مستفهما : « أية ؟ » •• مالك ! » •• انحزت اليه فى الخطو وسألته فى شعور بالحزن وبالشفقة : « مين المسكين ده ؟ » •• وأشرت الى الذى مسمروه • صاح فى الرجل غاضبا : « مسكين ؟ » قلت من وجل : « اقصد اللعين » • هبط غضب الرجل شوح بذقنة تجاه الذى مسمروه وقال : « ألا تعرفة •• أنه ولى الدولة أبا الفرج بن خطير صهر النشو •• مسمرة قوصوق » • قلت : « لماذا ؟ » قال هامسا : « كان قد توصل الى الملك المنصورة بسفارة أستاذه ملكتمر الحجازى » • قلت : « وماذا

فى هذا ؟ » . قال الرجل مراوغا : « ووقعت منه أمور حقدها عليه قوصون » ، قلت : « اشتكاه يعني مثلا أو دس فى حقه ؟ » . قال الرجل ينفى قاطع : « الله أعلم .. الله أعلم » . قلت : « ولماذا تفرحون أنتم هكذا » . قال : « نحن خاصكية قوصون فلماذا لا نفرح فى وقوع عدو لنا ؟ » قلت : « وهؤلاء هم أهل مصر والقاهرة ما لهم .. هذه معارك بينكم وبين بعضكم .. فلماذا يشترك فيها هؤلاء بالفرح هكذا ؟ » قال الرجل : « أهل مصر والقاهرة يفرحون لدى وقوع أى متسلط ظالم ، خاصة اذا كان ممن بقى من حواشى النشو وأصهاره » . تلفت ثانية نحو الذي مسمروه وهو يهتز مع اهتزاز الجمل فى ايقاع رتيب هادىء لا شأن له بايقاع الموكب ، استبشعت المشهد ، صحت من قرف : « أيه ده يا ربى .. أيه ده ! » . صاح فى الرجل غاضبا : « ماذا قلت يا هذا ؟ » . قلت : « ده افترا » . امتدت يده الى سيفه وطق الشرر من عينيه وهو يصيح : « ماذا قلت يا جبان ؟ » . صحت فى نفس القرف كأننى لم أسمعه » « الواد ده مش صنايعى على فكرة » . توقفت يد الرجل على السيف : « ولد مين ؟ » . قلت : « الولد اللى مسمر الجدع ده .. مش صنايعى .. ده شغل سوقى خالص .. اديتوه كام الولد ده .. على فكرة ما يستاهلش أى فلوس .. أنا صنايعى نجار وعارف .. مهنتى .. الولد ده بقى .. معرفش يسمر الجدع ده كويس .. ده شكل مسمار ده .. فتحه غارقانه دم .. ولا ده .. مسمار اتعوج فى فخذ الرجل يقوم سايبه وتانيه ؟ .. ده شغل ؟ .. معندوش كماشة يخلع بيهـا المسمار ويدق غيره ؟ .. ده حمار .. لو فى عصرنا كانوا طردوه من المهنة » . انزاحت يد الرجل عن السيف وهدأت ملامحه وابتسم قائلا فى تطييب خاطر : « أى نعم أى نعم عندك حق » ، وتبسم آخرون وتقدم منى شخص مهيب قدم نفسه : « الأديب جمال الدين ابراهيم المعمار » . هززت رأسى قائلا : « أهلا أبو زمل » . فازداد اقترابا منى وبلهجـة مسرحية اندفع يشدو : « قد أخلف النشو صهر سوء ، قبيح فعل كما تروه .. أراد للشر فتح باب (*) فأغلقوه وسمروه » . قلت : « هذا شعر

فيئما يبدو » قال جمال الدين : « نعم يخيل الى ذلك ! » ، ثم أدرك بحدسه الأدبي جفاء ذوقي فسكت بعد البيتين ثم انصرف عني شيئا فشيئا ثم ان الموكب نفسه أخذ يتلاشى شيئا فشيئا الى أن اختفى .

ووجدت نفسي أجلس بدار العدل بجوار تخت الملك مباشرة والسلطان كجك جلس على تخت الملك كنئوس صغير ، طفل في الخامسة فصلت له بذلة سلطنة على قده فكأنه من لعب الأطفال معروضة في قاعة شرقية حافلة . لم أكن أعرف على وجه اليقين لماذا أنا موجود في هذه الجلسة في هذه اللحظة ولكنني خمنت أن يكون وجودي بسبب كوني مندوبا عن الخزانة أو مرافقا لابن تغري بردي ، لكنني انشغلت بالحضور ومنظر الأمراء العمالقة وهم يتقدمون نحو السلطان الطفل على قدر مراتبهم ويقبلون الأرض بين يديه ، وهو يخلع عليهم ويخلع عليهم حتى انخلعت عيني من فرط المتابعة والحسد ، وبلغت عدة الخلع في هذه الجلسة ألفا ومائتي خلعة . ثم انني وجدت نفسي بجوار الأمير قوصون الناصري في الجلسة ، فتذكرت أن خزعل قد حذرني منه تحذيرا قاطعا ، فتعجبت كيف استأمنته على نفسي بأن جلست جواره مباشرة ، قلت لعلني من شدة الخوف منه أمعنت في الاقتراب لرؤيته على الحقيقة ، وقلت أيضا ان الجلوس في مجلس السلطان الأشرف كجك لابد أن يكون بجوار قوصون باعتباره نائب السلطنة وصهر السلطان . وكنت قد نسيت الخلع حيث تقادم عهدها وبدا أننا في جلسة تالية لجلسة الخلع ، ورأيت من يتقدم من قوصون ويتلقى منه حديثا عرفت من خلاله أن « ملكتمر السرجواني ، نائب الكرك يشق الهدوم من تمرد الأمير أحمد شقيق السلطان الأكبر المقيم في الكرك وأن الأمير أحمد خرج عن طوع النائب وشغف بشباب أهل الكرك وانهمك في معاقرة الخمر وأنه — أحمد — يرفض طلب قوصون له بالمجيء الى الديار المصرية حتى يأتيه أكابر الأمراء الى الكرك ويحلفهم ثم يحضر اخوته من بلاد الصعيد الى قلعة الكرك ويحضر بعد ذلك وينصب سلطانا .. ولأنني بطيء الفهم بسبب تشابه الأزمنة واللحظات واختلاطها فانني قد عرفت في نهاية الجلسة أن الجلسة كانت اجتماعا للأمراء

للمشورة في أمر أحمد المذكور ، وأنهم قد قرروا تجريد العساكر لأخذه :

انفض المجلس وانصرف الأمراء جميعا ولما شرعت في الانصراف أنا الآخر اعترضني رجل وجيه باسم الوجه وسيم الطلعة ولولا ذلك لخفت منه ، نظرت حوالى فلم أجد في القاعة أحدا سواى وهذا الرجل الذى أخذ يشير الى بطرف اصبعه مع ابتسامة بباخورة كأنه يقول : « تعال يا نمس عايز تهرب فين » • تقدمت منه خائفا وقلت : « من أنت يا سيدى » • قال : « ألا تعرف يا عكروت ؟ •• أنا مقدم مماليك السلطان » • قلت : « أهلا وسهلا أزى السلطان وازاى المماليك » • سحبنى من كتفى ومضى قائلا : « لا أحد من مماليك السلطان يستطيع الهرب بل لا أحد يريده فكيف سولت لك نفسك الهرب ؟ » قلت : « ظننتنى من مماليك السلطان ؟ » • لكزنى قائلا : « طبعا •• وقد أوصى بك الأمير قوصون ! » • قلت : « بس •• واقعنا في الخيبة •• الأمير قوصون هو الذى أوصى بى ؟ •• مصيبة » • فلم يمهلنى مقدم المماليك السلطانية انما جذبنى برفق وأشار لى نحو جناح فخيم وأمرنى بالدخول فدخلت ، فاذا بى أمام عدد هائل من القاعات والحجرات ، ورجال كالنساء أو أشد حلاوة يروحون ويجيئون ويدخلون الحجرات ، ثمة حجرة مكتوب عليها : « خشداشية » • استقبلنى أحدهم قائلا بما يشبه السخرية : « أهو أنت •• تعال » ، تقدمت منه ، راح يتفرسني ويأمرنى باللف حول نفسى كالمانيكانى ، ثم قال : « أأنت من مماليك السلطان أم من مماليك قوصون ؟ » قلت في غضب : « لست مملوكا لأحد » ، فاذا بكف كأنها الصاعقة تنهال على صدغى واذا بى فى ذهول ، واذا بالخشداش يقول فى غيظ : « أول ما شطح نطح » • مملوك متسلل وطويل اللسان مع ذلك •• هيا ادخل الى هذه الحجرة التى هناك » • ومضيت نحو الحجرة المشار اليها فدخلتها فاذا هى نصبف مفروشة ونصف أنيقة ويتصاعد منها عطر أنثوى جعل بدنى يقشعر ويشعر بالغثيان • جلست على السرير مقهورا أدبر للخلاص • من فرط القهر لم أدركم مكثت من الزمن ولكننى فى لحظة سمعت جلبة فى الحجرات وخطوات تدخل وتخرج ومشاحنات ، خرجت أستطلع الأمر ،

وكانت ساعتى تشير الى يوم السبت سادس عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فرأيت مقدم مماليك السلطان يقف واضعا يده على كتف غلام حسن الصورة صغير ، يعترضهما عدد كبير من الخشداشية .. يقول المقدم : « هذا هو .. طلب الأمير قوصون .. غلام حسن الصورة صغير » . قال أحد الخشداشية : « وهو لن يخرج من هنا » .. وقال ثان « وهو ليس من مماليك قوصون فكيف يخرج » . وقال ثالث : « هو وهم كلهم أمانة في عنقنا ونحن لا بد أن نحافظ عليهم » . وقال رابع : « اذا خرج هذا الولد من هنا تكون الكارثة » . وقال خامس بعنف : « ونحن لن نسمح بخروجه » . وقال المقدم فى هدوء وليونة وطراوة : « يا خشداشية .. طولوا بالكم .. لم الثورة .. كلكم وكلنا كنا غلمانا وما زلنا .. وهم مماليك السلطان وأنتم الخشداشية وتأتمرون بأمر السلطان .. والأمير قوصون الناصرى هو السلطان كما تعلمون بل أقوى من السلطان .. أم هل تراكم تتفرجون على سلطان طفل لا يفهم فى أمر المماليك أو الغلمان ولا يقدر من ثم تضحياتهم .. لا تعترضوا على شيء لا موجب للاعتراض عليه » . شوح أحد الخشداشية فى فروغ بال والصرف ثم برطم آخر وتخلى عن الجميع ، ثم صاح ثالث فى لغط غير مفهوم واختفى . ثم ما لبث جمعهم أن تفرق كله وخلف المقدم يضحك ضحكة عالية واثقة فيما يسحب الغلام ويمضى .

بقيت واقفا أتفرج على ما أصاب الخشداشية من كسوف وما تفرق من شملهم ، وظللنا طول الليل ننتظر عودة الغلام فلم يعد حتى الصباح ، واذا به يعود ومعه مقدم مماليك السلطان ، تركه المقدم يدخل الى حجرته وجلس مشيرا الى بعض الخشداشية فجاؤوا وتكاثروا حوله والغضب واضح على وجوههم . قال المقدم : « لنائب السلطنة طلب جديد » . قال أحدهم بنفس الغضب : « لا جديد ولا قديم .. يكفي ما حدث .. لقد سهر الغلام عنده ليلة » . قال المقدم : « ان نائب السلطنة لا يصح تأجيل طلباته بله أن نرفضها » . انطلق أكثر من صوت منهم : « ماذا يطلب حضرته ؟ » . قال : « يطلب بعض المماليك للسهر معه الليلة .. يطلب المملوك شيخون ، والمملوك سرتمنمس والمملوك ايتمنمس عبد الغنى » .

وهنا ارتفع اللغط عاليا ، وانشقت الأرض عن عشرات من المــــاليك والخشداشية لا يمكن التفاهم معهم بحال ، كانوا يصيخون كلهم فى نفس واحد وغضبة واحدة ، كانوا يقولون : « لا نحن مماليك السلطان ، ما نحن مماليك قوصون » • ثم دفعوا المقدم فوقع على بوزه فداسوا فوقه فنهض واندفع يجرى • فما أن خرج حتى تجمع مماليك السلطان كلهم ونظموا أنفسهم وتحدثوا فى الأمر قائلين أنه لابد من خروجهم الآن لمقابلة الأمير بيبرس الأحمدى •• فى هذه اللحظة دخل علينا رجل فى صحبة عدد من المماليك عرفت أنه الأمير برسيغا حاجب قوصون وشاورش دواداره وأن من معه هم مماليك قوصون الناصرى قال برسبغا : « كنت أريد أن آخذ المماليك عنوة ولكن •• « فأزاحه الجمع دفعة واحدة فتراجع وهو يأمر مماليكه بالكف عن المقــاومة ، ثم أننا خرجنا لنبحث عن الأمير بيبرس الأحمدى فقابلنا فى الطريق من أخبرنا أنه راكب ، فتوجهنا الى بيت الأمير جنكلى بن الباب بأرض الحوض المرصود فلقيناه فى الطريق مندهشا وقال : « ما بكم ؟ » • قال أحد الخشداشية : « نحن مماليك السلطان مشترى ماله » • وقال تان : « فكيف نترك ابن أستاذنا ونخدم غيره من هو مملوك مثلنا ؟ » • ارتفع اللغط والضجيج وعشرات الأفواه تتكلم فى لحظة واحدة والأمير جنكلى يوصيهم بالتزام الهدوء ، وهم يسرفون فى الشتم والسب واللعن دون أى تحفظ ، فقال لهم : « طاوعونى وارجعوا عما أنتم عليه » • فصرخوا قائلين : « لا والله ما نرجع أبدا عن غضبتنا » •

قال الأمير جنكلى فى حنق : « انتم الظالمون بالأمس ولما خرجتم قلت لكم طقزدمر نائب السلطنة ارجعوا الى خدمة ابن أستاذكم •• قلتم ما لنا ابن أستاذ غير قوصون •• والآن تشكون منه ! » • وهنا قال الخشداشية : « شكرا شكرا » ثم تركوا الأمير جنكلى ومضوا ونحن فى أثرهم • قال بعض المماليك : « فالى أين نذهب الآن ؟ » • قال الخشداشى الأكبر : « سوف نتوجه الى منكلى برسبغا الفخرى » • ومضينا الى دار « منكلى » فوجدنا برسبغا هناك أرسله قوصون • فارتفعت الأصوات تطلب رقبة برسبغا ولكن الفخرى طلب حمــايته فسـكتوا عنه ثم انصرفوا دون أن

أعرف علام اتفقوا بالضبط .. وقد انتهزت فرصة العودة وتوجهت الى بيت قوصون حيث علمت إنه طلب الأمراء اليه وقلت لعلنى أعرف معلومات جديدة أبلغها للخزانة . ورآنى قوصون نفسه فاندهش ولكن نظرة فى عينيه أعطتنى الاحساس بأنه سيتركنى فى الجلسة طالما أننى أصبحت من مماليكه ، فلما تكامل جمع الأمراء راح قوصون يحدثهم حديث الدس والتآمر قائلا لهم أنهم اذا لم يتحركوا فان المماليك السلطانية ستستخف بالأمراء وأنهم ـ المماليك ـ سوف يطغون ويتجبرون وربما سيطروا على الحكم بطريق غير مباشر خاصـــة وأن السلطان طفل يعجز عن حكمهم وقمعهم .. وهنا تململ الأمراء وظهر عليهم الغضب الشديد . فانتهز قوصون الفرصة ونادى على الأمير مسعود الحاجب فجاء فطلب منه باسم الأمراء جميعا أن يذهب ليحضر مماليك السلطان الذين كان قوصون قد طلبهم للسهر معه . فذهب مسعود الحاجب وغاب طويلا ثم عاد ونحن نقطع الوقت من غيظنا في الثرثرة الفارغة ، وقال أن جميع المماليك السلطانية قد كثف وكثر ولم يلتفتوا اليه . فاستشاط قوصون غضبا وطلب كلا من الأمير الطنبغا الماردانى وقطلوبغا الفخرى وهما أكبر الأمراء الخاصكية من خشداشيتهم وأمرهما أن يذهبا الى مماليك السلطان ويحضرا من وقع عليهم طلب قوصون . وخرج الأميران وبعد وقت طويل عادا ومعهما المماليك السلطانية المطلوبون . دخلوا على قوصون وقبلوا يده فقام وقبل رأسهم وطيب خواطرهم ثم تركهم ينصرفون .

وكنت قد تعبت من القعدة والأكل والشرب فطلبت من الأمير قوصون أن يأذن لى بالانصراف فنظر فى بغضب وقال أنه يستبقينى لآخذ رأيى فى بعض المسائل ، ونظرت فوجدتنا فى يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر . وقال قوصون أنه بات الليلة الفائتة على نار القلق حيث قد بلغه أن المماليك الناصرية قد تحالفوا على قتله ، ثم أنه ركب وركبت معه وركب الأمراء ومضينا تحت القلعة ، وطلب قوصون ايدغمس أمير أخور وأخذ قوصون يلوم الأمراء على بعض الأشياء ، فاذا بالأمير بيبرس الأحمدى يدركنا ويهمس فى اذن قوصون بأن المماليك السلطانية قد اتفقوا على

قتله ٠٠ فاتجه قوصون بصحبة الأمراء الى جهة قبة النصر فارتجت القلعة وقفلت أبوابها ولبست المماليك السلطانية السـلاح بالقلعة وكسروا الزردخاناه السـلطانية ، وقد امتـلأت الرميلـة ـ وهى ميـدان صـلاح الـدين فى عصرنا فى القـرن الـرابع عشر الهجـرى ـ بالعامة الذين أخذوا يصيحون : « يا ناصرية نحن معكم » ٠ فردوا عليهم من القلعة وأوصوهم بالتوجه الى بيت قوصون والهجوم عليه ٠٠ فاندفع العامة فى اتجاه بيت قوصون فاستدار قوصون واندفع خلفهم وتركنى وحدى أدب فوق حصان يمشى بى كيف يشاء ٠٠ ذهبت الى الخزانة لأريهم اهميتى بالحصان السلطانى ثم خرجت ثانية فرأيت القاهرة فى حالة يرثى لها ، الجموع تجرى هنا وهناك ، والجرحى يتكاثرون فى كل مكان ، وعلمت أن قوصون تغلب على المماليك وقبض عليهم وبدا ينكل بهم ٠٠ ومررت على باب زويلة فوجدت رجلا معلقا بعد توسيطة فاقشعر بدنى ، واذا برجال قوصون يقفون ومعهم عدد من المقبوض عليهم ، وكانوا يرفعون الواحد منهم ويمسمرونه على باب زويلة بشاكوش ومسامير كبيرة ، قلت : بس ٠٠ ها نحن نشاهد المسمرة على الطبيعة ٠٠ واذا بى أسمع من يقول أن هناك مملوكا جديدا هرب من قوصون وسوف يوسطه لو رآه ٠ فعرفت أنه يقصدنى فلكزت الحصان واندفعت أجرى أسابق الريح ٠٠

الشرب حتى الثمالة من كاس الجنون

لكزت الجواد لكزة فارس حريف فاندفع يجرى كأنما الساحة خالية ـ صحيح أننى عمرى ما ركبت الخيل ولا داعبتها ولا زادت علاقتى بها عن حدود الابتهاج لمنظرها أينما كانت ـ مندفعا أو مهرولا أو واقفا أو راقصا على دقة المزمار البلدى ، الا أننى ركبت كفارس فصرت فارسا • وبما صدقة أن حفظ الجواد لى توازنى حتى قدرت على التفكير فى طريقة الهرب من قوصون الناصرى الذى سمعت أنه يطاردنى ، راودتنى فكرة الهروب من الزمن برمته ، ولكن يبدو أن سجن الزمن أقسى من سجن المكان وأحكم قيدا ، ذلك أننى لما فكرت فى زمن المستقبل وجدتنى أراه جيدا بل وأرى عصوره تترى أمام عينى، الا أننى كلما استوضحت المستقبل أكثر وأمكننى النفاذ الى ما بعد العصر الذى سجنت فيه بعصور عديدة انتابتنى قشعريرة وأحسست بالكفر ، لأن العصر لذى جئت منه أشد هولا وان بدا أكثر تحضرا فى الظاهر ، لقد هربت منه فكيف أعود فهرب اليه ؟! •• لهذا آثرت أن استنيم للزمن تاركا المستقبل فى يد الله ، ولكن أين أهرب من قوصون الذى لابد أن تجىء بى قبضته الكبيرة القوية ؟ • ما أن رن هذا السؤال فى دماغى حتى ضحكت كالصاعقة ، حيث تذكرت أننى أتمتع بحصانة « دبلوماسية » بحكم انتمائى لخزانة البنود سجن الأجانب الذين هم فى الأصل أسرى فأصبحوا دولة وحكاما بأمرهم • ليس على الآن سوى الذهاب

الى الخزانة مباشرة ، بمجرد وصولى الى بابها أصبح في مأمن تام ، وتكون فرصة أريهم فيها فروسيتي وادهشهم بها وبما توصلت اليه من معلومات لا شك تدير دماغ خزعل من فرط سخونتها وطزاجتها وكثرة تفاصيلها ؟ ثم قلت لنفسي : « لكن كيف نسيت انتماءك الى الخزانة يا ابن شلبي ؟ » •• ثم عدت فرددت على نفسي قائلا : « هكذا الانسان يا ابن شلبي وهكذا حالى •• لقد نسيت أمر انتمائي للخزانة لأنني كنت لحظتها على صهوة جود •• فأنت على صهوة جواد مطواع لابد أن يصل خيالك الى ذرى بعيدة » • فقال ابن شلبي الذى كان قد سأل أن ابن شلبي الذى أجاب شخص « مقطوش » الدماغ ـ أى مكسور منه جانب ـ قصير النظر • أما ابن شلبي الذى هو كلاهما معا فقد سخر من الاثنين وطوح ساقيه فاندفع الجواد فانتبه الى أنه يجب أن يهدىء من خطوه حيث قد شارف على منطقة الخزانة والشوارع الضيقة الآهلة ، فتعثر الجواد وكبا وكاد ابن شلبي يقع على بوزه مغشيا ـ عليه ـ عليه هو وليس على بوزه ـ الأمر الذى جعل ابن شلبي الذى كان قد سأل يخرج لسانه ساخرا من ابن شلبي الذى كان قد أجاب • بفضـــل جذق الجواد وحده نجا ابن شـــلبي من الكبوة ودخل مستور الفروسية الى جهة الخزانة ، فاذا ببعض أطفالها وصبيانها يستقبلونه بالتهليل والصياح واذا ببعض منهم يرتد عائدا الى الخزانة يجرى ، واذا ببعض الرجال والأمراء وعلى رأسهم خزعل يظهرون على باب الخزانة ضاحكين مهللين مصفقة ينفى تهكم وسخرية فيما أنا مقبل نحوهم بجوادى فى خطو رتيب جميل كما أفلام رعاة البقر ولم يكن ينقصنى شيء لتكتمل نشوتي سوى أن تهطل السماء بالمطر ••

ترجلت عن الجواد فى قفزة رشيقة حسدنى عليها معظم الواقفين ، وكأى فارس مغوار شككت مقود الجواد فى قبضة الباب النحاسية وتقدمت فسلمت على خزعل وبقية الأمراء وتواضعت فهززت رأسى لبعض العامة وتواضعت أكثر فأبتسمت لبعض النساء الفاتنات • اقتادنى خزعل نحو المقصورة وقد أحسست من هيكلهم جميعا أن فى الأمر مؤامرة خاصة بى وأنهم فى انتظار نتائجها على شوق حار ، وقلت لنفسى والله لأخيبن ظنكم

بما حصلت عليه من أخبار وشاهدته من تجارب دسمة « جلسنا وجيء بالعرق واذا بى امتعض فجأة ويصيبنى مغص حاد ودوار وغثيان وبلاوى زرقاء وحمراء وصفراء أن كان للبلاوى ألوانا كهذه ، وصرت أتقيأ واكح وأهرش وأفعل مالا يسر الناظرين ، كل ذلك وأنا بعد لم أشرب شيئا،لكننى سرعان ما تبينت أن الأيام القليلة التى قضيتها فى صحبة السلطان الطفل وقوصون الداهية وما فيها من سحر العطور ودسم الطعام وقراح الشراب قد فصلت بينى وبين جو الخزانة بأسوار حديدية ، فلما شممت رائحة الأجساد ورائحة العرق ورائحة الموشومين والمهروشين خيل الى اننى قد ألقى بى فى بحر من الجيف ٠ البهدلة ليست فى هذا على ما فيه من عذاب ، البهدلة حقيقة هى محاولاتهم أفاقتى ، ابتداء من عصر بصلة فوق أنفى وانتهاء بخلع مفاصلى من شدة الجذب والثنى وما الى ذلك ، فكان لابد أن افيق من البهدلة وقلة القيمة ، على أننى افقت تماما حين صفق خزعل بيديه فى نزق جنونى والتمعت عيناه ببرق جنونى أيضا وضحك ضحكة جنونية كذلك وقال هازا رأسه أمامى : « أول شيء نشكرك عليه الليلة هو مجيئك لنا بالمزة العظيمة ٠٠ هذه ليلة انس رائعة سنأكل فيها أطايب اللحوم » ، ثم نظرت فاذا بالجواد جوادى يدخل الخزانة مسحوبا على الأرض يجرجرونه كالزكيبة ، واذا به مذبوح يشر الدم الساخن منه ، فوقفت كالمسحوق ، ثم جلست كالمقهور ، ثم صرت أنقل البصر بينهم محاولا درء الجنون عن رأسى ، ذلك أنهم ذبحونى أنا بذبحهم لجوادى الأصيل ، واعتبرتها مجرد أهانة يمكن أن نتسلى على حسابها بقية الليل ، فقلت لخزعل : « كيف تفعلون هذا الفعل القبيح الشرس ٠٠ أنه جوادى ٠٠ وكرامته من كرامتى فكيف تذبحونه دون اذنى ! » اندفع « خزعل » ضاحكا فأهتزت الأرض وفشخ الآخرون أحناكهم دون صوت ففى صوت خزعل ما يكفى ، وقال خزعل وهو يدلق كوب العرق فى جـــوفه ، « أظننته جوادك ؟ ٠٠ يالك من أبله ٠٠ أن الجواد فى الواقع ممنوح لنا نحن ٠٠ أنت نفسك أكرمت بشخصنا نحن ! » ٠٠ قلت : « هذا صحيح ٠٠ ولكن ٠٠ الرجل أهدانى جوادا ٠٠ فعلى الأقل يصير ملكا لى » ٠ ضحكوا جميعا ،

قال خزعل أيرضيك أن نكون فى حاجة الى مزة وأنت تملك جوادا بيننا ؟ » .
قلت : « حاشا لله .. غلبتنى يا أمير .. فعلا .. أنا رجل قليل التربية القومية .. هات كأس العرق نشرب نخب هزيمتى — أقصد نخب اعترافى بالحق » . بنفسه قدم خزعل كأس العرق أمامى ثم اعتدل فانداح الى الوراء سحاب كثيف ، وقال : « هيه » .. فعرفت أنه يريدنى أحكى ما رأيت ..

انجعصت الى الوراء وشرعت أحكى ما حدث لقوصون الناصرى وأحاول قدر الطاقة تجميله وجعله شائقا ، لكن الفتور كان يتمدد على وجوههم جميعا بما يعنى رفضهم للحديث ، فى نفس الوقت يطل الانتظار من عيونهم بما يعنى أنهم فى انتظار حديث آخر ، حدسته بفطرتى ، وقال « خزعل » : « كل ما تحكيه عما حدث لقوصون عرفناه عند حدوثه لحظة بلحظة .. ولازالت أخباره تصلنا الى هذه اللحظة .. ولكن ما حدث لك أنت فى تجربتك مع المماليك السلطانية ! » والتمع فى عيونهم بريق شرير ، فحكيت لهم التجربة بكل حذافيرها وبمنتهى الصدق والأمانة وهم يهزون رؤوسهم بالتأكيد والموافقة ولكن ثمة شىء فى نبرتهم يؤكد لى أنهم غير مصدقى فيما حكيت ، وأنهم موقنون من أننى أخفى شيئا جوهريا مهما قد حدث لى فى كنف المماليك السلطانية ، فعرفت أن من التجارب ما تلحق الانسان وصمتها وتصبح غير قابلة للمحو مطلقا ، وقلب العرق كيانى النفسى فصرت عصبيا حاد اللسان قليل الأدب أحيانا شأن من يحس أنه مطالب بمسح عار ما عن نفسه . على أن خزعل هدأنى وكشف عن سر المؤامرة كسبا لراحة أعصابى ، وكانت المؤامرة تتلخص فى أن خزعل أتصل بقوصون الناصرى ومازحه بأنه سوف يهديه مملوكا لطيفا نادر الوجود ، هدية المملوك مثل هدية السيجارة فى عصرنا يقبلها أكبر الرجال وأدناهم بلا غضاضة حتى ولو كانت تفوح منها رائحة الرشوة ، ما أن سمع قوصون بخبر الهدية حتى قبلها فى الحال وشكر خزعل عليها ، ثم لما أرسلنى اليه كان قد سبقنى الى قوصون من يخبره بأننى مصاب

بالداء الفلانى والداء العلانى والهدف من ذلك أن يصطدم سوء التفاهم بيننا فتكون المفارقات مقدمة لفضيحة العصر يمسكها خزعل على قوصون مدى الحياة ·· القصد أنها مؤامرة خسيسة ·· والأشد منها خسة أن يحكيها فاعلها موضحا مدلولها بصدق كاتب الترجمة الذاتية ! كان من الممكن بل من المقدر أن أموت فى هذه النكتة الثقيلة ، وسألت نفسى : « كيف يمكن أن يضحى بى هؤلاء فى سبيل ضحكة فارغة وأنا أقوم بخدمتهم ! » · ثم أجبت نفسى قائلا : « ان من يخدم الموشومين أكلة لحوم البشر لا ينتظر تقربهم منه ، فمهما فعل من أجلهم فلابد أن يأكلوا لحمه فى لحظة ما حتى ولو كان فى سبيل ضحكة » ــ واقشعر بدنى فأحسست بالرضاء من أنه قد بقى فى جسد يقشعر ، قلت مداريا احساس بالقرف : « قوصون هذا داهية » · فقال خزعل : « السنت تعرف أصله على وجه الحقيقة ؟! » · قلت : « لا بالطبع » · قال : « أولا تعرف أتصاله بالملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار ساقية أعظم مماليكه هو ويكتمر الساقى ! » · قلت منبهرا : « لا والله ·· ولكن ·· آه » ــ ثم ضحكت فى هبل فلاحى ــ الهذا سمى الساقى ·· قوصون الساقى بكتمر الساقى فلان الساقى فيالها من عجائب ! » · قال خزعل : « هى ليست عجائب الا فى نظرك أنت ·· هى حقائق هى واقع يحدث ويراه كل الناس فيما عدا الزعر والحرافيش أمثالك ممن يودون العيش فحسب » · قلت له : « بدلا من أن يمعن سمو الأمير فى شتمى وتوبيخى أفضل لو أنه حكى لى قصة قوصون الناصرى الداهية الذى ابتلع كل شىء فى بطنه » · قال خزعل : « فى سنة نيف وسبعمائة حضر قوصون من بلاد الترك الى الديار المصرية صحبة خوند بنت أزيك خان التى تزوجها الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو غير مملوك ·· وقد حدث أن طلع قوصون الى القلعة فى خدمة بعض التجار ، فرآه الملك الناصر محمد ، فأعجبه ، فقال للتاجر : لأى شىء ما تبيعنى هذا المملوك ؟ فقال التاجر : هذا ما هو مملوك ، فقال الملك الناصر ، لابد أن اشتريه ، ووزن ثمنه مبلغ ثمانية آلاف درهم ، وجهز الثمن الى أخيه صوصون الى البلاد ، بلاد القيماق التى نزح منها قوصون الى الديار المصرية ··

حلو ؟ » . قلت : « حلو » . قال : « اهتم به الملك الناصر وجعله ساقيا، ثم رقاه حتى جعله أمير مائة ومقدم ألف ، وعظم عند الملك الناصر وحظى عنده وزوجه بابنته وهى ثانية بنت زوجها الملك الناصر لمماليكه فى سنة سبع وعشرين وسبعمائة » قلت : « وتعرف التاريخ أيضا يا سمو الأمير ! لكأنك مؤرخ » . قال : « نعم ، أتظن أننا مادمنا أسرى هذه الديار كنا غرباء عنها ؟ .. لا يا جميل .. كنا فى قلب المنطقة من سنوات وسنوات وكانت أخبار الديار المصرية تبلغنا فى التو واللحظة وقد لا تبلغ أهل الديار المصرية أنفسهم الا بعد سنوات وسنوات ، أيها المساكين يا من تسكنون هذه الديار لن يكون لكم فيها شأن الا حينما تتبعون أخبار السلاطين فى الكواليس فى حينها أيا كانت الحواجز والموانع قلت : « فى موضوع قوصون نفسه » قال ضاحكا : « كان لقوصون عرس حفل أحتفل به الملك الناصر وحمل الأمراء التقادم اليه فكان جملة التقادم خمسين ألف دينار » . قلت : « يا .. آه .. الدنيا حين تجىء لا أحد يوقفها » . ضحك خزعل قائلا : « لهذا كان كلما وقع بين قوصون ويكتمر الساقى منافسة يقول قوصون . أنا ما انتقلت من الأسطبلات الى الطباق بل اشترانى السلطان وجعلنى خاصكيا مقربا عنده دفعة واحدة » . تذكرت أننى سمعت هذا الكلام من قبل ، وقلت هذا لخزعل فقال أن قصة قوصون معروفة للجميع ، فأخبرته أن لكلام بنصه سمعته من صديقى ابن تغرى بردى فقال خزعل : « من أى عصر هو ابن بردى هذا ؟ » . قلت : « من عصور تالية لعصركم » . قال : « اذن فهو الذى أخذ عنا » .. ثم صب لنفسه ولى بعض العرق ورحنا نشرب فى برهة صمت مسرحى .

وفيما نحن جلوس قدم علينا خبر من بلدة قطيا ، وهى بلدة مصرية فى الطريق بين مصر والعريش ، يفيد بأن قوصون قبض على رسول من الأمير طشتمر الساقى المعروف بحمص أخضر نائب حلب ، وأودعه السجن ، وكان مع الرسول مجموعة مكاتبات موجهة الى أمراء الديار المصرية والى قوصون بالعتب ، حيث شق عليه اخراج أولاد استاذه الملك الناصر الى

الصعيد وتجهيزه العساكر لأحمد بن الملك الناصر بالكرك • ثم وصل الخبر بأن « ايدغمش » أمير أخور وصله من بعض مماليك أمير علي بن ايدغمش أن قوصون سيكبس عليه بمماليكه فاحترز ايدغمش وأغلظ لقوصون في الكلام وصار يغلق باب الأسطبل السلطاني دون المواكب ويوقف عليه طائفة من الأوجاقية وقد تم التصالح بينهما ولكن ايدغمش ـ هكذا تقول الشائعات ـ لم يصف ضميره تماما • ثم قدم الخبر بأن العسكر الذي أرسله قوصون بصحبة الأمير قطلوبغا الفخرى قد نزلت على مدينة الكرك فامتنعت منه واستعد أهلها للقتال وتسلطوا على العسكر بالسب واللعن والتوبيخ • ثم قدم الخبر من دمشق بأن تمر الموسوى قدم من حلب واستمال جماعة من الأمراء الى طشتمر الساقى حمص أخضر نائب حلب فكتب قوصون بالقبض عليه وأرسل تشريفا الى حمص أخضر فرده بغلظة • ثم قدم الخبر من شطى أمير العرب بأن قطلوبغا الفخرى قد خامر على قوصون وحلف لأحمد بن الناصر هو ومن معه من الأمراء وانهم أقاموا أحمد سلطانا ولقبوه بالملك الناصر ، وكانت سفرة قطلوبغا هذه قد كلفت قوصون مبلغ أربعين ألف دينار سوى الخيل والقماش والتحف •• فكتب قوصون الى الأمير الطنبغا الصالحى نائب الشام بخروجه لقتال حمص أخضر ومعه نائب حمص ونائب صفد ونائب طرابلس وكتب قوصون اليهم بالسمع والطاعة كما أرسل اليهم جميع النفقات ، ثم استنجد الطنبغا بطقزدمر نائب حماة •• فخرج حمص أخضر لملاقاتهم مستنجدا بابن دلغار ومماليكه ثم حدث الفساد والتنكيل والسل ، وجاء قطلوبغا من الكرك داعية للسلطان الناصر أحمد فاحتل دمشق وأخذ أموال الأوقاف وأموال الأغنياء ووزعها على الجند وأنعم على الأجناد البطالين والتركمان بالقماش والسلاح وحلف الجميع للسلطان الناصر أحمد بن الناصر محمد ابن قلاوون وعمل يرسمه العصائب السلطانية والسناجق الخليفية والكنابيش والسروج الفاشية والقبة والطير وسائر أبهة السلطنة •

وهكذا تواترت أخبار من جانب واحد أما أخبار قوصون فقد بعثنا من يستعجلها ومن يستعجل من ذهب يستعجلها حتى زهقنا وعرفنا مؤخرا أنه جمع الأمراء للمشورة فاتفق الرأى على تجريد أمراء الى غزة فتوجه برسبغا الحاجب وعلاء الدين على بن طغربل فى جماعة ، لكن الأخبار سرعان ما هطلت مؤكـدة أن الفخرى قـد سـيطر تمـاما على الموقف ، وكتب لقوصون يعاتبه على اخراج أولاد أستاذه الى قوص وقتل الملك المنصور أبى بكر ، وأن الاتفاق وقع على سلطنة الملك الناصر أحمد ، ويشير عليه أن يختار بلدا يقيم بها حتى يسأل له السلطان الملك الناصر فى تقليد نيابتها • ثم قدم الخبر بأن قوصون جمع الأمراء واتفقوا على تجريدات جديدة ليس للقتال هذه المرة بل لمقابلة الأمراء الغالبيه على أمره • ثم قدم الخبر بأنه فتح ذخيرة السلطان وأكثر من النفقات والانعامات حتى بلغت انعاماته على الأمراء والخاصكية ستمائة ألف دينار ، الأمر الذى القى الرعب فى قلب ايدغمش فخاف أن يتسلطن قوصون بهذه الطريقة فراح يجمع عليه أكابر الأمراء واتفقوا على السفر الى الكرك لمقابلة السلطان الناصر أحمد واعلان الولاء له • وكانت جلسة استضافة الأخبار قد توغلت بنا فلم نعد ندرى كم بلغ طولها من الساعات والأيام ، الا أننى هرشت فى يدى فانتبهت الى ساعتى فنظرتها فاذا بنا فى ليلة الثلاثاء تاسع عشرين رجب سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وكنا قد صرنا فى زخم العرق وكثافته فى حالة يرثى لها ، فقررنا الخروج والتجول فى شوارع القاهرة ، فتقدمنا خمسة من الموشومين يتبعهم ثلاثة أمراء مسلحين يتبعهم الأمير خزعل فى جملة من الأمراء والخاصكية من بينهم ، أنا ، يتبعنا عدد كبير من الجند المدنيين المدربين على ضرب المطاوى والخناجر ونط الجدران • أغرانا صمت القاهرة الأبدى فتوغلنا فى المسير وقال خزعل : « ما رأيكم لو واصلنا المسير الى القلعة ؟ » • قلنا : « لا بأس » ، ثم واصلنا ، فما أن وصلنا القلعة حتى وجدنا الأمراء الأكابر بقيادة ايدغمش قد ركبوا على قوصون وكنا وقت العشاء الآخرة وعلمنا أن قوصون محصور فى قلعة الجبل ، وكان المفروض أنهم مسافرون الى الكرك ولهذا تجمعوا فى سوق

الخيل تحت القلعة : « الأمير الطبغا الماردانى ويلبغا اليحياوى ويهادر الدمرداشى والحاج آل ملك الجوكندار والجولى وقمارى الحسنى أمير شكار وارتبغا واق سنقر السلارى ٠٠ وقد لبست مماليك كل هؤلاء الأمراء وأخرجت أطلابهم ، ثم خرج اليهم الأمير ايدغمش بمماليكه ومن عنده من الأوجاقية ووقفوا جميعا ينتظرون نزول قوصون ٠ طلع النهار ولم يطلع قوصون ، وجاءنا من داخل القلعة من بين مماليك قوصون من أنبأنا أن مماليك قوصون لبسوا واستعدوا للركوب وطلبوا منه أن ينزل ويدرك اسطبله ؛ لكن ايدغمش سرعان ما أمر الأوجاقية أن تطلع الى الطبلخاناه السلطانية وأخرج لهم الكوسات فدقوا حربيا ثم نادى ايدغمش :

ـ معاشر أجناد الحلقة ومماليك السلطان والأجناد والبطالين يحضروا ومن ليس له فرس وليس له سلاح يحضر ويأخذ له الفرس والسلاح ويركب معنا ويقاتل قوصون ٠

فانثالت عليه الأجناد ما بين لابس وراكب وماش وعلى حمار ، أما الزعر والحرافيش فحدث ولا حرج ٠ قطعان قطعان من العامة ينتشرون مقبلين من بقع مجهولة متجهين فى شراسة لا مثيل لها ، وصوت ايدغمش يصيح فيهم : « يا كسابة ـ أى الذين همهم فى الحرب كسب الغنائم ـ عليكم باسطبل قوصون انهبوه » ٠ فما أن أتم جملته حتى هجمت قطعان العامة على الاسطبل لا تبالى بالنشاب يرميه عليهم مماليك قوصون من شبابيك القلعة ، غير أن يلبغا اليحياوى ـ وكان بيته يشرف على بيت قوصون فى القلعة تكفل بعمل مظلة جوية تحمى العامة حتى يكملوا نهبهم ، اذ طلع بمماليكه فوق بيته فتسلطوا على مماليك قوصون حتى أثخنوهم وتمكنت العامة من نهب زرد خانات قوصون وحواصله وأمواله وكسروا باب قصره بالفؤوس ، يا له من منظر ، كانت أكبر وأوسع فرصة شهدتها العامة فى حياتها ، اختلط الحابل بالنابل ، اندسسنا كلنا فى الجموع المقتحمة قصر قوصون وصار الجميع يأخذ ما يقدر على حمله ، وقوصون واقف فى شباك ينظر قائلا : « يامسلمين أما تحفظون هذا المال ،

أما أن يكون لى أو يكون للسلطان » • صاح ايدغمش : « هذا شبكرانه للنــاس •• والذي عندك فوق من الجوهر والتحف يكفى السلطان » •
حينئذ هم قوصون وطلب الركوب في الحال • لكن الخاصكية من مماليكه كسروا عليه وقال أحدهم : « يا خوند •• غدا نركب ونقتل هؤلاء » ، وقال آخر بنفس الخبث : « لا يهمك ايدغمش •• أنه يناوشك مناوشات ثقيلة لا أكثر » ، وقال ثالث : « ولسوف نتمكن منهم ونعطيهم الدرس اللائق ! » •• فعرفت أن خاصكية قوصون يتآمرون عليه ويغدرونه حتى ينم فتح بطنه • كل ذلك والناس يذهبون ويعودون لاستئناف النهب في قسوة بالغة ، وقوصــون يصفق كفــا على كف ويقول فى تهكم : « يا أمراء ! هذا تصرف جيد ، ينهب هذا المال جميعه » • ثم استدار وطلب أحد خاصكيته وقال له : « اذهب الى ايدغمش وقل ما يلى » •• فذهب الخاصكى الى ايدغمش وبلغه مقولة قوصون : « ان هذا المال عظيم وينفع المسلمين والسلطان فكيف تفعل هذا وتنادى بنهبه ؟ » • ثم عاد الخاصكى الى قوصون يحمل جواب ايدغمش : « نحن قصدنا أنت ولو راح المال وأضعافه » • وكان النهار قد انتصف ودخل فى أذان العصر والقلعة لاتزال مقفلة الأبواب•وعاد قوصون الى الشباك من جديد وشرد شرودا عظيما رأى خلاله مماليكه تقاوم العامة ومماليك ايدغمش بآخر ما تملكه من نشاب والعامة تجمع نشابهم وتعطيه لأتباع ايدغمش ، فاذا به يرفع يده فى الهواء علامة التسليم•وهنا دخل عليه الأميربلك الجمدار وملكتمر السرجوانى، قال الجمدار : « يا قوصون •• اختر لنفسك موضعا تقيم فيه حتى يحضر ابن أستاذك من الكرك ليتصرف فيك كما يختار » • فأحنى قوصــون رأسه علامة الموافقة ، وهنا تقدم منه جنكلى بن البابا وأمير مسعود الحاجب وارتبغا أمير جاندار فأمسكوا به وقيدوه ومضوا به الى البرج الكبير بداخل قلعة الجبل ـ نفس البرج الذى سجن قوصون بشتك فيه ، وفيما هو يسير مقيدا جريت خلفه وقلت له : « كم نهب منك يا قوصون ؟ » فرد على من بين القيود قائلا : « حياتى » ، ثم عاد فقال : « كان فى حواصلى من الذهب النقد أربعمــائة ألف دينار عين فى أكياس ، ومن الحوائص

الذهب والكلفتات الزركش والأوانى فشىء لا ينحصر ، وثلاثة أكياس أطلس فيها فصوص وجواهر مثمنة بما ينيف على مائة ألف دينار ، ومائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله أربعون ذراعا وثلاثون ذراعا كلها من عمل الروم وآمد وشيراز ، وستة عشر زوجا من عمل الشريف بمصر ، وأربعة أزواج بسط حرير لا يقوم عليها لحسنها » ، ثم ترقرقت الدموع فى عينيه ٠ واذا بخزعل يقف بعيدا ناظرا فيه بعينين حيوانيتين تقبضان بالتشفى ويقول « تعيش وتأخذ غيرها يا قوصون الكلب » ٠ فلهث قوصون صائحا : « يا ريت ! » ، فوضعت يدى فى أبط خزعل ومضينا ٠ كان من رأى خزعل أن نمر فى طريقنا بالصاغة لنعرف سعر الذهب ، وكنت أشعر من فرحته الخفية أنه قد نهب الكثير والكثير ، ولما كنت أنا الآخر قد نهبت الكثير فاننى وافقت على الذهاب الى حى الصاغة ، فاذا بنا نجد أن سعر الذهب قد انحط انحطاطا شديدا فى لمح البصر حتى صرف الدينار بأحد عشر درهما بعد أن كان بعشرين درهما وكان الحى يشغى بالمارة والذهب منتشرا فى أيديهم كأنه التراب ، يلهو به الأطفال والشبان كأنه اللعب ، والجواهر الثمينة تنتقل من واحد جاهل الى واحد أجهل مقابل خياره خضراء أو غدوة أو كوب عصير ٠ وصمم خزعل على دخول أحد الدكاكين ليساوم فى قليل مما معه على أن يدخر الباقى لحين ، فما أن دخلنا حتي هش لنا صاحب الدكان وفرش لنا الكنبة المصدفة فجلسنا فأمر لنا بأكواب العصير ثم اختفى لبرهة عاد بعدها يحاول اخفاء توتره ، وان هى الا دقائق معدودة حتى هجم علينا الجند وطوقونا ثم امسكونا ، فقلت لهم : « ماذا فى الأمر ؟ » فقال أحدهم : « أنتما مقبوض عليكما » قلت : « لماذا ؟ » ٠ قال : « صدر أمر ايدغمش الى تجار الجواهر بالتبليغ عن أى أحد يجىء ليبيع الذهب حتى نقبض عليه » ٠ نظرت فى الجواهرجى الخسيس بقرف وقلت له : « يعنى بتتشطر علينا ؟ » وقال الجندى : لابد أنكما دخلتما فى مساومة اباسته ٠٠ انهم ــ هؤلاء التجار ــ استغلوا هذا الأمر أبشع استغلال ٠٠ تبيع لهم بأبخس الأسعار أو يبلغون عنك ٠٠ نحن نعرف كل شىء ولكن » ٠٠ ثم شدنا بعنف فضربه خزعل بقدمه

فوقع فانكسرت رقبته ، فطوح فوقه بكل من معه دفعة واحدة ، ثم شد الصـــائغ من شعره فكومه وداس على رقبته ، وبلوح زجاج ضربه فى جمجمته فتفتت وتناثرت ، ثم راح يجمع قطع الجوهر كلها من الفتارين ويضعها فى جيوبه ، ثم شدنى ومضينا كأن شيئا لم يكن . وقد لاحظ انتفاضى فقال باسما : « كلهم حشرات سامة يكافأ الانسان بالحسنة على سحقها » ، ثم نظر فى عينى ساخرا : « حلوة الحسنة دى ؟ ! » . فلم أرد عليه مطلقا . وكان الخبر قد سبقنا الى الخزانة بأن قوصون قد تم تسفيره الى الاسكندرية مع مائة فارس ليسجن بها .

لنحن أغلظ أكبادا من الأبل

مضيت وراء الأمير « خزعل » فى شوارع القاهرة والذهب يخر من جيوبنا ، والعامة من فرط زهدهم فى الذهب ينبهوننا قائلين : « حوش اللى وقع منك » ، فيميل « خزعل » أو أنا على الأرض لألتقاط سوار أو خاتم أو عقد فتنسكب من جيبه أو من يديه عشرات الخواتم والقطع النادرة ، وفيما كان الأولاد ورهط كبير من العامة يساعدوننا فى التقاط ما يقع منا ويجيئون لنا بقطع فرت بعيدا واختفت عن أنظارنا ، مر علينا الجند والعسكر يمسكون بناس ضبطوا يبيعون الذهب ، تابعهم « خزعل » بنظرة شرسة نهمة ، ثم أنه حشر القطع فى جيوبه ، وداخل عبه وعلق بعضها فى رقبته وأذنيه ورجليه وأصابعه ويديه ، فصار ترسانة جواهر تمشى على قدمين لاهثة خلف الذين ضبطوا يبيعون الذهب ، لحقت به وهو يقتحم المتهمين فى بجاحة منعدمة النظير قائلا دون أن يعبأ بالجند : « حد عايز يتخلص من تهمته ؟ » ، فنظر اليه الجند فى استهجان وخوف ونظر اليه المتهمون فى عدم تصـديق يشـوبه التصديق ، قال لهم : « لا تخافوا .. هاتوا ما معكم احفظه لكم وأنجيكم من التهمة ! » . ولم ينتظر الاذن بل مد يده وجرد أحدهم مما فى يديه ، فأراد جندى أن يمنعه فشقلبه على الأرض بحركة لم نرها ، ثم جرد آخر مما فى جيبه ،

وضرب جنديا آخر فى بوزه أطاره فى الهواء ، وجرد ثالثا ورابعا ثم أشار لى برأسه أن اتبعنى فتبعته والذهب يشخلل فى موكبنا برنين وهسهسات مزعجة للغاية ٠

وصلنا الخزانة فاذا بجو غير عادى يطالعنا من الباب ، ناس مضروبون وآخرون مهانون وثمة أصـوات ترتفع هنا وهناك ٠ وقف « خزعل » صائحا : « ماذا حدث ! » ٠ تقدم منه أحد أمراء الخزانة وأنبأه أنه ـ الأمير ٠ اكتشف وجود سوق للذهب فى الخزانة فكل نزلاء الخزانة كانوا من بين العامة الذين اقتحموا قصر قوصون واسطبله وكل دياره وأعملوا فيها النهب والسلب والتخريب ، وقد نهض الأمير فتصدى لهذه السوق فور قيامها وصادر كميات هائلة من الذهب كانت فى ايدى عامة الخزانة وغوغائهم ، فنظر له « خزعل » نظرة فيها مزيج من الشكر واللا تخوين لكنه غطاها بأن أدار بصره لأهل الخزانة قائلا : « لا بأس مما حدث على أى حال ٠٠ فمن وقع عليه الضرب لا يزعجنا ويزعج نفسه بالبكاء ، ومن وقعت عليه الاهانة يتحملها فى طيب صدر ٠٠ فما فعل الأمير سـوى مصلحتكم ولسوف نبيع هذا الذهب ونصرف عليكم » ، ثم سحب الأمير من كتفه ودخل به الى المقصورة ثم اختفيا معا وبعد فترة طويلة خرج الأمير مضروبا مهانا حتى النخاع ، ثم خرج بعده « خزعل » وقد تجرد من كل ذهبه وأمسك بيده كأس عرق ، ثم زفر وصـاح فى تحسر : « والله وخدت السلطنة يا ابن بياض ٠٠ بس تستاهل ٠٠ خدتها وأنت فى الكرك ٠٠ وتخلصت من اخطبوط ٠٠ هنيـا لك يا عم » ٠ قلت : « تقصد من بابن بياض ؟ » ٠٠ قال : « السلطان ٠٠ الملك الناصر أحمد ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون » ٠ قلت : « عجيبة ٠٠ ومن تكون بياض هذه ؟ » ٠ قال : « أمه ٠٠ انها كانت مغنيـة ! » قلت : « مغنية ؟ » ٠ قـال : « نعـم ٠٠ كانت مشـهورة ، وكان اسـمها قومـه ، وكـان بهـادر آص ، رئيس نوبة ، قـد أعتقهـا ٠٠ وكـان للنـاس بها مجالس أنس عامرة ٠٠ وكانت بارعة فى الغناء : قلت : « شيء عجيب

والله .. فما الذى أوصلها الى أن تكون اما للسلطان الجديد أحمد ؟ » .
قال : « وصل خبرها للسلطان الملك الناصر .. فطلبها .. واختص بها .. وحظيت عنده فولدت أحمد هذا على فراشه .. ثم تزوجها بعد ذلك الأمير ملكتمر السرجوانى فى حياة الملك الناصر محمد » . قلت : « على فكرة .. أحمد هذا هو السلطان من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون » . قال : « نعم والملك الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية » . قلت : « كسبنا صلاة النبى صلى الله عليه وسلم » .

وبينما نحن كذلك اذ وردت الأخبار بأن الأمير « ايدغمش » الذى قضى على قوصون وخلع الملك الأشرف كجك من السلطنة بعد خمسة أشهر وعشرة أيام من سلطنته قد بعث بالأمير جنكلى بن البابا والأمير بيبرس الاحمدى والأمير قمارى أمير شكار الى الملك الناصر أحمد بالكرك وعلى يدهم كتب الأمراء يخبرونه بما وقع ويستدعونه الى تخت ملكه ثم جلس مع الأمير الطنبغا الماردانى والأمير بهادر الدمرداش والأمير بلبغا اليحياوى واستدعوا الأمراء فلما حضروا أمر ايدغمش بالقبض على الطنبغا الصالحى الناصرى نائب الشام وعلى الأمير أرقطاى نائب طرابلس وسجنا بقلعة الجبل وأمسكوا بعدهما أمراء كثيرين بلغوا خمسة وعشرين أميرا ، وهذا وقد خلع ايدغمش بولاية القاهرة على جمال الدين يوسف الى الجيزة وقيل أنه نزل الى القاهرة بالفعل ليدرس أحوال شوارعها .. حينئذ نظرت الى « خزعل » وقلت : « أظن ما بدهاش .. لازم أقوم ، أشوف آية الأخبار » . فقال خزعل : « فى ستين داهية » . فشكرته ومضيت ..

اجتزت شوارع القاهرة الى ضاحية القلعة فقابلنى الجند يقبضون على بعض العامة ويمشون بهم فى غلظة وبعدها بدقائق فوجئت بحوالى عشرين حمارا فوق كل حمار رجل يعطى وجهه لمؤخرة الحمار والحمار يمشى به كأنه فى اتجاه مخالف لاتجـاه راكبه ، وقد دهنت وجوههم بالقطران والنيلة ، والبسوا الطراطير ، وخلفهم قوافل الجند يضربونهم بالمقارع من حين الى حين ، فعرفت أنها عملية تشهير ، وعرفت أن جمال الدين يوسف والى الجيزة الذى أصبح واليا على القاهرة هو الذى أمر

بذلك ، وكانت الطرقات مليئة بالغوغاء الذين يبدو أن لا حول لهم ولا طول ، وهم بالفعل كذلك ولكن فى حالة أن يكون كل على حده ، أما حين يتجاورون فانهم يصبحون كائنا خرافيا كالديناصور ليس من السهل مقاومته ، صاح واحد من الغوغاء قائلا لى كأنه صديقى من زمن بعيد : « أرأيت ؟ » ، فصحت فيه بدورى : « نعم أرأيت ؟ » ، فصاح واحد ثان : « أهذا كلام يا خلق ؟ » وصاح ثالث : « هذا ظلم يا ناس » ، وصاح رابع : « لا تقل يا ناس ·· قل يا كفره » ، وعلق خامس : « لو كانوا هؤلاء أمراء أو أثرياء ما فعلوا بهم هذا الفعل الشنيع » ، وعلق سادس : « لا يشقى فى هذه الديار سوى الحرافيش والمعدمين أمثالنا » ، ثم أن الصوت السادس صار يتضاعف فصار سادس عشر بل سادس مائة أو سادس ألف من الغوغاء لاتدرى كيف اجتمعوا هكذا فى لمح البصر قادمين من الحوارى والأزقة والمنعطفات وأحواش المقابر بالفعل ذلك الكائن الخرافى المجنون ، ولم أكن أعرف هدف الركب الغوغائى الذى دفعنى فى قلبه سائرا نحو القلعة حتى وقفوا بميدان الرميلة ثم زحفوا حتى لاصقوا القلعة تماما وصاحوا كأسراب من الغربان : « اطلع الينا يا أمير ايدغمش ــ نريدك فى الحال » · وكنت أتصور أن الأمير ايدغمش الذى يقوم بالسلطة لحين قدوم السلطان سوف لن يعيرهم أدنى التفات ، ولما علمت أن هؤلاء الغوغاء يطلبون خروج ايدغمش ليتكلموا أمامه فى حق والى القاهرة كلاما غير طيب قلت : ان ايدغمش لابد أن ينكل بهم تنكيلا ، على الأقل دفاعا عن هيبته وعن رجله الذى اختاره ، لكننى فوجئت بايدغمش يخرج لهم فى شباك القلعة واضحا للعيان صائحا فى صوت ودود : « ماذا ألم بالمسلمين ؟ » قالوا جميعا : « وليت على الناس واحدا فوضويا ما يخلى منا واحدا ! » ــ قال ايدغمش : « ماذا جرى عن جمال الدين ؟ » · قال الغوغاء : « نزل شوارع ــ القاهرة وقبض على ناس منا وشهرهم ظلما وعدوانا ثم قادهم الى السجن بتهمة النهب وهم مثلنا أبرياء ·· هل تتصور أن النهب يجىء من طرفنا ؟ ·· أبدا والله ما يحدث أبدا انما النهب والسرقة يعرفهما غيرنا » · قال ايدغمش : « هذا صحيح

بالقطع » ثم استدار وأشار نحو الداخل اشارات ثم عاد وقال : « بعثت الأوجاقية فى طلبه » • قالت الغوغاء : « جازاك الله خيرا » • ثم ما لبث الأوجاقية أن خرجوا من أبواب القلعة فهرولت فى أثرهم وهرول الغوغاء خلفنـا ولحق بعضهم بنا قائلين أن جمال الدين يوسف موجـود الآن بالصليبة بريد القلعة • فتقدمنا الأوجاقية الى خط الصليبة من شارع خارج باب زويلة ، فاذا بخط الصليبة ملتقى شـارع الصليبة وشارع شيخون وشارع الركبية وشارع السيوفية تتلاقى كلها فى نقطة واحدة على شكل صليب فعرفت أنه لهذا سميت بخط الصليبة وهى بجوار الجامع الطولونى مباشرة • بالفعل قابلنا ركب الوالى جمال الدين يوسف متوجها نحو القلعة ، فاندفع الغوغاء يصيحون : « قوصونى •• قوصونى •• يا من تغارون على الملك الناصر » •• فاذا بقطع الطوب تنهال على الوالى من كل جهة ، فلما أيقن الوالى أن الغوغاء ستقتلك رجما بالطوب أدار دفة الركب واندفع يجرى بسرعة رهيبة فى اتجاه الجنوب من الأرض التى أقيم فوقها ــ بعد قرون ــ جامع السـلطان حسن ، وراحت الجبلية والأوجاقية ترد الغوغاء عن ركب الوالى فلم تفلح ، بل أن محاولاتهم رد الغوغاء حركت فى الغوغاء كل المكبوتات فحدث الالتحام بينهم فجرت الدماء غزيرة وصـنعت مع تراب الأرض أوحالا يخوض فيهـا المتهم والبرىء والمسؤول والعبيط معا • صاح بين العامة صائح : « أتعرفون أين هرب جمال الدين ؟ » قالوا : « أين ؟ » • قال : « الى قصر الطنبغا الماردانى •• فاندفعنا جميعا فى اتجاه قصر الطنبغا الماردانى فاذا بنا أمام قصر مهيب جميل واذا بى من فرط التعب أقف مذهولا أمامه فأرى القصر يتغير حاله حتى تصيبه الشيخوخة ثم يتسلقه العمال والمهندسون ويهدمونه ويقيمون بدلا منه جامع السلطان حسن الذى لا يزال قائما حتى الآن فى عصرنا فى القرن الرابع عشر الهجرى • انتبهت فاذا بمماليك الطنبغا يتصدون لنا فى قوة وعنف ضربا بالكرابيج والعصى والنبابيت والسيوف والخناجر والنشـاب ونحن نقاوم ونحمل المملوك جمـاعة ونقذف به مملوكا آخر وبسيوفهم تطير رقابهم وأنوفهم حتى جاء من يصيح بنا فى صوت جهورى

متكرر : « يا أهل الديار من عامة وحرافيش يطلبكم الأمير ايدغمش الآن على وجه السرعة للضرورة الكبرى » . فانصاعت الى النداء مجموعات كثيرة تبعتها مجموعات أخرى حتى اذا ما تبعتهم أخيرا وجدتهم يحتلون ميـدان الرميله ويتسلقون ما فيه من منشآت وأبنية كأنهم نتوءات بارزة فى بطن جبل خرافى ، أطل ايدغمش صائحا : « طلبتكم لأخبركم فيمن يجب أن يكون واليا على القاهرة » . فاذا بالأصوات تصيح خلف بعضها كأنها الصدى المتكرر : « نجم الدين .. الذى كان واليا قبل ابن المحسنى .. نعم .. نجم الدين ما نطلب » . فصاح ايدغمش فى الحال : « هاتوا نجم الدين » ، فصاح الغوغاء صيحات فرح جنونى وصـاروا يؤدون حركات بهلوانية ويفعلون مواقف كأنها المسرح فى عصرنا ، حتى أعلن قدوم نجم الدين وأعلن عن تسلمه ولاية القاهرة ، ثم أن نجم الدين نفسه أطل علينا وحيانا بيديه .. فأخذنا نصيح ونهتف : « عاش الملك الصالح الناصر .. عاش الملك الصالح الناصر » . فظهر الارتياح على وجه ايدغمش وظهرت السعادة على وجه نجم الدين ، الذى قال فجأة وبلا مناسبة : « والآن أنا تحت أمركم » فصاح الجميع فى نفس واحد : « اعزل عنا ابن رخيمة المقدم .. وحمامص رفيقه » . فقال نجم الدين : « ليكن ما تريدون .. ها أنذا قد عزلتهما » . قال الغوغاء : وأنهما ليستحقان السلب والنهب » قال نجم الدين : « ولقد أذنت لكم فى ذلك » .. فاذا بالجموع تندفع كالسيل الغاضب وأنا وراءهم حتى وصلنا الى شارع سوق السمك وعبرناه الى شارع خان أبو طاقية حتى وصلنا الى رحبة كوكاى الواقعة على رأس الشارع حيث دار ابن رخيمة بجانب بيت الأمير كوكاى ، فما أن وصلت أنا حتى رأيت الناس على القصرين كجيوش النمل لا مكان على حوائطهما أو شبابيكهما أو السطوح لقدم . الكل ينهب شيئا حتى الأبواب وحديد الشـبابيك ومقابض الأبواب سلبت ولم يبق فى الدارين سوى جدران ملساء يفح منها الخراب والخواء .

نظرت ورائى فوجدت « خزعل » بنفسه بين الغوغاء يسلب وينهب أو بالأصبع يشرف على الذين ينهبون لحسابه بلا حساب ، ومن طريف

الأمور أنه يصيح من حين الى حين فى وجه الغوغاء يلومها على ما تفعل ويقول أنه شىء مناف للشرف والضمير فكانت العـامة تعلن على وجهها تصديقه ثم ما تلبث أن تطلق ضحكاتها فى السر ساخرة ، ولما أطمأن الأمير خزعل على منهوباته وأيقن أن شيئا منها لم يتسرب الى بائع سريح مشى بجوارى فى هدوء صامت لكنه قطع صمته فجأة صائحا فى اذنى : « على فكرة هذا الرجل لا يصح أن يبقى على أريكة السلطنة أو بجوارها ! » . قلت : « تقصد من ؟ » . قال : « ايدغمش ! » قلت : « لماذا ؟ » . قال : « كيف يأتمر بأمر الغوغاء ؟ » . قلت : « كان الرجل حكيما فقمع الفتنة وأوقف سيل الدماء » . قال : « ولكنه فى النهاية شاور الغوغاء ونفذ لهم طلبهم .. هذه سابقة لا يجب أن تمر هكذا .. وغدا تسمع أن عقابا حل به جزاء هذه الفعلة الشنعاء » . قلت : « يا رجل لا تكن مغاليا » . قال : « هذا هو قانون الحياة فى الديار المصرية منذ أن أنشئت » . قلت : « أجارنا الله وأياك » . قال : « ما مقـدار ما نهبت فى هـــذه الهوجة ؟ » . قلت : « لا شىء والله العظيم .. لكنى جنيت فحسب » . قال : « دعك من الفلسفة . كم من النهائب أخذت ؟ » . قلت : « لا شىء » قال : « فأنت اذن لا تستحق الحياة بين البشر ! » . قلت : « كيف يا سمو الأمير ؟ » . قال : « حين يستحل النهب ولا تنهب تكون ساذجا .. وحين يؤمر به أو يؤذن ولا تنهب تكون اذن مخبولا ! » . قلت : « لكننى ربما أكون رافضا لمبدأ النهب فى حد ذاته » . قال ضاحكا : « اذا عشت فى مجتمع لا يعترف بوجود الله لا يصبح هناك تهمة اسمها الكفر » . قلت : « يا رجل قل كلاما غير هذا » . قال : « قل أنت كلاما غير الذى قلته .. دعك من مسألة الرفض مبدئيا والمبـدأ فرضـــيا ومثل هذه السفسطات التى بدأت تفد عليـــكم من الغرب » . قلت : « يا اخى ولا تزعل ، يا أميرى خزعل لا تزعل ، خلاص ، دعنى مما قلت كما تقول » . قال : « لا أنت اذن لا تطالبنا باحترام جزاء هذا الوقف الذى زعمت أنه رفض مبدئى .. حسن فلتكن أنت ممن يرفضون ويتعلقون بأوهام اسمها المبادىء وما أشبه ، لكننا لا نعترف لك أو لغيرك بأن هذه فضيلة يجب

أن نشكرك عليها .. مفهوم ؟ » قلت : « مفهوم » . قال بلهجة ذات معنى : « تعرف أن كل من لا يدر دخلا للخزانة فهو عيال عليها » . فهمت قصده طبعا فقلت : « عيال ! .. طب وماله .. عيال عيال .. هو فيه حد راجل فى الزمن ده ؟ » . فدهمتنى نظرته الجبارة فقلت مرتعشا : « أقصد زمنى أنا » . صمت على تهديد فارتعدت ، وتذكرت أننى لم أحصل شيئا على الاطلاق يتيح لى الاستغناء عن الخزانة فقلت أننى يجب أن (الايمها) « قليلا — معرفش معنى الايمها دى لمؤاخذة — حتى أخلص بجلدى من براثن الموشومين ، وقلت فى نفسى أن الأمور حين تصبح مهزلة أو كالمهزلة لابد أن يزداد عدد المتفرجين بقدر تصاعد الأدوار الى ذراها ، وأهم ومخطىء كل من يتصور أن تفاقم الأمور يمكن أن يتم بمعزل ، كيف يحق الله والتفاقم نفسه هو تحطيم لفكرة المعزل من الأساس . حازانى خزعل فجأة بعد أن كان قد سبقنى بخطوات كثيرة ثم سألنى مستدركا : « قلت فى أول حديثك معى أنك لم تنهب ولكنك جنيت .. وأننى لآسف ان كنت لبخت فى حقك قبل أن أعرف ما الذى جنيته .. فما الذى جنيته ؟ » . قلت : « لقد شغلتنى الفرجة .. كنت من بين المتفرجين » . قال مصفقا كفا على كف : « وكمان بتعترف ؟ .. بتقول انك كنت قاعد تتفرج .. يا للبجاحة بل يا للوقاحة » . ارتعدت مفاصلى خوف « تفاقم » المناقشة : « أشكرك على كل حال ولكن غدا تعرف أن للفرجة فوائد كثيرة بل فوائد جمة » . قال فى اشمئزاز ؟ « جمة ؟! » قلت بقرف : « نعم » ، قال ببريق عينيه : « ماذا ؟ » . قلت من قلب مرتعب : « أقصد أنك تدين بفلسفة غير التى أدين بها .. أنت من أصحاب فلسفة ان الانسان يجب أن يصبح ترسا ذكيا يندمج فى أى ماكينة تنشط للعمل .. أما أنا فمن أصحاب فلسفة أن الانسان يمكن أن يظل العمر متفرجا فيفيد البشرية أكثر » . فشوح فى وجهى بحركة من يده تصمنى بالخيبة ثم اذا به ينشط فجأة وتتوثب فيه كل الأطراف ، وينتقل مسرعا الى الجانب الآخر من الشارع الطولونى ناحية الدحديرة التى أغرم بوصفها أستاذنا يحيى حقى ، تابعته فرأيت مجموعة من الغلمان يسيرون حاملين حزمة

من العصى ذات المقابض الذهبية والعاجية ، وبعض الشمعدانات الذهبية والفضية والمرمرية ، ثم كأننى أتفرج على حلقة من برنامج « عالم الحيوان » فى تليفزيون القاهرة : خزعل كأنه حيوان مفترس من فصيلة مجهولة الاسم والنسب ينقض على الغلمان انقضاضة يقشعر منها البدن ، وكان الغلمان قد وقفوا مسمرين مخدرين لمجرد رؤيته،اطار بظفره أذن غلام فصرخ ورمى العصى ، ولوى ذراع غلام آخر فخلعه فرماه وتلقف الشمعدانات ، أما الغلام الثالث فمن تلقاء نفسه وضع ما كان معه عن طيب خاطر ووقف صامتا لا يفعل شيئا ، مع ذلك أمسكه خزعل من طوقه وطوحه كالكرة ثم شاطه يحلق فنزل الغلام جثة هامدة فوق عربة كارو كانت مقبلة من الصليبة وتهشم رأس الغلام وتناثر علينا ووقف العربجى يصرخ ويولول من هذه المصيبة التى حلت به ومضى خزعل بحمله وجريت خلفه يأكلنى الغيظ والحقد ويسحقنى الخوف ، قلت له : « أما كان يكفيك ما فعلته بالآخرين ؟ ٠٠ الغلام أعطاك ما معه دون مقاومة ، فكيف بك تعاقبه وحده هذا العقاب البتار ؟ » ٠ لكزنى فرمانى بعيدا وقال : « كان الغدر فى عينيه وحده ٠ الغدر والحقد كلاهما شعور كلما أمعن الانسان فى اخفائه ظهر » ٠ قلت : « ولكن لم العنف اذا كانت الخشونة وحدها أجدى ! » قال بنبرة غدر : « اسمع يا ولد ٠٠ أنت تعيش فى مجتمع أباح النهب والسلب باذن ومرسوم ٠٠ اذن فالأقوى هو الأنهب والأسلب ٠٠ كل نهب وسلب حسب قوته ٠٠ والقوة كالعطر أو كالنتين لابد من ظهورها » ٠ قلت : « جازاك الله كل خير » قال : « نلتقى فى الخزانة مساء » ٠ قلت : « باذن الله » وتركته وعدت الى نواحى الصليبة استقرىء ما حدث فما وجدت شيئا على الاطلاق ، حتى جثث الغلمان الذين أطاح بهم خزعل تكفل بحملها الغوغاء والحرافيش وطفقوا يبحثون عن أصحابها وأصحابها ليسوا بالضرورة من ذوى قرباهم بل الذين يتكفلون بهم ٠

لم أعرف كم قطعت من الساعات ماشيا فى الصليبة وحدى أو مع خزعل لكننى وجدت ركب الأمراء مقبلا من جهة الساحل فى زئيط وفرح عالى الصوت والنبوة ، نظرت فى ساعتى فوجدتنا فى يوم الأربعاء سابع

شعبان ‏٠٠‏ سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ٠ فعرفت أن الأمراء الذين كان سجنهم قوصون فى سجن الاسكندرية قد وصلوا بافراج من ايدغمش ، كانوا أربعة وخمسين نفرا من المماليك الناصرية بالاضافة الى الأمراء : ملكتمر الحجازى وقطليجا الحموى ٠ كان الموكب حافلا بالطبل والزمر ، وبحثت فيه عن الغوغاء فوجدت نسبة كبيرة سمحت لى بالاندساس فى الموكب ثم الاقتراب شيئا فشيئا من الأميرين العائدين ، حتى اذا ما ترجلوا عند القلعة دخلت معهم القلعة بكل بجاحة وبرود وهم يظنون أننى فى الحاشية ‏٠٠‏ فما أن دخلنا من باب البيت حتى طالعتنا كوكبة هائلة من الجوارى بالدفوف والشبابات ــ يعنى المزمار البوص ــ وفى الوسط امرأة بكل معنى الكلمة متينة البنيان تملأ الدنيا رقصا ساخنا وتبث النار فى فؤاد المغنية فتبث بدورها النار فى أكف الجوارى فتبثش بدورهن النار فى فؤادى ، قلت فمن هذه التى تعطينا الآن دروسا فى الرقص الشرقى ، فقالوا لى أنها خوند الحجازية بنت السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وهى فرحة بعودة زوجها ملكتمر الحجازى ٠ كان محدثى ولدا من غلمان القصر يلبس ملابس السفرجية فقلت له ومن هذه التى تروح وتغدو وتقوم بالخدمة كالفراشة الحالمة ؟ قال أنها أخت خوند وزوجة بشتك الناصرى وهى تساعد أختها بالفرح شماتة فى قوصون لكونه قتل زوجها قبل تاريخه هذا ‏٠٠‏ واجتذبنى على مبعدة قليلة صوت بكاء وعويل حراق لعله فى نفس الغرفة فلما نظرت وجدته فى الصالة واذا بسيدة أجمل وأجمل تقطع خدودها من اللطم وتكاد تلفظ روحها من فرط العويل ، قلت للغلام فمن هذه يا غلام ؟ قال هى أخت هاتين الأختين ابنة الناصر محمد بن قلاوون أيضا وزوجة قوصون وهى تبكى عليه كما ترى ، أحسست بمشاعر متضاربة لكننى قلت : « لا حول ولا قوة الا بالله » ، فقال الغلام : « نعم ‏٠٠‏ انظر يا أخى الى الدنيا ‏٠٠‏ فرح وعزاء » ٠ قلت : « كيف يقام الفرح بجوار العزاء هكذا دون حرج ؟ : قال الغلام : « لأنه كان هكذا منذ وقت ليس بالبعيد ‏٠٠‏ غير أنه كان بالعكس ‏٠٠‏ الفرح هنا ــ وأشار الى المولولة والعزاء هنا ــ وأشار الى الراقصة » ٠

وقال الغلام بعد برهة : « لو مكثت هنا بعض الوقت يمكن أن تتفرج على فرجة كبيرة » . قلت : « كيف ؟ » قال أن الشقيقات الثلاث يعاملن بعضهن البعض بقوة ورقة فى نفس الوقت . كل واحدة منهن اثنتان فواحدة ، الأخت والزوجة وهكذا يدور بينهن حوار له العجب .. هل أنت من حاشية أحدهم ؟ » . قلت : « لا والله يا ولدى » . فانقلب وجهه فى الحال كأننى نصبت عليه نصبة كبيرة وقال : « فماذا اذن تفعل هنا .. وكيف سمحت لنفسك أن تسدرجنى فى الحوار ؟ » . قلت : « أهدأ .. لقد تهت وهذا كل ما فى الأمر .. لا استدرجتك ولا يحزنون .. عن أذنك » . ثم ودعته وانصرفت .. فلما صرت فى الخلاء نظرت فى ساعتى فوجدت عقاربها على مشارف شهر رمضان فتعجبت من سرعة مرور الزمن وتساءلت أين ذهب ولكننى تذكرت أنى مكثت طويلا بل طويلا أتأمل فى جسد الراقصة ذلك أنها لم تكف عن الرقص مثلما لم تكف أختها عن العويل . المهم أننى نزلت تحت القلعة فوجدت الدنيا غائمة والشوارع تصب فى الميدان أرتالا من الغوغاء تقف فى حالة انتظار ، فتعجبت وقلت لماذا تقفون هكذا يا معشر الغوغاء ؟ .. فقالوا عجبا .. قالوا ان الأميرين يلبغا اليحياوى وملكتمر الحجازى تفاوضا فى الكلام حتى بلغا الى المخاصمة وصار لكل منهما طائفة ولبسوا آلة الحرب » قلت : فما شأنكم أنتم تتجمعون هكذا ؟ » . قالوا : « لنهب بيوت من عساه ينكسر من الأمراء » . فسمرنى العجب فى مكانى لا أريم ..

مولاى السلطان ٠٠ أنا أعرق منك فى العبودية

كنت لا أزل اتصعلك فى منطقة الصليبية ربما من فرط النهول مما حدث وربما من فرط الاعجاب مما رأيت عليه المكان : فعلا أرى ملتقى أربعة شوارع تدب فيه الحركة والنشاط بشكل لم أر له مثيلا فى حياتى من قبل ، أربعة شوارع رئيسية تصب فى هذه البقعة الصغيرة نوعا الكبيرة فى نفس الوقت الى حد مخيف ، حتى لتستعجب كيف بهذه البقعة الصغيرة اتسعت لكل هذه الحركة الدافقة ، لكنك سرعان ما يداخلك السرور حين تكتشف أن الحركة دافقة ولذا فهى لا تهمد برهة واحدة ، تصب هنا أو ها هنا من المصبات الأربعة وتتلقى منها ما تعمل على صبه من جديد ٠ عجبت أيضا من طابع الأرستقراطية الواضح على هذه البقعة حتى ليكتسبه كل من يمر فيها فقيرا كان أم غنيا أم شحاذا ، ما أن يدلف اليها متجها الى أحد المصبات حتى تحط عليه مهابة مفاجئة وتراه يعدل من خطوة كأرستقراطى قديم عريق ٠ وأغلب الظن أن مجموعة القصور المجاورة لبعض الأمراء وهى قصور زاهرة حافلة باعداد لا حصر لها من المماليك هى التى طبعت هذه المنطقة بطابعها ٠ « حوارجى » أنا من قديم الأزل مثلما أنا طرشجى وحلوجى وكاتب ، طفت بعشرات المئات من الحوارى والمنعطفات والأزقة والدروب فلم أجد فى حلاوة أو طراوة هذه المنطقة المسماة بحى

الصليبية • فجأة قابلت أحد الموشومين يجرى وسط رهط كبير يهم باقتحام الملتقى • استوقفته سألته : « الى أين ؟ » •• جذبنى من يدى بأصبع واحدة وانطلق يجرى قائلا : « أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون » • قلت : « مالهم ؟ » قال : « وصلوا من قوص ونخف الآن لاستقبالهم » • قلت : « بصفتكم ماذا ؟ » قال : « بأى صفة كانت •• لقد سبقنا الأمراء بالخيول لهم وللقادمين •• وها نحن نلحق بهم الى بر الجيزة » • نظرت فوجدتنا فى يوم الخميس سابع شهر رمضان من نفس السنة المذكورة • وكنت اود لو أذهب معهم ولكننى وجدت عدد العامة يفوق الحصر ، ولم أصدق أن هذا كله ولاء ، فمع أننى أثق فى ولاء العامة بشكل مطلق الا أننى أتردد كثيرا فى تفسير علاقتهم بضعف الأمراء والحكام • وجدت خانا صغيرا فى فى أول الشارع النفيس بفتح أبوابه للمسافرين ببيعهم ماء الورد وبعض العصير والمشروبات الأخرى ، فجلست فيه أطل على الشارع وأرقب وفود العامة التى صارت تتزايد وتتكاثف حتى صارت تنضغط فى بعضها وتتوقف نهائيا • ظلت كتلة الأجساد متوقفة تماما لبرهة طويلة كما تتوقف ارتال العربات خلف بعضها على مشارف الاشارات •• وخيل الى أن ثمة طارئا حال دون وصول القادمين أو وصول المستقبلين ، فتلقفت رجلا مقبلا من الشارع وقلت له : « ما الأمر ؟ » • فقال : « لا شىء •• أولاد الملك الناصر محمد الذين كان قوصون قد نفاهم الى قوص وصلوا الى القاهرة » • قلت : « أقصد ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين يزحمون الشوارع ؟ » • قال : « أنهم عائدون بالضيوف الكبار » • قلت : « هل هم ذاهبون أم عائدون ؟ » • قال : « أنهم عائدون » • فقمت فلم يستوقفنى جرسون لتذكيرى بالحساب لأنه لم يكن هناك جرسون من الأصل ثم أننى شربت كوبا من الخروب قال صاحب الخان أنه على حسابه الخاص باعتبارى وجها جديدا ، فشكرته وانصرفت : فلما سلكت لنفسى طريقا بين الأجساد اكتشفت أن هذه الأجساد كانت مجرد حواجز أو سواتر بشرية فى حين يغشى نهر الشارع بعشرات المئات من العامة الدهماء والزعر والحرافيش يمشون خلف موكب الأمراء وأولاد السلطان • فرجحت أن تكون هذه

الحواجز والسواتر من الأمن المركزى التابـع لزمتهم ولكننى استهجنت هذه الخاطرة ومضيت فى قلب النهر مع الزعر فكنت أرى من حين لآخـر بعض الموشومين يختلطون بالدهماء ويصيحون مثلهـم وبنفس الحماس بل أشد يقولون : « والله زمان » ·· « شرفتوا دياركم » ·· « مصير الحى يتلاقى » ·· « الظلم لا أقدام له » ···· « الطيب فى أبيهم مكث لهم فى الأرض » ·· وهكذا الى أن وجدت أننا قد صرنا فى القرافة ، واذا ببعض العامة يتوقفون معهم آخرون عند مقبرة أنيقة ، صاح واحد : « هذه تربة جركتمر » · وقال آخر : « هذه تربة الذى قتل أستاذنا الملك المنصور » · وكنت أعرف أن أولاد الملك المنصور جاؤوا الى القرافة لزيارة موتاهم وكنت أحب لو رافقتهم ولكن منظر العامة أثار هياجى ، اذ رأيتهم يهجمون على التربة ويفتحونها بأيديهم وبقطع حديد وفؤوس ، ثم أخرجوا كل ما فيها من أشياء حتى أخربوها وجعلوها كوم تراب ، قلت من العجب والله يا أولاد شلبى ما أعرف ان كنتم تثأرون لأستاذكم أم لأنفسكم بل لا أعرف ان كنتم تثأرون حقا أم هى مجرد رغبة فى البحث عن أشياء تقيم الأود ، ثم أننى انصرفت عنهـم ومضيت فلحقت بركب الأمراء وهو يترجل تحت القلعـة يتقدمهم الأمير رمضان بن الملك النـاصر ، وكان فى استقبالهم « جمال الدين يوسف » والى القاهرة سابقا ، الذى تقدم من الأمير رمضان وانحنى على ركبته وقبلها · فرفسه رمضان برجله وسبه قائلا : « أمشى يا حيوان ·· أتنسى ونحن فى الحراقة عند توجهنا الى قوص وقد طلبنا مأكلا من الجيزة فقلت خذهم وروحوا الى لعنة الله ما عندنا شيء ! » · حينئذ كان العامة قد وصلوا الى حيث تقف وشاهدوا طرفا مما حدث فانتهزوا الفرصة صائحين وهم يشيرون الى جمال الدين يوسف : « هذا قوصونى بالله مكنا من نهبه ·· فأشار رمضان بيده أن انهبوا بيته ·· .

وهنا تدافعت الجموع تدوس فوق بعضها دون رحمة ، تجرى كأفراس الرهان المحقونة واندفعت أجرى فى أثرهم حتى وصلنا الى ناحية جامع الظاهر بالحسينية ·· كان بيت جمال الدين قائما فى الجهة الغربية من

ميـــدان الظـــاهر فيمـــا بين الميـــدان وشـــارع الخليج المصرى ـ بور ســـعيد فى القـــرن الرابـــع عشر الهجرى ـ وفيمـــا نحن نخترق باب الفتـــوح دهمنـــا رجال بالســـلاح لا حصر لهم عرفنا أنهم أخوة جمال الدين والاديشة ، فصرنا نردهم بالأجساد ويضربوننا بالسلاح حتى سقط منا العشرات وسقط منهم الأحاد وكلما سقط قتيل أو جريح استؤنفت الشراسة من جديد اما بدافع الانتقام أو بقاعدة « خليها خل » • ساعات طويلة والقتال دائر بين العامة منا وبين أخوة جمال الدين والأديشة حتى فوجئنا بقوافل الجند تهبط علينا من كل فج وعرفنا أن أيدغمش هو الذى أرسلهم لنجدة جمال الدين • وأن هى الا دقائق حتى نزل الينـا « نجم الدين » والى القاهرة بنفسه فى رهط من الجند صاروا يطيحون فينا شمالا ويمينا واختراقا حتى سقط منا مئات وسقط منهم عشرات ، سقطوا من فرط الاعياء فحسب • فلما تكاثر عدد قتلانا صرنا نتبعثر فى كل مكان متسللين أو جماعات فمن وقع فى يد الجند أخذوه أسيرا لتقديمه للمحاكمة •

عدت جريا الى الخزانة قبل أن يتجرأ أحدهم ويقبض على للتحرى ، فلم أجد « خزعل » هناك ولم أعـرف أين ذهب ، وقيل لى أنه ربما يكون مشتركا فى المفاوضات الدائرة الآن بين الأمراء الذين جمعهم ايدغمش فى ميدان الرميلة أو ميدان صلاح الدين بالقلعة وقدم لهم نسخة اليمين المحضرة فـاذا هى تتضمن الحلف للسلطان ثم للأمير قطلوبغـا الفخرى واذا هـم معرضون عن حلف اليمن لهذا السبب • فقلت لا يجب أن يفوتنى هذا المشهد وخرجت أنشد رؤيته فقابلنى خزعل ضاحكا وقال ان هذا المشهد كان منذ مدة وأنهـم الآن فى انتظار قـدوم السلطان من الكرك • وكان لا يزال يضحك فقلت له علام الضحك يا خزعل يا أميرى ؟ فقال أن الجميع ها هنا ـ يقصد الأمراء ـ داخوا الدوخات السبع فى التراسل مع السلطان واسترضائه وهو يمكر بهم ويتدلل عليهم وأخيرا •• ثم همس فى أذنى : « وصل ثلاثة رجال على رأسهم أبو بكر البازدار ليبشروا بقدوم السلطان وبأنه يأتى ليلا من باب القرافة وأنه أمر بأن يفتح له باب السر حتى يعبر منه » • فقلت لخزعل : « هل أنت متأكد من هذه المعلومات ؟ » قال خزعل

ضاحكا : « ربما كنت الوحيد الذى يعرف أن ايدغمش يجلس الآن فى هذا الباب بصحبة الطنبغا الماردانى في انتظار السلطان » ·· كانت ساعتى تشير الى ليلة الخميس ثامن عشرين شهر رمضان من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة · قلت لخزعل : « اذا كنت صادقا فيما تقول فاننى يهمنى أن أرى هذا المشهد » · قال : « تعال » ، ثم جذبنى ومضينا نحو باب القرافة ودفع خزعل كل من صادقه حتى وصلنا الى باب السر المذكور من القلعة ، وكان ايدغمش يجلس مع الطنبغا الماردانى فعلا وفى توتر زائد عن الحد ، لكنه حين رأى خزعل تحسس مقبض سيفه غير الموجود فعرفت أنها حركة عصبيـــة يخفى بها توتره · قال « أيدغمش » بلهجـة الأرستقراطى الذى يتلاشى ولذا نذلا فيخاطبه ببرود زائد عن الحد : « عايز أيه دلوقت يا خزعل نم ايه اللى عرفك الدخول من هنا وفى هـذا الوقت بالذات ؟ هه ؟ » · ·· ثم التفت مناديا ــ تعالوا خذوا هذا الوغد من هنا ·· لاتجعلوا الذباب الأزرق يعرف له طريق جره « وكان واضحا أنه يتكلم بجدية شديدة جدا وضح فيها أنه كان يمثل تمثيلا متقنا جدا · ولكن خزعل انضغط فى نفسه بارادته كأنــه يمثل هو الآخر وقال : « يا مولاى أنــا لم أجىء الى هنــا الا بالشديد القوى ، ثم أننى قصدت خيرا لا شرا » ، قال ايدغمش كأنه يرى خزعل لأول مرة : « ماذا وراءك ؟ » ، وكان الاهتمام والخوف من المجهول واضحين على كل قسماته فيما هو يخالسنى النظر فى توجس ، مال خزعل قليلا على ايدغمش وهمس فى أذنه : « لا تنزعج ·· هى مهمة كالتى أجىء لك بمثلها دائما ، أو أبعث لك بمثلها دائما » · صرخ ايدغمش فيه بحقد شديد ثم أمر بالقبض علينــا ، ففى الحال هبط علينا الأديش فأمسكونا وسلمونا للجند الذين عادوا فسلمونا للخشداشية الذين سحبونا الى حجرة نظيفة وأمرونا بالارتماء فيها فارتمينا وقد جعلنــا وثير الفراش نحس بغاية التعب ،ولدهشتى كان « خزعل » لا يزال يضحك ، وأن هى الا برهة وجيزة حتى أقبل ايدغمش واتجه من أمامنا نحو حجرة أخرى ما أن فتح بابها حتى عرفنا أنها دورة المياه دخلها وأغلق على نفسه لبرهة ثم خرج ثم مر أمامنا عائدا ولكنه توقف برهــة واستدار الينا مشيرا الى

خزعل فى غيظ ، فلما ذهب اليه خزعل ماثلا قال له أيدغمش : « يا جلف يا جاهل ·· ما الذى فعلته ·· كيف تتحدث فى أمور كهذه هكذا دون تحفظ ·· هيه ·· قل الآن ·· ماذا وراءك بالضبط ؟ » · قال خزعل : « السلطان الناصر أحمد ·· على وشك المجيء بعد برهة وجيزة » · قال ايدغمش : « أعرف يا غبى ·· وصلنى » · قال خزعل : « ولكن لم يصلك أنه فى الطريق بعد برهة وجيزة ·· أنت جالس منذ ساعات طويلة ولا تدرى شيئا ولولا رجالى أنا ما تمكنت من نظر الأماكن البعيدة ولا جئت بالأخبار البعيدة ولا حققت شيئا من الآمال البعيدة ! » · زغد ايدغمش فى صدره بحركة سوقية ولولا ادراكه بأنه سوف يحتاج اليه لثقب روحه وفطسها » · فى هذه اللحظة تقدمت أنا وبكل تواضع قلت له : « يا مولاى لا تزعل من أميرى خزعل ·· فهو يحبكم ويتمنى لكم كل خير ولا يرضيه الا رضاكم » · نظر الى فى دهشة وقال : « من هذا ؟ » · قال خزعل : « هو هديتى لك » أعاد ايدغمش النظر فى : « أوه ·· مملوك جديد أهلا به على كل حال ·· ما صفاته ·· أقصد ما مميزاته ؟ ·· أقصد هل هو متعب أم مريح ؟ » ·· قال خزعل : « هو كل ما تتخيل · ·ولد مصروف عليه تقله ·· أهله علموه ودخلوه مدارس ودولته صرفت عليه وعلى امثاله الجلد والسقط والآخر سابتهم يتصرفوا فى الحياة ذى ما هم عايزين ·· أهو بقى ·· اللى راح بلد بيسموها أمريكا ·· واللى راح يغسل الأطباق مش عارف فين ·· والى والى ·· صاحبنا ده بقى ــ وأشار الى ــ سرح فى الزمن المصرى ·· غاوى نكد بقى ·· فوقع فى ايدينا ·· هنيا لك يا عم ·· تاخذ من وراه فايدة لما تشبع » · كل ذلك وايدغمش لا يكف عن النظر الى كأننى أعجوبة وأخيرا زغد خزعل مرة أخرى وقال له : « انصرف ·· دعه لى وانصرف فى ستين كسحة » · فاندفع خزعل يدب فى القلعة الى أن تكفل خشداشى صغير أخرجه من باب القرافة ·

أراد ايدغمش أن يجربنى فى تقديم القهوة فامرنى بذلك فتوجهت الى المطبخ البعيد وصنعت فنجانا على الطريقة التركية أتبعته بآخر ثم عدت الى ايدغمش فى جلسته فى مدخل باب السر · وضعت القهوة أمامهما

وانتظرت لبرهة وجيزة ولكن البرهة لم تنته الا ودخل علينـا رهط من الرجال يزيد عن العشرة ، فاندفعنـا ناظرين متحسـبين • قال الطنبغا الماردانى : « أنهم من أهل الكرك » • وقال ايدغمش : « ولا بد أن السلطان معهم أو من ورائهم » ثم أننا جميعا وقفنا وأقبلنا على المقبلين نسلم عليه ، كان بينهم رجل قد تلثم وعليه ثياب مفرجة ، تأمله ايدغمش قليلا ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وسلم عليه سلاما خاصا للمرة الثانية بعد أن قد سلم عليهم كلهم ، لكن الرجل الملثم لم يهتم بأحد انما بكل صلافة وعجرفة أشار الى رجاله قائلا: « اتبعونى » ، ثم دخل فدخلوا جميعا وراءه ولكن ما أن دخل آخر رجال الملثم حتى أغلق الباب خلفه فعاد ايدغمش والطنبغا الماردانى فى كسوف بال يصفقان كفا على كف ، وقد ازداد حرجهما حينمـا لمحوا بعض الأمـراء مقبلين وقد رأوا طرفـا من الحادث • جلس ايدغمش فى مكانه فجلسوا كلهم جلسة غير معتن بها ثم انخرطوا جميعـا فى تفـكير عميق • ووجدت أنه ايشـارا للسـلامة على أن اختفى فـدخلت وسألت الخشداشية عن موضع نومى فدلونى عليه فنمت حتى الصباح لم أتقلب • وصحوت على يد تلكزنى برفق فاذا بأحد الخشداشية يسألنى عن سر صنعتى الحديثة المبهرة فى طريقة تقديم القهوة للضيوف • ضحكت منه طبعا لأننى حين قدمت القهوة لم أفعل أكثر من أننى قلدت أى جرسون فى أى كشك فى الديار المصريـة فى القـرن الرابع عشر الهجـرى فما بالك لو قلدت جرسونات الشيراتون أو الهيلتون أو الميريديـان أو ما شـاكل ذلك من الفنادق العالمية ! فلما أصرت ملامح وجه الخشداشى على وصفى بالابداع سخرت منه قائلا له الحقيقة ، فاندهش غاية الدهش وقال : « عجيب أمركم والله •• لقد عاشرت ها هنا وها هنا أشد الناس وأعرقهم فى العبوديـة فما رأيت مثلك فى تقديم القهوة » • سخنت النار فى أذنى وصحت فيه : « اخرس يا قليل الأدب » • قال آسفا « أنا لم أشتمك هكذا •• أنا أبالغ فى تفخيمك •• أن منطق الحياة عندنـا أن تكون ما أنت كائن باتقان ، واتقانك واخلاصك بل وشرفك فى العمل أن تمعن فيما أنت كائنة ، أن تكون عبدا بحق سيدا بحق مختالا بحق رعديدا بحق سفاحا بحق •• أن تتطور

وأنت من نفس النوعية حينئذ تصبح سيدا فى المجتمع بشكل ما ! » .
الحق كان يلزمنى وقت طويل لفهم هذه المقولة ، ولكنه لم يمهلنى بل هزنى قائلا بحسم : « قم قم .. لقد أهداك ايدغمش الى السلطان الناصر أحمد .. فانهض فورا لتقدم له القهوة » . ولم أكن قد نمت ما يكفى لأن أصبح نشطا ، فقد كنا فى مبدأ النهار والشمس لم تشرق بعد ، لكننى نترت جسدى عن السرير وأوقفته وصرت أهزه وأنشطه بحركات بهلوانية والخشداش يتابعنى فى بلاهة وخوف ، ثم أننى لحسته بالقلم على قفاه بسرعة فلما انتبه من صدمة الوجع وجدنى أسير بجواره دون أن ارفع يدى مطلقا فاخشى أن يتهمنى . ولكنه فى ذعر شديد أسرع الخطى قائلا : « العفاريت واردة مع السلطان يا للشؤم » ، ثم اختفى ، فى حين مضيت أنا الى حجرة المطبخ وصنعت القهوة وانطلقت بها أطوح يدى بالصينية مثل جرسونات المقاهى البلدى وادندن بأغنية مجنون لأحمد عدوية : « مجنون مجنون مجنون سيبو .. و .. نـ .. ى .. ى .. رحت لها البيت قالوا مجنون .. ع الباب دقيت قالوا مجنون » . ثم اصطدمت فى الطريق بناس لاأعرف كنههم لعلهم أمراء أو خفراء أو حقراء كلهم من وارد القلعة وساكنيها واكتشفت أننى من الدربة بحيث لم تفقد يدى توازنها ولم تنكسر الفناجين، فكان كل من يرانى يتوقف نـاظرا الى فى بهجـة حتى صرت فرجـة ، ولولا انتظار السلطان للقهوة لامتعت جمهورى بالكثير ، لكننى طمأنتهم بأننى سأعود حالا ثم دلفت من الباب الى مجلس السلطان ومضيت بخطوات عسكرية رياضية جنائزية خنفشارية والسلطان ومن معه من أهل الكرك ينظرون الى باسمين ضاحكين ، فعز على أن أحرمهم من المتعة فحملت الصينية بعد أن كنت وضعتها واستدرت عائدا الى الباب ثم استدرت ثانية عائدا اليهم بها مكررا نفس المشهد فضجوا كلهم بالضحك ، فاصابتنى متعـة لا حد لها فحملت الصينية من جديد وكررت نفس المشهد وهم يتابعوننى فى بهجة عظيمة فضجوا بالضحك ولكن وقوفا وتبادلوا المصافحات السريعة اللاسعة كأنها حوار منطوق ، فلم تسعنى الدنيا من الفرح وتمسرحت رغما عنى وحملت الصينية وكررت المشهد فصاروا يفعلون أشياء شديدة البذاءة

يعبرون بها عن انبساطهم أقلها بذاءة صاروا يتحككون فى بعضهم ويشخرون ويخرجون ألسنتهم وما الى ذلك ، فرأيت أن البساط يتسع لمداعباتى أنا الآخر فدخلت فيهم وأنا أحمل الصينية ما أزال ، وصرت أضربهم بمؤخرتى تارة وكتفى تارة أخرى وربما بقدمى أو بحزامى وأفعل حركات بهلوانية أشد بذاءة وقلة حياء وهم فى خوف من سقوط القهوة والماء عليهم يتمايلون ويتراقصون ويتراعشون كأصيع من خلق الله ، وفى النهاية وضعت الصينية وشرعت فى الانصراف حيث تذكرت أن عندى « نمرة » أخرى مع الجمهور الذى تركته فى الردهة الخارجية ، الا أن الرجل الملثم ، أقصد الذى كان ملثما بالأمس والذى لا يزال يرتدى ملابس العريان وهو السلطان شدنى من طرف ثوبى قائلا فى أريحية : « لا .. أنت مكانك هنا فتعال ــ وجذبنى ــ اجلس » . فجلست وأنا أتحشر بينهم فى ود وأبادلهم التصافح السريع وأبدى اعجابى بالسلطان المرح اللطيف دون حرج ..

دخل رجل أقبل نحونا لحظة أن كان السلطان المرح يضحك فقطع ضحكته قائلا : « ماذا وراءك يا أبا بكر ؟ » . ثم مال على هامسا : « هذا أبو بكر البازدار حاجبى الخاص » . قال البازدار دون أن يفعل أى حركة تدل على أنه حاجب سلطان بل كأنه مجرد صديق : « ذلك الرجل الذى طلبته اليوم .. جاء » ، فشوح السلطان المرح بيده فى قرف وضاع كل المرح من وجهه وهيأته فكأنه تلثم من جديد وقال : « يو .. و ... ه .. طلبته دون أن أطلبه .. أقصد طلبته وأنا لا أطلبه .. المهم .. أدخله » . قلت : «مين هوه ده يا بو حميد ؟ » قال : « ذلك المدعو ايدغمش » . قلت : « أيدغمش ؟ » .. القائم بالسلطنة حتى تعود اليها ؟ .. الذى حمى هذه الأريكة فى غيبتك ؟ » . لكزنى بحركة ذات معنى فهمت منها أنه يعامل هؤلاء بالأسلوب اللائق . بعد برهة دخل ايدغمش فانحنى على الأرض وقبلها ، فطيب السلطان خاطره وقال له : « أنا ما كنت أتطلع الى الملك وكنت قائما بذلك المكان .. فلما سيرتم فى طلبى ما امكننى

الا أن أحضر كما رسمتم » . فقام ايدغمش وقبل الأرض ثانيا ثم قال : « بعد اذن مولاى السلطان سوف أكتب عنه الى الامراء الشاميين أعرفهم بقدومه الى مصر وأنه فى انتظارهم » . فشوح السلطان بيده فى فروغ بال فلم يوافق ولم يرفض . فنهض ايدغمش وقد اعتمد الموافقة ..

ما أن خرج ايدغمش حتى انفرجنا بالضحك وطلب السلطان بعض المأكل والمشرب وطلب منى أن أسليه قليلا ريثما ينتهى من مهمته ، فصرت أقلد لهم عادل امام وعبد المنعم مدبولى وأمين الهنيدى واغنى مثل نجاح سلام غناء يدخل على فريد الأطرش وشفيق جلال والكحلاوى كله ماشى ، ولم أكن انتبهت الى هذه المهمة التى يقصدها السلطان ولكننى انتبهت فجأة فوجدته قد انتحى جانبا بأحد الكركيين القادمين معه ، فتصنعت عدم المبالاة وبالغت فى التقليد والضوضاء حتى مر وقت طويل جدا بحسب بالأيام أو بالساعات لست أذكر ، ولكننى فوجئت ذات لحظة صباحية هادئة والسلطان فى احدى مهماته مع الكركيين بحاجبه يدخل ويزف اليه نبأ قدوم العيد ، فقال السلطان وهو يشرب العرق : « عيد ماذا هذا ؟ » قال البازدار : « عيد الفطر طبعا » . قال السلطان : « كل عام وأنتم بخير .. أهلا وسهلا هذا العيد ولكننا مشغولون الآن ولسنا متفرغين له » . قال البازدار : « الناس فى انتظارك فى مسجد القلعة » . قال السلطان : « لم ؟ » . قال البازدار : « لكى تؤدى صلاة العيد » . قال السلطان : « لا صلاة ولا عيد .. عيد ماذا يا رجل هل نحن فارغون .. احنا فاضيين ؟ .. روح روح أجرى » .. فخرج البازدار ولكننا سمعنا من بعيد لغطا قادما من الخارج ، فصفق السلطان فدخل البازدار ثانية فقال له : « ابعث لى بالطواشى عنبر السحرتى مقدم المماليك ونائب الطواشى الاسماعيلى » . فخرج البازدار وبعد برهة دخل الشخصان المطلوبان وقبلا الأرض بين يدى السلطان فقال لهما : « يا مقدم المماليك وأنت يا نائبه .. اجلسا من الآن على باب القلعة وامنعا من يدخل على » . قال مقدم المماليك : « والأمراء يا مولاى » . قال

السلطان : « لا أمـراء ولا زفت ٠٠ أنا مشغول » قال مقدم المماليـك : « ولكنهم لابد أن يقدموا التهاني لكم بالعيد » ٠ قال السلطان : « لست فى حاجة اليها » ٠ قال مقدم المماليك : « والسماط عادة الأباء والأجداد لا تنقطع » ٠ قال السلطان وقد تزرين : « كل أمير يعمل سماطه فى داره »٠ قال مقدم المماليك : « السمع والطاعة » ، ثم انصرف مع نائبه ٠ بعد برهة دخل الحاجب البازدار وأبلغ أن رجلا يدعى الحاج على يطلب المقابلة للأهمية٠ صرخ السلطان : « حاج على من وأنا لا أريد مقابلة أحد » ٠ قال البازدار : « انه الحاج على أخوان سلار » ٠ قال : « لا أعرف أحدا بهذا الاسم » ٠ قال البازدار مبتسما : « الحاج على هو اسمه ٠٠ أما أخوان سلار هذه فهى لقبه وقد حرفته العامة فى مصر فأصبح هو نفسه ينطقه كما تنطقه العامة٠٠ الصنعة فى الأصل اسمها : « خوان سلار ، وهى فارسية ومعناها مقدم الخوان » ، قلت أنا : « سنفرجى يعنى » ٠ فلم يرد على ٠ وقال السلطان : « حاج على اخوان سلار هذا حين يأتى بطعامى عليك أن تتسلم الخوان منه وتقدمه الى وغليه أن ينتظرنى فى الخارج حتى نعيد اليه الماعون » ٠ فمضى البازدار ليبلغ هذا ٠ ومضيت أنا أخترع العابا مسلية تتيح للسلطان المرح وجوا أكثر جنونا وسعادة ٠

أفراح الغوغاء .. وأحلام الأمراء

استهوانى جو المرح فى حضرة السلطان أحمد بقدر ما استهواه فعلى المجنون ، فعلمت أن شرارة الجنون قد التحمت باختها وانطلقت تبحث عن وقود . كان السلطان لا يمل المرح ولا يكف عنه لحظة واحدة ، وكنت لا أمل من التهريج ولا أكف عن الهذر ، وكلما أمعنت فى التهريج والهذر حصلت على لقب العبقرى ونظر الى الجميع نظرة تقدير عامرة . ذات لحظة طلب السلطان طبيبا ، وكان يجلس بجواره شاب من أهل الكرك وبقية الكركيين قيام ، فدخل عليه الرئيس جمال الدين ابن المغربى رئيس الأطباء وطفق يستمع الى شكواه ويتحسس مواضع آلامه فلا يجد شيئا يدل على المرض ، فنظر اليه والى الكركيين ووصف له ما يلائمه ، فضحك السلطان عاليا كما ضحك الطبيب ثم انصرف وبينما نحن نضحك من فطنة رئيس الأطباء ونعجب من تحرزه الكبير فى وصف الدواء اذا بلغط كبير جدا يرتفع فى الأفق ثم يقترب ويتضخم . قمت ونظرت من الشباك فوجدت الأمير ايدغمش والحاج آل ملك والجاولى والطنبغا الماردانى يستقبلون وفودا تحت القلعة تكاد تسد الأفق ، عرفنا من بينهم الأمير سيف الدين قطلوبغا والأمير طشتمر الساقى حمص أخضر وجميع أمراء الشام وقضاتها والوزراء ونواب القلاع ، وكان ثمة من ينصب الخيم تحت القلعة ويستقر فيها . استدرت الى الداخل وقلت للسلطان بجدية : « طبعا سعادتك دلوقت

حتاخد الدوا وتنام لك شوية » . قال السلطان وقد نسى : « دواء ماذا ؟ » .
قلت : « الذى وصفه لك رئيس الأطباء .. يجب أن تداوم عليه حتى يستريح رأسك من الوجع .. قال السلطان : « الى أين تريد أن تذهب ؟» .
قلت : « الى تحت القلعة للفرجة على هؤلاء الضيوف » . قال : « أنزل ولا تغب أكثر من دقائق معدودة » . قلت : « سمعا وطاعة » ثم نزلت .

رأيت المنطقة التى تحت القلعة وميدان الرميلة قد احتشدت بالخيم كأنهم جميعا من الفرق الصوفية التى تزور الموالد ، فلما اخترقت بعضها وجدت آن كثيرا منها تشبه القصور المتنقلة من الداخل وقلت طبعا هى جديرة بأمير كأيدغمش أو غيره من نواب الشام ، ورأيت جوا غير طبيعى ، قطلوبغا الفخرى يتنقل من خيمة الى خيمة وفى أثره عدد من الألاديش ، فمشيت وراءه كالمخبر السرى أحاول معرفة ماذا يحدث ، ولو كان قطلوبغا الفخرى هذا من رواد مقهى ريش أو أى تجمع ثقافى لا تهمنى على الفور بأننى من مخابرات الحكومة . وكان ايدغمش يمشى فى أثر الفخرى حتى دخل معه خيمته والتوتر الشديد واضح عليه ، فى أثرهما دخل حمص أخضر غاضبا ، ثم دخل الأمراء كلهم وأتخذوا مجلسهم فى خيمة الفخرى ، وقال حمص أخضر : « اسمع يا فخرى .. فضك من الموضوع الذى فى رأسك ولا تعرضنا لشيء سيء أرجوك » . وقال ايدغمش : « نحن ما صدقنا وصول السلطان فكيف نفعل معه حركة غدر ؟ » . وقال الفخرى فى غضب شديد : « قد استهان بنا وبكل المقدسات فكيف نسكت عليه ! » وقال أحد الأمراء لم أعرف أسمه : « نحن فى نظره ناس بلا قيمة أو مركز ! » وقال الفخرى : « كيف يأتى الى هنا متنكرا فى ملابس العربان ثم يتفرغ لمداعبة الكركيين ويختص بهم وفوق ذلك يقيم أبا بكر البازدار حاجبا له .. هذا شيء لا يجب أن يمر هكذا دون محاسبة .. ان كرامتنا كلنا كأمراء أصبحت مهددة بالأنهيار ان لم تكن قد أنهارت بالفعل » . وهنا شعرت أن ايدغمش قد أحمر وجهه وأصفر وارتعب ثم قال : « يعنى ماذا تقصد يا فخرى .. أراك تنكر على السلطان كل أفعاله ونحن معك ربما تنكر عليه

أشر منك ولكن قل لنا ما العمل ؟ » قال الفخرى : « توافقون على خلعه ورده الى مكانـه » • قال طشتمر حمص أخضر : « ماذا قلت يا فخـرى ؟ •• نخلع السلطان ونعيده الى الكرك ؟ كيف •• والله لا يكون هذا أبـدا أبدا •• تكلم يا أيدغمش •• تكلموا يا أمراء » • قال ايدغمش : « لا أوافق الفخرى » • وقال أحد الأمراء متحسبا : « ولا أنا أوافقه » • وقال ثان : « ولا أنا » ، ثم انثالت أصوات الأمراء متداعية مترددة : « ولا أنا •• هذا عيب •• هذا عار •• ليفعل السلطان ما يشاء •• كيف اذن يصير سلطانا ان لم يفعل ما يشاء •• اخلعوا انتم هذه الأفكار من أدمغتكم » • وكان الفخرى يتابعهم بغيظ وحنق شديدين فما أن صمتوا عن التعليقات حتى عاجله حمص أخضر قائلا : « أرأيت يا فخرى ؟ •• ها أنت ذا ترى أن كل الأمراء لا يوافقونك على أفكارك المتطرفة • •ومن ثم أصبحت الآن صوتا وحيدا •• ولكننا لن نسكت عليك الا اذا نفضت من ذهنك هذه الفكرة نهائيا فماذا قلت ؟ » • تفكر الفخرى قليلا ثم قال : خلاص •• أنتم أحرار •• لقد ظننت أنكم يمكن أن تثأروا لكرامتكم ولكنكم ••• » • هنا قاطعه حمص أخضر فى عنف مما كشف لى عن قوة هذا الرجل : « كرامتنا لم يحدث لها شىء يا فخرى •• فحذار أن تفكر هكذا مرة أخرى » • فصمت الفخرى تماما • وهنا ارتفع بعض اللغط خارج الخيمة فانتبهوا جميعا ثم خرج ايدغمش وغاب قليـلا ونحن نتبادل النظر فى قلق • وأشار أحـد الأمراء نحوى قائلا : « من هذا ؟ » • فقلت على الفور : « أنا من مماليك السلطان » • قال الفخرى بلهجة ذات معنى : « كركى أنت ؟ » • قلت له بكل جرأة : « اخسأ » •• قال الفخـرى مستنكرا : « اخسأ ؟! » •• ما معنى « اخسأ » • قلت له « يعنى أخص عليك يا فخرى » • وقال حمص أخضر : « يعنى أنه يعاتبك ولكن بشدة على اتهامك له بأنه كركى » • قال الفخرى منبسطا : « أنت اذن صديق لنا أهلا وسهلا بك » • وهنا دخل ايدغمش قائلا : « أنت اذن صديق الحاكم بأمر الله أبو العبـاس أحمد وقضاة مصر الأربعة وأنضم اليهم قضاة دمشق الأربعة •• فهيا بنا » • فنهضوا جميعا وعدلوا ثيابهم وتهندموا جيدا ثم تقدمهم ايدغمش يليـه

حمص أخضر فبقية الأمراء حتى دخلنا القلعة وصعدنا الى السلطان حيث يجلس مع الكركيين يتناول الدواء الذى وصفه له رئيس الأطباء ٠ وقف ايدغمش برهة فى مكانه وهو فى غاية الحرج والكسوف يعطى للسلطان فرصة ارتداء ثيابه على عجل ، وأغلب ظنى أن السلطان كان قد نسى أن أمرا هاما سيحدث الآن أو أنه سيتم مبايعته هذه اللحظـة التى بدونها لايكون سلطانا ولاحتى أى شيء ٠ سحب السلطان عباءة حريرية طرحها على جسده العارى وأحكم اغلاقها وساعده أحد الكركيين على لبس خفه الذى كانت احدى فرديته غائبة ، وقلت لنفسى : ألم يكن من الواجب أن ينتقل هو الى مجلس السلطنة بدلا من استدعائهم فى مجلسه الخاص على هذا الوضع ؟ ألم يكن يستطيع شد ستارة ؟ ولكننى سخرت من نفسى ودلفت وراء آخر الأمراء ٠٠ فلما دخلت فوجئت بأن الغرفة التى كنت أرى فبها السلطان عاريا لبست هى الغرفة التى دخلناها وأن أحدا من الأمراء تبعا لذلك لم ير شيئا مما رأيته أنا ، واذا بالحجرتين متصلتان بوصلة سحرية أسدلت على السلطان دون أن يحس أحد فاذا بالأمراء وايدغمش وأنا كلنا فى غرفة أخرى هى على الأرجح مجلس السلطنة ، فعدت أسخر من نفسى قائلا أن مجلس السلطنة يتجاور مع مجلس اللهو البذىء ولا يفصلها سوى ستارة سحرية فيا لها من أعاجيب ، وأن هى الا برهة وجيزة وحدثت موجة من الظلام كثيفة تحركت خلالها أشياء وأجساد وأصوات ثم صمت كل شيء فجأة فاذا بالسلطان متربع فوق الأريكة فى المواجهة كأنه هكذا منذ سنوات طويلة ٠ تقدم الخليفة الحاكم بأمر الله ــ وهو على فكرة غير الحاكم بأمر الله المشهور ــ وبايع السلطان بالسلطنـة ٠ فما أن انتهى حتى قـام الأمراء والقضاة فقبلوا الأرض بين يدى السلطان على العادة ٠٠ ثم قام السلطان على قدميه فتقدم الأمراء وباسوا يده واحدا بعد واحد على قدر مراتبهم ٠ ثم جاء الخليفة أيضا ٠٠ ومن ورائه قضاة القضاة ، قاضى القضاة الأول ، قاضى القضاة الثانى ، قاضى القضاة الثالث ٠٠ ثم حدثت موجة صمت فى انتظار تشريف قاضى القضاة الرابع ، ولكنه لم يتقدم بل لم يظهر فى

المجلس على الاطلاق ، اتضح أن قاضى القضاة « حسام الدين الغورى »
فأين هو ؟ ربما لم يحضر من منزله قال القضاة وقضاة القضاة جميعا وفى
نفس واحد أنهم رأوه اليوم بينهم وأنه طلع معهم للاجتماع فى جامع القلعة
باخت وقفة السلطان وزحف الحرج على كل الوجوه بنسب متفاوتة وخشى
الجميع وعلى رأسهم السلطان أن يكون تخلف قاضى القضاة حسام
الدين الغورى يعنى موقفا مضادا من السلطان · نهض ايدغمش بنفسه
فكنت أسرع منه فى الخروج والجرى الى جامع القلعة ، نحن المصريين
وخاصة أبناء شلبى نحب الفرجة حبا يقترب من الجنون ومع ذلك
ـ يقولون ـ لا ينشأ عندنا ما يسمى بالمسرح وهم ربما لا يعرفون أن هذا
راجع الى أن حياتنا نفسها مسرح كبير يحب أى عبقرية تلفيقية ، تكاد
عرباتنا تقف فى الطريق تماما وينزل ركابها للفرجة على مصيبة حدثت
لعربة سابقة فى الطريق تهشمت فيها العربة بركابها ··

كان جامع القلعة على مهابته قد صار كعش الزنابير يشغى بالغوغاء
ولكن فى ثياب تنتمى الى القلعة · زعيق وصراخ وعويل وصياح وذوشة
كبيرة ، خناقة مصرية أصيلة ، وكان ابن تغرى بردى يقف بباب المسجد
يحكى ما حدث ويسمع اليه رهط من أبناء عمومتى فيهم نجيب محفوظ
وحسين فوزى وعبد الرحمن الشرقاوى ·· وحسن ابراهيم حسنى وسعاد
ماهر وستانلى ليبول ـ على فكرة هو آخر ابن عمنا من بنى شلبى برضة
بس على خواجاتى شوية ـ المهم انضممت اليهم أستمع الى ما حدث وأراه
رؤية العين : كان القضاة مجتمعين فى الجامع حتى يؤذن لهم على العادة ،
وكان من بينهم قاضى القضاة « حسام الدين الغورى » الذى اندمج فى
التسبيح والتعبد واذ هو كذلك حتى زحف نحو باب الجامع ذلك المدعو
« بالحاج على اخوان سلار » ـ أى الحاج على السفرجى ـ وصار يتابع
قاضى القضاة لبرهة ثم اختفى وعاد ثانية ومعه واحد من مساعديه فى المطبخ
صار يشير له نحو قاضى القضاة ويقول : « هو ذا ·· هو ذا » ، فقال
مساعده : « ماله ؟ » · قال السفرجى : « هو ده اللى جاب داغى ·· وكفر

سيئاتى ! » . قال مساعده : « أنه قاضى القضاة حسام الدين الغورى وأنت سفرجى السلطان .. فما بالك بـه أو مالـه بك ؟! » . قال السفرجى : « أعرف أنه زفت الطين .. ولذا فحقدى عليه شديد ! » . قال مساعده : « هل أضر بك فى شىء ؟ » . قال السفرجى : « تحاكمت عنده أنا وزوجتى منذ مدة .. فجاء فى صف الملعونة بنت الملعونة .. وأهاننى » . قال مساعده : « هـا .. والآن ما دورنا نحن ؟ » . قال السفرجى : « هذه فرصتى .. سوف أربيه وأنتقم منه فهل تكون معى ؟ » . قال مساعده : « طبعا .. أنا معك ظالما أو مظلوما ! » . ثم أنهما اختفيا برهة طويلة كان قاضى القضاة خلالها قد تأهب للنهوض ليلحق بزملائه الذين طلعوا بالفعل للقاء السلطان .. فما أن وضع قدمه على عتبة الجامع خارجا حتى أدركه مساعد السفرجى ومعه جمع هائل من صبيان المطبخ والأوباش يحملون أسلحة قوامها الشوك والملاعق والسكاكين وغطيان الحلل والمغارف الكبيرة والكسرولات بالاضافة الى العصى والنبابيت .. هجموا عليه هجمة شرسة لم ينجه منها الا كونه كان يغيب فى الأحضان التى تهاجمه فيصعب تناوله بحرية ، لكنهم أحرقوا عمامته فى حلقة وقطعوا ثيابه وصاروا يضربونـه بالنعال ضربا مبرحا وهم يصيحون : « يا قوصوزنى ! يا كافر يافاسق ! » .

وكان ابن تغرى بردى قد انتهى من حكاية ما حدث حين انفرجت ضحكة نجيب محفوظ كأنها القنبلة المسيلة للبهجة والوهج . فيما راح عبد الرحمن الشرقاوى يمصمص بشفتيه ويصفق كفا على كف كفلاح حكيم لم يفقد القدرة بعد على الاحتفاظ بعقله . أما حسين فوزى فقد أخذ يخالس النظر ويقفز كالفراشة الخبيثة وينـادى الولد زعبله من بين الأوبـاش ويهمس فى أذنه همسة تنتهى بقرصة حارقة ، وحين ارتجت القلعـة لم أعرف أن كان يفعل ما حدث أم من آثار ضحكة نجيب محفوظ الداوية فى أنحاء القاهرة ، وكان صوت قاضى القضاة حسام الدين الغورى لايزال يستغيث فى أيديهم صائحا : « يامسلمين .. كيف يجرى هذا على قاض من قضاة المسلمين ؟! » . واذا بعلم دار يهبط علينا فى صحبة من المماليك نزلوا

ضربا فى الأوباش والسفرجية حتى نفذوا من بينهم وخلصوا قاضى القضاة من أيديهم وهو أقرب الى خرقة بالية ، وكان ايدغمش قد أرسل مجموعة من الأوجاقية طلبوا قاضى القضاة وحملوه فى محفة عظيمة الى منزلـه ، فيما نشط المماليك فى جر الأوباش والقبض على جماعة منهم سلموهم الى ايدغمش الذى أمر بضربهم أمامنا وأمام الجميع حتى تمنينا لهم الموت ، فلما أسأمنى تعذيب الأوباش على فعلهم خرجت اتمشى قليلا بحثا عن هواء غير ملوث بالدم ، لكن تجمع الأوباش والعامة خارج القلعة كان لا يزال يتكاثر كأنه نهر النيل فى جلافته ، فدفعنى الى الموج فى مساره فاذا بنا عند بيت قاضى القضاة حسام الدين الغورى فى الصالحية ، وكان الأوجاقية قد وصلوا به لتوهم ، فوجدوا أن العامة والأوباش قد سطوا على البيت فجردوه من كل محتوياته وخلعوا أبوابـه وشبابيكه لكنهـم ويا للعجب « طرمخوا » ــ أى تغافلوا ــ عن أهل المنزل من سيده وأولاده فتركوهـم يهربـون الى دور الجيران بل أن بعض العامـة المهاجمين تطوع بنقلهـم ومساعدتهم على النجاة من الغوغاء ثم عاد ليشارك فى السلب والتخريب !. ومن المؤكد أن ايدغمش كان يـدرك أن شيئا كهذا سيحدث فأرسـل فى أعقاب الأوجاقية جمعا من الجند والبطالين تمكنوا من كف العامة والأوباش عن فعلهم ..

انتهى الأوجاقية من مهمتهم واطمأنوا على وصول الطبيب وتركوا بعض الجند فى حراسته ثم اتجهوا نحو المركبة المنتظرة ، عرفتهم بنفسى فسلموا على ودعونى للركوب معهم ، فلما نزلوا أمروا السائق بتوصيلى الى القلعة فكان . فكرت فى استغلال السائق وقد ظهرت له أهميتى أن يوصلنى الى الخزانة لمعرفة أخبارها على الأقل ، ولكننى خفت أن يستبقينى خزعل ويحرمنى من الرفاهية التى آلت الى أخيرا بفضل قدرتى العظيمة على التهريج والهارشة ، فأمرت السائق بالتوقف ثم بحثت فى جيبى عن نقود انفحها له فما وجدت سوى أشياء تشبه جراب الحاوى ، وقلت لنفسى أن جراب الشريد لا يحوى الا حصيلته من التشريد وهى حصيلة لا تصلح

للبقشيشة • صعدت الى القلعة واقتحمت جناح السلطان فى جرأة وتبجح والكل ينظر لى في حسد • دفعت الباب فأنفتح ، فتذكرت فى الحال أننى لم أتجهز بالدخلة المناسبة فتوقفت برهة أفكر ثم دفعت الباب بظهرى ودخلت بظهرى مقلدا صوت القطار ، ثم درت دورة حول نفسى مطرقعا بأصابعى فى مرح وفى نهاية الدورة هبطت جالسا على أحد الكراسى دون أن آراه ، ولم يكن ثمة كرسى فنزلت بجسدى على الأرض متكورا وهممت صائحا اتحسس رأسى وأصيح من الألم ، واذا بالحجرة خالية تماما ، فصرت أنظر في الزوايا لعلهم اختبؤوا فيها نكاية في لكننى لم أجد أحدا • فخرجت منكسرا الى الردهة وسألت واحدا ممن قابلتهم وأنا داخل أين السلطان ؟ فقال أن السلطان فى موكب •• قلت له : « فلماذا لم تقل لى يابجم ؟ » • قال : « ولماذا أقول لك » • ثم انزوى بعيدا ونطلقت أجرى حتى لحقت بالموكب تحت القلعة ، وكانت ساعتى تشير الى يوم الخميس ثالث عشر من شوال من السنة المذكورة اثنتين وأربعين وسبعمائة • أدركت الموكب بعد أن بدأ وعرفت أن العربة جاءت بى من طريق آخر ، كان السلطان واقفا فى صحبة فلما اقتربت منه وجدته جالسا وبقية الأمراء والقضاة وقضاة القضاة والخليفة والأوجاقية والخشداشية وجمع من الألاديش والمماليك فى موكب آخر •• ولحظة أن دخلت كان السلطان قد خلع على سائر الأمراء قاطبة ، وشاهدته وهو ينعم على الأمير طشتمر الساقى حمص أخضر بعشرة آلاف دينار وعلى الأمير قطلوبغا الفخرى بما حضر معه من البلاد الشامية وهو أربعة آلاف دينار ومائة ألف درهم فضة •• ثم أن السلطان طلب الوزير نجم الدين ورسم له أن يكون يوسف البسازدار ورفيقه مقدمى البازدارية ومقدمى الدولة • وكان هذا هو الخبر الوحيد الذى لم أجد له استحسانا على الوجوه أبدا ، فعرفت أن السلطان قد طوق الدولة باثنين من أحط الرجال على الاطلاق • وقلت لنفسى أن القوى الكبرى فى حاجة دائمة الى أحط الرجال لحمايتها فى أحط المواقف والأفاعيل ، وكنت أتصور أن السلطان سيمتعض من الأزورار الذى حدث بفعل الخبر الأخير ولكنه لم يقم لأحد وزنا ، بل وضع ذراعه فى ذراعى ودفعنى فمضينا ومن

خلفنا الحاشية ، ورغم هذا الشرف الكبير الذى أنعم به السلطان على فاننى قد أحسست بلزوجة ملمسة فدهمنى شعور بالتقزز فدبرت للانفصال من ذراعه فى لياقة ورقة ثم سبقته نحو المجلس ورأيته يتوقف فى احتجاج ويشوح للحاشية بعنف وجلافة أن غوروا من وجهى فارتدت الحاشية عائدة إلى الوراء حتى اختفت ٠

استقبلنا الكركيون أنصاف عراة ، وكانت أجسادهم النحيلة المخنثة تثير فى أعماقى شعورا بالقرف لا حدود له ، ولم أكن أعرف هل هم السبب فى أفساد شخصية السلطان أم أن السلطان هو الذى أفسدهم ، لكننى كنت أعرف وأتأكد أن كلاهما أشنع من الآخر فى الفسق وأقوى فكأنهم أكفاء وانداد فى الجنون ٠ ما أن جلس السلطان على الحشية المبطنة بريش النعـــام حتى جيء له بالكؤوس والأطبـــاق الفرعية ، وجيء له بالآلات الموســـيقية ٠٠ واتضـــح أن الكركيين يتقنون العزف على كل الآلاف الموسيقية الشائعة كما يتقنون كل شيء ، وليس من المؤكد أن كل من انتسب الى مدينة الكرك هكذا فلربما كان بين هذه المدينة رجال ورجال ، ولكن المؤكد أن هذه الشرذمـة فحسب هى من تربيـة البـلاط الخاص وتسويته ٠ لم يكد السلطان يبدأ المجلس وتنفرد ملامحه وتنبسط حتى دخل البازدار الحاجب وقال أن طشتمر الساقى حمص أخضر جاء حسب الموعد ٠ فبدا على السلطان أنه لم يكن يذكر هذا الموعد ، وفكر فى النهوض للاقاته فى الغرفة الأخرى ، ولكنـه نظر الى نفسه فرآها خلعت معظم الثياب ، وشوح له الساقى الكركى تشويحة معناها «قولوا للضيف ده ما يقرفناش»٠ فهبط السلطان ثانية فى مجلسه وقرر عدم الانتقال ، لكنه قال للبازدار : « أدخله » ، فخرج البازدار وبعد برهة دخل حمص أخضر ٠ فراقبته وهو يقترب وأحسست فى نظرته ترحيبا مزيفا بما يحدث ، ترحيبـا يخفى بداخله حقدا مريرا وغصة تريد أن تنطلق لتدمره وكان يبدو على السلطان أنه يعرفه حق المعرفة فلم يعن حتى بالنظر اليه ، فلما صار حمص أخضر فى مواجهته تماما انحنى وقبل الأرض بين يديه ، ثم باس يـد السلطان

وقدمه ، فأمره السلطان أن يبوس قدمه فقال : « حدث يا مولاى : فقال السلطان : « لقد أخطأت وقبلت قدم هذا الكركى اللطيف ·· ان قدمه دخلت بين أقدامي فجأة » ، فقال الكركى اللطيف : « تقول أخطأ يامولاى ·· اخص عليك » ولكزه في كتفه ، فاهتز السلطان وتمايل ضاحكا وقال : « يكفى أنك حصلت على قبلة سلطانية يا ولد » ، ولدهشتى أو لعدم دهشتى كان حمص أخضر يجامل الكركى ضاحكا ، فقال السلطان : « واكراما لحمص أخضر على موقفه منك فقد خلعت عليه باستقراره فى نيابة السلطنة بالديار المصرية ·· فقم يا حمص يا أخضر وتوجه الآن وباشر بالنيابة » · فانهال حمص أخضر على يدى السلطان وقدميه لثما وتقبيلا وشكرا ثم نهض ومشى خارجا تكاد خطواته تقول : « يا أرض اشتدى ما فوقك قدى » · وكانت ساعتى تشير الى يوم السبت خامس عشر من شوال ·

وقام الكركى اللطيف وتحزم وانبرى الآلاتية عزفا وشخلعة وانغاما لا حد لعذوبتها ، تحار أن كانت تركية أم فارسية أم أندلسية أم صحراوية أم نهرية ، أغلب الظن أنها مزيج من كل هذه ، حتى ليعجز الوقور الصميم عن الاحتفاظ بوقاره معها ، فصرنا نصفق للكركى اللطيف ونشاركه فى مجلسنا بهز الأرداف والمناكب والحواجب والرؤوس والصدور ، كانت برهة طويلة فقدت فيها دماغى كله ، وحين تعب الكركى اللطيف وانهد جالسا استؤنف الشرب فنظرت فى ساعتى فوجدتها تشير الى يوم الاثنين سابع عشر · وهنا اعتدل السلطان فى جلسته وأزاح عن وركه كركيا آخر كان يتوسدها ، وصفق قائلا : « لنعمل شيئا الآن فى سبيل الله » ·· وهنا دخل البازدار الحاجب ، فاستجلسه السلطان وقال فى شعور قوى بالتشفى : « طبعا تعرف ذلك الملعون عبد المؤمن عبد الوهاب السلامى » ·

قال البازدار : « طبعا ·· والى قوص اللعين ·· هو فى السجن » · قال : « أتعرف بأنه ، فقط ، والى قوص ؟! » · قال البازدار : « المجرم اللعين ·· قاتل مولاى السلطان شقيقكم حين نفى الى قوص » · قال السلطان : « أعجبتنى ·· نريد الآن أن نخلص ضميرنا أمام الله ونفعل فيه فعلا

يستحقه عن جدارة » • قال البازدار : « ما تأمرون به يكون » • قال السلطان : « أبحث عن أحقر نجار فى القلعة •• وقل له يحضر لنا مسامير جافية شنيعة غليظة ، وان لم يجد سوى المسامير الملساء أجعله يحفر فيها رؤوسا مدببة •• أفهمت ؟ » • قال البازدار : « نعم يا مولاى » ، ثم نهض ومشى ، ونهض السلطان فى أثره وقال أنه سيخلد الآن الى نوم قليل يستعيد به لياقته فى المساء ، ثم وضع يده على كتف الكركى اللطيف فاذا بيد كركى آخر تدفع الكركى اللطيف من تحت يد السلطان واذا بكركى ثالث يقف مكانه ، فلما نظر السلطان فى وجهه باندهاش متلذذا أطال الكركى النظر فى عينى السلطان بقوة فابتسم السلطان فى امتثال وهز رأسه بالموافقة فأنطلق الكركى يجرى نحو حجرة النوم وهو يأتى بحركات كيدية لبقية الكركيين •

رميت الكركيين بنظرة اشمئزاز لم يعبؤوا بها وخرجت • نزلت من القلعة الى الميدان الى الشوارع فاقتادتنى قدمى الى البيمارستان المنصورى. وأغلب الظن أن تيارا من الجمهور كان يتدفق نحو البيمارستان فى صمت مشحون فدفعنى معه • رأيت ما لا يمكن أن يحتمل الانسان رؤيته مطلقا ، فكيف بهؤلاء يرونه كل يوم كأنه حادث عادى أليف ، والرجل التعس عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامى والى قوص سابقا يحضره مخفورا بالجند مربوط الذراعين خلف ظهره ، كان الاطار الخشبى الكبير الذى يحوى صليبا بداخله قد أعد وارتكن على الباب ، وجىء بعبد المؤمن بثياب السجن فسلم للنجار الذى أمسكه من كتفيه كلوح من الخشب وقاسه على الاطار ثم دفعه جانبا فتلقفه الجند ففك النجار الاطار الخشبى ووسعه قليلا ووضع تخشينة هنا وحفر حفرة هناك ثم جذب عبد المؤمن وأمسكه ووضعه على الاطار فجاء محكما ، فطلب فك ذراعيه ففكت ، وتركت كل يد فى يد جندى عفى رفع الذراع ووضعها على القائم الخشبى فدق عليها النجار حتى غطست فى محفرها وعبد المؤمن يصرخ من أعماق أعماقه ويتبول ويتبرز على نفسه فيكون جزاؤه بصفة من هنا أو صفعة من هناك ، ثم سحب النجار مسمارا

يحتاج الى عتلة تدق فوقه ، غرزه فى كف عبد المؤمن بضربة واحدة ثم فعل هكذا بالكف الأخرى ، ثم غرز مسمارا فى منتصف الذراع وآخر فى المقابل • ثم هبط وغرز مسمارا فى مشط القدم ، وآخر فى المقابلة ثم أرتفع وغرز مسمارا فى كل من الفخذين والحقوين ، ثم اعتدل واقفا وبدأ الدق على المسامير لدفنها فى اللحم وكان الجسد قد تحول الى قالب من اللحم يصرخ بأعلى صوت طالبا ذرة واحدة من الرأفة ولكنه كان يطلب المستحيل ، وكنت أعجب كيف يمكن أن تبقى فى هذا الجسد ـ بعد كل هذا ـ روح تستطيع فعل شىء ! • فجأة جىء بالجمل الذى أناخ أمام الجسد المسمر فتقدم الجند وحملوه وربطوه فوق سلم الجمل • وتلقف الجمل الأمر بالنهوض فنهض وشرع يسير وخلفه موكب هائل من التعساء ، وصممت على أن أظل بالموكب حتى النهاية فاذا به يستأنف السير عودا على بدء المدة ستة أيام كاملة والروح لم تفارق الجسد بعد ، بل كان بالأمر ـ جسد عبد المؤمن ـ يسقط الكلمات عبر القوائم الخشبية على الأرض مفادها اعترافه بكل جرائمه ومن بينها أنه وثب على النشو ناظر الخاص وضربه بالسيف ولما سقطت عمامته عن رأسه ظنها رأسه ! وأنه قتل الملك المنصور أبا بكر ابن الناصر محمد بقوص بأمر قوصون • وفى نهاية اليوم السادس ألقى بالقائم الخشبى على قنطرة السد فظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكننى فوجئت بأن هناك أمرا بأعدامه وقد نفذوه بالعمل فوق القنطرة وتركوه وانصرفوا فهجمت عليه الكلاب وقد أصابها السعار •

فماذا يفعل النهر فى القلوب اليابسة

كنت قرفان الى حد لم أشعر به من قبل أبدا ، ومنظر الكلاب المسعورة وهى تنهش فى جثة عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامى والى قوص لا يريد أن يفارق خيالى . فى الواقع كنت أندهش غاية الدهشة من كلابنا فهى كما أعرفها طيبة جدا ومتسامحة وسرعان ما تالف الغريب وتذب عنه العدوان وتسهر فى حراسته حتى وأن حياها بضربها ببوز حذائه فى بوزها ، فاذا بها تخفى بداخلها كل هذا القدر من الشراسة ، واذا بى دون تفلســـف أحس كأنها هى مزيج من مزاجين فى الديار المصرية : الشراسة من الأمراء والطيبة من الدهماء والغوغاء ، ثم قلت لنفسى أن الأمراء يفعلون هكذا ببعضهم البعض حتى وهم أحياء ، ثم أننى بصقت فى الشارع بصوت عال وبمنظر لا يليق بمملوك سلطانى محترم . وكان الطريق قد وصل بى الى حى بين القصرين ورأيت نفسى أمام قصر بشتك الناصرى الذى جاءت الأخبار ذات يوم بأنه قتل بثغر الاسكندرية فوقفت أتأمل القصر صائحا : ترى أى مصير ينتظرك يا قصر بشتك ؟ . فصاح شخص بجوارى وهو يزعدنى : « اسمه بشتاك يا رجل .. قصر بشتاك » . فنظرت فيمن لكزنى فاذا بى فى قلب لحظة من القرن الرابع عشر الهجرى استمرت لبرهة سريعة رأيت خلالها الممثل ابراهيم الشامى يسرع الخطى فى اتجاه بيته فى الخرنفش وفريقا من الزملاء يدلفون الى

محل الكوارع الشهير هناك ، ثم سرعان ما اختفت هذه اللحظة السريعة قبل آن أتمكن من اصطيادها والصـعود عليهـا الى الزمن الذى ولدت وعشت فيه • ما أن تقدمت خطوة أو بعض خطوة الا وفوجئت بخزعل أمامى خارجا من الخزانة التى كانت فى برهة القرن الرابع عشر جامع الحسين • وقفت مسـمرا فى مكانى لاننى لم أكن أسـعى للخزانة ولا للتشرف برؤية أميرها خزعل بعد آن ارتقى مستواى وأصبحت مملوكا سلطانيا يشار اليه بالبنان • وكانت الأحزان تظلل قصر بشتك ـ أو بشتاك ـ الناصرى بجلال مهيب كان ركنا هاما جدا من أركان الكون قد انهار وسقط ، وزوجته الجميلة بنت السلطان محمد بن قلاوون وشقيقة السلطان المرح أحمد تطل من أعلى شرفة فيه وقد أضاء وجهها وسط طوق السـواد . والدماء التركية تصبغ وجهها باللون البمبى الفاتح ولا تطغى على ملامحها التترية التى ورثتها عن أمها بنت ملك التتار « أزبك خان » ، شدنى الاشفاق الشديد عليها وهى تطل بنظرة كبيرة تحاول رؤية عرشها المنهار ، لقد قتل زوجها « بشتك » بثغر الاسكندرية خلال سجنه ، سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصر صاحب اقطاع يعمل بمائتى ألف دينار فى كل سنة ، والذى أنعم عليه أستاذه الملك الناصر محمد فى يوم واحد بألف ألف درهم ، وكان راتبه لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم وفرسا لابد من ذلك ، وكان كثير التيه فيما أخبرنى الصديق ابن تغرى بردى يوم آن عرفنى به ، لا يحدث مباشريه الا بترجمان له جامع عند قنطرة درب الجماميز وحمام فى مدخل درب الجماميز لا نزال حتى القرن الرابع عشر الهجرى أعلى مآذن القاهرة وأفخمها » !الطريف أن هذا الجامع معروف لدى سكان القرن الرابع عشر الهجرى باسم جامع مصطفى باشا فاضل لمجرد آن والدته الأميرة ألفت هانم قادن أمرت بتجديده حيث كان مجاورا لسراى مصطفى باشا الذى آب الى مدرسة تسمى الخديوية » ولعل المئذنة أخذت منه الكثير فقد كان يوم رأيته أهيف القامة حلو الوجه وكان السلطان لشدة قربه منه يسميه غيبته بالأمير فحسب ، حتى أن أقطاعه كان سـبع

. عشرة أمرة طبلخاناه أكبر من اقطاع قوصون ، رغم أن قوصون هو الآخر مات مقتولا فى نفس الدفعة الا أن الحزن على بشتك له جلال خاص ، هكذا قال وجه زوجته بنت السلطان وهى تتوارى من جديد خلف فتحة المشربية . ثم ما لبثت درفة الفتحة أن زحفت بدفعة غير مرئية وغير غاضبة فأغلقت فتحة المشربية وفتحت فى دماغى ستارا على المستقبل فرأيت جامع الحسين من جديد ولكن على مبعدة ورأيت شارع الأزهر والأزهر والحارة المجاورة له وفريقا من العامة يتقافزون ويلوحون بالمطاوى ويمزعون وجوه بعضهم البعض ويغرزونها فى القلوب والصدور والبطون والظهور ، وعرفت أنها مجزرة شبه يومية تحدث ها هنا بين عديد من الفئات لا تعرف حقيقة أى منها على وجه اليقين ، فالفكهانية أو القهوجية أو السمكرية أو الحلاقين أو الصياع أو الهاربين من أحكام كل أولئك لا ينبغى أن نصدق أنتماء أى منهم لأى من هذه الفئات فلابد أن يكون له أخرى ، وجاءت شرطة يسمونها البوليس فتقافزت هى الأخرى هنا وهناك وناورت وغابت فى الداخل قليلا ثم خرجت ممسكة ببعض السابلة قيل انهم كانوا يشترون المخدرات ، وفيما كانوا يسيرون بالمقبوض عليهم فى اتجاه عربتهم الهوندا كان تاجر المخدرات يقف أمام طابور المدمنين يبيعهم سم الكلام قبل أن يبيعهم الكيف ، فصفقت كفا على كف وقلت يا للعجب ، واذا بلكزة تذيقنى الألم وتردنى الى الزمن المسبوق ، نظرت متأوها فرأيت « خزعل » يسير بجوارى ويستعد للكزى مرة أخرى فيما نتوجه نحو حى فاطمة النبوية ، قلت بلطف رغم الألم : « يا أميرى خزعل أنت تعرف أننى لا أحتمل مزاحك الثقيل هذا ، ثم صرفت اهتمامه بسرعة قائلا : « أرأيت ما كان يشغلنى منذ برهة ؟ .. لقد صعد بى الحنين الى عصرى فرأيت مشهدا من زمنه » . قال خزعل مشوحا : « لست فى حاجة لرؤية زمنك فيكفينى زمنى وهو يحتاج الى عشرة أعمار لكى تستوعب ـ بالكاد ـ كيفية التعامل معه .. لكن قل لى أنت كيف تسير بجوارى هكذا وتكلمنى قائلا مزاحك الثقيل وما شابه ذلك من سلوك ينقصه الأدب والاحتشام ! » . قلت ضاحكا من خوف ومن شر : « العفو يا أميرى فما أنا

بمستطيع ذلك ٠٠ أنت أميرى وتاج رأسى وان كنت تطاولت عليك فاعف عنى فما قصدت » ٠ قال خزعل بلهجة ذات معنى : « أم تظن نفسك قد صرت مملوكا سلطانيا يحق له التعالى على ٠٠ ان كنت تظن ذلك أنت مخبول وضيق الأفق لسببين ، الأول أننى أنا الذى أهديتك للسلطان ، والثانى أن سلطانك نفسه يكاد يكون مملوكا لى من بعض مماليكى ! » ٠ اعتدلت فى مشيتى وأظهرت الاحترام فى الحال تصديقا مطلقا لما يقول ، فباعتبارى طرشجيا قديما أصـــبحت حلوجيا بالحداثة ، أى أننى شربت ماء اللفت حتى شفيت من داء الحكيم لقمان فصرت بذلك آخر حلاوة ، ولهذا فأنا أصدق الواقع بشكل مطلق قبل تصديقى لأى أحد أو لأى قول فى الدنيا أصدق صاحب المقهى البلطجى بائع المخدرات حين يسب ديك الجميع ويهدد بأن يجعل حساده وعزاله يضاجعون النملة ، واصدق الذى اختلس دماء عشرات الملايين من الناس ولا يزال يرتع فى الخلاء يعيش عيش الأباطرة ، وأصدق أمى وهى « تزعم » أنها عجزت عن شراء روشتة الدواء وأولادها يتفسحون بالعربات فى المصيف ، أصدق طفلى وهو يقول لى :

« ابقى اشترى لى طيارة وفيها مدفع » ٠ وأصدق طفلتى حين تقول : « اشترى لى عروسة ناطقة يا بابا » ٠ أصدق كل هذا فكيف لا أصدق قول خزعل ؟ ٠ وقلت لخزعل : « طبعا يا أميرى نحن نفهم قدركم » ٠ قال خزعل بخبث لم أدر ما موجبه : « وان كنت لا تعلم فأعلم أن الحكم الحقيقى بين أهل الديار المصرية هو القوة المجردة ، والقوة المجردة لا منطق لها على الاطلاق ، هى ضد المنطق فى الواقع ، ربما كان لها منطقها الخاص ، أنت أقوى فأنت السيد حتى ولو كنت فى زى الخدم ٠٠ قوتك ها هنا قوامها الذهب والمماليك ٠٠ أنهب ذهبا واشتر مماليك تصبح سلطانا وأى سلطان ٠٠ وأنا من غير ذهب و لامماليك صرت سلطانا مثلهم لأنى سيطرت على من لا مماليك لهم ، من ليس لهم مماليك لا بأس من أن يصيروا مماليك فمن ذا الذى يستملكهم دون أن يدفع فيهم أجرا ؟ ٠٠ أنه أنا ٠٠ حيث ألعب بهم وأنتقم لهم من ظالميهم ، واستخدم فى انتقامى ناسا منهم ليضربوا اخوتهم وأهليهم وذوى قرباهم ، بل أننى ان شئت قتل رجل سلطت عليه

أبنه بعد أن أملأ رأسه الضيق بشرائط توقر فى اذنيه ليل نهار أن أباه عدوه اللدود .. أفهم مركزك يا ابن شلبى ولا تتكبر على والا نفيتك من كل العصور ! » ففهمت مركزى بالفعل ومشيت بجواره لا أرفع رأسا ولا أرسل بصرا ، وكان القرن الرابع عشر الهجرى يدخل فى عينى طوال سيرنا فى الشارع للحظات خاطفة ران الصمت خلالها الى أن قطعه خزعل قائلا : « أعلمت يانعامات السلطان ؟ أم أنك صرت مملوكا سلطانيا لايشغل باله بمحاولة معرفة أى شىء ؟ » . قلت : « والله يا خزعل يا أميرى ان السلطان المرح أحمد بن قلاوون فرجة ما بعدها فرجة ، مسرح وحده وسامر وحده » . قال خزعل : « اذن فأعلم أنه .. » ثم صمت كأنه يغرينى بشىء هام يدخره لى ثم عاد فقال : « خبر سوف يلعب برأسك وتفرح به » . قلت : « ماذا ؟ » . قال : « الحاج آل ملك الجوكندار طبعا تعرفه » . قلت : « ومن ذا الذى لا يعرفه خاصة نحن سكان الخزانة ؟ » . قال : « خلع عليه السلطان بنيابة حماة عوضا عن تقزدمر الحموى .. ففى داهية بعون الله ذلك الذى وقف ضدنا .. ثم أن السلطان خلع على بيبرس الأحمدى واستقر فى نيابة صفد عوضا عن اسلم الناصرى ، وعلى أى سنقر فاستقر نائب غزة ، وعلى الأمير قطلوبغا الفخرى بنيابة دمشق وعلى الأمير ايدغمش أمير أخور بنيابة حلب ، على قمارى أمير شكار أمير أخور عوضا عن ايدغمش .. وقد استقر اقبغا عبد الواحد فى نيابة حمص .. هذا وقد سافر ايدغمش بالفعل متوجها الى نيابة حلب كما سافر قطلوبغا الفخرى ومعه من تأخر من عساكر الشام وكان فى وداعه الأمير نائب السلطنة وجميع الأمراء ، حيث مد له سماطا عظيما ألم تحضره ؟ » . قلت : « هذا شىء غريب والله كيف لا أعرف هذا الأخبار » ثم عدت فقلت : « ان اهتمام الانسان بأهله وعشيرته يمنعه من متابعة أخبار عليه القوم » . فقال خزعل كأنه يتغاضى عما فى كلامى من أدعاء أسأمه : « ألست تحب رؤية نائب السلطنة حمص اخضر فى ثوبه الجديد ؟ أقصد فى حالة التسلطن ؟ » . قلت : « يا ليت » . قال خزعل : « اتبعنى » . فتبعته دون اعتراض وهو يستطرد قائلا : « تعلم طبعا أنه بدأ يستنفر العامة

وأهل الديار » · قلت : « لم أعلم بعد ولكنى أشعر أنه نفس القبيلة » · قال : « أى قبيلة تقصد ؟ » · قلت : « تلك التى ينتمى اليها كل متطلع جسور جرىء لا بحسب الا مصلحته الشخصية ومجده الشخصى وتاريخه الشخصى على حساب الديار وأهلها والضمير ورجاله » · وكنا قد صرنا بحذاء مجلس النائب حين زغدنى خزعل قائلا : « انظر » · فنظرت فرأيت عشرات من المنتظرين يجلسون فى صمت ملول أو يلحقون بمن يتصادف مروره من الأمراء · كانوا جميعا يحملون الهدايا من مختلف الأشكال والأنواع · ولما اعترضنا أحد مماليك النائب قال له خزعل أنه سوف يقابل نائب السـلطنة الآن وعلى المملوك أن يدخل ليبلغه ذلك · فتناثرت التعليقات هامسة خافتة شأن ما يحدث للشعب المصرى فى كل موقف : « يريد أن يدخل فى التو !! » · « ماذا لو عرف أننى انتظر لليوم الرابع » · · · اسمع يا هذا ان كنت ستقدم شكرى عليها تأشيرة السلطان فأنه لن يحفل بك بل سينكل بك ·· موت النائب وسمه من يجيىء له بشكوى سبق أن عرضت على السلطان » ·· « السلطان نفسه أصبح يزيح الشكاوى عن كاهله » ·· « واقعتك سوداء لو تصورت أن حمص أخضر يقبل الواسطة » ، كل ذلك وخزعل ينقل بصره وراء التعليقات دون أن يطرف له جفن ، وكان المملوك قد دخل على نائب السلطنة وخرج يقول لخزعل « تفضل ياسيدى » ، فشدنى خزعل من يدى ودخل وسط ذهول الجميع وسمتهم الخبيث الذى يعنى الكثير ··

نهض نائب السلطنة بالقاهرة طشتمر الساقى حمص أخضر فى احترام وتبجيل غريبين تماما على حمص أخضر ، لهذا الذى رأيته يركع ويقبل قدم السلطان وقدمه الفرعية الكزكية المتسللة بين قدميه ، والذى كان من الواضح أنه عريق جدا فى الرياء واحتمال كل المكاره ، يصبح من الغريب عليه أن يقف هكذا وقفة سلطانية متقنة · الاحترام أكثر المشاعر الانسانية قدرة على كشف هويته على الحقيقة ، ان كان الاحترام أصيلا فى المرء فانه لا يقبل الركوع مطلقا مهما كانت الأسباب · احترام نائب السلطة لخزعل جعل خزعل يبدو كأنه السلطان الحقيقى ، وهكذا جلس

بنفس جلافة السلاطين ووضع ساقا على ساق فيما كان نائب السلطنة يعالج الجلوس بعدة وجوه كأنه يبحث بينها عن الوجه الذى يلائم شخصا كخزعل ولحظة كلحظته • ما أن جلس واســـتقر وأمر لنـــا بالتحية حتى انفتح الباب ودخل أحد الأمراء فلم يحفل به نائب السلطنة ، فلما تقدم منه الأمير وسلم شوح له نائب السلطنة بغلظة مدهشة تشويحة أخذت شكل السلام وطلب الأمير اذنه ليهمس فيها بشىء فأفهمه نائب السلطنة بنظرة جانبية حادة أنه ــ الأمير ــ قد تجرأ أكثر مما ينبغى ، فارتسم الكسوف على وجه الأمير وغطاه بابتسامة عريضة وأصر على طلب اذن حضرة النائب فقربها نحوه تقريبا رمزيا ، حولها تجاهه فقط بحركة مسرحية فقال الأمير من كسوفه أنه سوف يمر بعد وقت ليقول ما يشاء ثم تفضل بتحيتنا ــ فوق البيعة ــ وانصرف ، وبعدها صفق نائب السلطنة فدخل الحاجب فوبخه توبيخا بذيئا وأمره بالا يزعجه بدخول واحد من « هؤلاء » ــ يعنى الأمراء ، فأحسست كأنه يتكلم عن فئة من الخارجين على القانون • وبدا على الحاجب أنه يريد أن يقول شيئا ويتحرج من وجودنا ، فشجعه طشتمر على الكلام فقال بابتسامة شاحبة : « هل أخبرك الأمير بالخبر ؟ » • قال طشتمر النائب : « لا لم يقل لى شيئا •• ما الخبر ؟ »• تردد الحاجب قليلا فنهره النائب صائحا : « تكلم » ، فقال الحاجب فى تعثر أن المدعو « ناصر الدين » المعروف بفأر السقوف قد توصل الى الكركيين حتى استقر أمام السلطان يصلى به الخمس وناظر المشهد النفيس عوضا عن تقى الدين على بن القسطلانى خطيب جامع عمرو وجامع القلعة وخلع عليه السلطان •• هنا هب طشتمر الســـاقى حمص أخضر نائب السلطنة بالديار المصرية وصرخ قائلا كأنه طعن فى القلب : « بغير علمى ؟! •• بغير علم طشتمر يفعل السلطان هذا ؟! •• كيف ؟ •• اسمع يا هذا •• جهز لى عدة نقباء أشداء •• وأبعث بهم الى ذلك المدعو بفار السقوف وقل لهم ينزلوا الخلعة من عليه ويسلموه الى المقدم ابراهيم بن صابر » • فانحنى الحاجب فى تسليم وانصرف ومر وقت أمضاه طشتمر الساقى حمص أخضر نائب السلطنة فى استدعاء ناس واستقبالهم على مبعدة حيث

يدور الهمس بينهم وبينه ، وأخيرا عاد الينا وما أن جلس حتى أنبأنا الحاجب بقدوم المقدم ابراهيم بن صابر بنفسه ، الذى دخل فى الحال وانحنى فى تبجيل ثم قال أن كل شيء على ما يرام ، وأنه قد اقتحم على ناصر الدين المعروف بفار السقوف مجلس امامته ، ثم نزع عنه لخلعة فقال نائب السلطنة فى سعادة : « حلو » • فقال المقدم أنهم ضربوا فار السقوف ضربا مبرحا أحاله الى جثة هامدة • فقال نائب السلطنة وهو يجز على أنيابه في سعادة شريرة : « جميل » • فقال المقدم أنهم الزموا فار السقوف بحمل مائة ألف درهم فلما ضربه ابن صابر لم يجد معه سوى أربعين ألف درهم فأخذوها وأطلقوا سراحه ونبهوا عليه بعدم طلوع القلعة مرة أخرى • فصاح نائب السلطنة : « فعلت خيرا » •• ثم صرفه باشارة سريعة •

لم يعجبنى طشتمر الساقى حمص أخضر وأحسست بكآبة ، فالمرء لا يستطيع احتمال خزعل وطشتمر معا فى لحظة واحدة ، فملت على اذن خزعل وهمست فيها بأننى على موعد مع السلطان ضرورى وهام ، فشوح لى برأسه أن أذهب فى داهية ، فسلمت عليه وعلى طشتمر وانصرفت مسرعا • أتخذت طريقى الى غرفة السلطان مباشرة فما أن رآنى حتى نحى عنه كركيا صغيرا شقيا وهتف قائلا : « كنت فين من الصبح ؟ » فأخبرته بصراحة فهز رأسه وأمرنى باتخاذ مجلس الساقى فاتخذته وصرت أسقى السلطان وأسامره وأبث الحيوية والنشاط فى المجلس ومع ذلك لم يبد على السلطان أى سرور مما أدهشنى فقلت له : « فيه أيه يابو حميد •• شكلك مش هو النهاردة » • قال : « فعلا » ثم صفق فدخل الحاجب البازدار فسأله بشيء من القلق : « أين مقدم المماليك عنبر السحرتى والأمير آق سنقر السلارى ؟ » • فقال الحاجب أنه أرسل يستعجلهما ، ثم خطف كأسا دلقه فى جوفه وانصرف • وبعد برهة دخل عنبر السحرتى وخلفه آق سنقر السلارى فركعا وقبلا الأرض بين قدمى السلطان وأتخذا مجلسهما بأمر السلطان فسألهما هل أخبركما الحاجب

بما هو مطلوب منكما ؟ • قال عنبر : « نعم وقد أعددنا لكل شيء عدته » • فقال السلطان : « ثمة شيء آخر •• ذلك أنى أمركما باستدعاء مماليك بشتك الناصرى ومماليك قوصبون الناصرى وبأن تنزلوهم بالأطباق من القلعة وأن يعطى كل منهم أقطاعا » قال عنبر : « أينوى مولاى السلطان أن يضمهم الى مماليكه ؟ » • قال السلطان : « نعم لقد ضممتهم بالفعل •• أما الأمر الذى حدثكما بشأنه حاجبى فهو قائم كما هو دون تعديل » • فأحنى كل منهما رأسه موافقا فصرفهما السلطان باشارة سلطانية عريقة • ثم أن الجلسة طالت وطالت وكدت استنفد مدخراتى من حفلات السمر الطلابية ونكت العامة والأشقياء حول كافة الأمور ثم اذا بالحاجب يدخل ويعلن للسلطان أن الوقت قد حان ، فنهض السلطان ونهضنا جميعا معه وسار فسرنا فى أعقابه حتى وصلنا الى قاعة مد السماط بالقصر فعرفت أن ثمة « عزومة » ستقام وأن السلطان كان مشغولا بضيوف لا شك قادمين • فلما اتخذنا مجلسنا على السماط بجوار السلطان صار الأمراء يتوافدون على السماط واحدا وراء الآخر وكان السلطان يبتسم فلاحظت أن ابتسامته يشوبها الكثير من الخبث والتشفى ، فملت على أذنه هامسا :
« أيه الحكاية بالضبط يا أبو حميد ؟ •• شايفك بتبتسم » • أتسعت ابتسامة السلطان وقال فيما يمعن فى تأمل حركة الداخلين : « أنظر ولاحظ » • فنظرت فلم ألاحظ شيئا وقلت هذا السلطان فقال أنه يضحك عن سذاجة النظام الذى اتبعه طشتمر الساقى حمص أخضر فى فترة نيابته ، حيث منع الأمراء أن تدخل بمماليكها الى القصر وبسط من باب القصر بساطا الى داخله كما كان فى الأيام الناصرية الأولى فصار الأمير لا يدخل الى القصر الا بمفرده • قلت له : « وما المضحك فى الأمر يابو حميد يامولاى ؟ » • فقال أن طشتمر الساقى حمص أخضر نائب السلطنة فى القاهرة سوف يتلقى الضرب بنفس السلاح الذى وضعه » • قلت : « كيف ؟ » • قال « سوف ترى » • ثم أن طشتمر دخل بعد برهة ومعه ولداه ، فسلم على السلطان فرد عليه السلطان ورماه بنظرة تخفى كثيرا من الأسرار الشفافة • وحدثت موجة من النظرات ضاعت فيها نظراتى

ولكننى رسوت بها على رجل قوى البدن ظهر فى الاحتفال فجأة وأحدث ظهوره هذه الموجة من النظرات الغامضة ، لقد عرفته ، أنه كشلى السلاح دار أحد المماليك السلطانية ، صار يلف ويدور حول المدعوين الى أن تم كل شيء فتقدم السلطان وبدأ الطعام فبدؤوا فى أثره واندمجوا فى الطعام بصورة مذهلة حتى لم يبق على السماط سوى بقايا ، وكنا ننتظر واقفين فى أماكننا لصق السماط حتى يؤذن لنا بالتقدم لغسل ايدينا ، وكانت نظراتى قد أخذت تتابع حركة كشلى السلاح دار الذى اختفى فجأة لبرهة وجيزة ٠وفيما أبحث عنه فوجئت بطشتمر ينتفض فزعا واذا بذراعين قويتين جدا تطبقان على كتفيه من خلف ظهره قبضا عنيفا ٠ تسمرنا جميعا في أماكننا بعقد الذهول السنتنا ونحن نرى كشلى السلاح دار وقد تمكن من القبض على طشتمر وتقييده تماما ، ثم تقدمت جماعة من المماليك فأخذوا من طشتمر سيفه وقيدوه بالحبال كأنه جوال ، ثم فعلوا نفس الفعل بولديه وجروهم الى الخارج ٠ وهنا صفق السلطان المرح بيديه فى اعجاب كبير وضحك ضحكة سوقية جاويتها ضحات الكركيين المخنثة ، ثم أشار للضيوف قائلا هيا أغسلوا أيديكم ولسوف نغسل المكان من قذارة هذا الطشتمر لذى تجاوز كل حد ٠

وتقدمنا واحد وراء الآخر فغسلنا أيدينا بواسطة الطشت والأبريق وأعداد هائلة من الطشوت والأباريق كلها من الذهب يتولى القيام عليها مماليك صغار ٠ فما أنتهينا من غسل أيدينا حتى جلسنا من جديد فى أماكننا نستقبل الحلوى ، واذا بأمير مسعود الحاجب يقبل نحو السلطان فيقبل الأرض بين قدميه فيسأله عما به فيخبره أنه أى أمير مسعود ـ نزل فى عدد من المماليك السلطانية فأوقع الحوطة على بيت طشتمر وقبض على مماليكه وسجنهم ٠ فعلق السلطان طربا وضحك الكركيون وعاكسوا أمير مسعود معاكسات خارجة استجاب لها عن طيب خاطر وان كان الشرر قد طق من غينيه حين أمعن أحد الكركيين فى المزاح السخيف فقرصه فى مؤخرته ٠ فطلب السلطان من الأمير الطنبغا الماردانى والأمير ارنبغا والأمير

صلاح أن يقوما الآن ومعهما من أمراء الملك خاناه والعشرات نحو خمسة عشر أميرا ومن المماليك السلطانية نحو ألف فارس ويتوجهوا للقبض على الأمير قطلوبغا الفخرى . فقام الأمراء المذكورون فى الحال ومضوا لتنفيذ الأمر . ومال نحوى السلطان وهمس متمنيا أن ينجح هؤلاء فى مهمتهم وأن ينجح كذلك آق سنقر فى مساعدتهم ، ثم نهض ايذانا بانتهاء اللقاء .. وسحبنى من يدى فوضعت ذراعى فى ذراعه وتجاوزنا القصر الى ناحية غريبة علمت أنها الحظائر السلطانية وتعجبت كيف يدخلها السلطان ولكننى تذكرت أن السلطان المرح لا يستنكف فعل أى شىء . استقبلنا الأمير المختص بشؤون الحظائر قائلا : « كله تمام يا مولاى » . فأجابه بفرح : « عال عال .. لعلها حصيلة وافرة » . قال القائم بشؤون الحظائر : « لا بأس بها على أى حال » . وأشار فدخلنا لنرى عددا هائلا جدا من الأغنام والأبقار وصل عددها الى أربعة آلاف رأس من الأغنام وأربعمائة رأس من البقر . قال السلطان : « أهذه أغنام أبى ؟ » . قال القائم بشؤون الحظائر : « وأغنام قوصون جمعناها كلها معا » . قال السلطان : « عليك أن تجهزها كلها للسفر الى الكرك . فرد القائم بشؤون الحظائر : لسوف يقوم الأولاد بحملها وقد أعددنا لكل شىء عدته » . ثم تجولنا فى الحظائر وفى الأحواش لنشاهد قوافل من الطيور بمختلف أنواعها ، ونوافل من الخيول والهجين وحمر الوحش والزراريف والسباع » . قلت : « هل سيسافر كل ذلك الى الكرك ؟ » . قال السلطان : « نعم لن نبقى على ريشة واحدة » . قلت : « كيف ؟ » . قال القائم بشؤون الحظائر : « على رؤوس الحمالين والسقائين » . قلت : « الى الكرك ؟ » . قال : « والى آخر الدنيا لو أردت » . قلت : « تشكر يا أمير » . ثم أن السلطان اصطحبنى الى حجرة الذخيرة ووقف أمامها لبرهة فقلت لنفسى : « ترى ماذا يفكر السلطان وماذا عساه يفعل بهذه الذخيرة » .

فلتسبحوا جميعا فى بحر الهوى ..
ولتشربوا جميعا من آبار الخسة ..

كنت أظن آن خزانة الذخيرة التى توقفنا عندها تحوى ذخيرة من التى نعرف أنها تغذى الأسلحة بالنيران القاتلة ، فلما تقدم أمينها وفتحها تبينت أنها تحوى الكثير من الذهب ولفضة فقلت ما أحلاها من ذخيرة . وقال السلطان المرح فى جذل وغبطة : « أهذا كل ما جمعه أبى فى مدة سلطنته ؟ » . وقال أمين الذخيرة كأنه يواسيه ويغبطه فى نفس الآن : « كان يرحمه الله كريما لا يمسك يده عن فعل الخير .. ولهذا لم يترك سوى هذه الثروة القليلة .. ستمائة ألف دينار من الذهب والفضة .. وهذا الصندوق المملوء بقطع الجوهر » . قال السلطان : « جهزها كلها فى لفة واحدة وابعث بها الى الآن على الفور » . قال أمين الذخـيرة : « سمعا وطاعة يا مولاى » . ثم ان السلطان تركه ومضى يصـفر بفمه ويطرقع باصبعيه ء لىإيقاع النغم ، ومضيت أنظر اليه فى بلاهة من فرط الاعجاب بهذه السبهللة .

اخترقتا بهوا عريضا أفضى بنا الى مجلس السلطان الخاص ، فعجبت كيف يمكن الدخول اليه من هذا الباب الذى لم آكن عرفته من قبل رغم ترددى على المجلس عشرات المرات ، كان الكركيون يلعبون النرد ، ويزاطون

فى غرفة مجاورة • دخل البازدار الحاجب فى أثرنا فاستدار اليه السلطان قبل أن يستقر فى مجلسه وقال له : « عليك هذه المهمة يجب تنفيذها الليلة » • قال البازدار الحاجب : « فليأمر مولاى » • قال السلطان المرح أحمد بن قلاوون : « لقد تتبعت جوارى أبى وعرفت كل أخبارهن واحدة واحدة » • قال البازدار الحاجب وهو يكاد يحسد السلطان على مهارته : « كيف يا مولاى •• أنا نفسى تعبت من التجسس عليهن وشغلت كل جهازى وبالكاد أستطيع الالمام بأخبارهن » • قال السلطان وهو يدفع اليه بورقة صغيرة : « هذه أسماؤهن فاستدع كلا منهن على حدة •• قل لكل منهن اننى أدخل عليها الليلة » • قال البازدار الحاجب وهو يخفى فى بحيرتى عينيه نظرة ماكرة : « تدخل عليهن كلهن الليلة ؟ •• أظن أن مولاى يمزح فاقع المزاح لو قال أنه يدخل على واحدة فكيف به وهو يزعم الدخول عليهن فى ليلة واحدة ؟ » قال السلطان المرح وقد تجاهل هذه النظرة عن عمد : « هذا ما سوف تقول أنت •• عليك أن تقوله فحسب وليس عليك ضمان الفعل » • أخذ البازدار الحاجب يطيل النظر فى عينى السلطان المرح يبحث فيهما عن شىء غامض مجهول والسلطان يعلق فى عينيه نظرة سخرية خجلى ، فراح البازدار يعيد قراءة الورقة كأنه يطيل زمن الوقوف وأخيرا قال : « ولكن يا مولاى •• هذه القائمة تضم بعض الجوارى •• أن جوارى مولاى بلغ عددهن عددا مهولا » • قال السلطان المرح : « أعرف •• ولكن أريد هؤلاء فحسب •• أنهن أكثرهن تمولا » • عندئذ شيع له البازدار نظرة خبث كأنه يقول له : « فهمتك يا نمس » ، ثم استدار وخرج • ثم دخل الكركيون يدفعون كرسيا عباسيا ذا عجل صغير يزحف وفوقه القوارير والأكواب ، واتخذ الساقى مجلسه المعتاد وأخذ يصب ويقدم للسلطان وهو يجرع فى شرود صبيانى تتخايل فيه ملامح الشقاء • لكزه أحدهم فى ود وداعب الآخر شعره ، وقال الثالث نكتة سمجة ، وقلت أنا كل النكت التى حفظتها من سلطان الجزار وحسين الفار وحمادة سلطان ، وصرت أرسل النكات كالقذائف السريعة المتتالية فلا يضحك أحد فعرفت اننى كنت محقا تماما حين لم أكن أضحك على

هذه النكات أثناء سماعها فى شوارع قاهرة القرن الرابع عشر الهجرى • ولم أعرف كم مضى من الزمن علينا ولكن السلطان تزحزح وفجأة عبس فى وجوهنا ثم أمرنا بالانصراف • فلما نهضت متأهبا للانصراف خلف الكركيين استبقانى السلطان قائلا : « ابق معى لأمر هام » ، فجلست ثانية فبادرنى قائلا : « هل لك فى النسـاء ؟! » • قلت : « لا والله يا مولاى » • قال : « زهد أم عجز ؟ » • قلت : « لعلهما معا يا مولاى » • قال : « اذن فأنت تصلح للمهمة التى أريدك فيها » • اقشعر بدنى لدى استماعى لهذا الكلام وتخيلى فكرة الانفراد بجوارى السلطان الكبير ، وقلت : « ما هى المهمة يا مولاى ؟ » • قال السلطان : « سأطرحها عليك ولكن بعد أن تجيبنى على هذا السؤال : « هل تأخذك بالنساء شفقة ؟ •• أقصد هل تتعاطف معهن ؟ » • قلت : « أحيانا » • قال : « أعلمت أن حواء تسببت فى خروج آدم من الجنة » ، قلت : « نعم وهى تتسبب كل يوم فى خروجى من هدومى » • قال : « اذن فاستمع الى فانك مجهز لهذه المهمة خير تجهيز » • قلت : « أتريد منى أن أخلصـك منهن ضربا بالسيف ؟ » • قال : « لست حانقا عليهن الى هذا الحد » • وهنا دخل البازدار وأبلغ أن الجوارى قد أقبلن عن طيب خاطر وأن واحدة منهن لم تر الأخرى بعد وكان منهن من لاتزال تعتقد أن السلطان راغب فيها وحدها • قال السلطان بكل بساطة ومرح « أدخل احداهن » •

فاختفى البازدار الحاجب وبقيت أتكهن ما الذى يريده السلطان بالضبط الى أن دخلت هيفاء تبارك الخلاق فيما خلق ، يدهش المرء كيف تنسجم هذه الزهراء الرقيقة الفياضـة بالعطر مع سلطان أكرش مثل المرحوم ، كانت قد تزينت أبهى زينة ولبست كل ما عندها من حلى ، وفيما كنت أنا مشغولا بارسال الصلوات على النبى واللهج بقدرة الخالق العظيم كان جلالته يفحص يديها وصدرها وقدميها فحصا دقيقا ، ثم أشار الى « شلته » بجواره آمرا أياها بالجلوس فجلست فصار يملس على كتفيها وينظر فى حليها نظرات يجاهد أن يجعلها تبدو عابرة ، ثم صفق

فدخل البازدار الحاجب فقال به : « أدخلها حجرة النوم » ، فنظرت الجارية الى العبد لله فى خجل حقيقى وبدا عليها الارتباك الشديد لكن البازدار الحاجب دفعها باشارة من أصبعه فنهضت فسحبها واختفى ، فنظر لى السلطان قائلا : « أعرفت مهمتك » • قلت وقد ارتعدت :« لا لم نتفق عليها بعد •• » فقال السلطان المرح : « عليك أن تخلع عنها حليها قطعة قطعة حتى الخلاخيل فى قدميها لا تتركها » • قلت من فرط الشعور بالغيظ : « ثم ماذا ؟ » • قال : « ثم تتركها وترجع الى بالحلى » • قلت وقد انتويت أمرا : « لا بأس •• ولكن اذا غبت عليك فلا تقلق » •

نظر نحوى فى توجس : « الا هذا •• مسألة الركبة عندها مرفوضة الا ريثما تنزع عنها حليها » • قلت : « ولكن نزع الحلى يقتضى حيلة وسياسة وصنعة لطافة » • هز أصبعه فى وجهى مهددا : « صنعة اللطافة هذه أيضا هى الأخرى مرفوضة » • قلت : « هذه بكل أسف هى شروطى يا مولاى » • قال : « اذن فاسترح » ، ثم نادى أحد الكركين فدخل فأمره أن يدخل الى حجرة النوم وينزع عن الجارية كل ما عليها من حلى • فسأله الكركى : « واذا كان فى ثيابها بعض الحليات الذهبية ؟ » فقال له : « اخلع ثيابها أيضا وهاتها » • فامتثل الكركى وذهب يفعل دون أى مناقشة ••

بعد وقت قليل جاء الكركي يحمل بين يديه مالا يقل عن أقة أو أكثر من الذهب والجوهر وعلى كتفه فستان محلى بالقصب وكانت بعض الحلى مخضبة بالدماء فعرفنا أن الكركى قد استعمل القوة فى نزع الحلى من اليد أو الأذنين أو القدمين أو الصدر وان الجارية قاومته بشدة • حياة السلطان على شجاعته وسأله عن الجارية فقال الكركى أنه سربها من سلم سرى يقضى بها الى ردهة تفضى بها بدورها الى الخلاء •

ثم أن السلطان طلب البازدار فدخل عليه فطلب منه الجارية الأخرى فدخلت فصار السلطان ينظر اليها باحثا عن الحلى فلم يجد شيئا على

الاطلاق فأشار ولوى بوزه فى قرف مع أن الجارية كانت من أجمل وأبهج من رأيت فى حياتى . قال السلطان وهو ينظر اليها فى غيظ : « أين حليك يا امرأة .. أقصد كيف تقابلين السلطان هكذا دون أن تكونى متزينة بكامل ما عندك من حلى ؟ » . قالت الجارية وفى صوتها عشم ابليس فى الجنة : « أطال الله عمر مولاى .. ما عندى من الحلى شىء .. طول عمرى فقيرة تعسة الحظ يا مولاى ولكننى أشعر أن الحظ قد تبسم لى هذه الليلة .. فمنذ أهدانى أحدهم الى مولاى المرحوم وأنا أنتظر دورى فى الحظوة ولكنه فارق الدنيا قبل أن يجىء على الدور فلم أكن محظية من محظياته أبدا ولهذا حرمت من اقتناء الحلى » . وكانت الجارية ترسل كلامها ساخنا صادقا مبتهجا يلسع قلبى والسلطان يتابعها فى قرف واشمئناط شديدين ، فما أن انتهت من كلامها حتى شوح بيده فى وجهها قائلا : « حسنا اذهبى الآن الى دارك ولسوف أطلبك فى ليلة أخرى » ، فغاضت الدماء فى وجهها واعتلته صفرة الموت ، فقلت أطيب خاطرها : « يقصد مولاى السلطان أنه قد حزن لوضعك ولذا فهو يؤجل لقاءه بك حتى يكون فى حالة أنسب » . فلم تصدقنى واستدارت منكسرة تتمنى أن تنشق الأرض وتبلعها .

وصار السلطان يصفق كفا على كف من الغيظ ويقول : « كيف هذا .. أما أن المعلومات التى وصلتنى عنها كاذبة وأما أنها خبيثة واعية » . وصفق فدخل البازدار الحاجب بجارية ثالثة ليس فيها من الجمال شىء ظاهر للعيان ولكنها مثقلة بالحلى كأنها معرض جواهرجى ، وكثرة الحلى على الجارية معناها رضاء السلطان عنها فحدثت نفسى بصوت عال قائلا : « كيف لمثلك أن تكون محظية لدى السلطان وأمامه نساء أجمل ؟ » . فقالت الجارية بلهجة ذات معنى : « كان مولاى يعرف أن الجمال الداخلى أعمق وأدوم من الجمال الظاهرى فالأول جوهرى والثانى شكلى » ، فكأنها القمتنى حجرا .

أشار السلطان بذقنه الى البازدار فاقتادها الى حجرة النوم وركض الكركي خلفها مثل كلب ونيس • وما لبث أن عاد بعد مدة وهو مهدود القوى يحمل الحلى الذهبية •

وهكذا ظللنا ساعات طويلة نشهد هذه العملية الاجرامية والسلطان لا يكف عن الاستمتاع كلما نظر فى حصيلة الجواهر والحلى التى تكومت بجواره وارتفعت • ثم أن السلطان طلب السقيا فجاءه الساقى وظل يصب له من جديد والسلطان غارق فى صمت مريب ، فصعب على ، فاقتربت منه وملت عليه هامسا : « مالك يا أبو حميد •• فيه ايه بالضبط ؟ » • فقال خلال شروده الطويل : « مفيش يا أبو شابى •• بافكر فى الدنيا » • قلت له : « لأ •• فيه حاجة شاغلاك •• ايه الموضوع ؟ » • قال السلطان : « الأمراء أولاد الأبالسة •• أولاد النخاس ؟ » •

قلت : « ما لهم ؟ » • قال فى غيظ مكتوم : « يتنكرون على » • قلت : « كيف ؟ » • قال : « ان حروب الفخرى دليل قوى على ذلك » • قلت : « ما تاخدش فى بالك •• الأمراء طول عمرهم كده » • فأخذ السلطان يتلوى من الغضب ويجرع الكأس مرتين ، مرة حين ينتهى الساقى من ملئه ومرة حين يبقى فيه آخر رشفة ولو كانت نقطة واحدة يمسح على أثرها شفتيه ويقذف بالكأس أمامه فيتلقفه الساقى بدربة هائلة ليملأه من جديد ، وكان الجوع التاريخى الكامن بأعماقى يدفعنى الى التسلى بالمزة المنتشرة أطباقها على الصوانى دون أن تكون بى رغبة فى الأكل أو الشرب •

ويبدو أن المزة وحدها فعلت فى رأسى ما يفعله الشراب فى رؤوس الشبعانين من نشوة فقلت له : « اسمع يا أبو حميد •• عاوز نصيحتى ؟ •• قابل لسيئة بالمعروف والشر بالخير •• يا بخت من بات مغلوب ولا باتش غالب » • فضحك السلطان حتى استلقى على قفاه وقال : « تجلس جلسة السلاطين وتتحدث « أحاديث الزعر والحرافيش ! •• تجلس على مائدة

الشبعانين الأقوياء وتتحدث حديث الجياع الضعفاء ! هون عليك ٠٠ سوف أسامحهم ولكن ليس بناء على فلسفتك العرجاء ، انما بسبب آخر » ٠ ثم صفق فدخل البازدار الحاجب فبادره قائلا : « يا بازدار ٠٠ مر ذلك المدعو اخوان سلار أن يجهز لى أوزا مشويا بعدد الأمراء ٠٠ وعند الظهيرة من صباح الغد أبعث لكل أمير أوزة مشوية لحد داره ! » ٠ قال البازدار الحاجب : « سمعا وطاعة » ثم مضى ثم ارتد عائدا : « ولكننا الآن على وشك الظهيرة يا مولاى ٠٠ لقد سهرتم حتى جنكم الليـل ثم أسلمكم للصباح وأنتم لا تشعرون » ٠ قلت : « والله لم أشعر بحق ٠٠ ولا أدرى ان كان اتصـــال الليل بالنهار على هذا النحو قائما فى القلعة أم هو عابر ٠٠ لكننى أدرى بحق أن الليل ها هنا يشبه النهار ولا فرق بين النهار وجنح الظلام » ٠ قال السلطان : « وفر فلسفتك فنحن نصنع الليل حين نبغى السهر ٠ قلت : « ولكن السهر يطول ويطول » ٠ قال : « فماذا وراءنا غير السهر ؟ » ٠ قلت أفى هوى المحبوب تسهر ؟ » ٠ قال : « فى هوى الهوى ٠٠ ربما كان محبوبى الأصيل هو الهوى ٠٠ أعشقه بجنون ٠٠ فتحت أمواجه كم يعاشر المرء ويلتقى ٠٠ ما هـذه الدنيا سوى بحر من الهوى ٠٠ ان كنت أنجبت أطفالا فعلمهم كيـف يسبحون فى بحر الهـوى ٠٠ ان كنت علمتهم غير ذلك فما أتعســهم وما أبأسك ٠٠ أتدرى لماذا قبلتك مملوكا سلطانيا ؟ ٠٠ لكى أتفرج عليك بكل بساطة ٠٠ لكى أرى عن قرب كيف لا يزال هناك بعض المخلوقات المتخلفة تشغل أنفسها بفلسفات وقيم وأمجاد وقضايا تاريخية وأوهام لا معنى لها ولا قوام ! ٠٠ انظر الى الأهرامات خلف ظهرك واضحة للعيان تراها جثثا ميتة تقول لك بالفم المليان عش حياتك كما تبتغى وتهوى ٠٠ لا تقل لى كرسى السلطنة وعرش آمال الشعوب ، فقد عشت السلطنة أبا عن جد وراقبت كل شىء ودرست كل شىء فقد جاء لى الناصر أبى بعشرات الأساتذة والمعلمين والمربين والمدربين والوصفاء من مختلف بقاع الأرض ٠ وضعوا بين يدى الكتب والأحبار والأقلام والأوراق ، ووضعوا بين يدى كل تجاربهم وأنواع حياتهم فى بلادهم ، ووضعوا بين يدى كل أحلامهم

وأحزانهم وأفراحهم ، كذلك وضـــعوا كل مخازيهم ونقائصهم ، كانت مخازيهم ونقائصهم تتفوق تفوقا امطلقا على فضائلهم حتى أن ـ نقائصهم لا فضائلهم ـ هى التى أوصـــلتهم الى رحاب القصـــور الســـلطانية ليمتعوا أنفسهم وأهليهم ، كان السلطان الأكبر يظن أن البلاد البعيدة ترسل النور والترقى فما أرسلت سوى البذاءة ، نصف السلاطين رباهم رعاع وسوقه تنكروا ـ بفضل مخازيهم ونقائصهم ـ فى زى رجال أفذاذ ومربين مهرة ٠٠ لم تنج طفولة سلطان من بصمات مخزية ، لكن الخزى سرعان ما تحول بقدرة قادر الى فضيلة توصل صاحبها الى القمم ! » ٠٠

أخذنى الذهول من هذه الفلسفة الشيطانية وصرت أرقب السلطان المرح فى بلاهة فيما أقول ارضاء لغريزة النفاق فحسب : « لو كانت هذه فلسفة أبيك أو جدك لما بقيت السلطنة تحت أقدامكم حتى الآن » ضحك السلطان المرح من سذاجتى وقال : « مخطىء من يظن ذلك ٠٠ هذه فلسفة كافة السلاطين يا عبيط ٠٠ لكن الأمر يختلف من سلطان لآخر حسب قدرة كل منهم على الاختباء وراء قناع ٠٠ أشهد أننى أنحدر من سلالة تجيد الاختباء وراء أقنعة صلدة لا يمكن كسرها بالحراب أو حتى بالبارود : « حماية البلاد ٠٠ حماية الخلافة ٠٠ حماية الشعائر ٠٠ حماية الأقوات ٠٠ حماية الرفاهية ، التى لم توجد قط الا فى قصورهم ، حماية الأخلاق ، حماية لا أدرى ماذا ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ها ها ها ها ٠٠ ى ٠٠ أنا فى حقيقة الأمر ، ولو دققت ، تجدنى أصلبهم جميعا قناعا ، وقناعى صـلب لأنه ـ ربما ـ ليس بقناع : اننى أحمى الهوى وحرية الهوى ٠٠ نعم من حق كل الكائنات أن تحيا على هواها وأن تعيش فى رغد ورفاهيـة أما كيف يحدث ذلك فهذه ليست مسؤوليتى ، ليست مسؤوليتى على الاطلاق ، فاذا كنت أنا صاحب النظرية والمنادى بها فكيف أكون مسؤولا عن تحقيقها وهى هدف كبير تعجز عنه كل سلاطين الأرض مجتمعة ، هل تصدق أن سلطانا واحدا مهما أوتى من قوة يستطيع حمل مسؤولية شعب برمته ؟ أنه بالكاد يستطيع حمل مسؤولية أسرته ،

فما بالك بى ؛ اننى أحتـاج الى من يعاونني فى تحقيق رفاهيتى وأنا سلطان » .

انتبهنا فاذا البازدار لا يزال واقفـا يتأمل السـلطان مثلى بنفس الاندهاش مما أدهشني أكثر ـ بنظرة خبيثة تقدم البازدار خطوة قائلا : « ها أنت ذا يا مولاى قد ظللت تحكم حتى جاءت الظهيرة ولم تقل لى ماذا نفعل فى أمر الأوز » . قال السلطان : « ابعثوا لكل أمير أوزة مشوية من الآن ، وكلمة مع كل أوزة موجهة منى الى أميرها ، أى كلمة حتى ولو كانت : كل عام وأنت طيب .. على أن يتم ذلك من الآن ودفعة واحدة حتى تكون كل أوزة مستقرة على مائدة الغداء فى بيت كل أمير ! » . قال البازدار : « سمعا وطاعة » ثم انصرف . « أهى على سبيل الصدقة يا مولاى ؟ » . قال السلطان : « لا يا عبيط .. هى على سبيل الطعم .. لقد دعوت الأمراء للمجىء ذات مرة فتخاذل نصفهم وترهل نصفهم ، وكنت أنوى الامساك بهم ليلة الأمس لولا أن الجاولى تأخر عن الخدمة . قلت : « وهل تظن أن الأوز سيجىء بهم ؟ » . قال : « طبعا لا أظن بل أعتقد .. أن الأوزة أمر استدعاء أقوى من أى أمر سلطانى آخر .. كل أمير سوف يظن أنه وحده صاحب الحظوة بالأوزة .. فلابد أن يجىء ليقول لى كلمة نفاق أو كلمتين .. ان الأمراء كلهم رعاع وتربية نخاسين ، ولكنهم ينظرون الى بعين مشمأنطة لماذا ؟ لأننى خلعت الحياء فى نظرهم وهم قد الصقوه بوجوههم حتى أن ـ برقع الحيـاء ـ يعوقهم دائمـا حتى عند الاختـلاء بزوجاتهم ، أنه يصبح جزءا لا يتجزأ من شخوصهم العفنة ويضيقون به ولذا فهم يحقدون على لأن وجهى لا يطيق لبس البراقع ! .. وأنا أفهمهم وأعرف كيف أعاملهم وبأى أسلوب ، أن أول درس فى التربية السلطانية هو الشرب من آبار الخسة لاطلاقها عند اللزوم . البعض نجح فى اخفاء الخسة والبعض لا ينجح وكلاهما فى الحالتين سلطان متين ! » . قلت : « وهل ستقبض على كل الأمراء يا مولاى ؟ » . قال : « طبعا » .. يجىء متخما بالأوزة المشـــوية فيجلس بجوارى فاذا به دون أن يدرى قد وقع فى الحبس .. ان هروب الفخرى لن يمر بسلام أبدا » . وبينما نحن كذلك

اذ دخل البازدار الحاجب ينبىء عن قدوم « يكا الخضرى » فانتفض السلطان واعتدل وبدت عليه بشائر توتر مجنون وقال : لابد أنه يحمل أخبارا عن الفخرى .. كنت أعرف أنه هو الوحيد الذى سيلاحقه فى العريش وغزة .. أدخله فورا يا بازدار » . فاختفى البازدار ودخل « يكا الخضرى » فقبل الأرض بين قدمى السلطان وقبل قدميه ثم اعتدل واقفا وفى حركة مسرحية أبلغ السلطان نبأ القبض على سيف الدين قطلوبغا الفخرى . فجن السلطان فرحا وطلب منه الجلوس فجلس فأمر له بالشراب فقدم اليه . ثم دخل البازدار من جديد يعلن قدوم بعض الأمراء للسلام على السلطان . فنبه عليه السلطان أن يتلقى كل أمير بحفاوة بالغة وأن يصرفه بعد أن ينبه عليه بضرورة الطلوع الى الخدمة فى الغد . فلما تأهب البازدار للخروج استوقفه ثانية وأمره أن يكتب بحمل الفخرى الى الكرك . فلما تأهب البازدار للخروج استوقفه ثالثة وأصدر له أمرا بأن يخرج الأمير طشتمر الساقى حمص أخضر مقيدا فى محاره ـ مركب يشبه الهودج ـ ومعه جماعة من المماليك السلطانية موكلون . فتأهب البازدار للخروج ثم ارتد من نفسه متوقفا كأن السلطان قد استوقفه للمرة الرابعة لكنه انتظر برهة وجيزة ثم انصرف . وهنا مال السلطان على أذنى وقال : « الآن تغير موقفى من الأمراء .. لن أقبض عليهم فقد شـفى غليلى بالقبض على الفخرى » .

ازداد زحف الليل حتى دخلنا فى كهف الخمول والتعب فانصرف « يكا الخضرى » ونهض السلطان متجها الى غرفة نومه وبقيت جالسا مع الكركيين نلعب النرد . صرت أغلبهم واحدا وراء الآخر رغم ضعف مستواى فى اللعب ، ذلك لأنهم كانوا يلعبون بنصف انتباه أما النصف الآخر فقد انصرف الى حجرة نوم السلطان فلربما يطلب أحدهم ، من تقاليدهم أن المغلوب يتنازل للغالب عن دوره فى مرافقة السلطان ولكننى رفضت هذا التقليد واقترحت عليهم أن يقوم الغالب بضرب المغلوب بالكف على وجهه ، فان غلبه مرتين ضربه لكمه ، فان غلبه ثلاث مرات ضربه حتى يتعب من الضرب ، وهكذا نفست عن غيظى المكتوم ورحت أضرب

الواحد منهم لكمة ترديه على الأرض والآخر كفا يلسع صدغه حتى تعبت من الضرب واستراحت نفسى وكانوا هم أيضا قد تعبوا من اللعب وليس فى أعينهم ثمة نوم • قلت هذه فرصة أجعلهم فيها يحدثوننى عن مدينتهم الكرك هذه التى تعلق بها السلطان الى حد الوله ، فأخذ كل منهم يصف لى جزءا ، وأحسست أن أحدا منهم لا يعرف شيئا عن مدينته فقلت كيف بحق الله لا تعرفون شيئا عن مدينتكم ؟ • قال واحد : « ومن قال أنها مدينتنا ؟ » وقال ثان : « نحن ولدنا فيها فحسب » • وقال ثالث : « وأباؤنا ليسوا من هذه البلاد » • أخذتنى الدهشة وخطر لى أن أعيد اللعب معهم بشروط جديدة تتيح لى أن أضربهم بالنار مثلا ، وكانوا على وشك الموافقة لولا أن دخل علينا السلطان مرتديا ثيابه فانتفضنا واقفين فأمر الكركيين بتجهيز أمتعتهم والاستعداد ، ثم قال انه ذاهب لملاقاة الأمراء • وأشار لى فتعلقت بابطه بينما انصرف الكركيون فى سرعة •

مضينا الى حيث يجتمع الأمراء فاستقبلونا بترحاب تتضاعد منه رائحة الأوز المشوى • فحياهم السلطان وبشرهم بالقبض على الفخرى فتصاعد لغطهم واعجابهم • وتقدم السلطان من الخليفة الذى كان موجودا فسلم عليه وأخبره بأنه قد ولاه نظر المشهد النفيسى عوضا عن ابن القسطلانى ، وطلب منه أن يسافر معه الى الكرك ، فقال الأمراء جميعا وفى نفس واحد « الكرك ؟ •• الكرك ثانية ؟ •• فقال السلطان : « وثالثة ورابعة » فصمت الأمراء ونظروا الى بعضهم البعض • فقال السلطان أنه رسم لجمال الكفاة ناظر الجيش والخاص وللقاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر أن يتوجها معه الى الكرك ، فلم يعلق الأمراء بشىء • فعاد السلطان يقول أنه أمر ثمانية من المماليك السلطانية وخلع عليهم على باب الخزانة وخلع على الأمير شمس الدين أق سنقر السلارى وقرره نائب الغيبة وخلع على شمس الدين محمد بن عدلانى باستقراره قاضى العسكر وخلع على زين الدين عمر بن كمال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر البسطامى واستقر به قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن حسام الدين الغورى • ثم أنه أعطى اشارة البدء بالرحيل فخرج من القلعة

موكب فخم ضخم فيه كل شيء كأنه سفينة نوح العظيمة • من قلعة الجبل ركب السلطان وركب معه الأمراء وجيء لى بفرس سلطانى ركبته مثلهم. وبدأنا المسير تحت حراسة مشددة حتى اذا ما اقتربنا من قبة النصر خارج القاهرة توقف السلطان عن المسير فتوقف الأمراء وترجلوا وصاروا يقبلون يده على مراتبهم ثم رجعوا عنه ، فنزل فى الحال عن فرسه وجيء له بصرة ملابس فكها فاذا بها ملابس العربان وهى كاملة مفرجة وعمامة بلثامين ، تولى الكركيون مهمة الباسه الثياب التنكرية • فلما انتهى أشار للأمراء بالانصراف فانصرفوا جميعا ما عدا الأمير قمارى والأمير ملكتمر الحجازى والأمير أبو بكر والأمير عمر ابنى ارغون النائب وبعض المماليك السلطانية والكركيين ومملوكين اثنين • وكنت آخر من انصرف اذ تقدمت منه وهو بملابس العربان تعانقنا فنزلت دموعه على خديه ونزلت دموعى على خدى من ألم الفراق ، وظللت أرقب الركب وهو يختفى ويتحول الى نقطة باهتة وسط سحب الغبار الكثيفة •

البكاء ساعة الضحك..
قدر مصرى أصيل

حقا أن دمعة المصرى قريبة لا شك فى هذا ، سريعا ما تهطل الدموع من عينيه خاصة فى لحظات الفراق حتى ولو كان المفارق شخصا بالغ السوء والانحلال كالسلطان المرح أحمد بن قلاوون ، كنت فى الواقع أريد أن أودعه قائلا : « فى ستين داهية ربنـا لا يردك ولا يرزأ الديار المصرية بأمثالك مرة أخرى » ، لكننى بدلا من ذلك عانقته والأدهى من ذلك بكيت ! هل بكيت من ألم الفراق حقا ؟ أم بكيت بغريزة النفاق التى تأصلت فينا حتى النخاع نحن بنى شلبى المساكين المعدمين ؟ واقع الأمر اننا معشر الشلبية من المصريين نضحك ونرسل النكات اللاهية ونحن تحت وطأة الظلم ، ونبكى حين ينحسر هذا الظلم ، فكأنما حبنا للعشرة والمودة أقوى من حبنا للانتقام ، يقول المثل الذى أرسله أجدادنا الخانعون : « أصبر على الجار السىء فلربما تجىء مصيبة تمسحه أو ينزاح هو من تلقـاء نفسه » . وقد تكفل الواقع المصرى التاريخى بتطبيق هذا المثل فى الديار المصرية تطبيقا حرفيا لا يخيب ولا يخطىء على مدى الأزمان ، فكل جيران السوء من سلاطين وأباطرة وأمراء وغزاة قد قام الزمن وحده بتصفية الحساب معهم ، فسلط بعضهم على بعض ، وقد نظن أو يظن غيرنا أننا

انسحبنا من الساحة وتركنا الزمن لوحده فى مواجهة الخصوم ٠٠ لا بل لقد دفعناه دفعا الى الانتقام لنا ، ان سألنى أحدكم كيف ذاك يا طرشجى يا حلوجى فسوف أترك الكتاب عن يمينى والتفت قائلا له : « لا أعرف » ، ولكن ثمة سلوك من جانبنا كمصريين لعله سرى أو لعله كامن فى لا وعينا حتى اننا نسلكه دون أن ندرى وهو سلوك يفسر معنى ترك الانسان خصمة للزمن ، ان معناه بكل بساطة ترك الخصم أى التخلى عنه وعن مساندته أو تعضيده أو تأييده على الحقيقة وان بدا فى سلوكنا الظاهرى غير ذلك ، فاذا ما وجد الخصم العنيد القوى أن ليس فى مواجهته أحد طغى وتجبر وطلع بنفسه الى شاهق يهوى منه مكسورا محطما ، لكن ـ يسألنى أحدكم أيضا ـ لماذا دون غيرنا من أهل الأرض اكتسبنا هذه العادة ؟ يقول لكم الطرشجى الحلوجى بقلب كسير اننا طول عمرنا لم يكن لنا بالسلطة شأن ، فثمة من يصارع السلطان دائما ولكنه من غير أهلنا ، أنه من الأمراء ومن الباحثين عن السلطان ، ويتصارع أهل السلطة والسلطان ما شاء لهم الصراع .أما نحن فنبقى بعيدا كأن الأمر لا يعنينا وهو بالفعل لا يعنينا ولكننا حين تمتد يد الى الرغيف الذى بأيدينا فاننا حينئذ لا نخشى الطراطير ولا نهاب الطرابيش ٠

تكررت المرئيات فى ناظرى من خلال الدمـــوع التى هى غير ذى موضوع ، ثم أن المرئيات صارت تكتسب لونا كآبيا ويتباعد بريق الأبهة عنها ليعلوها صدأ شديدا للزوجة والقتامة وله رائحة الرطوبة ، فتباطأ الخطو وآب كل شىء الى سكون فاذا بى راجل وكنت من برهة أمتطى صهوة جواد سلطانى عريق ، اختفى ركب الأمراء الذى كان فى وداع السلطان أحمد بن قلاوون أمام بوابة القصر خارج القاهرة فى طريقه الى الكرك ، اختفى تماما واختفى كل شىء ولكن المكان لم يختف على الاطلاق مما جعلنى أتشبث به للوثوب الى لحظة واعية ، ها هى ذى بوابة النصر لا تزال واقفة شامخة وان علاها الصدأ ، ولكن روح الحياة غادرتها تماما ولم يبق سوى روح التاريخ وحدها ، وكانت الساحة الموصلة للبوابة كأنها تنين خرافى والبوابة فى فتحته ، وثمة عربة كارو واقفة على اليمين

فوقها كلوب شاحب وأقفاص البلح الأمهات وصعيدى ذو شارب كبير غليظ يجلس واضعا ساقا على ساق يدخن الجوزة وبجواره ابنه يرص له الحجر المعسل وزوجته تنيم طفلين وتداعب ثلاثة وحماره يأكل من زكيبة معلقة فى رأسه ورائحة الصنان تختلط برائحة التبن برائحة الرطوبة برائحة البلح برائحة عرق زاخم ، ومخازن لابد أنها ملك لواحد من ملوك المال فى شارع المعز ، وقال صاحب الكارو عندما رآنى واقفا حائرا مذهولا : « دى بوابة النصر يا خواجة » ، فضحكت قائلا له أن الخواجة ليس فى حاجة الى معرفتها انما أنا مصرى ولذا لا أعرف شيئا عن تاريخ مدائنى العظيمة ، ثم اننى نظرت عبر البوابة التى تشبه الفسقية فرأيت طريقا يكاد يكون زراعيا ويكاد منظره على البعد يقنعك أنك سوف ترى الخلاء الفسيح منطرحا أمامك ، حاولت البحث عن أثر لموكب السلطان أحمد الذى اندفع خارجا منذ برهة فلم أجد سوى سيارات تمر مسرعة كالقذائف ، عبرت البوابة الى الشارع فصرت فى عرف الخريطة التاريخية القديمة خارج القاهرة ، ووالله وبالله وبحق جلاله وغناه لقد داخلنى الاحساس بالخوف كأننى قد لفظتنى المدينة أو كأننى تسربت هربا منها ، فصرت أمشى بجوار السور الهائل الارتفاع الذى ينتهى فى أعلاه بكرانيش وفتحات يداخلنى شعور بالرهبة كأننى أحتمى به منه ، هو سور شاهق الارتفاع يصافح نظر القادم من آخر الدنيا ليقول له قف مكانك وأحفظ مركزك والا اصطادتك عيونه الصقرية المتخفية ، ابتعدت قليلا عن السور الى نهر الشارع المسمى بشارع البنهاوى وكنت أعرف أن حى البغالة على يمينى وسور القاهر على يسارى ولكن لا أدرى لماذا خيل الى أنه الفراغ عن يمينى وانه الأمان عن يسارى ، فانحزت من جديد الى السور وقد داخلنى شعور غامض بأن البوابة سوف تغلق بالضبة والمفتاح بعد برهة ، وهكذا قال لى منظر البوابة التى أخذت تقترب هى بوابة الفتوح طبعا على مبعدة أمتار قليلة من بوابة النصر ، منظر البوابة يقول انك ان خرجت منه فليس من السهل أن تدخله ثانية وان دخلته صرت فى مأمن تام ، حودت يسارا ودخلت من البوابة وهى بكامل قوتها على جانبيها جداران سميكان جدا

ومزخرفان بنقوش معقدة . أمسكت الجدار بيدى الاثنتين من بروز له فاذا به باب البوابة الحديد قد التصق بصدغ الباب ورسخ فى الأض رسوخا .

عرفت أن الزمن قد هرم فوصل بى الى القرن الرابع عشر الهجرى الذى ولدت فيه وعشت ، وأن الزمان الهرم لا يستطيع أن يضفى على الأبنية الراسخة ظلاله الكريهة أبدا فهى وليدة زمن صبى ملئ بالشباب .

وكان السلطان المرح أحمد بن قلاوون لا يزال عالقا بذهنى فتذكرت أننى كنت منذ وقت قليل أتمنى أن يزايلنى ذلك الزمن البعيد لأصعد الى زمنى فلما وجدتني فيه عاودنى الشعور بالقرف والخواء والضياع بل أطبقت الكآبة على صدرى وقال صوت بداخلى مفسرا هذه الكآبة أن من عاش القاهرة فى أوج ازدهارها لا قبل له باحتمال رؤيتها على هذه الحال . انحزت يسارا فاذا بالبرج الذى كنت أراه خارج السور وأتصوره أحد أبراج القاهرة القديمة هو احدى مئذنتين جميلتين عظيمتين لجامع يمتد من لصق بوابة الفتوح على مساحة هائلة والمئذنتات متقابلتان احداهما فى أوله والثانية فى آخره ، أمام المسجد رحبة تستقل عن الشارع تتسع لثلاثة آلاف من المصلين قبل أن تدلف الى باب الجامع الذى يشبه باب غار سحرى يؤدى الى لحظة خالدة صافية ، عرفت أن هذا هو جامع الحاكم أو الجامع الأنور الذى أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله وأطلق عليه الجامع الأنور قياسا على الجامع الأزهر وكان هدفه فيما يقول صديقى « ستانلى ليبول » أن يسحب البساط من تحت الجامع الأزهر الذى صار معقلا لأهل السنة وجامعة تنشر تعاليمهم ويضعه ـ البساط ـ تحت الجامع الأنور ليصير جامعة جديدة لأهل الشيعة والمذهب الفاطمى بعدما سيطر السنيون على الأزهر .

تسمرت فى مكانى واقفا وأنا أرى العمل قائما على قدم وساق ، وثمة ناس يقومون بالعمل ليسوا أبدا من الفواعلية الذين تعرفهم بلادنا وليسـوا كذلك من الخواجات انما هم طائفـة تلبس القميص والسروال

الأبيضين النظيفين وطاقية شبيكة بيضاء أيضا ويضفرون شعر ذقونهم ، عجبت من نظافتهم قبل غرابتهم وكيف يتعاونون فيقومون بعمل لا يقوم به سوى الأنفــار المؤهلين لذلك قوة أبدان وغلظة أيدى • اثنان اثنان يحملان مقطفــا مليئــا بالطوب أو التراب أو الحجارة رائحين عائدين ، والسقالات منتشرة على الجدران والعمران يطل من داخل الجامع الأنور ، وعرفت أن هؤلاء هم الباكستانيون الذين أخبرتنا جرائدنا وصحفنا بأنهم يتطوعون باحياء هذا الجامع من جديد على نفقتهم الخاصة ، هم على وجه التحديد طائفة تسمى البهرة لها نسب عقائدى وثيق بالمذهب الشيعى من احدى فصائله والله أعلم ، من بينهم المهندس والطبيب والعامل والمدرس والأستاذ والمتصوف ولكنهم جميعا يرتدون نفس اللباس ونفس الروح السمحة ونفس الطاقة المحركة ، ثمة شاب نظيف يقف على مبعدة بيده حقيبة ، رأيت فى نظراته ترحيبــا بتطفلى فبادلته بعينى نفس الترحيب والتقدير على ما يفعلون ، وأحببت أن أبلغه مشــاعرى تجاه التفانى فى العقيدة والصدق فى حملها الى أقصى الحدود ، اقتربت من الشاب قائلا : « سلام عليكم » ، فرد على بلهجة أعجمية لكنها سليمة النطق : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، طريفة ولذيذ وجميلة هى الحروف العربية حين يتلوى بها لسان أجنبى وينساب رغما عنه مع موسيقاها المرنة المحملة بالمشاعر المكثفة • قدمت نفسى اليه فيما أسلم باليد قائلا : « محسوبك ابن شلبى » ، فهز رأسه مستقيما فقلت : « الحنفى المصرى » ، فهز رأسه يطلب مزيدا من الاستفهام فقلت : « الطرشجى الحلوجى » فانبهم على وجهه وجمدت ملامحه فعرفت أنه لا يعرف اللغة العربية فسألته كم لغة يعرف فأشار بأصابع ثلاثة وردد أسماء الاريه والانجليزية واللاتينية ، فسألته هل يقرأ القرآن ؟ » فقال : « القرآن الكريم من فضلك » ، قلت : « من فضلك أنت » ، قال أنه يقرأ بعض آياته بقدر الامكان لكنه قال ذلك بالاشارة وحدها ، أثناء ذلك مر علينا كثير من الباكستانيين يهزون رؤوسهم بالتحية فى وداعة خرافية ، والشاب الذى يكلمنى تطل من عينيه أسئلة كثيرة ورغبة ودودة تريد أن تتصل على الوجه الصحيح ، فعجبت

كيف يحدث الاتصال وعدم الاتصال فى نفس الآن وقلت أن عصرنا هو عصر العجائب ثم عدت فقلت أن التاريخ المصرى برمته سلسلة لا تنتهى من العجائب ولذا فان العصور غير متصلة على ساحة الوجدان وان بقى منها فى المجتمع عمود فقرى هو على التحديد النظام المملوكى ، انه كقطعة العظم المختفية بداخل اللحم كلما اجتثها ساطور التاريخ نبتت من جديد وتمددت لتصبح هى العصب الحقيقى ٠

فجأة تغير منظر الباكستانيين ومنظر الشارع كله فصـــار نظيفا وجديدا وأنار الجامع بأبهة عظيمة ورأيت أكثر من ثلاثة آلاف رجل يقبلون من شارع المعز نحو الجامع ٠ قلت : « أهى مظاهرة ؟ » رد على واحد من خدم المسجد يقف فى استقبال المواكب الكبيرة : « انه أمير المؤمنين فأوسع أوسع أو أدخل الى الصلاة ٠٠ أنه العزيز بالله نزار بن الخليفة المعز جاء يصلى أول جمعة فى المسجد بعد اتمام بنائه » ٠ نظرت فرأيت العزيز بالله نزار يركب جوادا وبجواره جواد آخر يركبه طفل صغير عرفت أنه ابنه المنصـــور الذى سمى فيما بعد بالحاكم بأمر الله ، وكانت مظلة الخليفة مطروحة على المنصور وحده ، نظرت فى ساعتى فوجدتنا فى يوم الجمعة لأربع خلون من شهر رمضان سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ، فما أن وصل الخليفة نزار الى باب المسجد حتى ترجل وخلع حذاءه وسلمه لأحدهم وكذلك فعل ابنه المنصور ثم تدفق الجمع وراءهما وان هى الا برهة وجيزة حتى اكتظت الساحة الأمامية بالآف المصلين يجلسون فى خشوع تتصاعد منهم رائحة النظافة ، وتداعى الى سمعى صــوت العزيز بالله نزار وهو يخطب الجمعة فأخذت أبحث لنفسى عن مكان يتيح لى الاستماع جيدا ولكن الزحام تكاثف وراح يدفعنى الى الوراء كلما خطوت الى الأمام ٠ وغشيت عيناى فما نظرت شيئا ولكننى حين فتحتهما وجدت زحاما من نوع آخر غير كثيف قوامه عشرات من المعممين والمطربشين ولابسى الحلل الثمينة ، ميزت من بينهم الوزير يعقوب بن كلس وزير الحاكم بأمر الله وكان يتفرج على منظر الجامع الذى تضخم حجمه وزيد فى بنيانه وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربعة وكثير من فتايل فضة

وفرش جميعه بالحصر التى عملت له ونصب فيه المنبر وتكامل فرشه وتعليقه ، تمسحت فى الجموع الواقفة تتفرج كأنها تقدر بناظريها حجم المدفوع فى تكملة الجامع • وقال الوزير يعقوب بن كلس ان الجامع بلغت نفقاته خمسة آلاف دينار • نظرت فى ساعتى فوجدتنا فى ليلة الجمعة سادس رمضان سنة ثلاث وأربعمائة ، ثم تكهرب الجو فجأة واذا بشخص أزرق العينين حاد الملامح نحيف القوام لولا بذلته الفاطمية المطرزة بالذهب والدر والياقوت لقلت أنه أحد ممثلى السينما العالمية مظهره ورهبته والخوف المحيط بركبه كل ذلك قال انه الحاكم بأمر الله ، لم يكن فى الشارع سوى صوت خطواته يرن على الأرض المبلطة بالأحجار وثمة من يتقدم من العامة فيقبل يد الخليفة ويعطيه ورقة مطوية يضعها الخليفة فى جيبه ويمضى • استقبله الواقفون على رأسهم الوزير يعقوب • فقال الحاكم أنه اذن لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا اليه ، ثم اختفى بداخل الجامع وصار الناس يخرجون من الجامع بكتبهم ويقولون لبعضهم أنهم يتوجهون الى الجامع الأزهر للحاق بالدرس الفلانى ، وآخرون يقبلون قائلين لمن قابلهم أنهم قادمون من الجامع الأزهر للجامع الأنور ، وكان هؤلاء وأولئك يتوقفون برهة طويلة لمعاينة الوضع الجديد حيث انتقل باب الفتوح الى الخارج وبعد أن كان الجامع خارجه صار بداخله ، فلما استدرت لأنظر مثلهم فوجئت بفنان يقف على سلم طويل وبيده حقيبة ملآنة بآلات دقيقة كالفرش والأقلام • وتلفت حولى فوجدت الجمع غير الجمع والملابس غير الملبس ووجدت الفنان يكتب على البدنة التى تجاور باب الفتوح : « ان ذلك بنى سنة ثلاثين وأربعمائة فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش » ، فنظرت فى ساعتى فوجدتنا فى نفس السنة المذكورة • تراجعت الى الوراء بعض خطوات ثم اقتحمت الجامع من الداخل فوجدت به فسقية كبيرة تمتلىء بمياه النيل فقلت من الذى بناها يا رجال ؟ فقالوا أنه الصاحب عبد الله بن على بن شكر ، فلما ابتعدت عنها لأتأملها من بعيد صارت تتقلص ويعلوها الغبار واذا بأنفار من الفواعلية يقبلون نحوها بالفؤوس ويعملون فيها هدما وتقويضا فصرخت فيهم : « من الذى

أمركم بهذا ؟ » . قالوا : « قاضى القضاة تاج الدين بن شكر » . قلت : « فلماذا هذا يا رجال ؟ » . قالوا : « لتوسيع الساحة حيث كثر عدد المصين » وقال آخرون : « بل لأنهـا جميلة وتستلفت انتبـاه المصلين وتستحوذ عليهم ولذا وجب هدمها » . وقال بعض ثالث : « بل هدمها ليكتمل جمال الساحـة الكبيرة » ، ووجدت عـدد المدافعين يوازى عدد المهاجمين لمن هدم فخفت من احتدام التناقض وخرجت فاذا بالملابس قد تغيرت أشكالها بعض الشيء على أجساد المارة والمعروضات قد نقصت فى حوانيت الشارع واختلفت معالم الحوانيت وأضيف الى الجامع قطعة زائدة أذهلنى مرآها لأن بعض أبراج صغيرة لكنائس صغيرة أيضا كانت ترتفع من هذه القطعة الزائدة ومنظرها غير متوافق أبدا مع منظر الجامع الأنور ، لاحظت تذمرا واضحا على وجوه المارة فوقفت صائحا : « وما هذا العبث ؟ صحيح أنه عبث يليق بالديار العصرية ولكن ما هو بالضبط ؟! » . قال واحد من المارة : « هذه القطعة الزائدة بناها الخليفة الظاهر ابن الخليفة الحاكم ولكنه لم يكملها » . قلت : « حسنا ــ ومن جاء بهذه الكنائس ؟ » . قال : « هو أيضا منه لله تسبب فى وجودها » . قلت : « كيف بحق الله ؟ » . قالوا : « لقد حبس فيها بعض الفرنج الذين أسرهم فعملوا فيها هذه الكنائس ؟ » . صفقت يدا على يد وقلت ضاحكا من المرارة : « هذا والله شيء طريف .. كيف يحبسهم ها هنا ويسمح لهم بذلك ويستمر كل شيء كما هو ؟ ، ثم قلت : « ان التوافق بين المتناقضات فى الواقع المصرى قديم اذن « ورحت ألف وأدور حول هذه القطعة الزائدة الدخيلة على هذا النسيج المنفرد واذا بى أرى الدنيا قد تغيرت وجنودا ترتدى الزى الأيوبى وهياجا يقترب فى مقدمهم ورجالا يحملون الفؤوس والكريكات وفى حراسة الجنود ينهالون على هذه القطعة كلها هدما وتقويضا فاقتربت من الجنود وقلت : « من الرجال ؟ » . قالوا : انهم جنود الملك الناصر صلاح الدين . قلت : « تحية له على غيرته » . قالوا : « نعم هو رجل شاطر لا يعجبه الحال المائل » . قلت : « طبعا .. وأظنه سوف يلحق هذه القطعة بالمسجد بعد بنائها من جديد ؟ » . قالوا : « لا .. سوف يبنيها اصطبلات » . فما أن أتموا كلامهم حتى صار زمنهم يتقادم ويمعن فى

التقادم وأرتال من الخيل وركائب الغلال تقبل وتدخل • وبينما أبحث عن حانوت يقدم لى دكة خشبية أستريح فوقها من التعب المفاجىء اذا بالأرض تترجرج كأننى أقف فوق السلم الكهربائى فى محل عمر أفندى فى القرن الرابع عشر الهجرى ، حاولت أن أتماسك ولكن الأرض صارت تسحبنى بالمكان وتتقدم بى واذا كل شىء يترنح ويتهاوى واذا بالرعود تقصف السماء والمنشآت والبشر ، وأدركت أن زلزالا حل بأرض مصر والقاهرة وأعمالها ، رجف كل ما عليها واهتز • للحيطان قعقعة وللسقوف فرقعة ، دارت الأرض بما عليها وخرجت عن مكانها ، تخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض فهربوا من أماكنهم وخرجوا عن مساكنهم وبرزت النساء حاسرات ، كثر الصراخ والعويل ، انتشرت الخلائق فلم يقدر أحد على السكون والفرار لكثرة ما سقط من الحيطان وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الأبنية ، وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد ، وألقى ما كان فى المراكب التى بالساحل قدر رمية سهم وانحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء ، هكذا قال لى المقريزى بالحرف الواحد وهو ، يقبل من بين الجمهور المذعور ، اجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة وباتوا ظاهر البحر بحرمهم وأولادهم فى الخيم • خلت المدينة وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل ، قام الناس فى الجوامع يبتهلون ويسألون ، يسألون الله سبحانه ، عدت أنظر فى ساعتى فوجدتنا فى يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة اثنين وسبعمائة ، فلما هدأت الأرض من روعها دخلت الجامع الأنور على حذر فرأيت أنه سقط كثير من البدنات فيه وخرب أعالى المئذنتين وتشعثت سقوفه وجدرانه ، وكانت ليلة الخميس قد مرت والجمعة أيضا قد مرت ونحن نبتهل أمام الجامع حتى حضر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ومعه القضاة والأمراء فأمر بترميم ما تهدم منه واعادة ما سقط من البدنات ، وقال انه قد جعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الاسكندرية تغل كل سنة شيئا كثيرا ، وأنه قد رتب فيه دروسا أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ودرسا لاقراء الحديث

النبوى وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين اجوانى ـ وفى درس الحديث الشيخ سـعد الدين مسـعود الحارثى . وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان . وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى . وفى التصدير لافادة العلوم علاء الدين على بن اسماعيل القونوى ، وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب ، كما أوصى بعمل خزانة كتب جليلة وتعيين عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ومعلم يقرىء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . ثم أمر بحفر صهاريج بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل ويسبل منه الماء فى كل يوم ويستقى منه الناس يوم الجمعة ..

صممت على البقاء لرؤية ما يتم اذا بموجة من الذعر تدب بين العمال والفواعلية الذين شرعوا فى ترميم لجامع ، كان الصياح المذعور قادما من البناة الذين يرممون المئذنة التى هى من جهة باب الفتوح ، طلعت أجرى نحوهم وصعدت اليهم بواسطة السقالات فرأيت العجب العجاب : فقد ظهر لهم ـ للبناة ـ صندوق فى تضاعيف البنيان ، أخرجه الموكل بالعمارة وفتحه فاذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هى ، والكف طرية كأنهما قريبة عهد بالقطع ، ثم سمعت البناة يقولون فى همس ان هذا شىء لا ينبغى كشفه ولكننى لم أعرف ما الذى فعلوه باليد المقطوعة هل أعادوها الى تضاعيف البنيان أم دفنوها فى الأرض ، ربما لأننى انشغلت بحادث آخر اذ وقعت من أحد الجدران قطعة حجر كبيرة منقوشة عليها هذه الأبيات نقشا شبه سرى : « أن الذى أسررت مكنون اسمه .. وكتمته كيما أفوز بوصـله .. مال له جذر تساوى فى الهجا .. طرفاه بضرب بعضه فى مثله .. فيصير ذاك المال الا أنه .. فى النصف منه تصاب أحرفه كله . وإذا نطقت بربعه متكلما ..

من بعد أوله نطقت بكله ·· لا نقط فيه اذا تكامل عده ·· فيصير منقوطا بجملة شكله » ·

فلم يفهم أحد هذه الأبيات اللغز فى الحجر الكريم · نظرت فى ساعتى فوجدتنا فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، ورأيت جنودا من المماليك يهجمون على دار أنيقة جدا فى مواجهة الجامع الأنور قالوا أنها دار « محمد الهرماس » المكلف بالأشراف على ترميم الجامع الأنور ، وكانت ساعتى تشير الى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذى القعدة من السنة المذكورة حين رأيت الجنود يسحبون الهرماس وولده وينهالون عليهما ضربا بالمقارع والعصى حتى سقطا مغشيا عليهما · ثم ينصرف الآخرون الى الدار فيعملون فيها الهدم · فقلت ماذا حدث لهذا الرجل — أقصد ما الذنب الذى جناه هذا الهرماس ؟ قالوا لقد : اختلس من أموال وقف الجامع وأثرى على حسابه ، فقلت من قرف وغيظ : « اذن فالتلاعب فى أموال الوقف قديم وعريق ! » · فلم يرد على أحد ولكننى أعجبت باسلوب العقاب ومدحته قائلا أن أمثاله يجب ألا تأخذنا بهم شفقة ، فقال أحد الجنود أن الهرماس وولده سيتعرضان بعد ذلك لاعجب محاكمة فى الدنيا ·· ثم أنهم انصرفوا جميعا ولم يبق فى الشارع سواى وبعض السابلة فجلست على دكة خشبية خرجت من دار الهرماس سليمة لأنها دكة خشبية فحسب ، ورحت أرقب الجامع الأنور وهو يستقبل طبقات الصدأ والغبار وتتراكم عليه الأزمنة فى قسوة ودون رحمة ، رأيت الميضأة الصغيرة تتحول الى مخزن تعلوه طبقة ويجلس أمامه واحد من الباعة تقدمت منه وسألته اسمه فقال : « ابن كرسون المراحل وشغلتى بائع غلال » ، قلت له : « كيف تستولى على ميضأة الجامع ؟ » · قال : « سوف ابتنى بدلا منها ، ولى زميل سوف يجدد المئذنة بأعلى الباب المجاور للمنبر » · تركته وانصرفت فظللت أرفع القدم من أكوام التراب لأضعها بين قطع الحجارة وأتساند من فرط الاعياء على بعض المارة وما أن خرجت من الركام حتى فوجئت بالباكستانيين يواصلون العمل فى جد ومثابرة يحسدون عليها ··

اتخذت طريقى فى شارع المعز وقد بلغ بى القرف أقصى مداه وأنا أقول لنفسى كم من الأبنية العظيمة والمنشآت التاريخية فيك أيتها القاهرة تنتظر من يرفع عنها حيف الأيام وقسوة الأبناء وجهلهم بها ؟ ترى هل تنتظر أقواما آخرين يحضرون لاحيائها ؟ بصقت فى الشارع الملآن بتجار الانفتاح ، عربات الهوندا والنقل الكبيرة والكارو والمرسيدس تفرغ رجالا ذا كروش وهيئات لا جمال فيها ترتدى الملابس الأمريكانيـــة والنظارات البرسول ولا تعرف القراءة ولا الكتابة ولكنها تحسب المكاسب ببراعة . سوق الليمون يتلاشى ورائى لتقبل الجمالية بمقاهيها وغرزهـا وأرانى مدفوعا الى الجلوس فى أحد هذه المقاهى وأجلس بالفعل لأرى الزبائن يدخنون الحشيش فى نظام دقيق وترتيب أدق ، وأرى أمنـاء الشرطة ومعاون مباحث القسم يمشون يقتادون رجالا منكسى الرؤوس قيل انهم كانوا يشترون قطع الحشيش أو يبيعونها ! .. فقمت من فورى واستأنفت السير حتى وصلت الى عطفة بيت القاضى واذا بى اصطدم وجها لوجه بالأمير خزعل يسير مطاردا لامرأة ملفوفة في ملاءة سوداء . فصاح قائلا : « كنت فين يا جدع ؟ » . قلت له : « كنت بأوصل السلطان أحمد » قال : « تعال تعال » . وسحبنى من ذراعى ومضينا ندخل زمن السلطان أحمد بن قلاوون من جديد .

الفصـــل العشرون ..

ليل القلعة .. وقلعة الليل

يعلق الزمن بأطراف الذاكرة الانسانية كالعسل كالجراثيم كالصمغ كالوباء ، أحيانا يصعب على الذاكرة التخلص من لزوجته ، وأحيانا يصعب عليها ايجاد هذه اللزوجة ! أســير بجوار الأمير خزعل أمير الحبس فى خزانة البنود ورئيس دولتها فى الواقع ، نجتاز كل الحوارى الفرعية وهو يرى خزانة البنود مقبلة عليه وأنا أرى بدلا منها جامع الحسين بن على الكائن بميدان المشهد الحسينى ، وهو مقبل على دولتـــه وأنا مقبل على دولتى ، فاذا كانت خزانة البنود هى دولة خزعل التى تأتمر بأمره وتعبث فى الديار المصرية فسادا بأمره ولحسابه فان جامع الحسين بن على الذى بنى فوق هذه الخزانة فى زمن تال بعد أن تطهرت البقعة برأس الحسين تعتبر دولتى التى تأتمر هى الأخرى بأمرى ، أيا كان شكلى أو حالتى المادية أو ظروفى النفسية فان المشهد الحسينى سوف يستقبلنى فاتحا ذراعيه ، وان تخبطت بعربتى فى الميدان ملخوما أو مذهولا فان عشرات المئات من عامة الحاضرين سوف يشاركوننى فى القيادة وهم جلوس فى أماكنهم . أكثر من واحد يتطوع قائلا لى : « هات ورا هات .. هات كمان » وطفل صغير تتلبسه روح أستاذ حكيم فيقول لى بحنـــو عظيم : « اكسر كله يا بيه .. لا لا .. اكسر هناك يمين .. أيوه كده .. اتكل على الله » .. وهكذا تتحول لحظة لخمتى الى مظاهرة شعبية كبيرة لا يمكن أن يكون لها

مثيل فى أى بقعة فى العالم ، أركن عربتى فى أى مكان وأهبط الى ميدان المشهد الحسينى لأجلس فى احـــدى مقاهى الميدان أتكلم مع الجالسين فكأننا أخوة تلاقوا بعد غياب ، أرى هذا كله وأرى ضجيج شارع الأزهر رغم أن جدران خزانة البنود تقف وسط بؤرة صورة المشهد الحسينى ، ثمة معالم قليلة قد تغيرت ، وثمــة أبنيـــة قد أزيلت فيما بين العصرين فخلفت حوارى ضيقة وشوارع ناشئة تتعثر فيها أقدامى وتبعد جسدى عن جسد الأمير خزعل الذى يمضى خلال زمنه فى سهولة ويسر ، الواقع تعبت وتمنيت أن تتخلص جدران الذاكرة من بصمات أحد الزمانين ، ولكن سرعان ما كانت الأبنية التى بنيت فيما بين الزمانين وتفصلنى عن خزعل السائر بجوارى تختفى الى الوراء فاذا بأبنية كانت قد أنهدمت فيما بين الزمانين تنشــــأ فى ناظرى أقوى من هذه الأبنية الحـــديثة فيتحاذينى خزعل من جـــديد • اجتذبنى الضـــوء الخفى فاندفعت داخـــلا وقـــد وفر فى ذهنى لحظتهــــا أننى أدخل جامع الحســـــين بدليـــل أننى خلعت حذائى وأمسكته تحت أبطى ، اذ بخزعل ينفجر فى ضحك تهتز منه الأرض ، فلما أفقت من ذهلتى فوجئت بأننى خرمت فى اجساد بعض أهل الخزانة الجالسين أو النائمين فى حالهم ظنا بأنى منوجه الى ايوان القبلة ، فى حين ليس فيه ايوان ولا قبله • قلت لمن دست فى احشائهم : « عفوا يا أسيادى فقد ظننت أننى أمشى فى صحن مسجد الحسين ! » • ثم قلت : « عذرا يا أخوانى فقد كنت أظن أن الانسان يحمل بيئته معه أينما ذهب والآن أتضح لى أنه يحمل زمنه أيضا بنفس القدر ان لم يكن أكبر » • قال خزعل بحذق فيلسوف متوحش : « العادة أننا نعير الانسان بسوء بيئته فهل نعيره كذلك بسوء زمنه ؟ » • قلت : « طبعا يا أميرى •• صحيح أنه يصعب على معرفة ما اذا كانت البيئة أبنة للزمن أو كان الزمن أبنا للبيئة ولكننى على يقين بأن الزمن هو المعبرة الكبرى حين يســـوء مناخه وتكثر هزائمه وخفافيشه ومصاصو دمائه •• وعلى فكرة يا اميرى •• من وجهة نظرى أن سوء البيئة لا يجب أن يكون معبرة للانسان لأنه فى

العادة ليس مسؤولا عنها تماما ، وكذلك الزمن » · لحظتئذ كانت يد خزعل قد رفعتني من الأرض وألقت بي على كرسي في مقصورته ··

قال فيما يجلس أمامي : « ما الذى تعلمته من تجربتـــك كمملوك سلطاني لدى السلطان أحمـــد بن قلاوون ؟ » · قلت : « والله يا أميرى لا أستطيع الاجابة الآن ، فلعلنى قد تعلمت الكثير ولكننى لم أكتشف ذلك بعد ولا بد أننى سأكتشفه في حينه » قال خزعل : « هل بلغتك آخر أنباء سلطانك ؟ » · قلت : « منذ ودعته عند بوابة النصر في طريقه الى الكرك لم أعرف عنه شيئا ·· وعموما فهى كلها مجرد لحظات » · وقال خزعل : « كيف يا رجل ·· أنك تغيبت عن زماننا أياما طويلة وقد بحثنا عنك خلالها في القلعة وفى كل مكان فلم نجدك فعرفنا انك لابد سقطت فى بئر الزمن » · قلت : « يبدو أننى اختطفت بعض ليالى قضيتها بين زوجتي وأولادى أثناء حضورى افتتاح الجامع الأنور » · قال خزعل : « ولكن مخالطة الزوجة والأولاد أمر لا بد أن يكون مؤكدا ولا تناســبه صيغة كهذه » · قلت : « قد تدهش اذا قلت لك يبدو أننى متزوج ولدى أطفال الشيء الوحيد الذى أستطيع تأكيده والجزم به هو أننى أعول أسرة كبيرة »· قال : « هو زمن يليق به السب » قلت : « فلا تعيرنى به والا فان زمنك هذا يكون معيرة لأبناء الديار المصرية قاطبة وفى جميع الأزمنة » · قال بلهجة حاسمة وفي محاولة للانتقام : « ولكن كيف لا تكون لديك آخـــر الأخبار ·· أنك لابد أن تكون مزودا على الدوام بآخر الأخبار والا فأنت لاتصلح لما وضعت نفسك فيه » · قلت : « اهدأ يا أميرى فأنا مهما كان أستطيع تزويدك ببعض الأخبار الطازجة » · قال في شوق المتلهف على كأس خمر : « هات ما عندك » · قلت : « هل علمت أن السلطان المرح أحمد قد نكل بقطلوبغا الفخرى وحرض عليه العامة فأهانوه اهانة زائدة ، وكذلك أهانوا حريمه وأخذ أهل الكرك جميع ما معهن حتى ثيابهن وبالغوا فى الاساءة اليهن ؟ ·· وهل تعلم أن قطلوبغا الفخـــرى وحمص أخضر مسجونان الآن بقلعـــة الكرك ؟ ·· وأن السلطان قد انعكف على اللهو واحتجب عن النــــاس الا الكركيين ؟ » · ضحك ساخرا وقال : « هذا

كل ما تعرفه عن خارج الديار ؟ فماذا تعرفه اذن عن أمر الديار المصرية بعد غيبة السلطان ؟ » . قلت : « مبلغ علمى أن أكابر الأمراء صار عندهم تشويش كثير ، وأن آق سنقر نائب الغيبة بالديار المصرية أوقع الحوطة على موجود طشتمر حمص أخضر وقطلوبغا الفخرى وبعث به الى السلطان فى الكرك وان آق سنقر ترك الركوب فى أيام المواكب العامة نتيجة وقوعه فى تخوف عظيم حيث بلغه أن جماعة من المماليك الذين قبض على أستاذهم قد باطنوا بعض الأمراء على الركوب عليه ، فلم يزايله الخوف حتى اجتمع الأمراء عنده وحلفوا له ثم كتبوا للسلطان يبلغونه بأن الأمور واقفة فى غيبته كما قد نافق غالب عربان الصعيد وطمع أرباب الفســاد وخيفت السبل وفسدت الأحوال وكان كتابهم فى خامس محرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .. وبالامارة أرسلوا الكتاب على يد الأمير طقشتمر الصلاحى وهو أحد المماليك الناصرية الذى كان قد تأمر وناب فى حمص .. وقد استطعت بأمر الله أنا الطرشجى الحلوجى أن أعرف جواب السلطان الذى عاد به الأمير طشتمر الصلاحى الى الديار المصرية .. لقد قال السلطان فى جوابه : أننى قاعد فى موضع اشتهى وأى وقت أردت حضرت اليكم .. وقد أدلى طقشتمر بتصريح اعترف فيه بأن السلطان لم يمكنــه الاجتماع به وأنه يبعث من أخذ منه الكتاب ثم أرسل اليه الجواب » ..

اكتفى «خزعبل» بالنظر الى الذين تحلقونا فانطلقوا ضاحكين ساخرين من تخلف أخبارى وعطانتها ، فى تأنيب وتقريع أشــار خزعل الى أحد الموشومين وقال له : « قل لسموه ـ يعنى أنا ـ ما تعرفه من آخر الأخبار التى تعد طازجة فى هذه اللحظة » . قال الموشوم : « آخر الأخبـار أن السلطان بالأمس قتل الأمير طشتمر الساقى حمص أخضر والأمير قطلوبغا الفخرى » . قلت محاولا انقاذ ماء وجهى : « ولكن أين التفاصيل .. فى قاهرة القرن الرابع عشر الهجرى يعلمون طلبة كلية الاعلام أن الخبر الصحفى لا بد أن يكون حافلا بالتفاصيل التى تجعل منه خبرا متكاملا » . قال خزعبل : « كلية اعلام ايه وبتاع ايه ياعم خليها على الله .. احنا هنا كلية لوجدنا .. أن أردت التفاصيل فهناك شاهد عيان قادم لتوه من الكرك

ممتطيا صهوة جواد نافر ... تعال يا ولد » ، فلما قدم الولد اذا به رجل على دزجة كبيرة من الأناقة والاحترام ، ابن ناس كما يبدو فكيف ينادى كما ينادى الدهماء ؟ • قدمه لى خزعل قائلا أنه أحـد مماليك السلطان الأب وكان السلطان الأب قد نفاه الى الكرك ليسهر على خـدمة أولاده هناك وحمل له السلطان أحمد كثيرا من البغضاء واستطاع أن يهرب فى زحمة المشهد الذى رآه ، وباعتباره هاربا فان من الطبيعى أن يلجـأ الى الخزانة لتحميه من عسس السلطان وجنوده وقد أعطته الخزانة حق اللجوء وفرضت عليه الحماية ومن غد سوف يمارس التجوال فى الديار المصرية بكل حرية ولا تجرؤ قوة فى الأرض حتى السلطان نفسه أن تنغص عيشه أو تنكل به •• هيه •• أكمل يا أخ ما شاهدته بمبنى رأسك فى الكرك » •

اعتدل المملوك السلطانى ولم تظهر عليـه علائم الضيق وقال : « كنت مسجونا بقلعة الكرك حينما انفتحت بوابتها وألقى فيها بالأميرين الكبيرين حمص أخضر والفخرى •• ولم يمض سوى وجبة واحدة أ ووجبتين حتى عرفت أن السلطان يهدف الى قتلهما بالجوع • فكنت أتنـازل لهما عن كسرة مما يخصنى فى الوجبات • لكنهما بعـد يومين بلياليهما لا يطعمان شيئا كسرا قيدهما وخلعا باب السجن بالقوة العجيبة فتدفق الليـل الخارجى فوق ليل السجن ، ثم خرجا الى الحارس فوجداه نائما فأخذا سيفه وهو نائم ، فلما أحس بهما قام يصرخ ويصيح حتى لحقه أصحابه وقبضوا على الأميرين الهاربين وأرسلوا يخبرهما الى السلطان •• لحظتها كان السلطان قد خرج للصيد •• فما أن سمع الخبر حتى أقبل فى زى العربان ووقف على الخندق وأحضرهما وقد كثرت بهما الجراحات والكدمات •• فلما وقفا أمامه لم يقبلا الأرض بين يديه كالعادة بل كانت البجاحة والنطاعة على وجهيهما •• راح السلطان ينظر اليهما فى احتقار من فوق لتحت لفوق ثم قال : « ما هذا الذى فعلتماه •• انطق أنت وهو •• انتفض حمص ورد على السلطان شتائمه لم يهتز السلطان بل هتف بكل هدوء : « يا يوسف •• يعنى الحارس — أمرتك بضرب عنقيهما ، ثم اسـتدار وابتعد ، واستدار يوسف أيضا وابتعد قليلا قوس السيف خارجا من

جرابه ثم انبرم يوسف حول نفســــه كراقص باليه درجة أولى ، فاذا بالرأسين المبجلين يطيران وخلفهما نوافير من الدم القانى تصــبغ الأرض ووجه السلطان ووجهى ووجوه الجميع ·· فاندفعت أجــرى كالمجنون ولم يعرفنى أحد لأن الدم كان قد صبغنى تماما وأخفى معالمى الحقيقية ، فلما وجدتنى قرب الأسطبل اقتحمته واختطفت فرسا أعرفه واختطفت ما صادفنى من أشياء ولم أتوقف الا هنــا فى هذه الخزانة ! » · قلت بهدوء : « كيف اذن نعرف بأمر الخزانة وأنت فى سجن الكرك » · قال باسما : « ومن فى المنطقة لا يعرف أمر الخزانة !! » ·:

نهضت واقفا فى حركة مسرحية ناظرا فى ساعتى كأننى تأخرت عن موعد شديد الأهمية · قال خزعل : « الى أين ؟ » · قلت : « الى القلعة طبعا ·· لابد أن أكون حاضرا هناك الآن لأقدم تقــريرا عن فترة غيبتى والا ظنــوا أننى تسربت فى ركاب السلطان الى الكرك » قال خزعل : « فمتى أراك ؟ » · قلت : « سوف اتصل بك فى أقرب فرصة » قال : « توكل على الله » · أحنيت رأسى بالتحية وانطلقت أجرى فى اتجاه القلعة كان أول شىء فعلته أن طرقت قصر « أق ســـنقر » نائب الغيبة بالديار المصرية · كنت أظن أنه سيعاملنى باهمال فاذا به يرحب بى أيما ترحيب ويسألنى عن أخبارى وعما اذا كنت على صلة بالسلطان أم لا ؟ ، فقلت له أننى بخير ، وقلت له أيضا أننى وأن كنت محظيــا لدى السلطان المرح الا أننى فقدت طريق الاتصال به تماما اذ هو لا يخلص فى صلاته أو علاقاته الا لأهــل الكرك من غلمــانه · فسألنى ان كنت أطلب منــه أى خدمات يقدمها لى فشــكرته وقلت له أننى على العكس جئت أضــع نفسى تحت تصرفاته ، فشكرنى بدوره ، وطمأننى بأننى يحق لى أن أعتبر نفسى صديقا له بدلا من السلطان · قلت : « فهل تمنحنى من الأريحية مثلما كان يفعل السلطان ؟ » · قال : « وأكثر ·· احنا خدامينك يا أبو شلبى » · قلت : « على خيرة الله الآن يحق لى أن أفرح ؟ وكان الغداء قد وصــل بالصدفة فقمت بدورى على المائدة كمملوك سلطانى مدرب على خدمة سيده وأستاذه وفتح نفسه للأكل · فلما انتهينا من الطعام شربنا بعض كؤوس العرق

ورمرمنا بأطباق الفالوذج ـ المهلبية ثم أن « آق ســنقر » نائب الغيبة بالديار المصرية نهض واقفا يعدل فى ثيابه فنهضت أنا الآخر أعدل فى ثيابى · قال : « أظنك لا تمانع فى المجىء معى » قلت : « الى أين ؟ » · قال : « اجتماع الأمراء ·· لسوف يعقد الآن فى القلعـة للنظر فى أمر السلطان : « بقائه أو خلعه » · قلت : « هذه مناسبة هامة ولا مانع لدى من حضورها » · ثم مضيت خلفه الى حيث يجتمع الأمراء فى القلعة ··

هزنى بالفعل منظرهم المهيب وهم جلوس يتشاورون حتى أننى من لخمتى وانبهارى بكثرتهم وضخامة ثروتهم لم أنتبـه الى كيفية بداية الحديث ولا خط سير الحديث ، كنت بالاختصار قد انخـرطت فى دور المتفرج دون أن أرى ، فعرفت أن مثلى لا ينبغى أن يوضع فى مقام كهذا كمسؤول وان مثلى لا ينبغى أن يتولى مهمة ســفير فى دولة أجنبية كبيرة متفوقة لأن ما فيه من حرمان وقلة دراية بالمجتمعات الراقية يؤهله فقط لدور المتفرج · لكننى أفقت بعد برهة فسمعتهم يتحدثون عن « عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون ، كان أحد الأمراء يقول عنه : « أيام نفاه قوصون الى قوص مع أخوته كان يصوم يومى الاثنين والخميس » · وقال آخـر : « وكان يشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن » · وقال ثالث : « وكان هذا يصون نفسه مما يرمى به الشباب من اللهو واللعب » · وقال آق سنقر : « أنه بالفعل أطيب أولاد الناصر محمد قلبـا وأكثرهم مروءة » · فقالوا جميعا فى نفس واحد : « على بركة الله » : قال آق سنقر « هل نسلطنه ؟» · فترددوا قليلا وبدأ أن كلا منهم ينتظر حتى يهتف الآخر بالجواب ، لكنهم فى النهاية أطلقوا الكلمة واضحة : « ليكن ·· فلنسلطنه » ثم نهض آق سنقر ليستدعى الأمير عماد الدين أبو الفداء اســماعيل · فلما عاد به نهض الأمراء وانحنوا له فأحنى لهم قامته انحناءة رمزية خفيفة فكابدت الدماء التى فى وجهه تتدفق على الأرض من كثرة احتقانها · ثم أنه جلس فجلسوا ، وكان أحد الأمراء قد استدعى العسكر فوقفوا خارج القلعة فى الانتظار · تولى آق سنقر ابلاغ اسماعيل نبأ سلطنتهم له بموافقة الأمراء

واجماعهم ، فشكرهم اسماعيل ، فنهضوا من جديد وقدموه فمشى أمامهم حتى غرفة السلطان وجلس على الأريكة وجلسوا بجواره وحواليـــه ، ثم حلفوا له اليمين بصوت عال ، فانطلق صوت العسكر يحلفون اليمين أيضا ، وبعد ذلك وقف اسماعيل وحلف ألا يؤذى أحدا والا يقبض على أمير بغير ذنب ٠٠ وبذلك تم أمره وسئل عن اللقب الذى يختاره لنفسه فقال أنه اختار لقب الملك الصالح ، فدقت البشائر فى الحال ونادى آق ســـنقر بزينة القاهرة وعلى ذلك أصبح الملك عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصـــور قلاوون هو السلطان السادس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع من بنى محمد بن قلاوون ٠ نظرت فى ساعتى فوجدتنا فى يوم الخميس ثانى عشرين المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بعد خلع أخيـه الملك الناصر أحمد باتفاق الأمراء ٠

انصرف بعض الأمراء ليشاركوا فى موكب الزينة ويشرفوا على اقامتها، ثم انصرف الآخرون واحدا وراء الآخر ولم يبق سوى السلطان وآق سنقر والعبد لله ، فلما أردت الاستئذان قال الملك الصـــالح اســـماعيل : « لا والله ٠٠ أنت مش غريب ٠٠ خليك قاعد معانا » فبقيت جالسا ٠ فرأيت الملك الصالح اسماعيل وهو يرسم بالافراج عن المسجونين بثغر الاسكندرية ، ويكتب بالافراج أيضا الى الوجه القبلي والبحرى وألا يترك بالسجون الا من استحق عليه القتل ٠٠ فوافق آق سنقر على هذا ٠ فقال الملك الصالح اسماعيل لآق سنقر : « ما رأيك فى زوج أمى ؟ » ٠ قال آق سنقر : « الأمير أرغون العلائى ! » ٠٠ قال الملك الصالح اسماعيل : « وهل لأمى زوج سواه ؟ » ٠ قال آق سنقر باسما : « رجل طيب ما فى ذلك شك » ٠ قال الملك الصالح اسماعيل : « لقد عينته رأس نوبة » : قال آق ســـنقر : « خيرا فعلت » ٠ فقلت : « ما معنى رأس نـــوبة أن سمحتما لى ؟ » ٠ قال آق سنقر : « رأس نوبه هو لقب الذى يتحدث على مماليك السلطان ــ أو الأمير ، وتنفيذ أمره فيهم ، والمراد بالرأس هنا الأعلى أخذا من رأس الانسان لأنه أعلاه » ٠ قلت : « افادك الله » ٠ قال الملك

الصالح اسماعيل : « ويكون زوج أمى رأس المشورة ومدبر السلطنة وكافل السلطان • قال آق سنقر : « حسننا ما فعلت » • قال الملك الصالح اسماعيل : وما رأيك فى نفسك يا آق سنقر ؟ » • قال آق سنقر كأنه يتحدث عن شخص آخر سواه : « رجل طيب ما فى ذلك شك » • قال الملك الصالح اسماعيل : « اذن لتستقر نائب السلطنة بالديار المصرية » • فأخذ آق سنقر ينحنى تبجيلا وامتنانا ، فأضاف الملك الصالح اسماعيل : « اكتب للأمراء ببلاد الشام والنواب باستمرارهم ومن غد نرسل اليهم الخلع على يد الأمير طقشتمر الصلاحى •• وأن يتقلد الأمير ايدغمش نائب حلب نيابة الشام ويستقر عوضه فى نيابة حلب الأمير طفز دمر الحموى نائب حماة ويستقر فى نيابة حماة عوضا عن طقزدمر الأمير علم الدين سنقر الجاولى » • قال آق سنقر وهو يهز رأسه فى تسليم : « حسننا ما فعلت »، فقال الملك الصالح اسماعيل : « ايتونى بالأمير قبلاى والأمير بيفرا » • فنهض آق سنقر وغاب قليلا ثم عاد وأكد أن الأميرين المطلوبين فى الطريق الى مجلس السلطنة بعد قليل ••

ثم أن الملك الصالح اسماعيل طلب الورق والقلم لى ، فلما جىء بهما قال لى : « اكتب » • قلت : « ماذا أكتب يا مولاى ؟ » • قال : « أكتب رسالة الى أخى الملك الناصر أحمد » • قلت : « فماذا أكتب له » • قال : سلم عليه وقل له أن الأمراء لما علموا بعدم رغبته فى ملك مصر وحبه بلاد الكرك والشوبك فأنهم قد أقاموا اسماعيل بدلا منه فى السلطنة ، ونبه عليه يا سيد طرشجى أن يرسل القبة والطير والنمجاة » وقلت : « تحت أمرك يا مولاى » وأخذت أكتب ما قاله السلطان ، فما أن انتهيت من الكتابة وقرأت على السلطان ما كتبت حتى دخل الأمير قبلاى والأمير بيقرا ، فقبلا الأرض بين يدى السلطان فنظر السلطان الى الأمير قبلاى قائلا: « يا قبلاى •• خذ هذا الكتاب وتوجه به الى الكرك وسلمه لأخى السلطان المخلوع أحمد » • فانحنى قبلاى علامة الامتثال للأمر ثم أخذ الكتاب وصار يطويه كالاسطوانة ويلفه فى قطع من الحرير الخالص ونظر السلطان الى الأمير بيفرا قائلا : « وأنت يا بيفرا •• خذ عدة من الأوجاقية لجر الخيول

السلطانية من الكرك » • فانحنى بيفرا علامة الامتثال للأمر • فلما حان موعد أنصراف الجميع استبقانى السلطان قائلا لآق سنقر : « أترك لى الطرشجى الحلوجى فأننى أريده لأمر ما » • ويبدو أن التشكك قد ظهر على وجهى ، فأبتسم آق سنقر ابنسامة ذكية وأفهمنى أن الملك الصـــالح اسماعيل يختلف عن الملك الناصر أحمد ومن ثم تختلف الأمور التى يطلب الناس فيها ثم أنه انصرف •

فلما انفردت بالملك الصالح اسماعيل اعتدل فى جسلته ونسى أنه سلطان وأننى مملوك ، وقال : « هيه » قلت : « هيه » • قال : « حدثنى عن السلطان المخلوع أحمـــد قلت : « كيف أحدثك عن أخيك ؟ » قال : « ربما كنت تعرفه أكثر منى ؟ » • قلت : « كيف بحق الله ؟ •• أخوك وأعرفه أكثر منك ؟؟ » قال : « لقد تربى فى الكرك منذ مولده حيث أرسله أبى الى هناك مع والدته ولم نكن نلتقى به الا لماما وعلى عجل •• ولكننى أحب أن أعرف الكثير عنه من رجل مثلك خالطة عن قرب وخبر صـــفاته وسماته الخلقية •• أننا نسمع الكثير فهل تستطيع نقل صورة واضحة لى عنه ؟ » • قلت : « بكل سرور يا مولاى » ثم رحت أتحدث عن السلطان المخلوع أحمد وأحاذر من الخوض فى سلوكه الأخلاقى وأتحفظ فى كل قول أقول عنه حتى أوحى للسلطان الصالح اسماعيل بالثقة ويعرف أننى لست ممن يبادرون بالهجوم على المخلوعين فور خلعهم ـ تحوط كانت أمى رحمها الله دائمة التنبيه على بشأنه • ويبدو أننى من فرط التحفظ قد حسنت صورة السلطان أحمد بشكل غير واقعى فاشمأنط السلطان الصالح اسماعيل ولكنه أخفى اشمئناطه بابتسامة فيما يقول : « الواضح أنك لم تعرفه على الحقيقة ولكن لا بأس » • كانت الجلســـة قد طالت أياما فلما نظرت فى ساعتى وجدتنا فى يوم السبت أول صـــفر من الســـنة المذكورة وإذا بالحاجب يدخل ويهمس فى اذن السلطان فتبدو عليه الدهشة الممزوجة بالفرح وهو يقول للحاجب : « فليدخلوا » • فلما دخلوا اذا بهم الأمير قمارى أمير شكار والأمير أبو بكر بن أرغون النائب والأمير ملكتمر الحجازى وصحبتهم الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ومقدم المماليك الطواشى

عنبر السحرتي والمماليك السلطانية فسلموا وجلسوا فعرفت أنهم فارقوا السلطان المخلوع وجاؤوا من غزة . فمكثنا وقتا طويلا نستمع الى نوادر السلطان المخلوع يحكيها كل منهم ويتفنن الحاكى فى جعلنا أنا والسلطان نضحك ضحكا صاعقا . وكنا قد تلقينا دعوة كريمة من السلطان للعشاء على شرف الزيارة غير المتوقعة ، فلما انتهينا من الطعام استأنفنا الجلوس للسمر من جديد فلما نظرت فى ساعتى وجدتنا فى يوم الثلاثاء خامس عشرينه وهنا دخل الحاجب من جديد وهمس فى أذن السلطان الذى اتسعت ابتسامته وكاد يهب واقفا من فرط الفرح فيما يقول : « ادخلوهم » فدخل القاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر وجمال الكفاة ناظر الجيش . وقال جمال الكفاة أنه دبر حيلة للهروب من الكرك بعد أن بلغه أن الملك الناصر أحمد يريد قتلهم خوفا من حضورهم الى مصر ونقلهم لما هو عليه من سوء السيرة وأنه ــ جمال الكفاة ــ بذل أموالا ليوسف الباز دار حتى مكنهم من الخروج . وهنا كان الأمراء جميعهم قد وصلوا بعد ما بلغهم الخبر . ووسط فرحة الأمراء بعودتهم خلع السلطان عليهم باستمرارهم على وظائفهم .

فى نهاية هذه الجلسة المتشعبة أخبرنى السلطان أننى صاحب بيت وأستطيع أن أنصرف كما يحلو لى فشكرته على ذلك وبقيت أتجول فى القلعة بكل حرية وعرف الجميع أننى مستشار السلطان الصالح اسماعيل وأننى من أصفيائه . وذات يوم بينما كنت أتجول فى شرفات القلعة وأطلق صفيرا منغما اذا برسول جاء يطلب السلطان فسألت عن السلطان فلم أعثر على جواب مؤكد فانفردت بالرسول وسألته عن سر قدومه فقال أنه قادم من طرف « شطى » أمير العرب وأنه جاء يخبر السلطان بأن الملك الناصر أحمد قرر مع بعض الكركيين أن يدخل الى مصر ويقتل السلطان . فصرت أبحث عن السلطان من جديد وأكاد أطرق باب حجرة نومه ولكن بعض الوصفاء كانــوا يردوننى فى رفق قائلين مرة أنه فى مأمورية سرية وأخرى أنه نائم وثالثة أنه فى رحلة صيد ، فأبلغت الأمراء بالخبر الذى جاء به رســول شطى أمير العرب فتوشوشوا لذلك ووقع

الاتفاق على تجريد العساكر لقتال الملك الناصر وأخذه من الكرك • وفى صبيحة الخميس ثالث شهر ربيــع الآخــر من السنة المذكورة توجهت التجريدة الى الكرك صحبة الأمير بيفرا ، وبقيت أحاول معرفة المكان الذى اختفى فيه السلطان فجأة ، وصرت أتحاشى نظرات بعض الأمراء حتى لا يسألونى عن سر اختفاء السلطان • وبينما أنا سائر فى أروقة القلعــة سمعت صياحا وصراخا حادا ناحية بيت أم السلطـــان الأشرف كجك « خوند أردو » فاقتحمت البيت فاذا ببعض جواريها يخرجن حاسرات ملطخات الوجه بالدم وقد أزرقت عيونهن وأمتلأت وجوههن بالكدمات ، مما يوحى بأنهن كن فى معركة حامية الوطيس • دخلت بكل صــفاقه الخصيان فوجدت أم السلطان الصالح اسماعيل ممسكة بأم السلطـــان الأشرف كجك خوند أردو ، وكانت تنهال على أم السلطان الأشرف كجك ضربا بالروسية وبالرجل ، فخلصتها منها بصعوبة وهى تقول : « سيبنى أنا لازم أقتلها • قلت لها « خير يا مولاتى ؟ » • قالت صائحة : « أوقعوا الحوطة على موجودها » • قلت لها : « سوف نوقع الحوطة على موجودها ولكن ما السر ؟ » • قالت أم السلطان الصالح اسماعيل : « هذه المخلوقة الشريرة سحرت ابنى السلطان الصالح اسماعيل » • أصابنى الذهول : « كيف يا مولاتى ؟! سحرته كيف ؟ » • قالت : « لقد أصــــابه رعاف مستمر منذ بضعة أيام » • قلت : « وأين هو ؟ » • قالت : « فى سريره ولا أحد يدخل عليه » • فانطلقت أجرى واقتحمت غرفة نــــوم السلطان فاذا به يرتعش بشدة ، تحسست رأسه فعرفت أنه يعانى من وعكة برد ، ووصفت له وصفه جىء بها فى الحال فشربها السلطان فكف الرعاف ، فانطلقت أمه تزغرد وأمرت بتزيين القاهرة ثم صحبتنى الى المشهد النفيسى حيث حملنا اليه قنديل ذهب زنته رطلان وسبع أوقيات ونصف أوقية ••

أبو الفداء ٠٠ لا يفتدى أحدا

لم تستطع كتب الطب أن تنبىء أم السلطان لماذا هو مصاب بالرعاف، صحيح أن الأطباء الحكماء لا يكفون عن زيارة السلطان الملك الصـــالح أبو الفدا اسماعيل ويمكثون معه أوقاتا طويلة في السر ودون أن يتطرق الخبر الى الرعية الا أن لأم السلطان وجهة نظر لا تحب التنازل عنهـــا ببساطة ، ورأيها أننا لكى نعرف مرض السلطـــان لا نبحث فى جسمه انما نبحث فى كتب السحر والشبشبة ، محترفو السحر فئات كذلك ، فهناك من يليق بأم السلطـــان مثلمـا هنـــاك من يليق بطالبى الزار ، وأم السلطان ما صدقت أن تحقق أمل عمرها وجاءت لهـا السلطنة لحد عندها فكيف تسمح لفرصة العمر أن تفلت من حجرها ؟ أنهـــا لابد أن تحاصر السلطنة حصارا تستخدم فيه كل الأسلحة ، ذلك أنها بقدر ما كانت تشعر فى أوابد السنين بأن أبنها لابد مبارك من السماء كانت تحس من أعماقها البعيدة بشىء مثير من الخوف الغامض العميق ، ربما لأن اســـم ابنها « أبو الفداء اسماعيل » ، وهى تذكر أن زوجهـــا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين اختار لأبنها هذا الاسم كان يعبر عن شعوره الحقيقى للانتماء الى قبيلة السماء ، وقبيلة السماء هذه هى قبيلة الأنبياء من أبنـــاء العرب ، ابراهيم واسماعيل ومحمد وأحمد وأسماء أهل بيت

رسول الله ، تشعر أن زوجها وأباه وجده لم ينتصروا فى حروبهم وفى غزواتهم الا بكونهم قاموا بها فى سبيل الاسلام دين الله وسبحانه حين أنعم عليهم بالسلطنة على ديار الاسلام ومهد الأديان قاطبة كان ـ لابد ـ يختبرهم ويضع حسن نواياهم فى امتحان وهى لا تزال تذكر يوم ولدته وكيف انبسطت ملامح الملك الناصر محمد بن قلاوون وقال أنه الفداء فى سبيل الله ، ليكن أبا الفداء اسماعيل ، صحيح أنه الملك الناصر لن يقدمه فداء لأحد أو لشىء ولكنه فيما قاله لها يومها • مجرد رمز ، مجرد تحية لله سبحانه ليعرف أننا على استعداد للفداء فى سبيله ، ليلتها ضحكت فى عبها وقالت للسلطان بدلال : « هل تضحك على الله يا مولاى أم تنافقه ؟ »، ضحك بدوره وقال فى ارتباك لطيف أن الله يعرف نوايا الخلق جيـــدا ولذا فهو لا يمانع فى أن يتخابث عليه أبناؤه الأذكياء الأقوياء ، السـنا أبناءه يا امرأة ، السنا نبتسم حين نكتشف أن ولدا من أولادنا كذب علينا كذبة بيضاء لطيفة ؟ هو الله سبحانه وضع فينا كل هذا وعموما اللهـم فاجعل ابنك فداء للاسلام وديار الاسلام » . ارتج قلبها يومها واهتزت الأرض من تحتها ، فرغم يقينها أن السلطان قال هذه الجملة لينقذ بها ـ أو يدافع عن صدق نيته كمن يرمى يمين الطلاق فى لحظة تهور فأنها احست كما لو أن السماء انفتحت فى هذه اللحظة واستجابت لدعاء زوجها على الأقل ليضعه الله أمام نفسه فى الموقف الذى طلبه كاذبا ويقول له فى حد : طلبت الفداء وأنت تكذب فهيا نفذ ما تقول وصحيح أيضا أنها مثل زوجها صارت تؤمن بالله وبرسله وأنبيائه ايمانا قاطعا لكنها حتى الآن لا تعرف أن كانت ستوافق على تقديم ابنها فداء لأى شىء أم لا ؟ ذلك أمر لم تناقشه مع نفسها بعد ..

وكانت قد دوختنى معها فى شوارع القاهرة والقلعة وأنحائها وتدخل بى فى أماكن سرية يصحبنا بعض الخصيان ويتقدمنا بعض الجوارى ، حتى أننى تعرفت على علماء وشـيوخ أجـلاء يملكون من المخطوطات والمجلدات ما يلقى المهابة فى النفس ويجعلها تصدق كل ما يقال ، ما بنى الواحد منهم يفتح الكتاب لدى كل سؤال وعند كل استفسار ثم يقرأ فى

السر تارة وفي العلن تارة أخرى لكنه في كل مرة يعود لتفسير ما قد قرأ • وأنه ما يثير العجب حقا أن يكون هناك ما يشبه العلم المدون بعالم النفس البشرية• لقد رحبت بهذه الصعلكة مع أم السلطان لأن عالم السحرة عالم ساحر بالضرورة وقد اتضح لي هذا بالفعل لأنه في الحقيقة فن خالص ، والذين برعوا في السحر وقابلتهم مع أم السلطان لم يكونوا أبدا مشعوذين ولا دجالين ولا نصابين كأولئك الذين يتواجدون في كل العصور ويتعيشون عيالا على سمعة المهنة التي كونها أذكياؤها وأكفاؤها ، لقد اتضح لي أنهم برعوا في حقيقة الأمر في استخدام الوسائل الفنية الصائبة التي يفتحون بها عالم النفس لبشرية وبها أيضا يعالجون الجروح والأدواء النفسية ، ان الساحر من خلال تجاربه الطويلة وغوصه في عالم النفس يعرف كل الأدواء ومكانها بل أنه يظل يسأل المريض هل يحدث لك كذا ؟ هل تفعل كيت ؟ هل تلاحظ كذا ؟ ويتلقى الاجابة بنعم على طول الخط ، وعندئذ يضع العلاج ، وما العلاج الا حركات يفعلها الانسان وعادات تغير من سلوكه وأقوال حكيمة تضيء جوانياته الظلماء • قلت لأم السلطان أننا لم يعد أمامنا ساحر نذهب اليه خاصة وأن صحة السلطان ليست بالسوء الذى تتصوره ، أنه فقط يعاني من وعكة وأننا في عصرنا نصاب بما يسمى الأنفلونزا فنرقد في الفراش أما نعطس ونكح ونلم جسدنا المنهار على الفراش فلا نذهب لطبيب أو غيره • لكن أم السلطان لم تقتنع بل كانت تطلب رأيي في مسائل عجيبة للغاية فان ترددت في الجواب عليها عنفتني قائلة ألست مستشار السلطان اذن فلابد من اجابتي وتقديم المشورة دون تردد ، من ذلك مثلا أن هذا الساحر أو ذاك قد ظهرت منه بوادر تدل على حبه الكبير للسلطان ولذا فهو صادق في تشخيصه أليس كذلك ؟ أو أنه لم يكن يبدى حماسا وكان يظهر سخريته من بعض حديثي فلابد أنه مدفوع من خوند أم السلطان الأسبق كجك ويعمل لحسابها ضد صحة السلطان أبي الفداء أليس كذلك يا طرشجي يا حلوجي ؟ • فأقول لها يا ست الكل يا أم السلطان هذا شيء بعيد عن التصور ، فتلمع في عينها نظرة تكاد تتهمني بأنني أنا الآخر ضد صحة

السلطان ، الأمر الذى أضطرنى أن أجاريها بعض الشىء فيما تذهب اليه ظنونها ثم أعود فأصلح من الوضع فى هدوء وترو بعدما أكون قد وافقتها ، فتبدى هى الأخرى أنها اقتنعت بوجهة نظرى ولكنها فى الواقع تكون تجارينى مثلما أجاريها ! لذلك ما أن وصلنا الى القلعة واقتحمنا غرفة نوم السلطان حتى رميت بنفسى فوق سريره وجلست بجواره أسليه وأخفف عنه ألم الرعاف ٠

وفيما نجلس على السرير جاء الساقى « اياز » وأبلغ السلطان نبأ موت الأمير « ايدغمش » نائب الشام فجأة ٠ فطلب السلطان « آق سنقر » نائب السلطنة وأوصاه بأن يستقر الأمير « طقزدمر » الحموى نائب حلب نائبا للشام ، وأن يستقر الأمير « الطنبغا الماردانى » عوضا عن « طقزدمر » فى نيابة حلب ، وأن يستقر الأمير « يلبغا اليحياوى » فى نيابة حماه عوضا عن « الماردانى » ٠٠ وفى نفس الجلسة أنعم السلطان على « أرغون العلائى » باقطاع الأمير « قمارى » بعد موته ، وكتب السلطان لنائب صفد وغزة بالنجدة للأمير « بيغرا » لحصار الملك ناصر بالكرك ٠ ثم اذا بالبشارة العظمى تجىء من عند « شطى » أمير العرب ، وفيها أنه ركب مع العسكر على مدينة الكرك فقاتلوا أهل الكرك وهزموهم الى القلعة وأن الملك الناصر اذعن وسأل أن يمهل حتى يكتب الى السلطان ليرسل من يتسلم منه قلعة الكرك ٠ وحدث هرج فى القلعة تعبيرا عن الفرج ، وتسللت أنا من جوار السلطان زاعما أننى سأشخط فى هؤلاء الذين يثيرون الصخب ، وخرجت أسمع السلطان صوتى فى الخلاء ببضع شخطات مسرحية ما لبثت أن اختفيت على أثرها بين الجند والعامة تحت القلعة ٠ فاذا بى أرى الكآبة تعلو الوجوه من جديد والجميع يسبون ديك الكرك وما يجىء من الكرك ومن خيبة أبناء السلاطين ، فلما تساءلت عن السبب قالوا أن السلطان السابق أحمد خدع جنود « شطى » ريثما يسترد ألفاسه ويستأنف قتالهم من جديد وما كاد السلطان اسماعيل يعلم بخبر هزيمة أحمد حتى كان أحمد قد بدأ القتال من جديد بالفعل والجميع يريد أخفاء الخبر عن

السلطان خوف الصدمة القاسية ، فصرخت فيهم قائلا ان هذا عيب وان السلطان يجب أن يعرف كل شيء ، ثم وعدت بأن أتولى أنا أبلاغه الخبر بشكل لطيف محتمل ، ورجعت أجرى الى السلطان من جديد أمنى النفس بالنجاح فى مهمتى ، فلما دخلت عليه طيبت خاطره وقذفت بالخبر فى اذنه دفعة واحدة وبشكل مباشر حتى أنه ظل برهة طويلة يستوعب الخبر ثم اذا به ينهض واقفا فانزعجت وصحت فيه قائلا : « أوعى تخرج فى الهوا يا أبو السباع يا مجنون ٠٠ نام واتغطى أحسن أروح أنده لامك » ، ولكنه لم يعبأ بصياحى بل صـــاح قائلا : « قم معى » ٠ وقع قلبي فى قدمي فقد ظننت أنه يدعونى الى الحرب فورا ، قلت له : « أقوم معــاك فين ؟ ٠ قال : « سنسافر الى بلدة قريبة ها هنا لكى أستريح فيها قليلا » ٠ قلت : « أي بلد هي ؟ » ، قــال : « سرياقوس » ، فقلت لا بـأس ، فسرياقوس من القري القديمة فى مصر وهى تتبع مركز شـبين القناطر بمديرية القليوبية وتقع على الشاطىء الشرقى لترعة الاسماعيلية فى شمال القاهرة وعلى بعد ثماني عشرة كيلو مترات منها ، نظرت فى ســاعتى فوجدتها فى يوم الأربعاء رابع شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ٠ وكان السلطان قد انتهى من ارتداء ثيابه السلطانية المخففة ووقف ينتظرنى حتى انتهيت من تغيير ملابسى بملابس جديدة كان قد أنعم بها على « ونزلنا ، وكان الأمراء على علم بهذه السفرة فجاء معظمهم وتخلف بعضهم ، وتقدمت بصحبة السلطان فتعرفت على الأمير « رمضان » ، أنه شقيق السلطان ، شاب صغير السن حلو التقاطيع خيل الى أنه زميل دراسة حديث وأننى قد عدت من جديد تلميذا مراهقا يحب المغامرات ، وكان السلطان قد أنعم عليه بتقدمه ألف ، أى أنه يتقدم ألفا من المماليك والأمراء ٠ فلما عرفنى السلطان بأخيه رمضان وحدث بيننا ما يشبه الحب المفاجىء وضع رمضان يده على كتفي في تحفظ وهمس بأنه ســعيد بى وبمعرفتى ولذا فهو يطمع فى دقائق من وقتي والآن ، قلت : « بكل سرور يا رمضان » فغمزنى فى يدى أن أنتظر حتى يبتعد السلطان ، فقلت له أننى لا بد أن أرافق السلطان فى خطوه ، قال : سآخذ لك الأذن منه » ، قلت : «لا بأس».

فتقدم « رمضان » خطوات من أخيه السلطان وقال له : « أستأذنك فى أن يبقى الطرشجى الحلوجى معى لبعض الوقت » ، قال السلطـــان فى تردد : « ولكنى لا أستغنى عنه » ، قال رمضان : « دقائق لاستشيره فى بعض الأمور ، قال السلطان : « هو لايفهم فى أمورك يا رمضـــان ــ ثم بلهجة ذات معنى ــ ليس له خبرة بشؤون البنات والخطابات الغراميـــة الساخنة » ضحكت أنا وأمنت على كلام السلطان وضحك رمضان وقال أنه لن يستبقينى أكثر من دقائق ، فقال السلطان : « طيب ٠٠ أبقى حصلنى فى السكة » ، ثم ركب ومضى وخلفه الأمراء والأجناد على الترتيب السلطانى المعهود ٠ ثم أننى لاحظت أن « رمضان » يتلكأ فى الركوب وفى المســير ويتلكأ معه بعض الأمراء ، وأشار الى الأمراء الذين جاملوه بالتلكؤ فأنصرفوا يلحقون بركب السلطان وبقى رمضان وسط رهط كبير من المماليك،داخلنى شعور من مشاعر المهنة الصحفية ، فخيل الى أن « رمضان » سيجرى أمامى بعض الملاعيب الفنية أو الرياضية لكى تعجبنى فأكتب عنه فى الجرنان ، لكن «رمضان» ما لبث أن أشار لى قائلا : « اتفضل يا أستاذ طرشجى » فتقدمت منه فقدمنى بدوره للمماليك فيما يشبه التفاخر قائلا أننى مستشار أخيه السلطان سيادة الطرشـــجى الحلوجى على سن ورمح ، فهتف لى المماليك هتافا أرعبنى وجعل شبابيك القلعة تنفتح وتطل منهـا رؤوس مستطلعة ، ثم أن « رمضان » سحبنى من أبطى وأنزوى بى بعيدا وقال : « سمعت أنك يا أستاذ طرشجى رجل حكيم مثل الشعب المصرى تماما ٠٠ وسمعت أنك لهذا نافذ الرأى والحجة ٠٠ وسمعت كذلك أنك ــ لهذا أيضا ــ طيب القلب ويمكن أن تضيع فى شربة ماء » ٠ قلت له : « أدخل فى الموضوع يا رمضان » ٠ قال رمضان : « ان أخى السلطان الملك الصالح أبى الفداء اسماعيل رجل مريض كما ترى وليس أهـــلا للسلطنة ثم أنه متهور وغير مثقف » ٠ أندهشت وكدت أصيح فيه : « عيب يا ولد ٠٠ كيف تتجرأ على أخيك السلطان بمثل هذا الكلام » ٠ ولكننى استلطفت الموقف فتبسمت قائلا : « ربنا يعطيه الصحة ويمنحنا الهداية » ٠ قال رمضـــان بكل جرأة : « وأنا الآن أدعوك للهداية » ، قلت : « كيف يا رمضان ؟ » ،

قال : « ان ساعدتني وانتميت الى تكون هذه هي الهداية وتكون قد نجحنا من أجل خدمة الناس والشعب ! » ، شعرت بأنني قد وضعت فى مأزق لا منجاة منهم فأخذت أدبر للفرار ، قلت لرمضان : «كيف أساعدهم وفيم؟» قال رمضان : « أريد أن أكون أنا السلطـــان » ·· « كيف ؟ » ·· قال رمضان : « هذا ما سوف يكون باذن الله ·· لقد اتفقت مع بعض المماليك والأمراء ووافقوني وبعد قليل سوف تحين ساعة الصفر لتنفيذ خطتنا ·· فهيا أركب معنا ولا تكن من الهاربين ، ورأيت الجواد أمامي فركبت وركب السلطان وظن المماليك أنه قد نجح فى مساعيه نحوى فاندفعوا خلفنـــا وسبقني الأمير رمضان بخطوتين وظللنا نسير واذا بالركب ينحرف قليلا عن اتجاه ركب السلطان فلما صرنا فى بركة الحبش رأيت عددا هائلا من الخيول والهجن يمتطيها رجال كثار ، ورأيت قرية أثر النبى فى الخليفة يحدها شاطيء النيل ، وقرية دير الطين والبساتين والمعادى حيث اسكن فقلت لنفسى أن الهرب سهل لغاية فما على سوى الانحراف قليلا الى اليمين لأصبح فى منزلى بين المعادى والبساتين · غير أننى فوجئت بأن الخيول الهجين تندفع نافرة ثم تهدىء من خطوها سائرة فى اتجاه القلعة والأمير « رمضان » يصيح فى رجاله أن هاتوا خيولكم الى الطريق الصحيح ، وأن هى الا دقائق حتى تبينت أن « آق سنقر » أمير أخور كان يعلم بخبر تحركات الأمير رمضان من خلال بعض العربان الذين سلطهم عليه وأنه لف خلف القلعة وصنع كمينا للخيول والهجن قوامه عشرات المئـــات من الجنـــد المسلحين ، واذا بنا ــ أنا والأمير رمضان » ــ تساق سوق الأبـــل نحو الاسطبل السلطانى واذا بالجند يجمعون كل الأسلحة من رجال رمضان ، فلما صرنا أمام الأسطبل السلطانى نزلنا وتركنا الخيول تدخل ، أقتادنا الجند الى داخل القلعة واذا بالسلطان جالس فى انتظارنا وعرفت بالفهلوة أن السلطان وصله الخبر فرجع فى التو الى القلعة ، فما أن اقتربت من باب غرفته حتى كان « رمضان » قد اختفى ، فدخلت فوجدت « آق سنقر » نائب السلطنة وبعض الأمراء الكبار يجلسون مع السلطان ، قال السلطان لما رآنى : « دى آخرة عشمى فيك يا طرشجى يا حلوجى ؟ » · قلت له :

« مظلوم والله يا أبو السباع » . قال : « معلهش » . ثم أمرني بالجلوس في تسامح الذي يعرف أنني تورطت رغما عني .

وكان الليل قد ازداد عمقا وظلمة والجميع واجمون وجوما تتخلله ابتسامات ساخرة متهكمة ، وأخيرا رفع السلطان رأسه نحو « أرغون العلاني » قائلا له : « أقبض على كل اخوتي يا أرغون .. نعم اقبض عليهم جميعا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم .. حتى أمي هي الأخرى اقبض عليها ! » ، امتثل أرغون العلاني للأمر في الحال ونهض متحفزا فصحت أنا رافعا يدي كالحجاج سيد خليفة في قريتنا : « طول بالك يا جدع منك له .. يعني أيه يقبض على أمك ؟ .. استنى شويه .. دي مهما كان أمك حملتك تسعة أشهر في بطنها وأرضعتك وتحملت مصائبك ثم أنها داخت على مرضك الأخير بين السحرة وقارئي الفنجان » . اكفهر السلطان يعجبك مع السلامة » . وهنا نظر « أرغون العلاني » الى السلطان نظرة « المؤاخذة تبقى غلطان » صاح السلطان في حسم : « يا أرغون اقبض على الطرشجي الجلوجي هو الآخر » ، فجلست من ذعر صائحا : « لا يا عم .. أنا غلطان .. أنا قليل الأدب .. روح يا عم ارغون اقبض على أى حد يعجبك مع السلامة » . وهنا نظر « أرغون العلاني » الى السلطان نظرة ذات معنى فشوح له السلطان قائلا : « خلاص .. المرة دي سماح .. روح يا طرشجي ساعده في القبض عليهم » فنهضت متحمسا وأنا أصيح : « حاضر يا مولاي .. هؤلاء ناس يجب القبض عليهم بالفعل حتى أم سعادتك .. نعم هي والجميع يجب القبض عليهم وايداعهم السجن مدى الحياة » ، ثم خرجت مع « أرغون العلاني » فوصلنا بيت رمضان يحرسنا عدد غفير من الجند المسلحين ، وقفنا الى بعيد وأرسلنا بعض المماليك والخدام يطلبون « رمضان » ، فعادوا الينا بوجوه مكفهرة عرفنا منها أن « رمضان » شتمهم وامتنع عن المجيء ، فصرخ فيهم « أرغون العلاني » أن جروه بالقوة وهاتوه ، فما أن أتم كلامه حتى أطلت أم رمضان وبصوتها الحياني شتمت « ارغون العلاني » شتيمة مفزعة فرد عليها الشتائم ولكن بقليل من

التحفظ ولكنها ردت على رده وظل الاثنـــان يتبـادلان الردح بالصوت الحيواني مدة طويلة عبر النوافذ ، الى أن تعب « أرغون » من الردح فبعث جماعة اضافية من المماليك والخدام يجرون رمضان من ثيابه أو من رقبته واذا برمضـــان يخرج اليه فى عشرين مملوكا يحملون السـيوف المسلولة ، وسأل من على بعد عن النائب فقيل له أنه عند السلطان مع الأمـــراء ، فمضى نحو باب القلعة وسيوف صحابه مصلته . ركب على خيول الأمراء ، ومر بمن معه الى سوق الخيل تحت القلعة فلم يجد أحدا من الأمراء فتوجه الى جهة قبة النصر وتوجهت خلفه لأرى ماذا سيفعل وكان « أرغون العلائي » يتصور أنه ذاهب الى السلطان من تلقاء نفسه فأعطاه هذا الحق ، لكنني فوجئت بالأمير « رمضان » يتجاوز قبة النصر خارج القاهرة ويقف هناك ومعه الأمير « تكا الخضرى » وقد اجتمع الناس عليهم ، فعدت أجرى الى القلعة فوجدت السلطان يخرج محمولا بين أربعة لما به من الاســترخاء . وركب النائب وأميراخور وقمارى وجماعة أخرى ، وأقام أكابر الأمراء عند السلطان وقمت أطلبهم تحت القلعة ، وضربت الكوسات حربيا فقلت يا للمصيبة ها هى ذى نذر الحرب قد دقت فكيف يفعلها الصغار ويقع فيها الكبار أمثالنا ؟ هذا ولد صغير وراسه ناشف حقا وربنـــا يستر ، نزلت النقباء فى طلب الأجناد ، تماما كما يحــدث لدى أى شروع فى الحرب ، وتوجه النائب فى أجناده والمسلحين بكامل عدتهم وعتادهم وتوجهت معهم . كمستشار أيضا ــ الى قبة النصر .. وقف بنا النائب تجـــاه رمضان الذى فوجئنا بأنه قد جمع حوله طائفة كبيرة جدا من أجنــــاد الحسينية ومن مماليك تكاو العامة .. الحق لله انزعج النائب وأيقن أنها الحرب لا محالة ، فقال : « ما رأى الطرشــجى الحلوجى » ، قلت كأى مستشار مركون على الرف فى أى جهة حكومية « الرأى لكم » ، قال : « عد الى السلطان وأخبره بما رأينا عليه الحال » فعدت فى جرابـــة مشددة الى السلطان تحت القلعة وأخبرته بما رأينـــا عليـــه الحال ، فمن شدة ما انزعج نهضت قوته وقام قائما على قدميــــه بعد ما كان ينسى أمر نفسه من عظم استرخاء أعضائه ، وأراد الركوب ، فقـــام

الأمراء وهنؤوه بالعافية وقبلوا له الأرض وهونوا عليه أمر أخيه رمضان ، ولازالوا به حتى جلس مكانه وعدت أنا الى النائب لابلغه برغبة السلطان فى اللجوء الى المفاوضة الذكية • فلما قلت للنائب هذا قال : « اذن فقم أنت بهذه المهمة » ، فذهبت الى « رمضان » من طرف النائب وقلت له انه يلعب بالنار وأنه سوف يتسبب فى اسالة الدماء تغرق الشوارع ، فلم يحد عن موقفه ، فعدت الى النائب وأبلغته ، فأرسلنى اليـــه من جديد لاعده بالجميل وعدم الغدر ، وصرت مثل « هنرى كسنجر » فى رحلة المكوك الشـــهيرة بيننا وبين دويلة اسرائيل ، ولكن « رمضـــان » لم يلتفت الى أى وعد ولم يستمع الى أى قول ، فعدت يائسا الى النائب فقال النائب : « اذن فلا مفر من الهجوم عليه •• اللهم أنى قد بلغت •• اللهم فأشهد • ثم دق طبلة الحرب التى بعـــدها مباشرة يتم الهجـــوم الشرس ولكن العامة ما أن سمعوا دق الطبلة حتى ارتخت ركبهم وانفلتوا هاربين تاركين رمضان فى جمع قليل من المماليك نمو و « تكا الخضرى ». فلما رأى « رمضان » هزيمته وشيكة انطلق يجرى بمن معـــه فى البرية فاندفع الأجنـــاد خلفهم يطاردونهم بالنشـــاب ، ثم عادوا وقد قبضـــوا على « رمضان » و « تكا الخضرى » ، فأمر السلطان بالتحفظ على رمضان واخوته وبأن يوضع كل مماليكه فى الحبس •• ونهض ليتناول العشاء ويدخل الى السرير •

دلفت وراءه وكنت انتظر أن يصرفنى بحجة أنه مرهق وفى حاجة الى النوم ، ولكنه اعتدل جالسا واستبقانى قائلا أنه لأول مرة يحس أن الدنيا غير سارة على الاطلاق ، وان كل شىء فيها ما لم يكن نابعا من أرض طيبة فلا معنى له ولا ضرورة ولا وجود على الاطلاق ، قلت له يا أبا السباع ان الشراسة عدم المؤخذة متأصلة في عائلتكم ، أقصد أن اخوتكم سرعان ما يتقاتلون • قال أنها السلطنة • قلت أنه الجنون بالسلطنة • قال أن أباه الناصر محمد لم يخرج عن السنة التى اتبعها أبوه الملك المنصور حين تزوج بأكثر من واحدة ، وغيره كانوا يرتعون بين الجوارى فيقذفون

الى الوجود ولدانا لا حصر لهم ولم يكن يحدث القتـــال بينهـم هكذا ، أما نحن فالقتال ينشب بيننا بكل بساطة لماذا ؟ كانت السلطنة مثـار خلاف بين الأخوة في كل العصور والدهور ولم يكن يصل الأمر الى حد الغدر والقتل وسفك الدم بهذه الصورة · قلت له يا أبا السباع أما عن القتال فانه حدث في كل العصور والدهور وبين كل الأخوة وأبنـــاء العمومة حول كرسي السلطنة ولكن القتال كان يحسم في النهاية لصالح جماعة كبيرة هي على التحديد تلك التي شاركت في القتال ضد جماعة أخرى ، أي أن القتال كان يتم جماعة ضد جماعة كل جمـــاعة يتسلطن عليها سلطان وكل سلطان يمثل أحلاما تنهض عليها بلاده أو جماعته ، أما القتال بينكم يا أبناء قلاوون فهو قتال شخصي فرد لفرد والغلبـــة لمن يستعفى على أخيه ويشترى الجند · هل تريد أن تعـــرف السبب يا أبا السباع يا مولاى ؟ قال : نعم · قلت اذن فاعلم أنه لا سبب سوى أنكم في الأصل مماليك ، جدكم المملوك للملك الصالح نجم الدين أيوب انتزع السلطنة من أهل السلطنة فورث أبناءه ، غريزة انتزاع السلطنة · وكان السلطان أبو الفداء ينظر لى في شراسة وأرى في عينيه نيـــة القبض على · وما أنقذنى من هذه اللحظة سوى دخول المرسال يبلغنـا نبأ وقوع السلطان السابق أحمد في الأسر ·

الجوارى السود •• والعيون الزرق !!

بعد انصراف المرسال مال على السلطان الملك الصالح أبو الفـداء اسماعيل قائلا : « لاتصدق ما ســمعت •• أنهم يبلغوننى هذا الخبر ظنا منهم أنه يساهم فى اشفائى » • فسألته ان كل يظن القوة المطلقة فى أخيه الناصر أحمد فأجاب أن الناصر أحمد ليس على شىء من القوة ولكنه على شىء من الثراء فقد نهب الخزانة وحملها معه الى الكرك ـ يقصد طبعا خزانة الدولة لا خزانة البنود • ثم أضاف جلالته بأن مهمته الآن هى استنزاف الملك الناصر أحمد حتى تنفذ كل مدخـراته فيضطر الى تسليم نفسه وحينئذ ربما حصل على العفو السلطانى • قلت له فما العفو السلطانى يا أبا السباع يا مولاى ؟ قال هو أن تعلن عفـــوك ـ وأنت سلطان ـ عن عدو أو مناوىء لك بعد أن تضعه فى الحبس والقيود • قلت : ما أحلاه من عفو ، ثم أن السلطان لصالح مدد ساقيه الرفيعتين كساقى العنز حمراوين مبذورتين بالشعر الأحمر والأسود والرمادى ، وكان ساكنا عاقلا كما سمعت عنه وكما أكد لى صاحب السلوك المقريزى وصاحب النجوم الأتابكى ، كان بالفعل قليل الشر كثير الخير هينا لينا بشوشا ، وكان شكلا حسنا حلو الوجه أبيض بصفرة وعلى خده شامة ، رتب دروسا بمدرسة جده المنصور قلاوون ـ أو القبة المنصورية ، وجدد جماعة من الخدام بالحرم النبـوى كما أن له مآثر كثيرة بمكة واسـمه

مكتوب على رباط السدرة بحرم مكة ٠٠ وكان فى العشرين من عمـــره لحظة كنا جالسين معا تلك الجلسة حين وصل اليه خبر انتهاء العمل فى قاعة الدهيشة بالقلعة التى كان قد أمر ببنائها لتكون مجلسه الخاص ٠ حينئذ كاد يطير من الفرح ونظر لى نظرة ذات معنى قائلا : « قدر يا طرشجى يا حلوجى أن تفتتح معنا قاعة الدهيشة ولولا فالها الحسن ما نجوت من يدى » ٠ قلت : « فلماذا سميت بالدهيشة أولا ؟ » ٠ قال : « لأنها لابد أن تدهشك فور رؤيتها ٠٠ هكذا طلبت أن تكون وهكذا كانت » ٠ قلت : « فلماذا كنت تدبر لى شرا ؟ » قال : « لأنك طرشجى حلوجى لاتحسن الكلام وأن ضمنته صـــدقا ورأيا ذا موضـــوع ٠٠ أعلم يا طرشجى يا حلوجى أنك سوف تعيش تعســـا مدى الحيـــاة لقلة ما تملك من المداهنة والنفاق ٠٠ لسوف يكون عيشك نكدا وعلاقاتك مزقا ولربما فشلت فى كل العلاقات حتى بأبنائك ٠٠ لكنك مع ذلك سوف تبقى فى الضمائر ما بقيت لكلمة الصدق رجاحة فى الأذهان وما بقى للرأى الصريح تعزيز فى المجتمع ٠٠ لك الله على كل حـــال ٠٠ هو لن يتخلى عنك فلابد أن يكون هناك من يفهمك ويأخذك على راحتك » ٠ حقيقة لقد انبسطت من كلام السلطان وشعرت بخجل عظيم ، وتأكدت من طيبة قلبه وحسن ادراكه للأمور ، فقد تعلمت من أهل العلم والحكمة أن طيب القلب وليد لاتساع الأفق كلاهما صفتان أن وجدتا فى شخص اتسع صدره لعديد من النماذج البشرية المعقدة من أمثالنا ، لأنه بطيب قلبه واتساع أفقه يستطيع فهم الشخص على حقيقته ٠

فما أن أتممت هذه المقولة حتى دخل من أبلغ السلطان خبر الانتهاء من أمر « تكا الخضرى » ٠

هو ماء من تحت تبن كما نقول فى أمثالنا العامية ، فحيث يبدو أنه نقى السريرة برىء من العبث يتضح شيئا فشيئا أنه ولد « مقطع السمكة وديلها » ٠ ففى الصباح الباكر حين أعدت الأمتعة وأخذنا أهبتنا

للسرحة رأيت حركة غير عادية حول غرفة نوم السلطان ، عشرات من الجوارى السود لا مثيل لجمالهن بين البيض ، وجوه برونزية لأمعة كأنها تماثيل منحوتة من خشب الصندل المعطر بأزميل بارع ، كن جميعا فى حالة زأططة وكن أيضا يتحدثن فى ود مصطنع وأن كانت الغيرة بارزة فى العيون النجل ، وجاءت أم السلطان من الداخل بثياب الأطلسى الملون وعلى رأسها ـ مثلما على رؤوس كل الجوارى ـ الطراطير الجلد البرغالى أى أنه من جلد الفرس المبطن بجلد ذئب ، والطراطير كلها مرصـــعة بالجواهر واللآلىء . وكنت قد لبست ثيابى أنا الآخـــر وجئت لأوقظ السلطان وأضع نفسي رهن مشورته ، فلما وجدت أن كل هاتيك الجوارى جئن لايقاظه زاحمتهن حتى وصلت الى غرفته فطرقت بابهـــا فقال السلطان : « مين اللى بيخبط ؟ » . قلت له : « أنا يا أبو السباع » . قال : « حالا يا أبو شلبى » وأحسست من نبرته أنه فى غاية الانشغال فقلت له : « طب أنا حاسبقك على تحت » . قال : « على راحتك .. أنا جاى وراك حالا » . ونزلت أجرى الى تحت القلعة . فرأيت ميدان صلاح الدين فى حالة غير عادية ، تلون فجأة بألوان زاهية متعددة هى على التحديد ألوان ثيـــاب الجوارى وجواهن المتلألئة ، كن كالورود المنتشرة هنـــا وهناك فعرفت أن لهن بيوتا خارج القلعة يجئن منها فى أوقات معلومة غير أننى كنت أرى العجب منهن : رأيت أناسا من عليـــة القوم ذوى أشكال محترمة جدا يستوقفون بعض الجوارى ويقبلون أيديهن بسرعة ويعطيهن مظاريف مغلقة ، فسألت واحدا من العـــامة وقف بجوارى يتفرج : « هل هو (نقوط) ؟ » ضـــحك الحرفوش الأزعر وقال أن المظاريف المغلقة تحوى والعياذ بالله رشوة » ، قلت : « رشوة للجوارى ؟ » . قال : « نعم .. رشوة وقصة » .. قلت : « كيف ؟ » قال الحرفوش الأزعر : وكل من قدم مظروفا لجارية وضع فى المظروف قصة شكواه ووضع أيضا مبلغا من المال مقابل قيامها بالوساطة له فى حل مشكلته » . قلت : « هل بلغت سلطة الجوارى هذا الحد ؟ » . قال ضـــاحكا : « الست تعيش فى هذه الديار ؟ .. ان الجوارى هن أقوى حكومة فى

هذه الديـــار » • قلت : « فمـــا رأيك فى السلطـــان ؟ » • قال : « طيب وابن حلال ـ عيبه أنه يعشق الجوارى السود الى حد أكبر من عشقه للسلطنة وللديار ولكل شيء » • قلت : « كسبنا صلاة النبى •• أخوه يعشق الكركيين وهو يعشق الجوارى السود فلا بأس » • ثم نظرت فرأيت الموكب على وشك الاكتمال فجريت نحوه لاهثـــا حيث وجدت السلطان فى انتظارى واقفا • قلت له : « لمؤاخذه يا أبو الســباع » • صاح : « كنت فين يا أستاذ ؟ » • قلت : « كنت أفك حصرى » • قال : « أين ؟ » • قلت : ها هنا تحت جـدار بيت قديم » • أرتفعت حواجبه من الدهشة وقال فى كثير من الغضب : « تنزل من القلعـة لتفك حصرا فى الشارع ؟ أما صحيح طرشجى قليل الذوق » • قلت : « عفوك يا أبا السباع » وانحزت الى جواره فى بلاده ولوى شفتيه فى اشمئزاز ، ثم أن الموكب بدأ بركوب بعض المماليك المقربين ومضوا فى المقدمة • ثم ركب خلفهم أربعة من كبار الامراء يحوطهم رهط من الجند المدججين بالسيوف والخناجر ، كل أمير يتحوطه مجموعة من الفرسان ، ثم تقدمت سيدة سوداء أراها لأول مرة ، فلما حازت السلطان ارتعشت الابتسامة النشوانة على ثغريهما معا وكدت أسمع لقلب السلطان دقات نبض عالية فعرفت أن هذه هى محظيته الكبيرة وتعجبت من عدم وجود شيء فى ظاهرها ما يمكن أن يكون سرا فى تعلق السلطان بهـــا اللهـم الا بقايا من جمال غابر ، لكن شيئا غير طبيعى كان يبدو على محياها ، ثمة شيء مجهول لى يقول أنها شخصية غير عادية • بكل ثقة واتزان وسرور ركبت الكديش وأحسنت الركوب • خلفها مباشرة ركبت مجموعة من الرجال يحملون آلات موســيقية كالعود والكمـــان والأرغول والطبلة والدفوف والقيثارة ، ثم ركبت أم السلطان الأكاديشى فى مائتى امـرأة بثياب الأطلس الملون وعلى رؤوسهن الطراطير المرصعة بالجوهر واللآلىء وبين أيديهن الخدام الطواشية • ثم ركب السلطان فى رهط من الخدام والطواشية والمماليك كادوا يحجبونه عن الأبصار ، ثم ركبت أنا الآخر وأنطلقت فى أثره ، ثم نظرت خلفى فاذا بى أرى نساء كلهن مثل القشدة

يركبن الخيول العربية بالكامليات الحرير ويلعبن بالكرة فى مرح ودريه يتقادفنها من فوق الخيول ، فلما استهزأ الحصان بى باعتبارى غشيما أخذ يتلكأ وأنا فرح به وأقول لعله يدخل بى فى الكوكبة الأخيرة لأمتع أنفى بشم هذه الروائح الشهية ، لكن الحصان الخبيث سرعان ما اعتدل وأستأنف السير النشيط فانتبهت الى أن ثمة من استشاره واذا برجل كبير الحجم يوحى بأنه كبير المركز أيضا يمشى بحصانه جوارى ويبتدرنى قائلا : « صباح الخير يا حلوجى » . نظرت فى وجهه : « مين ؟ » . قال : « أنا عنبر .. مش عارفني ولا ايه ؟ » . قلت : « لم يحصل لى الشرف بعد » . قال : « محسوبك عنبر السحرتى .. لالاة السلطان ». قلت : « أهلا وسهلا ولكن ما معنى لالاة ؟ » . قال : « اللالا كلمة فارسية معناها المربى الأولى » . قلت صائحا : أ .. ه .. دلوقت بس فهمت يعنى ايه سويقة اللالا » قال : « ماذا ؟ » . قلت : « لاشىء ولكن أهو أنت اذن ؟ » . قال : « ماذا تقصد ؟ » . قلت : « لقد سبقتك الى أخبارك الطيبة السارة » . قال : « مثل ؟ » . قلت هامسا فى لهجة ودود : « هنيئا لك يا عم .. أنت كبير الخدام والطواشية ومطلق اليد فى الحكم .. وبسببك صار للخدام والطواشية سلطان عظيم يحكمون به » . ابتسم « عنبر السحرتى » فى دهاء كبير وقال من بين أسنانه : « شف يا طرشجى يا حلوجى .. مسألة أن يحكم الخدم والطواشية هذه ليست جديدة .. والا فمن الذى كان يتسلطن على هذه الديار منذ سنوات ؟ أليس هو المنصور قلاوون جد السلطان أبى الفدا ومملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب ؟ .. الحكاية كلها خدم فى خدم .. والسلطنة فى الديار المصرية لا تسألك ما هو أصلك ولا ماذا ستقدمه للشعب انما تسألك ما هى قوتك لتحتفظ بالأريكة الى مالا نهاية ؟ .. نحن خدم وطواشية أى نعم ، ولنا بعض القوة فى الحكومة أى نعم ولكن هل يعترض الخدم على الخدم ؟ .. فدعك من هذا وقل ما سمعته غير ذلك عنى » . قلت : « كل خير طبعا .. من ذلك مثلا أنك تقتنى البزاة والسناقر ، وتركب الى المطعم ، مطعم الطيور المخصصة للصيد ،

ذلك الذى ينزل اليه السلاطين حيث تطلق البازدارية طيـــورا أعدوها لذلك ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها كنوع من التسلية والرياضة السلطانية ٠٠ وعلى فكرة هذا المطعم قد أصبح في عصرنا نحن جبانة يسمونها الغفير ٠٠ وأنت تتصيد بثياب الحرير المزركشة وتتخذ لك كفا من الصيد مرصعا بالجوهر ٠٠ وتعمـــل لك خاصكية وخداما ومماليك فى خدمتك » ٠

أوشك « عنبر السحرتى » على الغضب لكنه كظم غيظه صائحـا : « شـغل تجسـس هذا أم تخابر ؟ » ٠ قلت : لا ٠٠ شـغل عبط لا أزيد ولا أقل ٠٠ ولكننى أنصحك لله ٠٠ فقد ثقل أمرك ـ كما لاحظت ـ على أكابر امراء الدولة » ٠ اكفهر وجهه ، تمتم : « هكذا » ٠ قلت : « نعم ٠٠ لقد أكثرت من شراء الاملاك يا عنبر ومن التجارة فى البضائع يا عنبر ، كل ذلك لكونك لالا السلطان ٠٠ ثم أنك أفردت لنفسك ميدانا تلعب فيه الكرة ٠٠ وتصديت لقضاء الأشغال ٠٠ وقصـــدك النـاس ، فصارت الاقطاعات والرزق والوظائف لا تقضى الا بالخدام والنساء » ٠

زام « عنبر السـحرتى » فى غيظ وهـــز رأسـه قائلا : « انهم يحقدون على وهم أجرأ من رأيتهم فدعك منهم » ٠ وكان الحوار قد شغلنـا وبث النشاط فى الحصانين فخرجا بنا عن اطار الموكب وصرنا نمشى بمحازاته واذا بنا فجأة فى محازاة السيدة السوداء التى استلفتت نظرى والتى تبادلت الابتسام مع السلطان ، فتمهل عنبر وغمز لى أن اتمهل أنا الآخر فتمهلت حتى تقدمت هى وسبقتنـــا من جديد فقلت له : « من هذه ؟ » قال : « أنهـــا اتفاق » ، قلت : « ماذا ؟ » قال : « اتفـاق ٠٠ هذا هو اسمها ٠٠ وشغلتها عواده ، أى متخصصة فى العزف على العود » ٠ قلت : « يا للعجب ٠٠ أيحبها السلطان ؟ » قال : « يعشقها الى حـد الوله » ٠ قلت : « يعشقهـــا كجـارية أم كعوادة ؟ » ٠ قال : « الله يعلم ٠٠ لعله يعشق الجانبين معا ٠٠ ولكنه يجزل لها العطاء بلا حساب ٠

واكراما لخاطرها قرب منه أرباب الملاهى وخاصة المطربين » . قلت : « هو فنان اذن » . قال عنبر : « ولكنه ان جلس بين يدى اتفـاق واستسلم لأنغامها وأصوات مطربيها فربما لا يقوم أبدا حتى لو اشتعلت الديار المصرية بالنار » . قلت « آدى عيبة » . ثم قال عنبر : « ألم تعلم بأنها ولدت منه ولدا ذكرا ؟ » . قلت : « أمعقول يا رجل ؟ » . قلت : « وفرح بها وعمل لها احتفالا بلغ الغاية التى لا توصف » . قلت : « ما شاء الله . ثم لذت بالصمت حتى وصلنا الى الهرم فتركنا الخيول وانتشرنا فى الخلاء قليلا ثم عدنا فتجمعنا فى جلسة كبيرة تحفها حوائط حريرية مزركشة ، وكان السلطان يتصدر الجلسة فوق الحشايا ، والى جواره « اتفاق » ومن حوله المحظيات وكانت أمه مشغولة باعداد الطعـام ، فلما أعلت امتـد السماط فوق الأرض حافلا بالطيور المشوية والمقلية وبكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب . وبدأنا الأكل وكان السلطان يمزق نسائر الطير المشوى . يلقى بها فى فم « اتفاق » وهى تفعل أيضا نفس الفعل ، فلما شبعنا رفع السماط بسرعة وجيء بالأكواب والقوارير وبدأ العازفون يستخرجون آلاتهم ويقومون بما نسميه « بالدوزنة » أى ضبط الآلات وشدها ، وراقبت وجه السلطان فوجدت علائـم السرور والبهجة واضحة عليه والاصفرار الذى فى بشرته البيضاء يختفى ليحل محله اللون الأحمر المنفعل ، ثم أن العزف بدأ جماعيا فى أول الأمر ثم انفردت كل آلة بمعزوفة مستقلة تشاركها بقية الآلات مشاركة جانبية ، ثم تنحنح مطرب وبدأ يغنى أشعارا بالعربية الفصحى مصحوبة بأنغام كالبشارف التركية ، فلما انتهى من غناء مقطوعته بدأ مطرب آخر وثالث الى أن سخنت « اتفاق » وقدمت فاصلا من العزف على العود يشيب له رأس الطفل من فرط الابتهاج حتى لقد خيـل الى أن السلطان يـكاد يتلاشيء . وكنت أنوى الجلوس أمامها الى ما لا نهاية ولكن يبـدو أن السلطان قد لحظ ذلك فحركته الغيرة فمال على أذنى هامسا : « أريدك أن تقوم بمهمة فهل أنت مستعد ؟ » . قلت : « طبعا أنا تحت أمرك ولكن متى ؟ » . قال : « الآن » . قلت : « اليس يمـكن تأجيـل الطلب

السلطاني ؟ » · قال : « وهل يعقل هذا ؟ » قلت : « لك الأمـــر فماذا تطلب يا أبا السباع ؟ » · اعتدل جلالته وانتحى بي جانبـــا وقال أن آق سنقر السلاري نائب السلطنة يفعل أشياء غير طبيعية ولذا فقد وجب مراقبته قبل أن يتخذ منه السلطان موقفا وأنني ــ الطرشجي ــ مطلوب مني الاختلاط به منذ هذه اللحظة ومعرفة أمره عن قــرب · أكبر عمل يصيبني بالغثيان هو التخابر أو التجسس بجميع أنواعهما حتى ولو كان ذلك في سبيل المصلحة العامة ولهذا قررت أن أستجيب لأمر السلطان في الظاهر فقط، وأخذت أتلكأ حتى تنتهي « اتفاق » من العزف والغنـــاء . فاذا بأحد الطواشية يقبل ويميل على أذن السلطان هامسـا بصـــوت مسموع أنهم قد نفذوا أمر السلطان وقبضوا على الأمير بيغـــرا أمير جاندار صهر آق ســـنقر المذكور والأمير « قراجا » الحاجب وأخيـــه « أولاجا » وطنبغا الدوادار الصغير · لم يشعر الطواشي أنني قد سمعت الكلام ، وكذلك خيل للسلطان أن صوت العزف سيطغى على صـــوت الهمس فقال للطواشي أن عليه أن يؤجل القبض على بقية القائمة لحين صدور أوامر أخرى · فانصرف الطواشي ولكزني السلطان وأمرني أن اقوم من فوري لانهاء مهمتي على أن أعود اليه في الاستراحة من الغد حيث سيمكث هنا يومين بليلتين ، ورسم لي الخطة البسيطة التي تتلخص في أنني موفد من قبل السلطان للسؤال عن صحته · نهضت على مضض وطلبت ركوبه وبعض الخدم فأجيب طلبي في الحال ، وفي الحال أيضا انطلقت الى بيت آق سنقر نائب السلطنة ·

لحظتها كان يتناول غداءه فنهض ليسلم علي فقلت له : « لا سلام على أكل » فاستأنف الأكل وجلست بجواره أجيبه عن أخبار صحتي وصحة السلطان وحسن الأحوال · وطرق الباب طارق فأذن له بالدخول فلما دخل وجدته رجلا من علية القوم بيده قصة مكتوبة ، نفض آق سنقر يده من الطعام لبرهة ثم فرد الورق وطلب قلما فأعطيته فأستعد للتأشير ناظرا الى الرجل قائلا : « هيه ·· طلباتك ·· أقصد ما الذي في هذه القصة ؟ » ·

قال الرجل : « أقرأها يا سيدى » . وقال آق سنقر : « لا يهم .. قل بلسانك » قال الرجل : « أبقاك الله لقد أنجبت زوجتى ثلاثة توائم فى بطن واحدة وأنا قليل الكسب وأحتاج الى بعض المساعدة ، فأشر آق سنقر على الورقة قائلا : « يمنح قطعة أرض زراعية فى اقليم الجيزة تقدر بعشرة فدادين لكل ولد ثلاثة وللأب فدان .. وعلى الجهة المسئولة ان تدبرها وتسلمها له لتصبح ملكا له الى الأبد .. هه .. توكل على الله يا رجل » . فأخذ الرجل ورقته وانصرف مبتسما وقد أحسست من ابتسامته الصفراء أنه غير صادق فيما قال . فما أن خرج حتى طرق الباب طارق آخر فأذن بالدخول فدخل فسلم علينا فقال آق سنقر : « ما طلباتك ؟ » . قال الرجل الثانى وهو يحاول كتمان غضبه الهائل : « أنا ياسيدى — أعانك الله — صاحب القطاع الكبير فى اقليم أمبابة ، وهذا الاقطاع ورثته عن أجدادى وأضفت عليه من كدى حتى وصل الى ما يزيد عن مائة فدان وعزبة وقصر فخيم » . قال آق سنقر : « أهلا بك فماذا تطلب ؟ » . قال الرجل الثانى : « أطلب أقطاعى » . قال آق سنقر : « وأين اقطاعك ؟ » قال الرجل الثانى : « لقد جاءك رجل اثناء سفرى وطلب منك أن تهديه له فأهديته له ولما عدت من سفرى علمت ذلك ووجدت الرجل قد استولى عليه بالفعل » . قال آق سنقر : « وماذا تفعل الآن .. اقطاعك أخذه رجل غلبان .. على كل حال اختر لنفسك اقطاعا غيره ونحن نأمر لك به » . قال الرجل : « اذا كان الأمر كذلك لا أجد أمامى سوى قطعة أرض تصل حوالى ثلاث مائة فدان وعليها عزبة وقصر ، صحيح أنه اقطاع أكبر من اقطاعى ولكننى طمعت فى كرمكم .. وهذه هذه قصتى فيها القطعة التى اخترتها » .. وقدم ورقة مكتوبة فتناولها آق سنقر وأشر عليها قائلا : « أمرنا له بالاقطاع المذكور » . ثم انصرف الرجل وأخذ آق سنقر يمسح يديه من لزوجة الأكل بفوطة على ركبتيه ، واذا بصياح يرتفع خارج القاعة ورجل يطرق الباب فاذن له بالدخول فدخل يبكى ويشق الهدوم ، فقال آق سنقر : « لا تبك يارجل هكذا كالنساء .. اجلس وقل لى ما هى مشكلتك فبعون الله نحلها لك .. فقال الرجل : « أنا صاحب الاقطاع الذى أمرتم به للرجل الذى كان هنا

منذ برهـة وقد تحاملت على نفسي من شدة المرض وجئت إنقـذ أملاكي
.. هذا الرجل يا سيدى هددنى بأنه سيفعل هكذا نكاية فى وها هو ذا
قد فعل .. قربت آق سنقر على ظهره فى حنان وقال : « لعنة الله عليه
.. لكننا اعطيناه الاقطاع وانتهى الأمر فاختر لنفسك اقطاعا يعجبك ونحن
نامر لك بـه .. » : قال الرجـل وهو يبـكى : « ليس فى البلاد اقطاع
يماثله » . قال آق سنقر : « اذن فبكم تبيعه لنا ؟ » . قال الرجل مندهشا:
« أتدفع ثمنه يا سيدى ؟ » . قال آق سنقر : « ليكن .. فما ثمنه الذى
تريد ؟ .. قال الرجل مبلغا كبيرا فسحب آق سنقر ورقة وأشر عليها
قائلا : « يعطى الثمن الذى يراه مقابل اقطاعه » .. أخذ الرجل الورقة
وانصرف . ودخل أحد مماليكه وقال أن امرأة توفيت فى الحارة البعيدة
وتركت يضيعة أولاد يتامى بلا عائل . قال آق سنقر : « أحضرها لتعيش
هنا معنا وادخل أولادها مدرستنا وأصرف لهم كل ما يريدون على حسابنا » .
وهنا كان العجب قد بلغ بى حدا كبيرا فقلت له أن ما يفعله وان كان بدافع
الطيبة وحب الخير الا أنه يحتاج لمراجعة . فنظر لى غاضبا وقال : « ماذا
تعنى يا سيد طرشجى ؟ » . قلت : من أدراك أن هؤلاء الناس يفتعلون هذه
المشاكل للحصول على هذه المكاسب الفاحشة .. أخشى أن أقول أن هذا
سفه » . قال آق سنقر غاضبا : « ليه تقطع رزق الناس ؟! » قلت : هذه
لسيت أرزاق انما هو نهب ونصب واحتيال » . قال آق سنقر بمزيد من
الغضب : « هذا شيء لا شأن لك به » ، فلزمت الصمت وقررت أن أدلى
بتقرير صريح يتضمن عدم موافقتى على مثل هذه الفعال الهوجاء . لكننى
فوجئت بثلاثة رجال أشداء يدخلون علينا فى هيئة رجال غلابة بيدهم
أوراق شكوى ، فلما أعطاهم آق سنقر ظهره انقض عليه أحدهم من الخلف
فطوقه بذراعيه وانقض الثانى بحبال أخرجها من عبه وراح يكتف آق سنقر
فى حين وقف الثالث شاهرا خنجرا ونظرت فرأيت عددا هائلا من الطواشية
واقفين بالسيوف والخناجر على أهبة الانقضاض لدى أقل مقاومة . ومن
الحبل تم سحب آق سنقر الى الخارج حيث وضع على حصان وانطلق يجرى
به مصحوبا بالحرس السلطانى ، ثم ركبت حصانى وانطلقت عائـدا الى

السلطان فى استراحته بالهرم ، ولحق بى أحدهم وسألنى ان كنت مبسوطا مما حدث فأجبته بأننى مبسوط ، فقال لى أن السلطان امر القبض عليه منذ دقائق معدودة حيث بلغه أن سنقر مباطن مع الملك الناصر أحمد وأن كتبه تصل اليه فصمم ارغون العلانى على مسكه فاستجاب له السلطان . قلت فى نفسى : « هذه هى التهمة الأزلية كفانا الله شرهـا » . ومضيت لا الوى على شيء .

وصلت الى استراحة الهرم فلم أجد للسلطان أثرا هناك وقيل لى أنه قد عاد الى القلعة فجأة لأمور استجدت . فانطلقت أجرى الى القلعـة وصعدت الى مجلس السلطنة فوجدت السلطان جالسا على الأريكة ووجدت رجلا يقف أمامه خيل الى أننى رأيتـه من قبـل . فلما دققت فى ملامحه اكتشفت أنه الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، ذلك الرجل الفاضل الذى دخل فى صراع مع سـكان خزانة البنود واضـطر الى ترك الحى برمته والانتقال الى بيت له فى العباسية . وعرفت أن السلطان قد خلع عليـه بالاستقرار فى نيابة السلطنة عوضا عن آق سنقر السلارى المذكور . وكان الأمير الجوكندار يقف ويبدو عليه الحرج فيما يقول للسلطان : « لقد تشرفت يامولاى بثقتكم فى .. ولكن ليسمح لى مولاى بأن يكون لى بعض الشروط حتى أقبل النيابة » . قال السلطان : « تكلم يا أمير .. قل كل شروطك » . قال الأمير الجوكندار : « الخزانة يا مولاى .. خزانة البنود هذه التى صارت أسوأ بقعة فى البلاد وصارت كالدمل الممتلىء بالصديد » . قال السلطان : « ماذا تبغى بشأنها ؟ » قال الأمير الجوكندار : « نهدمها ونشرد من فيها » . قال السلطان : « لك ما تريد يا أمير ولكن هل تستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة ؟ » قال الجوكندار : « لسوف اتفـق مع والى القاهرة وندبر للخلاص منها اذا وافقتم على ذلك » . قال السلطان : « اتكل على الله يا أمير » . فانحنى الأمير الجوكندار وسلم على السلطان وقبل يده فى امتنان وبدت على وجهه علائم الراحة والسرور الشديدين ، إما أنا فقد اقشعر بدنى من خوف لذيذ . . . .

اعلان الحرب على خزانة البنود

لاحظت أن الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بالديار المصرية يرمقني بنظرات تكاد تكون شرسة وعدوانية ، ولولا بقية من احترامه للسلطان لوضع في عينيه بعض الأحتقار لشخصي الضعيف ، لكنه بعد أن قبل يد السلطان وجلس أخذ يلطف من نظراته ويكاد يقفز من عينيه سؤال : « أظن أنا شفتك قبل كده » ، ويكاد يقفز من عيني الجواب : « أي نعم شفتني في خزانة البنود » ، وأحسست أنه يضيق بجرأتي في التحرك ومخاطبة السلطان ولا يكاد يقبل منحي صفة الانسانية ، فكرهته رغم يقيني بأنه رجل فاضل ، وعجبت كيف يمكن للانسان أن يكره رجلا فاضلا ! وأجبت بنفسي على نفسي قائلا : « ان الانسان يكره بقدر ما في نفسه الداخلية من تلوث وحقد ، أنا مثلا أضمر في نفسي الداخلية تلوثا وحقدا نشأ من حساسيتي ضد الاحترام المطلق لمن يسمونهم بالفضلاء ، خاصة الفضلاء من نوع آل ملك على وجه التحديد ، لقد كان فاضلا من وجهة نظر أن الأمور كلها مستريحة وفي غاية من الاستقرار ثم من وجهة نظر السلوك الديني فحسب ، ذلك أنه لم يكن يمانع في أن يعيش هؤلاء الأجانب ويستوطنوا الديار المصرية ويفعلوا ما يروق لهم فيما عدا شرب الخمر ولعلهم لو شربوا الخمر سرا وبعلمه لما تحرك أو انفعل ، أنه لم

يكن أميرا فحسب ، ولا مجرد واحد من كبار الأمراء وانما كان يمثل طبقة معينة من الأمراء ، لا يعنيها أمر السلطة ولذا لا تسعى اليها فأمنت بذلك نفسها من كل مفاجيء وخطر في دنيا السياسة ، وعرفت أن السلطة الحقيقية في الديار المصرية هي سلطة الدرهم والدينار فأمنت بذلك من كل عقبة كأداء في حياتها ، وأيقنت أن مصر المحروسة موجودة طول عمرها ومنذ خلقها الله وقبل أن تتشرف البرية برسول الاسلام وهي تؤمن أن الله واحد ولا شريك له ولذا فان المسلك الديني الخاص هو ـ والمتيقن ـ جواز المرور الأعظم للسيطرة على قلوب المصريين • ولما نظرت في عيني الحاج آل ملك الجوكندار لمحت خلف بريق عينيه الذكي الوديع شراهة لالتهام الحياة وظلا يجمع بين الخبث والبراءة • لحظتها كان السلطان ذو العشرين عاما يجلس في شرود وقد ظهرت عليه لأول مرة وبشكل حاسم علائم الهزال والضعف الجسدي • وهنا اعتدل الجوكندار وقال مع ابتسامة لينة : « اذا سمح لي مولاي السلطان فان لي شروطا نسيت أن أذكرها » • من أعماق بئر بعيدة القرار جاء صوت السلطان « تفضل يا أمير •• قل كل ما تبغي » • لم تعجبني انتهازية الجوكندار ، بل لم يعجبني دخوله في الحديث هكذا وهو يرى أن السلطان يكاد يقع مغشيا عليه من فرط التعب ، فصممت على ابلاغه ، فقلت أن السلطان متعب لما بذله من جهود كبيرة في المفاوضات مع من عرض عليهم نيابة السلطنة ولم يوافقوا ، فنظر الجوكندار نحوي بغيظ فأضفت بسعادة خفية أن مولاي السلطان « اضطر » الى الاستعانة بالجوكندار بعد أن تهرب الجميع من المنصب ، وأخذت أعيد وأزيد في هذه المعلومة في اطار ابداء الشفقة على السلطان بل ازداد ـ طبعا ـ أصرارا عليها • قال : « من شروطي التي أشرطها على السلطان ألا يفعل شيء في المملكة الا برأيي ، وأن يمنع الناس الخمر ، ويقام منار الشرع ، والا يعترض على أمر من الأمور » • فهز السلطان رأسه موافقا ثم أضاف « لك ما طلبت يا أمير » •

... ثم أن الجوكندار قرر الانتقال الى دار النيابة من فوره ولكنه تذكر أنه سوف يخسر بذلك مظهرا وأبهة لا يجب أن يخسرهما ، وفي صباح اليوم التالي أحضرت التشاريف فافيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل وكانت ساعتي تشير الى يوم الجمعة الثاني عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة . وقد أديت صلاة الجمعة بجواره ، فلما ختمت الصلاة نظرت خلفي نظرة تجاوزت حدود صف الأمراء وكبار رجال الدولة فرأيت بعض الأرمن والفرنجة من سكان الخزانة يؤدون الصلاة تعجبت كيف أتيح لهم دخول جامع القلعة . تهدمت بعض الصفوف الأمامية والخلفية بانصراف ناس مسرعين واختلطت بعض الصفوف ببعضها ووجدتني فجأة بجوار أحد الأرمن سكان خزانة البنود الذي همس في أذني قائلا : « الأمير خزعبل يطلبك على وجه السرعة وقد جئت لأداء الصلاة حتى ألقاك » . فقلت له وأنا أقشعر : « ولماذا جاء معك هؤلاء ؟ » . قال : « جاؤوا لأغراض أخرى وربما لطلب ناس آخرين المهم أن أحدا منا لا يعرف لماذا جاء الآخر بل لم يكن يعرف أن آخر سيجيء ؟ » . فملت عليه هامسا راجيا أن يبلغ تحيتي للأمير خزعبل ويخبره أنني في موقف حرج بعض الشيء وأنني ـ حرصا على مصلحة الخزانة ـ سوف أضطر الى البقاء بجوار الحاج الجوكندار في هذه الآونة على الأقل . فقال أن الأمر لن يكلفني أدنى تعب ، فقلت له ان مسألة ذهابي الى الخزانة أمر محفوف بالمخاطرة والأشواك قال : « ولماذا تذهب الى الخزانة ؟ ان الأمير خزعل ينتظرك في الصف الأخير في هذا الجامع الذي نجلس فيه الآن ! » . أصابني الدوار والذهول، كيف أتيح لخزعل أن يدخل هذا الجامع الخاص وهو معروف وشكله مدموغ . وكان الجوكندار قد اندمج في ختام الصلاة وقراءة بعض الأوراد حين تسللت من جواره حافيا أركض نحو الصف الأخير ، ولفت انتباهي يد ترتفع في الهواء كأنها تدعو وفي نفس الوقت تشير الى ، كان صاحبها شيخا مسنا ذا لحية مستطيلة كثيفة ، فلما تقدمت منه مستفسرا أنبأتني الدماء التي في خديه وجبهته والنظرة التي في عينيه أنه الأمير خزعل بنفسه فارتعشت أطرافي وجلست جواره هامسا في أذنه : « كيف أتيح

لك الدخـول ؟ » . فقال كما ترى تنكرت فى زى رجل متدين من علية القوم » . قلت : « لماذا .. ما الذى تنوى فعله ؟ » . قال : « نطلب منك طلبا واحدا تعبر به عن ولائك لوطنك ــ اقصد الخزانه » . قلت متجاوزا عن مسألة وطنى هذه : « ماذا تطلب ؟ » . قال : خطة الحاج آل ملك وتحركاته فى الايام القليلة القادمه .. لقد علمنا انه شرع فى الانتقام منا ورسم بعض الأولاد خطة لاغتياله ولكننى منعتهم من هذه الحماقات وقررت قتله بشكل آخر » . قلت والرعشة تكبل لسانى : « وكيف ذاك ؟» . قال : « لا شأن لك » . قلت فى الحاج : « لا بد ان أعرف باعتبارى مواطنـا خزانيا من الدرجة الأولى ، وباعتبارى سيكون لى دور فى محاربة العدو » . قال خزعل : « سوف نستخدم فى ضربه نفس السلاح الذى يضربنا به .. أنه يحارب الخمر ، وسوف نترك الخمر ترد عن نفسها العدوان .. سوف يتضح لكل أفراد الشعب ولكافة المسؤولين أنه رجل خمرى مثلنا يشرب ويسكر ويفقد الوعى على الدوام .. ولسوف يتضح ما هو أكثر من ذلك .. سوف يتضح أنه المصدر الرئيسى لكل ما فى المنطقـة العربية من خمور متنوعة الأصناف .. سوف يتضح هذا بالدليل القاطع واذا لم ينجح هذا السلاح فى ضربه فى مقتل فأننا سوف نجهز عليه نهائيا ! . الواقع لقد أحسست بالخوف يسرى فى كيانى ، كان خزعل يستطيع أن يفعل هذا فى نائب السلطنة بالديار المصرية فما الذى يستطيع أن يفعله فى رجل مثلى ؟ لذلك قررت ألا أعترض ووافقته على كلامه قائلا أننى سوف أمدهم بما طلبوه منى خلال الساعات القليلة القادمة ، ثم وقفت واستدرت عائدا لأرى الحاج الجوكندار لا يزال يتركع ويمسح على وجهه فى خشوع وتبتل غريبين كأن الله بذاته يحدثه فى هذه اللحظة : ايمان لا شك فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ، عجبا لحضارة تقصف الأظافر الدامية فى البشر اذا بلغتهم بذرة الايمان ولم تحتجزها صخور النفس الدنيوية ، وهؤلاء قوم اشتهروا بصلفهم وغلظة أكبادهم وتضخم ذواتهم قد غزوا بلادنا وتملكوها وبلغتهم الرسالة السماوية من خلالنا ، كنا نحن المصريين العرب معبرا شفافيا وصافيا الى السماء ولكن لما كانت بذرة الايمان كغيرها من سائر

البذور الاصيلة تحتاج أرضا صالحة كما تحتاج رعاية خاصة وريا خاصا فان قلوب الغزاة بالضرورة ليست أبدا هذه الأرض الصالحة ولذا فقلما تجد قلبا يتعرض للشمس باستمرار وتسرى أشعتها فى جوفه ، بذرة الايمان تجد مع ذلك بعض الأرضيين وتكون بالكاد قد نمت فى شخص ونبتت لها فروع فى شخص آخر وازدهرت فى شخص ثالث وآتت ثمارها العظيمة وأكلها فى شخص رابع وهكذا ، الجوكندار تظل من أعماقه روائح طيبة من شجر هذه البذرة لكنه فوق الأفق يهدم باليسار ما يبنيه باليمين ، يعترض وبقوة وصلابة ولكن على المسألة الثانوية ولو كان اعتراضه هذا بقوته هذه وصلابته هذه على الجوهر الأصيل للداء لكان له ولنا وللديار شأنا آخر ، ثم أنه يتنازل القوى الشريرة هابطا عليها من السطح فهو أما يصيبه الرذاذ أو يهوى الى القاع فيكون من المغرقين ٠٠

كانت نظراته ترمقنى بسرعة خاطفة فلا أرى فيها سوى التوجس منى يختلط بأنفه وغطرسة تثير سر هذا الحجر ، هو صحيح يسجد لله خاشعا فما سر هذا الكره لى وللصفوف الخلفية قاطبة ! هو صحيح يسجد لله خاشعا لا عن عبودية أصيلة بل للارتفاع بنفسه الى مستوى الذروة ، أنه هو والله أصدقاء فهل يا ترى يتدنى ليصادق شخصا حقيرا مثلك فى الصفوف الخلفية من البشر ! ٠ الحق لقد تحيرت لحظتها وواجهتنى المشكلة الكبرى : لصف من أنحاز وقد صرت كالحاجز الزجاجى الذى يفصل بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية فى أتوبيس من أتوبيسات قاهرة القرن الرابع عشر الهجرى مزدحم ولزج وكريه كريه كريه ٠ سألت نفسى بوضوح : هل أضع نفسى فى خدمة الخزانة واوقع بالجوكندار فى الفخ لحسابهم ؟ أم أضع نفسى فى خدمة الجوكندار واوقع بأهل الخزانة فى الفخ لحساب الحكومة حقنا للدماء ومنعا للاضطراب ؟ كنت فى الواقع أملك القدرة على لعب أى من الدورين وليس فى استطاعتى أبدا أن ألعب الدورين معا مع أن الكثيرين من أقاربى أبناء شنلبى يلعبونهما بنجاح وبقدر ما فيهم من أخلاقيات الأنبياء فيهم من أخلاقيات العميل المزدوج ٠٠ أما أنا

نباعتباري طرشجيا حلوجيا كاتبا فانني أرى وجودي الحقيقي يتمثل دائما في الأنحياز لشيء أعتز به وأقتنع بعدالته • وهنا اطل برأسه خاطر حاد الملامح والتقاطيع يضيح بي في نبرة ساخنة لاهية : كن مع الحزانة يا عبيط فهي التي تستطيع ــ بانعدام مبادئها ــ أن تحميك من حملة المبادئ وبفضلها قد صعدت شخصيتك ولمعت في المجتمع فصرت مملوكا سلطانيا وقدر لك أن تجالس كبار رجال الدولة وأن تصلى الآن بجوار نائب السلطنة كتفا لكتف وهي ان كانت قد منحت حمايتها لقطاع الطرق واللصوص فأنهامنحت حمايتها أيضا لكثير من الغلابة والمظلومين وفاقدي الحول والطول والواقعين بين فكاك الذئاب ولذا فمن المفيد أن تظل قوة غاشمة كهذه تناهض استبداد الحكومات المملوكية وتهد من جبروتها •

ولكن خاطرا أشد سخونة وأقسى ملامح أرتفع رأسه بأعماقي صائحا : « يا رجل عيب اختشى ، هؤلاء سفلة لا أخلاق لهم وبؤرة صديد تشفي بالدود والجراثيم ساهم في تطهير المجتمع منها ، ساهم يا مؤمن في بناء بيت من بيوت الله ، بيت تقام فيه الصلاة ، وطردت من ذهني صورا عديدة لحاملي هذه الصناديق في قاهرة القرن الرابع عشر الهجري واستجبت للخاطر الذي راح يؤكد لي أن هؤلاء سفلة فوق أنهم سفلة استحلوا الديار المصرية ــ وهي ديارك ومضارب أهلك ــ وعاثوا فيها فسادا وهم مهما أعطوك من حماية يظلون أعداءك الحقيقيين • قلت لهذا الخاطر ورذاذ التفتفة يتناثر على لساني : كلاهما عدو لي ، كلاهما لا يتورع عن ضربي بالرصاص كلما وجد أن ضربي بالحذاء يجد مني قبولا حسنا ، كلاهما أباح لنفسه أن يستذلني ويستعبدني ويتاجر في مصيري ويبيعني من أجل ليلة هنية ، وطالما أن كليهما يملك القوة ويملك من ثم القدرة على البطش بي ان خالفت اتجاهه فأنني ــ شأن أبناء الديار المصرية ــ سأتجنبهما معا ولا أؤازر أيا منهما وأن أعطيته ريقا حلوا ، سأكون سلبيا وأترك أحدى القوتين تبطش بالأخرى ، أنني أكرههما معا واحتقرهما معا ولا نفس لي في مؤازرة أحد • انبثق خاطر دافيء طغى على كل الخواطر كمطرب قديم حريف الصوت قال لي اسمع يا طرشجي يا حلوجي انك لا يصح أن تضع

نفسك فى القطيع والا فسحقا لكل الثقافات التى ابتدعها الانسان. بل، انك بوضعك نفسك في القطيع تمتهن الثقافة الاسلامية نفسها لأنها تحضك على أن تكون ذا موقف مستنير وعادل · قلت والطرب يستخف بأعطافي : فلمن انحاز وليس في الطرفين من يجدر بالانحياز ؟ قال الخاطر بصوته الشجى الدافىء : أذكر قوله طارق بن زياد تجد نفسك فى موقفه وحينئذ تصرف كما تصرف هو ، لقد كان بين طرفين كلاهما مر ، العدو من أمامه والبحر من خلفه وكان لابد أن ينحاز لينقذ حياته وحياة فيلقه ولما كانت حياته مهددة من الطرفين فأنه أنحاز للمبدأ الذى يؤمن به ، وأنت أيضا يجب أن تنحاز للمبدأ وان لم يكن ثمة مبدأ فى الأمر فعلى الأقل يكون موجودا فيك وحدك . المبدأ أن بين عدويك عدوا يمثل شخصية الديار ويقف باسمها ، المبدأ أن تقف فى صف الديار حتى وان كان ممثلها غليظ القلب دخيلا مغتصب سلطة . أنت اذن تدافع عن ديارك لا عنه شخصيا ، أن التزامك بالمبدأ سوف يعفيك من العذاب الأبدى ·· فقوة شريرة واحدة « أفضل » من قوتين ! أتق الله يــا طرشجى ولا تساهم فى أن يحكم الديار قوتــان شريرتان · استخفنى الطرب الى أقصى حد ورأيتنى أنهض مع الجوكندار وأنضم اليه فى المسير وفى داخلى قوة مجهولة تبعث على الانتشاء ، ومررنا فى طريق الخروج من المسجد بخزعل فرميته بنظرة احتقار وتشف ··

تناولت الغداء ثم العشاء على مائدة الجوكندار وفى رهط من أصدقائه المقربين من بينهم أمام مسجده الخاص الذى ابتناه فى الحسينية · ولم يكن لنا من حديث طوال الليل سوى أهل الخزانة المارقين وما يهرقونه من خمور فى شوارع المدينة وما يجاهرون بــه من مسخرة · وسخنت الدماء فى عروقى والحق يقال ، وعجبت كيف أننى أقشعر هــكذا لمجرد الاستماع الى أخبارها مع أننى كنت أراها رؤية العين ولا تهزنى ؟! قلت لنفسى أننا فى قلب الوحل وبما نفقد الشعـــور بأننا فى الوحل والمارج الكثيف لو شعر لحظة بعمله لعاش طول العمر قرفان ، نعم لقد فقدت الاحساس بغرابة ما كانت تفعله الخزانة كسلوك عام وكواقــع قائم

ولكننى كنت أحس ببعض الاشمئزاز اذا ابتعدت قليلا واندمجت في نظافة الشغب . أما في مجلس الجوكندار فأنني أحس بالاشمئزاز منها حتى النخاع ، ورأيتنى مدفوعا الى تنوير الجوكندار بما يدبر له فى الخفاء ، ان المبدأ يقتضى اذا انحزت لموقفه أن خلص له كل الاخلاص ولا أخفى عنه خطرا يمكن التحصن ضده ، وكان الجوكندار قد نهض مستأذنا لقضاء حاجة فأردت الخروج وراءه لكى أنفرد به وأبلغه ما أخشى عليه منه ولكننى ما أن قلت له : « عايزك فى كلمة » ومضيت خطوات الى الردهة حتى وجدتنى محاصرا برهط من العسكر المتنكرين فى زى مدنى على أهبة الانقضاض على وتفتيتى ، فعرفت أن الجوكندار لم ولن يعطينى الأمان ولا الثقة أبدا مهما قربنى منه فأحسست بألم شديد وطفرت الدموع من عينى ولكننى قمعتها بابتسامة شاحبة خجلى وقلت للجوكندار مداريا خجلى مما أنا فيه : « طيب بعدين أما تيجى » ، وعدت الى مجلسى كخرقة بالية . . وكانت موجات الحقد غالبة والبحر هائج مضطرب ورأسى لا يؤتمن ، فموجة تلطمه الى أسفل فأقرر أن أمسك السر منه تاركا اياه يقع فى الفخ وموجة تلطمه الى منحدر فأقرر أن أقوم من فورى متجها الى الخزانة معتصما بها ، وموجه ثالثة تلطمه بشدة الى أعلى فأفيق لبرهة يتكشف لى خلالها أننى قد صرت غير قادر على اتخاذ أى موقف وأنه قد حكم على بالشلل النفسى . من لحظتها لم يعد لى وجود فى المجلس ، ولم تهدأ موجات الحقد الا فى الهزيع الأخير من الليل حين مال الجوكندار على واعتذر بقليل من الرقة عن سلوك « الأولاد » تجاهى حيث أنهم اختيروا لجلافتهم ، ثم قال لى : « فيم كنت تريدنى ؟ » وسالت اللزوجة من ابتسامته وأحسست أن اعتذاره برقة مفتعلة ليس بدافع أصيل بل بهدف الضحك على ذقنى لمعرفة ما عندى من الأسرار ، فقررت عدم الافصاح عن الحقيقة نكاية فيه ولكننى فى نفس الوقت قررت عدم المشاركة فى ضربه زهقت من الرد على الحاحه بقوله : « مفيش مفيش » وفى النهاية قلت له أننى كنت أطلب خدمة خاصة بى تتعلق بمصيرى كمملوك سلطانى ، فهز رأسه

بسخرية واضحة وانصرف الى الآخرين وانصرفت أنا الى الكابة المنتظرة بداخلى على الدوام . ولما انصرف الجميع ما عداى أبديت رغبتى فى الانصراف للنوم فى جناحى بالقلعة . فخشى أن يعزم على بالبقاء للنوم فى داره لئلا أتصور أنه قد سجننى ، لكنه كان ذكيا حينما نادى رهط العسكر وأمرهم بأن يعتذروا لى وأن يكفروا عن غلطتهم بتوصيلى حتى القلعة فى حراسة مشددة ، فكادت تنفقع مرارتى وأنا أجدنى مطالبا بالشكر على الامعان فى أهانتى . لكننى كتمت غيظى ولم أوجه كلمة شكر واحدة وانما اكتفيت بالسلام عليه والاندفاع خارجا فما أن امتلكت قدماى الشارع صرت أجرى مباعدا المسافة بينى وبين الحرس كأنهم لا صلة لهم بى ، فلما وصلت الى القلعة اكتفيت بالتلويح لهم من بعيد وفى سرعة ثم دفنت نفسى فى مخدعى وقلت مرحبا بالأحلام المزعجة .

فلما أصبح يوم السبت نهضت من الفراش بدعوة عاجلة من نائب السلطنة . اغتسلت وخرجت لأرى رهط العسكر نفسه فى انتظارى نادركت أنهم لم يغادروا مكانهم منذ ليلة أمس . استقبلونى بابتسام لبق وقالوا لى أنهم وفد الحراسة المنوط بحراستى الى دار النيابة . فشكرتهم وسألتهم مداعبا ان كانوا قد عادوا الى الحسينية أم ظلوا يحرسوننى حتى الصباح ، فأنكروا بكل بجاحة وكل قوة أنهم تشرفوا برؤيتى من قبل ! . وكان فى صوتهم وسلوكهم صلف وخبث وغطرسة لا يمكن أن يحبها الانسان مطلقا ولا يمكن أن يحب من ينتمون اليه . وصلت الى دار النيابة وكان الجوكندار يجلس فى نفس المقعد الذى التقيت فيه بطشتمر الساقى حمص أخضر من قبل . سلمت عليه ووضعت نفسى تحت أمره فقال أنه يجب أن أبقى معه فربما يستشيرنى فى أمر يعن له ، فشكرته على هذه الثقة العظيمة وانصرفت الى كآبتى . طرق الباب ثم انفتح ودخل والى القاهرة ، فقدم فروض الطاعة والولاء وانتظر حتى أمره الجوكندار بالجلوس فجلس ، فقال له الجوكندار فى لهجة خطيرة وحاسمة : « بقاؤك مرهون بهزيمة الخزانة فماذا قلت يا والى القاهرة » . اعتدل والى القاهرة فى

جلسته وتلبسته حالة من الشراسة أرعبتنى ، قال : « خزانة ماذا يا سيدى ·· ظننته مرهونا بهزيمة الأعداء من الفرنجة » · قال الجوكندار: « يعنى هل أنت مستعد للدخول معها فى حرب ؟ » قال الوالى : « حرب » ، قال الجوكندار : « نعم هى لابد أن تكون حربا بمعنى الكلمة ، أنهم آلاف من المجرمين ولن يتورعوا عن القتل وسفك الدم » · قال الوالى : « لست غافلا عنهم ·· أعرفهم جيدا » · قال الجوكندار : « ولماذا تركتهم حتى الآن حتى استفحل خطبهم ! » · قال الوالى : « أسمع يا سيدى النائب ·· كل شىء فى الديار المصرية لا يمكن أن يستمر بالقوة الذاتية الا أن يكون هناك من ينتفع بوجوده من المسؤولين ــ هل تحب صراحة أكثر ؟ ان فى خزانة البنود من نصب من نفسه أميرا حاكما وأقام دولة ، وحتى وقت قريب جدا كانت المرتبات الشهرية تصل الى عدد هائل من المسؤولين ·· ان حكومتنا يا سيدى كانت مجرد حكومة فى الظل تعمل لحماية الحكومة الحقيقية التى هى خزانة البنود » · أخذت أرمق الوالى بمنتهى القدرة على الاحتقار ، ذلك أننى أعلم علم اليقين أنه كان ولا يزال من بين أولئك الذين زعم أنهم يتلقون مرتبات شهرية من منهوبات أهل الخزانة · وقال الجوكندار : « ما يهمنى الآن هل أنت مستعد لها ؟ » · قال الوالى : « بكل قوة ·· أعرف من قديم أنكم ضدهم ، فما أن علمت باستقراركم نائبا للسلطنة حتى اتخذت أهبتى للدخول فى صراع مع الخزانة ·· وأنا لها » · قال الجوكندار : « على خيرة الله ·· لابد أن تهدم كل ما فيها من خمور وتشرد سكانها تشريدا » · قال الوالى : « اطمئن ·· سوف تسمع ما يسرك » · قال الجوكندار : « اذن فاتكل على الله » · نهض الوالى قائلا فيما ينظر الى : « اسمح لى بالسيد الطرشجى الحلوجى لأستدل منه على بعض المعلومات » · أشار الجوكندار نحوى قائلا : « قم مع الوالى شف ماذا يريد » ·· فنهضت وانحزت الى الوالى الذى سلم فى انحناء وخرج وخرجت خلفه · تجاوزنا دار النيابة وهو صامت مقطب الجبين شاحب الوجه من فرط الحرج · أخذت أبحث لحرجه عن سبب واضح فرأيت

ميدان القلعة حافلا بأمراء الخزانة وموشوميها • وفجأة تقدم منا أحد أمراء الخزانة بوجه باش واتخذ طريقه مباشرة نحو الوالى فالقى بنفسه بين أحضانه في شوق وهو يردد أهلا وسهلا كيف الحال ، مما يدل على أن ثمة صداقة بين الاثنين من قديم ، تأملت هذا المشهد ولاحظت بمتعة عظيمة معاناة الوالى وهو يحاول نفى صلته بأمير الخزانة والادعاء بأنه لا يعرفه وكان الأمير يتكلم ويفعل كل شيء بتلقائية ويذكر للوالى أنه ذهب للسؤال عنه مرة فى المكتب ومرات فى المنزل ومرات فى كذ ـ وذكر أماكن أخرى لم يفصح عنها بغير الرمز ـ كل ذلك والوالى يحاول شد جلده وجهه كالطبلة ويحاول خنق الابتسام على شفتيه فيما يقول بنبرة مرتعشة للأمير : « مين حضرتك •• حضرتك تعرفنى قبل كده ؟! » • وهنا رشقه أمير الخزانة بنظرة شرسة كاد الوالى يقع لها من طوله • وكرر الوالى فى صفاقه واضحة: « لمؤاخذة مش واخد بالى منك » ، ثم تركه وانصرف ، ويبدو أنه فوجيء بوجودى وبأننى لحظت هربه فشخط فى دون سبب : « بلاوى أيه دى ! » فقلت له بسخرية واضحة : « حد عارف ايه البلاوى دى ؟ » فصرخ فى : « اتكلم كويس » ، فقلت له صائحا : « اسمع •• أنا مستشار السلطان الصحفى •• فاهم يعنى أيه ؟ • ثم أنك ما لكش عندى استشارات • مع السلامة » واستدرت عائدا فى احتجاج وشعرت أنه استراح لانصرافى • فحولت طريقى وتسللت الى ميدان بين القصرين فصعدت سطح أحد القصور التى لم تعد زاهرة وظللت واقفا فوقه حتى الصباح لأرى أطنانا من الخمور يهرقها أهل الخزانة فى الشوارع وأرى أغرب نوع من أنواع أسلحة المقاومة ، ذلك ان الدنيا فجاة قد أمطرت ناسا من كل لون وسن يخوضون فى أنهر الخمر ، ورأيتهم يجتازون الطريق ويوسعون نهرا يمر منه عشرات

من الجنود المسلحين بالسيوف والخناجر والفؤوس ،وفى الجانب المقابل وقف جسر من الدهماء ينتمى الى الخزانة ويقذف مقذوفات رمادية اللون ترتعش وتنتفض فما أن تستقر على وجه الجندى حتى ينتفض مذعورا فيقع أو يرتبك فيفقد فى الحال سلاحه ، ولم يضع وقت طويل حتى تأكدت أن المقذوفات هى فئران حية عجبت كيف تم جمعها بهذه الكميــات الهائلة وكيف احتفظوا بها فى جحورهم وجيوبهم وزنابيلهم الخفية ٠

الفجر الذى لبس عباءة الله

كان يوما مشهودا بحق ، خلائق تضرب فى بعضها مستخدمة أشد أنواع القسوة والخسة بدرجة يستحيل تفسيرها على الحقيقة لابد أن تحار وأنت فى موقفى فوق السطح تنظر من عل : من فى هؤلاء عدو من ؟ ان الجميع يرتدون ثيابا متجانسة فيما عدا الجند بملابسهم المميزة ، أهل خزانة البنود يتقلدون الزى المصرى وطائفة كبيرة من أهل الديار المصرية أصبحت تتقلد الزى الخزانى الذين جاؤوا به معهم فقلدهم الأثرياء ثم اقتدى بالأثرياء أبناء أنصاف الأثرياء ثم اقتدى بهؤلاء أبناء يتطلعون الى الثراء ، كرنفال من الملابس المصريـة الهندية الروميـة الفارسية العربية الأندلسية لا حدود لما يثيره فى النفس من بهجة ! تمتلىء بأجساد وركبتها الشياطين تتقابل بالنبـابيت والسيوف والسـكاكين والدبش والفئران والقطط المشتعلة بالنار حتى منظرهم أيضا كان مثيرا للبهجة من احدى الزوايا أنها الجراثيم المستفحلة تأكل بعضها وغدا تأكل نفسها . أطرف ما فى الأمر أن يكون للزعر والحرافيش حماس كأنهم أطراف معنية كان لها أصالة فى الموضوع تتحدث بها عن نفسها ! . نظرت ورائى فوجدت السطح يمتلىء بالمتفرجين مثلى لا أعرف أن كانوا من أهل البيت أم من أهل الحى أم من المارة لكن أحدا لا يسأل أحدا عن هذه المسألة . قال أزعر

يرتدى زى التجار الكبار : « لماذا يهاجمون الناس فى دورهم ؟ ماذا يريدون منهم ؟ » ـ وقالها بلهجة ذات معنى • فرد حرفوش لا يرتدى أى زى سوى زى الحكمــة : « قل لكليهما لماذا يهاجموننا • ماذا يريدون منــا ! » • وصرخت امرأة بجوارنا ولطمت خديها مولولة : « يا خرابى يا خرابى » •• فأمعنا النظر فوجدنا نوافير الدماء تندفع لتصبغ الشبابيك والمشربيات المجاورة كلها • وثمة صوت آمر فى ثقة وقوة : « اهدموا الخزانة يقول لكم نائب السلطنة •• اهدموها •• معنا أيها الناس أيها المسلمون يا من تبغون شرع الاسلام اهدموا موطن الخمر فوق صانعيها من الفسقة والفجرة •• ان الحاج آل ملك الجوكندار يبشركم بهذا النبأ : من قتل واحدا منهم أو قبض عليه بخمرة يقبض مكافأة كبيرة » • عرفت أنه صوت المنادى الذى يحمل الكثير من نبرة السلطان • ثم أندفعت خلفه أصوات عديدة تردد نفس الكلام بصيغ متعددة فعرفت أنها أصوات العامة والعلماء والتجار ورؤساء الجند وأرباب الخلع • ونظرت فرأيت رجالا يخرجون من الخزانة يحملون جثثا عديدة مجندلة أو مكسورة ، ويحملون براميل من الخمر يدلقونها فى الشوارع حتى غدت شوارع المنطقة أبحرا صغيرة عميقة من الخمر • ورغم أنها اختلطت بالتراب بالدماء بروث الأقدام الا أن كثيرا من المتلصصين صبيانا وشبانا وشيوخا كانوا يحضرون بالأوانى المنزلية يملؤونها من أبحر الخمر •• حتى هذا الغثاء له من يشربه ويجد فيه المتعة ! ••

ثم أن جموعا هائلة وفدت تحمل الفؤوس والكريكات والآلات الحادة اتخذت طريقها الى الخزانة مباشرة وأخذت تعمل فيها تقويضا وتهديما ، وعرفت أن مرئيات كثيرة قد حدثت من وراء الخزانة فى الشوارع الخلفية غير المتاح رؤيتها لى • نزلت أجرى ، وكان مظهرى كمملوك سلطانى واضح للعيان يثير حولى نظرات الريبة الممزوجة بالتقدير والممالاة • كأننا فى قاهرة القرن الخامس عشر الهجرى حيث تتحول الشوارع الى أبحر تسبح فيها الجراثيم الانسانية بفضل قليل من المطــر أو انفجار ماسورة من مواسير المجارى كانت أبحــر الخمر تمنع الخــلائق من السير ، ومع ذلك يبتسم

الحرافيش بمختلف أزيائهم وهم يشمرون ثيابهم ويفعلون حركات يعجز عن فعلها البهلونات لكي يخترعوا لأنفسهم طرقا تجنبهم البلل والأوحال ، برغم ذلك يلقون النكات الحارقة يسخرون بها من أنفسهم ومن قدرهم ومن كل شيء في الوجود ! .. قال أحدهم أن الأرض قد سكرت من أبحر الخمر .. وقال آخر أنها لم تعد تحس بوقع خطى الأعداء .. وقال ثالث أن ساعة الحظ سوف تطول بها الى فجر بعيد يجيء ولا يجيء .. فقال رابع أنه ـ الفجر ـ وقد جاء منذ شرعنا في هدم خزانة البنود وطرد الخمور منها . وقال خامس أن كلام صاحبه صحيح وأننا لا نرى الفجر الذى رصدته أجهزة الحكومة .. فقال سادس أننا لا نرى الفجر لأنه يلبس زى الليل البهيم .. فقال سابع من آخر الشارع : الليل بهيم هو الآخر ؟ ظننت أننا وحدنا ننتمى الى قطيع البهائم .. فقال واحد تمكن من صعود ربوة : بهيم يعنى من فرط سواده صار مليئا بالأسرار المبهمة .. فرد عليه آخر من شباك : أفهمت اذن يا بهيم ؟ .. وهكذا تضيع المأساة وتفتت فى القلوب المصرية فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ..

اشم رائحة المكان وأعرفه وأن تغير شكله ، ألست مصريا ؟ ألست دون شعوب الأرض قاطبة يمكن تسميتى بحيوان جغرافى ؟ أنا المصرى أعلى درجة فى المواطنة وليس فى الأرض من يحس بالمواطنة مثلى . أنا مواطن ككلب ، فاذا كان الكلب سجين المكان لأنه لم يتمكن ـ كجنس ـ من هدم الفاصل الوهمى فى ذهنه بين المكان والزمان فصار تبعا لذلك سجين زمن بعينه فأننى وأبناء شلبى نتميز بقدرتنا العظيمة على تقديس المكان وتمثيله أى صنع تمثال له ، وهذا التمثال مصنوع من مادة الزمن ، والزمن مكون من عناصر كثيرة على رأسها البشر أشم الآن رائحة « أم الغلام » ـ أى المسجد الذى يضم ضريح أم الغلام خلف مسجد الحسنين مباشرة ، أنه زمن بقدر ما هو مكان ، ورائحته فى أنفى مجسلنة فى مرورنا حوله وأمامه فى قاهرة القرن الخامس عشر الهجرى ، وكنت لحظت ذاك قد بدأت أخطو فوق هديم تخلف من خزانة البنود فعرفت أن مسجد أم

الغلام قد بنى فوق هذه البقعة بعد ذلك . العجيب أننى شممت أيضا رائحة أزمنة أخرى لم أعشها ولم أرها ولم أسمع عنها من قبل ، وقديما قال الحكماء الشعبيون : ما هو المكان الذى تحس أن له تاريخا ؟ قالوا هو المكان الذى ان جلست فيه وقمت عنه أحسست أنك محتاج للرجوع اليه ثانية وثالثة ورابعة ! .

عند كيمان الدراسة الواضحة عن قرب رأيت مجموعة تلتف حول بعضها ويلتف حولهم جميعا لفيف من العسكر المسلحين بالأسلحة الثقيلة فعرفت أن هؤلاء هم فريق نفد بجلده من خزانة البنود قبل تهديمها .. خطفت الطريق اليهم ، انطلق صفيرهم وجعيرهم بشكل هز كيانى وأرعدنى خاصة أنهم كانوا يشيرون إلى واذا بهم يبرطمون بأقوال معناها - كما فهمت - أننى من بينهم وأننى يجب أن أنضم اليهم اذا أردت أن أحتفظ بحقى فى البقاء فى القاهرة ! تأملنى العسكر بحذر وارتياب وتمهلوا قليلا قبل أن يظهروا عدم الممانعة فى انضمامى الى أهلى وعشيرتى ، فابتسمت لهم شاكرا وقلت لهم على استحياء اننى مملوك سـلطانى من مماليك السلطان أبى الفداء اسماعيل وأننى المستشار الصحفى للحاج آل ملك الجوكندار . فقالوا لى ما معنى المستشار الصحفى ؟ فقلت لهم يعنى أن يختار الحاج أو الشيخ أو الرأسمالى شخصا سبق له أن اشتغل بالصحافة لكى يصطحبه معه فى كل مكان استكمالا للأبهة . فبدا عليهم أنهم لم يفهموا شيئا من قولى وان كانوا قد ازدادوا تقديرا لشخصى ، ثم أننى أرسلت البصر بين الأسرى فسايت ركبتى من رعب غـامض مجهول اذ اكتشفت أن معظم الناجين من الموشومين وبعض الأمراء ، وقلت لابد أن خزعل قد كان أول الناجين ، لكن عينى لم تقع عليه ، فأمعنت النظر ، فرأيت ثمة من يقف فى المواجهة متخـذا سمت القيـادة بالنسبة لهؤلاء الأسرى ، كان التراب يعفر وجهه ووجوههم جميعا حتى غلظت ملامحهم وصاروا أناسا ليس من السهل اكتشاف ملامحهم الأصلية الا بالنسبة لى، استأذنت من العسكر فى لباقة وحسن أدب يليق بمملوك سلطانى محترم

ثم تقدمت بعض خطوات نحو الأسرى . فإذا بمن أخذ سمة القيادة يتقدم نحوى مسلما على فى نبرة ساخنة تحملنى مسئولية ما حدث لهم . قلت له : « هل نجا خزعل ؟ » . قال « نعم » . قلت : « أين هو اذن ؟ لماذا لم يقف مطرحك الآن للتحدث باسمكم ؟ » . قال : « انه يتحدث الآن فى مقام أعلى ! » . قلت : « ماذا تقصد ؟ » قال : « هو الآن يتحدث باسمنا مع آل ملك الجوكندار شخصيا ! قلت : « مشاء الله كيف يكون له ذلك ؟ » . قال : « هذا ما يحدث الآن » . ثم قال ليقطع دابر الشك من نفسى فى قدرة خزعل : « ان لم ينفع آل ملك الجوكندار ، فسوف ينفع السلطان ! » قلت : « كيف بحق الله ؟ » . قال : « يستطيع أميرنا خزعل أن يلتقى بالسلطان وبمن هو أجدع من السلطان ! » . وكانت النبرة عالية أكثر مما ينبغى ففهمت بفهلوة خزانية أصيلة أن هذا الشخص لا يخاطبنى بقدر ما يخاطب العسكر ليلقى الرعب فى قلوبهم ويجعلهم يترفقون بهم ، وتأكدت أن خزعل لا يزال يتاجر بهم يوهمهم أنه أقوى مما يتصورون . وقال دون تمهيد : « وأنت .. أين جهودك ؟ أم أنك صرت مملوكا سلطانيا وكبرت علينا .. على كل حال اذا لم تمد لنا يد المساعدة فأننا سننتزعك من الجنة ونلقى بك فى أحضان الجحيم مرة أخرى ! » . فابتسمت ساخرا لأدارى غضبى وارتعاش ساقى ، وكأننى ابن ناس هززت رأسى فى هدوء وشكرته على حسن أدبه ووعدته بأن أمد لهم يد المساعدة . والتفت الى العسكر واذا بى أرى طلائع نائب السلطنة حصان فلوه يحمل شخصا متغطرسا ، يتبعه حصانان فثلاثة فأربعة فمجموعة من الراجلين الفتوات ، ثم أخيرا ظهر موكب نائب السلطنة الحاج آل ملك الجوكندار . رأيت من اللائق أن أخف لاستقباله ، ففعلت ، فسلم على بأطراف أصابعه وقال : ماذا يفعل الطرشنجى الحلوجى هنا ؟ . فقلت : « مجرد استطلاع لشىء ربما يكون محل استشارة ذات لحظة » . قال : « أحسنت » . ثم وقف وراح ينظر الى الأسرى فى تشف واضح وشديد القسوة ، وكانت بقية الحاشية قد وصلت والتفت حوله تتبادل المشورة فى أمر هؤلاء الأسرى ماذا تصنع بهم ؟ . قال الجوكندار : « لقد نفذنا فيهم ما ينبغى ؟ .

أهدرنا خمرهم كما أهدرنا قوتهم ولم يعد منهم كما أرى سوى شرذمة لو كانت نارا فلن تحرق مطرحها .. لا بأس لا بأس .. ها أنذا قد فعلت كل ما أحلم به تجاه هؤلاء الفسقة الفجرة الكفرة .. وسوف أظل أبر بوعدى لكل من يجيئنى بواحد سكران أو يحمل خمرا : سأعطيه مكافأة لا يحلم بها » . وكان ذلك الذى يأخذ سمت القيادة بدلا من خزعل يقف فى ذلة مسرحية يهرب من نظراتى التى قالت له : أين خزعل اذن ؟ . وهنا ارتفع صوت من بين الحاشية يقول فى ضراعة : « وهؤلاء ياسيدى .. ماذا نفعل بهم ؟ أنهم أمانة فى عنقنا ! أليسوا غرباء ! أليس النبى عليه الصلاة والسلام قد أوصى بالغرباء ؟ ان الغريب فى بلادنا مكروم لأجل النبى فماذا يأمر سيدى نائب السلطنة فى أمر هؤلاء المساكين الذين لم يعد لهم دار ولا نافخ نار ؟ » . تورط الجوكندار برهة قفزت فيها نظرة ذلك الذى كان يأخذ سمت القيادة مركزا اياها فى عينى كأنما ليقول : « هو هوذا خزعل يتكلم .. أرأيت ؟ .. ان خزعل أقوى من أن يتواجد بشخصه فى مكان كهذا .. لكنه يتواجد كأحسن ما يكون ! » . وقلت لنفسى : « ان وافق الجوكندار على هذه النبرة ــ أى اذا سمح لهؤلاء الأسرى بالبقاء فى القاهرة ومعاملتهم معاملة المواطنين وهم فلول العدو يكون خزعل قد تواجد بالفعل » . وتأملت الجوكندار وهو يتلقى صوتا « خزعليا » من جميع الاتجاهات يهيب به أن يسامح وأن يعفوا وما أحلى العفو عند المقدرة ويا بخت من قدر وعفى والجنة تحت أقدام المتسامحين وهم خلاص تعلموا درسا لا ينسى . رفع الجوكندار رأسه بعد تفكير ثم قال : اسكنوهم بواد غير ذى رفاهية أو علاقات .. ابحثوا لهم عن حارة ضيقة فى حى القلعة ليكونوا تحت سمعنا وبصرنا نرقبهم ونوقفهم عند حدهم اذا هيأت لهم نفوسهم الدنيئة فعالا أخرى » . تقدم واحد من الحاشية لعله المسؤول عن الأحكام أو الأوقاف ، قال فى انفعال : « ليس لدينا متسع من الأماكن حتى نأوى فيه طائفة من حثالة القوم » . قال الجوكندار فى دبلوماسية حسدته عليها : « معك حق .. المفروض ألا نأوى مثل هؤلاء بين ظهرانينا من الأساس ولكن مولاى الناصر محمد بن قلاوون ، مولاى وأستاذى ، هو

الذى أباح لهم البقاء بين الديار • وان ضميرى ليؤذينى اذا خالفت رغبته بعد موته ، ولكننى التمس منه عذرا لى فيما فعلت ، حسن •• انتق منهم أحسنهم وأكثرهم حلما وأدبا وأخلاقا ، ما كان منهم أبن ناس خذه وما كان من الدهماء فألق به على كيمان الدراسة ! » : فصاح الرجل آمرا شخصا آخر كان خلفه » خذهم الى ذلك البيت الخرب بالقرب من المشهد النفيس •• اما أولاد الناس منهم فابحث لهم عن أحد بيوت القلعة » • ثم أن الجوكندار استدار فى الناس صائحا : « يا قوم •• من يريد منكم أن يحتكر قطعة من أرض هذه الخزانة فليفعل •• من يريد أن يختط دار أو طاحونا فالأرض له وعليه آن يفعل حتى دون الرجوع الينا » ••

وكان ثمة رجل قد برز من بين الحاشية وأشار الى الحاجب آن اتبعنى بهم • فتهيأ الحاجب وصاح بضع صيحات فى جنده لم افهمها بالضبط ولكننى وجدت العسكر قد اتخذوا مرسومة مخططة فى دقائق معدودة ، ثم يدفعون الأسرى أمامهم كالنعام • واذا بالجوكندار يصيح فى الحاجب : « انتظر » • فارتد الحاجب وتوقف السير دفعة واحدة وقال الحاجب : « خيرا ؟ » • قال الجوكندار وهو يشير الى باشمئناط : « خذ هذا معك » • نظرت الى الجوكندار فى غضب وصحت : « كيف يا أستاذ •• كيف ؟ » • قال الجوكندار : « ألست من أهل خزانة البنود ؟ » • كدت أبصق فى وجهه على هذه النذالة النادرة قلت به : « كيف يا سيدى وأنت تعلم أننى مستشار السلطان •• أنى فى الأصل مملوك بدرجة مستشار صحفى ؟ •• هل تهيننى أم تهين السلطان ؟ » • قال الجوكندار بصفاقة لا مثيل لها : « ما أعرفه أنك خزانى وكونك صرت مملوكا سلطانيا هذه مسألة لا تعنينى ولا أعترف بها ، أنك التحقت بخدمة السلطان بشكل ثانوى » • أخذت أصفق كفا على كف صائحا : « لله يازمرى ؟! لله يا زمرى لله يا زمرى ؟ » قال الجوكندار : « ماذا تقصد ب لله يا زمرى لله يازمرى ؟ » • قلت له : « لقد قدمت للسلطان أجل الخدمات •• قمت بالدعاية له دون أن يستحقها •• كتبت فيه رسائل مدح وتتويج وخلعت عليه من الأوصاف العلمية والفنية والتاريخية ما لا يستحق شيئا منه •• وفى آخر المواخر

اطلع من المولد بلا حمص ؟! قال الجوكندار : « هل طلب منك السلطان أن تفعل هذا أم قمت به متطوعا من تلقاء نفسك ؟ » : « تطوعت طبعا ولكن ·· ولكن ·· كان الثمن فى خلفيتى بالطبع · على الأقل أن تكون لى بعض الأبهة ·· أن أكون أحد مماليك السلطان مع ملاحظة اننى رجل مؤهل لذلك وقد أحرزت الدرجات والشهادات مؤخرا » · قال الجوكندار : « ثمنك أخذته يا حلو ·· لقد تمتعت ببعض الأبهة ·· وجمعت بعض أموال لا تستحقها من جهات تخاف السلطان وتغدق على اتباعه ·· ثم أنك على حس السلطان أحرزت ما تدعى أنك أحرزته ·· كفاك هذا وعد الى خزانتك فهى أولى بك وأنت أولى بها » · قلت صائحا من خوف : « فلنحتكم الى السلطان ·· هذه مسألة خطيرة ولا يجب أن تنفرد بالحكم فيها هكذا » · قال بصوت جهورى : لا أمر فى هذه المسألة سوى أمرى ·· لقد أخذت الوعد بتنفيذ كل أوامرى فيما يتعلق بالخزانة على وجه خاص ، وأنت أحد الأمور المتعلقة بالخزانة » · قلت : فلنحتكم الى السلطان مع ذلك ·· فأنا مصر » · قال « مصر ؟ ·· هاها ·· خذه يا حاجب بالقوة » · فما كدت أتهيأ للكلام حتى جذبنى الحاجب رغم أنفى وقذف بى فى القطيع بغلظة وقسوة ، فكان خازوقا مخيفا اندب فى أحشائى وصعد الى نافوخى ··

أخذت أسير بينهم كاسف البال مقهورا · ثم تذكرت أننى أملك ما لا يملكون املك الزمن الذى يعتبر النسبة لهم مستقبلا ، عشت فيه ودرجت · وقد ارتفع فى داخلى خاطر يهدىء من روعى قائلا أن شيئا لم يحدث وأن ثورة الجوكندار كان لم تكن لأنها اعتمدت على شىء سطحى ، فتخيل أن يقوم رجل بثورة ليخلص الديار من صانعى الخمر وآكلى لحم الخنزير وبعد اراقة الدماء يكتفى باعطاء الفسقة درسا حتى لا يكرروا صنع الخمر مرة أخرى ! وعلى هذا — قل لى — سوف يعود كل شىء الى ما كان عليه بعد وقت قليل · ولكن فيما نحن نجتاز مبنى القلعة ونشرف على المشهد النفيس كان جمعهم بالنسبة لى — وأنا داخله — يتفاءل شيئا فشيئا ويطغى عليه ضجيج هائل واصطدمت بناس يزجروننى فاعتذرت فاصطدمت

بآخرين فصاروا يدفعونني بغلظة فلما دخلت وتوقفت لاهثا بعد وقت قصير فتحت عيني فاذا بي على محطة أتوبيس في ميدان القلعة ، واذا بالأوتوبيس رقم ٧٢ الذي يأتي من ميدان التحرير الى البساتين يقبل نحوي • فأسرعت على عجل وتسلقته • وكانت ساعة يدي قد تجمدت عقاربها عند يوم الجمعة الثاني عشر من محرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة • فلما انضغطت في الزحام بعنف وأيقنت أنني سأهبط في البساتين وأمشي على قدمي كالعادة حتى أطراف المعادي حيث أسكن سألني أحدهم عن الساعة فنظرت فيها فوجدت أن الأرقام الأولى قد زحفت الى الداخل وحل محلها يوم الجمعة الخامس من صفر سنة خمسمائة بعد الألف من الهجرة •

تمت

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤٦٥ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4158 — 5

هذا هو الجزء الثانى من الأعمال الكاملة للروائى خيرى شلبى ، يضم معظم الروايات الخاصة بالقرية ، تلك التى ظهرت فيها القرية المصرية لأول مرة بصورة صادقة . فالكاتب فلاح ابن فلاح ، يفهم تفاصيل الحياة فى القرية بكل دقائقها ؛ وتحفل رواياته بزخم الحياة ورائحة الروث وعطر الزهور، مما دفع نجيب محفوظ إلى القول بأن خيرى شلبى صور القرية المصرية لأول مرة فى الأدب العربى بشكل مبهر وبديع . وهذه الروايات ليست عن القرية فحسب ، بل تعكس المدينة أيضا ، الإقليمية والعاصمة ، من وجهة نظر فلاح صافى الطوية سليم القلب بموروث حضارى عتيق عميق الجذور . وصراع هذا القروى مع هذه المدينة يعكس فنا فريدا متميزا يعطى هذا الكاتب الكبير مكانة فذة فى تاريخ الأدب العربى المعاصر . هذا ما أكده النقاد والمترجمون الذين نقلوا رواياته هذه إلى عديد من اللغات الحية ليس باعتبارها مصدرا لفهم الواقع المصري بل باعتبارها أعمالا أدبية ذات مستوى فنى خاص ، وإمكانية كبيرة ، تكشف عن صوت مستقل له عالمه الخاص ، ومفرداته الفنية الخاصة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٢٥ قرشا